



تَسْوِيرُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

﴿١٥﴾

بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

﴿١٩﴾

مِفْصَلُ تَفْسِيرَيْنِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَوْضُوعُهَا الْكُفَى

الْقُرْبَانِ الْإِتْبَاعِ وَالتَّذَكُّرِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّبَصُّرِ

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَّحِلِ لِلتَّارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيُحْطَرِ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَيَقِي مَنْ الْفَسَادَ وَالْأَنْفَاضَ لِإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُسْتَسَدَّةِ لِلْإِسْلَامِ مِنْ أَنْفَارِ الْإِلَهِيَّةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

تَفْسِيرُ وَبَصَائِرِ الْآيَاتِ (١٠-٥٣)

الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ لِلْحَلَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْكُبْرَى مَسِيرَةُ الْحَيَاتَيْنِ



مُصَدِّقَاتُ الْكِتَابِ
سُورَةُ الْأَعْرَافِ
الجزء الثاني



تَسْبُحُ السُّورَةُ الْقُرْآنِيَّةُ
﴿١٥﴾



بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ
﴿١٩﴾

مِفْصَلُ تَفْسِيرٍ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَوْضُوعُهَا الْكَلَامُ

الْقُرْآنُ بَيْنَ الْإِشْبَاعِ وَالتَّذَكُّرِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّبَصُّرِ

الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَّحِلِ التَّارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيُحْطَرُ الْمَلَأُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَبَقِيَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِنْفَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

تَفْسِيرُ وَبَصَائِرُ الْآيَاتِ (١٠-٥٣)

الْبَدَائِيَّةُ وَالنِّهَايَةُ لِلْحَلَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْكُبْرَى مِتْسَبَرَةُ الْحَيَاثِينَ

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل الحجري

كلية الشريعة / جامعة قطر

مِفْتَاحُ تَفْسِيرِ
سُورَةِ الْأَعْرَافِ
الجزء الثاني

عَبْدُ اللَّهِ مُقْبِلُ الْجَبَرِي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 816 ص

ISBN: 978-625-94820-0-2

الطبعة الأولى ١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ.د/ حازم بن سعيد حيدر السعيد

أستاذ بمعهد القراءات القرآنية وإعداد معلمي القرآن الكريم بمملكة البحرين
مدير مركز البحوث الرقمية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سابقاً

د. الخضر سالم بن حليس اليافعي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

المراجعون

الشيخ/ العزي سليمان د/ حمود ردمان

أ.د/ سعيد بن دحاج د/ إبراهيم الصلوي

د/ عامر الخميسي أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع
إصدارات مختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN - YAYIN - DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.®



TÜRKİYE
BASIM YAYIN
MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ حازم بن سعيد حيدر السعيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ مشروعَ موسوعة التفسير الموسومة بـ(بصائر المعرفة القرآنية)، من الأعمال التبصيرية في هدايات القرآن الكريم ومقاصده؛ إذ يظهر فيها الترابط بين عناوينها وعناوين الفصول المُدرّجة بصفة واضحة؛ فقد جُمعت بين النظر الفسيح المؤصّل والتراث الحديثي، والتفسير النقلي وتفسير الدّراية الاستنباطي، ورعاية ترتيب الآيات وفُق النّسق القرآني، وبناء نظرة تكاملية في آيات الموضوع الواحد في القرآن الكريم، مع تقسيم جيّد للمحاور يدلُّ على استيعابٍ لموضوعات السورة، وتوشيح ذلك بمشجّرات في مطلع الفقرة، وتقسيم الآيات إلى محور رئيس وتحليلها وفُق منهج مطرّد؛ ممّا يعزّز الهدف الذي أُلّف من أجله الكتاب، ويساعد على ذلك -أيضاً- العناوين الفرعية المنبئة عن ملخّص المعاني، واستخدام أسلوب السؤال والجواب في إثارة أسئلة تفهيمية حول ألفاظ وأساليب ومعاني الآيات؛ لشحن ذهن القارئ وفهمه.

وقدّم الكتاب إضافة نوعية في مجاله، تمثّل ذلك في تقسيم الآيات إلى محور رئيس وتحليلها وفُق منهج واضح شائق جذّاب، ووَضع بصائر قرآنية هي كالقواعد المستنبطة من الآيات ومفهومها، والعناية بالفروق اللغوية بين الألفاظ القرآنية وما قاربها في المعنى، وبيان وجه الافتراق والاتفاق بينها.

ومن أبرز ملامح التميّز والتّجديد في الكتاب الاهتمام بالدّلالة الاشتقاقية للمفردات ومعانيها المتعدّدة، والاعتمادُ على كتب السُّنة في إيضاح المفاهيم القرآنية وتجليتها، وربط

المفاهيم التاريخية في القرآن الكريم بما ورد عند أهل الكتاب موازنةً وتأصيلاً، والردُّ على بعض الأقوال والمظاهر التي لها صفة الذُّيوع والانتشار، والاهتمام بالمناسبات بين الآيات بصورة لطيفة بديعة، وتوشية بعض الفقرات بعيون الشعر الجاهلي، والإسلامي باتجاهاته الأدبية، والسلوكية والأخلاقية، وبأشعار شاعر البصائر.

وامتسَحَ أسلوبُ الكتابةِ بعرضٍ مُرضٍ ومناسبٍ للقراء المهتمين بالدراسات القرآنية واللغوية، وعامة الناس الذين لديهم اهتمام بفهم معاني القرآن الكريم. فهو من الأعمال القرآنية المعاصرة المباركة، أسأل العليَّ الكريم أن يُسبِّغَ عليها ثوبَ القبول والتبصير والانتشار، وأن ينفع بها شدة الهداية في أصقاع المعمورة.

والحمد لله رب العالمين

أ.د/ حازم بن سعيد حيدر السعيد

أستاذ بمعهد القراءات القرآنية وإعداد معلمي القرآن الكريم بمملكة البحرين
مدير مركز البحوث الرقمية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سابقاً

تقديم فضيلة الشيخ / العزي سليمان علي ملوك

الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فهذا المحور الأول من مفصل سورة الأعراف ملحمة كبرى بحق، فهو محكم النَّسج، تامُّ التَّناسق، منسجم الكلمات والمعاني، ظاهر الترابط، بين الصَّلَات بين أقسامه.

فيه كلُّ شيء واضح مع عبارات مركَّزة، لا أميل إلى اختصارها، ولو سألتني عن ذلك، فسأقول لك: الكتاب لا يزال فيه إمكانية لبسط ما هو موجز، خصوصاً حين يضرب شيخنا الأمثلة ولا يشرحها، وقليل منها ربما يرى غيري أنها تحتاج إلى شرح، وأنا لا أرى ذلك، بل أرى بقاء بعض النقاط في زاوية هادئة من الظل ضمن حيزٍ مختفٍ جزئياً، مما يجعل القارئ دائم الاشتياق، بسبب جاذبية بعض الغموض الجميل، مع وجود التحدي الهائل في ملاحقة تتابع الأفكار التي تزخر بها هذه السورة.

إن تتابع المحور وتفصيله يتناسق تمام التناسق مع تتابع الأحداث في سورة الأعراف.

وكما كانت سورة البقرة أكثر هدوءاً كانت محاورها كذلك مثلها هادئة، لكن سورة الأعراف التي تمر كالسهم في تاريخ البشرية لتصل الخواتيم بالفواتح في تتابع يبهر الأنفاس، يختلف شأنها كما يختلف شأن محاورها، ولا أدري كيف استطاع شيخنا مجازاة نسق السورة، فكان ربانياً بحق، يمضي في التفصيل بحديثه الزاخر المتدفق، كما يمضي نهر السورة الزاخر المتدفق، فيمضي صاعداً مع أمواج السورة كما ينبغي للربَّان الماهر، ولولا ذلك لانكسر الصاري وغرقت السفينة، بتتابع سريع يترك القارئ معه يعدو ويعدو، ليبقى متابعاً للشيخ في الفكرة نفسها، ولكنها فكرة تتلوها فكرة، وتتولد عن الفكرة الواحدة عدة أفكار، وهذا يجعل القارئ متشوّقاً دوماً إلى جديد، والأشياء الجديدة هنا كثيرة تأتي من كل الأبعاد

الممكنة التي يحتملها نظم الآية، واستغل شيخنا تعدد القراءات ليزيد من سعة الفضاء الذي تمنحه الكلمة القرآنية والجملة القرآنية والآية والسورة وفضاء الكتاب المبين براحته الممتدة إلى ما لا يبلغه إدراك البشر القاصر.

أنا ما شعرت بشيء هكذا من قبل!

السورة فيها سرعة، وشيخنا في المحور جاراها بشكل يدل على تشرب قلبه بها كما ينبغي أن يكون تشرب القلب لكلام الله ﷻ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ثم جاءت قراءتي سريعة أيضاً لشدة تشوقي إلى معرفة نهاية الحكمة والرواية التي عقدها شيخنا في ذهني بأول كلماته بداية المحور الأول، فكأنني حين انتهيت من القراءة، انتهيت من رحلة بحرية في سفينة مقتدرة، مع روعة الرحلة واقتدار السفينة ومهارة الرُّبَّان واستمتاع السندباد.

ماذا أقول عن تجربة الرحلة؟!

يبحر شيخنا بك إلى داخل السورة القرآنية، فيصعد بك إلى أعلى نقطة ممكنة لترى حدود السورة وتشاهد التسوير بعينيك، وفي روعة هذا التسوير تجتمع لك السورة في موضوعها الرئيس، والعجيب أن ذلك الموضوع الرئيس للسورة، لا تجده مكتوباً، فهو مثل مركز الدائرة هو أساس الدائرة ومنه رسمت الدائرة ولكنه غير ظاهر كتابة بادي الرؤية وبادي الرأي، الدائرة ظاهرة ومركزها غير ظاهر، وهكذا السورة ظاهرة، أما موضوع السورة الرئيس فهو غير ظاهر، لتحديد مركز الدائرة نحتاج إلى نظر وتدبر وإلى استنتاج واستنباط وإلى عمل لنستنج موضع المركز، وكذلك موضوع السورة الرئيس، نحتاج إلى كثرة التدبر والنظر وإلى أعمال لنستنبطه، فنعلم أنه المركز الذي تجتمع فيه محاورها، وحين يرتفع بك الشيخ للأعلى أكثر فأكثر، حينها ترى ذلك المركز، ويبدو لك بيتاً واضحاً جلياً، وإذا تبين لك ذلك المركز،

حينها يبحر بك شيخنا مقترباً بك إلى فضاء السورة الواسع، فتبدأ تلك النقطة تظهر على شكل مدينة، ثم يقربك أكثر فتتوسع لتراها أكبر وأوسع من قُطْرِكَ الذي أنت فيه، ثم تبدو أكبر من أكبر القارات، ثم يقربك أكثر لتبدو الكرة الأرضية وما فيها في غاية الصغر أمام هذا الاتساع الهائل الذي يفتحه الشيخ أمام ناظريك من هذه السورة، ثم أمام هذا الاتساع الهائل يرحم شيخنا ذهنك وقد عجز عن متابعة كل تلك الأكوان الواسعة والتي انبثقت من تسوير السورة، فمن تلك النقطة المركزة انبثقت هذه المجرة المترامية الأطراف، فيترقق بك الشيخ ويلج بك فضاء المحاور، ثم يطوف بك في أقسام المحاور، وداخل قسم من أقسام أحد المحاور، تظهر لك شمس الآي وأقمارها ونجومها بمختلف الأطياف وعلى كل الألوان، وهذا الذي تدركه العين البشرية والقلب البشري بقدر ما حباك الله ﷻ من قوة وطاقة.

ثم تتحرك السفينة العابرة بين الآيات داخل آية واحدة، فتزيد السفينة من سرعتها لتنتقل من رحاب الآية إلى رحاب الكلمة القرآنية الواحدة، فإذا هي عالم شاسع مترامي الأطراف، بل هي كون بديع رائع دَوَّار، كون متكامل بحد ذاته ينبض بالحياة.

وتتعجب كيف لكلمة كانت من بين كلام الناس كالجماد كاللبنة كالعود اليابس؟! كيف نفخت فيها الروح حين تكلم بها الرحمن سبحانه وتعالى؟! فإذا بالعود اليابس يهتز شجرة خضراء تضج بالحياة، وأنت متعجب من حياة الكلمة في رحاب الآية، تنبض فيك حياة لم تكن تشعر بها من قبل وإذا هي خاصية من خواص كلامه سبحانه وتعالى لا يمسه شيء إلا ازدهرت فيه الحياة ولو كان ميتاً، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فهو روح تمنح الحياة، وتأخذك المشاهد أخذاً شديداً بروعتها، فتريد أن تتخذ لك مقعداً ساكناً لتملاً عينيك، من رواء تلك المشاهد، وتشرب من ينبوع هنا ومن عينٍ هناك ومن أنهار زاخرة هنالك، ولكن الحركة سريعة، ولا يمكن أن تتابعها وأنت ساكن،

فتطوف في ملكوت الكلمات القرآنية كما سماها شيخنا، كلمة كلمة، ولكن المشاهد أمامك تتسع وتزداد اتساعاً، فإذا بالشيخ الرباني يلج بك إلى عالم حروف المعاني، ويريك مواقعها، ويكشف لك عن بصائرها، وصدق ربنا سبحانه، فقد قال في كتابه الكريم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۖ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۖ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٩].

ومما يتميز به التفسير أيضاً:

شمول تفسير البصائر للقراءات وبيانه ما وراء اختلاف القراءات من اتساع في المعاني، وكذلك ما تفيده كل قراءة بشكل مستقل، وما تفيده مع أخواتها من القراءات، والفروق في الدلالة بين القراءات.

وكذلك ما في التفسير من تتبع لشبهات الأعداء المتربصين بالبشرية، فقد كشف شيخنا الغطاء عن هؤلاء، وبين تهافت شبههم وسوء مقاصدهم ومدى خطرهم ووجوب الرد عليهم.

الخلاصة: لقد عدت للتو من تلك الرحلة العظيمة، وأنا عازم على أن أكون ضيفاً دائماً على الشيخ في كل رحلاته في رحاب الكتاب المبين.

فضيلة الشيخ

العزي سليمان علي ملوك



الخريطة الكلية لسورة الأعراف

الموضوع الكلي

الْقُرْآنُ يَنْبَغِي الشَّاعِ وَالْكَذِبُ وَالْإِنْدَارُ وَالْتَّصْبِيحُ

الْقُرْآنُ يَبْصُرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعَالِيَةِ لِلرَّحْلِ الْتَارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيُخَطِّطُ الْمَادَّ الْمُسْتَكْبَرِيَّةَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاتَمِيَّةِ، وَيَقِي مِنَ الْمَسَادِّ وَالْأَفْطَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُسْتَكْبَرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةَ وَالْإِلَهِيَّةَ

1	المقدمة:	القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة [الأعراف: ١-٩٠]
2	المحور الأول	البداية والنَّهْيَةُ لِلرَّحْلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْكَبْرَى فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاتِيْنِ [الأعراف: ١٠-٥٣]
3	المحور الثاني	المعالم العامَّة التي تعرَّف بالله عز وجل ، وتقتضي ضرورة اتباع المُتَزَلِّ من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]
4	المحور الثالث	أهمُّ العهود التَّارِيخِيَّةِ الْفَاصِلَةِ التي قادت الْإِنْسَانِيَّةَ قَبْلَ الْعَهْدِ الْإِسْرَائِيلِيَّ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ [الأعراف: ٥٩-٩٣]
5	المحور الرابع	السُّنَنُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْكُونِيَّةِ الْعَامَّةِ التي تحكم تَارِيخَ الذَّرِيَّةِ الْآدَمِيَّةِ أَمَامَ دَعَوَاتِ الْإِصْلَاحِ الْنَبَوِيَّةِ، وَخُطُوَاتِ الْقَدْرِ التي تتعامل مع حركة البشر [الأعراف: ٩٤-١٠٢]
6	المحور الخامس	العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٧١] وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:
	فصل [1]	ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله عز وجل، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].
	فصل [2]	عهد المواجهة ونهاية التَّارِيخِ الْفِرْعَوْنِيَّ [الأعراف: ١٢٧-١٣٧].
	فصل [3]	عهد التمكن الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١].
7	المحور السادس	العهد الْإِنْسَانِيَّ الْحَدِيثُ وَالْأَخِيرُ، وَيُظْهِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ آيَاتِ الْقُرْآنِ التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتيح فُهْمِ الْحَيَاةِ، وتقدِّم للبشرية دوافع الاعتدال [الأعراف: ١٧٢-١٩٨].
8	الخاتمة	آداب التَّعَامُلِ مع الكتاب الذي يحمي الْإِنْسَانِيَّةَ من الأخطار الظاهرة والخفِيَّةِ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموضوع الكلي لسورة الأعراف

الْقُرْبَىٰ بَيْنَ الْإِتْبَاعِ وَالْتَّكْبِيرِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّصْبِيرِ

الْقُرْآنُ يُصِرُّ بِالْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَرْحَلِ النَّارِخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبِخَطَرِ الْمَلَأِ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَبَقِيَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَنفَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمُوَسَّسَةِ لِلْإِنْتِخَالِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ

المحور الأول

البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين

[الأعراف: ١-٥٣]

مَفَصَّلَاتُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

عَبْدُ السَّامِ مُقْبِلُ الْمُحَمَّدِي

المحور الأول

البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين، ويتضمن الإنشاء بتفاصيل المعركة الأولى لها ضد أسوأ أعدائها [الأعراف: ١٠-٥٣]

1 المرحلة الزمنية الأولى

بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتّمكين الإلهي، وبروز العداوة الشّيطانية [الأعراف: 18-10].

2 المرحلة الزمنية الثانية

تجربة جديدة في التاريخ البشري تجربة آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة قبل النزول إلى الأرض [الأعراف: 25-19].

3 المرحلة الزمنية الثالثة

الحياة في الأرض، وأهمّ النداءات الإلهية لبني آدم عليه السلام، ليفهموا طبيعتها وجمالها، ولينتهبوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله [الأعراف: 36-26].

4 المرحلة الزمنية الرابعة

العودة الحتمية في المستقبل الأخروي القادم، حيث تعان الذرية الأدمية نتائج أعمالها في الحياة الدّنيا، وتنقسم إلى فريقين [الأعراف: 43-37].

5 المرحلة الزمنية الخامسة

مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، وحوارات التلذذ والشقاء [الأعراف: 51-44].

خاتمة المراحل الخمس

تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع القرآن الكريم [الأعراف: 53-52]

المحور الأول

البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين

ويتضمن الإنباء بتفاصيل معركتها الأولى ضدَّ أسوأ أعدائها [الأعراف: ١٠-٥٣]

فكرة المحور:

يبدأ هذا المحور من الآية العاشرة، وهي قوله تعالى جَدُّه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وينتهي بالآية الثالثة والخمسين عند قوله تعالى شأنه: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣] فما فكرة هذا المحور؟

الجواب: تكوّن هذا المحور من خمس مراحل يعيشها بنو آدم ﷺ، وقصّها الله تعالى علينا في تسلسل زمنيّ متتابع، وترتيب منطقيّ رائع، لخصّت أهمّ ما ينبغي أن يعرفه الإنسان عن بدايته ونهايته، ثم خُتم المحور بالوصية العظمى التي تعرّفنا بحقيقة هذه المراحل، وكيفية تحقيق الفلاح فيها:

فالمرحلة الزمنية الأولى: تتعلق ببداية التاريخ الإنسانيّ بالتّكريم والتّمكن الإلهيّ، وإعلان العداوة الشّيطانيّة، وامتدّت في الآيات [الأعراف: ١٠-١٨].

يرسم لك التّصوير القرآنيّ في هذه المرحلة ما قبل بداية التاريخ الإنسانيّ، حيث أوجد الله ﷻ الأرض أولاً، ثم هيّاها لتكون مكاناً لاستخلاف الإنسان، ثم خلق الإنسان، ومكّنه من التّحكّم بخيراتها، وجعلها كافية لمعايشهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ [الأعراف: ١٠].

ثم يذكر الله ﷻ بداية الانطلاقة الإنسانية الكبرى في الحياة بخلق آدم ﷺ، وإسجاد الملائكة له، واختيار إبليس لمعاداته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ

أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿[الأعراف: ١١]﴾، وهنا تجد التفاصيل الدقيقة حول هذه العداوة التي اختارها إبليس، وستجد في هذه المرحلة كيف يقرُّ إبليس أمام الله ﷻ بخُطَّةٍ دقيقة لإغواء أكثر بني آدم، ليمنعهم من أن يكونوا ضمن فئة الشاكركين؛ إذ يقول تعالى حاكياً قول إبليس: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

فهذه هي المرحلة الأولى التي بدأت بها الإنسانية، فما المرحلة الثانية؟

المرحلة الزمنية الثانية من هذا المحور تحدثنا عمّا بعد المرحلة الأولى في التاريخ الإنساني، حيث أخبرنا الله تعالى عن تجربة آدم وزوجه ﷺ في الجنة قبل النزول إلى الأرض، وفي هذه المرحلة ستصوّر لنا الآيات النجّاح الإِبِلِسِيّ الأول في اختراق البشرية بإغرائهم بترك ما أنزل إليهم من ربّهم ﷻ، ويعقب ذلك تحديد السبيل الوحيد للتحرّر من هذا الاختراق الشيطاني، وإهداره، وإسقاطه، وامتدّت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف: ١٩-٢٥].

١) يفصّل الله ﷻ لك في هذه المرحلة كيف امتنّ على آدم وزوجه ﷻ بقضاء تجربة أوليّة للحياة، واختار أن تكون في الجنة، حيث لا توجد مشقّة كما في الأرض، ومكّن إبليس من دخولها أيضاً لتكتمل التجربة التمهيدية للإنسانية قبل الهبوط إلى الأرض.

٢) وتصورّ لنا آيات السّورة كيف بدأ إبليس خطّته بمحاولة إغواء أبوي الإنسانية ليزين لهما أن يتخذه وليّاً مصدّقاً، وأن يتركا اتباع ما أنزل إليهما من ربّهما ﷻ من التّوجيهات، وختم حيّلته معهما بأن أقسم لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

٣) تصوّر لنا الآيات كيف حقّق إبليس أول اختراق للإنسانية، فكانت النتيجة مؤلمة، حيث ذهب عزّ السّتر عن أبوي الإنسانية، و﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

٤) فَهَزِمَ أَبُونَا ﷺ فِي أَوَّلِ مُوَاجَهَةِ مَعَ إِبْلِيسَ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمَا، وَاتَّخَذَ إِبْلِيسَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ، وَإِلَّا فَكَيْفَ صَدَّقَا كَلَامَهُ وَيَمِينَهُ؟! وَهَذِهِ الْغَفْلَةُ، وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ الْخَاطِئَةُ هِيَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ حَدَّثَنَا اللَّهُ ﷻ مِنْهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

٥) وَذَكَرَهُمَا اللَّهُ ﷻ بِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَهُمَا أَنْ يَتَّبِعَا مَا قَالَهُ لِهَما، وَأَلَّا يَتَّخِذَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، وَنَادَاهُما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ لَّكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

٦) وَتَصَوَّرَ لَنَا هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَبُونَا أَنْ يَسْتَدْرِكَ هَذِهِ الْهَزِيمَةَ الْكَبِيرَةَ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ، وَأَنْ يَقْلِبَ الْفَشْلَ نَجَاحًا بِإِعَادَةِ الصَّلَةِ الْمُمَيِّزَةِ بِاللَّهِ ﷻ، حَيْثُ ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

٧) وَهنا أَخْبَرَهُمَا اللَّهُ ﷻ بِاكْتِمَالِ تَجَرِبَةِ الْحَيَاةِ خَارِجِ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ آنَ الْأَوَانِ لِنَزُولِهِمَا مَعَ إِبْلِيسَ إِلَى الْأَرْضِ، حَيْثُ سَتَكُونُ حَيَاةُ الْإِبْتِحَارِ الْحَقِيقِيَّةِ ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

فهذه المرحلة الثانية في حياة الْإِنْسَانِيَّةِ: شَهِدْنَا فِيهَا انْتِكَاسَةَ الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا أَكَلَ مِنْ شَجَرَةِ نَهاهِ اللَّهُ ﷻ عَنْهَا، ثُمَّ عَوْدَتِهِ إِلَى الصَّلَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ، وَشَهِدْنَا فِيهَا هَبْوَهِ إِلَى الْأَرْضِ، فَمَاذَا كَانَتِ الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ؟

الجواب: لَمَّا انْتَهَتْ هَاتَانِ الْمَرْحَلَتَانِ مِنَ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ يَتَحَفَّنَا السِّيَاقُ بِانْتِقَالِ مَنْطَقِيٍّ رَائِعٍ إِلَى:

المرحلة الزمنية الثالثة في التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ: حَيْثُ حَدَّثَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَبْوَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَهَمَّ النَّدَاءَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِلذُّرِّيَّةِ الْآدَمِيَّةِ، فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ النَّدَاءَاتُ تَوْصِيَّاتٍ مُّحَدَّدَةً

ليفهموا طبيعة الحياة في الأرض وجمالها، ولينتبهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله، وامتدت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف: ٢٦-٣٦].

وهذه النداءات الإلهية عبارة عن أربعة نداءات نادى الله ﷻ فيها بني آدم، وتضمنت توصيات وقوانين في الحياة الإنسانية تُوصِل إلى تحقيق الفلاح، وتحمي من الوقوع في فخ إبليس:

فالنداء الأول: يتعلّق بلفظ النظر إلى جمال الحياة الإنسانية وسُمّوها:

حيث أنعم الله ﷻ علينا باللباسين: الحسّي والمعنوي.

فالحسّي: الذي يضمن السّموّ والرّقّيّ الإنسانيّ وستر العورات: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكْمُ﴾، وكذلك يضمن التّرفّة والتلذّذ بالأثاث: ﴿وَرِيْشًا﴾.

واللباس الحقيقي المعنوي الذي يتكفل ببناء الحياة النّفسيّة السّويّة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ

خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والنداء الثاني: يتعلّق بطبيعة المعركة مع إبليس:

(١) فهو حريص على أن يفتننا كما فتن أبونا ليدمر حياتنا في الأرض، ويخرجنا كما أخرجهما من الجنة: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

(٢) وهو يركّز على الفضيحة بإظهار السّوءات الحسيّة والمعنويّة: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

(٣) وأظهر الله ﷻ لنا أهمّ أسلحة إبليس وقبيله، وهو قدرتهم على العمل بخفاء دون تمكّننا من رؤيتهم بالأعين، فيقلّ حذرنا منهم: ﴿إِنَّهُ يَرَلُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

[الأعراف: ٢٧].

٤) ولذا يقع في فخ إبليس وولايته الذين لا يؤمنون بآيات الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

٥) وحذرنا الله ﷻ من أن الذين لا يؤمنون يحرسون على تطبيع حياتنا مع الفاحشة، ويكذبون، فيجعلونها عرفاً متوارثاً يجب التسليم به والتعايش معه، أو يزعمون أنها ممّا أمر الله ﷻ به تحقيقاً لأهداف إبليس: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

والنداء الثالث: دعوة إلى التمتع بالمباح من زينة الحياة الدنيا بالقسط، إذ:

١) أمر الله ﷻ بأن نأخذ الزينة في اللباس عندما نؤدي العبادات فضلاً عن العادات: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

٢) وبالتلذذ بالطعام والشراب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

٣) على أن نحذر من الإسراف في ذلك كله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٤) فلم يحرم الله ﷻ الزينة، بل امتنّ بها على الإنسانية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فالمحرمات محصورة معروفة.

والنداء الرابع: يتعلّق بالتعامل مع المنهج الذي اختاره الله تعالى للبشرية عقب نزولها إلى الأرض متمثلاً في الآيات التي ينزلها على الأنبياء ﷺ.

فهي مفتاح السعادة في المصير الآخروي: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

هكذا استوعبت هذه النداءات الأربعة كلَّ معالم الحياة على الأرض في زمن الحياة الدُّنيا، وبيَّنت للذُّرِّيَّةِ الأدميَّةِ كيف يستمتعون بحياتهم، وكيف يُعِدُّون أنفسهم للمصير الأخروي القادم.

فهذه هي المرحلة الثالثة من المراحل التي بيَّنها هذا المحور، فما المرحلة الرابعة؟
الجواب: في ترتيب منطقيّ تُبيِّنُ لنا بصائر السُّورَةِ المرحلة الرابعة من مراحل الحياة، وهي:
الانتقال من الدُّنيا إلى الآخرة: قَصَّ الله تعالى علينا فيها صُورًا مباشرة من المصير الأخرويِّ الأعظم، وامتدَّت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف: ٣٧-٤٣]:

- (١) يحدِّثنا الله ﷻ عن بقاء بني آدم في الدُّنيا إلى أن ينتهي كتابُ أجَلِهِم، وهناك سيأتي الموت: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].
- (٢) وهناك يَصْدُرُ الحُكْمُ الفاصل فيمن يستحقُّون النار: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].
- (٣) وتصور لنا الآيات مشاهدَ الأمم المجرمة الظَّالمة في النار يلعن بعضها بعضًا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].
- (٤) كما تصور لنا مستقرَّهم في النار، وقد أحاط بهم ألوان من عذابها: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] نعوذ بالله من حالهم ومصيرهم.
- (٥) وفي المقابل تصور لنا الآيات مصير المؤمنين العاملين وقد استقرُّوا في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٢]،
اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

٦) ثم تصوّر لنا الآيات "حمّد الاهتداء": إذ تظهر أهل الجنة وهم يحمدون الله ﷻ على الإيمان بالحقّ الذي جاءت به الرسل ﷺ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٧) ثم تصوّر لنا "وراثه النعيم": وتختتم هذه المرحلة بالإشادة الإلهيّة بهم: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

هنا يتم الانتقال إلى مرحلة زمنية جديدة في المحور إنها:

المرحلة الزمنية الخامسة: مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و عرض "حوارات التلذذ والشقاء"، وذلك في الآيات [الأعراف: ٤٤-٥١] لإبراز الفوز والخسران الحقيقيين ماثلين أمام الأنظار، ونجد فيها ثلاثة أنواع من الحوار:

١) تنقل لك هذه المرحلة مشهداً لحوار الانتصار التام الحاسم الخاتم: حيث يتلذذ أهل الجنة بتوجيه النداء لأهل النار، فيقولون: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

٢) ثم تصوّر لنا الآيات "مشهد شهادة أهل المعرفة": حيث ينبعث أصحاب الأعراف بين الدارين ليشهدوا للمؤمنين، ويوبّخوا الخاسرين: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

٣) ثم تصوّر لنا الآيات "مشهد الطلب المستحيل": وهنا تشاهد أصحاب النار يطلبون بعض قطرات من الماء من أهل الجنة، لكنه الطلب المستحيل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ

الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾
[الأعراف: ٥٠].

٤) ويظهر الله ﷻ لنا في ختام هذه الحوارات سرَّ الشقاء في هذه المرحلة: "النسيان المرعب": نسيان اللقاء الحتمي الأخير يؤدي إلى عدم اتباع القرآن، فيترتب عليه الشقاء، فوصف الله ﷻ هؤلاء الذين يستحقون الشقاء بقوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

فالنسيان: معناه التَّرك عن قصد وعدم المبالاة، ممَّا يؤدي إلى التَّناسي، حتى يصبح التَّرك عادة وطبيعة في الإنسان، وهذا لا يغتفر في أمور الدُّنيا اليسيرة، فكيف يغتفر في أهمِّ مطالب الحياة؟

وعندما تستعرض المراحل الخمس الزمنية السابقة تجدها قد استوعبت البداية والنهاية، فقد تتساءل بتعجب: ما الذي بقي في المحور حتى يحدثنا الله ﷻ عنه؟

الجواب: الذي بقي هو الفائدة العظمى لهذا الاستعراض للمراحل السابقة، إذ يُختم هذا المحور بصورة منطقية واضحة بتوصية لا فكَّاك لبني آدم من الأخذ بها والتزامها، إن أرادوا نجاح الدُّنيا وفلاح الآخرة، وهي:

التَّوصية التي تعرَّفنا بفهم مراحل الحياة الخمس، وكيفية الانتفاع بهذا الفهم، وتتركز في "الاتباع المفلح"، وترك "الاتباع المفتری"، وذلك في الآيتين [٥٢-٥٣].

ففي هاتين الآيتين يُذكر الله -جلَّ شأنه- العالم بقيمة اتِّباع الكتاب، فهو الذي يحمي من "النسيان المرعب": ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ

لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣].

وهكذا ترى أن المحور الأول اختتم بالتذكير بوحدة من أهم الحقائق التي تضمنتها المقدمة، وهي الاتباع المفلح، وعدم النسيان، فقد قال الله ﷻ في المقدمة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

هذا التوجيه يذكّرنا بالاتباع المفلح؛ إذ يجب أن نجري وراء ما تأمرنا به الآيات التي وصفها الله ﷻ في هذه الآية الختامية بالحق ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، وكذلك نهتنا آية المقدمة عن الاتباع المفترى بأن نجري وراء أولياء من دون الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وبين الله ﷻ في الآية الختامية أن هذا الاتباع لأولياء من دون الله ﷻ إنما هو اتباع افتراء: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

المناسبة والاتصال بين المحور وما قبله:

فإن قلت: ما المناسبة والاتصال بين هذا المحور والمقدمة التي جاءت قبله في أول السورة؟ الجواب: بدأ الله ﷻ السورة ببيان القيمة العظيمة للقرآن في الحياة الإنسانية، فذكر من خصائصه: النذارة والتذكير؛ ليكون الكتاب الوحيد الذي يجب أتباعه؛ من أجل أن يحمي البشرية من المخاطر الواقعة والمتوقعة، ولا يحسّ بهذه القيمة إلا الإنسان المتذكر المتفكر، وهو الأجدر بأن يدعى لاتباع ما أنزل الله ﷻ إليه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ولا تشعر العقول الغافلة والمستكبرة بهذه القيمة، ولذا تتبّع من دون الله أولياء، وتمارس الظلم في الحياة، فتأتيهم عواقب عاجلة في الدنيا، وعواقب آجلة في الآخرة، وحينها يعترفون: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

وهذا المحور هو الأول في السُّورَة تبدأ الآيات فيه بتفصيل التجربة البشريّة في التعاطي مع الكتاب المأمور بالتّباعه، وعرض مراحلها الزّمنيّة المتتابعة ابتداء من الزّمان الذي يسبق خلق الإنسان، فهو يكلّمنا عن الرّحلة الكبرى التي تسير فيها الإنسان، ويظهر الله ﷻ لك فيه بوضوح أن أعظم الأولياء المضادّين لاتباع ما أنزل الله ﷻ هو إبليس، وهو أشدّهم خطراً، ولاحظ كيف بدأ المقدّمة بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

فكأن السّامع يتساءل: من هم هؤلاء الأولياء الذين تنهانا يا ربّنا عن اتّباعهم؟ فذكر قائد هؤلاء الأولياء وهو إبليس، وهنا تدرك لماذا تخلّل هذا المحور قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

فالله ﷻ جعل الاتّصال واضحاً، والتّناسب رائعاً، فجاء المحور الأول ليذكر تفاصيل المقدّمة، ويخبر عن مسيرة الحياة الإنسان، إذ تكشف لك الرّؤية القرآنيّة الغيب عمّا قبل خلق الإنسان، حيث هيأ الله ﷻ لها بيئة الأرض، ثم عن خلقها، وتكريمها، وأول معاركها مع أسوأ أعدائها، وهو العدو الأكبر الذي تصرّ العقول الغافلة أو المستكبرة على عدم ذكر المعركة معه غفلة أو استكباراً... إنه إبليس.

مراحل المحور الأول تفصيلاً

انقسم هذا المحور إلى خمس مراحل زمنيّة، وقد سبق ذكرها مجملة في بداية هذا المحور، وأن الأوان لذكرها مفصّلة، مع ذكر ما تضمنتها من مشاهد، وقوانين، وبصائر:

المرحلة الزمنية الأولى



بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتمكين الإلهي، وبرزو العداوة الشيطانية [الأعراف 10-18]

التمكين الإلهي للإنسانية في الأرض قبل وجودها

مشهد
[1]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ [الأعراف: 10]

الشكر علامة الذِّكْرِ، ويريد الزيادة

مشهد
[2]

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]

مشهد خلق الإنسانية، وتكريمها بإسجاد أعظم المخلوقات المكرمة لأبينا آدم عليه السلام

مشهد
[3]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ [الأعراف: 11]

الاحكامه الإلهية العادلة لإبليس

مشهد
[4]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]

الحكم الإلهي العادل على إبليس

مشهد
[5]

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13]

إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم

مشهد
[6]

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ [الأعراف: 14، 15]

خطه إبليس الخطيرة المدمرة

مشهد
[7]

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنِي مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: 16، 17]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مُفَصَّلَاتُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

المرحلة الزمنية الأولى

بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتمكين الإلهي، وبروز العداوة الشيطانية

[الأعراف: ١٠-١٨]

آيات هذه المرحلة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٢ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: ١٠-١٨].

فكرة هذه المرحلة:

وقد تسأل: ما معالم هذه المرحلة التي يبدأ بها هذا المحور، ويُصَوِّرنا بها قوله تعالى ذكره:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾؟

الجواب: تكوَّنت هذه المرحلة من ثمانية مشاهد:

المشهد الأول: التمكين الإلهي للبشرية في الأرض قبل وجودها:

بدأ الله ﷻ هذا المحور بالبداية الحقيقية للبشرية، فأخبر العالمين عن سير الأحداث الغائبة عنهم، والتي لا يعرفها إلا عالم الغيب ﷻ، فبيَّن للبشرية أنه هيأ لها البيئة المناسبة، فیرسم لك التصوير القرآني في هذه المرحلة ما قبل بداية التاريخ الإنساني، إذ أوجد الله ﷻ الأرض أولاً، ثم هيأها لتكون مكاناً لاستخلاف الإنسان، ثم خلق الإنسان، ومكنه من التحكم



بخيراتها، وجعلها كافية لمعايشه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ [الأعراف: ١١].

يأتي المشهد الثاني لبيّن الله ﷻ لنا كيف يزيد هذا التمكن في حياتنا: يزيد التمكن بالشكر، فهو علامة الذكر، ويريد الزيادة:

التمكن الإلهي للإنسان في الأرض ليس لحاجة الله ﷻ، ولا ليعبث الإنسان كيفما يريد، بل ليعتاد الشكر الذي يجد به لذة العبودية، وبركة الموارد، وليجني عاقبته نماءً، وزيادة تمكين، فختم المشهد بهذا العتاب: ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١].

ثم يأتي المشهد الثالث بعد إعداد الأرض لتكون الإنسانيّة فيها مُمكنة، وهو مشهد خلق الإنسانيّة، وتكريمها، وظهور عدوها الأوّل:

يذكر الله ﷻ بعد ذلك بداية الانطلاقة الإنسانيّة الكبرى في الحياة بخلق آدم عليه السلام، وإسجاد الملائكة له، واختيار إبليس لمعاداته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّن السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢].

ثم يأتي المشهد الرابع ليوضح لنا السبب الحقيقي لعدم طاعة إبليس أمر ربّه ﷻ، ولعداوته للإنسانيّة، وهذا السبب هو الثلاثيّة القاتلة: منازعة الألوهيّة، والكبر، والحسد:

يُظهر إبليس المُسوِّغ الأساسي لعدم طاعته لله ﷻ، فيجعل نفسه نداً لربّه ﷻ: يختار الأوامر الإلهيّة المناسبة له فيطيعها، والأوامر غير المناسبة فيعصّيها: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فحقيقة قوله الأبعد: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كأنه يقول: أنا أعلمك يا رب.. وهذه هي النديّة، فقد جعل نفسه في مقام ربّه ﷻ. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.. هنا نتذكر أن الله تعالى نهى العالم أن يتخذوا من دون الله ﷻ أولياء في أول السورة، إذ قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا

مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ٣]، فكيف من جعل نفسه ولياً لنفسه بدلاً من أن يوالي ربه ﷻ؟!

ويتمثل الكبر في ادعاء الخيرية بمجرد مقارنة ساذجة بين النار والطين، فرغم أنه خير من آدم عليه السلام؛ لكونه خلق من نار، والنار في ظنه خير من الطين ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وهذا كبر إبليسي ممزوج بحسد ظاهر، لا يستطيع التواري خلف الكلمات الإبلسية هنا، ولا في مواضع أخرى قصّها الله ﷻ علينا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وأنت واجدٌ بعد في أثناء السورة عوداً لتقرير أن الكبر سبب للانصراف عن الحق الذي جاءت به آيات الكتاب، وتنكب سبيل الرشد، وتطلب سبيل الغواية والضلال، كما قال الله ﷻ: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

هنا يأتي المشهد الخامس ليوضح لنا الحكم الإلهي العادل على إبليس، وتعجب؛ إذ يأتي الحكم مقترناً بإيضاح السبب الحقيقي للحكم، وهو: التَّكَبُّرُ، أي: أنه عظم نفسه، وكبرها حتى جعل نفسه في مقام ربه، والتَّكَبُّرُ يعني عدم التَّذَكُّرِ، ويؤسّس للدُّرْبِ الشَّهَوَاتِ المستمرِّ: يخبرنا الله ﷻ بأن السبب الحقيقي لعدم طاعة إبليس هو التَّكَبُّرُ، وهنا يرتبط هذا القسم من المحور بالمقدمة إذ قال الله ﷻ هناك: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، والتَّكَبُّرُ يمنع من التَّذَكُّرِ، حيث ينفخ المخلوق في نفسه ليظهرها في غير حجمها، فتكون النتيجة أن يخرج من المحل الأعلى، ويصبح من الصَّاغرين، وذلك عكس ما أراد عندما تكبر: ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، ولكأن المتكبر يعامل

بنقيض قصده، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فقد أخبرنا النبي ﷺ عن حالهم بقوله: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ»^(١).

هنا يقول في هذه المعاني الدكتور/ عامر الخميسي - وفقه الله -:

يَهْوِي بِهِ الْعَبْدُ لِأَذْنَى قَعْرِ	مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ ذَنْبُ الْكِبَرِ
وَقَدْ غَدَا مُشَابِهًا إِبْلِيسَا	يَزْهُو يَقُولُ جِئْتُكُمْ قَدِيسَا
حَتَّى يَصِيرَ فِي الْمَحَلِّ الْأَسْفَلِ	بِالْكِبَرِ هَذَا الْعَبْدُ يَهْوِي مِنْ عَلِ
أَنَّ جَزَاءَ الْكِبَرِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ	وَقَدْ أَتَى الْحَدِيثُ مِنْ خَيْرِ الرُّسُلِ
يَطْوُهُ الْعِبَادُ مِثْلَ الذَّرِّ	فَكُلُّ مُرْتَدٍّ ثِيَابَ الْكِبَرِ
هُبُوطَ مَعْنَى ثُمَّ حَسًّا أُسْقِطَا	وَانْظُرْ إِلَى إِبْلِيسَ كَيْفَ أَهْطَا
حَتَّى هَوَى فِي دَرَكِ الْوَضِيعَةِ	مِنْ عَالِي الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ
بِالْكِبَرِ أَضْحَى كَافِرًا ذَمِيمَا	وَكَانَ فِي إِيْمَانِهِ عَظِيمَا
لِيَأْسِهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يَهْمِي	لَبَسَهُ اللَّهُ بِهَذَا الْأَسْمِ

بصيرة: التَّكَبُّرُ هو السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لِعَدَمِ طَاعَةِ إِبْلِيسَ، وَالتَّكَبُّرُ يَمْنَعُ مِنَ التَّذَكُّرِ، وَيؤَسِّسُ لِدَرْبِ الشَّهَوَاتِ الْمُسْتَمِرِّ.

(١) أحمد (٦٦٧٧)، وحسن أحمد شاکر والأرناؤوط إسناده في تحقيق المُسْنَد، وكذا الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠)، وفي صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

ثم يأتي المشهد السادس ليصوّر لنا إبليس وهو يبحث عن سبيل ليجعل حقه على آدم عليه السلام شيئاً عملياً، فطلب الإنظار إلى يوم الدين، ويمكننا أن نعنون لهذا المشهد بأنه: إنظار لإكمال الاختبار:

عاد إبليس يتذلل لربه ﷻ، فطلب أن يؤخر في أجله إلى يوم البعث: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

فأخبره ربه - تعالى مجده - أنه من المنظرين في سابق علمه، فلا يحتاج إلى أن يطلب ذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، وهذا هو الجواب عن سؤال يطرحه بعضهم: لماذا استجاب الله ﷻ لإبليس؟ فالحقيقة أن الله تعالى أخبره أنه من المنظرين ابتداءً قبل أن يطلب ذلك، وجعل إنظاره إلى يوم الدين لإكمال الاختبار للبشرية، فقد اختبر هو فلم يفلح، والبشرية لا بد أن تختبر.

هنا يأتي المشهد السابع في موضعه ليخبرنا عن: قَسَمِ إبليسي مستمر، ثم يأتي المشهد الثامن ليحدثنا عن خُطَّةِ إبليسية لتدمير البشرية، ويمكن أن نعنون لها بـ: "خُطَّةُ محاصرة تمنع الشكر":

حيث أخبرنا الله ﷻ في هذين المشهدين أن إبليس أقسم قَسَمًا مستمرًا، ووضع خُطَّةً دقيقة لإغواء أكثر بني آدم ليمنعهم من أن يكونوا ضمن فئة الشاكرين، إذ قال مُقسماً ذاكراً لام القسم:

﴿قَالَ فِيمَا أُعْطِيتِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فبدأ خطته بمغالطة إبليسية تتعلق بالقدر جعلها إبليس أساساً للشبهات، ومنها نشأت شبهات الإلحاد، فبعد المغالطة العنصرية الأولى التي قال فيها: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ

وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴿[الأعراف: ۱۲]﴾، أظهر إبليس مغالطة جديدة هي أساس كل المغالطات الإلحادية، فأخبر أن سبب عدم طاعته لله ﷻ هذه المغالطة القدرية، فزعم أن الذي أغواه هو الله ﷻ، وأن غوايته لم تكن من عند نفسه، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ۱۶].

وتغافل عن أن يتذكر أنه أثبت لنفسه حق الاختيار قبل قليل حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ۱۲]، فكلّمته هنا تدلّ على أنه يمكنه السجود، وعدم السجود، وهذا يعني أن له حرية الاختيار، فكيف يعزو إلحاده إلى ربّه ﷻ؟! ثم ذكر بقية عناصر خطّته.

هكذا استطعنا أن نفهم الفكرة الإجمالية التي تصوّرها لنا آيات هذه المرحلة، فتعال بنا إلى تفاصيل هذه المرحلة، وإلى البصائر العظيمة التي تمدّنا بها هذه الآيات:

البصائر التفصيلية لمشاهد هذه المرحلة الأولى (بداية تاريخ الإنسانية)

في هذه المرحلة الزمنية تصوّر لنا الآيات القرآنية المشاهد الثمانية الآتية:

المشهد الأول: التمكن الإلهي للإنسانية في الأرض قبل وجودها:

فقد بصرنا الله ﷻ بأنه خلق الأرض قبلنا ليتمكن لنا فيها، ويجعلها بيئة صالحة للعيش والبناء والإعمار، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ ۝١٠﴾. وقد تسأل: إلى أي شيء ينبئنا الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ ۝١٠﴾؟

الجواب: يلفتنا الله ﷻ في هذا المشهد إلى نعمتين كُليّتين أنعم بهما على الإنسانية تتعلّقان بالأرض، وينشق عنهما ما لا يحصى من النعم:

النعمة الأولى: التمكن في الأرض:

والتمكن يعني أن الله ﷻ جعل الإنسان ممكّن التصرف في الأرض وما عليها، وله المكانة التي لا يزاحمه فيها مخلوق:

بدأ الله ﷻ هذا المشهد بما سبق وجود البشرية، فأخبر العالمين عن سير الأحداث الغائبة عنهم، والتي لا يعرفها إلا عالم الغيب ﷻ، ومما لا يعرفون لأنه من عالم الغيب: أنه هيأ للإنسانية البيئة المناسبة لهم، ويرسم لك التصوير القرآني في هذه المرحلة: ما قبل بداية التاريخ الإنساني، إذ أوجد الله ﷻ الأرض أولاً، ثم هيأها لتكون مكاناً لاستخلاف الإنسان، ثم خلق الإنسان، ومكّنه من التّحكّم بخيراتهما، وجعلها كافية لمعايشهم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ [الأعراف: ١٠].

ولا يعني وجود إبليس وذريته وأوليائه، أن الإنسان لا يستطيع أن يتحكّم في الأرض، وكذلك لا يعني وجود الملائكة أنه لا يستطيع أن يتحكّم في الأرض، وكذلك لا يعني وجود المخلوقات الأخرى من الحيوانات والنباتات والمخلوقات المرئية وغير المرئية أن الإنسان لن يكون مُمكنًا في الأرض، بل هو ممكّن تمكينًا عظيمًا، ويبصّرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠].

وهنا ستسأل: فما معنى ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾؟

الجواب: هذه الكلمة تصوّر لك بقوة عظيمة قدرة الإنسان المدهشة على التّحكّم في خيرات الأرض، فهي مشتقة من:

(مَكَّنَ): والمَكَّنُ بالفتح والمَكِّن (كَكَبَفَ): بيض الصّبة والجرادة ونحوهما، ومَكَّنَتِ الصّبة فهي مَكُونٌ، وأمكنتُ فهي مُمكنٌ: إذا جمعتِ البيض في بطنها، ومن هنا قال ربنا ﷻ: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، أي: في مستقرٍّ وجَدَ فيه التّمكن الذي يأمن المخلوق فيه من الاختلال، ويكون له فيه المكانة الحافظة له على خير وجه، فالأكل متوفّر، والعيش رَغَدٌ، والحماية التي يوفرها جسد الأم قائمة، والمُكْنَتُ: أوكار الطّير ومقارُهُ، ويُقالُ مَكِنَاتٌ. والمَكَّانُ عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء ﴿مَكَانًا سُوءٍ﴾ [طه: ٥٨]، ويقال: مَكَّنْتُهُ ومَكَّنْتُ له فتمكّن، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]: أي: الذي جعل لي ربّي فيه من القوّة والمال خيرٌ مما عندكم، فقد مَكَّنني: أي جعل لي سلطانًا، وقدرة أتمكّن فيها من التّحكّم بالأماكن، فصار مكينًا، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]: أي: متمكّن ذي قَدْرٍ ومنزلة^(١).

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٤٣)، المفردات للراغب (ص: ٧٢٢، ٧٢٣)، تاج العروس (١٨٧/ ٣٦)، المعجم الاشتقاقي

فانظر إلى هذه الكلمة ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠]، فقد قَدَّمتْ لك تصويرًا دقيقًا لواقع الإنسان في الأرض، أي: جعلنا لكم المكانة التي منها يمكنكم أن تتحكموا بما حولكم من المكان، فهيأ الله ﷻ لكم الآلات والقوى والإمكانات التي تُمكنكم من التصرف بما حولكم، والسيطرة عليه.

ووردت كلمة (التمكين) ومشتقاتها في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعًا على الأقل، غلبت عليها الصيغة الفعلية، التي تجعل التمكين كأنه صيرورة ونتيجة، وليس مفهومًا صامتًا، بل فعلٌ نسبي متحول متغير، وفي تلك المواضع ينسب الله تعالى التمكين إلى ذاته العلية؛ فهو من يمكن للإنسان، وليس الإنسان من يمكن لذاته؛ فردًا كان أو جماعة.

فالتمكن هو أن يمتلك الإنسان صلاحيته في قيادة الشيء، وأخذ زمامه، والتمكن منه، الإمكان في المكان والتمكن منه، وهو تعبير عن قيادة الإنسان للمادة في الأرض ومركزيته فيها. فعندما تقول: مَكَّنَّاكَ من أن تفعل كذا كأنك تقول: أقدرتك على أن تفعله، ولكنك قد تتساءل: ما الفرق بين التمكن والإقدار؟ لماذا لم يقل الله ﷻ: ولقد أقدرناكم؟

الجواب: التمكن أتم من الإقدار عند أبي حيان رحمه الله؛ لأن الإقدار إعطاء القدرة خاصّة، والقادر على الشيء قد يتعذر عليه الفعل لعدم الآلة، أو لمانع خارجي، أما التمكن فيعني وجود القدرة، ووجود الإمكانية للفعل الذي تطلبه في المكان والزمان^(١).

وهنا ترى النعمة المعجزة التي تخطف الأنفاس، فالأرض خلقها الله -جلّ مجده- أعظم من خلق الإنسان حجمًا، وربما تعقيدًا، لكن الله ﷻ مَكَّنَ الإنسان منها، أي: جعله ممكنًا يتصرف في ظاهرها وباطنها كما يرغب، ويفعل فيها ما يريد، فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٤/٤٢٦).

الْأَرْضُ ﴿ أَي: جعلنا لكم فيها مكاناً تتمكنون من التصرف فيه حسب رغباتكم وتخطيطاتكم، فلماذا عبدتم ما سمّيتوه الطّبيعة ونسيتم من مكّنكم فيها؟

وأبرز حقيقة يقتضيها هذا التمكين هي «كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحيّة؛ وضخامة دوره المنوط به؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرّك فيها، ممّا يتناقض تماماً مع المذاهب الحسيّة الوضعيّة الماديّة التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثّر في الكون، حيث تُسند الأهميّة كلّها للمادّة وتأثيراتها الحتميّة. ومع مذهب النُشوء والارتقاء الذي يلحّقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل بخصائصه الإنسانيّة المتميّزة؛ أو مذهب التحليل النفسيّ الفرويديّ الذي يصوّره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه».

ويلفت نظرك - لا محالة - أن الله ﷻ قيّد هذا التمكين بقوله: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾، فلماذا هذا التقييد؟ وما علاقته بالمفسدين الذين يريدون تدمير الأرض؟

قبل أن نورد الجواب نشير إلى أنه ورد هذا التعبير بهذا القيد ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ في سياق الحديث عن التمكين في مواضع أخرى في القرآن الكريم، منها: ﴿ وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الفصل: ٦]، وفي الحديث عن ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٨٤]، وفي قصة يوسف: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٢١، ٥٦]، وهذا التقييد يحبوك عدداً من المعاني:

المعنى الأول: أن يُعمّم التمكين في الأرض دون استثناء، فقوله: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: كلّها، في البرّ، والبحر، والجوّ، فما منها من بقعةٍ إلّا وهي صالحةٌ لينتفع بها بنو آدم، سواء أكانت بريّة أم بحريّة، جبليّة أم سهليّة، غابيّة أم صحراويّة، ظاهرة أم باطنة، في سطحها أم سمائها،

ولكنكم ينبغي أن تستكشفوا كيف تحققون ذلك، ومما روي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ»^(١).

المعنى الثاني: ليبين أن التمكن الإنساني إنما هو في الأرض لا في غيرها من العوالم، فهم لا يقوون على غيرها، وهذا يعني أن يبذل بنو آدم جهدهم للإفادة من هذا التمكن الواسع في هذا الكوكب، وعندما يتطلعون للبحث في السماء، وفي الكواكب والمجرات فهم يتطلعون إلى أن يعلموا ما حولهم، لكن ذلك ينبغي أن يفيدهم في التمسك بأرضهم، وعدم إفسادها، ويجب أن يلجموا شهوات الأنانيين والجشعين وأصحاب العقائد المحرفة الذين يفسدون في الأرض، فإن المفسدين في الأرض صنفان:

الصنف الأول: الجشعون الذين يبحثون عن زيادة أرباحهم المليارية ولو على حساب بيئة الأرض، فيسببون التغير المناخي الذي نرى هذه الأيام كوارثه في الفيضانات، وتغير درجات الحرارة، والحرائق في أعنى الدول تقدماً مثل الصين وأوروبا والولايات المتحدة، ومن العجيب أن الأخبار الإعلامية التي تغطي هذا الإفساد تغطيه على استحياء، بل تكاد أن تغطيه بمعنى تستره ولا تنشره.

الصنف الثاني: أصحاب العقائد الفاسدة الذين يريدون إفساد الأرض لزعمهم أن اعتقاداتهم لا تتحقق إلا بذلك، مثل من يزعم أن منتظره لن يخرج إلا إذا زادوا نشر الدماء في الأرض، ومثل الذين يؤوِّجون لمعركة هرمجدون، وقد أَلَفَ الصُّهيو مسيحي (هال ليندسي) -أحد هؤلاء المجانين المهووسين- كتاباً خطيراً سماه: "كوكب الأرض الراحل الرائع"

(١) المعجم الأوسط، الطبراني، (٨٩٥)، شعب الإيمان، البيهقي، (١١٧٩)، وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٣٨): «رواه

أبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٥٠).

(Late Great Planet Earth) نشره عام ١٩٧٠م تنبأ فيه بحرب عالمية قصيرة ولكنها مدمرة تلقتي مع نبوءات معركة هَرَمَجْدُون التي تنتظرها المسيحية الصهيونية.

ومن اللافت للنظر أن الله ﷻ ذكر خطر الإفساد في الأرض في هذه السورة خاصة مرتين بالأحرف ذاتها: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وفي قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

كل هذا يجعلك تشعر بعظمة الإنعام الإلهي عندما قال الله ﷻ للإنسانية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

المعنى الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وعدٌ كريمٌ مبكرٌ من الله ﷻ للإنسان أن لا يقلق بشأن إقامته في الأرض، فكما منَّ عليه بنعمة الإيجاد من العدم، فقد تكفل له بنعمة الإمداد بالنعم، فالأرض قد أُعِدَّتْ له كما أُعِدَّ هو لها، وهذا يؤسِّس للنظرية الإسلامية بشأن علاقة الإنسان بالكون والعوالم حوله، فإنها علاقة صداقة ووثام، لا علاقة صراع وصدام.

وقد تساءل: فما الذي تُصَوِّرُهُ لَنَا (اللام) و (قد) و (نا) في قوله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾؟

الجواب: تصوّر لك تحبَّبَ الله ﷻ إليك لتستفيد حقاً من هذا التمكن الإلهي الواسع للإنسان في الأرض.

لقد أكَّدَ الله تعالى الخبر باللام التي تنبئك عن قَسَمٍ محذوف، والتقدير: والله أو وعزَّتنا لقد مكَّنَّاكم في الأرض، فهناك مؤكَّدٌ محذوف وهو القَسَم، وهناك اللام التي تشير إلى القَسَم المحذوف، ثم أكَّدَ لك هذا الخبر بـ(قَدْ) التي تدلُّ على التَّحْقِيق؛ لِيُعْظَمَ الله ﷻ للإنسانية النعمة بهذا التمكن، وليستبين لها أنه -تعالى شأنه- متفرِّدٌ بهذا الإنعام، فهذا الإنعام ليس مصدره الأصنام، ولا البشر، ولا الطبيعة، بل الله ﷻ، وليذكَّرَ الله ﷻ الغافلين الذين لا يرون هذه النعمة الكبرى للإنسان، ثم أضاف إلى القَسَم واللام و(قد) ضمير (نا) الدالَّ على

التَّعْظِيم، ولم يقل لقد مكنتكم، لِيُعْلَمَ الجنسَ البشريَّ أَنَّ كُلَّ حركةٍ يخطوها في استغلال خيرات الأرض ليست إلا أثرًا من آثار تمكين الله ﷻ لهم في الأرض.. تَصَوَّرِ المسألة! جعل الله ﷻ الأرض مسخرةً، ثم أودعها من العناصر والطَّاقات والخصائص بما يمكن من استغلال كُلِّ جزئية منها على نحو لا يجده الإنسان في غيرها.

و(نا) أيضًا تدلُّ على التَّعْظِيم الذي منع مخلوقاتٍ ربما تكون أقوى من الإنسان من أن تعترض سبيله وأفكاره في التَّحَكُّم بخيرات الأرض، فكان يمكن للحيوانات العظيمة الشرسة أن تمنع الإنسان بشراستها وتوالدها من التَّحَكُّم بهذه الخيرات. تَصَوَّرْ فقط أن الجراد المنتشر إذا غطَّى الحقول يومًا أو يومين دمرها، فكيف لو بقي في حياة الإنسان أبد الدهر؟

ولكن الله ﷻ لم يمكنها من ذلك بل مكَّن الإنسان. وتأمَّل! فالملائكة كان يمكنها أن تمنع الإنسان، ولكن الله ﷻ جعلها مدبَّرات لما يؤدِّي إلى إفادة الإنسان.

وكذلك تأمَّل! فالجنُّ والشياطين كان يمكن لها أن تمنع الإنسان، ولكن الله ﷻ لم يجعل لها ذلك، هنا تشعر كيف يمدُّك ضمير ﴿نا﴾ في قوله: ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ بالقدرة الإلهية العظيمة لتتَّحَكَّم في الأرض، وتسخرها لصالحك.

و(نا) كذلك تبثُّ الطُّمَأْنينة في روع الإنسان، أَنْ تَقَلَّبَ في أرض الله ﷻ، واستخرج بركاتها، وتمتَّع بخيراتها، ولا تخش شيئًا فأنت في كنف فاطرها وفاطرك (الله) ﷻ بعظمته، وقدرته وحياطته، وتمكينه إياك الذي لا يقدر أيُّ مخلوق سَلْبَكَ إِيَّاه.

وفي اجتماع الفعل والفاعل والمفعول في كلمة واحدة من لطائف التعبير القرآني ما يوحى بالقرب، والالتصاق، والسرعة دون فصل.

كانت هذه هي النعمة الكبرى الأولى في هذا المشهد.. فما النعمة الثانية؟

النعمة الثانية: أَنَّ الله ﷻ جعل الأرض متكفلةً بمعيشة الإنسان، فموارد المعيشة في الأرض لا يمكن أن تنفذ في الدنيا، ويبصّرنا الله ﷻ بذلك فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا﴾ [الأعراف: ١٠]

ستسأل: ما الفرق بين التمكن في الأرض، وجعل المعاش فيها؟ أليس التمكن يؤدي إلى أن يجعل الله ﷻ لنا فيها معاش؟

الجواب: التمكن يدل على قدرة الإنسان على التَّحَكُّم، والفعل الذي يظهره بمظهر المتحكّم، أمّا جعل المعاش فيعني أنك لا تحتاج في معيشتك إلى غير الأرض، فيمكن أن تكون ممكّنًا في جبل أو صحراء أو غابة، لكنك قد لا تجد فيها الطّعام ولا الشّراب، فلا تستطيع أن تعيش بها، والله ﷻ يطمئنك إلى أنّك لا تحتاج إلى غير الأرض، ويقول لك: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا﴾، وحتى تدرك ذلك فإنك ترى العلماء على سبيل المثال لم يتمكنوا من الإفادة من سطح القمر أو المريخ مع وصولهم إليهما، في حين هيّا الله ﷻ الأرض بجميع خيراتنا لتكون صالحة للتمكن والعيش عليها.

وهنا قد تساءل: ما القوّة البلاغيّة التي أظهرتها كلمة ﴿مَعْيِشًا﴾؟

الجواب: المعاش: جمع "معيشة"، وهي ما يعيش عليه الإنسان في حياته الجسديّة الماديّة من ضروراته، وحاجياته، وتحسينياته، مثل المطاعم، والمشارب، والمساكن، وغيرها، وما يُتوصّل به إلى ذلك.

وكلمة ﴿مَعْيِشًا﴾ على وزن "مفاعل" من قول القائل "عِشْتَ تعيش"، واحدها "مُعْشَلَة" "مُعِيشَة"، نقلت حركة الياء منها إلى "العين" في واحدها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا﴾: أي

وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ فِيهَا أَشْكَالًا مَتْنُوعَةً مِمَّا تَعِيشُونَ بِهِ عَيْشَةً كَرِيمَةً، فَيَدْخُلُ فِي الْمَعَاشِ وَجُوهُ الْمَنَافِعِ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ، وَتَرْجِعُ الْمَعَاشِ إِلَى قِسْمَيْنِ: **مِنْهَا:** مَا يَحْصُلُ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً، مِثْلُ: خَلْقِ الثَّمَارِ، وَغَيْرِهَا. **وَمِنْهَا:** مَا يَحْصُلُ بِالْإِكْتِسَابِ مِثْلُ الْمَعَاشِ التَّجَارِيَةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ، فَجَعَلَ اللَّهُ ﷻ الْأَرْضَ زَاخِرَةً بِالْخَيْرَاتِ وَالْمَوَارِدِ الَّتِي تَصْلَحُ بِهَا مَعِيشَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ مَطَاعِمٍ وَمَشَارِبٍ وَمَزَارِعٍ وَصَنَاعَاتٍ^(۱).

والتعبير بلفظ الجمع ﴿مَعِيشٌ﴾ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ فِي السِّيَاقِ نَفْسِهِ، سِيَاقُ تَهْيِئَةِ الْأَرْضِ وَجَعْلِهَا صَالِحَةً لِلْعَيْشِ، وَضَبْطُ مَوَازِينِ الْحَيَاةِ فِيهَا، وَبِالْلفظِ نَفْسِهِ الْمَذْكُورِ فِي الْأَعْرَافِ، قَالَ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝۱۹﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ ﴿[الحجر: ۱۹، ۲۰]﴾.

وَهُوَ إِيقَازُ فِي السُّورَتَيْنِ الْمَكِّيَّتَيْنِ لَذَهْنِ الْإِنْسَانِ السَّادِرِ فِي غَفَلَاتِ الْحَيَاةِ الْمَعْتَقَدَةِ عِبْثِيَّةِ النَّشْأَةِ، وَعَدَمِيَّةِ الْإِيجَادِ: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَرْحَامٌ تَدْفَعُ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ، وَمَا يَهْلِكُنَهَا إِلَّا الدَّهْرُ).

بصيرة: التعبير بلفظ الجمع (معاش) ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّتَيْنِ فِي سُورَتِي الْأَعْرَافِ وَالْحَجَرِ الْمَكِّيَّتَيْنِ، فِي سِيَاقِ تَهْيِئَةِ الْأَرْضِ وَجَعْلِهَا صَالِحَةً لِلْعَيْشِ، وَضَبْطُ مَوَازِينِ الْحَيَاةِ فِيهَا، وَهُوَ إِيقَازُ لَذَهْنِ الْإِنْسَانِ السَّادِرِ فِي غَفَلَاتِ الْحَيَاةِ الْمَعْتَقَدَةِ عِبْثِيَّةِ النَّشْأَةِ، وَعَدَمِيَّةِ الْإِيجَادِ.

(۱) ينظر: تفسير الرازي (۱۴/ ۲۰۴).

ولك أن تناقش هنا ما ناقشه محمد رشيد رضا رحمته الله في تركيب هذه الجملة وفق الرؤية المعجزة للبيان القرآني: فلماذا قَدَّم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ عَلَى المفعول به ﴿مَعِيشَ﴾ مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ يُقَدَّمُ الْمَفْعُولُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، كَأَن يَقُولَ: "وجعلنا معاش لكم فيها" ^(١)؟

الجواب: قَدَّم الله تعالى الجار والمجرور على المفعول به ليشير انتباهك إلى شِدَّة الاهتمام بك أيُّها الإنسان، فلو قال "وجعلنا معاش" فقط لقال الإنسان: لكنَّها ليست معاش للإنسان بل له ولغيره، وقد تكون معيشة الإنسان في غير الأرض، ولكنَّ الله تعالى أخبرك أَنَّ المعاش التي في الأرض هي لبني الإنسان، والإنسان هو المقصود الأول بأن يجد المعاش في هذه الأرض، وقد خَوَّلَه الله تعالى ليكون مالِكًا في الحياة، وهنا تشعر بالملِكِيَّة الفردِيَّة المتوازنة مع الملِكِيَّة العامَّة، حيث مَكَّن الله تعالى الإنسان ليكون مختارًا في الأرض، قادرًا على الانتفاع بما يملكه، فَقَدَّم كلمة ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنها الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ، وهي الْأَهَمُّ في الذِّكْر، فهي التي تصور مركز الإنسان العظيم في الأرض، فهو المستخلف فيها يتحكم بثرواتها، ويستمتع بخيراتها، ولكن ذلك يجب أن يكون وفق منهاج من استخلفه فيها لا وفق نزواته وأهوائه.

فهذا التقديم يرد على من ينظر إلى الإنسان نظرة دونية أو مساوية لمكونات الأرض، ومن هؤلاء الذين أسسوا حضارة العفن المادية الغربية المعاصرة سيجموند فرويد (ت: ١٩١٦م) الذي رأى أن (كوبرنيكوس وداروين) سدَّدا ضربات قاسية للصورة التي يفخر بها البشر بوصفهم سادة الكون، وأكمل دائرة هذه الصورة بتدمير الاعتقاد بأن البشر «مسيطرون على أنفسهم»، فقرر أن الغريزة هي المحرك الفعلي للإنسان.

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٢٩٠).

والجامع المشترك لهذه النظريات هو إزاحة الإنسان عن مركزيته في الأرض، وجعله مثل بقية الحيوانات والمواد المنشورة في الأرض، فالحديث المكثف عن حقوق البيئة، وحقوق الشواذ، وحقوق الحيوان إنما هو لإزاحة مركزية الإنسان، وجعله غير مميز عن هذه الأشياء^(١).

وَحَقَّقَ مَسْأَلَةَ تقديم الكلمات وتأخيرها الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ رحمته الله في "دَلَالِلِ الْإِعْجَازِ"^(٢)، فَهَهُنَا ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: ﴿لَكُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾، ﴿مَعِيشَ﴾، فَقَدَّمَ الكلمة التي تشير للإنسان ﴿لَكُمْ﴾، ثم أتبعها بالكلمة التي تبيِّن أين محلُّ هذه المعاشِ ﴿فِيهَا﴾ حتى لا تقول: الأرض لا تكفي، ثم أخبرك بنوع المَجْعُول لك في الأرض، وهو المعاش، وهكذا تشعر بالدَّقة التَّعبيريَّة المدهشة في القرآن، «وَلَا تَجِدُ هَذِهِ الدَّقَّةَ فِي تَقْدِيمِ مَا يَنْبَغِي وَتَأْخِيرِ مَا يَنْبَغِي مُطَرِّدَةً إِلَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى»، كما يقول محمد رشيد رضا رحمته الله^(٣).

وهنا قد تتساءل: ما الفرق بين ما ذكره الله تعالى من تسخير الأرض هنا، وما ذكره في سورة البقرة حين قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؟

الجواب: هناك تشابه كبير بين سورة الأعراف المكيَّة وسورة البقرة المدنيَّة في بيان تسلسل الأحداث، ولكن التشابه ليس تماثلًا تامًّا، بل يكمل بعضها بعضًا، ففي سورة البقرة ذكر الله تعالى أنه خلق لنا ما في الأرض جميعًا، ثم ذكر أنه جاعل في الأرض خليفة، وهنا ذكر لنا أنه

(١) لكي نفهم الارتباط بين ما قدمه الثلاثة (كوبر نيكوس ودارون وفرويد). ينظر: (كوبر نيكوس ودارون وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم)، للكاتب فيدل فاينرت، وهو مترجم ومُتَاح على الشبكة.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز (ص: ١٠٦).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٩٠).

مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعَايِشَ، ثُمَّ ذَكَرْنَا أَنَّهُ خَلَقْنَا، وَصَوَّرْنَا، وَأَسْجَدَ الْمَلَائِكَةَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ تَجِدُ أَنَّ السُّورَتَيْنِ يَكْمُلَانِ الصُّورَةَ الْكُلِّيَّةَ:

أَوَّلًا: فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فَأَخْبَرْنَا أَنَّهُ خَلَقَ لَنَا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَقَدْ تَقُولُ عِنْدَهَا: رَبِّمَا خَلَقَ لَنَا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، فَهَلْ هَذَا يَعْنِي أَنَّا مَتَمَكِّنُونَ فِيهَا؟

الجواب: لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ، فَأَنْتِ قَدْ تَعْطِي لِلْعَاجِزِ السَّيَّارَةِ، وَتَقُولُ هِيَ لَهُ، لَكِنْ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّهُ مَتَمَكِّنٌ مِنْهَا.

وَلِذَا جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ لِتَكْمِلَ الصُّورَةَ، فَبَيْنَ أَنَّهُ مَكَّنَّا فِي الْأَرْضِ لِنَفِيدَ فِعْلًا مِمَّا فِيهَا ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠]، فَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَكَ كُلُّ الْمَالِ فِي الْمَصْرِفِ، لَكِنَّكَ لَسْتَ مُمْكِنًا لِتَنْفِقَ شَيْئًا مِنْهُ، فَأَكْمَلْتَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ الصُّورَةَ وَزَادَتْ فَأَخْبَرْتَنَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لَنَا فِي الْأَرْضِ مَعَايِشَ تَنَاسَبُ الْحَيَاةَ الْكَرِيمَةَ الَّتِي تَسْعِدُ الْإِنْسَانِيَّةَ.

ثَانِيًا: فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ أَخْبَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنَّهُ سَيَخْلُقُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِيَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وَأَكْمَلْتَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ هَذَا الْإِخْبَارَ بِأَنَّهُ خَلَقَ هَذَا الْخَلِيفَةَ وَصَوَّرَهُ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

وَهَكَذَا تَرَى التَّعَاوُضَ فِي تَقْدِيمِ الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ، وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ هَذَا التَّكَامُلَ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِكَوْنِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ نَزَلَتْ مُتَأَخِّرَةً عَلَى سُورَةِ الْأَعْرَافِ، بَلْ جَاءَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الصُّوَرِ الْمَقْدَمَةِ كَأَنَّهَا هِيَ الْمَقْدَمَةُ فِي التَّرْتِيبِ كَمَا هُوَ تَرْتِيبُهَا فِي الْمَصْحَفِ، وَسُورَةُ الْأَعْرَافِ الْمَكِّيَّةُ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلُهَا جَاءَتْ الصُّوَرُ فِيهَا كَأَنَّهَا الْمُؤَخَّرَةُ فِي التَّرْتِيبِ كَمَا هُوَ تَرْتِيبُهَا فِي الْمَصْحَفِيِّ، وَلَوْ تَتَبَعْنَا هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ لَتَبَّحْنَا لَنَا مَا لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ عَظَمَتِهِ فِي التَّرْتِيبِ الْقُرْآنِيِّ الْمَجِيدِ.

ستقول: فما معنى هذه الكلمات التي ختمت بها الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؟

الجواب: هنا ترى المشهد الثاني في هذه المرحلة:

المشهد الثاني: الشكر علامة الذكر، وبريد الزيادة، وكلمة السرِّ في اتِّساع بركات الأرض لكلِّ البشريَّة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]:

فكأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾، فهذا ما أعطيتكموه من عندي، وأطلب منكم في المقابل شيئاً يسيراً هو أن تشكروا، فالتَّمَكُّنُ الإلهي للإنسان في الأرض ليس لحاجة الله تعالى، ولا ليعبث الإنسان كيفما يريد، بل ليعتاد الشكر الذي يجد به لذة العبوديَّة، وبركة الموارد.

وهنا ستقول: وما علاقة بركة الموارد بالشكر؟

الجواب: لأنَّ الشُّكْرَ بالنِّسبة للنَّعم قِيْدٌ للموجود، وصيْدٌ للمفقود^(١): قِيْدٌ يَثْبُت النَّعمة الحاضرة الموجودة، وصيْدٌ يجلب النَّعمة المستقبلية المنتظرة المفقودة.

بصيرة: الشُّكْرُ ظهور أثر النَّعمة الدُّنيويَّة، وبهاء النَّعمة الدِّينيَّة، والافتخار بالانتماء للدِّين الذي هو رحمةٌ للعالمين.

والشُّكْرُ يقتضي كَفَّ الطَّمَع الذي يسيطر على ذوي النُّفوس الأنانيَّة في الأرض. والشُّكْرُ^(٢) عند الخليل بن أحمد الفراهيدي ﷺ ثلاثة أركان: «عرفانُ الإحسان، ونشره، وحمْدُ مُولِيه»^(٣)، ويمكن أن نفصلها بصورة أوسع، فنقول:

(١) ينظر: عدة الصابرين (ص: ١٤٩).

(٢) ينظر: العين (٥/ ٢٩٢)، تهذيب اللغة (١٠/ ١٠)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٠٢)، مقاييس اللغة (٣/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٥).

(٣) العين (٥/ ٢٩٢).

الأول: عرفان الإحسان والرضا بالموجود مهما بدا أنه يسير؛ ولذا يقولون: فرس شكور، إذا كفاه لِسِمَنَهُ العلفُ القليل.

وينشدون قول الأعشى:

وَلَا بُدَّ مِنْ غَزْوَةٍ فِي الْمَصِيٍّ فِ رَهْبٍ تُكِلُّ الْوَقَاحَ الشُّكُورًا^(١)

والرضا بالموجود لا يعني ألا يستثمر الإنسان لطلب المزيد، بل يعني أن يكتفي بالحلال مستغنياً به عن الحرام.

والثاني: الانتفاع بالموجود، إذ تظهر البركة، وتكاثر الموارد بطريقة ذاتية، عند الانتفاع بها، والكفُّ عن الاعتداء على الآخرين، فإذا نزل القوم منزلاً وأصابَتْ أُنْعَامُهُمْ شَيْئاً مِنْ خُضْرَةٍ، فَدَرَّتْ لَبْناً، قيل: أَشْكَرْتُ، ودابة شكور، وَيَعْنُونَ أَنَّهَا امْتَلَأَتْ بِاللَّبَنِ مِنْ أَكْلِ يَسِيرٍ، فَالشُّكْرُ أَنْ تَظْهَرَ بَرَكَةُ الْبَاطِنِ عَلَى الظَّاهِرِ كَمَا يَشِيرُ لَهُ الْحَرَّالِيُّ^(٢).

فالمقصود أن الشُّكْرَ من بهائم الأنعام تنتفع بالموجود من الخضرة، فتُدِرُّ لبناً غزيراً، وكذلك ينبغي أن ينتفع الإنسان بالموارد الموجودة، لا أن يطمع في موارد غيره.

فالتناسب طرديٌّ بين الشُّكْرِ، وبين زيادة الموارد وتكاثرها، وعليه فإن الشُّكْرَ من أهمِّ روافد تنمية الموارد والمعاش اللّازمة لحياة الإنسان، ولذا نجد المحقق القرطبي رحمته الله يعلّق على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فيقول: «والآية نصٌّ في أنَّ

(١) ديوان الأعشى الكبير (ص: ٩٩)، وفيه (حَتَّ) بمعنى سريعة، بدلاً من (رَهْبٍ)، و(الوقاح): ذات الحافر الصُّلب، و(الشُّكُوراء) التي تقتنع بالأكل اليسير؛ لأنها تكون أسرع.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/٣٦٨). والحرالي هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي (ت: ٦٣٨هـ)، كثير من آرائه في التفسير مرصودة عند البقاعي (ت: ٨٨٥هـ). ينظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، (٤٧/٢٣).

الشُّكر سبب المزید»^(۱)، والشُّكر مَهْمَعٌ^(۲) سلیمانی سالكٌ تحقَّق به التَّحْقِيقُ، كما أخبر الله ﷻ عنه بقوله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ۴۰] فمن استكثر من الشُّكر زاده الله ﷻ خيراً من سابغ نواله.

الثالث: الشُّعُور بأن الموجد نعمة، والامتلاء من ذكر المنعم عليه.

والشُّكر ثلاثة أنواع:

- (۱) شكر القلب، وهو تصوُّر النعمة.
 - (۲) وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم.
 - (۳) وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة حتى لو لم يتمكن من أن يقابل النعمة بما يليق بها، كما قال الله ﷻ: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ۱۳].
- وقد جمعها الشَّاعِرُ في قوله:

وما كان شكري وافياً بنوالكم ولكنني حاولتُ في الجهدِ مذهباً
أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجَّباً^(۳)

فإن سألت: ما البصائر الكليَّة التي يبصِّرنا بها قول ربِّنا ﷻ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؟ لماذا قال هذه الكلمات، ولم يقل ما هو متوقَّع في الآية، فالمتوقَّع أنَّه لما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ أن يقول: لتشكروا أو لعلكم تشكرون، أو فاشكروا؟

الجواب: ابتداءً جاء اللفظ القرآني معبراً بـ (قلة الشكر) في أربعة مواضع في القرآن الكريم، كلها تدور في السياق نفسه؛ سياق إنشاء الإنسان وتركيبه، وإيجاده على الأرض، هذا أحدها،

(۱) تفسير القرطبي، (۹/ ۳۴۳).

(۲) أي: طريق.

(۳) معجم الفروق اللغوية، العسكري، (۱/ ۲۰۲).

وبقية الثلاثة تباعاً جاءت -أيضاً- في سياق إنشائه وتركيب أجهزة التلقي المعرفي فيه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] وهذا التذييل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هو عند الرازي رحمه الله^(١) تعبير عن وجود بعض الشكر، ولكن عظم الإنشاء، ودقائق التركيب يوجب على الإنسان دوام الشكر الباذخ على كمال هذا الخلق الممتن.

وقد أشار النبي ﷺ إلى شيء من التعبير عن مادة هذا الشكر بالصدقة عن كل مفصل مركَّب في الإنسان: «يصبح على كلِّ سُلَامَى من أحدكم صدقة»^(٢)، فإذا أصبح الإنسان فعليه أن يتصدق عن كلِّ عضو من أعضائه شكرًا لله تعالى على عظيم خلقه وتركيبه.

فجاء هذا التعبير ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ليختصر المطلوب، والتقدير: فاشكروا، قليلاً ما تشكرون، وليناسب هذا التعبير جوَّ السُّورَةِ، فجوَّ السُّورَةِ تذكيرٌ بجحود كثيرٍ من بني آدمٍ لِنِعَمِ رَبِّهِمْ ﷻ، واتباعهم لخُطَّةِ الشَّيْطَانِ في عدم الشُّكْرِ، إذ قال الشَّيْطَانُ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ولذا حوى قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ معنيين:

المعنى الأول: عندما تشكرون يكون شكركم قليلاً في نوعه وكميته، فقدَّم ﴿قَلِيلًا﴾ وهو صفة على الموصوف المحذوف الذي ارتبط بالفعل، والتقدير: «تشكرون شكرًا قليلاً»^(٣).

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٣١).

(٢) مسلم (٧٢٠).

(٣) «الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٤ / ٦١٨).

وهذا المعنى: إمّا أن يدلّ على العتاب، فكأنه يقول: لماذا شكركم قليل؟ كأنكم لا تشعرون بالنعمة، ولا تشعرون بالمنعم.

وإمّا أن يدلّ على قبول الله تعالى للشُّكر مع أنه مهما بلغ فسيظلّ قليلاً مقابل النعم التي أنتم فيها، ومثال ذلك: أن الإنسان إذا أصيب بصعوبة التَّنَفُّس الطَّبِيعِيّ لجأ إلى الأجهزة التي تكون أثمانها شيئاً هائلاً، فهل طلب الله ﷻ منك نفس الأثمان على كلّ نفس تتنفسه بصورة طبيعيّة؟ فقد قبل منك شكراً قليلاً.

المعنى الثاني: قليلاً هي النعم التي تشكرونها، فيحجبكم عن الشُّكر: الغفلة والاستكبار والظُّلم، فتشير الآية إلى أن الإنسانِيّة تميل إلى الغفلة عن الشُّعور بهذه النعم، وأحياناً تميل إلى الظُّلم، وأحياناً تميل إلى الاستكبار، فيقلّ عند ذلك شكرها، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وهنا ربما تسأل: لماذا قلنا بأن الشُّكر هو كلمة السرّ في اتّساع بركات الأرض لكلّ البشريّة؟
الجواب: لأنّ الرُّؤية القرآنيّة تُبصّر العالم ببداية الرحلة الإنسانِيّة الكبرى التي تحكي مسيرتها منذ ما قبل وجودها، إذ هيّا الأرض لاستقبالها، وجعلها مكاناً صالحاً للحركة والتكاثر والانتقال والنموّ، فأودع الله ﷻ فيها من الأقوات والأرزاق والقوى والطّاقات ما يسمح بنشأة الجنس البشريّ الذي سيوجد فيها، ويسمح بنموّ هذه الحياة ورقيّها معاً.
ولولا تمكين الله ﷻ للإنسان في الأرض لما استطاع أن يفعل شيئاً، فقد كان يمكن أن تغلبه الوحوش المفترسة في الأرض، كان يمكن أن تغلبه القردة، كان يمكن أن تغلبه حتى الجراثيم التي تخترقه وهو لا يشعر بها ولا يراها، ولكن الله ﷻ هو الذي مكّنه هذا التمكن.



وهنا ترى اختلافًا تامًا بين هذه الرؤية القرآنية التي تجعلك تشعر بالإحسان العظيم الذي قدّمه الله تعالى لك، وبين الرؤى الجاهلية التي تُشعرك بأنك في حرب مع الطبيعة، ولا بدّ أن تقهرها، وتحارب غضبها، وتتحكّم لتستطيع السيطرة على تمرّدها.

وفي الرؤية القرآنية ترى الطبيعة مسخرة لك، ويجب عليك شكر من سخرها لك -تعالى مجّده-، فخالق الأرض وخالق الناس هو الذي جعل الأرض مدلّلة، وجعل الجنس البشري ممكّنًا فيها، وملاء الأرض بأسباب الرّزق، والأقوات والأرزاق والقوى والطّاقات.

وعندما تراجع الرؤى الوثنية الجاهلية القديمة والحديثة تجدها تصوّر الإنسان في صراع مع الآخرين، فافتروا قصصًا لآلهة زعموها للبرق، والبحر، والشمس، ثم افتروا معها أفكارًا تجعل الإنسان في صراع دائم مع ما حوله، ومن حوله، وبناءً على ذلك أقاموا تصوّرًا يقتضي أن يسيطر القويّ من بني الإنسان على الضعيف، فيحتلّ دولته، وينتهك كرامته كما تفعل دول الاحتلال، والقوى المستكبرة الكبرى، والشركات عابرة القارات، التي لا همّ لها إلا المزيد من المال، ولو صَحَّتْ بالإنسانية، فتصوّراتها تجعلها تُسوِّغ الوحشية الإنسانية كما تُسوِّغ الأنانية والطَّمع الذي يجتاح الدول المستكبرة، وما زال التاريخ يذكر تصريح وزيرة خارجية دولة من أقوى دول العالم، وهي تسوّغ قتل ٦٠٠ ألف طفل عراقي!

أما في الرؤية القرآنية فإنك ترى «الإنسان» يعيش في حالة سلام كامل مع الكون حوله، يعلم أن الله ﷻ سخره له، وجعل فيه أقواته وأرزاقه مع بقية البشرية، ويرى فيها تمكُّنه، ويعلم أن الله ﷻ الذي مكّنه في الأرض قد جعل الكون قابلاً لإفادة الإنسان دون خوفٍ من نفاذ أو تقثير، كل ذلك في رعاية القويّ العليّ الكبير، وعندها يمشي في مناكب الأرض مطمئن القلب، مستروح النفس، ثابت الخطو، ينهض بأعباء الاستخلاف في الأرض، ويتعامل مع



الكون بروح المودة والصداقة؛ ويشكر الله ﷻ كلما اهتدى إلى تعلّم قوانين الوجود، وتيسّر له قَدْرٌ جديدٌ من الرقي والراحة والمتاع.

وما يملك الإنسان أمام الرؤية القرآنيّة التي تخبره عن ضخامة التمكن الإلهي له في الأرض إلا أن يقول:

سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك.

سُبْحَانَ مَنْ لَوْ سَجَدْنَا بِالْعُيُونِ لَهُ	عَلَى شَبَا الشُّوكِ وَالْمَحْمِي مِنَ الْإِبْرِ
لَمْ نَبْلُغِ الْعُشْرَ مِنْ مِعْشَارِ نِعْمَتِهِ	وَلَا الْعُشَيْرَ وَلَا عُشْرًا مِنَ الْعُشْرِ
هُوَ الرَّفِيعُ فَلَا الْأَبْصَارُ تُدْرِكُهُ	سُبْحَانَهُ مِنْ مَلِيكَ نَافِذِ الْقَدَرِ
سُبْحَانَ مَنْ هُوَ أَنْسَى إِنْ خَلُوتُ بِهِ	فِي جَوْفِ لَيْلِي وَفِي الظُّلُمَاءِ وَالسَّحَرِ
أَنْتَ الْحَبِيبُ وَأَنْتَ الْحَبُّ يَا أَمَلِي	مَنْ لِي سِوَاكَ وَمَنْ أَرْجُوهُ يَا ذُخْرِي ^(١)

هنا يحضر سؤال لاف هو: ما الذي تفيدهِ الصُّور المتعدّدة في سُور القرآن؟ ما الفرق بين قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [البقرة: ١٣]؟ هل هي معانٍ مكرّرة لمقصود واحد؟

الجواب: بل هي معانٍ متعدّدة تكمّل لك الصُّورة العامّة:

فقد خلق الله ﷻ لنا ما في الأرض جميعًا، لكن ذلك لا يقتضي أن تكون هذه المخلوقات مسخّرة، فجاءت سورة البقرة لتبيّن أن هذه المخلوقات مسخّرة، وجاءت سورة الأعراف لتبيّن لنا أننا ممكنون من الانتفاع بالمخلوق المسخّر لنا، فاكتملت الصورة في ذلك كله.

(١) الأبيات لأبي عبيدة الخوّاص. ينظر: مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، طبعة الراية، (١/ ٢٥٩).

المشهد الثالث: مشهد خلق الإنسانيَّة، وتكريمها بإسجاد أعظم المخلوقات المكرَّمة لأبينا آدم عليه السلام، وظهور العدوِّ الأوَّل، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ مجده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

مشهد خلق الإنسانيَّة، وتكريمها بإسجاد أعظم المخلوقات المكرَّمة لأبينا آدم عليه السلام

مشهد
[3]

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

لقطة بدء قصة الإنسانيَّة، وبداية التاريخ البشري

لقطة
[1]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11].

الإعلان عن تكريم الإنسان في احتفال مهيب في رحاب الملأ الأعلى

لقطة
[2]

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: 11].

مشهد العدوِّ الأوَّل للإنسانيَّة

لقطة
[3]

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

نَعْبَادُكَ يَا مُقْبِلُ الْخَيْرِ

مُفَصِّلَاتُ تَيْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

وأنت لو تأملت هذا المشهد والمشهدين المتقدِّمين عليه لوجدت أن التمكن، وتهيئة المعاش للإنسانيَّة في الأرض قد ذُكِرَا قبل خلق الإنسانيَّة ذاتها، ولا يخطئك حينها إدراك رعاية الله ﷻ ولطفه، وابتدائه عباده من بني آدم بالنعم السَّابغة السَّابقة قبل خلقهم وتكوينهم. وفي هذا المشهد ثلاث لقطات:

اللَّقْطَةُ الْأُولَى: لقطة بدء قصَّة الإنسانيَّة، وبداية التاريخ البشري:

حيث حدث الخلق والتَّصوير، ويُبَصِّرنا بها قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11].

فأول ما يقابلك من بصائر الآية حرف الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، فما الذي تصوّره لك هذه الواو؟

الجواب: تصوّر لنا هذه الواو العظيمة الاتصال المُحَكَّم بين الآية الحادية عشرة والآية التي سبقتها (العاشرة)، فبعد أن ذكر الله ﷻ في الآية العاشرة أنه هيأ الأرض ليكون الإنسان مُمَكَّنًا فيها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، تخبرك الواو بأن الذي حدث أن هذه الأرض كانت بمنزلة البيئة التي جهّزها الله ﷻ للإنسانية، وهنا أن الأوان لمجيء المخلوق المميّز الذي سيعمرها، فكان من المنطقي أن يتكلم الله ﷻ عن مشهد خلق البشرية، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، فأعلن الله ﷻ بعد ذلك بداية الانطلاقة الإنسانية الكبرى في الحياة بخلق آدم عليه السلام.

وهنا ستسأل: ما معنى قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾؟

الجواب: الخطابُ للبشريّة جميعاً، فالمعنى خلقنا جنسكم من تراب، ثم صوّرناكم في صُور مناسبة لكم، فالتصوير يكون بعد الخلق، ولذلك جاءت ﴿ثُمَّ﴾؛ لتبيّن المرحليّة بين الأمرين.

ويظهر لي أنّ الخلق يعني: الإيجاد في تقدير مستقيم، وذكر الراغب رحمه الله بأن أصل معنى الخلق: التّقدير المستقيم، وزعم أنه يستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]^(١)، هكذا ذكر، وبذا يكون خلق وأبدع بمعنى، فماذا ترى أنت؟

(١) المفردات للراغب (ص: ٢٩٦).

أما أنا فلا أميل لذلك؛ لأن القول بترادف الألفاظ في اللغة والقرآن قول مرجوح، وهناك فرق بين الخلق والإبداع، فالخلق: الإيجاد في تقدير مستقيم، أما الإبداع: الإيجاد على غير مثال سابق، ويأتي بمعنى بلوغ الغاية في كل شيء^(١)، والطبري رحمته الله يرى أن معنى المبدع: «المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد»^(٢)، والخلق -بحسب ابن عاشور رحمته الله - «إيجاد الأشياء المعدومة، وإخراجها إلى الوجود إخراجاً لا صنعة للبشر فيها»^(٣)

بينما الإبداع في أصل الخلق، وهيئته، وإدارته، ف«الْبَدِيعُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَهُوَ الْإِنْشَاءُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْشَاءِ الْمُنْشَأَتِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَذَلِكَ هُوَ خَلْقُ أَصُولِ الْأَنْوَاعِ وَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ مُتَوَلَّدَاتِهَا، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ إِبْدَاعً وَخَلَقَ الْأَرْضَ إِبْدَاعً وَخَلَقَ آدَمَ إِبْدَاعً وَخَلَقَ نِظَامَ التَّنَاسُلِ إِبْدَاعً»^(٤)

ومن هنا يأتي استخدامها بمعنى الإحسان والإجادة، والخلق بمعنى الإيجاد في تقدير مستقيم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: يكون الخلق إيجاداً بتقدير مستقيم من عدم، مثل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

[الأنعام: ١].

(١) تاج العروس (٣٠٨/٢٠).

(٢) الإشارات، ابن سينا (١١٦/٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٢٧/١).

(٤) التحرير والتنوير (٦٨٦/١).

النوع الثاني: يستعمل في إيجاد الشيء من الشيء بتقدير مستقيم، على نحو يعجز عنه المخلوق، نحو: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ۱]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ۴]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ﴾ [المؤمنون: ۱۲]، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ﴾ [الرحمن: ۱۵].

النوع الثالث: قد يكون إيجاداً للشيء من شيء آخر بالتحوّل، وهذا قد يجعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام، إذ قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ۱۱۰].

وهذا يمكن أن ينسب إلى المخلوق مقيّداً، فلا يقال: فلان خالق، وإنما يقال: فلان يخلق أفكاراً، كما قال إبراهيم عليه السلام.

هل يجوز أن يوصف الإنسان بأنه يخلق؟

الجواب: لا يقال عن الإنسان بأنه يخلق إلا على وجهين:

أحدهما: أن يكون معنى يخلق: أي يقدر تقديرًا مستقيمًا حتى كأنه أوجد من عدم، كقول زهير بن أبي سلمى:

فَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(۱)

والثاني: أن يُستعمل يخلق بمعنى الكذب الشديد حتى كأنه إيجاد من عدم أيضًا؛ لوقاحة الكذب، نحو قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ۱۷]، وعلى هذا قول قوم هود له

(۱) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه (ص: ۵۶)، يمدح هَرمَ بنَ سنان، ومعنى تفري، بالفاء: تقطع، من فريت الأديم إذا قطّعه للصلاح، وأفريته، إذا قطّعه للفساد، أي قدّرت أنه ينبغي أن يوجد، فتمضى عزمك.

الْعَلَمَةِ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] في قراءة ابن كثير ومن معه^(١)، وقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ [ص: ٧].

فإن عنى المتكلم بكلمة "خلق": صنع وقدر، فربما يجوز إطلاق الفعل لا إطلاق اسم الفاعل، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(٢)، وقال البغوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]: «الخلق في اللغة: التقدير، وقال مجاهد رحمه الله: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصَّانِعِينَ، يقال رجل خالق أي: صانع»^(٣).

ولا أميل إلى إطلاق اسم "خالق" على مخلوق في النوعين الأولين من الخلق، فلا يقدر عليهما إلا الله ﷻ، وهما يُظهريان الفرق بين الله تعالى جدُّه وبين غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وقد منع ابن عاشور رحمه الله إطلاق (خالق) على غير الله ﷻ، فقال: «خَصَّ إِطْلَاقَهُ فِي لِسَانِ الْإِسْلَامِ بِاللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وَخَصَّ اسْمَ الْخَالِقِ بِهِ تَعَالَى، فَلَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ أُطْلِقَ أَحَدٌ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِنَاءً عَلَى الْحَقِيقَةِ اللَّغَوِيَّةِ لَكَانَ إِطْلَاقُهُ عَجْرَفَةً، فَيَجِبُ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَى تَرْكِهِ»^(٤).

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بفتح الخاء وإسكان اللام، وقرأها الباقون بضم الخاء واللام. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) البخاري (٢١٠٥).

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٤١٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٨).

وذكر الغزالي رحمه الله أنه لا حظَّ للعبد في اسمه تعالى الخالق إلا بوجه من المجاز بعيد، فإذا بلغ في سياسة نفسه وسياسة الخلق مبلغاً ينفرد فيه باستنباط أمور لم يُسبق إليها، ويقدر مع ذلك على فعلها، كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل، فيجوز إطلاق الاسم أي الخالق عليه مجازاً^(١).

فإن قلت: بعد أن عرفنا معنى ﴿خَلَقْتَكُمْ﴾، فماذا يكون معنى ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾؟

الجواب: كأنَّ الفعل آتٍ من أجزاء واضحة يوجد منها الشيء فيتحدّد ويتشكّل على هيئة محدّدة واضحة للبصر أو البصيرة، ولذلك استعملت الحدود من ذلك، فيقال: صَوَّرَا النهر: شَطَأُهُ كأنَّهما يحدّدان هيئته، والصَّوَّارَانِ مثنى صَوَّار: جَانِبَا الفم، وهما ملتقى الشَّفتين ممَّا يلي الشَّدقين، والصُّوْرَةُ: الشَّكْل والهِئَةُ، والحَقِيقَةُ، والصَّفَةُ الظَّاهِرَةُ التي يكون عليها كُلُّ مَخْلُوقٍ، وَهِيَ ما ينتقش به الأعيان، ويتميّز بها غيرها من هَيْئَةِ خِلْقَتِهِ المُدْرَكَةِ بالبصر والبصيرة^(٢)، وذكر الرَّاعِبُ والزَّيْدِيُّ رحمه الله أنَّ الصُّورَ ضربان:

أحدهما: محسوس يدركه الخاصّة والعامة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كَصُورَةِ الإنسان والفرس، والحمار بالمعانية، فالصُّورَةُ هنا على ظاهرها.

والثاني: معقول يدركه الخاصّة دون العامة، كالصُّورَةِ التي اختصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّوْيَةُ، والمعاني التي خُصَّ بها شيء بشيء، والصُّورَةُ هنا تعني حَقِيقَةَ الشَّيْءِ وَهَيْئَتِهِ، وعلى معنى صِفَتِهِ، يُقَال: صُورَةُ الْفِعْلِ كَذَا وَكَذَا، أي: هَيْئَتُهُ، وصُورَةُ الْأَمْرِ كَذَا، أي: صِفَتُهُ

(١) ينظر: المقصد الأسنى (ص: ٧٩).

(٢) ينظر: تاج العروس (٣٥٧/١٢)، المعجم الاشتقاقي (١٢٣/٣).

فالله خالق النوعين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] ^(١).

وهنا قد تسأل عن الفرق بين ﴿خَلَقْنَكُمْ﴾، و﴿صَوَّرْنَكُمْ﴾؟

فالجواب: يتحفنا الرَّازِيُّ رحمته الله بفارق بين اللَّفظين بقوله: «الخلق في اللغة: عبارة عن التَّقدير.. وتقدير الله سبحانه عبارة عن علمه بالأشياء ومشيتته لتخصيص كل شيء بمقداره المعين، فقوله: ﴿خَلَقْنَكُمْ﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم، وقوله: ﴿صَوَّرْنَكُمْ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللُّوح المحفوظ صورة كل شيء كائن مُحدَث إلى قيام السَّاعة، على ما جاء في الخبر أنه تعالى قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» ^(٢)، فخلق الله سبحانه عبارة عن حكمه ومشيتته، والتَّصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ، ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر الملائكة عليهم السلام بالسُّجود له، وهذا التَّأويل عندي أقرب من سائر الوجوه» ^(٣).

ولكن الذي يترأى لي خلاف ما ذهب إليه العلامة الرَّازِيُّ في مفاتيحه، وأرى أن الله سبحانه امتنَّ على البشريَّة بأنه أوجدهم من عدمٍ على تقدير سويٍّ مستقيم، ثم امتنَّ عليهم بأن صَوَّرهم وَفَّقَ هذا التَّقدير، أي: بإظهارهم في صورة مناسبة، ويوضَّح ذلك النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فيقول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ

(١) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٤٩٧)، تاج العروس (١٢/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) الشريعة للأجري (١٨٢)، وقال المحقق (د. عبد الله بن عمر الدميحي): «إسناده ضعيف»، وثم ذكر أن الأثر صحيح من طرق أخرى صحيحة، بعضها مرفوعة، وبعضها موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٢٦).

فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ... ^(١) الحديث، وقد زاد النبي ﷺ إيضاحاً لما يحدث في هذه المدة، فقال: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ. ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ» ^(٢)، وكان من دعاء النبي ﷺ إِذَا سَجَدَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» ^(٣).

وخلاصة الأمر أن ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ تعني الإنشاء على تقدير سويٍّ مستقيم، والتَّصْوِيرُ يعني: إعطاء الصُّورة والخصائص المميّزة، فالتَّصْوِيرُ أرقى مرتبة من مجرد الإيجاد، وكلمة «ثم» في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] جمعت بين التَّرتيب الزَّمَنِيِّ، والتَّرتيب الوجوديِّ؛ ليحدث التَّرقِّي في الأمرين: في الوجود وفي المعنى.. فكأنه سبحانه قال: إننا لم نمسككم مجرد الوجود، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، فصوّرناكم، ولو أردنا أن تكونوا حجارةً أو حديدًا لفعلنا، فأين شكركم؟! وذلك كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، والفارق بين سورة الأعراف وطه واضح: فسورة الأعراف ذكرت التَّصْوِيرَ، وذلك يخصُّ الجسد، وسورة طه ذكرت الهداية، وذلك يخصُّ القلب

(١) مسلم (٢٦٤٣).

(٢) مسلم (٢٦٤٥).

(٣) مسلم (٧٧١).

والعقل والفكر، ولا تنافي بين آيتي الأعراف وطه؛ إذ سبق أن أحد معنيي الصورة والتَّصْوِير: ما يُدْرَك بالعقل والبصيرة، فيكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ في (طه) بهذا المعنى.

ويعلّل ابن عاشور رحمته الله تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق؛ «لأن التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسناً وشرافاً، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارناً للخلق كما في خلق آدم عليه السلام، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنة من عظام ولحم وعَصَب وعروق ومشاعر»^(١)، وأضاف الزمخشري رحمته الله في إيضاح معنى التصوير بأن الله رَكَّب الإنسان: «في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح، والطول والقصر، والذكورة والأنوثة، والشَّبه ببعض الأقارب وخلاف الشَّبه»^(٢).

هنا ربما تبادرن: فهنا الآن لماذا جاء التَّرتيب في سورة الحشر على هذا النحو: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ولكننا نود زيادة الإيضاح؟

الجواب: البداية بالاسم العَلَم الذي به عُرِف، وجاءت الصِّفَةُ الأولى (الْخَلِيقُ)؛ لَوْصَفَهُ بِخَلْقِ الخلق من العدم، ثم الصِّفَةُ الثانية (الْبَارِئُ)؛ لَوْصَفَهُ بأنه بعد أن خلقهم أبراهم من الآفات والأسقام، وصفات التُّراب الرَّدِيئة التي كان يمكن أن تَعْلَقَ بهم، وبراهم بأحسن بري كما يُبرى العود ليكون سهماً على أحسن قِوام، وأجمل مِثالٍ ونِظام، ثم جاءت الصِّفَةُ الثالثة (الْمُصَوِّرُ)؛ ليبين تشكيلهم في أحسن الأشكال، وجعلهم على أبهى الصور.

فالخالق اسم عامٌّ، والبارئ صفة خاصة في جانب من الخلق، والتصوير صفة خاصة في جانب آخر من الخلق.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٣٦).

(٢) الكشاف (٤/٧١٦).

بصيرة: في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] نلاحظ الترتيب البديع، إذ بدأ باسم الله العَلَم الذي به عُرِفَ، ثم ثنى باسم ﴿الْخَلِيقُ﴾؛ لوصفه بخَلْق الخلق ابتداءً من العدم، ثم ثلث باسم ﴿الْبَارِئُ﴾؛ لكونه أبرأهم من الآفات والأسقام ومن الصفات الرديئة، ثم ختم باسم ﴿الْمُصَوِّرُ﴾؛ ليبين أنه صَوَّرهم في أحسن الأشكال، وأبهى الصور.

وهنا ربما سألت عن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﴿خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.. هل تعني الترتيب الزمني أو الرتبي الذكري؟

الجواب: الأصل أن ﴿ثُمَّ﴾ تأتي للترتيب الزمني، فيكون ما قبلها سابقاً لما بعدها، وقد سبق لنا أن الخلق يعني: الإنشاء للمادة الخامّة على تقدير مستقيم، والتّصوير يعني: إعطاء الصّورة المميّزة، التي تظهر جمال المخلوق المكون، وتمنحه خصائصه، فهل كان الخلق أولاً ثم تلاه التّصوير، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الزمني؟ أم كانت المرحلتان متلازمتين، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للترقي الواقعي والترتيب الذكري؟

الظاهر أن التّرتيب رتبي^(١) دالٌّ على ترقٍّ واقعي.

فقوله: ﴿خَلَقْنَكُمْ﴾ في موضعها الزمني، ويرافق الخلق التّصوير للتّفاصيل، وهنا يكون التّرتيب رتبيّاً، فالخلق والتّصوير في هذه المرحلة متلازمان. فيكون المعنى: خلقناكم، وأعظم من ذلك صوّرناكم بدقة.

(١) عرف ابن عاشور رحمته الله الترتيب الرتبي بأنه: «التدرج في الأخبار إلى خبر أهم». التحرير والتنوير (٨-ب/٤٩)، فالأصل في (ثم والفاء) أنها للترتيب الزمني إلا أنها تأتي للترتيب الرتبي تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمن، فالتباعد في الشدة والفضاعة، أو العلو والفضل يكون تباعداً رتبيّاً بمعنى: وأعظم من ذلك.

فَبَصَّرْنَا اللَّهَ ﷻ بقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ إلى خلق آدم ﷺ، ثم لم يكتف بخلقه حتى أخبرنا - عزَّ جأزه - أنه أنعم عليه فصوّره تصويرًا يدلُّ على تكريمه، فهو تكريم للبشريّة جميعًا، والخلق والتّصوير لآدم وحواء ﷺ، وبينهما حسب كلّ، فقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ من تراب، وصوّره بأحسن صورة، وخلق ذريته في رحم أمّهم حواء ﷺ، وصوّرهم هناك.

وهنا قد تتساءل: هل نجد في التّوراة الحاليّة قصّة خلق آدم ﷺ متطابقة مع الرّؤية القرآنيّة للأحداث؟

الجواب: نجد قصّة خلق آدم ﷺ في التّوراة، لكنها مخالفة نوعًا ما للرّؤية القرآنيّة لأحداث الخلق، ففي سفر التّكوين ٢:

٧ وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. أما في القرآن فتجد تفصيلًا واسعًا لخلق آدم ﷺ على نحو يجعلك تشعر بتعظيم ما حدث وقتها، وتفهم طبيعة ما حدث بعدها، فمثلاً: تجد تفصيل التراب الذي خُلِق منه آدم ﷺ، والمراحل التي مرَّ عليها، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

فهذا التفصيل بهذه الدّقة لا نجده في التّوراة وإنما وجدناه في القرآن.

بصيرة: مراحل ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ تصوّر لك قوة ذي الجلال والإكرام، وأنه اللطيف العلي العظيم الخبير.

الآن عرفت قصة الخلق المثيرة.. فهل تحتاج لتفهم قصة الخلق بعد هذا البيان إلى نظرية دارون في أصل نشأة أنواع المخلوقات، والتي تسمى نظرية التطور، وهي نظرية خرافية لا يوجد عليها دليل من الأدلة؟

وقد تتساءل حول ما تمحله البعض من قولهم إن هذه النظرية تنسجم مع الوصف القرآني لمراحل الخلق.

والحق الذي لا مرية فيه أنها لا تنسجم إطلاقاً، فمراحل خلق آدم عليه السلام في القرآن تدل على كونه أول مخلوق بشري إنساني، وعلى بطلان خرافة التطور الدارويني. ولا ترى الذين يؤيدون هذه الخرافة إلا من الذين «يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى» [النجم: ٢٣].

وفي كتاب الطبيب الفرنسي الدائع الصيت الدكتور موريس بوكاي (أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية) أشبه بمذبحة علمية عظيمة لهذه النظرية الخرافية^(١).

(١) ينظر نقده نظرية داروين في كتابه المذكور (ص: ٤١ وما بعدها).

المراحل التي مرَّ بها خلق آدم عليه السلام:

المراحل التي مرَّ بها خلق آدم عليه السلام

مرحلة التُّراب الخالص المنوع

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩].
عمران: 59.

مرحلة الطين

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خُلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 71].

مرحلة الطين اللَّازِب

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الضَّافَات: 11].

مرحلة الحمأ المسنون

﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26].

مرحلة الصَّلصال

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26].

مرحلة شبيهه الفَخَّار

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الزَّحَر: 14].

يُحْيِيهِ بِالنَّفْسِ الْهَيَّائِيَّةِ

مُفَصِّلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

تمدُّنا البصائر القرآنيَّة بمددٍ كاملٍ صافٍ يوضِّح لنا كيف تمَّ إيجاد الإنسان الأوَّل، وهو آدم عليه السلام، إذ مرَّ خلقه عليه السلام بالمراحل الآتية:

الأولى: مرحلة التُّراب الخالص المنوَّع: فخلقهُ الله ﷻ من مادة أساسية هي التُّراب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥١] [١] **عمران: ٥٩.**

وهذا التنوع في تربة آدم عليه السلام وراء التنوع في بنيهِ وذريَّته من بعده سواء في هيئاتهم الظَّاهرة بألوانهم واختلاف طبائعهم البدنية، أو في هيئاتهم الباطنة، وأخلاقهم الكامنة.

الثانية: مرحلة الطين: إذ خُلط التراب بالماء، فتحول إلى طينٍ يعلوُّ بالأيدي، وهذا يدلُّ على أن التراب بُلِّ بالماء غالباً كما هي العادة في فهم لغة العرب لكلمة طين: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، فالطينُ: التُّراب والماء المختلط (١).

الثالثة: مرحلة الطين اللَّازِب: حيث تماسك هذا الطين تماسكاً لازباً، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصَّافَات: ١١]، فيقال: لِلَّازِمِ لَازِبٌ، ويقال: صَارَ هَذَا الشَّيْءُ ضَرْبَةَ لَّازِبٍ، أي: لَا يَكَادُ يُفَارِقُ، فالطين اللَّازِبُ: الثابت الشديد الثبوت الملتزق الجيد وهو الطين الحرُّ (٢).

الرابعة: مرحلة الحمأ المسنون: أي: تغيَّر هذا الطين، واسودَّ فصار حمأً متغيِّراً مصبوباً يمكن تصويره عندما يصبُّ في قالب محدَّد، أو يُشكَّل في ذاته، قال الله ﷻ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، فإن الحمأ: جمع حَمَاء، وهو الطين المتغيَّر إلى السَّواد، وقال الراغب رحمته الله: طين

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٣).

(٢) مقاييس اللغة (٥ / ٢٤٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٣٩).

أسود مُتْنِ^(١)، والمسنون: المصبوب المُنْتِن المتغيّر المَصُورُ المَطْوَل، ويكون قبل الجفاف والصلصلة^(٢)، قال الشنقيطي رحمته الله: «وَالْحَمَأُ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمُتَغَيَّرُ، وَالْمَسْنُونُ قِيلَ: الْمَصُورُ مِنْ سَنَةِ الْوَجْهِ وَهِيَ صُورَتُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ:

تَرِيكَ سُنَّةَ وَجْهِ غَيْرِ مُقَرَّفَةٍ مَلَسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ^(٣)
وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رحمته الله أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ عَنْ مَعْنَى الْمَسْنُونِ، وَأَجَابَهُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ الْمَصُورُ، قَالَ لَهُ: وَهَلْ تَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رحمته الله: نَعَمْ، أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رحمته الله، وَهُوَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه:

أَغْرُكَ أَنَّ الْبَدْرَ سُنَّةٌ وَجْهِهِ جَلَا الْغَيْمُ عَنْهُ ضَوْؤُهُ فَتَبَدَّدَا^(٤)
وَقِيلَ: الْمَسْنُونُ الْمَصْبُوبُ الْمُفْرَغُ أَيُّ: أُفْرِغَ صُورَةَ إِنْسَانٍ، كَمَا تُفْرَغُ الصُّورُ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُدَوَّبَةِ فِي أُمْتِلَتِهَا، وَقِيلَ: الْمَسْنُونُ: الْأَمْلَسُ الصَّقِيلُ، قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رحمته الله»^(٥).

الخامسة: مرحلة الصلصال: فصار صلصالاً أي: طيناً متماسكاً قريباً من اليبس، تَسْمَعُ لَهُ صَلْصَلَةً، يمكن تشكيكه على صورة بسهولة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وأصل الصلصال: تردُّد الصوت من الشيء اليابس، ومنه قيل: صَلَّ المسمارُ يَصِلُ صَلِيلًا: إِذَا ضُرِبَ، فَأُكْرِهَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الشَّيْءِ، وَسَمِيَ الطِّينُ الْجَافُ صَلْصَالًا^(٦)،

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٥٩)

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١٠٨٠)

(٣) ديوان ذي الرُّمَّة (١/ ٢٩)، و(السُّنَّة): الصورة، (وغير مقرفة): ليست بهجينة، هي عتيقة كريمة، و(ندب): آثار الجراح.

(٤) مسائل نافع بن الأزرق (ص: ٩٩).

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٢٧٤)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٣).

(٦) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٨)، تاج العروس (٢٩/ ٣٢١).

وَأَصْلُ الصَّلِيلِ وَالصَّلْصَلَةِ وَاحِدٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّكَ إِذَا تَوَهَّمْتَ فِي الصَّوْتِ مَدًّا فَهُوَ صَلِيلٌ، وَإِذَا تَوَهَّمْتَ فِيهِ تَرَجِيْعًا فَهُوَ صَلْصَلَةٌ.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «خلق الإنسان من ثلاثة: من طين لازب، وصلصال، وحمأ مسنون. والطين اللازب: اللازق الجيد، والصلصال: المرقق الذي يصنع منه الفخار، والمسنون: الطين فيه الحمأة»^(١).

السادسة: مرحلة شبيهه الفخار: إذا يبس الصلصال فصار كالـفخار: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرَّحْمَنُ: ١٤]، فالصلصال: الطين اليابس الذي يصل، أي: يصوت من يبيسه إذا ضربته شيء ما دام لم تمسه النار، فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار، وهذا على إعراب (الفخار) حالاً من الإنسان، أي: خلقه من صلصال فصار الإنسان كالـفخار في صورة خاصة وصلابة^(٢).

انظر لهذه التفاصيل المدهشة: أيمن أن يكون هناك مكان لدارون ومن يعبد ليفهموا هذه المراحل، أو ليدركوها؟

كلا «ليس للعقل أن يقول -بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها - إنني لا أجد هذا في مقرراتي، أو في علمي، أو في تجاربي . . فكل ما يبلغه العقل في هذا معرض للخطأ والصواب، وما قرره الله -سبحانه- لا يحتمل إلا الحق والصواب».

هذا البيان لخلق الإنسان وتصويره يذكر بأن الأفكار الداروينية مجرد ظنون غيبية عن خلق لم يشهده دارون، ولا من يعبد دارون ممن جاء بعده، ويعتمدون فيه على الخرص المحض، والظن المبني على حسابات مشكوك فيها.

(١) تفسير الطبري (١٧/٩٦).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٧/ ٢٤٥).

وقد نظم د/ سعيد بن دحاج - وفقه الله - مراحل الخلق الست فقال:

جَلَّ مَنْ أْبَدَعَ خَلْقًا مِنْ عَدَمٍ	فَاسْتَوَى مِنْ بَعْدُ فِي لَحْمٍ وَدَمٍ
فَابتدأه الله مِنْ جِنْسِ التُّرَابِ	ثُمَّ مِنْ طِينٍ بِمَاءٍ قَدْ أَشَابَ
ثُمَّ طِينًا لَازِبًا ثُمَّ غَدَا	حَمًا مَسْنُونًا رِيحٍ أَسْوَدَا
ثُمَّ صَلْصَالًا شَدِيدًا يَابَسَا	ثُمَّ كَالْفَخَّارِ بِالنَّارِ قَسَى

وجمع هذه المراحل الدكتور/ عامر الخميسي في بيت واحد فقال:

تُرْبٌ فَطِينٌ بِالزُّوبَةِ قَدْ حَمَا صَلْصَالٌ فَخَّارٌ فَأُضْحَى آدَمُ

بعد ذلك انتقلنا إلى لقطة جديدة في الآية، فقد تتساءل: ماذا حدث بعد الخلق والتصوير

لأول إنسان ظهر؟

الجواب: هنا تأتي:

اللحظة الثانية: الإعلان عن تكريم الإنسان في احتفال مهيب في رحاب الملأ الأعلى:

ويصّرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فأعلن الله الملك العزيز العظيم زيادةً في الحفاوة والتكريم لهذا المخلوق الجديد، وحشد له الملائكة -وفي زمرتهم- وإن لم يكن منهم -إبليس، إنه أمر هائل، وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود: هنا تستسأل: لقد أنبأنا الله ﷻ بقصة آدَمَ ﷺ مع إبليس في القرآن في سبعة مواضع: أولها: في سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وثانيها: في هَذِهِ السُّورَةِ، وثالثها: في سُورَةِ الْحَجَرِ، ورابعها: في سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وخامسها: في سُورَةِ الْكَهْفِ، وسادسها: في سُورَةِ طه، وسابعها: في سُورَةِ ص، فلماذا هذا التكرار لقصة واحدة؟

الجواب: هذا التكرار ليس تكراراً بالمعنى الحرفي، وذلك لما يأتي:

فأما أولاً: فإنك تجد في كل منها سوقاً للقصة بصورة تناسب الجو العام لسورتها، وعلى هيئة لا تجدها في غيرها، أو تلقى تفاصيل لا تجدها في الأخرى تناسب الموضوع العام للسورة.

وأما ثانياً: فإنك عندما تجمع المواضع المتعددة تظهر لك الصورة الكلية، كما رأيت قبل قليل عندما جمعنا بين الآيات التي صورت المراحل الدقيقة لخلق آدم عليه السلام من تراب، وعند تدبرك للقرآن تظهر لك فوارق دقيقة مذهشة بين تلك المواضع.

وأما ثالثاً: فإن التكرار بأساليب مختلفة، وتفاصيل دقيقة متعددة يرسخ المعاني التربوية القوية التي يريد الله جل جلاله أن يغرسها في النفوس الإنسانية، وحسبك بأن تدرك العقول بداية الحياة الإنسانية كيف كانت؟ وكيف حدثت المعركة الإنسانية الأولى مع الشيطان؟

تشعر بالألم حقاً عندما تجد هذه الحكمة العالية للقرآن المجيد، ثم على الرغم من ذلك تجد الغفلة الإنسانية عن ذلك كله، ويمكنك أن تجزم أن أعظم معركة في حياة الإنسان - وهي المعركة مع الشيطان - أعظم المغيبات في واقع الإعلام والتربية والتعليم في واقع البشرية، ومن أعظم الرحمة وأجل النعمة أن يجعل الله جل جلاله لك كل ما يضررك، ويفصل لك ما يتعلق بعدوك، وأن يكرر ذلك عليك بأساليب مختلفة، وتفاصيل متنوعة لتأخذ حذرک.

الآن تعال نتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الخطاب فيهما لكل إنسان، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ هذه قصة آدم عليه السلام، وهذا يجعلنا نساءل - مع الطبري والرازي رحمهم الله - عن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قول ربنا عز جاره: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] فكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تفيد التراخي، وظاهر الآية أن أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام وقع بعد الخلق والتصوير، فما معنى الآية؟

الجواب: أجاب أهل العلم لبيان ذلك بعدة أجوبة أحسنها وأجمعها ما يأتي:

الأوّل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قَدَرْنَا إِيْجَادَكُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ عَلَى هَيْئَةٍ سُوِّيَّةٍ فِي ظَهْرِ أَبِيكُمْ آدَمَ عليه السلام.

قالوا: فالله تعالى لما خلق آدم عليه السلام خلق ذريته في ظهره في عالم الذّر في عالم الغيب، وبعد ذلك خلقهم في عالم الشهادة، فكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تكون هنا على بابها: خلقناكم يا أيها البشر جميعاً، ثم صَوَّرْنَاكُمْ يا أيها البشر جميعاً، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم عليه السلام، وأنتم أصلاً في ظهر أبيكم آدم عليه السلام في عالم الغيب.

أو ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: آدَمَ عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: صَوَّرْنَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ عليه السلام فِي ظَهْرِهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: اسْجُدُوا لِآدَمَ، وَهَذَا قَوْلٌ مُجَاهِدٌ رحمته الله، فَذَكَرَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عليه السلام أَوَّلًا، ثُمَّ أَخْرَجَ أَوْلَادَهُ مِنْ ظَهْرِهِ فِي صُورَةِ الذّرِّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام ^(١).

وقريب من هذا قول القائل: خلقناكم ثم صَوَّرْنَاكُمْ عندما خلقنا آدم عليه السلام، فقد حوى خَلْقَهُ أَصُولَ جَمِيعِ الْخَلْقِ.

ويؤيد هذا المعنى أن الله تعالى ذكر وجود جميع بني آدم عليه السلام في ظهره في آخر هذه السُّورَةِ.

الثاني: المراد خَلَقْنَا أَبَاكُمْ آدَمَ عليه السلام وَصَوَّرْنَاهُ، فَالْخَطَابُ لِلْبَشَرِيَّةِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام خَلَقَ لِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَتَصْوِيرُهُ تَصْوِيرٌ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، فَخَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَحْيَاءَ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَفْعَالِ أَسْلَافِهِمْ، أَي: أَخَذْنَا مِيثَاقَ أَسْلَافِكُمْ فِي زَمَانِ مُوسَى عليه السلام، وَكَذَلِكَ هُنَا، فَلَفْظًا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وَ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يَنْهَمُ مِنْهُمَا وَقُوعُ

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٠٦).

ذلك لآدم وزوجه ﷺ وذريتهما، حسب كل واحد في طبيعة الخلق والتصوير، ولذا قال الربيع بن أنس رحمته الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: خلقناكم خلق آدم عليه السلام، ثم صَوَّرْنَاكُمْ في بطون أمهاتكم، ويقرّر الطبري رحمته الله ذلك، فيرى أن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾: ولقد خلقنا آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: بتصويرنا آدم عليه السلام، فيُخاطَب في العربية الرَّجُل بالأفعال تضيفها إليه، والمعني في ذلك سَلَفُهُ، وما أشبه ذلك من الخطاب الموجه إلى الحيّ الموجود، والمراد به السلف المعدم، فكذلك ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم عليه السلام، ثم صَوَّرْنَاكُمْ^(١).

الثالث: العطف عطف خبري ذكري لا تاريخي، أي: خلقناكم، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ، ثُمَّ إِنَّا نُخَبِّرُكُمْ أَنَّا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ عليه السلام، فَهَذَا الْعَطْفُ يُفِيدُ تَرْتِيبَ خَبَرٍ عَلَى خَبَرٍ، وَلَا يُفِيدُ تَرْتِيبَ الْمُخْبِرِ عَلَى الْمُخْبَرِ^(٢).

وهنا ستسأل: ما هذه السجدة التي قال الله تعالى عنها: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١]؟ هل هي سجدة عبادة؛ لأن السجود لا يكون إلا لله المعبود؟

الجواب: إنها سجدة التكريم أمام العالم، فبعد التكريم للمخلوق الجديد بتصويره على أحسن صورة أمر الله ﷻ الملائكة بالسجود له فقال: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فظهر لنا هدفان من أهداف السجود لآدم عليه السلام:

الأول: تكريم المخلوق الجديد، والثاني: إظهار حقائق المخلوقات التي يعلمها الله ﷻ، فيبتلي بأوامره بعض مخلوقاته؛ ليظهر الطائع منهم من العاصي، ولذا وصف الطائع فقال: ﴿فَسَجَدُوا﴾، ووصف العاصي: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢١).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٦).

وهذه السجدة فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد منها مجرد التعظيم وليس السجود، وهذا الرأي غير مقبول؛ لأن معناه أنه لا يوجد سجود، فأصحابه عنوا بالسجود التعظيم فقط.

وثانيها: أن المراد هو السجدة، إلا أن المسجود له هو الله تعالى، فآدم كان كالقِبلة، وهذا الرأي يخالف ظاهر الآية ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، فلم يقل: اسجدوا لي، واجعلوا آدم قبلة.

وثالثها: أن المسجود له هو آدم عليه السلام.. هكذا نقل الرازي رحمه الله الخلاف^(١).

وأنت ترى أن الله تعالى أوضح القصة دون تأويل، فالأمر هو الله جل جلاله، فهل من داع يلجئك إلى تأويل كلامه بغير ذلك، فالسجود لم يكن لعبادة آدم عليه السلام، بل لعبادة الله جل جلاله الذي أمر الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام، فما الحاجة إلى أن نبحث عن فلسفة وراء ذلك؟

إنه تعظيم أمر الله جل جلاله في المقام الأول، وليس عبادة آدم عليه السلام في ذاته، وإن صحب ذلك إظهار الإكرام له عليه السلام، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وقادة رضي الله عنهم كلاماً ثميناً متيناً: كَانَتْ السَّجْدَةُ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ^(٢).

وظهرت لنا الملائكة يسمعون أمر ربهم، جل جلاله، ويطيعونه، ولا يترددون في ذلك طرفة عين.

وهنا لا بد أن تتساءل: ماذا تقول التوراة الحالية عن قصة سجود الملائكة لآدم عليه السلام، وظهور

العداوة الإبلية؟

سأجيبك بما يبصرك بعظمة القرآن، فهنا تستطيع أن تجيب عن أهل الكتاب، وخاصة الذين يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم استقى القصص من التوراة، نقول لهم: لو كان هذا صحيحاً لكان ما في القرآن مطابقاً تمام المطابقة لما عندكم، لكننا نجد أن هناك قصصاً عندنا لا توجد عندكم،

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٠٦).

(٢) تفسير الطبري (١٧/٩٩).

وعندنا قصص يوجد عندكم أصلها، لكن هناك مشاهد كثيرة تختلف فيما بيننا وبينكم.. لماذا؟

لأن القرآن يبين الحقيقة التي ليس فيها غش أو تحريف، فلم يدخل التحريف كتابنا بل دخل كُتُبكم، واضرب لهم مثلاً قصة خلق آدم ﷺ التي سبق أن أشرنا إلى اختلاف القرآن فيها عن التوراة الحالية، ومن أوجه الاختلاف: أن قصة إسجاد الملائكة لا توجد في التوراة، بل هي مما انفرد به القرآن، فلا نجد قصة تكريم الإنسانيَّة بهذه الصورة المهيبة، والاحتفال العظيم الذي جرى لآدم ﷺ كما لا نجد إبراز العداوة الإبلسية بالصورة التي نقلتها لنا الرؤية القرآنيَّة للأحداث.

عندما تفكر جيِّداً في هذا النوع من الاختلاف بين القرآن المحفوظ، والتوراة الحالية المحرفة تشعر أنه من الطبيعي أن ينعكس ذلك على عداوة البشريَّة لإبليس، فلا تجد في المجتمعات المسيحية الاستحضار ذاته لعداوة إبليس للبشريَّة، ولذا تزداد الغفلة عن معرفة أساليب الشيطان في إغواء الإنسان، بل تجد أحياناً التمجيد لإبليس، وهماي بعض القنوات تنشر مسلسلاً عن إبليس، وتسميه باسمه الشهير عندهم: "لوسيفر".

تصور ماذا أفرزت هذه الغفلة عن إبليس وعداوته عند بعض بني آدم ﷺ؟ أفرزت القول بأن الإله قد مات في أواخر القرن التاسع عشر -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً- وزعموا أن الشيطان نفسه قد مات أول يناير ١٩٦٥ م، وبناء عليه لا يوجد عندهم مقدَّس ومدنَّس، فلماذا يوجد الشيطان إن أباحوا لأنفسهم كل شيء أي إن أدوارهم دور الإله من جهة ودور الشيطان من جهة أخرى^(١)، وهذا بعينه الذي قال الله عنه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ

(١) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المسيري، (٢/ ٣٠٠).



إِلَهُهُ هُوَ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿٢٤﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٤]، وهنا تشعر بعظمة آيات سورة الأعراف، ولماذا التركيز في وصية بني آدم ﷺ على أن يحذروا من أن يقعوا في فتنه الشيطان، فينزعوا ألْبستهم كما نزع الشيطان لباس أبيهما.. كيف تعرف عظمة هذه الآيات بصورة أكبر؟

تعرف ذلك بالنظر إلى الرسالة التي تحملتها أقوى دولة في العالم هذه الأيام، فرغم رئيسها أنهم أمة فاحشية، وصار الفاحشيون الذين يسمون المثليين يفتخرون بالخروج عراة أمام العالم، وصاروا يضغطون على الدول الأخرى لتقتدي بهم في فواحشهم، ويسمون أنفسهم بلاد الحريات.

وعندما نعود إلى الآية نجد أن الله ﷻ قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، فما اللقطة التي تبصرنا بها المعرفة القرآنية هنا؟
الجواب: هنا تنقلنا المعرفة القرآنية إلى:

اللقطة الثالثة: مشهد بروز العدو الأول للإنسانية.

إذ يعلن إبليس بالفعل والقول عن هذه العداوة، ويبصّرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

يتجلى لك المشهد عن ثلاثة نماذج من خلق الله تعالى:
النموذج الأول: أنموذج الطاعة المطلقة والتسليم التام، ويمثل هذا الأنموذج الملائكة؛ فقد سلموا وسجدوا.

النموذج الثاني: أنموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، ويمثل هذا الأنموذج إبليس.

والأنموذج الثالث: أنموذج الطبيعة البشرية المزوجة التي لم تظهر عند ذلك المشهد، فلم يظهر من آدم عليه السلام طاعة ولا عصيان؛ لأنه لم يُوجَّه له الأمر بعد، وسيظهر ما عنده في المدة التجريبية عندما يسكن الجنة.

ومتى تتجه إلى أحد النماذجين الأولين تجد في هذا المشهد:
 أن الملائكة عليهم السلام خضعوا للأمر الإلهي طائعين، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يستكفون،
 وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله جل جلاله وأبى أن يمثله، فلم يكن من الساجدين.
 وهنا لا بد من أن تضع السؤال الشهير الذي يناقشه أهل العلم: كيف تم توجيه الأمر للملائكة، واستثني منهم عند التطبيق إبليس؟ هل هذا يعني أن إبليس من الملائكة؟ وكيف ذلك والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؟

الجواب: هذه القضية يذكرها عدد من المفسرين، وحتى لا ندخل في مساحة من الجدل التنظيري الذي لا داعي له يمكننا أن نختصر المسألة بأن نقول:

من أهم قواعد التفسير ردُّ المتشابه إلى المحكم، ودخول إبليس في الملائكة هنا ليس مُحْكَمًا بل هو متشابه؛ لأن الاستثناء يصحُّ أن يكون متصلًا فيكون المستثنى وهو إبليس من المستثنى منه وهم الملائكة، ويصح أن يكون منقطعًا، فيكون المستثنى وهو إبليس ليس من المستثنى منه وهم الملائكة، فدخل إبليس في الملائكة هنا ظنيٌّ محتمل مجمل عرفناه بالمفهوم لا بالمنطوق الصريح، فلم يقل الله جل جلاله لنا إلا إبليس كان من الملائكة لكنه أبى السجود، ولئن نظرت في آيات ربِّك تقدَّست أسماؤه لتجدنه ينصُّ صراحة على أن إبليس كان من الجنِّ مع أنه سبق أن تحدَّث عن الملائكة عليهم السلام في الآية ذاتها، فقال الله تعالى شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ﴾ [الكهف: ٥٠]، والدلالة لخروجه عن جنس الملائكة في سورة الكهف أوضح من دلالة دخوله

فيهم مع بقاء احتمالٍ ضعيفٍ في أن الجنَّ صنفٌ من الملائكة كما ذهب إليه بعضهم^(١)، وإن كنت لا أميل إليه الآن، فالجن صنف ثالث مستقل، ويؤيد هذا أنه قال - في حجاجه - عن أصل خلقه: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقد بين صاحب (الأضواء) حجة من قال: إنه ليس من جنس الملائكة، بما أورده عن جماعة من العلماء «أنه كان يتعبد معهم، فأطلق عليه اسمهم؛ لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها. والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله ﷻ شيطاناً، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبده معهم مشهور عند أهل العلم.

وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران: أحدهما: عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس. كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، والثاني: أن الله ﷻ صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص قرآني في محل النزاع^(٢).

وهنا لربما قاطعتني فتساءلت: فكيف أمر إبليس بالسجود، وما كان الأمر إلا للملائكة؟

الجواب: يصحُّ توجيه الخطاب لمن حضر باعتبار الغالب، فخطب الله ﷻ جميع من حضر ليسجدوا، ولكنه تعالى مجده خصَّص الملائكة لمزية معينة كأن يكونوا الأغلبية، لكن ذلك لا يعني أن يخرج عنهم من حضر، فأنت توجّه الخطاب لفئة، وتقصد غيرها معها

(١) نقل ذلك الرازي رحمه الله عن الفلاسفة، فقال: «منهم من أثبت أنواعاً آخر من الملائكة، وهي الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي، إن كانت خيرة فهم الملائكة وإن كانت شريرة فهم الشياطين». تفسير الرازي (٢/ ٣٨٥).

(٢) أضواء البيان، (٤/ ١٥٤).

بالضرورة، بل ربما قُصد غيرها من بابٍ أولى، فإنك إن قلت: إن جاء الملك فليقف له الوزراء تكريماً، وكان يوجد من هو أدنى من الوزراء مرتبة، فتوجيه الأمر لهم من بابٍ أولى، وكذلك لو وجد مع الوزراء من هو في رتبتهم، فإن الأمر يتوجه لهم أيضاً، وحسبنا هنا أن نتيقن أن الخطاب لمن خَصَّص من الملائكة وهو يعني غيرهم ممن حضر، فدخل فيه إبليس حينها، ويكفي ذلك.

ولذا من الخطأ الشائع أن يقال: إبليس رئيس الملائكة، فهذا لا يوجد عليه دليل؛ إذ هو من الجن، والدليل من القرآن على خلاف هذا القول؛ فرئيس الملائكة هو جبريل عليه السلام كما قال الله تعالى في وصفه: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١].

وقد تقول: فهل هو أبٌ للجن؟ أجيبك بأنه لا يوجد منطوق في القرآن والسنة بذلك، ولكن قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] يدلُّ على أن الجنَّ من ذريته بالمفهوم فقط، وإلا فقد يقال: ذريته جماعة من الجنَّ الحاكمين لسائر الجنَّ.

هنا سنتقل إلى الآية (١٢)، فما المشهد الذي يصوره لنا قوله -تعالى شأنه-: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد الرابع: المحاكمة الإلهية العادلة لإبليس:

المحاكمة الإلهية العادلة لإبليس

مشهد
[4]

4

مشهد العدل الإلهي

لقطة
[1]

1

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12].

منازعة الألوهية والاستكبار والفلسفة المجرمة

لقطة
[2]

2

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 76].

يَعْنِي السَّلَامُ مُقْبِلُ الْمَجِيدِ

مُفَصَّلَاتُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

ويتضح من خلالها السبب الحقيقي لعدم طاعة إبليس أمر ربه، ولعداوته للإنسانية، وهذا السبب هو: منازعة الألوهية، ضمن الثلاثية المدمرة، ويُبَصِّرنا به قوله جل مجده: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿ [الأعراف: ١٢]، فَبَصَّرْنَا الْآيَةَ بِالثَلَاثَةِ الْخَطَرَةِ: الامتناع عن تطبيق النظام الإلهي، والكبر والحسد، فهي ثلاثية أساسية في جلب الشقاء للنفس وللعالم.

ضَمَّ هذا المشهد لقطتين، هما:

اللقطة الأولى: مشهد العدل الإلهي:

وَبَصَّرْنَا بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى شَأْنَهُ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ۱۲]، هنا لا تملك نفسك إلا أن تقول: ما أحلم الله! فلم يعاقب الله ﷻ إبليس مباشرة بل أظهر لنا ربنا - تعالى مجده - العدل والحجة، فسأله عن سبب امتناعه عن السجود:

وهنا لا بد أن تُهَبَّ متعجبًا، فتسأل: لماذا يسأل الله ﷻ إبليس عن سبب امتناعه عن السجود مع أن الله ﷻ يعلم السر وأخفى؟ وهل الله - جلَّ ذِكْرُهُ - بحاجة إلى معرفة الإجابة حتى يسأل إبليس عن سبب امتناعه عن السجود؟

أجيبك بأن هذه الآية كافية ليؤمن بالله من لم يكن آمن به من قبل، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا، فعندما امتنع إبليس عن السجود كان لله أن يعاقبه مباشرة بأي عقوبة كانت، كأن يمسخه الله ﷻ على مكانته، لكن الله جلَّ مجده سأل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

هل تظن الله جلَّ في علاه لا يعلم عن سبب امتناع إبليس عن السجود؟ تعالى الله عن ذلك! إنك تعرف **الجواب** عندما تتأمل في القرآن الكريم، فالبيئة القرآنية قد أخبرتك عن الصفات العظمى لله تعالى جده، فهو يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فقد قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ۲۳]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ۱۵۴]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ۱۲]، بل قال مُعَمِّمًا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ۲۹]، بكل شيء قديم أو حديث، ماض أو حاضر أو مستقبل، وقد ورد هذا التعميم: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في نحو عشرين آية، فيشمل كل شيء كان أو لم يكن.

تدبر أنت: فلماذا سأل الله إبليس؟

أجيب: إنما سأل الله عزَّ شأنه إبليس عن سبب امتناعه عن تنفيذ أمره، والسجود لآدم عليه السلام لتحقيق مقاصد متعددة:

فالمقصد الأول: التوبيخ، والتأنيب والتقريع والتبشيع لفعلته، فالتقريع قد يكون بالسؤال كما يكون بالإخبار.

والمقصد الثاني: أن تعلم البشرية حقيقة عدوها المجرم، وتستيقن بهذه العداوة المبكرة؛ إذ يظهر للخلق من خلال جواب إبليس مقدار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدراءه للبشرية، ومن الغريب أن ترى كثيرًا من البشر يصرون على التغافل عن أكبر المخاطر التي تواجه الإنسانية.. إنها مخاطر العداوة الشيطانية.

وأنت بهذا تعلم كم هو الخطاب الرباني مؤلم للقلوب الحية حينما يقول الله في موضع آخر من كتابه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوعٌ من العتاب لطيفٌ عجيبٌ، وهو أنني عاديْتُ إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة! ^(١).

والمقصد الثالث: إظهار العدالة الإلهية، فلم يعجل الله تعالى بالعقوبة، بل قرَّر إبليس بجرمه على الملائكة تعليمًا منه سبحانه خلقه العدل والإنصاف ولو مع الخصم والعدو.

فهذه أعظم البصائر التي تلوح لك من هذا السؤال والجواب؛ فإن الله تعالى يُذَكِّرُهُ أن الذي أمره بالسجود هو الله تعالى، وليس أحدًا آخر، وعندما يأمر رب العالمين بأمر فيجب على المستمعين اتباع ما أنزل إليهم من ربهم تعالى، فهو الأعلى وهم دونه تعالى، والتردد في الاتباع

(١) الداء والدواء، ابن القيم، (ص: ١٩٩).

إنما يكون إذا جاء الأمر من مخلوق لمخلوق، ولما أراد الله ﷻ أن يبين ضلال إبليس ويقيم عليه العقوبة سأله في مشهد رائع من صور العدالة الإلهية، فقال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فأمري لك بالسجود يجب أن يقابل بالسمع والطاعة دون تردد أو تأخر.

فهو يعلم هذا الاستكبار من إبليس لكنه تعالى مجده أراد أن يظهر هذا العلم في إقامة الحجة أمام الآخرين ليكتمل مشهد العدل، وهذا ما نسميه علم الوقوع، فالعلم الإلهي نوعان: غيبي وواقع، فقد كان علم الله ﷻ بمعصية إبليس غيباً، فصار أمام الملائكة شهادة وواقعاً، فالله ﷻ يعلم سبب امتناع إبليس عن السجود، ولكن أراد أن يظهر هذا السبب أمام العالم.

الآن وفكك الله: خذ العبرة من هذا السؤال في حياتك الشخصية:

إذا كان الله ﷻ يسأل عبداً من عبيده عن سبب عدم طاعته أو امره، فكيف لا يسأل الإنسان إنساناً آخر عن سبب فعله أمراً معيناً ظن من خلاله أنه تكبر أو خطأ أو قصر أو عصي.. لماذا يُصرُّ أحدنا على أنه يعلم ما في صدر صاحبه عندما يرى منه ما يظنه سوءاً؟ لماذا لا يسأله؟ ومثلاً: المدير إذا رأى الموظف قصر في الأمر الذي أسند إليه، أفلا يسأله عن السبب قبل أن يعاقبه؟

ضرب سليمان عليه السلام مثلاً لذلك، فحاسب الهدهد على غيابه قبل أن يعاقبه مع أنه توعدته قائلاً: ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، وبعد أن هدد بإيقاع العقوبة ابتداءً قال بعدها مبيناً إمكانية إسقاط العقوبة: ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، أي: أنا سأسأله قبل ذلك، فربما هناك حجة قوية تمثل سلطاناً له تحميه من العقوبة، فانظر لهذا المشهد العظيم الذي يعلمنا الله ﷻ فيه إقامة العدل، وعدم التعجل في الحكم.

فإن قلت: قبل أن نتوغل أكثر في أنوار هذه الآية لا بد أن نتعرف إلى كلمة (منع)، فماذا تعني

لغة؟

الجواب: (منع)^(١) تقول فيها: مَنْعُهُ الشَّيْءَ مَنْعًا، وناقصة مانع: حرمت الآخرين من لبنها، والمنع: السرطان، وهو الحيوان المائي المعروف الذي تمنع درقته من الوصول إلى داخله، فكلمة (منع) أي: حَجَزَ وحبس الشيء وحجَّره من أن يصل إليه الآخرون، يقال: رجل مانع ومَنَاع، أي: بخيل. قال الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]، ويقال في الحماية، ومنه: حصن منيع إذا لم يُرْمَ، أي: عزيز ممتنع على من يرومه، أي: ممنوع من أن يناله أحد بما يسوء، وهو في عزٍّ ومنعةٍ أي: في جهة أو قوم يمنعون ويحمونه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ [الانباء: ٤٣]، والمقصود تُحصِنُهُمْ وتحفظهم من عذابنا، ف"منع" هنا بمعنى امتنع واعتزَّ بمنعة تحميه، وقوة يلجأ إليها، ويدلُّ على هذا المعنى حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الذي يرويه عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن، إذ أخبرهم جابر رضي الله عنه فقال: غزونا مع رسول الله صلی الله علیه و آله غزوةً قبل نجدٍ، فلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله قَفَلَ مَعَهُ، فَادْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاءِ [شجر فيه شوك]، فنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله، وَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله تَحْتَ سَمَرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنَمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلَآءٌ»، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: «اللهُ، -ثَلَاثًا-»، وَلَمْ يَعَاقِبْهُ، وَجَلَسَ^(٢).

وهذا يكون لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^ط معنيان:

الأول: ما الذي حجزك عن السجود؟

الثاني: ما الحصن الذي تحصَّنت به أو القوة التي اعتصمت بها حتى منعتك أو حمتك من

أن تسجد؟

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٧٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤ / ٢١٢٨)

(٢) البخاري (٢٩١٠).

فانظر كيف عَبَّرَت هذه الكلمة بأقوى تعبير عن المقصود؛ لأن إبليس رفض السجود، أي حَجَرَ نَفْسَهُ وحبسها باختياره من أن تسجد، واعتصم بقوة تمنعه - في ظنه - من تنفيذ الأمر. والآن تعال ننظر أكثر في بصائر الآية، لنجد تركيبها مثيراً للتدبر والتفكير والتذكر؛ إذ قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] لا بد أن تتساءل عن ﴿لَا﴾ في قوله جل ذكره: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ بعد قوله ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؟ فالمنع نفى، و﴿لَا﴾ نافية، ونفي النفي إثبات في العادة!، فلم يقل هنا كما في سورة ص: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]، فقد يدعوك هذا إلى التساؤل: كيف نجمع بين الآيتين؟

الجواب: هنا دعوة للمقارنة بين الموضعين من جهات:

حذف اسم (إبليس) في النداء في الأعراف، وأثبتته في (ص)، وأضاف كلمة (لا) فوضعها قبل كلمة (تسجد) في الأعراف، وحذفها في (ص)، وهناك عدة أجوبة جنح إليها المفسرون ﷺ من أهمها:

الجواب الأول: جوابٌ يذكرك بما يكتنزه القرآن العظيم من المعاني، وكيف يحافظ على اللغة العربية لئلا تندثر أهم أساليبها، ف«لا» كلمة تستخدمها بعض القبائل إلى الآن في تأكيد الإثبات لا في النفي، والسياق يحكم المناسق، ف(لا) في قوله ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ صلة لتأكيد السؤال حول عدم السجود، كأنه يقول له: أبيت إباء عظيمًا أن تسجد، ولم تمتنع مجرد امتناع قاصر، فهي هنا ليست للنفي، وإنما هي لتأكيد معنى الإثبات، كما قال الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ، وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ، مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلَهُ

(١) البيت لا ينسب لأحد، ينظر: أمالي ابن الشجري (٢/ ٥٣٧)، وشرح شواهد المغني (٢/ ٦٣٤، ٦٣٥).

ف(لا) زائدة صلة، والبخل مفعول به، وفسروا هذا البيت بأن معناه: «أبى جوده البخل إباءً شديداً»، وجعلوا "لا" للتأكيد لا للنفي، وقوله: «لا يمنع الجود قاتله»، أراد أن الجود وإن قتله لا يمنع. ف(قاتله) منصوب على الحال، أي: لا يمنع الجود في حال قتله إياه؛ لأن الجود يُفْقَرُهُ. وهذه اللغة نسمعها مستعملة بوضوح عندنا في أعالي محافظة "إب" اليمن، إن أراد أحدهم التأكيد عليك في أمرٍ زاد كلمة: (لا)، فيقول لك: أنا لا أقول لك كذا.. أي قد قلت لك ذلك بصورة مؤكدة.

واستعمال "لا" للتأكيد المعنى مستعملٌ فاشٍ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١] وَمَعْنَاهُ: أَقْسِمُ قِسْمًا مُؤَكَّدًا كما ذهب إليه كثرة من المفسرين، وقَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أَي: لن يرجعوا بكل تأكيد، وقَوْلِهِ: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب تحققًا مؤكَّدًا.

ويدلُّك على صحَّة هذا المعنى أن هذه الجملة وردت دون (لا) في سورة ص عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فمن أساليب العرب التأكيدية زيادة (لا) لتأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، أي: وما منعك أن تحقق السُّجود وتلزمه نفسك؟

وأنا أوردت هذا الجواب لأنَّ بعض أهل العلم أوردوه، ولكنني لا أميل إليه^(١)، وذكر ابن عاشور رحمته الله أنه قول لا ينبغي التعويل عليه، قال: «وفي توجيه معنى التأكيد إلى الفعل -مع كون السجود غير واقع فلا ينبغي تأكيده- خفاء؛ لأن التوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكَّد، فلا ينبغي التعويل على هذا التأويل»^(٢).

(١) ذكر هذا القول الرازي، ونسبه إلى الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين. ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٤٠).

الجواب الثاني: رجّح الطبري رحمته الله أن في الكلام محذوفاً، قد كفى دليل الظاهر منه، وذلك يعني تضمين الكلام معنى آخر، فالمعنى: ما منعك من السجود فأحوجك أو اضطررك أن لا تسجد، فترك ذكر "أحوجك"؛ استغناءً بمعرفة السامعين، وَيَقْرُبُ مِنْهُ تَعْبِيرُ سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿قَالَ يَبْلِغُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ۳۲]، وَالتَّقْدِيرُ: أَيُّ شَيْءٍ عَرَضَ لَكَ فَحَمَلَكَ عَلَى إِلَّا تَكُونَ مَعَهُمْ^(۱).

الجواب الثالث: أن تكون لا نافية، ووجودها يؤذن بفعل مقدّر دل عليه ﴿مَنَعَكَ﴾؛ لأنّ المانع من شيء يدعو لضده، فكأنه قيل: ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد، فإما أن يكون ﴿مَنَعَكَ﴾ مستعملاً في معنى (دعاك)، على سبيل المجاز، و(لا) هي قرينة المجاز، وهذا تأويل السكاكي رحمته الله في "المفتاح" في فصل المجاز اللغوي، وقريب منه لعبد الجبار فيما نقله عنه الفخر رحمته الله، وقال ابن عاشور رحمته الله: وهو أحسن تأويلاً^(۲). قال القاضي عبد الجبار رحمته الله: ذَكَرَ اللهُ مَنَعَ وَأَرَادَ الدَّاعِيَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ لَا تَسْجُدَ؟! لِأَنَّ مُخَالَفَةَ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى حَالَةٌ عَظِيمَةٌ يَتَعَجَّبُ مِنْهَا وَيَسْأَلُ عَنِ الدَّاعِي إِلَيْهَا^(۳).

والجواب الثاني والثالث: يجعل المنع هنا بمعنى المنعة والقوة والحجة والداعي، وليس بمعنى الرفض، والتقدير: ما الذي أعطاك المنعة والقوة لئلا تكون من الساجدين، ونقل

(۱) ورَجَّحَ رأيَ الطبري ابنُ كثير وقال: إنه حسن قوي، وَرَجَّحَهُ أَيْضًا الأَمِينُ الشَّنِقِيطِيُّ رحمته الله في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. ينظر: تفسير ابن كثير (۳/ ۳۹۲)؛ (أضواء البيان (۲/ ۳۴۶)، وقد ذكر الطبري رحمته الله أقوالاً في دخول (لا) هنا ونقضها، وذكر أن مثلها إنما تقبل عندما نستكره الكلام، أي: نحمله على غير محمله، وقد بدا لي هذا التأمل الذي قدمته لك. ينظر: تفسير الطبري (۱۲/ ۳۲۳-۳۲۹).

(۲) التحرير والتنوير (۸/ ۴۰).

(۳) تفسير الرازي (۱۴/ ۲۰۷).

الراغب رحمه الله أن المعنى: ما الذي صدك وحملك على ترك ذلك؟ يقال: امرأة منيعة كناية عن العفيفة^(١).

فليست "لا" في الكلام حشواً لا معنى لها، بل أفادت ثلاثة مفاهيم على الأقل:
الأول: تأكيد المعنى المقصود.

الثاني: المحافظة على الأساليب العربية المتنوعة.

الثالث: أكسبتنا صورتين في الخطاب الإلهي لإبليس، وهذا الذي أميل إليه، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

أربع صور تقدّمهما السُّور، وتدُلُّ على المحاكمة العادلة، وتكوّن المشاهد الكاملة:
لعلك شعرت الآن بقوة التصوير في الآية؛ بعد أن عرفت خلاصة معنى قول الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أُمِرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فكان الله تعالى قال له: ما الذي أعطاك المنعة والقوة والحماية ألا تسجد في حال أمري لك بالسجود أو مع أمري لك بالسجود، فأبيت السجود إباءً مصمماً؟ ولكنك ربما سألت: ولماذا وردت الجملة على هذين النحويين: مرةً بإثبات (لا) في سورة الأعراف، ومرة بحذفها في سورة (ص)؟ فأبي الحديثين قد وقع؟ وما العلاقة بينهما وبين قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ يَبْلِغُ مَالِكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، فورود هذه التعبيرات المتعددة تجعل الإنسان يتساءل عن فائدة هذا التنوع؟

سأفاجئك بالجواب هنا؛ لأنني لم أجد من ذكر المسألة بهذه الصورة في اطلاعي القاصر، فكلُّ منها وقع، وتعدّد التعبيرات ليس لأن العبرة بالمعاني، فعبر عنها في كلِّ مرةً بمعنى..

(١) المفردات للراغب (ص: ٧٧٩).

حاشا أن توجد الألفاظ المتكاثرة بلا داعٍ قائم على الصدق في نقل العبارة، بل إن السُّور تشير إلى وقوع المُساءلة الإلهية ثلاث مرّات لإبليس هذا العبد الآبق الفارّ من أوامر ربّه ﷻ، وتقدّم كلّ سورة لنا صورةً مستقلةً عن السُّورة الأخرى؛ إذ الأصل في الكلام تأسيس معنى جديد لا توكيد المعنى الأول التليد، وعند النظر في هذه السور الثلاث يمكن الجمع بينها ومحاولة الوصول إلى المشهد الكامل الذي حَدَّثَتْ فيه المحاكمة لإبليس، وحتى تكتمل الصورة لا بد من الجمع بينها وبين سورة رابعة هي سورة الإسراء إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ويظهر في ترتيبها الآتي:

الصورة الأولى: عندما أمر الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ردّ إبليس من فوره في البداية أثناء سجود الملائكة بسؤال استنكاري يصدر عن المستنكرين المستكبرين ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

ومتى قال ذلك؟ هل قاله عندما سأله الله ﷻ عن سبب امتناعه عن السجود أم قاله قبل ذلك عندما صدر الأمر الإلهي بالسجود؟ يحتمل هذا وذاك، والظاهر أن ذلك وقع عند الأمر.

الصورة الثانية: يظهر أن سورة الحجر هي التي توضّحها، فقد بدأ الله ﷻ بمحاكمة إبليس قبل أن يَحْكُم عليه ليعلمنا مبادئ العدل، مع أنه أعلم به ﴿قَالَ يَبْنَئُ مَالِكٌ أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

فوجّه الله ﷻ الكلام إليه باسمه البائس: إبليس، وسأله: ﴿مَالِكٌ أَلَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

أي ما الذي حدث لك حتى لم تكن مع الساجدين، فهذا هو السؤال الأول، وقوله: ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ يظهر منها الدلالة على أن إبليس لم يكن ملكًا، بل كان مطلوبًا منه السجود مع الساجدين.

هنا أجاب إبليس بما يؤكد ما ورد في سورة الإسراء، ويُفصّل معناها: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ۳۳].

فلم يتكلّم عن قوة عنصره ولم يقارن نفسه به، بل تكلم عن رداءة عنصر آدم ﷺ في نظره، وهنا كأنه يرى أن العدم أفضل من أن يسجد لآدم ﷺ ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾، كأنه يقول: لا تكون لي كينونة إذا سجدت لهذه المخلوق.

الصورة الثالثة: أوضحتها سورة (ص)، إذ سأله الله -عزّ جاره- ثانية فقال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ۷۵]؟

ف(منع) هنا تعني: صدك وصرفك، كأن الله ﷻ قال له: المسألة لا تتعلق برأيك في أصل هذا المخلوق، بل ما الذي دعاك إلى رفض السجود لمخلوق خلقته بيديّ، أما يكفيك في تشريفه أني خلقته بيديّ؟ كيف نظرت إلى أصله، ولم تنظر إلى عملي فيه؟ ما حبسك عن السجود لما خلقته بيديّ؟ فأعاد الله ﷻ عليه الكلام مُبَيِّنًا له أنه يسأله عن سبب رفضه، ولا يسأله عن رأيه، فكيف يرفض كلام خالقه؟! ثم زاده تذكيرًا بأن هذا المخلوق خلقه الله ﷻ بيديه، فقال الله تعالى له: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ۷۵].

ثم أخبره بأن هناك أحد سببين يمنعه: أحدهما الاستكبار، والثاني العلوّ، وكلّ منهما تجرؤ على الله ﷻ.

حينها تكلم إبليس بالجملة الثالثة، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

كأنه يقول: أنت شرفته بأن خلقته بيدك، ولكن أصل عنصري يبقى خيراً من أصل عنصره، فأسس إبليس للعنصرية في العالم.

لاحظ: خصّه بالخطاب ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ في سورتي: الحجر ووص، فناداه باسمه ليكون أكثر اهتماماً وتفكيراً، وليخبره بأن السؤال موجه له لا لغيره، فهذا من مقتضيات العدل في التحقيق.

وذكر الله ﷻ له أنه خلق هذا المخلوق الذي طلب السجود له بيديه، أي فكيف يستنكف عن السجود لمخلوق خلقه الله تعالى بيديه زيادةً في التكريم؟!

وسأله سؤالاً مضافاً ليظهر العدل الإلهي الكامل عن سبب عدم سجوده وعن إجابته الأولى إن كان قد قالها فيما نميل إليه: ﴿أَسْتَكْبَرْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

هنا أجاب إبليس بشيء زائد على ما في سورة الحجر؛ دلالة على الاستكبار والاستخفاف بالأمر الإلهي، وإصراراً على موقفه، فعّل المستهتر المتمرد: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وربما عنى إبليس أن الخلق بيدي الله ﷻ اشتركت فيه الأجناس الثلاثة الكبرى: الملائكة، والجن، والبشر، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِّمَّا وَصِفَ لَكُمْ»^(١).

(١) مسلم (٢٩٩٦).

فكيف يمكن أن يفضل نفسه على مخلوق خلقه الله ﷻ بيديه إلا أن يكون مشتركاً في هذه القضية معه، ثم مضى في غيّه، فكأنه يقول: وإذا حدث الاشتراك فإن عنصر النار خير من عنصر الطين.

الصورة الرابعة: تقصها علينا سورة الأعراف، إذ أعاد الله ﷻ عليه السؤال للمرة الثالثة بصيغة أخرى: قال الله ﷻ له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

كأنه يقول له: المسألة لا تتعلق بأصل عنصرك وعنصره، بل بأمرى، وكأنه يقول له: أنا لا أسألك عن عنصرك الناري هل هو خير أم عنصره الترابي، إنما أسألك عن حبسك نفسك عن تنفيذ أمرى: ما الذي أعطاك المنعة والقوة والحماية منى، فاخترت ألا تسجد في حال أمرى لك بالسجود أو مع أمرى لك بالسجود، فأبيت السجود إباء مصمماً؟! فنظر إبليس فلم يجد قوة تحميه من الله ﷻ، وما كان جوابه إلا العناد والاعتراض بحلم الله ﷻ، فأعاد رأيَه السابق، وأظهر تكبره: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

ونلاحظ أن الله - جلّ مجده - لم يناد إبليس باسمه في سورة الأعراف بل وجه له السؤال، فقال عزّ شأنه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]

ويحتمل أن يكون الترتيب بالعكس.. لكن الواضح أن الله ﷻ سأله ثلاث مرّات صورتها لنا سور: الحجر، وص، والأعراف، بالإضافة إلى ما قاله في سورة الإسراء، وهذا يعطي بصيرة قوية في كلّ من يحقق في المسألة أن يعيد أسئلته ثلاث مرّات على الأقل بما يقطع كلّ عذر في الحكم الذي سترتب على التحقيق.

هذا هو الترتيب الذي يظهر بين السور الأربع، ولا نستطيع الجزم بصحة هذا الترتيب إلا أن ذلك ما يظهره المنطق في محاكمة إبليس.

والسؤال ثلاث مرات يحبوك ببصيرة في حياتك: ردّد السؤال أو الكلام ثلاثاً حتى تقيم الحُجَّةَ على الآخرين، ولذلك روى أنس رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وآله «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا»^(١)، بل إن الإمام البخاري رحمه الله بَوَّبَ في صحيحه بقوله: «باب من أَعَادَ الحديثَ ثلاثًا لِيُفْهَمَ عنه»^(٢).

وهذا يذكّرنا بحديث أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الحُرَقَةِ من جهينة، قال: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمَحِي حَتَّى قَتَلَتْهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وآله، قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أَسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَّمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»^(٣).

ربما سألتني عن هذه الإجابة الخطيرة التي كرّرها إبليس عند سؤال ربّه عز وجل، وسمعناها في سُوْرَةِ الْأَعْرَافِ وَصِ وَالْحَجَرِ وَالْإِسْرَاءِ، كيف نجمع بينها؟

الجواب: يظهر لي أنه في البداية: ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ثم لما سألّه الله عز وجل في سورة الحجر السؤال الأول: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، ردّد: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

(١) البخاري (٩٤).

(٢) البخاري (٩٤).

(٣) البخاري، (٦٨٧٢).

ثم لما سأله السؤال الثاني في سورة ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي^ط أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، تكلم بجملته الثالثة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٦].

ثم لما سأله السؤال الثالث في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، ردَّ بجملته الرابعة: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].
فإن قلت: لاحظنا أن الله ﷻ ذكر اسم إبليس في هذه السُّورَة في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، ثم ناداه به كما في سورة ص والحجر، فهل كانت هذه هي المرة الأولى التي سمَّاه الله ﷻ بهذا الاسم؛ إذ يدل الاسم على الإِبلاس واليأس من كل خير؟

الجواب: يظل الأمر محتملاً، أي يحتمل أن الله ﷻ سمَّاه إبليس في تلك اللحظة عقوبة له على منازعته ربَّه ﷻ في ألوهيته، ولماذا نقول بأن تسميته بإبليس ربما كانت في ذلك الوقت؟ لأن اسم إبليس لا يسمى به بسهولة، لأنه يتضمَّن معاني اليأس والهلاك، وقد زعم بعضهم أن إبليس كان اسمه الحارث^(١)، وبعضهم قال: إن اسمه عبد الرحمن^(٢)، ولكننا لا نملك دليلاً على اسمه الأصلي، ولا يتوقع أن يكون اسم إبليس كان كذلك قبل هذا الحدث،

(١) ذكر ذلك الطبري رحمه الله بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعفه إسلام منصور. ينظر: تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٢٨/١)، وذكره أيضاً الطبري e بسنده إلى السُّدِّي، وضعفه أيضاً إسلام منصور من أجل أسباط بن نصر. تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٥٩/١).

(٢) لم أعر على من سمَّاه بهذا الاسم، وهو في الحقيقة غريب أن يسمى به، وهناك من سمَّاه بأسماء أخرى غير (الحارث)، مثل: - نائيل وسطائيل: ذكر ذلك الدولابي في الكنى والأسماء (٩٨٦/٣).

- عزازيل: ذكر ذلك الطبري رحمه الله بسنده إلى ابن عباس، وضعفه إسلام منصور. تفسير الطبري، ط: دار الحديث، (٣٥٥/١)، (٣٥٦).

- الحكم: قال ابن حجر رحمه الله: «وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحَارِثُ، وَالْحَكَمُ، وَكُنِيَ أَبُو مَرْةً، وَفِي كِتَابِ لَيْسَ لِابْنِ خَالَوَيْهِ: كُنِيَ أَبُو الْكُرُوبِيِّينَ». فتح الباري لابن حجر (٣٣٩/٦).

وخاصة لمكانته في عالم الملائ الأعلى في ذلك الوقت فيما يذكره المفسرون، ويظهر لي أنه أول نداء له بهذا الاسم، وقد نقل الرازي رحمته الله عن الحسن رحمته الله: وَلَمَّا كَانَ إِبْلِيسُ مَأْمُورًا مَعَ الْمَلَائِكَةِ اسْتَشْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ اسْمُ إِبْلِيسَ شَيْئًا آخَرَ، فَلَمَّا عَصَى اللَّهُ تَعَالَى سَمَاهُ بِذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا عَابِدًا مَرْتَفِعَ الْمَكَانَةِ فِي الْمَلَائِ الْأَعْلَى حَتَّى عَصَى رَبَّهُ فَأُهْبِطَ مِنْهَا^(١).

إذًا فالذي يظهر أنه أول موضع يُنادى فيه إبليس بهذا الاسم، فكلمة إبليس من أبلس، وتدلُّ على الحيرة واليأس والقنوط من كل خير، ومنه قال الراجز:

يا صاح، هل تعرفُ رَسَمًا مُكْرَسًا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ، وَأَبْلَسًا^(٢)

اللغة الثانية: منازعة الألوهية والاستكبار والفلسفة المجرمة:

فقد قابل إبليس الأمر الإلهي والحاكمية العليا لله تعالى ذِكْرُهُ بمنازعة الألوهية والاستكبار والفلسفة المجرمة، إذ قال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وقد تسأل: فهمنا أن الله -تعالى- مَجْدُهُ- سأل إبليس عن سبب امتناعه عن السجود مع وجود الأمر الإلهي الصريح، فردَّ عليه إبليس بأمر بعيد عن الموضوع، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، فذكر أن الحقيقة تقتضي أن يكون إبليس أعلى من آدم عليه السلام قياسًا على عنصر كلٍّ منهما، فما المخالفات التي وقع فيها إبليس هنا، وبَصَرْنَا بها الآية؟

الجواب: جمع إبليس بهذا الردِّ أنواعًا من المخالفات الجسيمة من أهمها:

النوع الأول: منازعة الألوهية؛ لأن مقتضى أن يكون الله تعالى إلهًا أن تكون عبدًا له تسمع وتطيع؛ لا أن تردَّ عليه أمره، ولا أن تنازعه في ملكه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) البيت للعجاج. ينظر: ديوان العجاج، تحقيق: عزة حسن، (ص ١٥٦).



مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿الأحزاب: ٣٦﴾.

وهذا هو الجواب المباشر على تلك الكلمات الخبيثة التي تفوه بها عبد لإبليس، فَطَوَّرَ ما قاله إبليس هنا، وخاطب الله -تعالى وتقدَّس- وقال له: أحتاج منا إلى أن نذهب إلى صحراء لأجل أن نطوف حول أحجار...؟ إلى آخر ذلك العفن.

والعجيب أن صاحب الرسالة يزعم أنه مؤمن بالله.. ألا يذكرك هذا بأحد؟ يذكرك هذا بإبليس؛ فهو يزعم أنه مؤمن بالله تعالى، ويردد ﴿رب..﴾، ولكنه ينازع الله ﷻ في ألوهيته.

نحن نؤمن أن الحج والصلاة والصيام وكل العبادات إنما هي لمصالح أنفسنا، والله ﷻ غني عنا، لكننا نؤمن أنه يجب أن نسمع ونطيع ربَّنَا ﷻ ولو لم تظهر لنا حكمة أوامره.

بصيرة: قول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ منازعة لله ﷻ في ألوهيته بالفعل دون القول، فهو لم يقل: أنا أرد أمرك، لكنه فَعَلَ ذلك، ثم زَيَّنَ لنفسه فلسفةً تجيز له ذلك الفعل، فقال هذه العبارة.

فإبليس كان يُظهر الإيمان ولا يُظهر الكفر إلى وقتٍ أن أمره الله ﷻ بالسجود، وحتى بعد ذلك تجده يقول: ربِّ، فيُظهر الإيمان بالربوبية ولكنه لا يُظهر الإيمان بمقتضى الربوبية فينفذ ما يأمره الله ﷻ به.

النوع الثاني: الكبر المتلّف بالتذاكي والتسويغ المتكلّف البارد، وتكبر إبليس ابتداءً إنما كان على آدم ﷺ، لكن من المعلوم أن التكبر على الخلق يدعو إلى التكبر على الخالق، وهذا ما حصل من إبليس -لعنه الله- فإنه لما تكبر على آدم ﷺ وحسده بقوله:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] جرّه ذلك إلى التكبر على الله ﷻ ومخالفة أمره، فهلك هلاكاً مؤبداً^(١)، ولا تعجب إذا رأيت المحقق الرباني ابن القيم رحمه الله يجعل أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة، ثم يُثني بقوله: «الكبر يمنع الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة..»^(٢)، بل يذهب شيخه ابن تيمية رحمه الله إلى ما هو أبعد حينما يقول: «التكبر شرٌّ من الشُّرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرِك يعبد الله وغيره»^(٣).

ربما تسأل سؤالاً يبحث عنه ناس كثر: هل فعلاً: النار خير من الطين؟ وكيف يوجهنا الله ﷻ إلى أن نبصر شيئاً آخر غير التفضيل بين العنصرين من هذه الآية: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]؟

الجواب: لاحظ البصائر القرآنية: الله ﷻ لم يردّ على إبليس هذا الموضوع الذي افتعله: هل النار خير من الطين أم العكس؟ بل حاكمه الله ﷻ إلى أمر واضح، هو: لماذا عصي أمراً صادراً من رب العالمين؟

لكنه أصرّ على المغالطة، ونقل الموضوع إلى مكان آخر، وكان ينبغي أن نذكر هنا عظمة الأمر، وجلال الأوامر عندما تسمعها صادرة من الله ﷻ، لكنك تتوجّع عندما ترى بعض علمائنا المفسرين يذكرون هنا فلسفة إبليس المفترضة في زعمه أن النَّارَ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ، ثم يردون عليها، فالرازي رحمه الله يبين أن سبب عنصرية إبليس أنه رأى النَّارَ عنصرًا مُشْرِقًا عُلُوبًا لَطِيفًا خَفِيفًا حَارًّا مُجَاوِرًا لِحَوَاهِرِ السَّمَوَاتِ، ورأى الطِّينَ عنصرًا مُظْلِمًا سُفْلِيًّا كَثِيفًا ثَقِيلًا بَارِدًا يَابِسًا بَعِيدًا عَنِ مُجَاوَرَةِ السَّمَوَاتِ، وَأَيْضًا فَالنَّارُ قُوَّةُ التَّأْثِيرِ وَالْفِعْلِ، وَالْأَرْضُ لَيْسَ لَهَا

(١) ينظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، (١/ ١١٩).

(٢) الفوائد، ابن القيم، (ص: ١٥٧).

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، (٢/ ٣١٦).

إِلَّا الْقَبُولُ وَالْإِنْفِعَالُ، وَالْفِعْلُ أَشْرَفُ مِنَ الْإِنْفِعَالِ... إلى آخر كلامه، ثم يرد على هذا كله بأن التراب أفضل^(١)، ويبين وجه الأفضلية.

ويمضي بعض المفسرين عليه السلام في بيان أن العنصر أثر على الاختيار، فيقولون: جهل عدو الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب؛ إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله تعالى في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام، والاستخفاف بأمر ربه تعالى، فأورثه العطب والهلاك. وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأنانة والحلم والحياء والتثبت، والذي في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم عليه السلام - بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه تعالى في الكتاب السابق - إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربه تعالى العفو عنه والمغفرة.

فما رأيك أنت بهذا الجهد الذي بذله إمامنا الرازي ومن معه عليهم السلام؟

أما بالنسبة لي فلا أميل إلى مناقشة الأمور بهذه الصورة التي تبعدنا عن بصائر القرآن، فالمسألة لا تتعلق بالعنصرين وأيهما أفضل، وفي حياة المخلوقين تجد احتياجاتهم إلى العنصرين على درجة واحدة عند التأمل، فيحتاجون إلى النار كما يحتاجون إلى التراب، ولا يغني أحدهما عن الآخر، فإذا كان الماء موجوداً فإنه لا يغني عن النار، وإذا كانت النار موجودة فإنها لا تغني عن الماء، وإذا كان الماء موجوداً فإنه لا يغني عن التراب، وإذا كان التراب موجوداً فإنه لا يغني عن الماء، وهكذا.

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٨).

فالعناصر المخلوقة ينتفع بها في حال، وربما كانت وسائل هلكة وتدمير في حال آخر، وربُّنا جَلَّ في علاه لم يُجِبْ إبليس عن هذه المقارنة الفاسدة، ولم يبين له أي العنصرين أعلى كعباً، وأقوم فضلاً، وأهدى سبيلاً.. بل أنزل به العقوبة على الاستخفاف بما أمره الله ﷻ به..

بصيرة: إِنَّ أَمْرَكَ اللهُ ﷻ فانظر لأمره.. لِمَا يرضاه.. لِمَا يحبه.. لا تُدخل قياساتك الباطلة، لا تُدخل تفكيرك في مدى صوابية الأمر، فرب العالمين عالم الغيب والشهادة هو الذي أمر وكفى، وما أمر به فهو الحقُّ والصواب، وما ينبغي أن يكون قولك حينها إلا: سمعنا وأطعنا، وتنفيذ المطلوب دون تردد أو إبطاء.

لا تدخل أي فلسفة أمام قول ربك، فقد أدخل إبليس ذلك، فماذا كانت النتيجة؟ وعندما تنظر إلى المنهج القرآني تجده واضحاً: القضية ليست في الأفضل هل هو التراب أم النار، بل يكمن جوهر القضية في قول الله جل ذكره: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، فهل ينصاع للأمر الإلهي أم لا؟!

والسجود لآدم ﷺ ليس لأنه خُلِقَ من تراب، والتراب أفضل.. ليست القضية هكذا، بل السجود لأن الله تعالى أمر بذلك، وانتهى.

وقد رجع الرازي رحمه الله إلى جوهر القضية بعد أن أكثر من الجري بعيداً، فقال: «وأيضاً التَّكْلِيفُ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْحَيَّ بَعْدَ انْتِهَائِهِ إِلَى حَدِّ كَمَالِ الْعَقْلِ، فَالْمُعْتَبَرُ بِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ لَا بِمَا خُلِقَ مِنْهُ، وَأَيْضاً فَالْفَضْلُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا لَا بِسَبَبِ الْمَادَّةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْحَبَشِيِّ الْمُؤْمِنَ مُفْضَلٌ عَلَى الْقُرَشِيِّ الْكَافِرِ»^(١).

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٨).

كان ينبغي لإمامنا الرازي رحمه الله أن يقول ذلك من البداية، وأن يركّز التفصيل حول هذا ليزداد الذين آمنوا إيماناً.

فإن قلت: نقل الله ﻋﻠﯿﻚ في عدلٍ إلهي مدهش جواب إبليس عن السؤال الإلهي له: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فكيف بصّرنا ردّ إبليس الغريب المفاجئ أن نُعْظِمَ النصّ الإلهي؟ وكيف لم يكن الجواب لقوله جلّ ذكره: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ أن يقول: منعي كذا؟

الجواب: لأن النصّ الإلهي لإبليس ومن معه كان واضحاً: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فانقسم الذين وجّه الله ﻋﻠﯿﻚ إليهم هذا النصّ إلى قسمين:

(١) الملائكة: وقد سجدوا دون تردد أو إبطاء.

(٢) إبليس: ولم يفعل: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وربما تسأل: ما الذي دعاه إلى ذلك وهو في الملأ الأعلى؟

الجواب: دعاه إلى ذلك الاستكبار، فقد قدّم إبليس استكباره وعناده، ثم تستر بقياسه الباطل، وقدّمه على النصّ الإلهي الصريح، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

الوحي بين التقديس، واعتراضات إبليس:

استنبط علماؤنا من هذه القصة الحفاظ على هبة كلام الله (النص)، فلا نعترض عليه بقياساتنا، فقالوا: لا يجوز تخصيص عموم النصّ بالقياس، فلو كان تخصيص عموم النصّ بالقياس جائزاً لما استوجب إبليس هذا الذمّ الشديد والتوبيخ العظيم، بل إن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فوصّفه تعالى بكونه متكبراً معارضاً كلام الله ﻋﻠﯿﻚ بقياسه، فدلّت هذه الآية على أن تخصيص عموم

النَّصُّ بِالْقِيَاسِ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ التَّكَبُّرَ عَلَى اللَّهِ يُوجِبُ الْعِقَابَ الشَّدِيدَ وَالْإِخْرَاجَ مِنْ رُفْعَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِدْخَالَ فِي رُفْعَةِ الْمَلْعُونِينَ، وَعَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُذْعَنَ لَا يَحْتَجُّ عَلَى رَبِّهِ ﷻ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ لِلَّهِ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ، وَعَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَشْتَرِطُ أَنْ يَسْتَحْسِنَ كَلَامَ رَبِّهِ ﷻ لِيَقْبَلَهُ، بَلْ يَقْبَلُهُ مَطْلَقًا ^(١). وَالْمَقْصُودُ بِالْقِيَاسِ الْمَرْفُوضِ فِي كَلَامِ الرَّازِي ﷻ الْقِيَاسُ النَّاشِئُ عَنْ هَوًى، وَلَيْسَ الْقِيَاسُ الْعِلْمِيُّ الَّذِي يُعْتَبَرُ دَلِيلًا مِنْ أَدْلَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ. وَيُرْوَى الطَّبْرِيُّ ﷻ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷻ تَفْصِيلًا لِبَعْضِ الْمَعَانِي الَّتِي تُسْتَقَى مِنَ الْجَوَابِ الْإِبْلِيسِيِّ عَلَى الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ يَقُولُ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ ﷺ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ إِبْلِيسَ خَاصَّةً، دُونَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ لَمَّا كَانَ حَدَّثَ نَفْسَهُ، مِنْ كِبَرِهِ وَاغْتِرَارِهِ، فَقَالَ: "لَا أَسْجُدُ لَهُ، وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَأكْبَرُ سَنًا، وَأَقْوَى خَلْقًا، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ!" يَقُولُ: إِنَّ النَّارَ أَقْوَى مِنَ الطِّينِ» ^(٢).

فَاللَّهُ ﷻ يَبِينُ لَكَ الْفَلَسَفَةُ الْإِبْلِيسِيَّةَ لِعَصِيَانِ النَّظَامِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، فِإِبْلِيسَ لَمْ يُرَدْ فَقَطْ تَعْزِيزُ الْجَانِبِ الْعَنْصَرِيِّ الْمَتَكَبِّرِ الَّذِي يَرَى أَنَّ جَنْسَهُ أَفْضَلُ مِنْ جَنْسِ آدَمَ ﷺ، بَلْ أَرَادَ تَشْرِيعَ التَّأْلِيهِ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَشْرَعَ لِنَفْسِهِ نِظَامًا يَسِيرُ عَلَيْهِ، وَبِذَلِكَ يَنْكُرُ أَنَّ يَتَوَجَّهَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ لِيَدِيرَ حَيَاةَ الْمَخْلُوقِينَ، وَهَذَا مَعْنَى جَدِيدٍ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ كَمَا خَلَقْنَا فَهُوَ أَيْضًا يَدِيرُ حَيَاتِنَا بِأَمْرِهِ، وَلِذَلِكَ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ قَالَ ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ لَاحِقًا فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ.

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٥٦).

بصيرة: الله ﷻ كما خلقنا فهو أيضًا يدير حياتنا بأوامره؛ ولذلك جمع بين الأمرين في سورة الأعراف فقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ۵۴].

الفلسفة الإبلسية أساس للإلحاد:

أراد إبليس أيضًا أن يكون للملحدين فيلسوفًا مطاعًا.. تسألني: كيف ذلك؟ إنك تلمس في جوابه أنه غير عابئ بالجواب على السؤال الإلهي العادل، بل قام بتشريع رؤية جديدة تقوم على أن رب العالمين لا يجب أن يطيعه العالمون، فرب العالمين في الفلسفة الإبلسية له الخلق لكن ليس له الأمر، ولذا كان إبليس كان واثقًا من صواب نظريته المعوجة، فلم يقل: منعني من السجود أي خير منه، بل قال مباشرة: أنا خير منه، وكأنه يقول: وبما أن الأمر كذلك فلا حاجة للسؤال: لماذا لم أسجد له.. فقد نقل الله تعالى ذكره جواب إبليس وزيادةً عليه، وهي الرؤية التي وراء هذا الامتناع من السجود لآدم ﷺ، وهذه هي الفلسفة المستكبرة المتعجرفة التي يقوم عليها كثير من كهنة الإلحاد القديم والمعاصر، ولذا نحا بعضهم على فلاسفة هذا المسلك الرديء بقوله:

مَا أَغْفَلَ الْفَيْلَسُوفَ عَنْ طُرُقِ
لَيْسَتْ لِأَهْلِ الْعَقْلِ مُنْسَلَكَةٌ!
مَنْ سَلَّمَ الْأَمْرَ لِلْإِلَهِ نَجَا
وَمَنْ عَدَا الْقَصْدَ وَاقَعَ الْهَلَكَةُ^(١)

وتتلخص هذه الفلسفة الملحدة في:

إنكار أن يتوجه الأمر الإلهي ليدبر حياة المخلوقين ذوي الإرادات والتفكير، بل استبعد إبليس أن يكون مثله مأمورًا بالسجود لمثل آدم ﷺ، بذلك نكسب هنا أيضًا معنى: ﴿اتَّبِعُوا

(١) البيت لابن حميدس. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن الششتري، (٧/ ٣٣٦).

مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴿[الأعراف: ۳]﴾، وهذا ما قرَّره في أول السُّورة، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعدًا أن يؤمر بما أمر به، فانظر لهذه الفلسفة الإبلسية كيف جعلت أسوأ الأمور مسألة منطقية، وهكذا يحاول أرباب الإلحاد أن يظهرُوا بمظهر ذوي العقل المنطقي، وهم أبعد ما يكونون؛ فالسُّورة من أولها تأمرهم باتِّباع ما أنزل إليهم من ربهم؛ لأنَّه أمرٌ من الأعلى مطلقًا وهو رب العالمين إلى الأدنى وهم العالمون.. هنا تدرك سرَّ هذا الافتتاح المهيِّب لهذه السُّورة المباركة، وأثر تلك المقدِّمة في كلِّ الأحداث القادمة الواردة في السُّورة.

يقول الدكتور/ عامر الخميس - وفقه الله:-

وَمَا أَتَاكَ دَائِمًا مِّنْ أَمْرِ	مِّن رَّبَّنَا الْجَبَّارِ سَامِي الْقَدْرِ
فَنَقُذَن مِّنْ دُونِ تَعْلِيلٍ وَلَا	تَكُنْ كَسُوءِ خَائِعٍ مُّثَاقِلَا
وَاحْذَرْ يَرَاكَ مَعَ شَرَارِ الْخَلْقِ	مُعَانِدًا وَجَاحِدًا فِي شِقِّ
وَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِضُ الْأَوَامِرَا	فِي مَهْيَعِ الْإِلْحَادِ يَغْدُو كَافِرَا
وَتِلْكَ مِنْ إِبْلِيسَ كَانَتْ فَلَسَفَه	وَقَدْ غَدَتْ حَقِيقَةُ أَسْ السَّفَه
فَلَيْسَ لِلْخَلْقِ اعْتِرَاضٌ أَبَدَا	هُمُ الْعَبِيدُ يَعْْبُدُونَ الْمُوجِدَا
سَبْحَانَهُ الْعَلِيمُ أَهْلُ الْحِكْمَةِ	لَهُ الْعُلَا وَالْفَضْلُ أَهْلُ الْقُدْرَةِ

بصيرة: تلخّص الفلسفة الإبليسية المستكبرة المتعجرفة التي يقوم عليها كثير من كهنة الإلحاد القديم والمعاصر في إنكار أن يدير الأمرُ الإلهي حياةَ الناس على اختلاف أجناسهم وثقافتهم، فردَّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿أَتَبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وبقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولاحظ: هو لم يقل: لم أسجد له لأن الأمر متوجّه للملائكة وليس لي، وهذا يدلُّ على أن الأمر يشملُه باعترافه؛ إما لأنه من جنس من الملائكة كما ذهب إليه بعضهم، ولا يخفى ضعفه، وإما لأن الأمر شمل الملائكة وغيرهم من الحاضرين لكن كان الملائكة أغلب، وفهم الجميع شمولهم في الأمر الإلهي، وهكذا نترك جانباً البحث عن علاقة الملائكة بغيرهم.

وهنا ترى إبليس أدخل القياس فردَّ به الأمر الإلهي الصريح، ولا شك أن ذلك فاسد الاعتبار، وإنما يدخل القياس عند عدم الأمر الإلهي، فعن ابن سيرين ﷺ قال: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ، وَمَا عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَاسِ^(١).

والأثر عن ابن سيرين ﷺ ضعيف، وعلى فرض صحَّته فيعني بالقياس: القياس الفاسد أو الباطل، الذي لا حظَّ له من النظر.

وحتى يتضح لك الأمر، فتصوّر فقط: أن لا يقبل بعض الناس القوانين التي تفرضها الحكومة لتنظيم حياتهم في المرور مثلاً لأنها لم توافق هواهم، أو لا يقبل الجندي الترتيبات العسكرية لأنها لم تدخل مزاجه، أو تصوّر: لا يقبل الطالب المنهج الدراسي لأنه لم يدخل مزاجه.. تصور مقدار الفساد الذي يحدث عن ذلك، فما بالك بالاعتراض على الخالق؟

(١) تفسير الطبري، ط دار الحديث، (٥/ ٢٧٧)، وضعفه إسلام منصور.

الاحتياط على الأوامر رفض صريح لها:

سستسأل: كيف كان امتناع إبليس عن السجود بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ

مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] أبشع من إعلانه الرفض الصريح للسجود؟

الجواب: لم يصّر إبليس برفضه لأمر ربه، لكن امتناعه وجوابه بمنزلة الرفض، ولا فرق، فالتردد في تطبيق الأمر الإلهي يجزئ الإنسان إلى أقبح المواقف التي لا تتصور: إبليس لم يقل أنا أرفض أمرك يا رب، ولكنه قاس المسألة، وأدخل الفلسفة في أمر الله ﷻ، فلم يجب بأن الذي منعه من السجود أنه خلق من نار وخلق آدم من طين، ولكنه أتى بدليل الجواب، فهذا أبشع من أن يعلن الرفض مباشرة لأسباب:

الأول: أنه يتكلم عن رفضه للسجود على هيئة كأنه يعلم فيها ربه -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً- فحقيقة جوابه كأنه يقول: ألم تعلم يا رب: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فانظر للفرق بين جوابه وجواب العبد القانت عيسى عليه السلام عندما قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

الثاني: لاحظ أنه ابتداء بنفسه ﴿أَنَا﴾ زيادة في التّيه والتكبر.

وانظر: أراد أن يفرّ من الجواب المباشر، وهو الرفض للأمر الإلهي، ولكنه فرّ إلى شيء نُكر هو أسوأ وأقبح وأقماً، وكأنه يعلم ربه بشيء لا يعلمه الله؟!

أما يذكر هذا الكنود الجحود أن الله ﷻ يعلم أنه خلق من نار، وأن آدم عليه السلام خلق من طين؟ وتراه ضمّن الجواب في إجابته الخبرية، فكأنه يقول: بما أنني أنا أفضل من ناحية النوع فلماذا أسجد له؟ وهذا أيضاً مراوغة لأنه لم يجب عن الله ﷻ الذي يقول له ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ

أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].



وهكذا تجد كثيرًا من الذين يلجئون إلى المعاصي، يتحجّجون بأهوائهم ورغباتهم على الاستجابة لأوامر ربهم ﷻ.

الانتقال إلى المشهد الجديد:

بعد مشهد المحاكمة الإلهية العادلة لربما تسأل بمنطقية: فماذا كان الحكم الإلهي الديني

على إبليس؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد الخامس: الحكم الإلهي العادل على إبليس:

ويصّرنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

فالحكم: ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾.

وتتعجب من دقة القسط الإلهي؛ إذ يأتي الحكم مقترناً بإيضاح السبب الحقيقي للحكم. وسبب الحكم: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، فالسبب هو: التكبر أي: إنه عظم نفسه، وكبرها حتى جعلها في مقام ربّه ﷻ، والتكبر يعني عدم التذكر، ويؤسّس لدرب الشهوات المستمر:

وهنا ستسأل: هناك ثلاث فاءات في الآية: ﴿فَأَهْبِطْ﴾، ﴿فَمَا يَكُونُ﴾، ﴿فَاخْرُجْ﴾، فماذا تكشف لنا الفاء الأولى في قوله: ﴿فَأَهْبِطْ﴾؟

الجواب:

الفاء في قوله: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ تكشف لنا عن ترتيب هذا الحكم على مسألة الله ﷻ لإبليس في الآية السابقة، فكأنه قال له: فلأنك أبيت السجود، وأتيت بعذر أقبح من الذنب صدر الحكم عليك بأن تهبط منها.

ولكنك ستسأل: ما معنى الهبوط هنا؟ ومن أين كان الهبوط؟

الجواب: الهبوط: الانتقال من مكان أعلى إلى مكان أدنى، وهذا هبوط حسي، أو من مكانة أعلى إلى مكانة أدنى، وهذا هبوط معنوي.

فمن الهبوط الحسي قوله جلّ ذكره: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، فإن نوحاً عليه السلام كان على السفينة، والسفينة كانت في مكان أعلى، فقد كانت تجري به وبمن معه في موج كالجبال.

ومن الهبوط المعنوي والحسي في آن ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، فموسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿أَهْبِطُوا﴾ مع أنهم لم يكونوا في مكان مرتفع حتى يهبطوا إلى مكان منخفض، وإنما المقصود: كنتم في عيش رغد، يأتيكم المن والسلوى، فالآن اهبطوا مصرًا من الأمصار حتى تجدوا الذي طلبتموه من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، أي: انحذروا في مكائلكم من الطيبات الفارهة التي كنتم تتناولونها إلى مكان تتناولون فيه طلبات من ضعيف الطعام، «كأنه يقول لهم ارجعوا إلى ما كنتم فيه؛ إذ لم تقدروا قدر الفضائل النفسية ونعمة الحرية والاستقلال»^(١).

بصيرة: أهبط الله ﷻ إبليس حسيًا ومعنويًا، فقد لعنه وطرده من مكائنه ومكانه في الملاء الأعلى، فيا شقوة المستكبرين.

فإن قلت: فما معنى الفاء الثانية في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]؟

الجواب: الفاء الثانية كشفت حيثيات الحكم، فالفاء الأولى كشفت عن العقوبة، وهذه الثانية بينت سبب هذه العقوبة بصورة واضحة، وهو التكبر الذي أفضى بهذا المخلوق أن يجعل نفسه ندًا لله في أمره ونظامه الذي به يسير الكون، إذ يقول الله ﷻ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: أن تطلب الكبر، فكيف تطلب ما ليس لك؟ فإنك مخلوق، فكيف تتكبر على أمر خالقك، والتكبر أن يكبر المخلوق نفسه ليعطيها ما ليس لها، فيعطيها الاختيار لترفض أمر ربها اغترارًا بنفسها، ففضح الله ﷻ هذه الفلسفة الإبلسية التي تنازع الله ﷻ في لوهيته، ومن المطرد المعهود في كلام الله ﷻ أن لفظ ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾، و﴿مَا يَكُونُ لَنَا﴾ استعمالها في المحرم أو الجرم الكبير، نحو: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ هنا، ﴿وَمَا

(١) التحرير والتنوير، (١/ ٥٢٤).

يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا [الأعراف: ٨٩]، : ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦] (١).

وكذلك يتكبر الملحدون، ويظهرون العجرفة، والكبرياء لا ينبغي أن تكون من صفة مخلوق يحتاج إلى ربه ﷻ في كل نفس من أنفاسه، فالكبرياء من صفات الله تعالى ذكره لا من صفات المخلوقين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ اللَّهُ سُبحَانَهُ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ» (٢).

والذي فعله إبليس تطبيق متجسد لمعاني الكبر، فقد عرف النبي ﷺ الكبر تعريفاً دقيقاً، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً.

فالرجل يسأل عن تعريف الكبر، فهل يدخل فيه حب الإنسان للظهور بمظهر حسن؟ وهنا أجابه سيد الأصفياء وخاتم الأنبياء ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» (٣)، والبطر: التعاضم على الحق فلا يقبله، والغمط: الاحتقار والاستهانة.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: نزلنا الصَّفَاحَ، فإذا رجلٌ نائمٌ تحت شجرة قد كادت الشمس تَبْلُغُهُ. فقلت للغلام: انطلق بهذا النُّطْعِ [أي: الكساء الغليظ] فَأَظْلُهُ. قال: فانطلق فَأَظْلُهُ، فلما استيقظ، فإذا هو سلمان رضي الله عنه -أي: كان نائماً في الطريق دون شيء يظله، فربما أنكر عليه

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، (٦/٤)، البرهان، الزركشي، (١٢/٢).

(٢) أبو داود (٤٠٩٠)، وصححه الأرنؤوط في تخريج المسند (٩٣٥٩)، والألباني في صحيح الجامع (٤٣١١)، وآخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهم رفعاه بلفظ: «الْعَزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يَنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».

(٣) مسلم (٩١).

بعضهم - قال جرير رحمته الله: فَأَتَيْتُهُ أَسْلَمٌ عَلَيْهِ فَقَالَ: «يا جرير، تواضع لله؛ فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة»^(١). اللهم اجعلنا من المرفوعين عندك يوم القيامة.

تواضعُ تَكُنْ كالنجم لاح لناظر
على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالذَّخَانِ يعلو بنفسِه
إلى طبقاتِ الجوّ وهو وضيعُ^(٢)
وربما تسأل: لكننا وجدنا أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]،
لاحظْ قوله: ﴿لَكَ﴾ وقوله: ﴿فِيهَا﴾، فهل يعني هذا أنه يجوز لغيره التكبر؟ وهل يعني هذا
أنه يجوز له ولغيره التكبر في غير هذا المكان؟

الجواب: كلا! فلا يجوز له ولا لغيره التكبر مطلقاً لا في هذا المكان ولا في غيره؛ فقد منع
الله تعالى مِنَ الْكِبَرِ مُطْلَقًا، فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، ﴿كَذَلِكَ يَظْبَعُ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ولكنه قيّد الكبر بقوله: ﴿لَكَ﴾ وقوله: ﴿فِيهَا﴾؛ لزيادة
التشنيع عليه؛ فالكبرياء صفة الله تعالى، فكيف ينازع أحدُ ربّه فيها، وتزيدك كلمة ﴿لَكَ﴾
تصويراً للجريمة الكبر؛ لأنه هو المخلوق الوحيد الذي تكبر في الملاء الأعلى، وكلمة ﴿فِيهَا﴾
لا مفهوم لها^(٣)، لكنه جاء بها ليبصّرنا -جلّ مجده- أن إبليس أظهر التكبر في ذلك المكان
العظيم الذي كان ينبغي أن يكون فيه أكثر تواضعاً وخضوعاً بين يدي ربّه تعالى^(٤).

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٧٧٩٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٣٣): «رواه البيهقي بإسناد حسن».

والصَّفَاح: موضعٌ بينَ حَتَيْنِ وَأَنْصَابِ الْحَرَمِ يَسُرُّ الدَّخَلَ إِلَى مَكَّةَ. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٥).

(٢) نُسِبَ الْبَيْتَانِ لِسُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى الْأَشْدَقِ، يَنْظُرُ: نَفَحَ الرِّيحَانَةَ، الْمُجَبِّي، (١/ ٢٨٥)، وذكر ابن حجر رحمته الله في "الدرر الكامنة"

(١٤٣/٦) أَنَّ الْبَيْتَيْنِ لِمُوسَى بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الزَّرْزَارِيِّ الْقُطَيْبِيِّ، وَفِيهِ: تَوَاضَعَ كَمَا النِّجْمُ اسْتَبَانَ لِنَظَرِهِ.

(٣) الدر المصون، السمين الحلبي، (٥/ ٢٦٤).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٦٦/٧).

بصيرة: كُلَّمَا قَرَّبَ الشَّخْصُ مِنْ مَحَلِّ الْقُدْسِ الَّذِي هُوَ مَكَانُ الْمُطِيعِينَ
الْمُتَوَاضِعِينَ عَظُمَ أَنْ يَرْتَكِبَ جَرِيْمَةَ التَّكْبَرِ.

لذا فإبليس آية للملحدين في الأرض: فإن قالوا: سنؤمن لو رأينا الملائكة الأعلى، فقد رأى إبليس الملائكة الأعلى، وكان هناك، وأبى أن يُسلم لرب العالمين.

وقد تساءل: ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَأَخْرَجَ إِيَّاكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، الله أمره بالهبوط منها، ثم أمره بالخروج، فإلى أين الهبوط؟ ومن أين الخروج؟
الجواب: ذهب بعض المفسرين^(١) إلى أن الهبوط في هذه الآية كان من السماء، ولكنك ستسألهم: من أي سماء، فهناك سموات متعددة، ثم أين يكون مكان الجنة من السماء، فقد دخلها إبليس بعد ذلك؟

يظهر أن الملائكة الأعلى محل غير الجنة، والجنة عرضها السموات والأرض، وهذا يعني أنها محل آخر غير السموات والأرض، والذي يظهر لي أن الأمر بالهبوط أولاً كان من الملائكة الأعلى الذي لا نستطيع تحديده إلى ما دونهم، وليس إلى الأرض مباشرة، وهناك في مكان عالٍ من السموات أو فوق السموات ودون الملائكة الأعلى توجد جنة آدم ﷺ التي ربما كانت جنة الآخرة، وهو الظاهر، وربما كانت شيئاً آخر، ثم كان الأمر الثاني: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] بالهبوط إلى الأرض، حيث لا مكان لإبليس لا في الملائكة الأعلى، ولا في أماكن السماء.

وقد ذكر ابن عاشور رحمه الله لطيفة رائعة في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، إذ ذكر أن الهبوط عقوبة خاصة، عقوبة إبعادٍ عَنِ الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ خُلُقُهُ

(١) كالزمخشري، والرازي، وابن عاشور. ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢١٠)، الكشاف (٢/ ٩٠)، التحرير والتنوير (٨-ب/ ٤٣).

غَيْرِ مُلَائِمٍ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْمَكَانَ لَهُ، وَذَلِكَ خُلِقَ التَّكْبِيرُ لِأَنَّ الْمَكَانَ كَانَ مَكَانًا مُقَدَّسًا فَاضِلًا، لَا يَكُونُ إِلَّا مُطَهَّرًا مِنْ كُلِّ مَا لَهُ وَصْفٌ يَنَافِيهِ، وَهَذَا مَبْدَأُ حَاوِلُهُ الْحُكَمَاءُ الْبَاحِثُونَ عَنِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ رحمته الله: «لَا تُحَدِّثُوا بِدْعَةً فِي بَلَدِنَا»، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي ثُبُوتِ الْحَقِّ لِأَهْلِ الْمَحَلَّةِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَحَلَّتِهِمْ مَنْ يُخْشَى مِنْ سِيرَتِهِ فُشُوُ الْفَسَادِ بَيْنَهُمْ^(١).

ستسأل: فما الذي تصوره الفاء الثالثة في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [الأعراف:

١٣]؟ وما معنى ﴿الصَّغِيرِينَ﴾؟

الجواب: تكشف هذه الفاء عن بداية تطبيق عقوبة الهبوط التي حكم الله ﷻ بها على إبليس، فالفاء في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ تصوّر تطبيق العقوبة على الفور، وذلك بأن يخرج أولاً من المكان الأعلى الذي هو فيه، وأن يتحول من معاملة العز التي أنعم الله ﷻ عليه بها قبل عصيانه إلى معاملة الصغار التي يستحقها الفجار، فعاقبة المستكبر أن يتحوّل إلى صاغر ذليل مُسْتَحَقَرٍّ، وقد عامل الله -عزّ جاره- إبليس اللعين بنقيض قصده، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرّح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] ^(٢).

وقد جعله الله ﷻ في أَرْدَا الدُّلَّةِ عندما قال تعالى مَجْدُهُ: ﴿فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، فالصاغرون هم أهل الدُّلَّةِ والهوان الذين يستحقُّون المكانة الدُّنْيَا، كما تقول للرجل: قم صاغراً، إِذَا أَهْنَتْهُ، وهذه الكلمة مشتقة من (صغر)، وهي تدلُّ على قِلَّةٍ وانخفاض وتضاؤل عند وجود ما يقتضي ذلك بجوار من هو أكبر حجماً أو سناً، وتدلُّ على حَقَارَةِ واتضاع بجوار

(١) التحرير والتنوير (٨-ب / ٤٤).

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، (٧/ ١٣).

من هو أكبر مكانة أو عزاً، وَمِنْ ذَلِكَ الصَّغَرُ: ضِدُّ الْكِبَرِ، وَالصَّغِيرُ: خِلَافُ الْكَبِيرِ، يقال: أصغرت الناقة وأكبرت والإصغارُ: حَيْنُهَا الْخَفِيفُ، وَالْإِكْبَارُ: الْعَالِي.

فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ
بُكَاءٍ وَالْهَيْةُ صَلَّتْ أَلِفَتْهَا لَهَا حَيْنَانِ إِصْغَارٍ وَإِكْبَارٍ^(١)
يقال: صَغُرَ صَغَرًا ضِدَّ الْكَبِيرِ، وَصَغَرَ صَغَرًا وَصَغَارًا فِي الذَّلَّةِ^(٢).

بصيرة: لما أظهر إبليس الاستكبار أليس ثوب الصَّغَارِ، ولو ذلَّ لربِّه ﷻ وانقاد
لأَعْلَى اللَّهِ ﷻ مكانته بين العباد.

وقد نسب الله ﷻ إبليس إلى الصاغرين، وهذا جمع مذكر سالم، فهو يدلُّ على عَرَاقَتِهِ فِي
الذَّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ، وَهَاهُوَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَعَظَّمَ وَعَدَا طَوْرَهُ، وَهَصَهُ
اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: اخْسَأْ خَسَأَكَ اللَّهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَفِي أَنْفُسِ النَّاسِ صَغِيرٌ، حَتَّى
لَهُوَ أَحَقَرُّ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ خِنْزِيرٍ»^(٣).

وقوله: «وهصه الله إلى الأرض»: أي غمزته إلى الأرض، وَالْوَهْصُ: الضَّغْطُ عَلَى الشَّيْءِ
الرَّخْوِ، وَشَدَّةُ الْوُطْءِ عَلَى الْأَرْضِ^(٤)، فَحَقِيقَةُ الْمَتَكَبِّرِ تَوْوُلُ إِلَى أَنْ يَدَاسَ كَمَا تَدَاسُ
الْأَرْضُ.

(١) البيتان للخنساء. العقد الفريد (٣/ ٢٢٤)، ولم أجدهما في ديوانها.

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٢٩٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٥).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٩) (٢٦٥٨٣).

(٤) ينظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٣٢).

هنا ربما تضع سؤالاً آخر وأنت ترى هذه المحاوراة بين الله - عزَّ جأره - وإبليس: كيف نال إبليس شرف مكالمته الله مع أنه الرحيم؟ فقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لا شك أن قائل هذا القول هو الله؛ لأنَّ قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا يليق إلا بالله سبحانه، وأما قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ فقائل هذا القول هو إبليس، وأما قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ فلا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى، ولم يتفق لأحد من أكابر الأنبياء ﷺ كمكالمته مع الله مثل ما اتفق لإبليس، وقد عظم الله ﷻ تشريف موسى ﷺ بأن كلمه حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ فإن كانت هذه المكالمه تُفيد الشرف العظيم، فكيف حصلت على أعظم الوجوه لإبليس؟

الجواب: حاول الإمام الرازي رحمه الله (١) أن يجيب عن هذا السؤال، فنقل عن بعض أهل العلم أنه تعالى كلم إبليس على لسان من يؤدي إليه من الملائكة، وأشار إلى أنه ثبت أن غير الأنبياء لا يخاطبهم الله تعالى إلا بواسطة، ومنهم من قال: إنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة، ولكن على وجه الإهانة، بدليل أنه تعالى قال له: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وتكلم مع موسى ومع سائر الأنبياء ﷺ على سبيل الإكرام، ألا ترى أنه تعالى قال لموسى ﷺ: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ﴾ [طه: ١٣]، وقال له: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وهذا نهاية الإكرام.

وهذا جواب مقبول، وحتى نتصور المسألة نضرب هذا المثال: لو حاكم القاضي أحداً، فحكم عليه بكذا وكذا، ثم أتى بهذا المحكوم عليه إلى الملك، فقرره بذنوبه وأخبره بأنك

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/٢٠٩).

أذنبت في كذا وكذا، هنا تكون الإهانة أشد وأعظم، وأقصى، فكلام إبليس مع الله تعالى مجده لا يدلُّ على أن المكالمة كانت للتشريف وإنما كانت للإهانة.

وأنا أضيف: إن كلام الله مع إبليس هنا هو ذاته كلامه مع أهل النار حينما يستغيثون، فهم في البداية يسألون مالكا خازن النار، ويقولون ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الرَّحُف: ٧٧]، فيردُّ عليهم ﴿إِنَّكُمْ مَكْثُونَ﴾ [الرَّحُف: ٧٧]، عند ذلك يلجؤون إلى الله العزيز القهار، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فيردُّ عليهم ربهم ﷻ: ﴿أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، فهو كلامٌ لهم على سبيل العدل من جهة، والإهانة والتحقير والتئيس من أن يصلهم خير من جهة أخرى.

ومن أعظم الحِكم التي تظهر لي في هذه المكالمة: الردُّ على المشركين والملحدّين الذين يزعمون أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله ﷻ أو يكلموه، فقد قال هذا المشركون من قبل، ويقوله الملحدون الماديون اليوم، وجمع الله ﷻ الجميع فقال عن ترديدهم لهذه الشبهة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

فهاهو إبليس نال كل ذلك، فما زاده إلا طغياناً كبيراً، ولو كانت نفسياتهم مستعدة لترك الكبرياء لرأوا الكون كله ينبئهم بأن وراءه خالقاً مدبراً، ومَلِكاً حاكماً قاهراً.

الانتقال وجمال الاتصال:

ما سبق كان هو المشهد الخامس من مشاهد هذه المرحلة الزمنية، فما المشهد الذي يلوح لنا فيما بعد من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف:

١٤، ١٥؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد السادس: إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم:

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى جدّه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

[الأعراف: ١٤، ١٥].

"الإنظار" في كلام العرب، التأخير، يقال منه: أنظرت به بحقي عليه، أنظره به إنظاراً، ومنه قوله: ﴿فَنَظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فهو مشتق من النظر، كأنه ينظر اليوم الذي وعده. طلب إبليس من الله ﷻ أن يؤخر بقاءه على قيد الحياة إلى يوم يبعثون، قال: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أي: أخرني وأجلني، وأنسى في أجلي، ولا تميتني ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾، يقول: إلى يوم يبعث الخلق. تصوّر هذا الكفر النابع من الإيمان! يؤمن بالبعث، ولكنه يصر على اختيار الكفر خلال زمنٍ مهما طال؛ فإنه يوشك أن ينقضي.

ولكنك تتعجب: فإن كان يؤمن بالبعث والجنة والنار، أفلا يخاف من النتيجة النهائية يوم

الدين؟ لماذا يتجرأ على محاربة ربّه ﷻ، وهو يعلم مصيره؟

الجواب: إنه الاطمئنان بالحياة الدنيا، والانخداع بالزمن المؤقت عندما يطول على الإنسان، فالفتى في عمر الخامسة عشرة يظن أن هناك زمناً طويلاً ليصل إلى عمر الأربعين، وحينها يصدّق الشيطان في أن يفعل ما شاء من الموبقات، وعندما تأتي الأربعين يمكن أن يجد حلاً! تمر الأيام عَجَلَى سريعة كأنها أحلام، وربما تخترمه المنية قبل الوصول إلى سن التوبة المزعوم.. أما إبليس فهو يظن أنه عُمُرٌ طويل جداً حين يبقى إلى يوم الوقت المعلوم، ولكنه عند وصول ذلك اليوم سيدعو ثبوراً كثيراً، ويكتشف أنه لم يكن إلا في غرور، وقد وصف الله ﷻ هذه الحالة من الانخداع والاطمئنان بالحياة الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ



لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يُؤَسَّ: ٧، ٨].

مسكين المخلوق الذي يغترُّ بالزمن، ويطمئن بالحياة الدُّنيا.. يظن أنه لو بقي إلى يوم الدين، فهذا عُمُرٌ طويل يكفيه ليعبث، ولن يؤثّر عليه أن تأتي النار بعد ذلك، ومن أجل ذلك تجد من المواضيع الرئيسة في هذه السُّورة المؤثّرة جدًّا: الكلام عن الأجل بصُورٍ متعدّدة في واقع الحياة، ومن أبرز ذلك قوله -تعالى مجدّه-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقد استقرَّ ابن الجوزي رحمته الله أحوال طغاة الملوك الناكبين عن سبيل الله إلى سبيل إبليس الرجيم، فوجد أن الجامع بينهم غياب اليوم الآخر عن قلوبهم، وعزوب ذكره عن أفئدتهم، وفي ذلك يقول: «اعلم أن استيلاء الدُّنيا على الملوك وإقبالها عليهم ربما شغلهم عن أمر الآخرة، وأغفلهم عن مهمات الدين، فيجنحون إلى اللذات، ويهملون أمر الديانات؛ لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف، وإيثار التمتع، وكرهة التكليف، فلا ينبغي أن تخلو مجالسهم من علماء الدِّين وأصالح المتنسكين؛ لينهوهم عند طريان الغفلة، ويذكروهم عند ضراوة الشهوة، ويوضّحون لهم نهج الآخرة»^(١).

فماذا كان الجواب على إبليس حينما طلب الإنظار إلى يوم يبعثون؟

قال الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥].

(١) المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص: ٦٩٠).

هنا ستسأل: هل يُعدُّ هذا إجابةً لسؤال إبليس؟ فقد يقول قائل: فإن الله ﷻ قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يبعثون: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في هذا الموضع، فكيف يجيب الله ﷻ سؤاله، وهو يريد أن يمتدَّ عمره ليرتكب أكبر الجرائم بأن يضل الإنسانية عن ربِّها ﷻ؟

هذا السؤال طرحه الطبري رحمه الله^(١) من قبل، وأجاب بأن الله ﷻ لم يجب دعاء إبليس، فلو كان مجيباً له إلى ما سأل لقال له: «إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي سَأَلْتَ، أَوْ: إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، أَوْ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ»، وأما قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فلا دليل فيه إلا أن الله ﷻ بيَّن مُدَّةَ إِنْظَارِهِ إِيَّاهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨]، وروى الطبري رحمه الله عن السُّدِّيِّ رحمه الله: فلم يُنْظَرْهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، ولكن أنْظَرَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، فمات^(٢).

ولكن هذا الجواب بحاجة إلى تأمل، فإن إِنْظَارَهُ إِلَى يَوْمِ الصَّعْقِ يَعْنِي إِنْظَارَهُ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ، فيوم الصَّعْقِ هو مقدمة النفخة الثانية كما هو معلوم.

والذي يظهر لي أن إبليس لم يكن يعلم أنه من المنظرين عندما سأل هذا السؤال، فلما سأل الله ﷻ، فقال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩]، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨، ص: ٨٠-٨١].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٣١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ط دار الحديث، (٥/ ٢٧٩)، وقال إسلام منصور: ضعيف من أجل أسباط بن نصر، يكتب حديثه.



لاحظ التعبير: ﴿إِنَّكَ﴾ اللفظ لا يدلُّ على أنه أجابه، بل اللفظ يخبره أنه من المنظرين، وهذا يعني أن هناك عددًا من المخلوقين هم منظرون إلى وقت محدد، وهو الوقت الذي ذكره الله ﷻ في وقت محدد في سورة الحجر ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨].

فلم يقل أنت مُنْظَرٌ، أو أجبت دعاءك، أو: إنك إذا من المنظرين بناء على سؤالك، بل أنت مخلوق من المخلوقات المُنْظَرَة، فبين الله ﷻ أنه قد حكم في السابق على مخلوقات بأن تُتَوَقَّى في وقت مبكر، وحكم على مخلوقات بأن تُنْظَر إلى وقت، فكان إبليس من ضمن هذه المخلوقات المُنْظَرَة لتبقى حكمة الابتلاء، وعليه فليس قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إجابة لسؤال أو لطلبه.

وقد تجد بعض المتمحلين يورد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [الأعراف: ١٥، ١٦] في سياق بيان كرم الله وعظيم جوده محتجًا بأن هذا من الله ﷻ إجابة لدعاء إبليس، فكيف لا يجيب عبده الموحد إن دعاه وسأله؟ وهو فهم يأباه ظاهر اللفظ، ومقتضى السياق كما قدمناه؛ إذ قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لم يعد أن يكون محض إخبار لما جرى في سابق علمه من أن إبليس من المنظرين.

وهنا ستسأل: إذا كانت الآية تدل على أن هناك عددًا من المنظرين، فما المخلوقات المنظرة إلى ذلك اليوم سوى إبليس؟

الجواب: قيل: مَنْ لم يقبض الله ﷻ روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بأجلهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ بمعنى: إنك ممن لا يُؤمِّتُهُ الله ﷻ إلا ذلك اليوم^(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٢).

والطبري رحمہ اللہ یبیین أن الله ﷻ لم يجب دعاء إبليس، بل قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ۱۵]، وقال جل ثناؤه له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿۳۷﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ۳۷-۳۸].

وهنا ربما تقول: لكننا وجدنا الله ﷻ يقول له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ۳۷]، بالفاء، والفاء فصيحة تشعر بأنه إجابة لسؤال إبليس، كأنه قال له: فإجابة لسؤالك إنك من المنظرين، أليست هذه إجابة لطلب إبليس؟

الجواب: بناءً على ما قرره الطبري رحمہ اللہ ^(۱)، فليس هذا جواباً لسؤال إبليس، بل يخبره الله ﷻ أنه قد كتب له عمراً طويلاً إلى يوم الوقت المعلوم، فكونه من المنظرين كانت مسألة محسومة سابقاً، فلم يقل له: إنك إذاً من المنظرين، ولم يقل له: قد أجبت سؤالك ودعاءك. أما ابن كثير رحمہ اللہ فقرر أن الله ﷻ أجابه إلى ما سأل فقال: «أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقّب لحكمه، وهو سريع الحساب» ^(۲).

فالفاء هنا تفصح عن معنى آخر غير الذي ذكرته ليحدث التوافق مع آية الأعراف دون فاء، وبذلك نكسب من مجموع الآيتين جملتين متتابعتين:

إنك من المنظرين، ثم قال: فاعلم أنه قد كتبت في الكتاب أنك من المنظرين.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ۳۸]؟

الجواب: ذكر الرازي رحمہ اللہ فيها قولين، فقل: المراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم، أي النسخة الأولى، وقيل: لم يؤقت الله ﷻ له أجلاً محدداً يعرفه إبليس، بل قال: ﴿إِلَى

(۱) ينظر: تفسير الطبري (۱۲/ ۳۳۱).

(۲) ينظر: تفسير ابن كثير (۳/ ۳۹۳).



يَوْمَ أُلْقِيَ الْمَعْلُومُ ﴿[الحجر: ٣٨]، والمُرَادُ مِنْهُ الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى^(١)، والقولان محتملان فيما يظهر.

ولكن هنا سؤال لافت يَبْدُرُنَا ونحن نقرأ ما حكاه الله عن إبليس: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: من أين لإبليس هذه الجرأة التي تمكنه وتدفعه لسؤال أو طلب كهذا وهو مطرود ملعون؟

يجيبنا عن ذلك الحاكم الجسمي ﷺ بقوله: «ومتى قيل: ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية»^(٢)، وهذا لعمر الله معنى بحاجة لتقرير وتعزيز في نفوس عباد الله الموحدين، يفتح لهم من الرجاء في كرم الله وجوده، فلا تثقلهم معاصيهم عن معاودة السير إلى الله، ولا تقعد بهم سيئاتهم عن قرع بابه، واللياذ بجنابه.

وهنا يتساءل بعض المؤمنين وبعض الملحدين: ولماذا يُنْظَرُ الله ﷻ إبليس؟ هلاً أراحنا ربنا ﷻ من هذا المجرم، فعاقبه على الفور؟

أنا أجيبك عن هذا بالبينة القرآنية التي توضّح عظمة التدبير الإلهي، لماذا وجدت المخلوقات عموماً؟

فالجواب المباشر: وجود إبليس من أعظم مظاهر العدل الإلهي، وحرية الإرادة الإنسانية، وتعال نلخص المسألة:

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢١٠).

(٢) التهذيب في التفسير، الجسمي، (٤/ ٢٥١٣). والجسمي هو أبو سعد، المحسن بن محمد بن كرامة الحاكم الجسمي البيهقي المعتزلي، فقيه وعالم ومفسر، (ت: ٤٩٤). ينظر: فريد خراسان البيهقي، «تاريخ بيهق»، ص (٣٩٠).

السبب الأول: الوجود الكوني كله مظهرٌ لآثار أسماء الله وصفاته، تبين آثار عدله وحكمته، وعزّه وقهره وسلطانه، ومنعه وعطاءه، والحكمة العليا لخلق جميع المخلوقات أن يتجلى بها الرب الخالق لها بما هو متّصف به من صفات الكمال، ليُعرف ويُعبد، ويُشكر ويُحمّد، ويحكم ويجزّي فيعدل ويغفر ويغفو ويرحم، فهي مظهر أسمائه وصفاته، ومجلى سننه وآياته، وترجمان حمده وشكره، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وتجليات كلّ ذلك لن تتحقق واقعاً إلا بخلق الضدين: الخير والشر، وتوفر الداعيين: داعي الرحمن، وداعي الشيطان، وقد تعرّض لشرح هذا ابن القيم رحمته الله في كتابه: (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

السبب الثاني: الشر يبين حقيقة الخير، فالله خلق الخير كله بيديه، والشر ليس إليه، بل ليس في خلقه ما هو شرٌّ محض في نفسه، وإنما الشر أمرٌ اعتياري^(١)، فلماذا يوجد الشر؟ لبيان حقيقة الخير، فإن الإنسان لا يعرف قيمة النهار إلا إذا جاء الليل، ولا يعرف قيمة الصحة إلا إذا أصيب بالمرض، ولا يعرف قيمة الشباب إلا إذا جاء الهرم، فالأضداد وجودها ضروري يستطيع مخلوق أن يدرك، وإلا لم يدرك اللذة التي يعيش فيها، فالضدّ يظهر حسنه الضدّ، وبضدها تتميز الأشياء.

السبب الثالث: لبيان حرية الاختيار، وقوة الإرادة، والعدل على الحساب، فخلق رحمته الله الملائكة من جهة، وخلق الجنّ ومنهم إبليس من جهة أخرى، وبذا يشعر الناس بقوة إرادتهم عندما يقاومون الشر الذي يحاول هو أن يسوّله أو يسوّغه، أو يزيّنه أمامه، فيتنازع على الإنسان إرادة الكفر وإرادة الشكر، وداعية الإيمان، ونوازع الكفران، وهناك تبرز قوة إرادته،

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٠٢).

ویحاسبه الله ﷻ على اختياره، حتى إبليس نفسه كان مكلفًا مختارًا ينتمي إلى الجن وهم مكلفون مختارون كما فصلت ذلك سورة الجن، ولخص الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ﴾ [الكهف: ۵۰]، فالفسق: خروج اختياري من الطاعة إلى المعصية، ولم يتب إبليس من معصيته كما تاب آدم عليه السلام، فلعنه وأخزاه، وجعله موضع عدله في عقابه، وأخبر العالم عنه، وأشاع الله ﷻ قصته حتى عرفها المؤمن والكافر، وصيره موضع اختبار للعالمين يميز الله ﷻ به المحسنين من المسيئين، كما قال الله ﷻ عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ۲۲]، وقال عنه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ۲۱]، وكما أوجد الشياطين، فقد أوجد مقابلهم وهم الملائكة، والبشر يختارون، ويتنازع جانب الخير وجانب الشر، أي الجانب الشيطاني والجانب الملكي، ويوضح النبي ﷺ ذلك بقوله: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ؛ فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَاِيعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فَاِيعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ فَلْيَتَّعِزَّ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ۲۶۸]»^(۱). واللمة: الاجتماع والنزول والقرب والضمّة.

(۱) الترمذي (۳۲۵۶)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، ورواه ابن حبان (۹۹۷)، وذكر المحقق (الأرناؤوط) أنه ضعيف؛ لاختلاط عطاء بن السائب، ورواية أبي الأحوص عنه بعد الاختلاط، ثم ذكر له رواية عند الطبري ليست من طريق عطاء، وقال: هذا إسناداه صحيح، ولكنه أعل بالوقف على ابن مسعود عليه السلام، وأجيب بأن له حكم الرفع؛ لأنه لا يعلم بالرأي، ولا يدخله

وخلاصة القول أن الله ﷻ قد جعل لكل شيء قَدْرًا، ومن قَدَّر الله تعالى شأنه أن جعل للمخلوقات حياتين: أولى وأخرى، والأخرى هي الباقية، والأولى هي التي يكون لهم فيها الاختيار، وعندها يظهر حكمه ﷻ العَدْلُ في الحياة الباقية بناءً على اختيارهم في الحياة الفانية، ولذا قال تعالى جَدُّه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا ۝ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠، ٢١]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].. إن هذا تمام العدل، وكماله، وبناءً على اختيار كل مخلوق في الدنيا سيكون حكمه في الأخرى.

وقد لخص الدكتور/ عامر الخميسي - وفقه الله - هذه الإجابات فقال:

وَقَدْ يَجِيءُ سَائِلٌ يَتَعَرِّضُ	يُشَكِّكُ النَّاسَ بِرَأْيٍ يُمَرِّضُ
يَقُولُ فِي جَهَالَةٍ تَدْلِسُ	مَا شَأْنُ رَبِّي لَمْ يَمُتْ إِنْ لَيْسَا
نَقُولُ يَا هَذَا الْوُجُودُ مُظْهِرٌ	أَسْمَاءَ رَبِّي بِالصِّفَاتِ مُخْبِرٌ
بَرٌّ رَحِيمٌ قَاهِرٌ جَبَّارٌ	عَدْلٌ قَدِيرٌ خَالِقٌ قَهَّارٌ
ثُمَّ يَبِينُ الْخَيْرُ مِنْ شَرٍّ وَقُلْ	نَخْتَارُ فِي حُرِّيَّةٍ عِنْدَ الْعَمَلِ

الانتقال وجمال الاتصال:

ما سبق كان هو المشهد السادس من مشاهد هذه المرحلة الزمنية، فما المشهد الذي يلوح

لنا فيما بعد من الآيتين السادسة عشرة والسابعة عشرة؟

القياس، وبالرجوع إلى الروايات التي عند الطبري، قال إسلام منصور (٢/ ٨٧٦): جميع أسانيد الطبري ضعيفة إلا ما أخرجه من طريق ابن المبارك، وذكر له سنداً آخر صحيحاً عند الطبراني في الكبير .

الجواب: علمنا في هذا المشهد (السادس) أن إبليس قد اطمأن إلى كونه من المنظرين لحِقْبٍ متطاولة من الزمن، وهاهو المشهد السابع يتلوه ليبين (الخطَّة الإبلسية عابرة القرون)، وسعيه الدؤوب لإضلال بني آدم، وصرفهم عن اتباع ما أمروا باتباعه، مما أُشِيرَ إليه في مطلع السورة بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وبهذا تنعطف المشاهد وتلتئم مع مقدمة السورة.

المشهد السابع: خُطَّة إبليس الخطيرة المدمرة:

اعترف إبليس بأنه سيستغل كل لحظة من عمره الباقي في تنفيذ خُطَّة دقيقة لتدمير البشرية، إذ أعلن عداوته المستعرة ضدَّ الإنسانية هدفاً ووسيلة وغاية وزمناً إلى يوم وفاته، يقول الله تعالى جَدُّهُ: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

عناصر الخطة الإبلسية لتدمير البشرية

عنصر
[1]

تحديد الهدف، وهو عداوة الإنسانية

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: 82).

عنصر
[2]

إغواء الناس بإفساد عقيدتهم في القدر

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16].

عنصر
[3]

الفعل الأساسي في حركة إبليس

هو أن يقعد للبشرية صراط الله المستقيم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]

عنصر
[4]

الإعلان عن مآتي إبليس

والجهات التي يقاتل منها البشرية ﴿ثُمَّ لَأَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]

عنصر
[5]

تحديد النتائج

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

مآل الخطة الإبلسية

﴿قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18].

عناصر الخطة الإبليلية لتدمير البشرية:

تكونت الخطة من خمسة عناصر، وهي:

العنصر الأول: تحديد الهدف:

أعلن إبليس عن أعظم أهدافه في الحياة، وهذا الهدف هو عداوة الإنسانية، وبُصِّرنا الله ﷻ بأنه أعلن عن هذا الهدف تحديداً في سورة أخرى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعُوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ولكنك ستقول: الشيطان لم يقل هذا في سورة الأعراف، بل قال: ﴿فِيمَا أَعُوِّيَتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]؟

أجيبك: هنا حدّد أهم آية ليحقق ذلك، وبُصِّرنا الله ﷻ بهدفه الكبير في سورتي: الحجر وص، فلما حلف بأنه سيغوي البشر أجمعين، يردّ عليه سؤال: كيف ستفعل ذلك، وهناك كثير من البشر يعرفون الله ﷻ، ويعرفون صراطه المستقيم، فبيّن لهم آية ذلك، فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أي سيركّز على أن يقعد صراط الله المستقيم؛ أما من ضلّ من تلقاء نفسه، فقد كفى إبليس مؤونة إضلاله، ولذا سيكون اهتمام إبليس بمن هم في الصراط المستقيم، دون البشر الذين تطوّعوا ليكونوا مساعدين لإبليس دون طلب منه.

هنا ستسأل: ما معنى الفاء والباء و(ما) في قوله: ﴿فِيمَا أَعُوِّيَتَنِي﴾؟

الجواب: الفاء للتفريع على ما سبق، فكأنه قال: بناء على أنك طردتني وستنظرنني، وأغويتني فسأدمّرهم، وأجعلهم معي. والباء لها معنيان^(١):

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٢/ ٢٠٦).

الأول: معنى القَسَم، وتقديره: أقسم بإغوائك لي لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم، أو أقسم بعزَّتكَ التي بها تتصرَّف في الخلائق لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم كما يقال: «بالله لأفعلنَّ كذا»، ويشهد لذلك وروده في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

والثاني: أنه على معنى المجازاة، تقديره: فَلَأَنِّكَ أَعُوَيْتَنِي أو بسبب إغوائك لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم.

وهنا ستبادر إلى أن تسأل عن معنى الغَوَى في قوله: ﴿فِيمَا أَعُوَيْتَنِي﴾؟ وما وجه قوَّة هذه الكلمة التي استخدمها إبليس لِيُسَوِّغَ إضلاله الناس؟

أجيبك: بأن إبليس استخدم كلمة خطيرة تفضح في إضلال الناس، فالغَوَى^(١): هو الانجذاب إلى الشيء مع تغشٍّ وفساد: فالجراد يسمى الغاوي الذي يَغْشَى الأرض بكثافة ليأكل زرعها، والغَوَى (كالفَتَى) له معنيان:

الأول: خلاف الرُّشد: قال المُرْقَش^(٢):

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسَ أَمْرُهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لَائِمًا

ومنه قول دريد بن الصمة:

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ
وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ عَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدِ^(٣)

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣٩٩/٤)، المفردات للراغب (ص: ٦٢٠)، المعجم الاشتقاقي (٣/١٥٤٧).

(٢) البيت للمُرْقَش الأصغر (عمرو بن حَرْمَلَة)، كما في ديوان المُرْقَشَيْن (ص: ١٠٠).

(٣) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، (ص ٦١). ويروى البيت: (وهل أنا إلا من غزية...) يُنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، (٢/٧٣٨). والفعل (رشد) فيه لغتان: رَشَدَ يَرُشِدُ، وَرَشِدَ يَرُشِدُ. ينظر: تاج العروس (٨/٩٥).

والمعنى الثاني: فساد الشيء وهلاكه، وذهب إليه الطبري رحمته الله ^(١) قال: من قولهم: «غَوِيَ الفصيل يَغْوِي غَوًى»، إذا أكثر من شرب اللبن ففسد جوفه، أو إذا فقد الفصيل اللبن فمات، من قول الشاعر ^(٢):

مُعْطَفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِئِهَا دَرًّا وَلَا مَيِّتٍ غَوًى
فالإغواء من الغي والغواية، وعرفه بعضهم فقال: «أن يزئ شياطين الإنس أو الجن للمرء الشيء الفاسد (عملاً أو اعتقاداً) حتّى يحسن عنده فيعتقد فيه اعتقاداً باطلاً بأنّه صحيح حسن، ويتصرّف تبعاً لذلك» ^(٣).

فالغِيّ يحدث إما للرغبة في الازدياد من الحلال بأن يأخذ الحرام، وإما بالشعور بالحرمان، فيلجأ إلى الحرام أيضاً. والغِي: جريمة أو معصية مهلكة بناءً على اعتقاد فاسد، وتصوّر خاطئ، وقد يكون نابعاً من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، لكنه جاهل، وقد يكون الجهل نابعاً من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له غَيٌّ؛ فقد قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، أي: انتقل من الحلال في الجنة كلها إلى حرام قليل مُنِع منه، وهذا غريب جدّاً، فارتكب فعلاً جاهلاً مهلكاً بناءً على تصوّر فاسد، لكن آدم عليه السلام أدرك نفسه بالتوبة.

فالغَوِيُّ: الذي يغشاك ليهلكك ويفسد عيشك ويضع لك الأعْوِيَّةَ (كأنثية)، وهي حُفْرة تُحْفَر للذئب، يُجْعَل فيها جَدْي، إذا رآه الذئب سقط في الحفرة انكبّ عليه يريده، فيُصَاد.

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٣٣).

(٢) البيت لعامر المجنون يصف سهماً أو قوساً، كما في تاج العروس (١٥/١٤٢)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة (٤/٤٠٠).

(٣) نضرة النعيم (١١/٥١٤٤).

وإبليس يصطاد الإنسان اصطياً عن طريق شهوته، إما بأن يحرمه منها، فيغضب على ربّه كما يحرم الفصيل من اللبن على رأي الطبري رحمته الله، وإما بأن يزداد منها، فينتقل من الحلال إلى الحرام، فيحبّ شهوة التروّس، فيصبح عميلاً لأولياء الشيطان في سبيل ذلك ويحبّ شهوة المال، فينتقل من الحلال إلى الحرام، ويصبح من أشدّ الباحثين عن المال، ولو كان حراماً.

ويصوّر النبي صلى الله عليه وآله هذا الحرص الكبير على استكثار الغاوي من الشهوة حتى يخرج من الحلال إلى الحرام، فيقول:

«وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ - وذكر منهم - وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ»^(١).

وقد عالجت سورة الأعراف موضوع الإسراف الذي يحدث فيه التجاوز في الحلال. فمعنى قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: فسبب الضلال والجريمة التي وقعت فيها بناءً على فكري المستقلّ، وتصوّرني الشخصي وأنت سببت لي ذلك، كيف سبب الله تعالى له ذلك مع أن الغيّ شهوة ذاتية في نفسه؟ ولذا روى الطبري رحمته الله عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يقول: أضللتني^(٢).

وهنا سنسأل: ما العنصر الثاني في خُطّة إبليس لتدمير البشريّة؟

الجواب:

العنصر الثاني: إغواء الناس بإفساد عقيدتهم في القدر:

فيربك إبليس عقول الخلق بنسبة الإغواء إلى الله تعالى بدلاً من اتّهام النفس، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾.

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٣٣٢).

بصيرة: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: التلاعب بقضية الشر والقضاء والقدر حيلة إبليسية يوقع فيها الجُهَّال والمتسرِّعين.

وهنا ربما نقول: مهلاً قبل أن تمضي في التبصير بخطر هذا الإعلان الإبليسي ألا تتوقف عند كلماته الخطيرة؟ بماذا تخبرك كلمة ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾؟

الجواب: إنها تبصرك بأن إبليس إمام الملحدين الذين يتلاعبون بقضية القدر ليقعوا الناس في الإلحاد والكفر، فقد قال مرّة: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ فأضاف إغواءه إلى الله تعالى، وقال في آية أخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فأضاف إغواء العباد إلى نفسه، فالأوّل: يدلّ على كونه على مذهب الجبر، لأنه نسب الإغواء إلى الله ﷻ، والثاني: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ يدلّ على كونه على مذهب القدر^(١)، والقدرية هم الذين يقولون بأننا نحن الذين نملك القدر، ونحن الذين نقدر لأنفسنا ما شئنا، وأن الأمر أنف^(٢).

وهذا منه محض تلاعب، ولا أوافق ما ناقشه الرازي رحمه الله حينما ذكر ذلك ثم قال: وهذا يدلّ على أنّه كان متحيّراً في هذه المسألة، فهو يعرف الواقع لكنه أراد إرباك العقول، لأنه جمع الأمرين معاً في واقع يحير السامعين له، فقد يقول قائل: إبليس على حق؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله ﷻ، فنحن مجبورون على تصرفتانا، وهذا مذهب يتبنّاه عدد من الملحدين، ويسمى مذهب الحتمية، فهم يدّعون أننا لا نعمل إلا ما قد أجبرنا على العمل فيه، وليس لنا أي اختيار، فهو مذهب الجبرية القديم بأسلوب جديد، فإبليس لم يكن متحيّراً، كان يعرف

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢١١).

(٢) أي مستأنف، وهو قول فرقة من القدرية التي تنكر سبق العلم بالأشياء قبل وقوعها، وتزعم أن الله ﷻ لم يقدر الأمور أزلاً.

ينظر: لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٠٠).

الواقع، ولكنه أراد إرباك العقول في هذه القضية الخطيرة، وخلاصة القول أن الله تعالى شأنه لا يكون في خلقه إلا ما يشاء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقد جعل بعض مخلوقاته يتميزون بالاختيار مثل: الجن والإنس، وقد بين الله ﷻ أن إبليس لم يكن من الساجدين، وبين في سورة البقرة أنه بمحض اختياره أبى واستكبر وكان من الكافرين، فلم يقل الله ﷻ: إلا إبليس منعناه بعزتنا من أن يسجد، بل إن الله ﷻ لما سأله عن سبب امتناعه عن السجود: ﴿قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].. أليس كل ذلك يدل على اختياره؟

لكنه أصرَّ على إيراد الأمر بطريقته المربكة، فقال: فيما أغويتني، فنسب الإغواء إلى الله تعالى، ثم عاد إلى الصدق فقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، ولم يقل لأطلبن منك أن تغويهم، أو ستغويهم كما أغويتني.

وهنا يصح لنا أن نضيف وجهًا آخر في معنى الإغواء هو الإهلاك، فإن الإغواء فعل فاسد بناءً على تصوّر فاسد يترتب عليه الإهلاك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مزيم: ٥٩] أي: هلاكًا وويلًا، وبهذا الجمع ننأى جانبًا عن الجدل الذي دار بين الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم في هذه المسألة؛ فالتمترس خلف الانتماء المذهبي يسلب من الإنسان جمال معاني القرآن وجلالها.

بصيرة: التمرس خلف الانتماء المذهبي يسلب من الإنسان جمال معاني القرآن وجلالها.

تبصّر كلمة ﴿أُغْوِيَنِي﴾ بأن الفاشل والمجرم يلومان غيرهما دائمًا، ولا يلومان أنفسهما، ويبحثان عن القصور والتقصير لدى الآخرين، ويحملانهم المسؤولية التي يخليان نفسيهما

منها ومن تبعاتها، فهاهو إبليس يردُّ على ربِّه جَلَّ في علاه، فيبرر فشله وجريمته، ويسند ذلك إلى قضاء ربِّه ﷻ، لم يقل بسبب كِبَرِي.. لم يقل: بسبب استكباري.. لم يقل: بسبب اتِّباعي لنفسِي الأَمَّارة بالسوء، بل قال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾.

كان بإمكانه أن يعتذر، ويستغفر، ويقطع عن غفلته واستكباره، ويقول ما قاله آدم وزوجه ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ [الأعراف: ۲۳].. لكنه أبى إلا الظهور بمظهر المظلوم الذي يريد الانتقام، فقال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، بعكس الصالحين ذوي النفوس اللوامة.

وهذا لا يناقض ما رواه الطبري رحمه الله عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله قال: قاتل الله القَدَرِيَّةَ، لِإِبْلِيسُ أَعْلَمُ بالله منهم! (١).

فإن القَدَرِيَّةَ نفوا تقدير الله للأُمور، وجعلوا أنفسهم يقدِّرون ما يشاءون؛ لأنَّ القرظي رحمه الله عالج جانباً واحداً من كلام إبليس.

وأما إبليس فأربك المشهد: جعل فعله جَبْرًا عنه؛ لأنه زعم أن الله ﷻ هو الذي أغواه، ولكنك تعلم أن الله ﷻ جعل له الاختيار، فاختر الغيَّ، ثم نسبه إلى ربِّه ﷻ بدلاً من أن يقول كما قال آدم وزوجه ﷻ من بعد: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ۲۳]. ويظهر أنه أراد بذلك الأمر الكوني، فكل ذلك داخل تحت إرادته ومشيئته سبحانه، (٢) ويوضح هذا المعنى الآية الأخرى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا

(١) تفسير الطبري (۱۲/ ۳۳۴).

(٢) ويقرر القرظي رحمه الله أن: «أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة»، ونَبَّه البقاعي رحمه الله إلى أن «من أسند الإغواء إلى غير الله - بسبب اعتقاده أن ذلك مما ينزه الله عنه - فقد وقع في شرٍّ مما فرَّ منه، وهو أنه جعل في الوجود فاعلين يخالف اختيار أحدهما اختيار الآخر»، وأكد القاضي أبو السعود رحمه الله أن «إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته ﷻ، وحكم من أحكام سلطانه تعالى». ينظر: تفسير القرطبي (۷/ ۱۷۵)، نظم الدرر (۷/ ۳۶۸)، تفسير أبي السعود (۳/ ۲۱۹).



أَغْوَيْتَنِي لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ [الحجر: ٣٩]، قال ابن عاشور رحمته الله: الباء في ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، للسببية، و(ما): موصولة، أي: بسبب إغوائك إياي، أي: بسبب أن خلقتني غاوياً فسأغوي الناس^(١).

والذي تجمع فيه بين الأدلة أن الله ألهمه الفجور والتقوى كما ألهم المخلوقات التي ميزها بالإرادة، وأنعم عليها بالقدرة على الاختيار، فإبليس كذلك، ولكنه لما اختار الغوى نسبه إلى ربه فراراً من الإقرار بمسؤوليته، وأما ما يناقشه علماؤنا رحمهم الله هنا من مسائل عقدية أخرى فندعه إلى مظانه، ويكفي ما أظهرته البصائر القرآنية العظيمة من أن إبليس حاول التلاعب بقضية القضاء والقدر حتى عند المؤمنين، فيقول لهم ولغيرهم: لو شاء الله هدايتكم لهداكم.. لو شاء الله لك أن تصلي لصليت.. لو شاء الله لك أن تفعل الخير لفعلت.. وهكذا.

بصيرة: التلاعب بالمصطلحات خُطّة إبليس، ومسلك شيطاني قديم، ولا يزال الأبالسة والشياطين في كل عصر يسمون الأشياء بغير أسمائها إغواءً للناس، وتغريراً بهم.

ويحبونا علي بن أبي طالب عليه السلام درساً لم ينسه من النبي صلى الله عليه وآله في معالجة القضاء والقدر فيروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله طرّقه وفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله ليلة، فقال: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا -أي لو شاء أن يقيمنا لنصلي لأقامنا.. علي عليه السلام لم ينس الدرس الذي شعر به حينها، فقد أخبرنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يرد عليه، بل اكتفى بأن

(١) تفسير التحري والتنوير (٤٩/١٤).

انْصَرَفَ - قال علي عليه السلام: فانصرف حين قلنا ذلك، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٌّ يَضْرِبُ فَخْذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]^(١).

لماذا ذكر النبي عليه السلام هذه الآية؟ لأنه يسبقها ذكر عبث الشيطان في سورة الكهف، إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].
إبليس فسق بنفسه، وليس لأن الله تعالى أغواه، وحينها لم يترك علي عليه السلام قيام الليل.

﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: شعار الفاشلين الدائم، ففي الدراسة يفشل الكسيل والخوار والعاجز، ويقول: قضاء وقدر، وفي العمل يفشل العاجز والمتلاعب، ويقول: هذا قدر.

لقد ملك الله تعالى إبليس الاختيار بين أن يسجد أو يمتنع فاختار الامتناع، فكيف ردَّ أمر المنع إلى ربه تعالى لا إلى نفسه؟

كيف يقول: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، والغِي: فساد بسبب شهوة نابعة من عندك، هذا أول ردَّ على إبليس، فقله إذا: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ من جهةٍ صحيح إذا ذهبنا إلى موضوع القضاء والقدر وإلى الأمر الكوني، ولكنه فاسد لكونه جعل ما فعله كأنه أُجبر عليه، وهو لم يُجبر عليه، فإن الله تعالى أعطاه الاختيار، كما أعطى للملائكة الاختيار ذاته، فسجد الملائكة كلهم، أما هو اختار عدم السجود.

ربما تسأل: فكيف نجتمع بين هذا الكلام وقول الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟

(١) البخاري (١١٢٧).

أجيبك بأن هذه الكلمة تختلف عما حكاها الله ﷻ في نفس السُورَة من كلام موسى عليه السلام عندما قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، فالمعنى: أنت وضعتنا أمام الاختبار، وأنت الذي توفق توفق إعانة لمن شئت فتهديه، وتخذل من شئت، ولكنه قد بين لنا في سورة البقرة أن الخذلان الذي يحدث لمن يخذله ولمن يضلّه إنما يحدث للفاسقين قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، أما إبليس فجعل الأمر مطلقاً: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] أضاف إغواءه إلى الله تعالى وقال في آية أخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فأضاف إغواء العباد إلى نفسه.

لعلك تسأل: قول الله ﷻ عن إبليس ﴿لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] يُبَصِّرُنَا بالعنصر الثالث في الخُطَّةِ الإِبليسِيَّةِ لتدمير البشريَّة.. فما هذا العنصر؟

الجواب: هنا يأتي:

العنصر الثالث: الفعل الأساسي في حركة إبليس هو أن يقعد للبشريَّة صراط الله المستقيم: إذ تمضي مع بيانه الخطير؛ لتجده يذكر خطته، فيقول: ﴿لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وهنا تتعجب: هل يقعد أم يقوم ويتحرك؟ فما معنى ﴿القيود﴾ في قوله: ﴿لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟

الجواب: القيود هو أقوى تعبير عن مكر هذا الشرير.. فالقيود هيئة استقرار تدلُّ على رُسوخ وثبات، يُترصد فيه شيء آخر، كقواعد البيت يترصد فيها قيام البيت، وقواعد الهُودج تنصّبهما وتثبتهما، وهي خشبات أربع معترضة في أسفله تُركَّبُ عيدان الهودج فيها، والمُقْعَدَات - بالضم وفتح العين: الضفادع، لأنها تستقرُّ على رجليها ويديها متأهبة للقفز، وفراخ "القطا" وهي نوع من الطيور يقال لها أيضاً: مُقْعَدَات؛ لأنها تستعد برجليها قبل أن

تَنْتَهَضُ لِلطَّيْرَانِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [١٢١]، فالمقاعد هنا ليست للراحة، بل هي أماكن الأفراد والكتائب الذين يترصدون منها العدو، ومن ذلك: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩]، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] أي: ملك يترصده ويكتب له وعليه، ويقال ذلك للواحد والجمع^(١). فلاحظت بذلك أن المقاعد أماكن تتأهب منها شيء آخر، فهذه الكلمة لم يقل فيها إبليس: أجلس صراطك المستقيم، وإنما قال: لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي لأكونن في مكان في صراطك المستقيم أرسدهم فيه، وأتأهب لحرفهم، وفتنهم، وإضلالهم، كما يرصد العدو المقاتل عدوه، فضلاً عما تدل عليه لفظة (القيود) من الثبات والتلبث، بما يعني في خطة إبليس دوام أو إدامة الإغواء، حتى كأنه لا شغل له ولا صنعة إلا الإصرار والاستمرار على خطة الغواية حتى النهاية.

فالتعبير بالقيود هنا في غاية من القوة والدقة.

قبل أن تعرف المعنى الكامل الخطير لهذا العنصر من خطة إبليس لا بد أن تتعرف إلى قوة هذه الكلمة ﴿صراط﴾ فما معناها؟ وما سر التعبير بها في هذا الموضع؟
الجواب: السَّراطُ هو الطريق المستسهل الواضح الذي يمر سالكه فيه مروراً سهلاً سريعاً بلا عقبات، يقال: سَرَطَ الرجلُ الطعامَ وَزَرَدَهُ سَرَطًا وَسَرَطَانًا: بَلَعَهُ، واسترطه: ابتلعه بسهولة، وانسرط الشيء في حلقة: سار فيه سيراً سهلاً^(٢).

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٠٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٧٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨١٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٠٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٩٩٨).

فسمي الطريق الذي يسير فيه صاحبه خلف كتاب الله ﷻ صراطاً؛ لأنه طريق مستسهل واضح، يمر فيه مروراً سهلاً سريعاً^(١).

وبعد أن عرفنا أن القعود هيئة استقرار تدل على ترصد قد تتساءل: ما هذا التعبير: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لماذا يريد هذا المجرم أن يقعد في صراط الله المستقيم؟ وماذا سيستفيد من هذا القعود؟

الجواب: إن هذا التعبير موحٍ حقاً يصور لك دهاء إبليس بصورة لافتة: فالقعود حالة وسطى من ثلاث حالات تدل على حركة المخلوق الفاعل: القيام والقعود والاضطجاع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فاختر إبليس التعبير عن فعله بالقعود، ولم يقل لأقومن، فالقيام يدل على التحدي والمواجهة؛ إمّا لآخرين أو لأعباء الحياة، وهو لا يريد من الآخرين أن يشعروا بالمواجهة،

(١) لماذا كُتِبَ ﴿الصِّرَاطُ﴾ بالصاد، ولم تُكتب بالسین "السرط" في علم رسم القرآن؟

الجواب: لأن كلمة صراط أصلها من السرط كما يقول اللغويون، والسرط هو الابتلاع، كما يقال فلان استرط الطعام، أو سرط الطعام ابتلعه، وهذه لهجة موجودة عند بعض الدول، فعندما اجتمعت السین مع الراء المفخمة، والألف بعدها مفخمة أيضاً؛ لأنها تابعة لما قبلها، وكذلك الطاء مفخمة، أتوا بحرف يناسب هذه الحروف المفخمة التي هي في بقية الكلمة، فوجدوا أن السین ضعيفة وهي مرفقة، فحوّلوها صاداً لأنها تناسب وتلائم الطاء، فلما قلبوا السین صاداً صارت الصراط، والذي يقرأ بالسین يقرأ بالأصل وهو الإمام ابن كثير من رواية قُتِبِلَ عنه، والإمام يعقوب من رواية رُويس عنه، وأما الجمهور فقرأوها بما كتب عليه معظم العرب، مالوا إلى تفخيم السین فانقلبت صاداً. قال ابن الجزري ﷺ: «فانظر كيف كتبوا ﴿الصِّرَاطُ﴾ و﴿الْمُصِيطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] بالصاد المُبدلة من السین، وعدلوا عن السین التي هي الأصل؛ لتكون قراءة السین وإن خالفت الرسم من وجه قد أتت على الأصل فيعتدلان، وتكون قراءة الإشمام محتملة [والإشمام هنا أي: تنطق الصاد مُشَمَّةً صوت الزاي]، ولو كتب ذلك بالسین على الأصل لفأت ذلك وعُدَّت قراءة غير السین مخالفة للرسم والأصل، ولذلك كان الخلاف في المشهور في ﴿بِضْطَةً﴾ الأعراف دون ﴿بِضْطَةً﴾ البقرة؛ لكون حرف البقرة كتب بالسین وحرف الأعراف بالصاد، على أن مخالفَ صريح الرسم في حرف مُدْغَم، أو مُبْدَل، أو ثابت، أو محذوف، أو نحو ذلك، لا يُعَدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة مُستَفَاضَةً». النشر (١/ ١٢).

ولم يقل: لأضطجعن؛ لأن الاضطجاع هيئة راحة، وإنما اختار تعبير القعود لأنه يدل على شدة التربص والتيقُّظ والانتباه مع عدم استهلاك القوة كالقيام، ولا تصحبه الغفلة كالاضطجاع. حالة القعود جمعت الأقوى من الأمرين معاً، فهي تعبير بيانيٌ يوحي بالتفكير الإبليسي لكيفية إيقاع البشريَّة في فخاخه. قعود إبليس الصراط المستقيم يعني أنه يصطادهم دون شعور منهم ليعاقروا الخطايا التي يزينها لهم، ولذا تُذكر هذه الحالة في الكمائن الحربية: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥].

بصيرة: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾: تعبير بيانيٌ يوحي بالتفكير الإبليسي لكيفية إيقاع البشرية في فخاخه، ويدلُّ على شدة التربُّص والتيقُّظ والانتباه مع عدم استهلاك القوة كالقيام الذي يتطلب المواجهة، ولا تصحبه الغفلة كالاضطجاع.

ولكن هذا التعبير يدفعك للتساؤل: لماذا قال إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولم يقل: لأقعدن لهم في صراطك المستقيم، مع أن القعود يقتضي وجود مكانٍ يقعد فيه؟
الجواب: اللغويون يقرِّرون أن ثَمَّةَ حرفٍ جرٍّ محذوفاً؛ فيقال: آتَيْكَ غَدًا وفي غَدٍ، كما يقال: «توجَّه مكة»، أي إلى مكة، وقال الشاعر:

كَأَنِّي إِذْ أَسْعَى لِأُظْفَرَ طَائِرًا مَعَ النِّجْمِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(١)

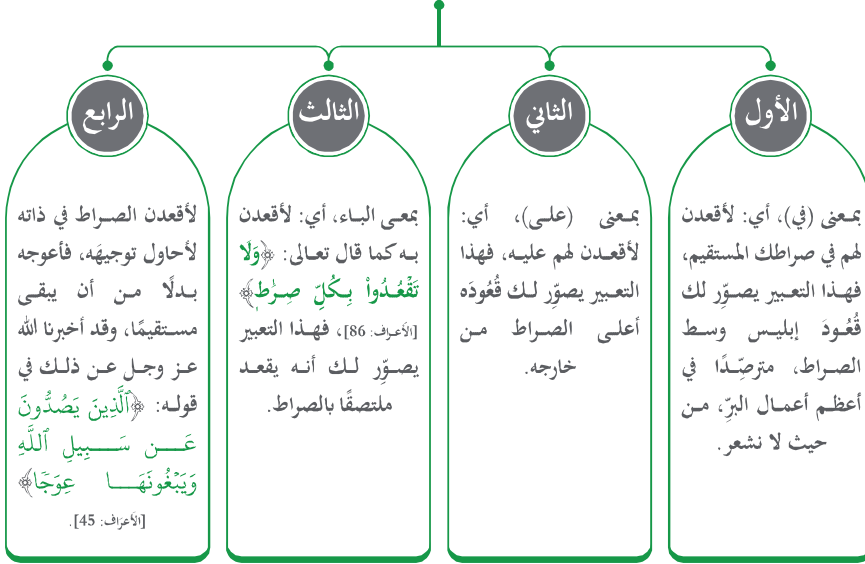
بمعنى: لأظفر بطائر، فألقى "الباء"، وكما قال تعالى: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠]

بمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، فقول إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]
كان هذا التعبير بحذف حرف الجرِّ خطيراً ينبئك بعدة معانٍ:

(١) البيت لا يعرف قائله، ذكره الأخفش في معاني القرآن (١/ ٣٢١)، والطبري في تفسيره (١٢/ ٣٣٧).

المعاني الثرية للام {لَهُمْ} في قوله تعالى :

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْثَدٍ

مِصْبَحُ تَسْمِيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

الأول: لأقعدن لهم في صراطك المستقيم، فهذا التعبير يصور لك قُعوده وسط الصراط، انتبه فقد يكون إبليس مترصداً لك في أعظم أعمال البر، وأنت لا تشعر.

الثاني: لأقعدن لهم عليه، فهذا التعبير يصور لك قُعوده أعلى الصراط من خارجه.

الثالث: لأقعدن به كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فهذا التعبير يصور لك أنه يقعد ملتصقاً بالصراط.

الرابع: لأقعدن الصراط في ذاته لأحاول توجيهه، فأعوجه بدلاً من أن يبقى مستقيماً، وقد أخبرنا الله ﷻ عن ذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥]، فالصراط الذي يوجهه إبليس ليُصيرَه مُعَوَّجاً هو العبادة أو الطريق الصحيح الذي اختطه

الإنسان نحو الصلاح، فإذا غفل فيه استلم الشيطان قيادته فوجهه نحو وجهة فاسدة.. فمثلاً، يتجه الإنسان على مركب الطاعة إلى رضا الله ﷻ، فيستغل إبليس غفلة هذا الطائع، فيجعل وجهته نحو المكاسب الشخصية التي يحققها من الطاعة، فأصبحت الطاعة عليه لا له إن لم يستفق، وليس المقصود الصراط الذي وضعه الله ﷻ، فإن إبليس لا يتمكن من تغييره.

فصار تعبيره هذا يصوّر لك أربعة معانٍ يدخل من خلالها على إضلال البشرية.

إبليس من مُقَدَّم في الملاء إلى قاطع طريق:

يُبيِّننا قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بأن إبليس بعد ما كان مقرَّباً مقدِّماً في حضرة القدس، ارتضى لنفسه أن يكون قاطع طريق، فكما أن اللصوص قُطَّاع لطريق الدنيا على المسلمين فإبليس لعنه الله قاطع طريق الآخرة ليصدِّهم عن الحق^(١).

بعد الإمامة والزعامة والتقدُّم والرئاسة
 في حَضْرَةِ القدوس حيث تشع أنوار القداسة
 تهوي بك النفس الغرور إلى ضلال وانتكاسة
 ومن ارتكاس تستفزك يا جهول إلى ارتكاسه
 وطرحت ثوب الطهر مُرتدياً لجلباب النجاسة
 بُدِّلَتْ طَرْدًا بعد قُرْبٍ يا لبؤسك والتعاسة
 فاخرج رجيمًا واهبطن يغشاك ذلك والخساسة^(٢)

فالتعبير يصوّر لك مدى خُبث إبليس ودهائه، فما معنى ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؟

(١) ينظر: بستان الواعظين، ابن الجوزي، (ص: ١٨).

(٢) الأبيات لشاعر البصائر: د/ سعيد بن دجاج - وفقه الله -.

الجواب: أي يحوّلون صراط الله عن حقيقته المستقيمة، فيقولون للناس: ادخلوا إلى الإسلام، هذا هو سبيل الله، لكنهم يعطونهم إسلامًا على أهوائهم، وعلى مقاييسهم، وليس وَفْقَ ما أراد ربُّهم ﷻ، فأراد إبليس أن يبيّن أن سالك الصراط المستقيم سيسلكه، ولكن إبليس يُعلن بأنه سيكون قاعد الصراط المستقيم لئربك السالكين، ويغيّر عليهم مفاهيم الدّين.

فإبليس إمّا أن يكون على الصراط ليخرف مَنْ يحاول أن يدخل إلى الصراط عن الدخول، هذا إذا كان على الصراط، يعني فوق الصراط.

وإمّا أن يكون في الصراط لمن عصى إبليس ودخل، وهنا سيحاول إرباك الصراط المستقيم عليه، سيُربِّكه في مفهوم الصلاة وأدائها.. سيُربِّكه في مفهوم الصوم وأدائه.. سيُربِّكه في مفهوم الأخوة وأدائها، في مفهوم التعامل مع الناس وأدائه، وهكذا كل المعاني الإسلامية سيُحرّفها، فقد يظن الإنسان أنه سلك الصراط المستقيم، وهو في الحقيقة كما قال الله ﷻ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

القعود يدلّ على التريّص والانتظار والترقب والترصّد لاستغلال الفرصة المناسبة، وغالبًا تكون فرصة غفلة من السالكين، وعندها يقتنص إبليس الفرصة للقيام بخرف البشريّة التي تسير على الصراط المستقيم، إمّا من فوق الصراط فيمنعهم من دخول هذا الصراط كأَنْ يَغْضُ لهم هذا الصراط ويقول لهم الإسلام فيه كذا وكذا، وأما إذا دخل الإنسان في الإسلام وكان مسلمًا فإنه يلعب بعقله فيحرّف مفاهيم الإسلام عنده، فيلقي به في سُبُل الضلال، وأودية الهلاك.

وهو هنا يحلف أن يقعد الصراط المستقيم لأنه يعلم أن الأصل في الإنسانيّة الفطرة السليمة، حيث سيسير كثير من البشر على صراط الله المستقيم، وهو لن يقعد خارجه، بل

سيكون موجودًا قبل أن يتحركوا فيدخلوا الصراط، وسيكون موجودًا بعد أن يدخلوا الصراط.

وقعوده في الصراط المستقيم يدلُّ على تركيزه الشديد على الصالحين لا على الفئة العفنة من الفاسدين، ولهذا قيل لبعض السلف: إن المجرمين يقولون: لا نُوسُوسُ، فقال: صدقوا، وما يصنع الشيطان بالبيت الخراب^(١).

كما يدلُّ قعوده على الصراط المستقيم أنه يُواظِبُ على الإفسادِ مُواظِبَةً لا يَفْتَرُ عَنْهَا، ولهذا المعنى ذَكَرَ الْقُعودَ؛ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُبَالِغَ فِي تَكْمِيلِ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ قَعَدَ حَتَّى يَصِيرَ فَارِغَ الْبَالِ فَيُمْكِنُهُ إِتِمَامُ الْمَقْصُودِ، وَمُواظَبَتُهُ عَلَى الْإِفْسَادِ هِيَ مُواظَبَتُهُ عَلَى الْوَسْوَسةِ حَتَّى لَا يَفْتَرُ عَنْهَا^(٢).

لا ينقضي عجبك من دقة هذا التعبير:

فقول إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] يعني أنه عالمٌ بِالدينِ الْحَقِّ وَالْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ؛ كما أنه عالمٌ بِأَنَّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَذْهَبِ وَالْإِعْتِقَادِ هُوَ مَحْضُ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا قَالَ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]^(٣)، وعلى الرغم من عِلْمِهِ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا أَنَّهُ يَصِرُّ عَلَى اخْتِيَارِ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، فَلَا تَظُنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَرَفَ الْحَقَّ لَا بَدَأَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، فَقَدْ يَكُونُ أَشَدَّ عداوةً لِلْحَقِّ لِمَعْرِفَتِهِ بِهِ.

فإن قلت: هل أخبرنا النبي ﷺ بنماذج محسوسة لقعود إبليس في الصراط المستقيم يتلاعب بالناس؟

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/٦٠٩).

(٢) تفسير الرازي (١٤/٢١٢).

(٣) المرجع السابق.

الجواب: يحدثنا سَبْرَةُ بْنُ أَبِي فَاكِهٍ عن أنموذج لعودة الشيطان صراط الله المستقيم، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَفِهِ»^(١)، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسَلِّمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءِ أَبِيكَ» فهنا قعد إبليس أمام الصراط المستقيم لمنع الإنسان من أن يسلكه.

قال: فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ -وهو الحبل الطويل، يشد أحد طرفيه في وتد أو في غيره، والآخر في يد الفرس، فيدور فيه ويرعى، ولا يذهب لوجهه. ويعني بذلك: أن الهجرة تحبسه عن التصرف والضرب في الأرض، والسكن في عزة، والعودة إلى أرضه وسمائه، والهجرة أمرها شديد -فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتَنْكُحُ الْمَرْأَةَ، وَيُقَسَّمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَّتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

وبَيَّنَ لنا رسول الله ﷺ أن الشيطان يترَبَّصُ للإنسان في كُلِّ حين حتى في الصلاة، متى ينصرف الشيطان؟ فقط وقت الأذان، أما بعد الأذان فإنه يأتي في الصلاة وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا قُضِيَ -أي المؤذن- النِّدَاءُ أَقْبَلَ -أي الشيطان- حَتَّى إِذَا تُؤْبِ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا

(١) جمع (طريق)، مثل: (رغيف) و (أرغفة).

(٢) أحمد (١٥٩٥٨)، واللفظ له، والنسائي (٣١٣٤)، وصحَّح إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (ص: ٩٠٦)، وقال الأرنؤوط في تخريج المُسند: «إسناده قوي».

قَضَى التَّوْبَةَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ أَذْكَرُ كَذَا، أَذْكَرُ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَذْكُرِي كَمْ صَلَّى^(۱).

هذا في الصلاة فما بالك بالحال خارج الصلاة؟

ولم يرد التعبير القرآني بوصف (مستقيم) إلا في الصراط، والطريق، والقسطاس، واستقامته تعبير عن سلامته من الاعوجاج، وخلوه من المنحدرات والمنعرجات، وأمنه على السائرين فيه دون خوف أو اضطراب أو خطر كما هو طريق المسافرين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(۷) يُبَصِّرُنَا بالعنصر الرابع من خُطَّةِ إبليس لتدمير البشرية.. فما هذا العنصر؟

العنصر الرابع: الإعلان عن مآتي إبليس والجهات التي يقاتل منها البشرية، ويحاصرها: وتتميز خطته بجهد ضخم متتابع لإغوائهم، فلا يكتفي بالقعود بل يتحرك بشدة في جميع الاتجاهات إذ قال: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ستسأل: لماذا حدد هذه الجهات الأربع؟ ولماذا خالف بينها في التعبير، فأتى بحرف الابتداء في الأمام والخلف ﴿مِّنْ﴾، وأتى بحرف المجاوزة ﴿عَنْ﴾ في ذكر اليمين والشمال؟

الجواب: تلوح لك من ذكر هذه الجهات الأربع بعض المعاني المبصرة:

المعنى الأولى: سيأتيهم إبليس عن طريق جنوده من الجهات الأربع (أمام وخلف، يمين وشمال)، لأنه يريد حصارهم من جميع الجهات التي يمكنهم من خلالها الحركة، ولذا لم

(۱) البخاري (٦٠٨).

يذكر الأعلى والأسفل؛ لأن الإنسان لا يستطيع الحركة منهما في العادة، وهو يريد أن يبين أنه سيطبق الحصار على الإنسان. وذكر ابن القيم رحمته الله أنه صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «ولم يقل: (من فوقهم)؛ لأنه علِمَ أن الله تعالى من فوقهم»، قال الشعبي رضي الله عنه: «فالله تعالى أنزل الرحمة عليهم من فوقهم»، وقال قتادة رضي الله عنه: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كلِّ وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»^(١).

أفلا يحذر المرء من هذا العدو الخطير الخفي المترصد المَحَاصِر؟
فأما الأمام والخلف فأتى بحرف الابتداء ﴿مِنْ﴾، فقال عنهما: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ لأنه يريد أن يعبر عن شدة محاولته إحكام القبضة على الإنسان قبضاً من الأمام والخلف، فإذا أردت أن تحكم القبضة على الإنسان فأمسكه من الأمام ومن الخلف في نفس اللحظة، فأتى بالحرف ﴿مِنْ﴾ الذي يدلُّ على بداية الهجوم، وأما حرف المجاوزة ﴿عَنْ﴾ في اليمين والشمال، ف«عن يمينه» يدلُّ على أنه يجلس منه مجافياً منحرفاً في زاوية، لا محاذياً ملاصقاً، وذلك أمكن في السيطرة على الخصم، الآن هو يريد أن يبين أنه سيطر على الخصم، يبدأ من الأمام ليمسك به، فالإنسان سيهرب من الخلف فيأتي ويمسكه من الخلف، ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، عند ذلك إذا أراد الانفتال من اليمين يأتيه عن يمينه أي ليس مباشرة من جهة اليمين وإنما مبتعداً قليلاً عن اليمين حتى يستطيع أن يسيطر على حركته وفكره، وكذلك عن الشمال.

المعنى الثاني: يمكن أن ترى في معنى هذه الجهات ما ترمز إليه عادةً، فيكون المعنى:

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم من الأمكنة والأزمنة والأحوال والأموال مما يرونه.

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٣).

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: ما يخلفونه وراء ظهورهم من الزمان والمكان، عندما يغيبون عن أولادهم وأهلهم وأموالهم.

﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: ما يأتيهم من السرور والرخاء والقوة؛ لأن كلمة (اليمين) تشير إلى ذلك.

﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: ما يأتيهم من المصائب، والآلام؛ لأن الشمال قد يشار به إلى الألم.

الحصار الإبليسي من الجهات الأربع وغيث القرآن واليقين:

شعر الصالحون بخطر هذا الحصار، وتصوّروا بعض ما يأتيهم من الشيطان في تلك الجهات، وما ترمز إليه تلك الجهات فعن شقيق بن إبراهيم الأزدي البَلخي رحمه الله (ت: ١٩٤هـ): «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي:

أَمَّا من بين يدي فيقول: لا تخف، فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَاْمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]، وَأَمَّا من خلفي، فيخوفني الضيعة على مَنْ أَخْلَفَهُ، فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وَأَمَّا من قِبَل يميني، فيأتيني من قِبَل الشَّاءِ، فأقرأ: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وَأَمَّا من قِبَل شمالي فيأتيني من قِبَل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤]»^(١).

المعنى الثالث: مثل علماؤنا لفعل إبليس في الأمام والخلف فقالوا:

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أفتَرَّهُم عَنِ الرَّغْبَةِ فِي سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهَا وَيَصِلُونَ إِلَيْهَا، أي: أنا أَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّقَدُّمِ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ ﷻ: ﴿لِمَن شَاءَ

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٤).

مِنْكُمْ اَنْ يَتَقَدَّمَ اَوْ يَتَاَخَّرَ ﴿٣٧﴾ [المُدَّثَّر: ٣٧] فَهِيَ بَيْنَ اَيْدِيهِمْ، ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ يَعْنِي: اُقْوَى رَغْبَتَهُمْ فِي لَذَاتِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا وَاَحْسَنُهَا فِي اَعْيُنِهِمْ، فَاِذَا كَانَتِ الْاٰخِرَةُ بَيْنَ اَيْدِيهِمْ كَانَتِ الدُّنْيَا خَلْفَهُمْ؛ لِاَنَّهُمْ يَخْلُقُونَهَا، وَكَانَ ﴿مَنْ بَيْنَ اَيْدِيهِمْ﴾ اَي يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ، ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ يَجْذِبُهُمْ نَحْوَ التَّأَخُّرِ اِلَى الدُّنْيَا.

كما مثّلوا لمجيئه من اليمين والشمال، فقالوا:

﴿وَعَنْ اَيْمَانِهِمْ﴾: يَعْنِي اَفْتَرَهُمْ عَنِ الْحَسَنَاتِ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: اُقْوَى دَوَاعِيهِمْ فِي السَّيِّئَاتِ. قَالَ ابْنُ الْاَنْبَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: (الْاِيْمَانُ) كِنَايَةٌ عَنِ الْحَسَنَاتِ، وَ(الشَّمَائِلُ) عَنِ السَّيِّئَاتِ قَوْلٌ حَسَنٌ؛ لِاَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: اجْعَلْنِي فِي يَمِينِكَ، وَلَا تَجْعَلْنِي فِي شِمَالِكَ، يُرِيدُ: اجْعَلْنِي مِنَ الْمُقَدَّمِينَ عِنْدَكَ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْمُؤَخَّرِينَ^(١).

المعنى الرابع: فِي الْبَدَنِ قُوَى اَرْبَعٌ، هِيَ الْمَوْجِبَةُ لِقُوَّاتِ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْجِسْمَانِيَّةِ: فَاِحْدَاهَا: الْقُوَّةُ الْخَيَالِيَّةُ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا مِثْلُ الْمَحْسُوسَاتِ وَصُورِهَا، وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ فِي الْبَطْنِ الْمُقَدَّمِ مِنَ الدِّمَاغِ، وَصُورُ الْمَحْسُوسَاتِ اِنَّمَا تَرْدُ عَلَيْهَا مِنْ مُقَدَّمِهَا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ بَيْنَ اَيْدِيهِمْ﴾.

وَالْقُوَّةُ الثَّانِيَّةُ: الْقُوَّةُ الْوَهْمِيَّةُ الَّتِي تَحْكُمُ فِي غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ بِالْأَحْكَامِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْمَحْسُوسَاتِ، وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ فِي الْبَطْنِ الْمُؤَخَّرِ مِنَ الدِّمَاغِ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾.

وَالْقُوَّةُ الثَّالِثَةُ: الشَّهْوَةُ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ فِي الْكَبِدِ وَهِيَ مِنْ يَمِينِ الْبَدَنِ.

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢١٤).

وَالْقُوَّةُ الرَّابِعَةُ: الْغَضَبُ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي الْبَطْنِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ، فَهَذِهِ الْقُوَّةُ الْأَرْبَعُ هِيَ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَنْهَا أَحْوَالٌ تُوجِبُ زَوَالَ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ. وَالشَّيَاطِينُ الْخَارِجَةُ مَا لَمْ تَسْتَعِنْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْأَرْبَعِ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى إِلْقَاءِ الْوَسْوَاسَةِ، فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَعْيِينِ هَذِهِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، وَهُوَ وَجْهُ حَقِيقِي شَرِيفٌ.

فظهر بذلك أن المراد من قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الْخَيَالُ وَالْوَهْمُ، وَالضَّرَرُ النَّاشِئُ مِنْهُمَا هُوَ حُصُولُ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ، وَذَلِكَ هُوَ حُصُولُ الْكُفْرِ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ، وَالضَّرَرُ النَّاشِئُ مِنْهُمَا هُوَ حُصُولُ الْأَعْمَالِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَالْغَضَبِيَّةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَعْصِيَةُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الضَّرَرَ الْحَاصِلَ مِنَ الْكُفْرِ لَازِمٌ، لِأَنَّ عِقَابَهُ دَائِمٌ. أَمَّا الضَّرَرُ الْحَاصِلُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فَسَهْلٌ؛ لِأَنَّ عِقَابَهُ مُنْقَطِعٌ، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِكَلِمَةٍ ﴿عَنْ﴾؛ تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ فِي اللَّزُومِ وَالِاتِّصَالِ دُونَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ^(١).

ستسأل: ماذا بشأن الجهتين المتبقيتين: الفوق والأسفل، فلماذا لم يذكرهما إبليس في

خطته؟

الجواب: تظهر عدّة أسباب منها:

السبب الأول: لأن الجهات الأربع تمثّل أماكن محاصرة إبليس للإنسان، والإنسان لا يملك قدرة التحرك من الأعلى أو الأسفل، فلا يحتاج إبليس أن يأتيه من هاتين الجهتين ليحاصره.

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢١٤).

السبب الثاني: ذكر علماؤنا ﷺ أن الإنسان إذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخُضُوعِ، فإن الله ﷻ يُقْبِلُ عليه، ولا يستطيع الشيطان أن يحاصره هاهنا، وإذا وُضِعَ جَبْهَتُهُ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى سَبِيلِ الْخُشُوعِ اقترَبَ من الله ﷻ أعظم الاقتراب، ويكون قد عصى الشيطان في الموضع الذي عصى فيه الشيطانُ الرحمنَ وهو السجود، فكان الله ﷻ مع الساجد ولياً ومؤيداً ونصيراً، وإذا اتصل المرء بالله ﷻ خاشعاً، وارتفع العمل الصالح الزكي الطاهر منه إلى السماء أعزّه الله ﷻ وهو ذو الكبرياء، وحماه من الشيطان وأعاده، وعندها لا يجد الشيطان سبيلاً عليه، فالشيطان ليست عنده قوة القهر فيمنع، ولا قوة الحجة فيقنع.

ولقد كان النبي ﷺ يذكر هذا الحصار الشيطاني المرعب، فيعلمنا أن نستعِذَ بالله منه، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» (١).

وقد تتساءل: فلماذا ذكر النبي ﷺ الجهتين الآخرين مع أن إبليس لم يذكرهما؟

أجيبك: بأن النبي ﷺ دعا بما هو أعمُّ مما يتعلَّقُ بإبليس، فالحفظ الذي طلبه النبي ﷺ يتعلَّقُ بكلِّ ما يمكن أن يسوء الإنسان، فقد تأتته الصواعق، والأعاصير، والزلازل، والبراكين، والرياح المدمِّرة، والأمراض، وهذه كُلُّها ربَّما تأتي من إحدى الجهات الستِّ، ولا تقتصر على الأربع، فلذا كان دعاء النبي ﷺ شاملاً.

(١) أبو داود (٥٠٧٤)، وأحمد (٤٧٨٥)، وصححه الأرناؤوط، والوادعي في الصحيح المسند (٧٦٥).

وربما تسأل: ماذا بشأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، هل نبصر من خلاله العنصر الخامس من عناصر الخُطَّةِ الإِبليسية؟ فما هذا العنصر؟

الجواب: هنا يأتي:

العنصر الخامس: تحديد النتائج:

فقد توقع إبليس أن يحقق وَفْقَ خَطِّته أهدافه بنسبة عالية، إذ سيجعل أكثر بني آدم غير شاكرين لرَبِّهم، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]:
 قرّر إبليس جازماً أن خَطِّته في إيقاع بني آدم ستتحقّق، وغلب على ظنّ إبليس أنه سيجرُّ أكثر بني آدم إلى مُرَبِّعه الذي يلعب فيه، وبيّن الله ﷻ أن بعض المتساقطين في فخاخ الشيطان حقّقوا ظنّه، هذا يعني أنهم سيكونون متعاونين مع إبليس، وسيكونون جزءاً من تحالفه المحلي والدولي لإيقاع بني آدم في فخٍّ "عدم الشكر".

يذكر الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سَبَأ: ٢٠].

بدلاً من أن يفكّر الإنسان بالنعم العظيمة التي حباه الله ﷻ بها سيقوم الشيطان بإشغاله ليمنعه من التوجه بالشكر لله.. الشكر الذي يمثّل مفتاح الاعتراف بحقيقة الحياة، فالله ﷻ خلق الإنسان وكرّمه، فإن شَكَرَ اعترف بالحقيقة، وطبّق النظام الإلهي لِيَسْعَدَ، لكنه إن لم يشكر اضطرب وسبّب المصائب والإفساد لنفسه ولأرضه.

وستقول: لماذا ذكر عدم الشكر، فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ولم يقل: وستجد أكثرهم كافرين؟

فأجيبك: لأن الله ﷻ ذكر الشكر في الآية العاشرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فتوافق قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

مع قول إبليس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، فذكر إبليس عدم الشكر ليعلم المؤمنين في تبجح شديد أنه قد يغويهم غوايةً تختلف شيئاً عن غواية الكافرين، فإن لم يخرجهم إلى الكفر، فسيخرجهم إلى عدم الشكر، وهنا يأتي قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ۱۳]، ولأن ذكر الشكر يدلُّ على احتياج الإنسان للرحمن لا على احتياج الرحمن لعبادة الإنسان.

بعد أن بَصَّرْنَا الْآيَاتَانِ (١٦-١٧) بِخُطَّةِ إبليس ليقع أكثر بني آدم في عدم الشكر نتقل إلى الآية (١٨)، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ فما الذي يُبَصِّرُنَا اللهُ ﷻ به فيها؟
الجواب: إنها تُبَصِّرُنَا بِمَالِ الخُطَّةِ الْإِبِلِيسِيَّةِ:
مَالِ الخُطَّةِ الْإِبِلِيسِيَّةِ:

بعد حشد إبليس لكل عناصر خطته المجرمة، وتظاهره بالتزامه الأكيد بإغواء بني آدم، ترى ما الذي ستؤول إليه جهوده الخبيثة؟ وما الذي ستمخض عنه خطته المجرمة؟
يأتي الجواب من الحق سبحانه: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

يقول الدكتور/ عامر الخميسي - وفقه الله - راسماً لك هذه المعاني:

قَدْ أَوْجَدَ اللهُ الْعَظِيمُ آدَمًا	ثُمَّ حَبَاهُ دُونَ حَدِّ نَعَمًا
مَكَانَةً مَعَايِشُ وُجُودُ	وَالْخَلْقُ وَالتَّصْوِيرُ وَالسُّجُودُ
قَدْ هَيَّأَ الْأَرْضَ لَهُ قَبْلَ الْمَجِي	لِغَايَةِ التَّمَكِينِ وَالرِّزْقِ كُفْيِ
حَتَّى يَكُونَ عَامِرًا خَلِيفَهُ	مُسَدِّدًا غَايَتَهُ شَرِيفَهُ

وَحِكْمَةُ اللَّهِ اقْتَضَتْ تَسْلِيْطَ
حَتَّى يَكُوْنَ حَاجِزًا لِلْخَلْقِ
وَيصطفي إبليس جُنْدَهُ من البشريَّة لیساعده في الإفساد، ويحاول توسيع الإنجاز الذي
حقَّقه بأن يضمَّ إليه أتباعه الفاسدين والمفسدين، وهم دركات، فمنهم الفاسد في نفسه،
ومنهم المساعد لإبليس المفسد لغيره، ويحذِّرهم الله ﷻ من هذه التبعية العمياء، فيُصدِر
قراره الفصل فيهم: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٨]:
ولما صرَّح إبليس بخطئه المجرمة لم يعاقبه الله ﷻ عقوبةً ماديةً مؤلمةً مباشرةً في الدُّنيا؛
فلم يقل: سأهلكك أو حكمت عليك بالهلاك الفوري؛ إذ اقتضت حكمته أن يكون نظام
الحياتين مختلفًا، والعقوبة الحقيقية إنما تكون في الدار الحقيقية: إنها الدار الآخرة، لكن الله
-جَلَّ ذِكْرُهُ- أخبره بحكمه الفصل فيه حيث أمره بالخروج من الملاء الأعلى مجددًا ﴿قَالَ
أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وهنا ستسأل: لماذا كرر الأمر بإخراج إبليس مجددًا؟

الجواب: لقد قيَّد إخراجَه هنا بحالة سيئة؛ إذ قال عن حالِه حالَ خروجه: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا
مَذْذُومًا مَّدْحُورًا﴾.

فأمر الله ﷻ بخروجه في المرة الأولى فحسب، فقال: ﴿فَأَخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

فكان الأمر بالخروج مطلقًا، أما هذه الآية فالأمر بالخروج فيها مقيد، إذ قال الله ﷻ:
﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

فقيَّد خروجه بأن يكون مَذْذُومًا مَّدْحُورًا، فليس خروجًا عاديًا، بل هو خروج ذمٍّ ودخْرِ.

وهنا ستسأل: فما معنى ﴿مَذْذُومًا مَّدْحُورًا﴾؟

الجواب: فأما ﴿مُذْءُومًا﴾^(١) فمشتق من ذَاكَ الْمَتَاعِ (مِنْ بَابِ فَتَحَ)، وَذَامُهُ بِالتَّخْفِيفِ يُذَيِّمُهُ ذِيماً وَذَامًا (يَقْلِبُ الهمزة ألفاً): إِذَا عَابَهُ وَذَمَّهُ، فَهُوَ مُذْءُومٌ أَيُّ: مُحَقَّقٌ مُعِيبٌ، وَأَضَافَ ابْنُ فَارِسٍ ﷺ فِي مَعْنَى ذَاكَ: الْكَرَاهَةُ، وَالذَّامُ: الْإِحْقَارُ، وَيَقُولُونَ فِي الْمَثَلِ: لَا تَعْدَمْ الْحَسَنَاءُ ذَامًا، وَمُذْءُومًا: مُذْمُومًا بِأَبْلَغِ الذَّمِّ^(٢)، فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿مُذْءُومًا﴾: أَخْرَجَ مِنْهَا مُحَقَّقًا مَكْرُوهًا مُعِيبًا بِأَسْوَأِ دَرَكَاتِ الذَّمِّ.

وأما قوله: ﴿مَذْهُورًا﴾ فمشتقة من دحر^(٣)، والدَّحْرُ: هُوَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ بِعَنْفٍ عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ كَرَاهَةً لَهُ وَنَفُورًا مِنْهُ، يَقَالُ: دَحَرَهُ دُحُورًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَيُقْدَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨ - ٩] مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ أَوْ حَالِ أَيُّ: مَدْحُورِينَ بِمَا قُذِفُوا بِهِ مِنَ الشَّهْبِ.

فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلِمَتَيْنِ مَعًا ﴿مُذْءُومًا مَذْهُورًا﴾: أَخْرَجَ مِنْهَا مَكْرُوهًا مُتَّصِفًا بِأَسْوَأِ صِفَاتِ الْعَيْبِ وَالذَّمِّ مَطْرُودًا عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ.. لَكِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَعْذِّبْهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْإِهَانَةِ؛ لِأَنَّ التَّعْذِيبَ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَجْلِ الْمُسَمًّى.

لَكِنَّكَ لَا بَدَّ أَنْ تَتَدَبَّرَ فِي هَذِهِ الْعُقُوبَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِإِبْلِيسَ، حِينَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ لَهُ: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مُذْءُومًا مَذْهُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، فَلَمْ يَعَاقِبْهُ رَبُّنَا مِنْ فَوْرِهِ الْعُقُوبَةِ الْمَدْمُورَةِ بَلْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَمَاذَا يَصُورُ لَكَ هَذَا؟

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣٦٨)، مفردات القرآن (٣٣٥).

(٢) وينسبون إلى أمية بن أبي الصلت قوله:

وَقَالَ لِإِبْلِيسَ رَبُّ الْعِبَادِ أَنْ أَخْرِجْ دَحِيرًا لَعِينًا ذَمُّومًا

وعندي نظر في إثبات هذا الشعر، وأظنه من المنحول. ينظر: ديوان أمية بن أبي الصلت (ص: ١١٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٣٤)

الجواب: يصوِّر لنا قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ عقوبة الذي ينازع في الواجبات:

بصيرة: لا تنازع ربك في الواجبات، فتحرم الفضائل والمكرمات، فيأبليس نازع الله في ألوهيته بأن أبى أن يقبل أمره، فأخرجه الله ﷻ إخراجاً مذمُومًا مدحوراً أي: معيِّباً مكروهاً مقترناً بالطرد المهين ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، ولا تظنَّ أن الله ﷻ عندما لم يعاقبك من فورك غفل عنك، بل يؤخرك إلى أجلك المسمى عنده.

ولك أن تتأمل في حال هذا البائس الشقي، فبعد الرفعة والحظوة في حظائر القدس، يطرد مذمومًا مَذْمُومًا ملومًا مدحوراً، وبعد أن كان يُدعى في الملأ الأعلى بجميل الأسماء والصفات، إذا به ينادى عليه ﴿أَهْبِطْ﴾ ﴿أَخْرُجْ﴾، فيا لعاقبة وشؤم الكبر والعصيان، ومشاقة أمر الواحد الدِّيَّان!

والآن عد بنا إلى الحزب الخاص بإبليس:

فماذا يصوِّر لك قوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]؟

بصيرة: إبليس سيستمتع بالدُّنيا، ويكوِّن له أتباعاً يقدِّمون له الولاء، ويساعدونه على أن يزيِّن للبشريَّة التمرد على الأمر الإلهي، وسينتشرون في الأرض، وقد لا يجدون العقوبة الإلهية العاجلة، لكن عقوبتهم الآجلة بانتظارهم، إذ قال تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

هنا تشهد الملك الإلهي؛ إذ يُقسَم الله ﷻ بعزَّته مبيِّناً مصير إبليس وقواته، فاللام في ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ موطَّئة للقَسَم، وجواب القَسَم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وهو سادُّ مسدِّ جواب الشرط، كأن الله ﷻ قال: أقسم بعزَّتي لمن تبعك منهم لأمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ، وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾

للتبعض أي: سَيَبْعُكُ بعضهم، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ جنسية تؤكد أن البعض الذي اتبع إبليس سيدخل جميعهم جهنم نسأل الله العافية، ونعوذ به من الشيطان ومن جهنم. والآية تُبَصِّرُنَا بأن غيرهم سيحميمهم الله ﷻ من جهنم، ويكون المعنى: كأن الله ﷻ يقول: وَعَزَّيْ لَمَنْ تَبَعَكَ من البشر وهم بعض منهم لَأَمْلَأَنَّ جهنم من جنسكم أجمعين.

الآية تجيب عن الملحدين المعاصرين والقدامى:

فالآية تنبئنا عن مصير إبليس ومن يواليه، ويناصره، ويتبع سبيله، ويسلك طرقه، وهنا يأتيك الجواب على السؤال المشهور الذي يردده الملاحدة: لماذا لا يعاقبني الله إن كان إله الكون حقاً؟

أجيبك: بأن الذي يعاقب من فوره هو الذي يخاف، فمن أنت حتى تخيف الله ﷻ، وله ملك السموات والأرض، وهاهو إبليس.. قد كان في الملاء الأعلى لم يدّمره الله ﷻ، وهو ينازعه في ألوهيته، ويعصي أمره، ويحلف بأن يغوي عباده.. كل هذا يبصرك بأن منازعة الله ﷻ في ألوهيته لا يعني أن تحل العقوبة على الفاسق من فوره.. هذا شأن ملك الملوك الذي لا ينقص من ملكه أن يعصيه كل الجن والإنس، فمن هذا العاصي المغرور الذي يظن أنه لا بد أن يعاقبه الله ﷻ بمجرد عصيانه؟ من هو حتى يبالى الله ﷻ به؟

فهذه الأيام تخاف الأنظمة السياسية من معارض واحد إذا ظهر، وتحاول أن تُوقفه، أمّا الله ﷻ الذي له ملك السموات والأرض، فمن تكون أنت أيها الهباءة الذي لا وزن لك في هذا الكون حتى يعاقبك الله ﷻ لمجرد أن تعصيه، وهو غني عنك، ولا يمكن أن تخرج من ملكه؟

وقد بَصَّرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بمثل ذلك، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ، قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يَبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ»^(١).

وهذا المعنى - كما رأيت - من أن الله ﷻ بيّن أن عقوبة إبليس ومن معه إنما تكون في الآخرة، ولكن هذا لا يمنع من أن يعاقب بعض المجرمين والمحادين لله بأنواع من العقوبات في الدنيا، وقد نال إبليس شيء من ذلك - كما ترى - من الطرد والحر، والذلة والصغار بعد العزة، والبعد بعد القرب، مع الذم واللعن في حقه من الخالق والمخلوقين. وبعض أتباع إبليس ربما لحقهم شيء من ذلك، وكثير من ذلك قد قصه الله في كتابه من أخبار الأمم المكذبة الهالكة، وكل ذلك يجري بنواميس ووفق حكم وقوانين ربانية لا تتخلف.

وعندما تسمع الله ﷻ يقول لإبليس: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَذْخُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٨) يمكنك أن تسأل: ما أساس الصراع بين القوى الإبلسية والذرية الآدمية؟

الجواب:

الآية تكشف لك بصورة مذهشة عن أساس الصراع بين القوى الإبلسية والذرية الآدمية: أساس الصراع هو الاتباع، فأنت تسمع الله ﷻ يقول لك من أول السورة ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^[الأعراف: ٣]، وفي المقابل

(١) ابن ماجه (٢٥٧)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١ / ٣٨): «هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ فِيهِ نَهْشَلُ بْنُ مَسْعَدٍ، قَالَ الْبُخَارِيُّ رَوَى عَنْ مُعَاوِيَةَ النَّضْرِيِّ أَحَادِيثَ مَنَاقِيرَ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: رَوَى عَنِ الضَّحَّاكِ الْمَعْضَلَاتِ، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ النَّقَاشُ: رَوَى عَنْهُ الضَّحَّاكُ الْمَوْضُوعَاتِ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ؓ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْجَامِعِ»، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٣١٧١).

يَصْرُّ إِبْلِيسَ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حِينَ أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ ﷺ، وَعِنْدَمَا حَقَّقَ مَعَهُ لِيُظْهِرَ عَدَالَتَهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَصْرَّ عَلَى مَنَازَعَةِ رَبِّهِ ﷻ أَلُوْهُيَّتِهِ، وَأَنْ يَسْتَكْبِرَ عَلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ، ثُمَّ أَظْهَرَ أَنَّهُ لَنْ يَكْتَفِيَ بِمَا جَنَاهُ عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ جَرَّهَ حِلْمُ اللَّهِ ﷻ، وَسَعَةُ مَلِكِهِ إِلَى أَنْ يَصْرَّ عَلَى اكْتِسَابِ آثَامٍ جَدِيدَةٍ مَتَكَاثِرَةٍ بِإِغْوَاءِ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَدْمِيرِهِمْ لِيَكُونُوا مَعَهُ فِي الْحِزْبِ الَّذِي شَكَّلَهُ، فَيَتَّبِعَهُ بَعْضُهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُ وَلِمَنْ تَبِعَهُ: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٨.

وَقَدْ تَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ، فَمَا الَّذِي يُبَصِّرُنَا بِهِ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿تَبِعَكَ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟
أَجِيبُكَ: التَّبَعَةُ لِإِبْلِيسَ لَيْسَتْ إِجْبَارِيَّةً بَلْ اخْتِيَارِيَّةً.

بصيرة: انتبه لاختيارك، فالإنسان حرٌّ في اختياره كالحرية التي تمتع بها إبليس حين اختار أن لا يسجد لأدم ﷺ، وَبُصِّرْنَا بِهَذَا كَلِمَةً ﴿تَبِعَكَ﴾، فَهُوَ فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْاخْتِيَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٨.

لَا حَظَ هُنَا: أَثْبَتَ اللَّهُ ﷻ الْاخْتِيَارَ لِلْبَشَرِيَّةِ، فَذَكَرَ كَلِمَةً ﴿تَبِعَ﴾ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَرَارٌ بَشَرِيٌّ فِي أَنْ يَتَّبِعَ الشَّيْطَانَ، ثُمَّ سَيَكْشِفُ اللَّهُ ﷻ عَنْ تَبَعِيَّةِ بَشَرِيَّةٍ سَاقِطَةٍ لِلشَّيْطَانِ بَلَّغَتْ حَدًّا لَا يُمْكِنُ تَصْدِيقُهُ.. سَيَكْشِفُ اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ فِي آخِرِ السُّورَةِ، إِذْ بَاتَ مَنْ تَبَعَ الشَّيْطَانَ يَتَّبِعُهُ ابْتِغَاءَ التَّمَتُّعِ الْحَرَامِ فِي الْأَرْضِ، وَهَذِهِ التَّبَعِيَّةُ بَلَّغَتْ أَنْ تَتَّصِرَ التَّابِعُ قَدْ أَخَذَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَبَطَهُ بِحَبْلِ وَرَمَاهُ خَلْفَهُ، فَحَيْثُ سَارَ الشَّيْطَانُ سَارَ بِهِ، وَيَعْبُرُ بِصُورَةٍ مَدْهَشَةٍ عَنْ هَذِهِ الصُّورَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وَبِذَا تَتَّضِحُ لَكَ بَعْضُ مَلَاحِظِ الْارْتِبَاطِ وَالْإِحْكَامِ بَيْنَ السُّورِ.

وربما تسأل أيضاً: نفاعاً بأن إبليس يكشف عن خطته، أفلا يدلنا هذا الكشف عن خطته على ضعف كيده كما قال الله - تعالى جَدُّه -: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]؟

الجواب: عندما كشف إبليس عن خطته فإنه أبان عن مفهومين متقابلين:

أنه شديد الغيظ ضعيف الكيد في وقت واحد، فعادة المغتاز أن يسارع بسبب غضبه إلى كشف جميع أوراقه.

ولكنه يراهن في مقابل ذلك على أن خطته وإن كشفها فلا يعني أنها لن تنجح، ويعتمد في ذلك على مصدرين يقويان هذا الكيد الضعيف في حياة البشر:

المصدر الأول: غفلة البشر، وينتج عنها استكبارهم وظلمهم، وهو ما سيخبرنا الله ﷻ به تفصيلاً في السُورَة، ويلخص ذلك ضمن الآيات المركزية في السُورَة مثل قوله تعالى جَدُّه: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فغفلة البشر عن أن يتخذوا الشيطان عدوًّا لهم لمجرد أنهم لا يرونه مما يعتضد به الشيطان في تنفيذ وإنجاح خطته. هل تعرف ماذا يمثل لك ذلك؟

يمثل لك ذلك: مثال حاكمٍ أراد قتال شعب آخر، فأرسل جنوده للحرب، فلم ينهض الشعب لقتالهم؛ لأنهم لا يرون ملكهم، أو لأنهم لم يروا عدوهم.. سيتظنون عدوهم حتى يدخل عليهم البيوت، وبعد ذلك يقاتلونه، وهل ينفعهم قتالهم آنذاك؟!

ولقد حذَّره الله ﷻ من تلاعب الشيطان بهم في هذه النقطة خاصَّة إذ قال بعدُ: ﴿إِنَّهُ يَرَلَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمصدر الثاني لتقوية الكيد الشيطاني ناتج عن المصدر الأول: الكبر، وهو الداء الدوي
الذي أصاب إبليس في مقتل، ونقله من منازل العز إلى دركات الذلة والصغار، وهو ذات الداء
الذي يحمل كثيرًا من البشر على الجحود والتنكر للحق ورسول الله وكتبه، وتنوع دواعي
الكبر لدى البشر، ولكنها لا تبعد كثيرًا عن النفس الشيطاني والتعالي الإبليسي على أمر الله
وحكمه. فالملا المتعالي المستكبر من قريش رأوا القمر انفلق نصفين، وبسبب كبرهم لم
يؤمنوا بل قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

نهاية قسم وبداية قسم في هذا المحور من السورة:

وبهذه الآية ﴿قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
﴿١٨﴾ [الأعراف: ١٨] انتهى هذا القسم الذي قدم لنا المرحلة الأولى من وجود البشرية في التاريخ،
والآن نتقل إلى القسم الثاني إذ تظهر لنا مرحلة جديدة في التاريخ المجهول للبشرية، وهذه
المرحلة كالسابقة لا يمكن أن تكشفها كشوف البشر، ولا نجد خبرها إلا عند عالم الغيب،
وتبصرنا بهذه المرحلة آيات القرآن على خير وجه:

المرحلة الزمنية الثانية

2

تجربة جديدة في التاريخ البشري

تجربة آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة قبل النزول إلى الأرض [الأعراف: 19-25]

سكن مميز، ونظام إلهي هاد

مشهد
[1]

﴿وَيَعَادُمُ آسَكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ [الأعراف: 19].

مشهد الجهود الشيطانية لاصطياد الإنسان

مشهد
[2]

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِهِمَا...﴾ [الأعراف: 20-22].

مشهد (الصدمة والإفافة) مقارفة الذنب

مشهد
[3]

والتحرُّر السريع من أسرهِ، وتحمل تبعاتهِ بالهبوط إلى الأرض [الأعراف 22-25].

عَبَّادُ السَّلَامِ مُقْبِلُ الْمُجْتَرِي

مُفَصَّل تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)



المرحلة الثانية: تجربة جديدة في التاريخ البشري

تجربة آدم وزوجه ﷺ في الجنة قبل النزول إلى الأرض

وهذه المرحلة ستصوّر لنا الآيات النجاحَ الإِبِلِسِيَّ الأوّل في اختراق البشريّة بإغرائهم أن يتركوا ما أنزل إليهم من ربّهم ﷻ ، وامتدّت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف: ١٩-٢٥].

آيات هذه المرحلة: ﴿وَيَتَّعَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ٢١ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ٢٤﴾
فيها تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ [الأعراف: ١٩-٢٥].

المناسبة والاتصال بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة:

بعد أن خلق الله ﷻ آدم ﷺ وأخرجه إلى الوجود، وبعد أن امتن الله ﷻ عليه بأن أمر الملائكة بالسجود له، وبعد أن أظهر لنا وللملائكة العدوَّ الأوّل للإنسانيّة، وأظهر للعالم خطّته الخطيرة التي وضعها ليدمرّ البشريّة تنقلنا البصائر القرآنيّة إلى مرحلة زمنية جديدة في التاريخ، حيث سيحيا آدم مع زوجته ﷻ في مكان آخر غير الأرض ليتدرّبا تدريجيّاً على التعامل مع الوجود، وعلى كيفية التفاعل الحذر مع عدوّهما الأوّل، وتنقل لنا المعرفة القرآنيّة في هذه المرحلة المشاهد الآتية:

البصائر التفصيلية لمشاهد المرحلة الثانية (تجربة آدم وزوجه ﷺ في الجنة)

تضمنت هذه المرحلة ثلاثة مشاهد، تفصيلها كما يأتي:

المشهد الأول: سكن مميّز، ونظام إلهي هاد

﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُنَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]

تكريم سُبَاعِي:

المعلم الأول

- 1 خلقه الله عز وجل بيديه.
- 2 أسجد ملائكته له.
- 3 عطف الإنعام عليه على الإهانة لعدوّه حيث قال: ﴿وَيَتَادَمُ﴾ عطفًا على قوله لإبليس: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا﴾ [الأعراف: 18].
- 4 ناداه باسمه في الملأ الأعلى في سياق التكريم.
- 5 أظهر ضمير الفصل في قوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾.
- 6 ذكر زوجته: ﴿وَزَوْجُكَ﴾.
- 7 وضع دستورًا لحياته في الجنة: ﴿فَكُنَا ... وَلَا تَقْرَبَا﴾.

لا سكن دون زوجة، فكانه لا حياة دون زوجة ﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 19].

المعلم الثاني

﴿اسْكُنْ﴾ سكن وسكنية.

المعلم الثالث

تأهيل الإنسان لوظيفة الاستخلاف ﴿فَكُنَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

المعلم الرابع

الحرام واضح محدود ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

المعلم الخامس

اقرار الحرام ظلم للنفس والأرض والأنام: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

المعلم السادس

تَسْنِيَةُ وَصَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِمَجْدِ الْبَلَّاحِ

مِصْبَحُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

المشهد الأول: سكن مميّز، ونظام إلهي هادٍ:

نرى هنا مشهد التكريم الإلهي للبشريّة بقضاء المدة التجريبية لبداية الحياة في الجنة، وهنا سيتدرب آدم وزوجه ﷺ على المسؤولية، ويُصّرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَيَعَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:

[١٩]:

البصائر الإجمالية في الآية:

﴿وَيَعَادَمُ﴾: الواو تصوّر لك مزيد التكريم لآدم ﷺ، ومزيد الإهانة لإبليس حيث طرده الله ﷻ، وخاطب آدم ﷺ في الوقت ذاته، فأكرمه بالسُّكنى في الجنة.

﴿يَعَادَمُ﴾: نادى الله جَلَّ مَجْدُهُ آدم ﷺ باسمه في سياق التكريم، ويصوّر لك ذلك مزيد تشريفه.. اللهم ارزقنا أعظم التشريف والتكريم في الدنيا والآخرة.

﴿أَسْكُنُ﴾: تصوّر لك توفير السكن المادي والنفسي والمعنوي لآدم ﷺ.

﴿أَنْتَ﴾ يصوّر لك ضمير الفصل مزيد التكريم أي أنت لا غيرك.

﴿وَزَوْجُكَ﴾ تصوّر لك مكانة الزوجة، وأن أصل الحياة وجمالها وكمالها واستقرارها لا يكون دون الزوجة.

﴿الْجَنَّةُ﴾: تصوّر لك مكان السُّكنى، فهو المكان المُجْتَنِّ المغطّى بأجمل ما يبهج الحياة من مُنْعِ المنظر والمخبر والمستقر.

﴿فَكُلَا﴾: تصوّر لك تنمية حسّ المسؤولية عن أصل الحياة، وعن مُتَعِها، فالأكل منه ما يكون للمحافظة على حياة الجسد، ومنه ما يكون للتمتّع والتلذُّذ والتفكّه.

﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: تصوّر لك سعة مساحة الحلال والمباح مقارنة بمساحة المحرّم، فالأكل واسع حيث شاء الإنسان، والمحرّم عليه محدود جدًّا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾: تصوّر لك تنمية حسّ المسؤولية بضرورة وجود النظام الذي يسمح لك بأشياء، ويمنعك من أشياء أخرى، ولتمتنع منها لا بدّ أن تمتنع عن قربها سدًّا للذريعة، وليس عن فعلها فحسب.

﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾: تصوّر لك التحديد الدقيق للمحرّم حتى لا تتعلّل بالاشتباه وعدم الانتباه.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: تصوّر لك أن الاجترار على ما حرّم الله يؤدي إلى ظلم الإنسان لنفسه وليبيّته.

وتتجلى معالم هذا المشهد في ستة معالم:

المعلم الأول: تكريم سُبَاعِي:

كرّم الله ﷻ (آدم) ﷺ تكريمًا مضاعفًا صوّرته لنا سبعة مظاهر هنا:

- (١) خلقه الله ﷻ بيديه.
- (٢) وأسجد ملائكته له.
- (٣) وعطف الإنعام عليه على الإهانة لعدوّه إذ قال: ﴿وَيَعَادِمُ﴾ عطفًا على قوله لإبليس: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].
- (٤) وناداه باسمه في الملاء الأعلى في سياق التكريم.
- (٥) وأظهر ضمير الفصل في قوله: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ﴾.
- (٦) وذكر زوجته: ﴿وَزَوْجُكَ﴾.
- (٧) ووضع دستورًا لحياته في الجنة: ﴿فَكَلَا ، وَلَا تَقْرَبَا﴾.

وحتى تتضح المظاهر الجديدة في التكريم فإن أول سؤال يشيره تدبرك: ما موقع هذه الواو في قوله: ﴿وَيَعَادَمُ﴾؟ كيف أمدتنا هذه الواو بصورة ومعانٍ في الآية؟

الجواب: يمكنك أن تدرك أهمية الواو وهي تقدّم لك الترابط والاتصال بين هذه المرحلة الزمنية والمرحلة التي قبلها، إذ ترى في الواو عطفًا للقصة على القصة، والتقدير: ثم قلنا للملائكة اسجدوا، وطرنا إبليس من الملائكة الأعلى، وقلنا يا آدم اسكن.

هنا ترى خطاب الطرد لإبليس مرتبطًا بخطاب الإسكان لآدم عليه السلام، إذ قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾ وَيَعَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿[الأعراف: ١٨، ١٩].

كان الله تعالى يقول: في الوقت الذي طردنا إبليس من الملائكة الأعلى أَسْكَنَّا آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة، وأنت تعلم أنك عندما تُكرّم في الوقت الذي يُهان عدوك يزيدك هذا لذةً وشعورًا بالتشريف.

ومثل هذه الآية ما في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩] حكايةً لكلام العزيز، أي العزيز عطفَ خطابِ امرأته على خطابِهِ ليُوسُفَ عليه السلام (١). يصوّر لك العطف بين قوله: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ وقوله: ﴿وَيَعَادَمُ أَسْكُنُ﴾ التضادّ ذمًّا للمذموم، وإكرامًا للمُكرّم، لإظهار مزيد من التكريم والرعاية والعناية بآدم وزوجه عليهما السلام، وليظهر مزيد من القمع والإذلال لإبليس، حيث وجّه الله تعالى خطاب الإكرام لآدم عليه السلام بمجرد انتهائه من خطاب الطرد لإبليس؛ ويُظهر جمال هذا العطف الطاهر بن عاشور رحمته الله فيقول:

«لَإِنَّ إِعْطَاءَ النِّعَمِ لِمَرْضِيٍّ عَلَيْهِ فِي حِينِ عِقَابٍ مِّنْ اسْتَاهَلَّ الْعِقَابَ زِيَادَةً حَسْرَةً عَلَى الْمُعَاقِبِ، وَإِظْهَارًا لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ مُسْتَحَقِّ الْإِنْعَامِ وَمُسْتَحَقِّ الْعُقُوبَةِ»^(١).

ويزيد التكریم في نداء آدم عليه السلام: ﴿وَيَعَادُكُمْ﴾، إذ سمَّاه الله عليه السلام بآدم عليه السلام باسمه في سياق الإنعام عليه، والطرده لإبليس، فقال الله تعالى: ﴿وَيَعَادُكُمْ﴾، فذكر الاسم في الملاء الأعلى يزيد في رفعة المذكور، وإعلاء شأنه.. ترى كيف كان شعور أبينا عليه السلام، وهو يُذكر هناك؟

كيف كان شعوره وهو يسمع اسمه وذكر زوجته معه، فيقول له ربُّه -تعالى مجَّده- على مسمع من الملاء الأعلى: ﴿وَيَعَادُكُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾؟ اللهم إنا نسألك الرفيق الأعلى الأسعد يا أرحم الراحمين.

المعلم الثاني: وهو أشبه بقانونٍ للزوجية: (لا سكن دون زوجة، فكأنه لا حياة دون زوجة):
ويُصِّرنَا بهذا القانون قوله عليه السلام: ﴿وَيَعَادُكُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف ١٩]:

لا بد أن تسأل هنا: في هذه الآية نسمع ذكر زوج آدم عليه السلام، فلم يسبق لها ذكر في المرحلة الأولى من هذا المحور من القصة، فما قصتها؟

الجواب: في القصة الأولى بين الله عليه السلام تكريم آدم عليه السلام بالسجود، ويحتمل أن حواء عليها السلام لم تكن حاضرة المشهد، فربَّما لم تكن خُلقت بعد، لكننا بعد ذلك وجدنا الله -تعالى مجَّده- يكرم الإنسانية بوجود الزوجية، فالواحد من بني الإنسان لا يمكن أن تسكن نفسه، وتهدأ خواطره إلا بوجود زوج له، أي امرأة لرجل، ورجل لامرأة، ولذلك قال -تعالى ذكره-: ﴿وَمِنْ عَآيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٢١]، وقال في سورة

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٥٣).

الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف ١٨٩].

فعندما قال الله ﷻ: ﴿يَتَّأَدَّمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ [الأعراف: ١٩] فهمنا أن السكن لا يكون دون الزوجة، وأن خلق الزوجة كان كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وليس بالضرورة أن أحد الزوجين أخذ من جسد الآخر، وتظل الآية محتملة لا نستطيع أن نجزم بأنها خلقت من جسد آدم ﷺ أو من غير جسده، فلا يوجد لدينا نص واضح في الشريعة الإسلامية، لكن الذي نعرفه أن الله ﷻ خلقها وزوجها في وقت متقارب، وأن الله تعالى أمرهما بالسكنى في الجنة.

فاستبان من هذا أن الحياة لا يمكن أن تكون شيئاً دون الزوجة، ويستأنس لهذا بما جاء من حديث أبي نجیح التابعي قال: قال رسول الله ﷺ: «مُسْكِينٌ مُسْكِينٌ رَجُلٌ لَيْسَتْ لَهُ امْرَأَةٌ» قيل يا رسول الله، وإن كان غنياً ذا مال؟ قال: «وإن كان غنياً من المال» قال: «وَمُسْكِينَةٌ مُسْكِينَةٌ امْرَأَةٌ لَيْسَ لَهَا زَوْجٌ» قيل: يا رسول الله، وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: «وإن كانت»^(١).

والإنجليز لهم مثل جميل هنا؛ إذ يقولون:

The life without wife like fifty without five

ومعنى المثل: الحياة بدون زوجة مثل خمسين بدون خمسة.

(١) شعب الإيمان (٥٠٩٧)، والطبراني في الأوسط (٦٥٨٩)، وأبو نجیح اسمه يسار، وهو والد عبد الله بن أبي نجیح، وهو من التابعين، فالحديث مرسل، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢ / ٤): «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا نَجِيحٍ لَا صُحْبَةَ لَهُ»، وتعقبه الألباني في الضعيفة (٥١٧٧)، بأن فيه محمداً بن ثابت، وهو ضعيف لسوء حفظه، فالحديث لئب.

سبق أن قررنا في سورة النساء أن الله ﷻ خلق آدم ﷺ، ثم خلق حواء ﷺ ... فمن أين كان خلق حواء ﷺ؟

كثير من المفسرين يميلون إلى رواية سفر التكوين، وأن حواء ﷺ خلقت من ضلع آدم ﷺ أثناء نموه، ففي سفر التكوين ٢:

١٨ وَقَالَ الرَّبُّ إِلَهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعْ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ».

١٩ وَجَبَلَ الرَّبُّ إِلَهُ مِنْ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا.
٢٠ فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَجَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ.

٢١ فَأَوْقَعَ الرَّبُّ إِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا.

٢٢ وَبَنَى الرَّبُّ إِلَهُ الضِّلْعَ الَّذِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ.

٢٣ فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرِئٍ أُخِذَتْ».

٢٤ لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥ وَكَانَا كِلَاهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ.

هل كانا عريانيين كما تقول التوراة المعاصرة، ولا يشعران بذلك؟

لا يوجد عندنا دليل، بل تشير ظواهر الأدلة إلى أن الستر جزء من حياة آدم ﷺ، وفي القرآن تجد وصفًا رائعًا للعلاقة بين الرجل والمرأة في ستر كل واحد منهما للآخر، إذ قال الله ﷻ:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ولا نجد هذه الرواية التي في التوراة المعاصرة في مصادرنا النقية، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن مقتضى الزوجية أن تكون خلقت من جنسه.

ويحتمل أن تكون خُلِقَتْ من (ضِلَع)؛ لَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»^(١).

والضِّلَع أحد عظام الصدر، فيحتمل أن المقصود أنها خلقت من (ضِلَع) حقيقي، ويحتمل أن المقصود أن طبيعتها فيها عوج كاعوجاج الضِّلَع، كما أن في الرجل غضباً وعجلة، فقد قال أبو العباس القرطبي رحمته الله: «ومعنى: "خُلِقَتْ" أي: أُخْرِجَتْ كما تخرج النخلة من النواة، ويحتمل أن يكون هذا قُصِدَ به المثل، فيكون معنى: "من ضِلْع" أي: من مثل ضِلْع أي: فهي كالضِّلَع، ويشهد له قوله: «لن تستقيم لك على طريقة، فان استمتعت بها؛ استمتعت وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»^(٢)، «فقول النبي صلى الله عليه وسلم هنا مثل قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، والمعنى: لَا تَحَاوِلُوا تَقْوِيمَ النِّسَاءِ بِالشَّدَّةِ»^(٣)، ومن أقوى ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد التمثيل رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْمَرْأَةُ كَالضِّلْعِ إِنْ أَقْمَتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوْجٌ»^(٤).

(١) البخاري (٣٣٣١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٢٢٢).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٠٨).

(٤) البخاري (٥١٨٤)، وقال المباركفوري: «يَعْنِي أَنَّ النِّسَاءَ فِي خَلْقِهِنَّ أَعْوَجَاجٌ فِي الْأَصْلِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَغَيِّرَهُنَّ عَمَّا جُئِلْنَ عَلَيْهِ». تحفة الأحوذى (٤/ ٣٠٨).

وَيَنْقُلُ مُحَمَّدٌ رَشِيدُ رِضَا رحمته الله أَنَّ وَثْنِيَّ الْهِنْدِ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَادَمَ عليه السلام أُمًّا، وَلَهَا فِي مَدِينَتِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ (بنارس) قَبْرٌ عَلَيْهِ قَبَّةٌ بِجَانِبِ قَبَّةِ قَبْرِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِأُمِّهِ عِنْدَهُمُ الرَّمْزُ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَالْآيَةُ تُرْشِدُ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تَابِعَةٌ لِلرَّجُلِ فِي السُّكْنَى وَالْمَعِيشَةِ بِاقْتِضَاءِ الْفِطْرَةِ، وَهُوَ الْحَقُّ الْوَاقِعُ الَّذِي يُعَدُّ مَا خَالَفَهُ شُدُودًا^(١)، وَكُلُّ الْمَسَاعِيِ الْبَائِسَةِ لِلتَّهْوِينِ مِنْ ضَرُورَةِ الْأُسْرَةِ الْمَكُونَةِ مِنْ زَوْجٍ وَزَوْجَةٍ، وَالْمَجْتَرِحَةِ لَصُورِ شَوْهَاءٍ لِلأُسْرَةِ تَسَاوُفًا مَعَ الطَّرْحِ الْجَنْدَرِيِّ، إِنَّمَا تَصَادِمُ الْفِطْرَةَ فِي أَهَمِّ رَكَائِزِهَا، وَتَعْلَنُ حَرْبًا عَلَى الْحَيَاةِ تَنْذِرُ بِكَوَارِثِ لَا حَدَّ لَهَا، وَيَأْتِي هَذَا الْمَعْلَمُ صِيَانَةً وَحَرَزًا لِهَذَا الثَّابِتِ الْإِنْسَانِي.

المعلم الثالث: ﴿أَسْكُنْ﴾ سَكَنٌ وَسَكِينَةٌ:

يَسْكُنُ آدَمُ وَزَوْجُهُ عليهما السلام الْجَنَّةَ لِيَجِدَا السَّكْنَ وَالسَّكِينَةَ وَيَقْضِيَا فِيهَا مَدَّةً تَدْرِيئِيَّةً يَسْتَعِدَّانِ فِيهَا لِلْحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُ رَبِّنَا -تَعَالَى ذِكْرُهُ-: ﴿وَيَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]:

تَعَالِ نَتَّبِعِ الصُّورَ الَّتِي تُظْهِرُهَا لَنَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ، وَأَوَّلُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَسَاءَلَ عَنْهُ: مَاذَا يَصَوِّرُ لَكَ الْندَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ﴾ هُنَا؟

الْجَوَابُ: فَبَعْدَ حَدُوثِ الطَّرْدِ لِإِبْلِيسَ تُبَصِّرُنَا الْآيَاتُ الْمُبَارَكَاتُ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ كَرَّمَ آدَمَ وَزَوْجَهُ عليهما السلام بِالسَّكَنِ الْمُؤَقَّتِ فِي الْجَنَّةِ لِيَتَدَرَّبَا عَلَى حَيَاةِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَلِذَا أَمَرَهُمَا بِالسَّكْنَى فِي الْجَنَّةِ أَمْرَ تَكْرِيمٍ وَإِلْزَامٍ، فَقَالَ: ﴿وَيَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، فَهَذَا أَمْرُ تَكْرِيمٍ مِنْ جِهَةٍ، وَتَكْلِيفٍ مِنْ جِهَةٍ لِلتَّعَوُّدِ عَلَى التَّكْلِيفِ الَّذِي سَيَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ النِّسَابُورِيُّ

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٠٨).



بِسْمِ اللَّهِ: «هو أمرٌ بإباحةٍ وإطلاقٍ من حيثُ إنَّهُ لا مَشَقَّةَ فِيهِ، فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ»^(١)، هل

صحيح أنه لا يتعلق به تكليف؟

الجواب: لا أظن مثل هذا الكلام سديداً؛ فإن الأمر الإلهي ملزم في الأصل، وقد قرّر المحقّقون أنه لم يخل وقتٌ من شرعٍ قطُّ^(٢)، وليس شرطاً أن تتعلّق به مشقةٌ دوماً، بل الأمر الإلهي متعةٌ وراحةٌ، وقد يصحب المتعة مشقةٌ، ويجد الإنسان لذته في تلك المشقة، ومثل ذلك قَوْلُهُ: ﴿فَكَلَّا﴾، فهو أمرٌ وجوب في الأصل، وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ فهو نهي تحريم. يبدو لك هنا معنى جديد يُظهره الأمر بالسكنى ﴿أَسْكُنْ﴾.

فأول ما يخطر في بالك: أين كان آدم ﷺ قبل هذا الأمر؟

الجواب: فأما المكان الذي وُضع فيه جسده قبل أن ينفخ فيه الروح، فقد وجدنا رواية تنبئنا أنه كان الجنة:

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ صَوْرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ فِي الْجَنَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ، عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَ لَا يَتِمَّالِكُ»^(٣).

وهذه الرواية جاءت فيها هذه الزيادة التي تدلُّ على المكان الذي وضع فيه آدم ﷺ قبل أن تنفخ فيه الروح، ولما نفخ الله ﷻ فيه الروح أمره أن يذهب إلى الملائكة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ ﷺ وَطَوَّلَهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ،

(١) «تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٣/ ٢١٤).

(٢) ينظر: التحجير شرح التحرير، المرداوي، (٢/ ٧٧٦)، المسودة في أصول الفقه، آل تيمية، (ص: ٤٨٧).

(٣) أحمد (١٣٦٦١)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».



فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ^(١).

ولما أمر الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام: هل كان خارج الجنة عندها، أم كان فيها؟ يجوز أن يكون خارج الجنة كما تقول أنت لواحد أهديته البيت، وهو خارجها: اسكن هذا البيت، فالأمر للإذن بالسكنى فيها تكريماً له.

ويجوز أن يكونا داخل الجنة، فيكون الأمر ﴿أَسْكُنْ﴾ للتثبيت أي: اثبت في سكنك هذا؛ وابق واستقر في الجنة.

وأياً ما كان الشأن فإن أمر الله ﷻ لآدم عليه السلام أن يسكن كان بمسمع من إبليس ليزداد إذلاله. ففي هذا الأمر بمسمع من إبليس مقمعة له، لأنه إن كان إبليس مستقراً في الجنة من قبل، فالقمع ظاهر إذ طرده الله ﷻ، وأسكن الذي تكبر هو عن السجود له في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبره، وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنة قبل، فأكرام الذي احتقره وترفع عليه قمع له، فقد دلّ موقع هذا الكلام في هذه السورة، على معنى عظيم من قمع إبليس زائد على ما في آية سورة البقرة، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع، أي: من عطف نداء التكريم لآدم على خطاب الإهانة لإبليس، وهذا من بدائع إعجاز القرآن^(٢).

وربما تسأل: لماذا اختار الله هذا الفعل: ﴿أَسْكُنْ﴾ ولم يقل: ادخل أو انزل مثلاً؟

(١) البخاري (٣٣٢٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ٥٣).

أَجِيْبُ بأن كلمة ﴿أَسْكُنْ﴾ تصوّر لك أعلى درجات الاستقرار والاطمئنان والسكينة، فيقال: سَكَنَ الشَّيْءُ^(١) يَسْكُنُ سَكُونًا فَهُوَ سَاكِنٌ أي: اطمأن وهداً، واستقرّ، وشعر بالراحة والدعة، وهو ضد الإضطرابِ المزعج وَالْحَرَكَةِ المربكة.

وَالسَّكُنُ: الْأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الدَّارَ، وَفِي كَلَامِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ رحمته الله عن آخر الزمان: «حَتَّى إِنَّ الرُّمَّانَةَ لَتُسْبِعُ السَّكُنَ»^(٢).

وَالسُّكُونُ: ثُبُوتُ الشَّيْءِ بَعْدَ تَحَرُّكِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]، فيقال: سَكَنَتْهُ، أي طلبت منه أن يسكن.

فَالسَّكَنُ يَصُوِّرُ لك سَكِينَةَ الْإِنْسَانِ وَاطْمَئْنَانَهُ مِنْ آلامِ الْحَيَاةِ وَاضْطِرَابِهَا وَمَخَافِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وَلَا بَدَّ أَنْ يُثِيرَكَ الضَّمِيرُ ﴿أَنْتَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ﴾ مَعَ أَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: اسْكُنْ وَزَوْجَكَ، فَلِمَاذَا ذَكَرَ هَذَا الضَّمِيرَ؟

الجواب: هَذَا الضَّمِيرُ الْمُنْفَصِلُ بَعْدَ الْأَمْرِ ﴿أَسْكُنْ﴾ يَصُوِّرُ لك زِيَادَةَ التَّكْرِيمِ لِأَدَمَ عليه السلام، وَيَضَاعَفُ التَّنْكِيلَ وَالتَّقْيِيحَ لِلْإِبْلِيسَ، وَتَشْعُرُ بِذَلِكَ عِنْدَمَا يُوجَّهُ خُطَابٌ لِّوَاحِدٍ بَعِينَهُ أَثْنَاءَ طَرْدِ آخِرٍ كَانَ مُوجُودًا مَعَهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ.

فَأَدَمَ عليه السلام لَمْ يُخْلَقْ فِي الْأَصْلِ لِيَسْكُنَ فِي الْجَنَّةِ، إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، كَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تعالى أَرَادَ أَنْ يَدْرِيهِ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ بِأَنْ جَعَلَهُ يَسْكُنُ فِي مَكَانٍ لَيْسَ فِيهِ تَبْعَاتٌ كَبِيرَةٌ لِلْإِعْمَارِ كَمَا فِي الْأَرْضِ.

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٨٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤١٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١٠٤٢).

(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٤١).

ويلحظ في هذا السياق أن أصل التكليف كان لآدم وزوجته ﷺ له بالتبع، فالخلافة في الأرض كُلِّفَ بها الرجل، والمرأة إسناد لهذا التكليف، فمهمة المرأة إسناد الرجل في تكميل ما كُلِّفَ الله ﷻ به ومساعدته على تحقيقه، وتحويل المرأة إلى أصل مستقل عن الرجل في الحياة هو خروج عن هذا الأصل كما تمارسه حضارة الغرب اليوم.

المَعْلَم الرابع: تأهيل الإنسان لوظيفة الاستخلاف: ﴿وَيَعَادُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]:

خُلِقَ الإنسان ليكون خليفة في الأرض، يعمرها وفق النظام الإلهي الذي أراده الله ﷻ، والنظام لا بد أن يتكون من أمرٍ "افعل"، ونهي "لا تفعل"، وحتى يتدرب الإنسان على هذا النظام، ويحقق غاية الاستخلاف والإعمار للأرض جعل الله ﷻ له فترة تدريبية، فأُسكنه الجنة:

وربما تساءل: بصرتنا أنوار القرآن أن الله عندما أمر آدم وزوجه ﷺ بالسكنى في الجنة، والأكل منها، ونهاهما عن القرب من الشجرة كان لذلك هدفان: تكريم آدم وزوجه ﷺ، وإغاية عدوّه، فهل لذلك من هدف آخر؟

أجيبك: نعم، وهذا من أعظم التكريم والرحمة: أن يعلمه الله ﷻ المسؤولية، فلما قال الله تعالى له: ﴿يَعَادُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ [الأعراف: ١٩] علّمه أن يكون في قمة المسؤولية: فقال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، فقد أخبر الله ﷻ العالم أن آدم عليه السلام مخلوق للاستخلاف في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وتعلّمه لبدایات التكليف والمسؤولية يجعله بعيداً عن أن يقع أسيراً لرغباته الآثمة التي وقع فيها إبليس من قبله، ولذلك حَرَّمَ الله ﷻ على آدم وزوجه ﷺ منطقةً محدّدة، هي منطقة الشجرة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٩.

فأمرهما الله ﷻ بأمرين: السَّكَنَ والأَكْلَ، ونهاهما عن أمر: القرب من الشجرة، ليكون الأمر رمزاً للتكليف بالأوامر، والنهي رمزاً للتكليف بالنواهي، ولتظهر ضالّة مساحة النهي مقارنة بسعة مساحة الأمر.

فقول الله ﷻ: ﴿وَيَعَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ أمر تكريميٍّ من جهة، ولكنه أيضاً أمر تكليف ليتعوّد على السكنى وعلى الحياة، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ليتعوّد على أن يحقق احتياجاته الجسديّة، ومن احتياجاته الجسديّة الأكل، وقال له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ليتعوّد النظام، فهناك أمور محرّمة وممنوعة ينبغي أن لا تقربها.

فالله ﷻ يُعوّده على النظام التكليفي، والنظام التكليفي إمّا أن يكون: افعل، ويمثله هنا قوله: (اسكن)، (فكُلا).

ولا تفعل: ويمثله هنا قوله: (لا تقربا).

بذلك عندما ينزل إلى الأرض سيتعوّد على إعمارها كما ينبغي وفق نظام التكليف. إذا اتبع آدم وزوجه ﷺ الأمر واجتنب النهي فإنهما يتعلّمان كيف يتحكّمان بنفسيهما، ويديرانها.. يتعلّمان كيف يتوقّفان عن الانسياق مع الأهواء، ولذا حدّد الله ﷻ لهما بدقّة شديدة المنطقة المحرّمة التي يجب عليهما ألا يقتربا منها.. إنها المنطقة المحيطة بالشجرة. وهذا درس تربويٍّ ربانيٍّ، ومسلك مقصود؛ إذ كان يمكن أن تخلو الجنة من تلك الشجرة المحرّمة، ويكون كلّ ما فيها كلّاً مباحاً لآدم وزوجه ﷺ، ولكن الله ﷻ أراد بآدم ﷺ وذريته من بعده خيراً وتعلّماً وتربيّةً وتزكيةً، وهذا مبدأ في إصلاح النفوس ومهيّج معلوم لدى أصحاب السلوك، أن تربية الإرادات وتقوية العزائم إنما تكتمل وتبلغ أوجها عندما يبتلى المرید والسالك بالنجدين، وإمكانية الاختيار بين السبيلين، فيختار الأصلح الأنجح، ويطرح السوء والشر، وبذا يتحقّق بمعاني العبوديّة لله على الوجه الأكمل والأجمل، ويتأكد الأخذ

بهذا المسلك التربوي في هذا العصر الذي صارت المعاصي مبدولة شائعة، ولم يعد مُجدِّياً سوى تربية الرقابة وخوف الله والحياء منه سبيلاً للوقاية والعلاج من الآثام والشرور.

وهنا يطراً عليك سؤال: لماذا اختيرت الفاء في قوله ﴿فُكُلًا﴾ هنا في سورة (الأعراف) بينما اختير في سورة (البقرة) الواو في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]؟

إليك الجواب: لقد أخبرهما الله -تعالى جَدَّهُ- عن البيئة التي سيسكنان فيها، فيجدان السكنى التي يُحِسَّان معها بالراحة والسلام ﴿يَتَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ثم أخبرهما عن الغذاء والطعام، فقال: ﴿فُكُلًا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فأباح لهما الأكل من حيث أرادا كيفية أو مادة أو ثمرة من طعام الجنة، ولاحظ أنه جَلَّ ذِكْرُهُ قال: ﴿فُكُلًا﴾ بالفاء بعد قوله: ﴿اسْكُنْ﴾ أما في سورة البقرة فقال: ﴿وَكُلًّا﴾ بعد قوله: ﴿اسْكُنْ﴾ أيضاً، ويظهر لي في حكمة ذلك نوران:

الأول: الفاء تدلُّ على الزمن المناسب للأكل، وهو بعد السكنى أما الواو فتدلُّ على طمأننة نفسية آدم وزوجه ﷺ بأنهما مع السكنى سيجدان الأكل أيضاً.

فسورة البقرة تناسب تعديد المزايا التي منحت لآدم وزوجه ﷺ، بينما سورة الأعراف ذكرت ترتيب أمور الحياة الخاصّة بهما، فيبدأ بالسكنى، وبعد ذلك ينتقلان إلى الأكل.

أي فإذا سكنت واطمأنت للسكن فكل، والإنسان يبحث أولاً عن الوطن الذي يجد فيه سكينته، فإذا وجد الوطن نوع بعد ذلك في مأكولاته، أما إذا كان مسافراً أو مهاجراً أو مُطَارِداً، فإنه يأكل كيفما اتفق، فالفاء تدلُّ على الزمن المناسب للأكل وهو بعد السكنى.

الثاني: العَطْفُ بالواوِ أَعْمٌ، ﴿وَكُلًّا﴾ أي: سواء كان ذلك الأكل مقارناً للسكن أو قبله أو بعده، أما الفاء في سورة الأعراف فأفادت أن الله ﷻ أذن لآدم ﷺ بأن يتمتع من ثمار الجنة

عقب أمره له بسكنى الجنة، وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام لآدم وزوجه عليهما السلام، والإغاظة لإبليس الذي طرد في الوقت ذاته الذي قيل فيه هذا الكلام لآدم عليه السلام؟

وكلمة ﴿رَعْدًا﴾ في سورة البقرة أفادت معنى جديدًا، وكرامة جديدة، فهي تبين أن الأكل مهما كانت هيئته، ومهما كان الصنف المأكول، والزمن الذي يؤكل فيه، والمكان الذي يتناول فيه.. فكل ذلك لن يؤثر على الهناء الذي يجده الآكل.

المَعْلَمُ الخامس: الحرام واضح محدود:

فكلمة ﴿هَذِهِ﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ تصوّر لك دقّة التحديد للمنطقة المحرّمة.. لا تقع في المحرّم، ولا تختلق التبريرات للوقوع فيه، فالمحرّم واضح. حتى تظهر لك هذه البصيرة: يحقّ لك أن تسأل عن المدلول الذي يخبئه اسم الإشارة في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هَذِهِ﴾؟

الجواب: ﴿هَذِهِ﴾: اسم إشارة للقريب، فالله ﷻ هو مالك المكان وهو المُنَزَّه عن الجهات جَلَّ في علاه، لكن التدريب الآن لآدم عليه السلام، فمعنى ذلك أن آدم عليه السلام قد أوقف على الشجرة فرآها، لقد قال الله ﷻ له ولزوجه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ﴾ التي تدلّ على قرب الشجرة، وبذا تتضح معالم المنطقة المحرّمة التي تحيط بها، ولم يقل الله ﷻ له (تلك)، لأن (تلك) تدلّ على البُعد، فلو قال له ذلك لربما قال آدم عليه السلام عند الاعتذار إذا وقع في الخطأ: أنا اشتبهت عليّ الأمكنة، فلم أضبط الحدود.

ولم يقل له: ولا تقربا الشجرة فحسب للسبب ذاته.

فكلمة ﴿هَذِهِ﴾: تعنى أن الله ﷻ جعله يقترب من منطقة الشجرة تمامًا إلا المنطقة المحرّمة حولها، ويرى المنطقة التي تحرّم عليه أن يقترب منها، فاسم الإشارة الدالّ على القرب يصوّر

لك أن التحديد لم يكن نظريًا، بل كان عمليًا، فقد عاينا ﷻ المنطقة المحظورة التي يمنع الاقتراب منها.. هذا سيفيدنا كثيرًا في فهم طبيعتنا الإنسانية.

ولكنك قد تتساءل: ما هذه الجنة التي أمر الله -تعالى مجده- آدم وزوجه ﷻ بالسكنى فيها؟ وما نوع هذه الشجرة المحرمة؟ لماذا يحرم الله ﷻ عليهما الاقتراب من تلك الشجرة؟ لماذا يمنعهما من شيء في الجنة؟

هذه الأسئلة توقفتنا على تقرير حقيقة تحل كثيرًا من الألغاز التي يسألها من يتعد عن اللفظ القرآني الصريح، ولا يحاول الجمع بين الآيات المتعددة التي يصدق بعضها بعضًا، وهذه الحقيقة قررتها في بصائر سورة البقرة؛ كما أن هذه الأسئلة يطرحها المحب للقرآن والطاعن فيه، فالطاعن يقول: ولماذا يحرم الله ﷻ أصلًا الأكل من شجرة واحدة؟ لماذا لا يبيح جميع الجنة؟ وهل يحتاج إلى أن يحرم شيئًا؟

أجيبك: بأن هذه الجنة تنازع علماءنا فيها: هل هي جنة الخلد التي تمثل جزاء المؤمنين في الآخرة؟ أم هي جنة دنيوية خاصة؟ أم ليست جنة الخلد التي هي جزاء المؤمنين في الآخرة، وليست جنة دنيوية؟ لأن جنة الدنيا تحتاج إلى عناء بينما نجد الله ﷻ قال لآدم ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١٨، ١١٩]؟

هذه أقوال ثلاثة، وكل منها محتمل، وإن كان القول الثالث يماثل القول الأول على الحقيقة، فما المانع أن تكون هذه الجنة هي جنة الخلد إلا أن الله ﷻ حدد لآدم وزوجه ﷻ فيها قوانين لا تنطبق على المؤمنين حين يدخلونها في الدار الآخرة؟

لكن الأمر الواضح أن هذه الجنة لا تمثل مكان استقرار دائم لآدم وزوجه ﷻ، بل هي مكان مؤقت يعتادان فيه الحياة، والمسؤولية الأولية، ويدل ذلك كله أن الله ﷻ بين في البلاغ الأول لخلق الإنسانية أن مهمة آدم ﷻ ستكون في الأرض، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿البقرة: ٣٠﴾، ثم زوّده بالمعرفة اللازمة، فعلمه أسماء كل شيء، وبين تفوّقه التفكيرى، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَقْبِلُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿البقرة: ٣١﴾، وعندها كرّمه بإسجاد الملائكة له، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٣٤﴾، فصار الساجدون له أولياء، ومن لم يسجد له صار عدوّاً، وحدّد الله ﷻ له مدى هذه العداوة وحذّره، وقال: ﴿يَعَادُوا إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿طه: ١١٧﴾، وفي المدة التدريبية لا بد أن يكون المرء مكفول النفقات، فلا يحتاج لشيء، ولذا أخبره الله ﷻ عن الامتيازات التي سيجدها في هذه الجنة الخاصة، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿طه: ١١٩﴾. [طه: ١١٨، ١١٩].

فلا ينبغي استهلاك الوقت في تحديد ما هذه الجنة؟ يكفي أننا عرفناها، وعرفنا الهدف منها، وأما هل يحتاج الله ﷻ إلى أن يحرم على البشر شيئاً؟ فالذي يحتاج هو الإنسان، وانظر للإنسان كيف يشعر أنه كلما وضع نظاماً للمباحات وللمحرمات في مؤسسته أو عمله أو بلده.. ألا ترى أنه يكون أكثر نجاحاً.. تصوّر بلداً لا يوجد فيه إشارات المرور في الشوارع.. كيف يكون؟! كيف يكون؟!

المعلم السادس: اقتراف الحرام ظلم للنفس والأرض والأنام:

فلما وضع الله ﷻ النظام لآدم وزوجه ﷺ أخبرهما أن عدم اتباع الأوامر الإلهية يؤدي إلى أن يقع المرء في الظلم، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿الأعراف: ١٩﴾. [الأعراف: ١٩].

بصيرة: الإنسان إذا لم يتحكّم في نفسه، وأدار تصرفاته وفق أهوائه، يوشك أن يُسبّب الظلم في العالم بسبب جشعه وأنايته.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾: الفاء فصيحة تفصح عن كلام محذوف، والتقدير: فإذا قربتما من الشجرة كنتما من الظالمين.

فمن تمام التدريب أن يعتاد آدم وزوجه ﷺ على الأمر والنهي أي على النظام، ولذا حرم الله عليهما أن يقربا من شجرة بعينها، ووضع لهما نظاماً محدداً.

حاول بعض المفسرين الكلام عن نوع الشجرة وهل هي السنبلة، أو التفاحة كما يزعم بعض أهل الكتاب، أو غيرهما؟ فأخبرني -وفقك الله-: ما هذا التفكير؟ وهل كلّفنا الله ﷻ بذلك؟

ذلك غيب لا سبيل إلى معرفته، ولا تفيدنا معرفته شيئاً، ويكفي أن نعرف أنها شجرة نهى الله ﷻ آدم وزوجه ﷺ عن القرب منها اختباراً، وهي شجرة مؤذية يترتب على الاقتراب منها أن يكونا من الظالمين. وأظن أن عدم تحديد جنس الشجرة مقصودٌ؛ «لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها. مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود.. لقد أذن الله ﷻ لهما بالمتاع الحلال واسعاً في كلّ الجنة إلا هذه المنطقة المحدودة، ووصّاهما بالامتناع عن المحظور».

ولا بد من محظور يتعلّم منه هذا الجنس أن يقف عند حدٍّ، وأن يختبر رغباته وشهواته، ويستعلي بإرادته على هذه الرغبات والشهوات، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان، فهذه هي خاصية (الإنسان) التي يفترق بها عن الحيوان، ويتحقّق بها فيه معنى (الإنسان).

الله تعالى نهاهما عن منطقة محدّدة فيها شجرة معينة، والطفل لا بد أن تعلّمه أن هناك شيئاً لا ينبغي أن يقترب منه، وبذلك يتدرّب على قوة الإرادة، ويستعلي على الرغبات والشهوات التي يفارق بها أصحاب الأهواء الأنانية.

هناك بُعد آخر في تحريم الاقتراب من الشجرة؟

إن الله ﷻ يعلمنا إثبات مبدأ سدّ الذريعة لحماية المصالح العليا كما قرّر الأصوليون؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لم يقل: ولا تأكلا هذه الشجرة.

والآن أظهر للبشر ما تبصرك به المعرفة القرآنيّة؛ فإن الله ﷻ قد أنبأنا في سورة البقرة أن الهدف الأول لخلق آدم ﷺ أن يجعله في الأرض خليفة، فكان سكن آدم وزوجه ﷺ في الجنة تمهيداً تدريبياً على الخلافة في الأرض، وأول وسائل التعمّد على هذه الخلافة في الأرض: الشعور بحسّ المسؤولية.. وحسّ المسؤولية يُنمّي بوجود النظام الذي يتكوّن من الأمر والنهي، وبذلك يعتاد الإنسان على تطبيق النظام، وتنمو مداركه العقلية المتعدّدة، ويصبح جاهزاً للخلافة في الأرض، وإعمارها.

وهذا أصل تربوي يتوجب استلهامه في التخطيط للبرامج التربوية والإرشادية والدعوية، فلا تكون تنظيرات مجردة عن الواقع المحيط، بل لا بد من توفر الواقعية في العرض والتناول والتأهيل والتدريب.

قصة آدم ﷺ بين الهيمنة القرآنيّة والتوراة المحرّفة:

وربما تتساءل عن مشهد التصديق والهيمنة للقرآن بالنسبة إلى الكتب السّابقة: فماذا بشأن

قصة آدم ﷺ هنا، وسكنه للجنة؟

الذي يظهر من القرآن الكريم أن الجنة التي أسكنها الله آدم ﷺ كانت موجودة من قبل، وأما في التوراة فتجد في سفر التكوين (٢) الآتي:



٨ وَغَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ ٩. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ الْأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلْأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

١٥ وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا.

١٦ وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا.

١٧ وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لَأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ».

وفي هذا النص التوراتي المفاجئ تجد بعض الإشكالات الواضحة التي لا تجدها في الرؤية القرآنية، هنا يهيمن القرآن فيصحح هذه الأخطاء الواضحة.

عندما نقارن النص التوراتي مع النص القرآني نجد الردَّ الواضح على أهل الكتاب والمستشرقين الذين يقولون: إن محمدًا ﷺ استقى القرآن من التوراة، فإذا وازنَّا بين النَّصِّينِ وجدنا ما يزيدنا إيمانًا أن القرآن كما وصفه الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والهيمنة تقتضي أن يصحَّح التحريفَ الأعوج الذي افتعله المحرِّفون في التوراة، فهنا عدَّة مقارنات:

فأولاً: الجنة في القرآن كانت موجودة، وإنما أسكنها الله ﷻ آدم ﷺ بعد أن أسجد له الملائكة، وحذَّره من عدوِّه بينما نلاحظ في نصِّ التوراة أن الله ﷻ خلق لآدم ﷻ جنةً في منطقة محدَّدة، فبين النصين خلاف.

ثانيًا: في نصِّ القرآن نجد أن سكنى آدم ﷻ في الجنة إنما كانت لراحته وسعادته، إذ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

بينما نجد نصَّ التوراة الحالية يدلنا على أن آدم ﷺ سيتولَّى حفظ الجنة، فقد قال الكاتب: «وَوَضَعُهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا».

ثالثاً: في القرآن نهى الله ﷻ آدم ﷺ عن القرب من الشجرة بينما في التوراة الحالية نهاه عن الأكل، وفرق بين التعبيرين.

رابعاً: في القرآن نجد آدم ﷺ وزوجه ﷻ عرفا الخير والشر قبل أن يسكنوا الجنة عندما أسجد الله ﷻ لآدم ﷺ الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، فملاً قلب آدم ﷺ بالمعرفة.

فالشجرة التي حرم الله ﷻ على آدم ﷺ وزوجه ﷻ أن يقرباها لم تُسمَّ في القرآن، لكنك تُفاجأ بأنها في التوراة الحالية: شجرة معرفة الخير والشر، وأنت ترى الرؤية القرآنية توضّح لك أن معرفة الخير والشر جزء أساسي من المعرفة التي حباها الله ﷻ بها آدم ﷺ عندما علمه أسماء كل شيء، ثم أخبره بعد عن عدوّه، وأخبره أنه إن قرب وزوجه ﷻ من الشجرة صارا من الظالمين، وكل ذلك يدل على أن معرفة الخير والشر جزء من التكريم الإنساني.. تظهر هنا هيمنة القرآن على النصّ التوراتي، فتصحّح التحريف الذي طرأ عليه بصورة تبرز فيها كرامة الإنسان وعظمة الرحمن.

انظر إلى التدرّج في تدريب آدم ﷺ وزوجه ﷻ على المسؤولية، ففي البداية كان الإكرام التام، والاحتفال بخلقه حيث أمر الملائكة بالسجود له، ثم أخبره عن عدوّه، ثم أسكنه الجنة، ولكنه منعه من قربان شجرة بينها وسط كثرة كثرة من الأشجار المأذون له في الاستمتاع بها، وهذه التربية توسع آفاقه الفكرية والتنظيمية وتكسبه الخبرات المتعددة لإعمار الأرض بعد ذلك، فهل يستوي هذا وما زعمه كاتبو التوراة المحرّفة من أن الله ﷻ منعه من أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر؟

ما أسوأ هذا التحريف؛ إذ ترى الله ﷻ يبني في أبوي البشرية معرفة الخير والشر منذ أن عرفا الحياة.

خامساً: في الرؤية القرآنية بين الله ﷻ له عدوه من وليه، وبين له أنه إن قُرب هو وزوجه من الشجرة سيكونان من الظالمين.. كل ذلك بينه له قبل أن يسكن الجنة، بينما في التوراة يقول: «وَأَمَّا شَجَرَةٌ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لَأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلْ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»، فلما أكل لم يمت، فكيف يكون النصُّ صحيحاً؟! أما في القرآن، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

والغريب أن عبارة «موتاً تموت» في هذا النصِّ المحرّف إن حملناها على ظاهرها، فيمكن أن يكون المعنى: لن تكون من الخالدين، وستموت أخيراً.

وهنا تتوجّع من التحريف فإن آدم عليه السلام قد هدّد بأن يموت إذا أكل من تلك الشجرة لكنه لم يمت، ويحاول المصرّون على التحريف الهرب من هذه الحقيقة المرة بأن يقولوا: مات موتاً أدبياً وروحياً، وكان من ثمرة هذا التحريف والتأويل المنحرف أن تبنوا نظرية الخطيئة الأصلية اللازمة لبني آدم، بينما نرى في الرؤية القرآنية أن آدم وزوجه ﷺ تابا فتاب الله ﷻ عليهما، وصارت ذريتهما نقيّة إلا أن تدنّس نفسها بالذنوب بعد البلوغ.

سادساً: الخطاب عندنا في القرآن في سورة الأعراف وفي سورة البقرة للاثنتين معاً: آدم وزوجه ﷻ، وهذا يدلُّ على التكريم لحواء ﷻ، بينما لا نجد هذا الخطاب الفخم الذي يظهر مشاركة حواء لآدم ﷻ في كل تلك الخيرات، والمسؤوليات، فبحسب القرآن الكريم هناك مشاركة، أما بحسب النصِّ التوراتي فتجد حواء ﷻ تتحمل وزر المخالفة دون أن يظهر تكريمها بجوار آدم عليه السلام، ولذلك تَفَجَّرَ عندهم ما يسمى بتحرير المرأة في العصر الأخير، فأثّرت الرواية التوراتية الموجودة في التفكير الفلسفي حول طبيعة المرأة عندهم، وما زالوا



يخبطون خَبَطَ عَشَاء، وهامهم اليوم يتزعمون تدمير الأسرة باسم العلاقات المتعددة خارج نطاق الأسرة، وبذلك ترى هنا أن القرآن المجيد يصحّ تصحيحًا عظيمًا النصّ التوراتيّ الموجود بين أيدينا. ﷺ

وقد تسأل: لماذا لا نذكر الإنجيل؟

الجواب: لأن الإنجيل الموجود ليس إلا سيرة لعيسى عليه السلام، ولا يوجد فيه هذا التفصيل عن بداية الخلق، فالنصارى يقسمون الكتاب المقدّس إلى العهد القديم، وهو التوراة والأسفار الملحقة بها، والعهد الجديد، وهو الإنجيل، وهو عبارة عن قصة لعيسى عليه السلام لا يوجد فيه أيّ ذكر لما حصل سابقًا لعيسى عليه السلام، فإذا قيل ما الرواية عن آدم عليه السلام عند النصارى؟ نقول: هي الرواية التوراتية لا غير.

المشهد الثاني: مشهد الجهود الشيطانية لاصطياد الإنسان:

وَيُبَصِّرُنَا بِهِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

المناسبة والاتصال:

بعد أن سكن آدم وزوجه ﷺ الجنة بدأ الشيطان من فوره بتنفيذ خطته التي اعترف بها، وأعلن عنها من قبل، ويُبَصِّرُنَا اللهُ ﷻ في هذه الآيات كيف نفذ إبليس خطته، وهنا يحقُّ لك أن تتساءل عن مظاهر الجهد الشيطاني لإيقاع الإنسانية في فخاخه حسب قصة أول مواجهة حقيقية بين الإنسان والشيطان:

مظاهر الجهد الشيطاني



مظاهر الجهد الشيطاني:

توضّح آياتُ المَشْهَدِ الثاني مظاهرَ الجهد الشيطاني في أحد عشر مظهرًا:

المظهر الأول: الفورية:

إذ حَرَصَ إبليس على القيام بتحقيق أهدافه في تدمير البشريّة فورًا دون إبطاء، ويُصِرُّنا بذلك الفاء في قوله جَلَّ في علاه ﴿فَوَسْوَسَ﴾؛ إذ إن الفاء تدلُّ على التعقيب دون تراخٍ أو مهلة:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الفاء للتعقيب المباشر بحسبه، فيأخذ المُدَّةَ التي تناسب ما بين الحدثين، وتصورٌ لنا الفاء أنه لا يوجد حدث آخر بينهما، فإذا قلنا: تزوجت فولدت، فالمقصود أنها لم تتأخر عن موعدها في الولادة بعد أول لقاء بزوجها.

فالفاء هنا تصورٌ لنا أن الشيطان لم يأخذ راحةً بعد تهديداته، ولم ينتظر وقتًا طويلاً ليقوم بتنفيذ مهمته في إغواء آدم وزوجه ﷺ، بل بدأ بالتنفيذ الفوري لخطة، فَوَسْوَسَ الشَّيْطَانُ كانت قريبةً من النهي الذي صدر لآدم وزوجه ﷺ عن أن يقربا الشجرة.

وهي تشير إلى المشهد التالي للمشهد السابق؛ فبمجرد أن سكن آدم وزوجه ﷺ الجنة جاء إليهما موسوسًا.. لا تظن أن إبليس يؤخر تحقيق أهدافه، أو يمكن أن يرتاح يومًا عن محاولة احتناك واستئصالك، وهو يوسوس لك بالقدر الذي يظن أنه يناسب أن يوقعك في شرِّه وفخاخه.. وبمجرد انتهاء المشهد الأول بدأ إبليس بأداء دوره الذي رسمه لنفسه.

استغلَّ إبليس أن آدم ﷺ كان مزدوج الطبيعة، فقد ألهم الله ﷻ نفسَ آدم ﷻ فجورها وتقواها، وهداها السبيلين، وحبها الله ﷻ بحُرِّيَّة الاختيار، فبحث إبليس عن نقاط الضعف الإنسانيَّة التي يكسب من خلالها معركته ضدَّ البشر.. ورأى أن أكبرها شهوات الإنسان، وتطلعاته غير المنضبطة، ونسيانه، وهنا بدأ يوسوس ليضرب هذا الوتر الحساس عند الإنسان..

وإِيلِسَ يَنْصَبُ الْفِخَاخَ الْمُنَاسِبَةَ، وَيَضَعُ الشَّرَكَ الْمَلَائِمَ الَّذِي يَصْطَادُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَلَمَّا طَلَبَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَعْلَمَهُ دَعَاءَ أَمْرِهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي صَبَاحِهِ وَمَسَائِهِ: «اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَهْ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أُجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ»^(۱)، قَوْلُهُ: «وَشَرِّكَهْ» أَي: شَرِكَ الشَّيْطَانِ، وَيُرْوَى هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: «شَرِّكَهْ» بِكَسْرِ الشَّيْنِ وَسُكُونِ الرَّاءِ؛ وَمَعْنَاهُ: مَا يَدْعُو لَهُ الشَّيْطَانُ، وَيُوسَّوسُ لَهُ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالثَّانِي: «وَشَرِّكَهْ» بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالرَّاءِ، يَرِيدُ حَبَائِلَ الشَّيْطَانِ وَمَصَائِدَهُ.

والسؤال الذي يفرض نفسه ويناقشه المفسرون هنا: هل دخل إبليس الجنة؟

الجواب: ظاهر النصّ يَصُوِّرُ أَنَّ إِبْلِسَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَيَهَيِّمُ الْقُرْآنُ هُنَا عَلَى التَّوْرَةِ؛ لِأَنَّ التَّوْرَةَ الْحَالِيَةَ لَا يَرِدُ فِيهَا ذِكْرُ إِبْلِسَ وَإِنَّمَا يَرِدُ فِيهَا ذِكْرُ الْحَيَّةِ، وَهَذَا شَيْءٌ غَرِيبٌ، بَيْنَمَا عِنْدَنَا تَحَدُّدُ الْآيَاتِ بِدَقَّةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ هُوَ الْعَدُوِّ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي بَلَاءِ آدَمَ وَزَوْجِهِ عليهما السلام، فَالْآيَاتُ تَوْضِّحُ بِجَلَاءٍ أَنَّ هَذِهِ الْجَنَّةَ سَكَنَ مُؤَقَّتٌ يَجْرِي فِيهَا التَّكْلِيفُ، وَتَمَثَّلُ أَرْضًا تَدْرِيئِيَّةً لِلْقِيَامِ بِمَسْئُولِيَةِ الاسْتِخْلَافِ الْبَشَرِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَمِنَ الْمُنْطَقِيِّ أَنَّ يَكُونُ إِبْلِسَ قَادِرًا عَلَى دُخُولِهَا، لِتَكْتَمِلَ التَّجَرِبَةُ الْبَشَرِيَّةُ فِي الْإِلْتِمَازِ بِالْمَسْئُولِيَّةِ.

فهذا هو المظهر الأول من مظاهر الجهد الشيطاني، وكان عن الحركة الفورية في حرص

الشيطان على إيقاع الإنسان، فما المظهر الثاني؟

المظهر الثاني: الوسوسة الخطيرة التي تتكرر ولا تفتقر:

وَيَبْصُرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿فَوَسْوَسَ﴾.

(۱) أحمد (۶۸۵۱)، وقال الأرنؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن»، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، وإسناده حسن». مجمع

الزوائد (۱۷۰۴۰).

لا بد أن نتساءل: لماذا عبَّر القرآن الكريم عن الجهد الذي بذله الشيطان بكلمة ﴿وَسْوَوسَ﴾؟
الجواب: لأن هذه الكلمة هي الوحيدة التي توضَّح لنا حقيقة الجهد الشيطاني، وتصور لنا مقدار غفلتنا عن هذا الجهد الذي يبذله الشيطان صباح مساءً لتدميرنا؛ ف﴿وَسْوَوسَ﴾: من الوسوسة، وهي تدلُّ على حديث النفس، أو على الحديث الخفي الذي لا يحسُّ الإنسان به إحساساً ظاهراً، ولكنه يشعر به، فالوسوسة: الهمس الخفي، والصوت الخفي من ريح تهزُّ قصباً ونحوه، وبه يُشبَّه صوت الحلي، قال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ كما استعانَ بريحٍ عَشْرِقُ رَجُلٍ^(١)
 فالمقصود أن هذه المرأة إذا تحركت تَسْمَعُ لحليها صوتاً خفياً، كما تَسْمَعُ للريح صوتاً خفياً عندما يُحرِّك العَشْرِقَ، وهو نوع من النبات.

وتقول: فلان مُوسوس، أي: غلبت عليه الوسوسة، كَوَلَوَتِ المرأة، ورجل مُوسوس - بكسر الواو - ولا يقال مُوسوس بالفتح، ولكن مُوسوس له، ومُوسوس إليه، وهو الذي تُلقَى إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فَعَلَ الوسوسة لأجله، وسوس إليه: ألقاها إليه^(٢).

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقى إليه.

لماذا سمي إلقاء الشيطان وسوسة؟ هل بين الوسوسة وبين غرابة لفظها تناسب؟
 تتسم الوسوسة بأمرين خطيرين:

(١) البيت للأعشى الكبير في ديوانه (ص: ٥٥)، وفي "شرح القصائد العشر" (ص: ٢٨٩): «وقوله (إذا انصرفت) يريد إذا انقلبت إلى فراشها، وقوله: (كما استعان بريحٍ عَشْرِقُ رَجُلٍ): مجاز وإنما المعنى كعَشْرِقٍ ضربته الريح، فشبه صوت «الحلي بصوته، قال الأصمعي: العَشْرِقُ: شجيرة مقدار ذراع، لها أكمام فيها حب صغار، إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب، فشبه صوت الحلي بِخَشْخَشَتِهِ على الحصى».

(٢) العين (٧/ ٣٣٥)، المُغرب في ترتيب المُعرب (ص: ٤٨٣).

الأول: الخفاء بحسبه، فإذا كان الوسواس جنيًا فإنه يقذف لك بحديثه، وتشعر بذلك فيما تحدثك به نفسك، إذ تفكر وتقدر، وتخطط وتدبر، وأما إذا كان الوسواس إنسيًا فإنه يكلّمك بكلام خافت.

فإذا ألقي الوسواس حديثًا خفيًا إلى آدم وزوجه ﷺ يسؤل لهما فيه ما يريده؛ إمّا بكلام مباشر، وإمّا بما يشبه حديث النفس يسمعان له دويًا في أنفسهما كهَيِّئَةِ الْغَاشِّ الْمَآكِرِ؛ إذ يُخْفِي كَلَامًا عَنِ الْحَاضِرِينَ كَيَّلًا يُفْسِدُوا عَلَيْهِ غِشَّهُ بِفُضْحِ مَضَارِّهِ، فَأَلْقَى لَهُمَا كَلَامًا فِي صُورَةِ التَّخَافِ لِيُؤْهِمَهُمَا أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا، وَأَنَّهُ يُخَافُ الْكَلَامَ^(١).

الثاني: التكرار، فلما كانت الوسوسة كلامًا يكرّره الموسوس، ويؤكّده عند من يلقيه إليه كرّروا حرفي الكلمة مرتين بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وَسْوسَ وَسْوسَةً، فراعوا التكرار في اللفظ ليُفْهِمَ منه تكرار مُسَمَّاه، ونظير ذلك: زَلْزَلَ، وَقَلْقَلَ، وَكَبَّكَ الشَّيْءُ^(٢).

فالوسواس الإنسي: يكلّمك بصوتٍ خفيٍّ عن الآخرين حتى لو كنتم أمام غيركم، وقد يكلّمك بخفاء مع أنه لا يوجد غيركم لرغبته في التأثير عليك، وإيهامك أنه ناصح محب، ثم يسكت عن ذلك الموضوع وهو الخُنُوس، ثم يعود مجددًا فيكلّمك بخفاء في الصوت أو برفع في الصوت لكن مع خفاء في المكان فلا تكونون أمام الناس حتى تتبنّى ما يريد من شر. وأكثر من يمثل الوسواس بطناءةً السوء الظاهرة، وهم أصحاب الشر من البشر، وبطناءة السوء الباطنة غير المفارقة ممن ينتمي إلى الجن، وإنما سمي الموسوس وسواسًا؛ لبيان شدّة

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٥٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٠).

حرصه على إحداث التغيير السيء فيمن يوسوس له كأنه وسوسة في نفسه لأنّها صنعتُه وشغلُه الَّذي هو عاكفٌ عليه^(١).

والوسواس لا يفر عن الوسوسة، فقد قال الرسول الكريم ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاصِعُ خَطْمَهُ [أي: فمه] عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَسَ، وَإِنْ نَسِيَ التَّقَمَّ قَلْبُهُ؛ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ»^(٢).

وتدخل الوسوسة في الصورة البديعة التي صوّرها الله ﷻ بقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ [الرعد: ١٧].

فالوسوسة تدخل في الزبد الرابي الذي يحتمله السيل، والذي يوجد في النار، فإن انتبه الإنسان أوشك أن يتخلص من هذا الزبد ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الرابي على الماء وعلى الموقد عليه، مثل الوسوسة بالشهوات والشبهات ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفوه القلب فيرميه ويقذفه، كما يقذف الماء الزبد ويجفوه، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان، وما عمل المرء على ترسيخه بالأعمال الصالحة.. هكذا يُبعد المرء الشيطان الذي يحاول أن يقطع طريقه بالعودة في الصراط المستقيم كما حلف من قبل^(٣).

وقد تتساءل: هل الوسوسة سلاح قوي أم سلاح ضعيف؟ وكيف يتمكن الشيطان به من الإنسان؟

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٣٧٧).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٥٣٦) عن أنس رضي الله عنه، وفيه ضعف. ينظر إتحاف الخيرة (٥٩٢٣)، ومعناه صحيح.

(٣) الزهد والورع والعبادة (ص ١٩٤).

الجواب: قد يقول قائل: الوسوسة مجرد إلقاء في العقل والقلب، أي ليس لها تأثير.. الشيطان لا يملك الإنسان، وبذلك فالوسوسة سلاح ضعيف من جهة؛ لأنه يثير الصُّور ويحرك الخواطر، ولكنه لا يصل به إلى أن يتحكَّم بالشخص، والشيطان يَضَعُفُ عن المواجهة، وتستطيع أن تُبَعِدَ تأثيره المحدود عندما تلجأ إلى الاستعاذة بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعمل الصالحات.

وهنا تشعر بالتربية النبوية العظيمة؛ إذ إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَوِّرُ لك كيد الشيطان بقوة لتحذره، لكنه في الوقت ذاته يهَوِّن من هذا الكيد لئلا تيأس في مقاومته، فهاهو ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يروي ذلك، فيقول: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَدْتُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ»^(١).

انتبه لا تغفل، فالوسوسة تتحوَّل إلى سلاح قويٍّ، وأما إذا سألت: ما سبب قوَّته؟ فهناك أسباب:

طبيعة الوسوسة؛ إذ تتضمن أمرين: التَّكرار، والخفاء، وليس المقصود بالخفاء عدم ظهور الكيد أمام الناس، بل عدم ظهور قصده وما يرمي إليه، فقد يتكلَّم الموسوس بأعلى صوته ليسرَّب فكرة خبيثة، فَرَفَعُ صوته يشعر الناس بأنه لا يوسوس، وَخُبْتُ فكرته، وخفاء ذلك الخبث يدلُّ على أنه أشدُّ الموسوسين بأسًا، مثل حال وسائل الإعلام هذه الأيام.

(١) أحمد (٢٠٩٧)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وكذا قال الوادعي في الصحيح المسند (٥٩٩).

فإذا أضفت إلى التكرار والخفاء عدم فتور الشيطان، وطول الأمد على الإنسان.. هنا تصبح الوسوسة سلاحًا مدمرًا، فيطول الأمد والشيطان لا يفتر، بخلاف طبيعة الإنسان؛ فإن طول الأمد بالنسبة له قد يؤدي إلى قسوة القلب.

وتصورٌ وسوساتٌ وسائل الإعلام والتعليم والثقافة في العالم اليوم مقدار الجهود والأموال الضخمة التي يبذلها أولياء الشيطان ليلقنوا العالم كل فكرة خاطئة في مجال المرأة والطفل والتنمية وما يسمونه "الحريات"، تصورٌ الكم الهائل للوسوسات التي تبثها أجهزتهم وآلاتهم وبعثاتهم الدبلوماسية، ويكون تأثيرها أعظم من تأثير السيوف، وقد تظن نفسك أنك مُحَصَّنٌ لبشاعة ما يقولون.

حسبك أن تأخذ بشاعة فكرة "الإجهاض"، فهي جريمة لا تفعلها الوحوش في البرية، لكن أثر وسائلهم مثل النطفة أو القطرة إذا وقعت على رأس الإنسان: هل تؤثر عليه؟ لا تؤثر عليه، لكن لو ظلت هذه القطرات تتابع وتتابع يوميًا ويومين وثلاثة وعشرة... توشك مع المدى أن تشق الصخرة، كذلك الوسوسة لا تؤثر بمجرد الفعل الأول، وفي المقابل فإن الإنسان الذي يمدُّ خياله مع الوسوسة يوشك أن يقع في الفخ الكبير الذي يترتب على الاستجابة للوسوسة وسيدفع ثمن عدم طردها.

بصيرة: تصورٌ وسوساتٌ وسائل الإعلام والتعليم والثقافة في العالم اليوم مقدار الجهود والأموال الضخمة التي يبذلها أولياء الشيطان ليلقنوا العالم كل فكرة خاطئة في مجال المرأة والطفل والتنمية وما يسمونه "الحريات".

هل تظن أننا نبالغ عند التحذير من الوسوسات التي تُبَثُّ في وسائل الإعلام العالمية اليوم؟

حسبك أن تقارن بكاءهم على حرية المرأة في أفغانستان، وصمتهم عن النساء في فلسطين أو بلاد المسلمين التي تطحن النساء فيها والأطفال من عشرات السنين.

ولا بد أن تتساءل هنا: ما أهمُّ الطرق التي تطرد وسوسة الشيطان؟

الجواب: أول الطرق التي ترد وسوسة الشيطان: أن تتخذ الشيطان عدوًّا، فنشعر بوسوسته، وحينها يكره الإنسان محتوى تلك الوسوسة، ويستشنعها، وقد كان الشيطان يوسوس في صدور الصحابة رضي الله عنهم، فيكرهون ما يجدون من ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١).

ما صريح الإيمان هاهنا؟ أهو ما يجده الإنسان في نفسه، أي: الوسوسة، أم استئناس واستفطاع وجوده؟

صريح الإيمان هو أن تستفطع وجود فكرة يلقيها الشيطان في صدرك.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ»^(٢).

قال النووي رحمته الله: «ذلك صريح الإيمان، ومحض الإيمان»؛ معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به، -فضلاً عن اعتقاده- إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً مُحَقَّقًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك»^(٣).

(١) مسلم (١٣٢).

(٢) مسلم (١٣٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥٤ / ٢).



إن استشعنت محتوى الوسوسة فيجب أن تُعرِّض عن هذا الخاطر الباطل، وتلتجئ إلى الله تعالى في إذهابه.

لكن ألا يدهشك أن الصحب الكرام يَشْكُونُ للنبي ﷺ ما يجدونه في دواخلهم، ويكدر خواطرهم، ويؤرق أفئدتهم؟ لا.. ليس ثمة عجب، ولا دهشة إذا علمت أن التربية لا تؤتي ثمارها إلا إذا بلغت العلاقة بين المربي والمتربي حدَّ مشاركة الهموم الخاصة، والأحوال النفسية والخواطر، ويدل ذلك على مدى القرب وشدة الاتصال الروحي.. لكأن مثل هذه الآثار تنادي على المصلحين والهداة المرشدين إلى طريق الله: أن اقتربوا من عباد الله واستنقذوهم من شرك إبليس ووساوسه وحبائله.

وتكرار الوسوسة يقتضي الحذر وكثرة الاستغفار، «فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار. فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه»^(١).

ومن أعظم وسائل التخلص من الوسوسة: القرآن والذكر وصحبة الصالحين. ومن الغريب أنك لا تجد ذكراً للوسوسة في التوراة الحالية في موضوع آدم وزوجه ﷺ، وبذلك تشعر أن يد التحريف عبث بالنص التوراتي، لأن هذا الموقف خطير يستبعد الإنسان ألا يوصف في كتاب إلهي كما ينبغي، ولذلك يضيع على الإنسان استحضرار هذا المعنى الخطير الذي يستخدمه الشيطان في إغواء الإنسان: الوسوسة.

هكذا ظهر لنا مظهران من مظاهر جهود إبليس لإغواء آدم وزوجه ﷺ: الفورية، والوسوسة الخطيرة، فما المظهر الثالث الذي بصَّرتنا به الآيتان؟

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٥٦).

المظهر الثالث: التركيز:

إذ ركّز إبليس جُهدَه على الضَّحِيّة المَحَدَّة دون تَشَتُّ، وبيصّرنا بذلك تقديم كلمة ﴿لَهُمَا﴾ على الفاعل في قوله تعالى مَجْدُهُ: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ۲۰]، وكذلك وَصَف إبليس بالشیطان:

ركّز الشيطان على آدم وزوجه حواء ﷺ، لاحظ ذلك في تقديم كلمة ﴿لَهُمَا﴾ على الفاعل الذي هو ﴿الشَّيْطَانُ﴾، فإذا كان الشيطان هو الفاعل فالترتيب العربي أن الفاعل يأتي بعد الفعل مباشرة: فوسوس الشيطان لهما، لكن الله ﷻ قدّم الجارّ والمجرور على الفاعل؛ لأنهما واقعان موقع المفعول: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ بل يمكن حتى الاستغناء عنهما في الكلام، فكان مُمَكِّنًا أن يقول: فوسوس الشيطان، لكنه ذكر كلمة ﴿لَهُمَا﴾ وقَدَّمَهَا لِيُبَيِّنَ أن إبليس ركّز عليهما، وجعل جهده منصبًا عليهما.

وتتأمل فتجد أن الله ﷻ وَصَف إبليس هنا بالشیطان: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، مع أنه قد سَمَّاهُ إبليس حين قال له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ۳۲]، لماذا؟

فالجواب: لأن إبليس هو الذي باشر فوسوس لأبونا ﷺ، وإنما أراد الله ﷻ أن يصف إبليس بوصف آخر من أوصافه المتعددة، فهناك وصفه بالأبلسة، والإبلاس؛ لأنه وقع في الحيرة والهلاك واليأس، وأوقع غيره في ذلك أيضًا، وهنا وصفه بوصف آخر وهو الشَّيْطَانَة، والشَّيْطَانَة تدلُّ على شِدَّة الجهد وحُرْقته في تَغِيْطِه على عدوّه الإنسان، فالشیطان من: شَطَنَ بمعنى: بَعُدَ، وذلك لُبْعْدِه عن كلِّ خير، ومن: شَاطَ بمعنى: احترق غيظًا وغضبًا، وكلاهما يدلُّ على التمرُّد والاحتراق لِشِدَّة العداوة لآدم وزوجه ﷺ.

والآن دعنا نتقل مع الآية، فقوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، يخبرنا عن مظهر جديد من مظاهر الخُطَّة الشَّيطَانِيَّة مع آدم وحواء ؑ.. فما هذا المظهر؟

المظهر الرابع: كشف السوءات، فهو هدف شيطاني مدمر:

إذ حدَّد إبليس هدفه الخاص الذي يريد إيقاع الإنسان فيه، وهو كشف السوءات، وليس الوقوع المباشر في الشُّرك، وفي هذا إسقاط لآدم وزوجه -أولاً- أمام نفسيهما، وإفقادهما الثقة ببراءتهما وطهرهما واستحقاقهما لصللة الله وقداسة القرب منه، ويصِّرنَا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]:

ستقول: فهما أن إبليس وسوس لهما ليوَقَعهما في المعصية، ولكننا عندما نقرأ قوله -تعالى- مَجْدُهُ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، يظهر لنا أن اللام لام العاقبة والمصير، بما يعني أن الشيطان وسوس لهما لتكون عاقبة استجابتهما له أن يُبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما. فهل عرف الشيطان نتيجة الأكل من الشجرة، وأن ذلك سيؤدي إلى كشف السوءات؟

أجيبك: بأنك تجد اللام في قول ربنا جَلَّ مَجْدُهُ: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ تكشف عن الكثير.. إنها اللام العجيبة!

هذه اللام تسمى لام العاقبة والخاتمة والمصير، ومثلها تجده في قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فهم هنا لم يقصدوا أن يكون موسى عليه السلام عدوًّا لهم، بل أرادوا أن يكون قُرَّة عين، لكن اللام بينت عاقبة الأمر وخاتمته، وهو أن موسى عليه السلام صار لهم عدوًّا.

فيحتمل أن إبليس لم يقصد بالسوسة ظهور سوءاتها، ولم يعلم بالنتيجة^(١)، لكنه يعلم أن جهوده إن أثمرت فستؤدي إلى أن يقعا في المعصية، فيكونا من الظالمين، وهذا هدف كافٍ له.

ويظهر لي أنه يحتمل احتمالاً قوياً أن اللام هنا لام الغرض، أي: الهدف والقصد والعلة الباعثة، فإبليس قد رسم الخطّة وحدّد الهدف بدقّة شديدة؛ فعلم أنه سيتربّ على القرب من الشجرة أن يأكلا منها، وسيتربّ على الأكل منها المعصية، وسيتربّ على المعصية أن تكون عقوبتها أن تنكشف لهما سوءاتها، فيبدو لهما ما واره الله تعالى عنهما منها، فيكونا من الظالمين.. هذه اللام هي لام الهدف والعاقبة والمصير في وقت واحد.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾: تصوّر لك النتيجة الخطيرة التي يريد أن يصل إليها إبليس، إنها المعصية وانكشف ما يحبّ البشر ستره حباً فطرياً.

﴿مَا وَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾: تصوّر لك أنه غطّي عنهما ما اكتنزه من أعضاء قوتها مما يسوءهما أن يراه غيرهما، ولذا عدّى الفعل به (عن).

وذلك يدل على «أن كشف العورة من المنكرات، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع، مستقبلاً في العقول، وأن الله أوجب ستر العورة، ولذلك ابتدر آدم وحواء ﷺ إلى سترها، فمن دعا إلى كشف العورات سواء عند الرجال أو النساء فقد هتك ستر الحياء، وأعاد الإنسان إلى البدائية الهمجية، وجعل المرأة سلعة للمتعة والتسلية، ولم يرع صون العرض الذي أمر به الدين واقتضته الفطرة السليمة، وكان صنيعه مثل الشيطان»^(٢).

(١) تفسير الرازي (١٤/٢١٨).

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، (٨/١٦٦).

وهنا ستسأل: لماذا جاء الفعل ﴿لِيُبْدِيَ﴾ في تصوير صنيع الشيطان لإظهار ما كان مغطًى؟

لماذا لم يقل مثلاً: ليُظهر لهما؟

الجواب: ﴿لِيُبْدِيَ لهُمَا﴾ أي: ليظهر لهما، لكن هناك فرق بينهما:

الفرق الأول: الإبداء أقوى درجات الإظهار في هذا الموضع، فلذلك اختير ليصوّر لنا الموقف، فالإبداء شيء أخص من الإظهار، فهو من بدا الشيء يُبدو: إِذَا ظَهَرَ، فَهُوَ بَادٍ، ويرى الراغب رحمته الله أن (بدا) أي: ظهر ظهوراً بيناً، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] فهو هنا أقوى درجات الإظهار^(١).. لماذا؟

لأنه سيُظهر لهم يوم القيامة الأعمال المعنوية التي لا يراها الناس، فتصبح مُجَسَّدة تُوزن في الميزان، و(بدؤنا الوادي): جانبه، ويقابل كلمة ﴿بَدَا﴾ كلمتان:

(خَفِيَ): ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

و(كُتِمَ): ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

فهذا الفرق الأول بين (بدا) و(ظهر): ف(ظهر) عامّة، بينما (بدا) ظهور خاص يكون قوياً بيّناً.

الفرق الثاني: يرى أبو هلال العسكري رحمته الله أن الظُّهُور يكون بِقَصْدٍ وَبِغَيْرِ قَصْدٍ، فتقول: استتر فلان ثم ظهر بنفسه، ويدلّ هذا على أنه قصد الظهور، ويُقال: ظهر أمر فلان إن لم يقصد لذلك، والبُدُوّ ما يكون بِغَيْرِ قصد تقول: بدا الصُّبح، وبدت الشمس، وبدا لي في الشيء^(٢).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١١٣).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٢١٢)، الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٨٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١١٣)، المعجم

الاشتقاق المؤصل (١/ ٨٣).

فيظهر أن البُدُوَّ هو الظهور البين لشيء لم يكن مقصودًا إظهاره، وعليه فإن بُدُوَّ سوءات الأبوين لم يخطر لهما وهما يأكلان من الشجرة فضلًا عن أن يريداه.

فوضح لنا بهذا معنى ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾. ولكن كأني بك تسأل: ما وجه استعمال الفعل ﴿وُورِيَ﴾ ليدلَّ على تغطية السوءات؟ فلماذا قال: ﴿وُورِيَ﴾ ولم يقل: (غُطِّي) أو (أُخْفِيَ)؟ أجيبك: بأن الفعل ﴿وُورِيَ﴾^(١) أفضل كلمة تصوّر هذا الواقع في هذه القصة، فهو مشتق من وارى يوارى: إذا ستر شيئًا هو عبارة عن قوّة ما، وهو مُكْتَنَز فيه، وصاحبه يريد إخفاءه، ولا يُطلع عليه إلا بإزالة ما يستره، فيقال: وَارَيْتُ كذا: إذا سترت شيئًا يمثل أهمية بالنسبة لي. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وهي الشمس، فإنها تمثل قوّة عظيمة بالنسبة لأهل الأرض.

ومنه: (الزّند الواري): وهو عُود الخشب الذي تَخْرُج ناره سريعًا كأنه يستر قوّته النارية فيه حتى يُقدح، فيخرجها، وقد وَرِيَ (كولِّي وسعى): اتَّقَدَ وَخَرَجَتْ ناره، والزّند أداة الحصول على النار قديمًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ١٧].

و(الوَرِي) بالفتح: داء يستر في الجسد فينفظ فيه، وهو قَيْحٌ يكون في جَوْفٍ، أو قُرْحٌ شديد يُقَاءُ منه القَيْح والدم. يُقَالُ: وَرِيَ جِلْدُهُ يَرِي وَرْيًا، وَوَرَاهُ غَيْرُهُ يَرِيهِ وَرْيًا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»^(٢)، ومنه مِسْكٌ وارٍ: رفيع جيّد تسطع منه الرائحة كأنه يخترنها.

فكلمة ﴿وُورِيَ﴾: تبصّرك بأن هناك مَنْ ستر عنهما سوءاتهما، وهذا المستور مما يسوءهما أن يطلع عليه غيرهما.

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٦٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧٣٢).

(٢) البخاري (٦١٥٥).

فظهر لنا بصورة مشوّقة لماذا جاء التعبير في هذه القصّة بهذه الكلمات: يُبْدِي، وُورِي، وهنا

ستسأل عن معنى كلمة ﴿سوءات﴾؟

الجواب: السّوءات: جَمْعُ السّوَةِ، وهذه الكلمة اشتقت من ساء يسوء سُوءًا، والسّوء: ما يسوء المرء أن يقع به أو يظهر منه لوجه من الوجوه الآتية:

أولاً: إمّا لُقّبَحه طبعًا، لعيبه وفساده في ذاته، مثل السيئة التي تعني الخصلة الذميمة بحسب الطبع، كما في قول أبي زُبَيْد:

لَمْ يَهَبْ حُرْمَةَ النَّدِيمِ وَحَقَّتْ يَا لَقَوْمِي لِلسَّوَةِ السَّوَاءِ^(١)

وثانيًا: وإمّا لُقّبَحه شرعًا، فيُقْبَح أن يقع منه أو فيه بحسب الشرع، فالسّيئة: الذنب والفعله القبيحة شرعًا، وهي ضدُّ الحسنه، قال: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١]، أي الفعلة الذميمة شرعًا.

وثالثًا: وإمّا لُقّبَح أن يقع عليه، إذ يسوء المرء أن يُعرف به مثل: السيئة أي المصيبة ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي: قحط ومرض ومصيبة.

ورابعًا: وإمّا لُقّبَح أن يظهر منه، فهو قوة خفية يعتزُّ بها، لكنه يأبى أن تظهر منه، بل يحبُّ بفطرته أن تُستر، مثل السّوءة: فرج الرجل والمرأة؛ لأن الفطر السليمة تستقبح ظهورها^(٢).

فالسّوءات هنا يراد بها: ما يسوء أن يظهر منهما مما جُبِلَا عليه، وخُلِقَا به، مما هو مستور من أعضائهما التي تعبّر عن قوة جسدية محدّدة، ولكن الحياء يمنعهما من أن يُظهرا هذا الجزء الذي يعكس جمالهما وطبيعتهما، والتعبير عن الأعضاء الجسدية الخاصّة بذلك ينبئك بأن من كمال الإنسان أن يكون مكتمل الخلق بوجود هذه الأعضاء، وأن يسترها عن

(١) البيت لأبي زُبَيْد حرمله بن المنذر الطائي في ديوانه (ص: ٢٥)، و(السّوءة السّوءة): الخصلة القبيحة.

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ١١٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٤١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٩٣٧)

الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَ لَهُ سَكَنًا وَسَكِينَةً أَيْ: الزوجان. وهذا عندي أولى من أن يقال: السَّوَاءُ سُمِيتَ بذلك؛ لأنه يسوءه أن تظهر لأنها من علامات النقص، فليست هي بالنسبة للإنسان من علامات النقص، بل إن اكتمال أعضاء الإنسان من علامات الكمال البشري بالنسبة للإنسان باعتباره مخلوقاً مبتلى في الدنيا.

فيكون معنى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَدَّرَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَتَيْهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]: ليُظهر لهما إظهاراً بيّناً ما يسوءهما أن يظهر من أعضائهما، فيظهران عاريين أمام بعضهما، وفي الجوّ العام حيث لا ينبغي أن يكشف أحد سوءته، وظهر مع ذلك خصال ذميمة كان ينبغي لهما قمعها من الجرأة على المعصية، واختراق النظام الإلهي الذي ينبغي أن يصونه ويستقيما عليه. وبعد هذه الجولة الطويلة في المعاني التي تصوّرها هذه الكلمات الثلاث: يدي، ووري، سوءاتهما.

فإن قلت: بماذا يبصّرنا الجمع في قوله جل ذكره: ﴿سَوَاءَتَيْهِمَا﴾ مع أنهما اثنان؟

الجواب: قد يكون الجمع لغوي محض على أسلوب العربية في كراهة توالي أكثر من مثني في كلمة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، وهما اثنتان: عائشة وحفصة رضي الله عنهما. وأشار أبو حيان رحمه الله إلى احتمالية «أن يكون الجمع على أصل وضعه باعتبار أن كلّ عورة هي الذُّبُرُ والفَرْجُ، وذلك أربعة: فهي جمع»^(١)، وكذلك إصغاء القلب للمعصية يكون متدرجاً؛ فجاء الخطاب الجمعي باعتبار درجاته ومراحل.

ربما تتساءل: وكيف كان أمرهما من قبل؟ ألم يكونا يعرفان تفاصيل أجسادهما؟

(١) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٥).

الجواب: هذا سؤال من الأسئلة التي طرحها علماؤنا، فكأنهم قالوا: ما القصة؟ عندما خلق الله ﷻ آدم وزوجه حواء ﷻ هل كانا في ذاتهما عاريين ولكنهما لا يريان سوءاتهما؟ أم لم يكونا عاريين، بل كانا مستورين وكان عليهما لباس خاص لكنه سقط بفعل وقوعهما في الظلم عندما أكلا من الشجرة؟

الذي يظهر لي أنه كان عليهما لباس يستر سوءاتهما، وعن وهب بن مَثْبُوه ﷺ قال: «كان عليهما نور، لا تُرى سوءاتهما».

وهذا الكلام من وَهْبٍ ﷺ يحدّد النور لباساً لهما، ولا يوجد عندنا دليل على ذلك، وقال ابن عَبَّاسٍ ﷺ: «كَانَهُمَا قَدْ أَلْبَسَا ثَوْبًا يَسْتُرُ عَوْرَتَهُمَا، فَلَمَّا عَصَيَا زَالَ عَنْهُمَا ذَلِكَ الثَّوْبُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا﴾»^(١).

ويظهر لي أن ما ورد عن ابن عباس ﷺ في محله، والتركيب القرآني يدلُّ عليه، فعندما تنظر في التركيب: ﴿مَا وَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ تجد أن هناك فاعلاً وارى عنهما من سوءاتهما، ومعنى ذلك أنهما لم يكونا يريان عوراتهما مكشوفة في تلك المدة، ويظهر أن الفعل المبني لما لم يسمَّ فاعله يدلُّ على أن الستر للسوءات وقع بأمر الله ﷻ من خلال ملابس خاصة، وليس بنسجتهما لملابس من عند أنفسهما، ويظهر أن اللباس الذي عليهما لباس مخصوص اكتسباه عندما خلقهما الله ﷻ كما يكتسب المفلحون الفائزون ألبستهم يوم القيامة.. اللهم اجعلنا في أولهم، فقد حدثنا ابن عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاءً، عُرَاءً، غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام)»^(٢).

(١) تفسير الطبري (١٢ / ٣٤٧)، وأثر ابن عباس ﷺ ذكره الرازي في تفسيره (١٤ / ٢١٨).

(٢) البخاري (٣٤٤٧).

هذا الذي يظهر لي: أن أبونا ألبسا لباساً خاصاً، وأن أصل اللباس في ذاته خلق مع آدم وزوجه ﷺ.

وأنهما لما وقعا فيما نهما الله ﷻ عنه بدت لهما سوءاتهما في المكان الذي ينبغي أن يسترا فيه أنفسهما، كما يحدث لكل إنسان يكون لباسه سابغاً وهو يسير خارج بيته، وفجأة يسقط لباسه، حيث لم يكن يحب أن يراه أحدٌ على تلك الهيئة.

ستسأّل: ماذا يعني أنه يريد أن يحقّق هذا الهدف (إيقاعهما في أن يريا ما ووري عنهما من سوءاتهما)؟ لماذا ذكر الله ﷻ هذا الهدف الشيطاني قبل أن يذكر تلاعب الشيطان بهما؟

الجواب: هذا الهدف الذي يخبرنا الله ﷻ عنه يدلُّ على تركيز الشيطان على أهداف مرحلية محدّدة خاصّة حتى يستطيع إيقاع الإنسان في الأسوأ، ويكون الإنسان لعبة بين يديه، وهنا تدرك مقدار الترابط المُحكم بين أول السُورة وآخرها، ففي أولها يحاول الشيطان أن يوقع الإنسان فقط في أن يرى ما ووري عنه من السّوءة، أما في آخرها، فيذكر الله ﷻ كيف وصل الشيطان إلى إيقاع الإنسان في الشرك، ويحدثنا الله ﷻ عن ذلك فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا وَجَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

ففي أول السُورة كان هدف الشيطان أن يظهر السّوءات أمام العالم، وفي آخرها ظهر أن هدفه أن يوقع الناس في الشرك.

وهنا تدرك أيضًا: لماذا قال الله ﷻ في آخر السُورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

بصيرة: سورة الأعراف تمثل وصفاً تفصيلياً لمحاولات الاختراق الشيطانية للإنسان، كما تبين سُبُلَ الحماية منه.

محاولات الشيطان الحثيثة من بُدُو السَّوَاءَاتِ إِلَى الإِشْرَاقِ بِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ: وهنا يلفت نظرك الأمر بِشِدَّةٍ، فتساءل: لماذا هذا التركيز الشيطاني على إبداء السَّوَاءَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ لماذا لم يركِّز على شيء آخر كَأَن يُجْعَلَ إِبْلِيسُ آدَمَ النَّبِيِّ يُشْرِكُ بِاللَّهِ ﷻ مثلاً؟

الجواب: حَقَّقَ إِبْلِيسُ بِمَا فَعَلَهُ هَدْفَيْنِ مَعًا:

الأول: إيقاع أبنينا في معصية الله ﷻ، والثاني: ما يترتب على المعصية، إذ ترتب على المعصية أن يكونا ظالمين، ولظلمهما سيظهر شيء جديد لآدم وزوجه ﷻ، وهو بُدُو سَّوَاءَاتِ الْإِنْسَانِ الَّتِي يَسْتَحْيِي أَنْ يَبْدِيهَا حَتَّى أُعْطِيَ الْكَفَّارَ كَفْرًا، وَأَقْبَحَهُمْ إِحْدَاثًا يَسْتَحُونَ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ السَّوَاءَاتِ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ، وَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ ذَلِكَ فَهُوَ يَنَاقِضُ نَفْسَهُ، وَيَنَاقِضُ طَرِيقَتَهُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ حَرِيصٌ عَلَى إِظْهَارِهَا، فَبُدُو سَّوَاءَاتِ الْإِنْسَانِ رَمَزَ وَاضِحٌ إِلَى مَخَالَفَةِ مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ تَعَالَى مَجْدُهُ، وَإِلَى مَخَالَفَةِ الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَمَا مَعْنَى أَنْ تَخَالَفَ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ؟

يعني أن تدمر طبيعتك، فالإنسان يمشي على رجلين، فإذا عاند أحدهم وقال: سنصدر قانوناً للمشي على اليدين فهذا يعني تدمير الطبيعة الإنسانية، وكذلك الإصرار على إبداء السَّوَاءَاتِ، فحقيقته مخالف لطبيعة الإنسان من جهة، ويؤدِّي إلى انتهاك المعاصي التي تخالف النظام الإلهي من جهة أخرى، وكلُّ ذلك يسبب الخلل في نظام الكون واستقراره، وسعادة الإنسان، وحياته.

و«الفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها.. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن



الحياء من الله ﷻ ومن الناس، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة- في شتى الصور والأساليب الشَّيطَانِيَّة الخبيثة- هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته، وخصائص «إنسانيته» التي بها صار إنساناً. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوءاته! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانيَّة وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة. وقد فقدت مقوماتها الإنسانيَّة!». .

وانظر للفكر الشيطاني الخبيث.. لقد عَلِمَ الشيطان أن بُدِّو السَّوآت يعني كسر حاجز الحياء مع النَّفْس، وهذا يعني كسرًا لحاجز الحياء مع الآخرين، وكلاهما طريق يؤدِّي إلى كسر حاجز الحياء مع الله ربِّ العالمين.

يستحي المرء أن تُرى سوءته.. ذلك جزءٌ من فطرته مسلماً كان أم كافراً.. حتى إذا ما ذهب ذلك الحياء جاءت له الفلسفة الشَّيطَانِيَّة: ما المانع من أن ترى العورات، وتظهر السَّوآت مع المحافظة على حقِّ الحياة الإنسانيَّة وفَقِّ سُنَّة الزواج؟

فإذا فعل ذلك هبط به الشيطان دركة جديدة، فقال: ما المانع من الشيوخ الجنسي المحدود؟! فتنتهك قوانين الزواج بأن ينكح الرجل من لا يحلُّ له من النساء، وتبحث المرأة عمن لا يحلُّ لها من الرجال على سبيل العبث الشبَّابي، ويقول الشيطان للإنسان: لن يؤثر ذلك على وجود رابطة الأسرة المقدس.

ثم يهبط به دركة ثالثة، فيدعو إلى الشيوخ الجنسي بين الرجال والنساء بدون حدود، ويُسوِّق توزيع أدوات صحية لحماية الزنا، والفاحشة في الأرض، ويُقنِّنون ذلك، بدلاً من منع الزنا وأسبابه، وتأتي الأبحاث العلمية المَزَوَّرَة لتوهم الناس أن ذلك مسألة جينية، ويفترون على العلم الكذب، وبعضهم يعلمون، وبعضهم لا يعلمون، ويؤيدون ذلك بأن هذه مجرد

شهواتٍ شخصيةٍ برضا الطرفين ليس فيها اعتداء على الآخرين، ثم يهبط الشيطان بهم دركة أخرى، فيستكفون عن إنشاء الأسر الطبيعية التي تبث من خلالها الحياة الإنسانية؛ إذ يهتم كل منهم بشهوته الخاصة، ويمتنع عن الزواج، ثم يهبط بهم إلى الشرك؛ إذ يصرون على التدخل في أمر الله ﷻ ونهيه، وينصبون أنفسهم شركاء لله ﷻ، يُشرعون ما لم يأذن به، ويطالبون بتغيير خلق الله ﷻ.

فبُذُّوا السَّوآتِ هو البداية لكل قبيحة من الأفعال التي ستأتي بعد ذلك.

هنا تفهم لماذا جاء الوعيد الشديد على تبرُّج الجاهلية الأولى، فقد جاءت أُمَيَّةُ بِنْتُ رُقَيْقَةَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَبَايَعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: «أَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقِي وَلَا تَزْنِي، وَلَا تَقْتُلِي وَلَدَكَ، وَلَا تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِيهِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَرَجُلِكَ، وَلَا تُنَاجِي، وَلَا تَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

وربما تسأل: ماذا عن هيمنة القرآن وتصديقه للكتب السابقة في هذا الموضوع؟

الجواب: هكذا تظهر لك الرؤية القرآنية في غاية الوضوح والجمال مبينة هذه القصة في بداية الخلق، فهما كما وصفهما الله ﷻ: ﴿مَا وَرَدَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ تِيهَمًا﴾ لكنك تجد الرواية التوراتية مغايرة لهذه الرؤية القرآنية المتميزة، ففي سفر التكوين:

(١) أحمد (٦٨٥٠)، وقال المحققون: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن.

(٢) مسلم (٢١٢٨).

(۲: ۲۵) وَكَانَا كِلَاهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ.

أليس ذلك مستغرباً؟ فإن كان الهدف الشيطاني الأكبر أن يبدي لهما سوءاتهما، فكيف يمشيان عاريين لا يخجلان؟! ربما يكون النصُّ محرفاً في الترجمة ذاتها، ولا نستطيع أن نقول بالضرورة: إن النصَّ محرفٌ تحريفاً كاملاً^(۱)، ولكنك تجد غُصَّةَ كبيرة في قبوله بهذه الصيغة إلا بتأويل، وتشعر أنه ربما عبثت به يد التزوير البشرية، كما أن فيه نوعَ تسويغٍ لاعتبار أن الأصل في الإنسان العري.. ولكن ذلك غير صحيح عندنا.. لأن الله ﷻ يبين أن بُدُوَ السوءات إنما كان بعد الأكل من الشجرة، كما أن الله ﷻ لما أنزل أبوينَا من الجنة أنزل معهما اللباس والريش، كما سيأتي في قوله جل ذكره: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَعْمُ وَرِيْشًا﴾ [الأعراف: ۲۶].

اللباس - بحسب ابن عاشور رحمه الله - أول مظاهر الحضارة الإنسانية ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ۲۶]، والتجرد منه هو نزاع لهذا المظهر الحضاري الأصيل، ولذا بشع الله ﷻ العري، حتى وإن كان لأهل النار فصنع لهم ثياباً ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ۱۹].

نعود الآن إلى بصائر هذه الآية العظيمة: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَ تَعْمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ۲۰].

(۱) قول الله ﷻ لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَحْوُعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ۱۱۸]، وقوله تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَعْمَا﴾ [الأعراف: ۲۷]، يدل يقيناً على بطلان ما ارتكبه المحرّفون من تحريف كليّ أو جزئيّ فيما ذكر في التوراة، وما هو بهيته تلك منها، ولا مما أنزله الله تعالى، ولا مما ذكره أنبياء الله عليهم السلام، أقصد هذه العبارة المنسوبة إلى سفر التكوين: (وكانا كلاهما عريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان)، فالقول بأنهما كانا في كلّ أوقاتها عريانين مصادم للنص القرآني، لكنهما كزوجين لهما حالة يكون ذلك منهما، وعندها تعتزلهما الملائكة، إضافة إلى حالة الخلاء على افتراض وجود تلك الحالة، حالة الخلاء. فلذلك يمكن أن نقول: إن ذلك مما تعرض للتحريف الجزئي.

فقد بصّرنا الفاء بالمظهر الأول من مظاهر جهود إبليس لتنفيذ خطته، وهو الفورية، وبصّرنا كلمة: ﴿وَسَوْسَ﴾ بالمظهر الثاني، وهو الوسوسة الخطيرة، وبصّرنا كلمة ﴿لَهُمَا﴾ ووصف إبليس بالشیطان بالمظهر الثالث، وهو التركيز، وبصّرنا قوله تعالى جَدُّه: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا﴾ بالمظهر الرابع، وهو تحديد الهدف، وتوقع النتيجة، فما المظهر الجديد من مظاهر الحُطَّة الشَّيْطَانِيَّة الذي يبصّرنا به قوله: ﴿وَقَالَ﴾ [الأعراف: ٢٠]؟

الجواب:

المظهر الخامس: تسليط الوسوسة على الإنسان لتصبح كلامًا أو مثل الكلام المؤثر عند تمكّن الشيطان من ذلك إمّا بنفسه، وإمّا بمندوبيه من أوليائه الذين يوحى إليهم، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى جَدُّه: ﴿وَقَالَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

يصف الله ﷻ هذه المعركة المثيرة التي بدأها الشيطان مع أبوي البشريّة، فيقول: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ أي: وقال الشيطان.

فيستفرك التساؤل حول موقع الواو في قوله: ﴿وَقَالَ﴾؟ وما دلالات ذلك؟

الجواب: الواو تعطف جُمْلَةً: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿فَوَسَّسَ﴾، وهذا العطف له احتمالان:

الأول: يحتمل أن يكون المعنى: فوسوس لهما الشيطان وقال في وسوسته، فتكون ﴿وَقَالَ﴾ مَبْنِيَّةً لما دَارَ في الوسوسة، ويكون هذا القول من إبليس وسوسة من عطف المُبَيِّن على المُجْمَل.

الثاني: قد يدلُّ على أن مقول القول غير الوسوسة السابقة، فكلمة ﴿وَسَّوَسَ﴾ هذه بدايات همس وحركة يجدها الإنسان في صدره.. في عقله.. في قلبه، ثم قال: ﴿وَقَالَ﴾ هذه بدايات تطور للوسوسة، إما لأنه تحول إلى كلام مباشر، وإما لأن الوسوسة بلغت حدًّا تشبه فيه الكلام المباشر.

هنا ربما سألت: هل معنى ذلك أن الشيطان لا يمكنه التحول من مرحلة الوسوسة إلى مرحلة الكلام المباشر بصورة متجسدة؟

الجواب: لا، بل قد يجد الشيطان الإمكانية في بعض الأوقات لينتقل من مرحلة الوسوسة إلى مرحلة المخاطبة المباشرة على هيئة وصورة متجسدة لا يظن الإنسان من خلالها أن الذي يكلمه شيطان، ويدخل ذلك في قول الله جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومما يدلُّ على إمكانية تجسده على هيئة يعرفها البشر ما جاء عن أبي هريرة ؓ في قصة الشيطان عندما تجسّد في صورة رجل كان يسرق من طعام الصدقة، ويمسكه أبو هريرة ؓ ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال لأبي هريرة ؓ: دَعْنِي أَعْلَمَكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا... إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ ﷻ بِهَا فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟» قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. -وَكُنَّا أَوْحَرَصَ شَيْءٍ عَلَى

الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟». قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»^(١).

فاتضح بهذا أنه في أحوال نادرة يمكن أن يتجسّد ولكنه يكون ضعيفاً، ولا يستطيع البقاء على تلك الحالة.

فقوله تعالى جدّه: ﴿مَا نَهَكُكُمْ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ...﴾:

- (١) يحتمل أنه وسوس لهما، وبلغ في ذلك حداً كأنه تكلم معهما.
- (٢) ويحتمل أن الشيطان سلط عليهما مخلوقاتٍ من أوليائه فتكلمت معهما، وهذا ما يظهر من الرواية التوراتية المعاصرة التي تزعم أن الذي كلمهما حيّة، ولا تصرّح بالشيطان.
- (٣) ويحتمل أن يكون تجسّد على هيئة غير هيئته الأصلية فكلمهما.
- (٤) والاحتمال الأقوى أنه كلمهما على هيئته الأصلية، وجاز أن يراه آدم عليه السلام لأنه نبيّ، فمن الطبيعي أن يراه، خاصّة أنه قد رآه سابقاً.

وكان نبينا ﷺ يرى الشيطان، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: «أَعُوذُ بِاللّهِ مِنْكَ»، ثُمَّ قَالَ «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ» ثلاثاً، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئاً لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ، قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللّهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وَلَدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»^(٢).

(١) البخاري (٢٣١١).

(٢) مسلم (٥٤٢).

فكلام إبليس مع أبونا ﷺ يدلُّ على شِدَّةِ الإغواء والإغراء، بينما لن يتمكَّن الشيطان من فعل ذلك مع بني آدم بيُسْرٍ بنفسه، بل يكون غالب أحواله الوسوسة لهم.. أفما يستطيع بنو آدم أن يدفعوا وسوسته؟!

هنا ربما استمتعت بهذا الوصف الدقيق لما حدث، فعدتْ إلى الآية، وقلت: ظهرت لنا خمسُ مظاهر من جهود الشيطان في إغواء آدم ﷺ من قوله: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ﴾.

فما الذي يظهر من مخاطبة إبليس لآدم وزوجه ﷺ في قوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

الجواب:

المظهر السادس: التوزيع والتركيز:

حيث ركَّز إبليس الوسوسة على آدم ﷺ، ولم ينسِ حواء ﷺ، وبيصَّرنا بذلك ضمير التثنية في سورة الأعراف، إذ قال إبليس: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

عندما تجمع بين السُّور تكتمل الصُّور:

فعندما تجمع سورة الأعراف مع سورة طه تجد أن توزيع الوسوسة على آدم وزوجه ﷺ لا يعني عدم تركيزه على آدم ﷺ، بل قد وصف الله ﷻ لنا ذلك، فقال: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، فخاطب آدم ﷺ باسمه، وبضمير المفرد: ﴿هَلْ أَذُكَ﴾، وضمَّ له في الوسوسة حواء ﷺ، لأن ضمير المثنى في سورة الأعراف يبيصِّرنا بذلك: ﴿نَهَكُمَا﴾، ﴿رَبُّكُمَا﴾، ﴿تَكُونَا﴾، ﴿مَلَكَتَيْنِ﴾، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾.

وهكذا نجمع بين الآيات في سورة الأعراف وسورة طه، ونخلص إلى أنهما اشتركا في وسوسة الشيطان لهما، لكن التبعة الأكبر تقع على آدم عليه السلام.

قد تقول: ولماذا لا نقول بأن الخطاب في سورة طه قام على مبدأ التغليب في العربية، إذ يُخاطب الرجل، ولكن المراد مخاطبة الأنثى معه؟

الجواب: التغليب قاعدة يُلجأ إليها عند عدم غيرها، فهي استثناء أريد بها إيجاز الكلام، ولا مبرر للإيجاز هنا؛ فيجب إعمال السورتين، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خطابٌ للذكور تغليباً، ويشمل الإناث دون تردّد، ولا ينطبق هذا على هذا الموضوع.

سيقال: لماذا التركيز على آدم عليه السلام مع أن المعروف أن المرأة لها تأثيرها على الرجل؟

الجواب: لأنه لو أرادت حواء عليها السلام شيئاً وآدم عليه السلام ما زال جامعاً لفكره في الموضوع الذي تحدّث به لرفض، كما في حديث النبي صلى الله عليه وآله عندما طلبت منه عائشة وحفصة رضي الله عنهما أن يجعل الإمام أثناء مرضه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واعتذرت عائشة رضي الله عنها بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه رجل أسيف شديد البكاء.

فَعَنِ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَذَكَرْنَا الْمُوَاطَبَةَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالتَّعْظِيمِ لَهَا، قَالَتْ: لَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَأَذَّنَ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَأَعَادَ فَأَعَادُوا لَهُ، فَأَعَادَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «إِنْ كُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»^(١).

(١) البخاري (٦٦٤).

فردَّ النبي ﷺ كلامهن، وأصرَّ على تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو يشير إلى مسألة من مسائل الشريعة، وهما يظنان أنها من مسائل الطبيعة، والنبي ﷺ يشير بذلك أن يفهم الناس مكانة أبي بكر رضي الله عنه، وأنه الأولى بقيادتهم بعده في الدنيا كما قادهم في الصلاة. دعنا نعدُّ إلى الآيات: تركيز إبليس كان على آدم عليه السلام كما في سورة طه، وإن كان لم يترك حواء رضي الله عنها من الوسوسة كما في سورة الأعراف.

ستقول: دعنا نتابع في الآية، فما المظهر السابع من مظاهر الجهد الشيطاني في إغواء آدم وزوجه عليهما السلام؟

الجواب:

المظهر السابع: استغلال إبليس لنقاط الضعف الفطرية لدى الإنسان:

ويبصِّرنا بذلك كلمة ﴿هَذِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾

[الأعراف: ٢٠].

لاحظ كلمة: ﴿هَذِهِ﴾.. تجد أن إبليس يشير للشجرة باسم الإشارة الدالَّ على القرب..

ماذا يعني ذلك؟

الجواب: ذلك يعني أن آدم وزوجه رضي الله عنهما اقتربا من المنطقة المحظورة، فإذا لم يكونا قريبين كان الشيطان سيقول لهما: ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة، ولكنه قال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، وذلك يدلُّ على أن نقطة الضعف لديهما جرَّتهما إلى النظر إلى المنطقة المحرمة، واستفترَّهما الفضول حتى اقتربا من المنطقة المحظورة، ولم يأخذا احتياطاتهما اللازمة، «فالإيحاء الشيطاني والإغواء الإبليسي يعتمدان ابتداءً على نقاط الضعف الفطرية في الإنسان. ولكن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيد الضعيف حيثئذ من تأثير».

انظر إلى الاعجاز البياني المدهش، والاعجاز النفسي والتربوي في الآية:

فالله جلّ مجده يربّيٰنا على أنه ينبغي أن نسدّ الذرائع الموصلة إلى الحرام، فهي أبويٰنا ﷺ عن القرب من الشجرة؛ لئلا يقعّا في الأكل بينما نراهما لم يأخذا احتياطاتهما اللازمة للبعد عن المكان المحرّم، واستغلّ الشيطان هذا الفضول الإنسانيّ الذي تثيره النّفْس التي بين جنبي الإنسان، وحينها بدأ بالوسوسة، وغالبًا تجد الإنسان يساعد الشيطان على كثيرٍ من الإغواء الذي يطلبه له، ويصوّر لك هذه المسألة أكثر قولُ الله ﷻ لهما بعد أن ابتعدا عن الشجرة: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فصوّرت لنا كلمة: ﴿تِلْكُمَا﴾ أنهما ابتعدا عن الشجرة بعد أن وقعا في المحظور كما تصوّر لنا كلمة: ﴿هَذِهِ﴾ قُربهما منها قبل ذلك. نسأل الله تعالى أن يكفينا شرور أنفسنا.

بصيرة: الفضول قد يُورد المهالك: الفضول الإنساني يساعد الشيطان على كثير من الإغواء الذي يطلبه، فقد نهى الله ﷻ أبويٰنا ﷺ عن القرب من الشجرة؛ لئلا يقعّا في الأكل منها، لكنهما لم يأخذا احتياطاتهما اللازمة للبعد عن المكان المحرّم، واستغلّ الشيطان هذا الفضول، وحينها بدأ بالوسوسة.

وكم أودى الفضول بطالب الاستقامة إلى قاع الندامة، ولذا نرى أهل التحقيق من الربانيين يحذرون المريد من الفضول المورث للنكول، وما أجمل قول القائل:

ترى الدنيا وزينتها فتصّبو	وما يخلو من الشهوات قلبُ
فضول العيش أكثرها همومُ	وأكثر ما يضرُّك ما تحبُّ
فلا يغررك زحرف ما تراه	وعيش لين الأطراف رطبُ

إِذَا مَا بُلْغَةُ جَاءَتْكَ عَفْوًا فخذها فالغنى مرعى وشرب
إِذَا اتَّفَقَ الْقَلِيلُ وَفِيهِ سِلْمٌ فلا تَرِدِ الْكَثِيرَ وَفِيهِ حَرْبٌ^(١)
وهنا ستقول: استغلال الشيطان لنقاط الضعف في النفس البشرية هو المظهر السابع من
مظاهر الجهود الشيطانية لإغواء آدم وزوجه ﷺ، فما المظهر الثامن؟
الجواب:

المظهر الثامن: استغلال التبعات الخاطئة للمعرفة:
إِذَا يَسْتَعْلُ إِبْلِيسُ طُمُوحَاتِ الْإِنْسَانِ وَمَطَامِعَهُ، وَيَبْصُرُنَا بِذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ ذَكَرَ الْمَلَائِكَةَ
وَالْخُلْدَ: ﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِيْنَ﴾ [الْاَعْرَاف: ٢٠]:
عندما وسوس إبليس لآدم ﷺ قال له: ﴿يَتَّادُمُ هَلْ أَذُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾
[طه: ١٢٠].

لاحظ بدأ مع آدم ﷺ بأسلوب الاستفهام.. مجرد سؤال، ولماذا تمتنع يا آدم عن التفكير..
مجرد سؤال لا أكثر.. عندما يبدأ معك الشيطان بهذه الطريقة استعذ بالله، وأعرض عنه،
واشغل نفسك بما ينفعك.
لكن الشيطان يُصِرُّ على طرح السؤال بتكرار الوسوسة، ويغريه في السؤال بأنه سيدله على
شجرة الخلد التي تضمن له ملكاً لا يبلى أي لا يتغير.
وربما تسأل: ماذا يعني أن يقول له: ﴿يَتَّادُمُ هَلْ أَذُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾؟

(١) التبصرة لابن الجوزي، (١/ ١٩٦).

الجواب: يعني أن آدم عليه السلام لم يكن قرب الشجرة حين السؤال، ولم يعرف عن أي شجرة يحدثه إبليس، ويحتمل أنه كان قريباً منها، لكن إبليس لم يصرّح له بعد ما الشجرة المقصودة، ولم يخطر في بال آدم عليه السلام أن إبليس يريد أن يجزّه إلى الشجرة المنهي عنها. هذا يدل على أن زمن القصة في سورة طه في هذا الموقف كانت قبل سورة الأعراف. بعد أن كرّر إبليس في مسامع آدم عليه السلام ذلك.. بدأ الفُصول يزداد عند آدم عليه السلام: ما هذه الشجرة التي يتكلم عنها؟

لا بد أن يكون إبليس قد نقل مثل ذلك لحواء عليها السلام لكن تركيزه كان على آدم عليه السلام. وبما أن كل شجرة في الجنة مباحة لآدم وزوجه عليهما السلام فلم يبق من أشجارها شجرة يفكر بها إلا الشجرة التي في المنطقة الممنوعة.

فربّما كانا يشاهدانها من بعيد.. وهنا انتقل إبليس إلى مرحلة ثانية: فأشار إلى الشجرة بعينها، وقال لهما: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

ففي البداية: سأل إبليس مجرد سؤال.. والسؤال بداية المعرفة، لكنها المعرفة التي تفضي إلى ممنوع هاهنا؛ فالمعرفة مزية آدم عليه السلام التي فضّله الله تعالى بها، لكن الله تعالى نهاه عن الاقتراب من تلك الشجرة، فلماذا يبحث في شأنها إذن؟

وفي النهاية: تكلم مُثَبِّتاً لرأيه، ولم يعد الأمر مجرد سؤال. وفي البداية ذكر إبليس شجرة الخلد ومُلْكًا لا يبلى. وفي النهاية صار يغريهما بما فوق الملك الذي لا يبلى، وهو أن يكونا ملكين، ولم ينس الإشارة إلى موضوع الخلود حيث يكون المخلوق بالخلود آمناً من الفناء والزوال والتغير. فإغراء إبليس لأبويننا كان بأربعة أمور صوّرتها السورتان:

(١) شجرة الخلد.

(٢) المُلْك الذي لا يبلى.

لم يلتفت آدم ﷺ لكن إبليس أبقى التركيز عليه، والتكرار عليه وعلى زوجته.. هذه طبيعة الوسوسة، فهي تدلُّ على التكرار الدائم، فهي ليست مرة ولا مرتين؛ لأن المرة والمرتين لا يتأتى بهما تحقيق الغرض، إنما ذلك مثل قطرات الماء تسقط على الصخر قطرة بعد قطرة، فإذا هي بعد زمان قد ثَقَبَتْهَا.

وحينها بدأ ينظران إلى المنطقة المحرَّمة، فلما رآيا الشجرة أشار إليها، فجاء الأمر الثالث والرابع:

(٣) أن يكونا مَلَكَيْن، وليس مَلَكَيْن فقط.

(٤) أو يكونا من الخالدين، ففي البداية يغريهما بأنه سيخبرهما عن شجرة الخلد لكنه لم يخبرهما أنهما سيكونان خالدين، وأما هنا فقد أخبرهما أنهما سيجدان الخلود بنفسيهما. هذه سورة الأعراف وتلك سورة طه وكلاهما مكية، والذي أميل إليه أن الأعراف نزلت بعد طه^(١)، وإن كانت المسألة محتملة، لماذا؟ لأنك ترى في طه تركيز إبليس على آدم ﷺ، وفي الأعراف على الاثنين معاً.

وبذا ترى أن الوسوسة وتفاصيلها وُزعت على السورتين، ويقرر ابن عاشور رحمه الله أن هذا جاء على عادة القرآن في الاختصار في سوق القصص اكتفاءً بالمقصود من مغزى القصة لئلا يصير القصص مقصداً أصلياً للتنزيل^(٢)، فمن مقاصد القرآن أن تجمع بين السور، وأن تتدبّر

(١) روى ابن الضريس رحمه الله بسنده إلى ابن عباس رحمه الله، ونقله عنه الزركشي والسيوطي رحمه الله، أن طه متأخرة في النزول عن الأعراف.

ينظر: فضائل القرآن، ابن الضريس، (ص: ٣٣)، البرهان، الزركشي، (١/ ١٩٣)، الإتيان، السيوطي، (١/ ١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٥٩).

وتصل بذلك إلى صورة كُليّة رائعة، وأن تربط ذلك بأهداف الحياة، وواقعها، فلا تكن القصة لمجرد التسلية والتمتع.

الإيمان بالغيب، والمعرفة الزائفة، والعلم المغرور:

ستقول: ما الحكمة من نهيهما عن الاقتراب من الشجرة؟ وهل المعرفة ممنوعة؟

الجواب: المعرفة ليست ممنوعة، فقد ميز الله ﷻ آدم ﷺ بها، وبناءً عليها أظهر فضله أمام الملائكة، لكن ذلك لا يعني أنه لا توجد معرفة مدمرة.. فالمعرفة المدمرة هي المعرفة الزائفة المغرورة مثل معرفة الإنسان بأنه يستطيع أن يدمّر كوكبه، وبعد معرفته بذلك يمضي، فينفذ ذلك كما في حادثي هيروشيما ونجازاكي.

وما أجمل قول الشاعر:

فأحالـوه بينهمـم عـدوانا	جار بالعلم والتعلّم ناس
سيرة الجهـل وامتطوه سنانا	رحم العلم قطعوها وساروا
آلة الموت تحصـد الإنسانا	صيّروا العلم في المعامل حربا
راشد ضلّ مبتغيهـ وهانا	وإذا العلم لم يصاحبـه عقل
نال أهـلـوه بعـده الخسرانا ^(١)	وإذا العلم لم يجلّله دين

أما المعرفة المطلقة فهي صفة الإله الحق الذي خلق كلّ شيء، ويملك كلّ شيء، فلماذا تحاول أن تكون ندًا له تريد معرفة كلّ شيء، وأنت مخلوق من مخلوقاته محدود الإمكانيات والقدرات؟!

(١) الأبيات لشاعر البصائر د/ سعيد بن دحاج، وفقه الله. ينظر: عتب القوافي (ص: ٥).

لماذا لا تُسَلِّمَ له، وتفتخر بأنك عبدٌ للملك الأعلى الذي يملك كلَّ شيء، وأحاط بكلَّ شيء مُلْكًا وحُكْمًا وإيجادًا وقدرَةً وعلمًا.

كان ينبغي لآدم وزوجه ﷺ أن يعتادا اليقين بأن علم البشر محدود، ولا يمكن للبشر أن يصل إلى درجة العلم الكامل، فالله جلَّ مجده يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

لقد استغلَّ إبليس هذه الثغرة وهي الفضول غير المنضبط، وبدأ آدم ﷺ ينسى أن الله ﷻ بينَ لهما أنهما إن اقتربا من الشجرة كانا من الظالمين، فأغراهما بالاقتراب، وأثار فضولهما بأن هناك شيئاً مخفياً أو مهمهما بأنه ينبغي أن يعرفاه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾، وزينَ إبليس هذه المعرفة للمجهول، وأخبرهما أنهما سيتحولان إلى ملكين أو يكونا من الخالدين، فأعطاهما المعرفة المزيفة، والقرارات الخاطئة الكاذبة.

نسي آدم وزوجه ﷺ أن يُظهرا الإيمان بالغيب، وكان حرياً بهما أن يلزما مقام التسليم للرب الكريم، فإنه أبرك لهما وأنفع، وأبقى لمنزلتهما وأرفع، كما قال ابن عطاء الله: «تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطْنُ فَيْكٍ مِنَ الْعُيُوبِ - خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ»^(١).

ولا بد من الاهتمام بهذا الأمر فيعودنا على الإيمان بالغيب، وتجذب بوابة الإلحاد أساسها اختراع معرفة زائفة بالمجهول، فيقولون: إلى أين سنذهب؟ فإذا أخبرناه بالوحي أنكره، وادعى أنه لا يوجد بعث ولا حياة ولا نشور، وقال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الحاقة: ٢٤]، هذا لسان الملحدين قديماً وهو لسانهم حديثاً.

وقد تتساءل: لماذا يغري إبليس أبونا ﷺ بهذا الإغراء مع أنهما في الجنة؟

(١) الحكم العطائية، (ص: ٦).

الجواب: في الوسوسة الشَّيطَانِيَّةُ أغراها إبليس بنتائج الأكل من الشجرة، وأخبرهما أنهما سيطفران بإحدى نتيجتين إن أكلا: أن يكونا ملكين، أو يكونا من الخالدين، وانظر لهذه الأبلسة الهائلة للواقع: لم يعد يناقشهما في الاقتراب من الشجرة، بل انتقل إلى حثهما على اقتحام الذنب الذي يخافانه، وتعدد فوائد الأكل من الشجرة.

فأما الأولى: ﴿لَا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ۖ﴾، فيكون المعنى: وقال الشيطان لآدم وزوجه حواء ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَنْ تَأْكُلَا مِنْهَا، إِلَّا لئَلَا تَكُونَا مَلَكَيْنِ، وَأَسْقَطَ "لا" من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. والمعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا، ويجوز أن يكون المعنى: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا كراهة أن تكونا مَلَكَيْنِ.

قُبَّحَ إبليس وَقُتِلَ، ما أكفره!

هو يزعم هنا أن الله ﷻ الذي مَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ بَأْنَ أَوْجده من العدم، وأسجد له الملائكة يكره الخير للإنسان!!

ولكن: لماذا يغريهما بَأْنَ يكونا مَلَكَيْنِ مع أن الله ﷻ أسجد لآدم ﷺ الملائكة؟

الجواب: يظهر أن الارتقاء إلى حيز الملائكة طموح إنساني، والإنسان يشعر بَأْنَ الملائكة لهم أجنحة ويطيرون، لأن الله تعالى قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] ويتخيل الإنسان في الملائكة الصفاء والجمال، وهذا التصوُّر للملائكة ليس خاصًا بالمسلمين فقط بل ينتشر في البشريَّة جميعًا، فقد قالت نسوة من مصر لما رأين يوسف ﷺ: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وهذا يعني أن الارتقاء إلى الملائكية طموحٌ تتجه مطامع النفوس إليه.



أَوْهَمَ إِبْلِيسَ آدَمَ وَزَوْجَهُ ﷺ بأنه يمكنهما التحول من الحالة الإنسانية إلى الحالة الملائكية، عندما رآيا الملائكة مقربة عند ربّها ﷻ، وقد اتّصفت بقوّة عظيمة، وظنّا كمال الملائكة، فشعر إبليس بذلك، فكانت وسوسته من جنس مطامعهما وأمنياتهما.

وأما الثانية: الحصول على الخلود ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ أي: في الجنة تمكثان فيها أبداً، فلا تموتان.

اعتمد الشيطان على الإغراء بالحياة الخالدة التي لا تنفنى، والمُلْك الدائم الذي لا يبلى، والإغراء بهذين إغراء بأعظم الأهداف التي يرغب بها الإنسان، وأعظم الشهوات والمطامح التي يسعى وراءها.

ألا تسمع بمن يأمل أن يملك ستين أو سبعين من السنين، وفي سبيل ذلك يسلك كلّ سُبُل المعتدين، ولا يبالي بحساب رب العالمين، ويظن أن هذه السنين أشبه بالخلود؟

إن كان يغري الإنسان سبعون سنة يظن أنه سيَعَمَّر فيها، بل إنه يبحث عن زيادة أيام في عمره، فكيف لا يشعر بالإغراء الشديد عندما يدّله مخلوق على الخلود الدائم؟

إنه إغراء يوافق مكامن الطمع والشحّ الإنسانيّ المهلكة.. لقد وقعت النفسية الآدميّة في مطامعها مع أن الكذب الإبليسي واضح.. فلو كان الذي يدعيه إبليس حقّاً فلم لم يُفدّ هو من تلك المعلومة التي افتراها، فيأكل من الشجرة ليتحقّق له ما عرضه على آدم وزوجه ﷻ؟

بصيرة: اعتمد الشيطان على الإغراء بالحياة الخالدة التي لا تنفنى، والمُلْك الدائم الذي لا يبلى، والإغراء بهذين إغراء بأعظم الأهداف التي يرغب بها الإنسان، وأعظم الشهوات والمطامح التي يسعى وراءها.

والآن تعال إلى قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].. ما المظهر الجديد في الخُطَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ في هذه الآية؟

الجواب:

المظهر التاسع: أهم أسلحة الشيطان: الكذب المتلبس بالصدق، والإيهام المعزز بالإقسام: انتقل الشيطان من الكلام إلى وضع بينات مشبهة تدفع خصومه من البشرية إلى تصديقه، لظنهم أنه يوجد أدلة حقيقية على صدق ما يقول، ويصِّرنَا بذلك قوله عزَّ شأنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

يكشف لنا المظهر التاسع أن أهمَّ أسلحة الشيطان: الكذب، وليس الكذب المصمت أو الكذب المجرد، هو يضيف إلى الكذب العوامل المساعدة التي تزيد قوة لتحقيق هدفه كأن يستغلَّ النسيان البشري، ويُلبس الحقَّ بالباطل، ومن أهمِّ الوسائل لكلِّ ذلك: القَسَمُ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]:

إذن فقد انتقل الشيطان معهما إلى مرحلة جديدة هي إحضار بيِّنة على صدقه، وهذه البيِّنة هي القَسَمُ بأنه من الناصحين، فقول ربنا ﷻ: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: وأقسَمَ لهما.. وحلف لهما، كما قال الله -تعالى مجدّه- عن المسرفين من قوم صالح ﷺ: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ [النمل: ٤٩]: بمعنى تحالفوا بالله، أي: ليحلف بعضكم لبعض بالله، وكما قال خالد بن زهير الهذلي: وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا^(١)

وهنا ستسأل: لماذا جاء التعبير عن يمين إبليس بهذه الصيغة ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ ولم يقل مثلاً: حلف لهما؟

(١) ينظر: شرح أشعار الهذليين (ص: ٢١٥)، و(السُلُوِي): العسل، و(شار العسل يشوره): إذا أخذ من موضعه في الخلية.

الجواب: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: أدل على توضيح الصورة التي وقعت من "حلف، أو أعطى اليمين" لأنها اشتقت من القسم في الأصل، وهو مَصْدَرٌ قَسَمْتُ الشَّيْءَ قَسَمًا أي: جَزَأْتَهُ وجعلت لكل شيء نصيبًا، فَالنَّصِيبُ قِسْمٌ بِكسْرِ الْقَافِ، فيقال: قَسَمْتُ كَذَا قَسَمًا وقِسْمَةً، فأخذ كل واحد قِسمه وقسمته أي: نصيبه، كقِسْمَةِ الميراث، ومن ذلك قوله -جل شأنه-: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، أي: لكل واحد نصيبه المحدد من هذه الأبواب -نعوذ بالله منها جميعًا-، ومن ذلك قوله -تعالى ذكره-: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]، أي: حضروا تقسيم أنصبة الميراث، من هنا جاءت عدة معان مرتبطة بكلمة (قسم)، فمنها:

القِسْمُ وهو اليمين، سُمِّي بذلك قيل: لأن أصل ذلك مِنَ الْقِسَامَةِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ تُقَسَّمُ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ إِذَا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتُولِهِمْ عَلَى نَاسٍ اتَّهَمُوهُمْ بِهِ، وَأَقْسَمَ: حلف، ثم صار اسمًا لكل حَلِفٍ، والظاهر أنه بقَسَمِهِ يحلف أن ما قاله هو جزؤه ونصيبه الذي يزعم أنه يعبر به عن حقه وحقيقته.

وَأَمْسَى فَلَانٌ مُتَقَسِّمًا، أي: كَانَ خَوَاطِرَ الْهُمُومِ تَقَسَّمَتْهُ، ورجل مُنْقَسِمُ القلب أي: اقْتَسَمَهُ الْهَمُّ، نحو: متوزع الخاطر، ومشارك اللب^(١).

فيكون معنى ﴿قَاسَمَهُمَا﴾: أي حلف لهما، ولعل كلمة (قاسم) على وزن فاعل تشير إلى أنه في حلفه كأنه جعل عليه قِسْمًا محددًا من الهم والعذاب لو لم يَرَّ في يمينه، فكأنه اجتهد في أن يقنعهما أنه لو وقعت تبعة أو عقوبة عليهما فيما لو أكلا من الشجرة، فهو سيتحمل قِسمته منها.

(١) «الاشتقاق» (ص ٦٢) مقاييس اللغة (٥ / ٨٦)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٧٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤)

فكلمة ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ أدل على توضيح الصورة التي وقعت، فقد اجتهد الشيطان ليجمع إلى اليمين تحمّل قسمته من العذاب لو وقع.

هنا ستسأل: المتوقع أن الذي حلف اليمين هو إبليس، ولكن المقاسمة مفاعلة من طرفين بأن تُقسم لصاحبك ويُقسم لك.. فلماذا استعمل هذا الفعل، ولم يقل: وأقسم لهما؟

الجواب: لأن صيغة المفاعلة تتحفنا بصورة مذهشة:

فمنها: مشهد إبليس وهو يجتهد في وسوسته اجتهداً عظيماً، فكأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وعندها قالوا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل سؤالهما للتأكد بمنزلة المقاسمة بينهم.

ومنها: مشهد إبليس وهو يكرّر الأمر معهما، وهما يمتنعان، وهو يُصرّ ويعيد حتى أغراهما بالفعل، وبدلاً يقوِّيان أنفسهما على فعل المحرّم، وهو يكرّر فيقسم لهما أنه ناصح، وفي هذه الأثناء كان شعورهما بالتحريم ينقص ويهن، وعندها يعيد وسوسته وقسمه، ومع تفاعلهما معه يصبحان كأنهما أقسما أيضاً، بل عندما يخاف الإنسان أن يصنع شيئاً، ثم يقع في باله أن يقتحمه فإنه يقوي نفسه بأن يُقسم على فعله، فلم يتركهما حتى أقسما له بخوض المغامرة، والأكل من الشجرة.

وهكذا يكون الإقسام صادراً من كلّ من الطرفين.

فأقسم إبليس بالله ﷻ، ويظهر من المفاعلة أنهما أيضاً أقسما على الفعل ليجرّتا أنفسهما. وكان قسم إبليس هو أعظم ما خدع آدم وزوجه ﷺ؛ فلعلهما لم يتصورا أبداً أن يوجد من يُقسم بالله كاذباً.. فهل يعنيهما ذلك من المسؤولية؟

الجواب:

قاسمهما بماذا؟ ما المُقسم به؟

هو لم يذكر المقسم به، والمتوقع أنه أقسم بالله ﷻ، وبعض المفسرين قالوا: أقسم لهم بالله، وهما لا يتصوران أن يُقسم أحد بالله كاذباً^(١)، ويحتمل أنه أقسم مجرد قسم، والظاهر أنه أقسم بالله ﷻ؛ لأن ذلك يغرهما أكثر، وهما كانا يعرفان القسم، وقد تقول: فمن أين عرفا القسم؟

الجواب: واضح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ويفترض أن كلمة "القسم" ومعناها من الأسماء التي تعلمها آدم ﷺ. ولكن ذلك لا يعفيهما من المسؤولية، فكيف نسيا تحذير الله ﷻ لهما من الشيطان أولاً، ومن القرب من الشجرة ثانياً؟

ستقول: فلنعد إلى هذا التعبير العجيب الذي قاله إبليس: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٍ﴾ [الأعراف: ٢١] لنجد فيه عدة مؤكّدات، فما هذه المؤكّدات؟ ولم أتى بها هذا العدو الخطير؟

الجواب: أتى بعدة مؤكّدات لينفق تزييفه وخداعه عليهما: فالمؤكّد الأول: القسم. والثاني: قال فيه: ﴿إِنِّي لَكُمَا﴾ فأتى بـ(إنّ) المؤكّدة. والثالث: تقديم الجار والمجرور فلم يقل: إني من الناصحين لكما، بل قدّم كلمة ﴿لَكُمَا﴾؛ ليفهم الإختصاص والإخلاص في النصيحة كأنه يقول: إني خصصتكمما بجميع نصيحتي^(٢)، وأخلصت النصيحة لكما.

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٧٣).



والمؤكد الرابع: اللام في قوله: ﴿لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾، فلم يقل: إني لكما من الناصحين، بل زاد اللام.

كل هذه المؤكّدات تنبئك عن أمرين: مدى تمنّع آدم وزوجه ﷺ من تصديق إبليس، ومدى اجتهد إبليس في التغيرير بهما، والضحك عليهما، ولذا قال قتادة ﷺ: «فحلف لهما بالله ﷻ حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله ﷻ»، فقال: إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما^(١)، وكان ابن عمر ﷺ إذا اشتدّ عَجَبُهُ بشيء من ماله قَرَبَهُ لربّه ﷻ، وكان رقيقه -أي خدمه- قد عرفوا ذلك منه. فربما شمّر أحدهم، فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر ﷺ على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: إنهم يخدعونك، فقال: «من خدعنا بالله انخدعنا له»^(٢).

وقرّن إبليس بالحلف ينبهك إلى ضرورة أن يتقي المرء الحلف ما استطاع، فلا يجعل الله ﷻ عرضة ليمينه؛ لأن كثرة الحلف تثير الرّيبة في الحالف، فلا ينبغي للإنسان أن يصدق القسم والأيمان بمجردهما حتى يتحقّق بقرائن أخرى، ولذلك فإن القاضي عندما يريد إعمال قول النبي ﷺ: «وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»^(٣) ينبغي أن يتحقّق بوسائل أخرى أن الحالف أهل لليمين.

دعنا ننتقل إلى قوله: ﴿فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١] لنرى فيها مظهرًا جديدًا من مظاهر الخُطّة الشّيطانيّة، فما هو؟

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣٥١/١٢).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ط: دار صابر، (١٦٧/٤).

(٣) سنن البيهقي الكبرى (٢١٢٠١)، قال النووي: «حديث رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين». الأحاديث الأربعين النووية (ص: ٦٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٩٣٨).

الجواب:

المظهر العاشر: التأثير المتدرج عليهما:

وَيُصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أَي كَرَّرَ عَلَيْهِمَا حُدْعَهُ

بصورة متدرجة صبرورة حتى وقعا:

هاتان كلمتان عجيبتان وتدلّان بصورة فريدة على تلاعب الشيطان بأبويننا ﷺ.

فقوله -جلّ معجده-: ﴿فَدَلَّهُمَا﴾ مشتق من (دَلَّى) (١)، وهي كلمة تعني مُقَارَبَةَ الشَّيْءِ وَمُدَانَاتَهُ بِسُهُولَةٍ وَرِفْقٍ. يُقَالُ: أَذَلَّيْتُ الدَّلْوَّ، إِذَا أَرْسَلْتَهَا فِي الْبَيْرِ، فَإِذَا نَزَعْتَ فَقَدْ دَلَّوَتْ، وَالْإِنْسَانُ يُدَلِّي شَيْئًا فِي مَهْوَاةٍ -مِنْ أَذَلَّى: أَرْسَلَهُ فِيهَا، وَتَدَلَّى مِنَ الشَّجَرَةِ، وَلَا يَكُونُ التَّدَلَّى إِلَّا مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وَاسْتَعِيرَ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى الشَّيْءِ، قَالَ الشَّاعِرُ (٢):

وليس الرِّزْقُ عن طلبٍ حثيثٍ ولكن أَلَقِ دَلْوَكَ فِي الدَّلَاءِ

فكلمة (أدلى): تصوّر لك أنك تتوصّل بشيء لمقاربة شيء آخر ومداناته بسهولة ورفق وتدرّج، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقيل: إنه من العطشان تدلّى في البئر ليروى فلا يجد ماء، فيكون مدلّى فيها بالغرور، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعاً، ومنه: فلان يتدلّى على الشر، وهذا معنى زائد على الذي قبله، وإن كان لا ينافيه.

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٩٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٧٠).

(٢) البيت بلا نسبة في الأمثال لأبي عبيد (ص: ٢٠٠)، وهو في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص: ٨٠)، ولكن شطره بلفظ: وما طلبُ المعيشة بالتمني.

وقيل: أصله دلهما من الدَّلّ، وهو الجرأة، كما ذهب إلى ذلك بعض أهل اللغة، والدالة مثلها، أبدلت إحدى اللامين ياء، كقوله تعالى: ﴿مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠]، يقال: ما دلك على فلان، أي: ما جرأك، ومنه: تدللت المرأة على زوجها، وهي أن تريه جرأة عليه في تغنُّج، وتشكُّل، كأنها تخالفه، وليس بها خلاف^(١)، والمراد هنا أنه جرَّأهما على المعصية وهونها عليهما دون خوف من العواقب صنع المدلل.

فخلاصة ما تصوّره لك كلمة ﴿فَدَلَّهُمَا﴾: تدرّجته في التغيرير بهما، لمعاقرة ما لا نفع فيه ولا خير، فلم يشتدَّ عليهما، بل ترقّق بهما مع صبر وتؤدة، كما تفيدك بأزّه إياهما ليتجرّعا على المخالفة.

وأما كلمة ﴿يَغْرُورُ﴾: فمشتقة^(٢) من غَرَّه الشَّيْطَانُ يَغُرُّهُ بضمّ الغين غَرًّا بالفتح، وغُرُورًا، بالضمّ، وغَرَّرًا، محرّكةً، فهو مَغْرُورٌ وغَرِيرٌ: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ مَاخُوذٌ مِنَ الْغَرَّةِ (بِالْكَسْرِ) وَالْغَرَارَةِ (بِالْفَتْحِ) بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ التَّجَرُّبَةِ، وَرَجُلٌ غَرٌّ بِالْكَسْرِ وَغَرِيرٌ: أي غير مُجَرَّبٍ، يُخَدَعُ يُسَرِّ؛ لغفلته واطمئنانه بغباء لأفعاله، قَالَ الشَّاعِرُ^(٣):

إِنَّ أَمْرًا غَرَّهُ مِنْكُمْ وَاحِدَةً بَعْدِي وَبَعْدُكَ فِي الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ
أَرَادَ: لَمَغْرُورٌ جِدًّا، أَوْ لَمَغْرُورٌ حَقَّ مَغْرُورٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ فَائِدَةٌ.
ولعل سبب الانخداع مع وجود الصّحو الاطمئنان وعدم الاهتمام بالمخاطر المستترة.

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٤ / ١٢٢)، التهذيب في التفسير، الجشمي، (٤ / ٢٥٢٤).

(٢) العين (٤ / ٣٤٦)، مقاييس اللغة (٤ / ٣٨٠)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢ / ٧٦٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٠٣)، تاج العروس (١٣ / ٢١٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣ / ١٥٦٢).

(٣) البيت بلا نسبة في المحكم (٥ / ٣٦٠)، وأمالى ابن الشجري (٢ / ٤١٣).

فَالْعُرْ: انخداع الإنسان بالباطل بسبب غفلة قد تورث اطمئناناً أو تكبراً، فيعتقد الشيء نافعاً بِحَسَبِ الظاهر، فيطمع فيه، ثم يجد أنه ضار أو لا نفع فيه عند التجربة.

والباء في ﴿بِعُرْوٍ﴾ للمصاحبة والملاصقة، ويكون معنى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرْوٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]: أرسل عقولهما إلى حيث يريد بتدرج وهدوء كما يُرسل الدلو في البئر حال كون هذا الإدلاء لهما مصاحباً بانخداع سيطر عليهما حال صحوهما، فكانا مستيقظين لكن الغفلة غلبت عليهما بسبب الاطمئنان وعدم أخذ الحذر، وقلة المبالاة، وذلك لأنه كرر الوسوسة عليهما بأساليب متعددة، وأفكار متنوعة، ومن ذلك القسم؛ ليوقيهما في أهدافه.

وكانت نتيجة ذلك أن انتقلا من التدلية إلى مرحلة الاغترار الكامل الذي يصاحبه النسيان بأن الشيطان عدو الإنسان.

لقد صوّرت لنا هاتان الكلمتان ﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرْوٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] الواقع الذي تلاعب الشيطان فيه بهما على نحو مذهل، وكما تتصوّر في التدلية: نزول الدلو أو الرّجل بهدوء وتدرج إلى البئر، ثم يرفعه بلطف حتى لا يترشّش عليه الماء.

﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرْوٍ﴾: تصوّر لك كيف أنزلهما من عزّة الحياة في مجد الطّاعة إلى درك المعصية، فشقيا بانكشاف السوءات مثل ما فعل بنفسه بالمعصية التي أوجبت له الهبوط من دار الكرامة، فأهبطهما الشيطان من أوج شرف إلى حضيض أذى وسرف، كما يقول البقاعي (١).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧ / ٣٧٤).

﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾: تصوّر لك عدد المحاولات الكثيرة لكذب العدو عليك حتى يصوّر نفسه صديقاً، فقد ترى العدو صديقاً في لحظة من اللحظات، وما أكثر اللحظات التي ترى فيها البشر يتعادون، ثم يأتي العدو ليضحك على عدوّه، فيظهر نفسه كأنه أعظم صديق: كَمَ عَدُوٌّ تَنْتَنِي هَامَاتُهُ كَاذِبًا يَحْمِلُ عُدَوَانَ مَائِهِ رُبَّمَا أَهْدَى عَدُوٌّ بَاقَةً وَالْأَفْعَايَ بَيْنَهُمَا مُخْتَبِئُهُ

المظهر الحادي عشر: التدلية المُنْسِيَةِ والعزم الضائع:

تبصّرنا سورة طه بأن تدلية الشيطان لآدم وزوجه ﷺ استمرّت حتى فقد آدم ﷺ اليقظة فنسي أن الذي يكلمه عدوّه، أو نسي نهي ربه، ثم فترّ عزمه في الحذر منه وصوّر الله ﷻ لنا ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، قال ابن جُزَي ﷺ: ﴿عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ أي: وصيناه أن لا يأكل من الشجرة، ﴿فَنَسِيَ﴾ يحتمل أن يكون النسيان الذي هو ضدّ الذكر، فيكون ذلك عذراً لآدم ﷺ أو يريد التّرك، وقال ابن عطية ﷺ: ولا يمكن غيره، لأنّ الناسي لا عقاب عليه^(١):

فعمل إبليس على الأمرين معاً:

الأول: أن يُنْسِيَ آدم ﷺ العهد.

الثاني: أن يُفَتِّرَ عزمه في مقاومة الإغراء حتى يضيع ذلك العزم.

ولذا كان من أجلّ نعم الله على العبد أن يهبه العزم على الأرشد من أمره، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»^(٢).

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١٥/٢).

(٢) أحمد، (١٧١٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن بمجموع طرقه، ورجاله رجال الشيخين.

المشهد الثالث

مشهد (الصدمة والإفافة) مقارفة الذنب، والتحرُّر السريع من أسرهِ، وتحمل تبعاته الملبوط إلى الأرض
[الأعراف: 22-25]

فضيحة الذنب ومصيبته

لقطة
[1]

حيث بدا من جسد آدم وزوجه عليهما السلام ما يجب أن يُقْطِياه ﴿قَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ [الأعراف: 22].

الحياء والبحث عن طريقة للسَّتر الإنساني

لقطة
[2]

من أسس إقامة الحضارة المتميزة ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنْتِ﴾ [الأعراف: 22].

تعلُّم الخياطة بداية معرفة الإنسان لإعمار الحياة

لقطة
[3]

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنْتِ﴾ [الأعراف: 22]

المعاقبة الإلهية تذكرك بأن الله عز وجل أرحمُ بك من نفسك

لقطة
[4]

فهو الذي علمك المخاطر قبل أن يدعوك الشيطان لتعصى ربك وتغامر ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22]

مشهد العدل الكامل والرحمة السابقة الغالبة

لقطة
[5]

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

مشهد المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة بالنسبة للوقوع في الذنب

لقطة
[6]

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ...﴾ [الأعراف: 22].

مشهد تحويل الهزيمة إلى انتصار

لقطة
[7]

﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

الهبوط إلى الأرض، وهي لقطة مفصلية في حياة البشرية

لقطة
[8]

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: 24].

بيان حيوية العلاقة بين البشرية والأرض

لقطة
[9]

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25].



المشهد الثالث: مشهد (الصدمة والإفاقة) مقارفة الذنب، والتحرر السريع من أسرِهِ، وتحمل تبعاته بالهبوط إلى الأرض [الأعراف: ٢٢-٢٥]:

المناسبة والاتصال:

الاتصال واضح، فبعد أن نلاحظ هذه المظاهر الكثيرة لجهود الشيطان في إغواء أبونا ﷺ لا بد أن تتساءل: هل أثمرت هذه الجهود الشيطانية في إيقاع أبوي البشرية في فخ الذنب؟ هنا يأتي المشهد الثالث ليكشف عن ذلك، وتضمن هذا المشهد عشر لقطات:

اللقطه الأولى: فضيحة الذنب ومصيبته، حيث بدا من جسد آدم وزوجه ﷺ ما يجب أن يُغطياه ﷻ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا ﷻ [الأعراف: ٢٢]:

هنا تستوقفنا الفاء مجدداً في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ فما دلالتها هنا؟ وما دلالة كلمة ﴿لَمَّا﴾ معها؟
الجواب: الفاء في قول الله ربنا -جلّ مجده-: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ هي الفاء الفصيحة التي تفصح عن كلام محذوف، ويكون المعنى: فلما تمكّن من إغرائهما، وانهارت مجاهدتهم ومقاومتهم ذاقا الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما.

فأدر كنا الصورة التي منحتنا إيّاها الفاء، فما الصورة التي تمنحنا إيّاها ﴿ذَاقَا﴾؟
كلمة ﴿ذَاقَا﴾^(١): مشتقة من ذاق المأكل يذوقه ذوقاً أي: تناوله بفمه مِنْ جِهَةٍ تَطْعَمُ ليختبره أو ليأكله ويتلعه.

قال الراغب رحمه الله: الذّوق: وجود الطّعم بالفم -أي: إدراك طعم المأكل والمشروب باللسان والفم عموماً- وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجَازاً -فيما قرروا- فَيُقَالُ: دُفْتُ الكلام والنعم الجسام والبلايا العظام، وفي

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣٦٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٣٢)، تاج العروس (٢٥/ ٣٢٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧١٥).

كِتَابِ الْخَلِيلِ ﷺ: كُلُّ مَا نَزَلَ بِإِنْسَانٍ مِنْ مَكْرُوهٍ فَقَدْ ذَاقَهُ^(١)، وَيُقَالُ: ذَاقَ الْقَوْسَ، إِذَا نَظَرَ مَا مِقْدَارُ إِعْطَائِهَا وَكَيْفَ قُوَّتِهَا. قَالَ الشَّامَخُ^(٢):

فَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللَّيْنِ جَانِبًا كَفَى، وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢].

فقوله -تعالى- مَجْدُهُ -: ﴿ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ يصورهما لنا وهما يتناولان ثمار الشجرة، ولم يُمهَلا حتى يأكلا تلك الثمار أو يتلعاها، بل بمجرد شعورهما بطعم المأكول في أفواههما حدثت الكارثة، فقد بدت لهما سوءاتهما، وهذا المعنى صَوَّرَهُ لنا الشرط وكلمة: ﴿ذَاقَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾.

وكلمة ﴿لَمَّا﴾: تصوّر تَوَقَّيْتُ بُدُو سَوْءَاتِهِمَا، فقد قارن وقت التدوُّق، لِأَنَّ (لَمَّا) حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ عِنْدَ وُجُودِ غَيْرِهِ، فَهِيَ لِمُجَرَّدِ تَوَقَّيْتِ مَضْمُونِ جَوَابِهَا بِزَمَانٍ وُجُودِ سَرَطِهَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَرْفٌ وُجُودٌ لَوُجُودٍ، كَمَا قَالُوا فِي (لَوْ) حَرْفٌ امْتِنَاعٌ لِامْتِنَاعٍ، أَيُّ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ الْأَمْرَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ فِي الْوَقْتِ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّقَارُنُ هُوَ لِكَوْنِ الْأَمْرَيْنِ مُسَبِّبَيْنِ عَنْ سَبَبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ خَاطِرُ السُّوءِ الَّذِي نَفَثَهُ الشَّيْطَانُ فِيهِمَا، فَسَبَبَ الْأَفْئَامَ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِلتَّعَالِيمِ الصَّالِحَةِ، وَالشُّعُورِ بِالنَّقِيصَةِ^(٣).

لم يعرف أبوانا ﷺ الخطيئة من قبل، فلما وقعا فيها شَعَرَا بِأَلَمِهَا، وظهرت كارثتها عليهما فقد تعرّيا فوراً، وبدت لهما سوءاتهما، وهنا وقع لهما تدريب حقيقي يعرفان من خلاله معنى المعصية وخطرها، وألمها.

(١) ينظر: كتاب العين (٥/ ٢٠١).

(٢) ديوان الشماخ (ص: ١٩٠)، وفيه (وذاق) بالواو.

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٦٢).

لقد وقع آدم وزوجه ﷺ في الفخّ الشيطاني، ولما ذاقا الشجرة حدثت لهما تلك المفاجأة غير المتوقعة، فبدلاً من أن يتحوّلا إلى الحالة الملائكية، أو يجدا طعم الخلود الذي زعمه الشيطان.. بدلاً من ذلك كلّ بدت لهما سوءاتهما، أي: بدا لهما ما يسوؤهما أن يراه الآخرون منهما.

وهذا الظهور يدل على آثار المعاصي والذنوب، وأنه ما من ذنب نهى الله ﷻ عنه إلا وله أثر يظهر بعد مقارفته، حكى ابن القيم رحمه الله أن من أشد آثار المعاصي «وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله ﷻ، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة»^(۱).

إذن خسر آدم وزوجه ﷺ أول مواجهة مع الشيطان.

هنا تأتي اللقطة الثانية:

اللقطة الثانية: الحياء والبحث عن طريقة للستر الإنساني من أسس إقامة الحضارة المتميزة ﴿وَوَفَّقَا يَحْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ۲۲]:

تُبَصِّرنا بلقطة البدء في حركة الجهد الإنساني لتدارك الخسارة أمام الشيطان، وللتفكير في تحويل نتيجة المشهد إلى صالحهما، وبذلك يمكن أن يقيما حياة منتصرة وإن حدث لها انكسار في البداية.

يشير انتباهنا هذا التعبير حقاً: ﴿وَوَفَّقَا يَحْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ۲۲] فما ذا

يعني؟

الجواب:

(۱) الجواب الكافي ص (۵۲).

لما بدت لهما سوءاتهما شعرا بالحاجة الفطرية إلى الستر؛ لأن الذنب أعراهما من الكسوة التي كان كساهما الله ﷻ بها قبل الذنب والخطيئة، فظهرت سوءة كل منهما بسقوط ما كان يسترها، ورجح محمد رشيد رضا ﷺ أن معنى ظُهُورِهَا لَهَا أَنْ شَهْوَةَ التَّنَاسُلِ دَبَّتْ فِيهِمَا بِتَأْثِيرِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَنَبَهَتْهُمَا إِلَى مَا كَانَ خَفِيًّا عَنْهُمَا مِنْ أَمْرِهَا، فَخَجَلَا مِنْ ظُهُورِهَا، وَشَعَرَا بِالْحَاجَةِ إِلَى سِتْرِهَا^(١).

ولا يظهر لي صِحَّةُ هذ التفسير مطلقاً، فشهوة التناسل موجودة فطرةً وطبيعةً، ولم تُقَيَّدْ بالوقوع في الذنب، فحواء ﷺ خُلِقَتْ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا، كما قال ربُّنا ﷻ في هذه السُّورَةِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وأعظم شيء يُوجَدُ السَّكِينَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ هو اللقاء الجسدي، ولا بد أنهما كانا يلتقيان جسدياً قبل ذلك لكنهما كانا يمشيان في الجنة وفق لباس مُحْكَمٍ أوجده الله ﷻ على أجسادهما، كما خلق لهما الشعر والجلد وسائر الجسد.

فلما بدت لهما سوءاتهما شعرا بالحياء والألم معاً؛ لأن الحياء جزء أصيل من فطرة الإنسان، وأرادا تغطية ما يُشعرهما بالحرج: ﴿وَلَطْفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وهنا تسأل عن هذه اللقطة المدهشة: ﴿وَلَطْفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.. لماذا فعلاً ذلك بصورة تلقائية ودون ظهور تعليم سابق لهما ليفعلا ذلك؟

الجواب: هذه الكلمات تصوّر لك حقيقة الإنسان وفطرته، فهي تعكس طلبه للستر، واتصافه بالحياء، فهما جزء من حقيقته التي يصرُّ الشيطان على إخراجها منها، وإذا انكسر

(١) تفسير المنار (٨/ ٣١١).

حاجز الحياء انكسر معه كل حاجز للعفة والصدق والمحبة والتعاون، وبات الإنسان أسيرًا للغفلة ثم للتوحش والأنانية والاستكبار، وفعل كل الجرائم والآثام والأوزار. والستر من أرقى مظاهر التحضر عند العقلاء، وذوي الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، بخلاف «العري فإنه فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً، والحضارة الغربية اليوم ترى في عري الإنسان الغربي تحضراً، وفي عري الإنسان الأفريقي تخلفاً بحسب الدعاية والمفاهيم التي تضعها في عقل الإنسان المتلقي، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة "التقدمية" فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها، وينقلهم إلى مستوى الحضارة».

اللقطة الثالثة: تعلّم الخياطة بداية معرفة الإنسان لإعمار الحياة: ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وتُسْقِطُ هذه الكلمات خُرافة أن الأصل عُرْيُ الإنسان: فقله: ﴿وَطَفِقًا﴾:

يقال منه ^(١): طَفِقَ يفعل كذا أي: أخذ يفعل، واستمرّ عليه زمناً محدّداً، ولذا قال ابن فارس رحمته الله: "ظَلَّ يَفْعُلُ"، ونقل الحافظ ابن حجر رحمته الله: «طَفِقَ يَفْعُلُ كَذَا: إِذَا شَرَعَ فِي فِعْلٍ واستمرّ فيه» ^(٢).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤١٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٢١)، تاج العروس (٢٦/ ٨٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٣٣٧).

(٢) فتح الباري (١/ ٣٠٣).

فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيكَمَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] أي: أَخْذَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَاسْتَمَرَّا عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا حَتَّى يَتِمَّكَمَا مِنْ صَنْعِ شَيْءٍ مُنَاسِبٍ لِيُغَطِّيَا أَنْفُسَهُمَا، وَلَا يَسْقُطَ مِنْهُمَا. وَكَلِمَةُ ﴿يَخْصِفَانِ﴾^(١):

مِنْ قَوْلِهِمْ خَصَفَ يَخْصِفُ خَصْفًا، وَالْخَصْفُ: ضَمُّ أَشْيَاءٍ دَقِيقَةٍ مُنْفَصِلَةٍ مُتَنَاسِبَةِ الْعَرَضِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، فَتَكْتَفَى أَي: طَبَقَةٌ فَوْقَ طَبَقَةٍ، أَوْ تَمْتَدُّ بِأَنْ تَطُولَ، أَوْ يَحْدُثُ لَهَا الْأَمْرَانِ مَعًا، فَتَنْسَجُ لِتَصْلَحَ غِطَاءً أَوْ لِبَاسًا أَوْ كِيسًا، وَمِنْ هَذَا: الْخَصْفُ وَهِيَ سَفَائِفُ تُسَفُّ مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ فَيُسَوَّى مِنْهَا قِطْعٌ تَلْبَسُ بِيُوتِ الْأَعْرَابِ، وَرَبَّمَا سُوِّتَ جِلَالًا لِلتَّمَرِ أَي: أَكْيَاسًا، وَمِنْهُ قِيلَ لِلثِّيَابِ الْغَلِيظَةِ: خَصْفَةٌ، جَمْعُهُ خَصَفٌ، وَيُقَالُ: خَصَفَ الْعُرْيَانُ الْوَرَقَ عَلَى بَدَنِهِ، يَخْصِفُهَا، خَصْفًا: أَي: أَلْزَقَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَأَطْبَقَهَا عَلَيْهِ وَرَقَةً وَرَقَةً.

فَقَوْلُهُ -تَعَالَى- مَجْدُهُ-: ﴿وَوُفِّيكَمَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أَي: ظَلًّا مُسْتَمَرِّينَ لِمُدَّةٍ مُحَدَّدَةٍ يَنْسُجَانِ أَوْ رَاقًا بَضْمَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لَتَكُونَ عَلَيْهِمَا خَصْفَةٌ كَالْأَغْطِيَةِ أَوْ اللَّبَاسِ، فَاجْتَهَدَا وَشَرَعَا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أَي: يَضَعَانِ وَرَقَةً فَوْقَ وَرَقَةٍ عَلَى عَوْرَاتِهِمَا لِيَسْتَتِرَا بِهَا، كَمَا يُخْصِفُ النَّعْلُ، بِأَنْ تَجْعَلَ طَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ وَتَوَثَّقَهَا بِالسُّيُورِ يَعْنِي مَا يَشْبَهُ الْخِيُوطَ. وَوَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَمِجَاهِدٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوُفِّيكَمَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، أَي: جَعَلَا يَأْخُذَانِ مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، فَيَجْعَلَانِ عَلَى سُوءَاتِهِمَا، وَيَرْقَعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوبِ^(٢).

(١) مَقَائِيسُ اللُّغَةِ (٢/ ١٨٦)، الْمَفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ (ص: ٢٨٤)، تَاجُ الْعُرُوسِ (٢٣/ ٢١٢)، الْمَعْجَمُ الْأَشْتَقَاقِيُّ الْمُؤَصَّلُ (١/ ٥٦٦).

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٢/ ٣٥٢).

وهذه الكلمات ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ تظهر لك مدى اجتهداهما واضطرابهما في نسج ما يُغْطِي سوءاتهما.

وهنا توقن أن الله -جَلَّ مَجْدُهُ- هدى آدم وزوجه ﷺ فطرةً إلى تعلُّم النسيج والخياطة. هذا كُلُّهُ يَحْطِمُ الخرافة الشَّيْطَانِيَّةَ التي تزعم أن الأصل في الإنسان أنه كان يمشي عاريًا، وتشعر بخلل ما في الرواية التوراتية التي تزعم أنهما كانا يمشيان عارين، ولا يستحيان، فبحسب كلمات القرآن: الحياء جزء من فطرتهما.

هذه الكلمات بيانٌ لحركة الإنسان العقلية والعملية ليستر نقائصه وعيوبه، وينتصر على انتكاسة الذنب، ولتَحْسِينِ حالِهِ بِحَسْبِ مَا يُخَيِّلُ إِلَيْهِ خَيَالُهُ، وَهَذَا -كما قال ابن عاشور رحمه الله- «أَوَّلُ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَضَارَةِ أَنْشَأَهُ اللَّهُ ﷻ فِي عَقْلِي أَصْلِي الْبَشَرِ، فَإِنَّهُمَا لَمَّا شَعَرَا بِسُوءَاتِهِمَا، عَرَفَا بَعْضَ جُرْئِيَّاتِهَا، وَهِيَ الْعَوْرَةُ، وَحَدَّثَ فِي نَفْسِهِمَا الشُّعُورُ بِقُبْحِ بُرُوزِهَا، فَشَرَعَا يُخْفِيَانِهَا عَنْ أَنْظَارِهِمَا اسْتِبْشَاعًا وَكَرَاهِيَّةً^(١)».

اللقطة الرابعة: نداء رحمة بعد عمل غضب: ﴿وَنَادَيْتُمَا رَبَّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

وهنا تسمع وصف النداء الإلهي لمن ارتكب الخطأ، حيث الرحمة الربانية التي تسبق الغضب والعدل، وهو مشهد عظيم مدهش؛ إذ لم يغضب الله ﷻ عليهما، ولم يعاجلهما بالعقوبة، بل قال واصفًا هذا المشهد: ﴿وَنَادَيْتُمَا رَبَّهُمَا﴾:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٦٤).

هاتان الكلمتان تثيران سؤالاً: إنه المشهد الذي تتساقط عنده الدموع، يمتلئ بالرجاء فيه القلب الخجل الولوع.. يرونا حقاً هذا النداء الرباني لأبويننا، ولا بد أن نتساءل عن هذه الواو في قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، فما موقع هذه الواو؟

الجواب: هذه الواو عطفت جملة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ على جوابٍ كمّا، أي: فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وفي أثناء ذلك ناداهما ربهما. وهذا العطف يماثل ما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، ومعرفة مواقع هذه الجُمْل، واستعمالات الكلام العربي يفيد جدّاً في تصوير الأحداث، والثناء اللغوي، والقدرة الخطابية^(١).

ولاحظ أن هذا النداء لم يكن عندما اقتربا من الشجرة، ولم يكن عندما وسوس لهما الشيطان، ولم يكن عندما همّا أن يذوقا الشجرة، فلماذا تأخّر هذا النداء إلى أن وقع عندما ظهرت عاقبة الخطيئة بُدُوّ السوءات؟

الجواب: إنها التربية الإلهية للإنسان الأول عسى أن يتعظ نسلُهُ من بعده.. لقد أراد الله ﷻ أن يُشعرهما بالعاقبة الفورية لهذا الاختيار السيء، فكيف ستكون العاقبة الآجلة؟ كما أراد جَلَّ ذِكْرُهُ أن يخبرهما بأن لهما حرية الاختيار، فهما من يصنع حياتهما وفق القرار الذي سيتخذانه، ولكنهما ينبغي أن يشعرا بالتبعات التي ستترتب على هذا القرار.. أمّا وقد ظهرت نتيجة اختيارهما السيء فقد آن الأوان أن يُظهر الله ﷻ لهما عدله ورحمته، فنادهما، ولم يتركهما، والنداء الإلهي الآن له وقعه التربوي المكين في أنفسهما، فلن ينسيا مثل ذلك غالباً بعد أن ظهرت تلك العاقبة السيئة، ففي معصية الله ﷻ كُلُّ ضُرٍّ يدمّر البشريّة جزئياً أو كلياً.

(١) وقد أشار ابن عاشور رحمه الله إلى أنه بيّن مثل هذه الفوائد في كتابه "أصول الإنشاء والخطابة".

هنا نتساءل: عرفنا ماذا صَوَّرَ لنا العطف في قوله ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، وأدركنا موقعه الرائع الذي حباها بصورة بيانية فريدة، فما وجه قوة كلمة النَّدَاءِ في قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا﴾، فلم يقل: (وقال لهما)؟

الجواب: النداء والنداء بالكسر والضم: الصوت، ورفع الصوت، ويقال: هو ندي الصوت كغني أي: بعيدة وجميلة، وأندى: حسن صوته، وكثر عطاؤه، وأصل النداء من ندا القوم ندوا، أي: اجتمعوا؛ لأن المنادي يطلب اجتماع القوم، وأصل الأصل من الندى وهو الرطوبة الجميلة العذبة التي لا تؤذي، لأن من تكثر رطوبة فيه يحسن صوته، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق، وعبر عن المجالسة بالنداء حتى قيل في المجلس: النادي والندوة والمُتَدَى والندى، وذلك لأن الأصل في اجتماع النادي حصول الأنس والفرح، كما يحصل الأنس بنداوة الصبح، أو نداوة الماء الذي تأنس به النفس عندما يتساقط على الجسد.

فالدعاء هو الدعاء مع تخصيص للمنادى وإشعار له بأهمية محتواه، وقد يصحب النداء رفع صوتٍ كما يومئ له تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال دِثَارُ بْنُ شَيْبَانَ النَّمِرِيُّ:

فَقُلْتُ ادْعِيْ وَأَدْعُوْا إِنَّ اُنْدٰى لِّصَوْتٍ اَنْ يُنَادٰى دَاعِيَانِ^(١)

ولكن لا يشترط في النداء رفع الصوت، فقد يكون بخفض صوت أو في مكان خفي، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، لكن النداء يدلُّ على الإلحاح في الدعاء، فذكر النداء دون الدعاء يشعرك بمقدار الإلحاح، وبذلك نخلص إلى أن النداء دعاء لكنه يجمع الإلحاح وشدة إظهار الحرص على الطلب.

(١) وينسب هذا البيت للحطيئة، وهو كذلك في ديوانه (ص: ١٨٨)، وفي "التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه" (ص: ١٠٠) أنه ليس للفرزدق، ولا للحطيئة، بل إنه لذيثار بن شيبان.

وهنا يمكننا أن نرى البصيرتين الآيتين:

بصيرة (۱): ﴿وَنَادَاهُمَا﴾: تَبَصَّرَكَ بِمَحَبَةِ اللَّهِ ﷻ أَنْ يُيسِّرَ لِبَنِي الْإِنْسَانِ حَيَاتِهِمْ، فلم يقل: (وقال لهما)، بل ﴿وَنَادَاهُمَا﴾، والنداء قول ودعاء إلا أنه مقترن بالحرص والإلحاح.

بصيرة (۲): ﴿رَبُّهُمَا﴾: تَبَصَّرَكَ بِتَتَابُعِ الْإِنْعَامِ الْإِلَهِيِّ الْمُبَارَكِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ، فلم يقل: (وناداهما الله)، أو الْمَلِكِ، بل ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، وذلك يشعر بأن الله ﷻ يربِّي عباده بما يُصلحهم، ومن ذلك هذا النداء.

إذا كان النداء - الصوت ورفعه - يُقصد به القريب أو البعيد، فما وجه قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، ولم يقل: وقال لهما ربُّهما، مع أن الله ﷻ مع المخلوق دائماً، ولا تحكمه الجهات؟

الجواب: ذكر النداء بدلاً من القول هنا لتصور أنهما أبعدا أنفسهما من ربُّهما ﷻ بسبب المعصية، فكان النداء بدلاً من القول، فالْبُعْدُ يَتَّصِفُ به المخلوق هنا لا الخالق، فهو معنا أينما كنا جلَّ شأنه.

إلا أن الكرامة واللفظ صحبا هذا النداء المعاتب، فأنت ترى أن الله ﷻ أسند النداء إلى نفسه ﷻ، وظاهر هذا الإسناد أن الله تعالى ناداهما بِكَلَامٍ بِدُونِ واسِطَةٍ مَلَكٍ مُرْسَلٍ، مِثْلَ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ ﷻ بِهِ مُوسَى الْكَاسِيَةَ (١)، وكلام الله تعالى مع المعاتبة يبصِّرُك بمدى كرامتهما، فانظر كيف يخاطب الله ﷻ هذين الكريمين بعبارة ممتلئة عتاباً، تجمع في العتاب

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٦٦).

لطفًا ورحمة، فيقول لهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

لما ابتعدا ناداهما، وهكذا عندما يبعد الإنسان عن ربه عليه أن يجدد في البحث عن أسباب الاقتراب ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] كلما سجدت اقتربت.

الآن صار الأمر بيدهما، فماذا سيفعلان أمام هذا العتاب؟

اللقطة الخامسة: المعاتبة الإلهية تذكرك بأن الله ﷻ أرحم بك من نفسك، فهو الذي علمك المخاطر قبل أن يدعوكَ الشيطان لتعصي ربك وتغامر، وبيصّرنا بذلك هذه المعاتبة الإلهية العظيمة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

جمع الله تعالى في معاتبته بين أمرين:

الأول: تحديد الخطيئة التي نهاما عنها بصورة دقيقة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ ﴿٢٢﴾.

الثاني: تحديد العدو الذي سيتلاعب بهما لإيقاعهما في الخطيئة: ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٢﴾، فحدد لهما الخطيئة، وحدد لهما العدو أيضًا.

هنا ربما طالبت بالتروي في تذوق الكلمات القرآنية، فقلت: ما الجمال البياني الذي نجده في استخدام أسلوب السؤال في قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]؟

الجواب: كان يمكن أن يقول الله ﷻ لهما: قد نهيتكما عن تلكما الشجرة على سبيل الإخبار، وكان يمكن أن يختار الله ﷻ السؤال المقرون بالإثبات بأن يقول: هل قلت لكما:

لا تقربا هذه الشجرة، وقلت لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين؟ لكنه ﷻ اختار السؤال المقرون بالنفي.. لماذا؟

لأن السؤال المقرون بالنفي يُظهر أقوى درجات التأكيد على إصدار الحكم، ويحتمل أقوى أنواع العتاب، كأنه نفى أن يكون فعل معهما ما يناقض ذلك، وهذا النوع من العتاب يدفعهما إلى المسارعة إلى أن يُقرَّأ بأن الله ﷻ قد حذَّرهما وأنذرهما، وأخبرهما عن الأمرين معًا: الشجرة والعدو، وأشار إليهما، فرأياهما بصورة محسوسة، وهذا أبلغ في المعاتبَة والإشعار بالذنب.

بصيرة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ تُبْصِّرُكَ بتذكُّر الرحمة الإلهية إذ بَصَّرْتُكَ بالمخاطر سابقًا، وبإقامة الحجَّة على نَفْسِكَ واقعًا.

بصيرة: ﴿عَنْ تِلْكَمَا﴾ تَبْصِّرُكَ بسرعة هروب الإنسان المشفق من مكان ذنبه، ومركز عَطْبِهِ، فإن كلمة ﴿تِلْكَمَا﴾ للبعد، وهي تُصَوِّرُ ابتعاد الإنسان عن المكان الذي ذاق فيه مرارة المعصية.

بصيرة: ﴿عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ﴾ تُبْصِّرُكَ بآلَا تَغْتَرَّ بما ترى من المخلوقات، فقد يكمن الهلاك في الشجرة الصامتة الجامدة المثمرة.

بصيرة: ﴿وَأَقْلَ لَّكُمَا﴾ تُبْصِّرُكَ أن الإرشاد الإلهي للإنسانية لم يكن خفيًا، بل كان واضحًا بيِّنًا يعرفه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فلم يقل ربُّنا ﷻ: وأوحيت لكما؛ لاحتمال أن يكون الوحي خفيًا، بل قال: وأقل لكما.

وَعَطْفُ جُمْلَةٍ: ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا﴾ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿أَنَّهُكُمَا﴾ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّوْبِيخِ، لِأَنَّ النَّهْيَ كَانَ مَشْفُوعًا بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ الْمُغْرِي لَهُمَا بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَهُمَا قَدْ أَضَاعَا وَصِيَّتَيْنِ^(۱).

بصيرة: ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ۲۲] تُبَصِّرُكَ بِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَظَاهِرِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ تَحْدِيدَ الْعَدُوِّ الْحَقِيقِيِّ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِإِغَارَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

وخطاب التثنية: ﴿وَنَادَاهُمَا﴾، ﴿رَبُّهُمَا﴾، ﴿أَنَّهُكُمَا﴾، ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا﴾ تعبير عن أنهما اشتركا في المخالفة وتواطأ عليهما، وصدرت منهما جميعاً.

ستسأل في قوله تعالى: ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ۲۲] وصف الله تعالى الشيطان بأنه عدو، ووصف عداوته بالإبانة. وهما كلمتان تصوّران إعجازاً بيانياً وواقعياً في حياة البشرية، فما سرُّ التعبير بهما؟

الجواب: أما (العدو): فهو الخصم الذي يَعْدُوّ مسرعاً فيما يكرهه خصمه، أي: يتحرك ضدَّ خصمه فيما يكرهه كما يَعْدُوّ الفرس في جَرِيهِ، وأما (المبين): فهو الذي أظهر عداوته، فلا تخفى على البشري عندما يوسوس له، فعندما يوسوس الشيطان للإنسان أوّل مرّة يشعر بوخز الجريمة، وبمجرد أن يبدأ في التفكير بالإقدام على المعصية في بداية الأمر يشعر بالتردد والألم، ثم يذهب ذلك عندما يصبح ألعوبة بيد إبليس، فيطّيع على قلبه محبة المعصية،

(۱) التحرير والتنوير (۸-ب/ ۶۷).

ويفرح حين يبتكر وسائل جديدة للإقدام على معصيته، ويستسلم للشيطان، ويجعله قائداً له مع تكرر الوسوسة، وتنهار مجاهدته لإبليس ولا يعود إلى الشعور بأنه عدو له، ثم يُصَدِّق إبليسَ كأنه ولي حميم، وحليف قريب، وانظر للمسلمين: كيف يحذرهم الله تعالى من اتخاذ أعدائه أولياء، ولا تجد أحداً يوالي أحداً كموالاة كثير من المسلمين لأعداء رب العالمين. مع المدى ينسى الإنسان أن الشيطان عدوٌّ مبين، وعلى الرغم من أنه يُظهر عداوته إلا أنه يستمرُّ في الوسوسة مُجَاهِرَةً ومُسَاتِرَةً ومُماكَرَةً لِيَتِمَكَّنَ من قيادة ضحيته إلى السوء مع أن ضحيته البشرية تعرف عداوته وخداعه، ويتحول الشيطان مع المدى إلى المتحكِّم بالعقل الإنساني بالتدريج؛ نتيجةً لعدم رغبة الإنسان في مجاهدته أو مكابذته، ولذلك قال الله سبحانه تعالى: ﴿وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

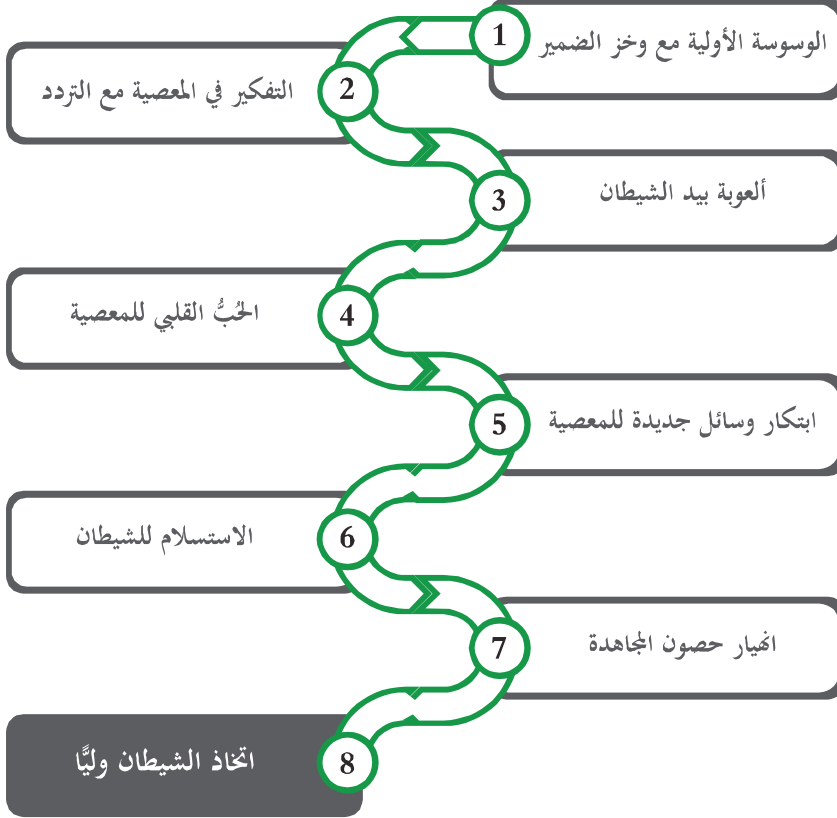
ولاحظ تكرار كلمة ﴿لَكُمَا﴾، فإنها تصوِّر لك مقدار التحديد الإلهي لهما والتأكيد عليهما في الخطاب وفي بيان عداوة إبليس، فهو عدوٌّ لهما قبل غيرهما.

فكيف تقعان بكل سهولة في يد عدوِّكما؟

وفي هذه المعادلة تتضح خطوات العداوة الإبلسية البيّنة:

- الوسوسة الأولية مع وخز الضمير ← التفكير في المعصية مع التردد ← العوبة
- بيد الشيطان ← الحبُّ القلبي للمعصية ← ابتكار وسائل جديدة للمعصية ←
- الاستسلام للشيطان ← انهيار حصون المجاهدة ← اتخاذ الشيطان ولياً.

خطوات العداوة الإبلسية البيئة



تَجَنَّبُوا السَّلَامَةَ مُقَدِّمًا لِلْجَحْدِ

مُفَصَّلَاتُ تَسْبِيحِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

اللقطة السادسة: مشهد العدل الكامل والرحمة السابقة الغالبة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

قد تسألني: ما هذا المشهد المذهل الذي يكشف عنه النداء الإلهي في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟

الجواب:

بصيرة: تصوّر المسألة:

الله جلّ مجده الذي له ملك السموات والأرض يُمْنُ على عبده آدم وزوجه عليهما السلام بالمعاقبة دون أن يعاجلها بالمعاقبة.

يظهر مشهد العدل الكامل؛ لأن الله تعالى سألهما عن سبب اجترائهما على الذنب، ولم يؤاخذهما مباشرة مع أنه يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما نبدي وما كنا نكتم. ويظهر مشهد الرحمة السابقة الغالبة؛ لأن المتوقع أن تحلّ بهما العقوبة الفورية على العصيان المباشر غير المستتر لأوامر رب العالمين كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، ولكنك تدهش، فكما حاور الله ﷻ إبليس وسأله عن سبب معصيته كذلك سأل الله ﷻ آدم وزوجه عليهما السلام عما فعلاه، وذكرهما بالنظام الذي وضعه لهما ليعتادا حياة المسؤولية الحقيقية: ذكرهما بأنه نهاهما عن القرب من الشجرة، وذكرهما بأنه أخبرهما بعدوّهما المبين غير المستتر وهو الشيطان.

هذا التذكير يهزّ نفسك هزّاً؛ والله إن الصدر ليكاد ينشقّ عن شعورٍ غامرٍ بالمحبة الإلهية للخلق.. إن الله ﷻ لم يوقع عليهما العقوبة المباشرة.. لم يمسخهما، ولم يقض عليهما بالخلود في جهنم مع مخالفتها الصريحة لأمره بل ذكرهما بما نسياه... هنا تتساءل متفاخرًا: من هو الأكبر العظيم واسع الرحمة ﷻ؟

إنه الله.. إنه الله، ويتصور ابن الجوزي رحمه الله هذا الموقف، فيشير إلى أن الله -تعالى شأنه- كأنه يقول لمن يعصيه: ويحك! لو عرفتَ قدر نفسك ما أهتتها بالمعاصي، إنما أبعدنا إبليس لأجلك؛ لأنه لم يسجد لك، فالعجب منك كيف صالحتَه وهجرتنا؟! **رَعَى اللَّهُ مَنْ نَهَوَى وَإِنْ كَانَ مَا رَعَى**

وَوَاصَلَتْ قَوْمًا كُنْتَ أَتْهَاكَ عَنْهُمْ وَحَقَّقْ مَا أَبْقَيْتَ لِلصُّلَحِ مَوْضِعًا^(١) حَفِظْنَا لَهُ الْوَدَّ الْقَدِيمَ فَضَيَّعَا

ولكنك بعد سماع كلام ابن الجوزي رحمه الله نقول: كلامه كلام البشري في نظرهم للقصة، وتجد فرقاً واضحاً بين أن يقول إنسان لآخر: ويحك عند المعاتبة^(٢)، وأن يقول الله تعالى لهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ هنا تسمع اللفظ التي تحمل العتاب، وتدعو إلى المتاب.

لا تنقضي بصائر هذه الكلمات، فربما تساءلت: ما المشهد الذي تكشف عنه تشنية الضمير في قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؟

الجواب:

اللقطة السابعة: مشهد المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة بالنسبة للوقوع في الذنب، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

فليس صحيحاً أن حواء عليها السلام كانت السبب الذي أغرى آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة، فهذا خلاف ما تصرّح به الآيات..

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٤٠).

(٢) وهذا المقام يختلف عن مقام النبي ﷺ عندما نبّه معاذاً بقوله: «كَلَيْتَكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ» في حديث المؤاخذه باللسان.



ولكنك قد تساءل: من أين جاءت فكرة أن حواء عليها السلام هي السبب في إيقاع آدم عليه السلام في الخطيئة؟

الجواب: للأسف فإن مصدر هذه الفكرة جاء من الإسرائيليات التي تعتمد على نصّ في التوراة الحالية، وتناقل الناس -ومنهم المسلمون- ذلك دون تمحيص، فعن محمد بن قيس عليه السلام في الآية: لِمَ أَكَلَتْهَا وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟ قال: يا رب، أَطْعَمْتَنِي حَوَاءَ! قال لحواء: لِمَ أَطْعَمْتِ؟ قالت: أَمَرَتْنِي الْحَيَّةُ! قال للحَيَّةِ: لِمَ أَمَرْتِهَا؟ قالت: أَمَرَنِي إِبْلِيسُ! قال: ملعون مدحور! أما أنتِ يا حواء فكما دُمِيتِ الشجرة تَدْمِئِينَ كل شهر، وأما أنتِ يا حَيَّةَ، فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك، وسيشُدُّ رَأْسُكَ مَنْ لَقِيكَ، اهبطوا بعضكم لبعض عدوًّا^(١). وهذا الأثر من الآثار الإسرائيلية التي لا ينبغي إيرادها دون ردّها، بل نردها سندًا ومتنًا، فكيف يقال: حواء عليها السلام أغرت آدم عليه السلام هنا، وأنت ترى أن اللوم على آدم عليه السلام في الآيات أكثر من اللوم على حواء عليها السلام؟

وتعال لتسمع الرواية التوراتية التي تُحْمَلُ الْحَيَّةُ ثم المرأة كامل المسؤولية، وتخفي مشهد الشيطان من الوجود في هذا الموضوع، وتُعَوِّدُ الْمَرْءَ على التملُّص من ذنوبه، وعلى عدم الاعتراف بخطاياها، ففي سفر التكوين ٣:

١ وَكَانَتْ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ إِلَهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟»

٢ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ.

٣ وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّهُ لِيَلَّا تَمُوتَا».

(١) تفسير الطبري (٥/٢٩٣)، ط: دار الحديث، وضعفه إسلام منصور.

٤ فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا!

٥ بَلِ اللَّهُ عَالِمُ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا، وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ».

حتى الآن ماذا تلاحظ؟

ستلاحظ الآتي:

أولاً: إخفاء مشهد إبليس في القصة التوراتية، بينما ترى وجوده بارزاً في القصة نفسها في القرآن الكريم، ولقد ترتّب على هذا الإخفاء عدم الشعور بعداوة إبليس في الثقافة اليهودية المسيحية، بل صارت هذه الثقافة تقبل بتمجيد إبليس، وتصنع الأفلام والمسلسلات التي تلمس له العذر باعتباره حاول أن يخدم الإنسانية، وتسمّيه: لوسيفر.

ثانياً: الجرأة على الله ﷻ والتجديف في صفاته في البلاد الغربية، فهذه الرواية تنسب الكذب إلى الله تعالى، وتُظهر الحيّة بمظهر الذي يحاول المساعدة، ويخبرهما بأن الله ﷻ حجب عنهما المعرفة، فإذا أكلَا فسيصبحان ممن انفتحت أعينهما على الخير والشر، وسيكونان مثل الله.. تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً، بينما نعلم أن القرآن أخبرنا أن الله ﷻ ميّز آدم ﷺ بالمعرفة، ولذلك أسجد له الملائكة.

تابع القصة في التوراة الحالية:

٣: ٦ فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ.

التعليق: هنا تجعل هذه الرواية المسؤولية كلّها على عاتق المرأة، والقرآن يجعل المسؤولية مشتركة، ويجعل الملام الأول آدم ﷺ، وتلاحظ أن القرآن يصف جهوداً كبيرة بذلها الشيطان للإغواء، ولا تجد ذكر ذلك في هذه الرواية التوراتية.

تابع الرواية:

٣: ٧ فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لَأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ.

التعليق: القرآن يصف الذي وقع لهما بعد الأكل: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا ۖ﴾ بينما تجد التوراة الحالية تبين بأن أعينهما انفتحت، ومعنى ذلك تحقق كلام الحية، و فرق كبير هائل بين الوصفين، فقد صدقت هذه الرواية المحرفة الحية، بينما أظهر القرآن أن صدق الأمر الإلهي عندما منعهما من الأكل من الشجرة؛ لأنهما سيصبحان من الظالمين.

وعندما تتابع القصة في التوراة الحالية تجد:

٣: ٨ وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِ مَاثِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ.

التعليق: هنا تجد التشبيه لله بالبشر، بينما تجد التعظيم لله ﷻ في القرآن إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، ونحن ننزّه الله -جَلَّ مَجْدُهُ وتبارك اسمه- عن أن نَصِفُهُ وصفًا مماثلاً للبشر، وإن وردت صفة مشتركة في الألفاظ فإننا نعرف معناها، وننزه الله تعالى عن التشبيه كما ننزه كلامه عن التعطيل.

وعندما تكمل تجد الأمر أسوأ:

٣: ٨ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ إِلَهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ.

٣: ٩ فَنَادَى الرَّبُّ إِلَهُ آدَمَ، وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟»

التعليق: تتساءل: الرواية: أين أنت؟ وهذا السؤال يمكن أن يراد به المحاسبة والمعاقبة، وليس عدم العلم، وقد يكون لبيان عذر المسؤول أمام الآخرين كما في قول ربنا ﷻ لعيسى عليه السلام في القرآن: ﴿عَآءَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُوتِنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد يكون السؤال للملاطفة والمؤانسة لا لطلب العلم كما في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧]، لكن الذي يثيرك في الرواية التوراتية تتابع ما يدل على طلب

المعرفة، وليس الإتيان بالسؤال لغرض من تلك الأغراض، ففي التوراة قال الله ﷻ لآدم عليه السلام بعد ذلك:

٣: ١١ «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟»
فتتابع الأسئلة بهذه الطريقة يومئ بأن الهدف من السؤال طلب المعرفة وليس المحاسبة،
والحقيقة أن الله ﷻ يكون معنا بعلمه أين ما كنا، وهل ينفع الاختباء في أي مكان ليهرب
المخلوق من ربه ﷻ؟ لقد أخبرنا الله ﷻ أننا لن نعجزه مهما اختبأنا، فقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ وَهَرَبْنَا﴾ [الجن: ١٢].

أكمل الرواية التوراتية:

٣: ١٠ فَقَالَ -أَيَّ آدَمَ-: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ».
٣: ١١ فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ
مِنْهَا؟»

التعليق: لاحظ هنا: جعل الأصل أن آدم وحواء ﷻ يمشيان عريانين لكن لا يشعران بهذا
العُري مع أننا نقول بالعكس فالله ﷻ فطرهما على الحياء، كما تجد هذه الرواية لا تعظم الله
ﷻ، فتحدث أن الله ﷻ لم يعرف أين آدم وزوجه ﷻ، ولم يعرف أنهما أكلا من الشجرة،
وأظهرت الرواية صدق الحيّة، حيث انفتحت أعينهما وصارت عندهما المعرفة. فما هذه
الأكاذيب؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بينما في القرآن: منحهما الله ﷻ الاختيار للوقوع في الذنب أو اتقائه، وأراد أن يتعلّما، فلما
وقعا في الذنب عاتبهما الله ﷻ مباشرة على الخطأ، وذكرهما بأوامره التي تحميها من عبث
الشیطان، فقال: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

[الأعراف: ٢٢].

وتتابع الرواية التوراتية المحرّفة لتجدها تلقي بالمسؤولية على حواء ﷺ مجدّداً، ففيها:

١٢:٣ فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ»^(١).

التعليق: كما ترى صارت المسؤولية على المرأة في نظر المحرّفين، ولذلك عبثوا بقضايا المرأة وما زالوا يعبثون.

نتوقف هاهنا، وإنما أوردت هذه النصوص بهذه الهيئة لتظهر لك هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وكيف يصحّ التحريف الشنيع الذي اقترفته أيدي الذين: ﴿يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتَسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

الانتقال:

تنقلنا الآيات إلى مشهد جديد في قول ربّنا جلّ ذكّره: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فما المشهد الذي أخبرتنا به هذه الآية، وفيه قلب آدم وزوجه ﷺ النتيجة على الشيطان؟

الجواب: هنا نرى:

(١) ينظر: سفر التكوين (ص: ١٦٦-١٧٠).

اللّقطه الثامنة: مشهد تحويل الهزيمة إلى انتصار: حيث أظهر آدم وزوجه ﷺ التوبة الصادقة، والاعتراف بالأخطاء، فالتوبة هي السبيل الوحيد للتحرر من أسر إبليس وقبيله، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهنا ترى إبطال النظرية المجرمة التي تسمى: الخطيئة الأصلية، ففي القرآن: خلق الإنسان بلا خطيئة، فلما وقع فيها، استطاع التغلب عليها، وأحال خسارته أمام الشيطان إلى ربح؛ إذ اعترف أمام ربه ﷻ بأنه ظَلَمَ نَفْسَهُ وتاب توبة نصوحًا.

هنا ترى العظمة الإنسانية مقارنةً بالاستكبار الإيليسي، فعندما عاتبهما الله جَلَّ ذِكْرُهُ لم يستكبرا ولم يجادلا، بل بادرا إلى الاعتراف بالظلم الذي سبباه لأنفسهما، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وأعظم ما يحول النصر الشيطاني إلى خسارة أن يُقَدِّم العبد على ربه ﷻ ليعترف بذنبه بخضوع واستكانة.. هنا يستطيع الإنسان أن يقلب لصالحه موازين المعركة مع إبليس.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]: كلمة السر العظيمة التي استطاع بها آدم وحواء ﷺ أن يُحْيِلا المشهد لصالحهما، وأن يقلبا خسارتهما إلى ربح وفوز.

وينقل لنا أبو سعيد الخدري رحمه الله حقيقة انقلاب موازين المعركة مع الشيطان لتصبح ربحًا للإنسانية بدلًا من البقاء في حضيض الخسارة، فيروي أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرُحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَرَأَى أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

(١) رواه أحمد (١١٢٣٧)، وحسنه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الجامع (١٦٥٠).

هذا الاعتراف يعني التوبة من سوء الاقتراف، وهو مفتاحك لتُحِيلَ كُلَّ هزائمك أمام نفسك الأمارة بالسوء إلى انتصارات.. إنه مفتاحك لتتغير من الشر إلى الخير، ومن القبح إلى الحسن، ومن البعد عن جلال ربِّكَ إلى القرب منه والتلذُّذ بطاعته، وقد سجَّلت أحداث الاشتباك الأول في تاريخ البشرية معنى الشموخ بعد الانكسار، والنهوض بعد السقوط، والإقدام بعد التراجع، سجَّلت معنى الاستئناف بعد التأخر، وهو ما لخصَّته إحدى الآيات الأخيرة من هذه السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فليس بينك وبين أطياف الشيطان إلا أن تتذكر فتعود مبصرًا.

هنا لا بد أن يستفزَّ اللفظُ القرآنيَّ عقلك لتسأل: إن الله قد سألهما عن فعلهما سؤال إنكار فقال لهما: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهذا سؤال مقرون بأقوى درجات الحكم، وهو النفي، كأنه نفى أن يكون فعلٌ معهما ما يناقض ذلك.. أليس المتوقع أن يكون جوابُهما: بلى يا رب قد نهيتنا عن تلك الشجرة، وقلت لنا إن الشيطان لنا عدو مبين.. فلماذا عدلاً عن هذا الجواب إلى قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؟

الجواب: يحتمل أنهما أقرَّا على أنفسهما بفحوى السؤال أولاً، فقالا: بلى يا ربَّ قد نهيتنا عن تلك الشجرة، وقلت لنا: إن الشيطان لنا عدو مبين.. هذا محتمل، ولكن القرآن لم ينقله لنا لوضوحه، والأرجح أنهما لم يقولوا ذلك بل بادرا إلى ما هو أجمل من الإقرار بأن قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

نقل الله تعالى لنا أهم ما قالاه بعد هذه الواقعة التي وقعا فيها، فكأنهما بهذا الابتهال والتضرُّع الجميل قالوا: قد نهيتنا ولكننا ظلمنا أنفسنا، فلم نسمع.

وتعال بنا إلى دعائهما وتضرعهما، فقد احتوى على ركنين عظيمين:



الركن الأول: اعتراف الإنسان بأنه ظَلَمَ: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾:

بصيرة: كلمة ﴿قَالَ﴾ تُبَصِّرُك بِإِقْبَال الزوجين المُتَبَيِّن إلى رَبِّهِمَا جَلَّ فِي عَلاهِ، فبما أن مسؤولية الذنب مشتركة، فمسؤولية رَفْعِهِ مشتركة أيضًا، ولا بد أن يساعد الرجل زوجته على التحقق بها، كما يجب أن تعضد المرأة زوجها على التحقق بها أيضًا.

بصيرة: يصوِّر لك قولهما: ﴿رَبَّنَا﴾ حالهما وهما يعترفان بربوبية الله تعالى اعترافًا مقرونًا بالخضوع والخشوع والتسليم، بل تشعر بهما وهم يُلْطَآن وَيُلِحَّان بالتضرُّع بوصف الله عزَّ شأنه بالربوبية، كأنهما يَأْمُلَان إصلاح المُرَبِّي لحالهما ورحمته لهما لَمَّا زَلَا.

كأنهما قالا: رَبَّنَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ إِلَيْنَا وَالْمُنْعِمُ عَلَيْنَا^(١) فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك وبطاعتنا عدونا وعدوك ما قد فعلنا، لكننا نعتزف بأننا ظلمنا أنفسنا، وأنت ربُّنا تربيُّنا على إصلاح أحوالنا.

بِمَ يَذْكُرُكَ هَذَا؟

الجواب: يَذْكُرُكَ بضدِّ هذا الموقف، فقد اعترف أبوانا ﴿بذُنُوبِهِمَا وَلَمْ يُجْعَلَا لِأَنْفُسِهِمَا الْحَقُّ فِي فِعْلٍ مَا يَحْلُو لَهُمَا لِمَزِيَّةٍ مُدَّعَاةٍ كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ حِينَما حَاسِبَهُ اللهُ جَلَّ مَجْدُهُ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَتَّسَّجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فلم يقل إبليس: ربِّ إني ظلمت نفسي، بل قال ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٧٥).

اعترف أبوانا بالظلم الذي سبَّاه لأنفسهما، ولم ينسبا الإغواء إلى الله ﷻ كما فعل الشيطان حينما قال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

ويقارن قتادة رحمه الله بين موقف أبيونا ﷺ وموقف إبليس فيقول: قال آدم عليه السلام: يا رب، أرايت إن تبت واستغفرتك؟ قال: إذا أُدْخِلَكَ الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأل النظرة، فأعطى كل واحد منهما ما سأل^(١).

وفي المقصوص علينا من خبر الأبوين عظة وذكرى عند مواجهة الذنب، واكتساب الخطيئة أن نفىء إلى باب الله معترفين مقرين بالسيئة، لا تذين بجناب الرب الكريم أن يغفر ويرحم. يا من عدى ثم اعتدى ثم اعترف ثم ارعوى ثم انتهى ثم اعترف أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف^(٢)

الركن الثاني: طلب المغفرة والرحمة: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾: أي وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه، وتحميننا منه كما يغطي المغفر -وهو الدرع- الرُّجُل من أن تصيبه سيوف الأعداء، فالمغفرة حماية للإنسان من العقوبة والفضيحة.

﴿وَتَرْحَمْنَا﴾: بتعطُّفك علينا، وتركك معاقبتنا بالذنب ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني: لنكونن من الهالكين الذين ذهب عنهم رؤوس أموالهم، ورأس مال الإنسان نفسه. فلم يُصِرَّ على العصيان، ومخالفة أمر الرحمن، كما قال إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، بل أقرَّ وأسفا وطلبا رحمة الله وغفرانه.

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٥٧).

(٢) البيتان لعبد القادر بن طاهر التميمي، أوردهما السيوطي في الحاوي، (١/٢٥٦).

يَا مُتَّهَى وَخَشِي وَأُنْسِي كُنْ لِي إِذَا لَمْ أَكُنْ لِنَفْسِي
أَوْهَمَنِي فِي غَدٍ نَجَاتِي حَلُمُكَ عَنْ سَيِّئَاتِ أُمْسِي^(١)

هنا استطاعا قلبَ الهزيمة التي تلذذ بها إبليس إلى فرصة ثانية لصناعة النصر.

وتعال معي حتى نقف على تصوير هذا المشهد العظيم في آيات معبرة، حيث يقول فيها

الدكتور/ عامر الخميس - وفقه الله -:

يَا رَبِّ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي أَبْكِي وَتَبْكِي يَا إِلَهِي عُرْسِي
فِي غَفْلَةٍ مِّنَّا نَسِينَا النَّهْيَ وَقَدْ سَعَىٰ فِينَا الْعَدُوُّ سَعِيًّا
أَتَىٰ لَنَا بِالْقَسَمِ الْعَظِيمِ بِكَيْدِ شَرِّ خَاسِيٍّ مَذْمُومٍ
فَتُبَّ عَلَيْنَا يَا إِلَهِي إِنَّنَا نَرْجُو النَّجَاةَ هَذِهِ أَكْفُنَا
مَرْفُوعَةٌ وَالْدَّمَعُ مِّنَّا جَارِي يَسِيحُ مِثْلَ الْوَابِلِ الْمَذْرَارِ
مَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ إِلَّا أَنْتَ إِلَهِي فَأَصْبْنَا الْفَضْلَا
وَإِنْ يَكُنْ رَدُّ فَذَاكَ خُسْرٌ وَمَا لَنَا دُونَ السَّمَّاحِ صَبْرٌ

دعاء الآباء ملهم للأبناء، وورد للأنبياء:

هذا الدعاء الوَجِل المشفق الذي لهج به الأبوان تعلَّم منه الأنبياء عليهم السلام من بعد، فكان مصدر إلهام لهم، فهاهو نوح عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وهاهو موسى عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وهاهم أتباعه يقولون: ﴿لَيْن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وهاهو محمد صلی اللہ علیہ وسلم يسأله أبو

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٣٨).

بكر ﷺ، فيقول: عَلَّمَنِي دُعَاءَ اَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. «قَالَ: قُلِ: اَللّٰهُمَّ اِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ اِلَّا اَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي اِنَّكَ اَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١)، فجمع النبي ﷺ بين الأنوار الثلاثة: أن يعترف العبد بظلمه لنفسه، وأن يُقرَّ بأن مغفرة الذنوب ليس حقاً لأحد من الخلق بل هي حقُّ الله جلَّ مَجْدُهُ، وأن يطلب تحقُّق هذه المغفرة، ويتبعها بالرحمة. فصار دعاء النبي ﷺ على أكمل الوجوه.

وهاهو علي ﷺ يذكرنا بأن النبي ﷺ يعلمنا الاعتراف بظلم أنفسنا عندما نرْفُل في النعم العظيمة مثل نعمة المركوب الذي يريح النفس من عناء المشي، فَأَتَيْ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فلما وضع رِجله في الرِّكَّاب قال: بسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله. سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً ثم قال: سبحانك لا إله الا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي. ثم ضحك. فقيل: مِمَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: مِمَّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: «يَعْجَبُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَيَقُولُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي»^(٢).

وانتشر هذا الدعاء الذي سنَّه أبوانا ﷺ في أدعية النبي ﷺ التي يعلمها العالم، فعن أبي موسى الأشعريّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي»^(٣).

(١) البخاري (٨٣٦).

(٢) أحمد (٧٥٣)، وقال الأرناؤوط: «حسنٌ لغيره».

(٣) البخاري (٦٣٩٩).

هذا تضرُّع سيد المرسلين ﷺ، يعلمنا أن نقف أمام رب العالمين نئنُ أنين المذنبين المعترفين، فلا أقدام المحب إقدام، وبُعده عن ربِّه يملأ حياته بوحشة لها اضطرام.. فذلك الدعاء مفتاح يقلب المعركة مع الشيطان الرجيم، ويحيلها من هزيمة أمامه إلى نصر حقيقي، ولذا قال بعضهم: «حقُّ على المؤمن أن يقتدي بأبويه في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾»^(١).

فيا من أوبق نفسه بمخالفة مولا، واتباع نفسه وهواه، عُدْ إلى الحضرة، واسكب العبرة، وقم على بابهِ بالذُّلِّ والانكسار، وارفع قصة ندمك مرقومة على صحيفة خدك بمداد الدموع الغزار، وقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قال يحيى بن معاذ رحمته الله: «العبد يوحش ما بينه وبين سيِّده بالمخالفات، ولا يفارق بابهِ بحال؛ لعلَّه بأن عزَّ العبيد في ظلِّ موالِيهم»^(٢).

قُرَّةَ عَيْنِي لَا بُدَّ لِي مِنْكَ وَإِنْ
قُرَّةَ عَيْنِي أَنَا الْغَرِيقُ فَخُذْ
كَفَّ غَرِيقٍ عَلَيْكَ يَتَكَلَّلُ

الانتقال:

بعد أن أعلن آدم وزوجه ﷺ التوبة بهذه الكلمات العذبة: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف ٢٣] ينقلنا الله تعالى مجَّده إلى الحكم الذي صدر بعد تلك التوبة وهو قوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١)، فذكر الله ﷻ في هذه السُّورة كيف خلق البشريَّة، وكيف أسجد الملائكة لآدم عليه السلام، فماذا تعني التوبة من أبوي البشريَّة ﷺ بالنسبة لتاريخ الإنسانيَّة؟

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (٢/ ٤١٩).

(٢) لطائف المعارف، ابن رجب، (ص: ٢٨٥).

الجواب: هنا نرى:

اللقطة التاسعة: الهبوط إلى الأرض: وهي لقطة مفصلية في حياة البشريّة، فالتوبة من أبوينا محطة فاصلة في التاريخ الإنساني؛ إذ تعني اكتمال الإعداد للاستخلاف في الأرض، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١٠﴾:

وهنا لا بد أن تتساءل: لمن الخطاب في كلمة ﴿اهْبِطُوا﴾؟ وما نوع هذا الأمر: هل هو تكليفي أم تكويني؟

الجواب: الخطاب لِآدَمَ وَزَوْجِهِ ﷺ من جهة ولِإِبْلِيسَ من جهة أخرى، والأمرُ بالهبوط تَكْوِينِيٌّ للجميع، فلا يمكن لواحدٍ منهم البقاء، وقد سبق أن بيّنا أن الهبوط يعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر يغلب عليه أن يكون أدنى من السابق أو من منزلة إلى منزلة أدنى، وبذلك صَارَ آدَمُ وَزَوْجُهُ ﷺ وَإِبْلِيسُ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ^(١).

فلم يكن الإهباط إلى الأرض عقوبة محضة، بل كان أمراً مقدّراً له من قبل، فهو إحدى الغايات من خلق الله ﷻ للإنسان، ولكن الله تعالى برحمته أسكن آدم وحواء ﷺ الجنة؛ لتكون مدّة إكرام من جهة، وتدريب لهما على الاستخلاف في الأرض من جهة أخرى، حتى إذا ما أخذ آدم وزوجه ﷺ حظّهما من هذه التجربة المثيرة، وعرفا كيف يتعاملان مع عدوّهما بعد أن لعب بهما، واكتمل الإعداد لهما، وتعلّما كيف يمكنهما أن يقلبا الهزيمة نصراً بالتوبة والمراجعة، صار ذلك علامةً على الاستعداد لإعمار الأرض بالصالحات، فأمر الله ﷻ الجميع بالهبوط إليها. ويشير إلى ذلك القرطبي رحمه الله ﷺ بأنه: «لم يكن إخراج الله تعالى آدم ﷺ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٦٨).

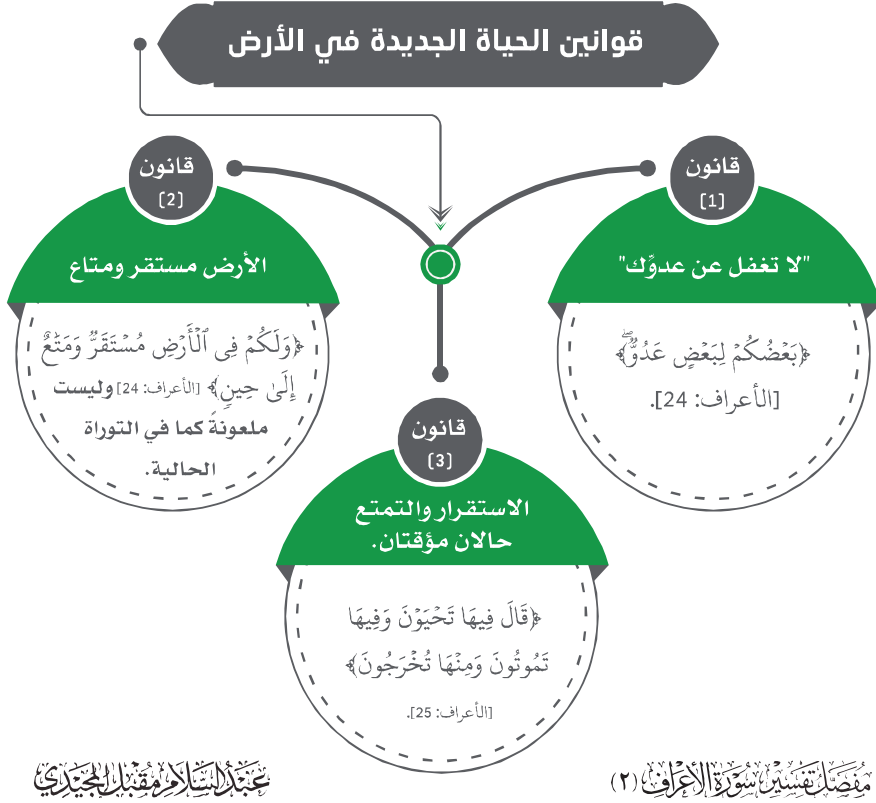
من الجنة وإهباطه منها عقوبةً له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِلَ توبته، وإنما أهبطه إما تأديباً وإما تغليظاً للمحنة، والصحيح في إهباطه وسُكْنَاهُ في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها؛ ليكلفهم، ويمتحنهم، ويرتَّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الآخرين؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة^(١). ولاحظ أنه قال له: ﴿اهْبِطُوا﴾ ولم يقل لآدم وزوجه ﴿اخرجا﴾ منها مذكومين كما قال لإبليس؛ لأن الإخراج كان لا بد منه؛ إذ لم يُخلق آدم إلا للاستخلاف في الأرض، وهذا يؤيد أن الهبوط لم يكن عقوبةً محضةً، بل كان غايةً احتاجت إلى زمن تدريبي، وعندما حان وقتها أمر الله تعالى بها.

إلماحة:

بنظرة شاملة، وإطلالة على المشهد الكلي منذ خلق آدم عليه السلام، ودخوله الجنة، وابتلائه بالشجرة المحرمة.. إلى هبوطه إلى الأرض لبدء مرحلة الاستخلاف يتجلى لنا معلم تربوي يحتاج إليه أرباب التسليك، وكل من ينشد صلاح ولده وذويه، بل وكل المؤسسات التي تُعنى بشأن الإصلاح والتربية.. ذاكم المعلم هو: خوض تجربة الصواب والخطأ، والإفاقة بعد الغفلة، والتوبة بعد الحوبة، خير مسلك تدريبي يؤهل للقيام بوظائف الاستخلاف.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٢١).

قوانين الحياة الجديدة في الأرض:



بقي أن نتعلم مغزى هذه الجملة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ .. فما معناها؟

الجواب:

زود الله ﷻ أبونا بثلاثة قوانين في حياتهما الجديدة في الأرض:

القانون الأول: «لا تغفل عن عدوك»، ويصّرنا به قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فهذا قانون من أهمّ قوانين الحياة الإنسانيّة على الأرض. إنه قانون العداوة الأبدية بين آدم وزوجه ﷺ وذريتهما من جهة وإبليس وذريته من جهة أخرى، وهذا القانون يبيّن جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها، واستمرارها وضرورتها:

فهذه الجملة تعني أن الله ﷻ أخبر أفراد الطرفين: آدم وزوجه ﷺ، وإبليس بأن العداوة حتمية بينهم، فأما إبليس فهو الذي أعلن ذلك ابتداءً، لكن المشكلة في أن تعترى الغفلة الطرف الآخر؛ ولذا نجد النبي ﷺ يؤكد هذه الحقيقة، ولا يفتأ يذكر بها أمته فيقول: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(١).

عندما يكون عدوك بجوارك وهو يصّر على إيذائك وقتلك، وأنت تصرّ على إغماض عينيك، فلا ينبغي أن تلومه حينها، بل يجب أن توجه اللوم إلى نفسك؛ فإذا لم تتبه البشرية إلى هذا القانون فالحسارة المحققة بانتظارهم، بل سيمكّنون عدوهم من أن يتحكّم بمصيرهم وأن يعبث بهم. وما أجمل ما قاله شاعر البصائر د/ سعيد بن دحاج وفقه الله:

حَاذِرْ عَدُوَّكَ يَا فَتَى	إِبْلِيسَ شَرَّ مُخَاتِلِ
مَا زَالَ يُغْرِي بِالْوَسَا	وَسِ كُلَّ غِرٍّ جَاهِلِ
يُرْدِيهِ مِنْ عَالِي الْمَقَا	مِ إِلَى الْمَحَلِّ السَّافِلِ
يَسْعَى بِلاَ كَلَلٍ وَلَا	مَلَلٍ بِعَزْمٍ وَاصِلِ

(١) مسلم، (٢٨١٤).

يَبْغِي هَلَاكَ مَا اسْتَطَاعَ عَ بِخَيْلِهِ وَالرَّاجِلِ
إِنْ تَغْفُلْنَ عَنْ كَيْدِهِ فَالْخَصْمُ لَيْسَ بِغَافِلٍ

وستقول: قد ذكر الله ﷻ لآدم ﷺ أن إبليس له عدو من قبل، فلماذا كرر ذلك هنا؟

الجواب: في البداية عرف الله ﷻ آدم وزوجه ﷺ بأن إبليس عدو لهما، وجعل المسؤولية الأكبر على آدم ﷺ، فقال: ﴿يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] .

وأما هنا فأخبرهم بأن العداوة قانون دائم، وجعل ذلك بأسلوب يُشعرهما بآلا يغفلا عن هذا العدو الذي ظهر كيده، واستبانت محاولته الحثيثة ليدمرهما، فذكر العداوة هنا تكرر بنزولهما إلى الأرض.

وهنا يبرز لنا قانون جديد من قوانين الحياة يشرق من قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.. فما هذا القانون؟

القانون الثاني: الأرض مستقر ومتاع، وليست ملعونة كما في التوراة الحالية: فهذا قانون عظيم يشرق من قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، فالأرض مكان الاستقرار المؤقت، ومحل التمتع غير الدائم، ويجب بذل الأسباب المتعددة لتحقيق الاستقرار والتمتع فيها لتكون مزرعة حقيقية للمحل الدائم للاستقرار والتمتع، وهو الآخرة.

تري أن الله ﷻ عطف هذا القانون: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ على القانون الذي سبقه، وهو قوله تعالى جَدَّهُ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ستسأل: لماذا هذا العطف؟

الجواب: لأن كلمة ﴿عَدُوٌّ﴾ تدلُّ على معارك وعدم استقرار، فبين الله جلَّ ذكره أن المعارك مع هذا العدو لا تنفي الاستقرار النسبي، فستجدون في الأرض استقرارًا إلى حين، وليس استقرارًا دائمًا، كما أن من أجمل المتاع أن تغالبوا هذا العدو العنيد، وكلما هزمتموه وجدتم استقرارًا ومتاعًا أعلى، فإذا نجح في تجنيد بعض البشرية ضدَّ بعض ذهاب ذلك الاستقرار والمتاع، وحلَّ محلَّه نوعٌ من الاضطراب لكن ثبات الثابتين من أبناء البشرية على اتخاذه عدوًّا يزيدهم قربًا من تحقيق الهدف الأعلى، وهو إيجاد المتاع الدائم في الآخرة.

فما معنى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؟ ماذا تصوِّرون لنا كلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾؟

الجواب: المُسْتَقَرُّ^(١): مَصْدَرٌ مِمِّيٌّ، والاستقرار هو المُكثُّ، أي: لكم في الأرض قرارٌ وثبوتٌ، وأصله من القَرَّ وهو البرد، فالبرد يقتضي السكون، كما أن الحرَّ يقتضي الحركة، وقرَّت عينه تَقَرُّ: أي برَدَتْ، يُكنى بذلك عن الشُّرور، واستقرَّ فلانٌ: تحرَّى القرار، أو قرَّ في ذلك المكان فاتخذه قرارًا بصورة مؤكَّدة، والقرار: المكان والزمان الذي يستقرُّ فيه الإنسان مطمئنًا غير مضطرب ولا قلق.

فقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: تبصرك بأن للبشر في الأرض مكانًا مهيئًا يطلبون فيه القرار والاطمئنان، فيجدونه لا يخافون فيه نفاد الأقوات، ولا ضياع الثروات.

لاحظ كيف قدَّم كلمة ﴿وَلَكُمْ﴾ ليصِّرك بمقدار الاهتمام بالإنسانية، فلم يقل: وفي الأرض لكم، أو ومستقر لكم في الأرض، بل قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وهذا الحفظ الإلهي للإنسانية يجعلها تبحث عن النظام الذي أنزله الله تعالى لتتبعه وتسير وفقه، وكلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣٩٢/١٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٢٢)، تاج العروس (٣٨٧/١٣)، المعجم الاشتقاقي (١٧٥٤/٤).

فريدة جداً تردُّ على وحوش الرأسمالية الذين ما برحوا يجمعون المليارات، ويحتلون البلاد، ويقتلون الشعوب لأجل جَنِي الثروات، وينشرون في ثقافتهم أن الأرض مواردها محدودة، ولذا يجمعون فلا يشبعون، ويزدادون مع الأيام توحشاً. ويشير (فرانسيس مور لاييه) وصديقه (جوزيف كولينز) في كتابهما الرائع: "صناعة الجوع: خرافة الندرة" إلى أنه في الوقت الذي تنتج الأرض ما يكفي لإطعام ساكنيها وأكثر، يوجد نصف مليار جائع! وبالتحليل والأرقام والوقائع، يتبين أن أكثر قليلاً من ٣٪ من سكان العالم يتحكمون فيما يقارب ٧٩٪ من مساحة الأراضي الزراعية، وأن ما يزرع من مجمل الأراضي الزراعية لا يتجاوز ٤٤٪، بينما لا تصل النسبة في بلدان العالم الثالث إلى ٢٠٪.^(١) هاهو ربُّنا ﷻ يبين أن الأرض تكفي لاستقرار الإنسانية، لولا إصرار الإنسانية على ظلم نفسها.

فكلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ تعطيك اطمئناناً بشرط ألا تجزع ولا تفزع، ولا تجمع فت منع. وتشير كلمة: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ إلى معنى القرار، وهو البقاء في الأرض، قال الواحدي ﷻ: «موضع قرار، أحياء وأموات»^(٢)، وقال السمين ﷻ: «قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] أي: قرار وثبوت»^(٣). ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١]، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وليس شرطاً أن يكون هذا البقاء مطمئناً، فقد كانت حياته ﷺ كلها جهاد وكفاح، ولم يشبع من خبز الشعير.

(١) صناعة الجوع (ص: ١٦-١٩).

(٢) البسيط للواحد (٢/ ٣٩٨).

(٣) عمدة الحفاظ (٣/ ٢٩٣).

بصيرة: كلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فريدة مذهشة تردُّ على وحوش الرأسمالية الذين ما برحوا ينهبون الخيرات، ويحتلون البلاد، ويقتلون البشر لأجل جَنِي الثروات، وينشرون في ثقافتهم أن الأرض مواردها محدودة، فجاءت هذه الكلمة تعطيك اطمئناناً وتمنحك سروراً وحبوراً

اتضح المعنى البديع الذي تكتنزه كلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، فماذا تكتنز كلمة ﴿مَتَّعَ﴾ في قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤)؟

الجواب: كلمة ﴿مَتَّعَ﴾ من مَتَّعٌ^(١)، وهي كلمة تجتمع فيها الصفات الآتية:

الأولى: الامتداد كامتداد الوقت.

الثانية: الارتفاع، فالمُتَوَّعُ لغةً: الامتداد والارتفاع. يقال: مَتَّعَ النهار مُتَوَّعًا: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال، فطال وامتدَّ وتعالى، ومَتَّعَ النَّبَاتُ: إذا ارتفع في أول نموه، والمَتَّاعُ: انتفاع ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، أي: أطال له الانتفاع بذلك الشيء، وجبَلُ مَتَّعٍ: طويل شاق.

الثالثة: الجودة، فيقال: حَبْلٌ مَتَّعٌ يعني جيّد الفتل، والجيد من كلّ شيء: مَتَّعٌ، ولا يقال: تمتعت بالشيء ولا يكون جيدًا.

الرابعة: المنفعة، فيرى ابن فارس رحمه الله أنها كلمة تدلُّ على مَنَفَعَةٍ وَاِمْتِدَادٍ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ.

الخامسة: التلذُّذ، قال ابن فارس رحمه الله: «وَذَهَبَ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْبَابِ التَّلَذُّذُ، وَمَتَّعَ النَّهَارُ؛ لِأَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِضِيَائِهِ، وَالْمَتَّاعُ: الْإِنْفَاعُ بِمَا فِيهِ لَذَّةٌ عَاجِلَةٌ».

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢٩٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٧)، مختار الصحاح (ص: ٢٩٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٠٢٤).

فيجتمع لنا من ذلك أن معنى قوله تعالى مجده: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤): لكم فيها حياة تمتدُّ زمنًا، وترتفع واقعًا، فتصنعون فيها ما يبهجكم، وتجدون فيها ما يكون جيّد الصنعة والواقع، وتتفعمون به، وتلذّذون بتناوله، أو استعماله، أو العيش فيه أو معه، وتناولون به المَلَذَّاتِ والمَرغُوباتِ التي يجد فيها المخلوق مُنْعَتَهُ وراحته، ويقضي فيها حاجته ونَهْمَتَهُ، فكلُّ هذه صفاتٌ للعيش في الأرض، وهذا مدح كبيرٌ لطبيعتها، ولذلك قد يغفل الإنسان فيها عن التمتع الحقيقي الدائم الذي سيكون في الآخرة.

هنا تعلم لماذا حوت هذه السُورَة بعض التفاصيل التي يجد فيها الإنسان المتاع، مثل: اللباس والريش: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِيْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، ومثل التمتع بالتقوى، فهي اللباس النفسي الذي يحقق السكينة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، والأكل والشرب، والزينة في العبادة: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وتجد ذكر التمتع بالزينة في سائر مجالات الحياة، والطيبات من الرزق: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وتقديم ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ على ﴿مَتَّعٌ﴾ غاية في اللطف؛ لأن أول ما يهتم له الإنسان أمنه واستقراره، وإنما يأتي طلب التمتع بعد ذلك لا قبله، ويشهد له قول الله ﷻ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وكان من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ٢٢]،

• [۱۲۶

القانون الثالث: الاستقرار والتمتع حالان مؤقتان، ويصِّرنَا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۖ﴾:

اتضح المعنى البديع الذي تكتنزه الكلمتان ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، و﴿مَتَعٌ﴾، فماذا تصوّر لنا كلمه ﴿حِينٍ﴾ في قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۖ﴾؟

الجواب: كلمة (حين) ^(١) تصوّر لنا زماناً محدداً، ربما يقلّ وربما يكثر، وقد عرف الراغب رحمته الله الحين، فقال: «الحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصّص بالمضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحِثُّ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]»، فهو اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان.

فقوله جَلْ ثَنَاءُهُ: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فيه إجمال وجمال، فقد دخل في الكلمة: عُمرُ كلِّ إنسان أي: تستمتعون به حسب أعماركم التي تَقَلُّ سنواتها وتكثر حسب الأجل المسمى عند الله ﷻ، وكذلك يدخل في كلمة ﴿حِينٍ﴾ أَجَلُ الدُّنْيَا، فتقطع أحيان الأفراد، لكن استمتاع الجنس البشري بالأرض يستمرُّ إلى انقطاع الدُّنْيَا يوم القيامة، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، ف(الحين) نَفْسُهُ: الوقت، غير أنه مجهول القَدْر، يدلُّ على ذلك قول الشاعر ^(٢):

مَا بَالُ جَهْلِكَ بَعْدَ الْحِلْمِ وَالِدَيْنِ وَقَدْ عَلَكَ مَشِيبٌ حِينًا لَا حِينِ
أي وقت لا وقت تمهله، فقد دنا أجلك، ودلنا على ذلك الشيب ^(٣).

وقد تسأل: ما سرُّ تنكير كلمة ﴿حِينٍ﴾؟

(١) مقاييس اللغة (٢/ ١٢٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٥٠٧).

(٢) البيت لجريز بن عطية الخطفي في ديوانه (ص: ٤٨٤).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٣٥٩).

الجواب: نُكِّرَت كلمة ﴿حِينَ﴾ هُنَا وَلَمْ يُحَدِّدْ وَقْتُهَا لِاخْتِلَافِ مِقْدَارِهِ بِاخْتِلَافِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَفْرَادِ، وَكَذَلِكَ لِيَدْخُلَ فِيهِ أَجَلُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ زَمَنُ الْحَيَاةِ الَّتِي تُخَوَّلُ صَاحِبُهَا إِدْرَاكَ اللَّذَاتِ، وَفِيهِ يَحْصُلُ بَقَاءُ اللَّذَاتِ غَيْرَ مُتَفَرِّقَةٍ وَلَا مُتَلَاشِيَةٍ وَلَا مَعْدُومَةٍ، وَهَذَا الزَّمَنُ الْمُقَارِنُ لِحَالَةِ الْحَيَاةِ وَالْإِدْرَاكِ هُوَ الْمُسَمَّى بِالْأَجَلِ، أَيِ الْمُدَّةِ الَّتِي يَبْلُغُ إِلَيْهَا الْحَيُّ بِحَيَاتِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْوِينِهِ، فَإِذَا انْتَهَى الْأَجَلُ وَأَنْعَدَمَتِ الْحَيَاةُ انْقَطَعَ الْمُسْتَقَرُّ وَالْمَتَاعُ، وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِمَا قَدَرَهُ لِلنَّوْعَيْنِ، وَلَيْسَ فِيهِ امْتِنَانٌ وَلَا تَنْكِيلٌ بِهِمْ^(١).

فَالْأَرْضُ مَكَانَ الْإِسْتِقْرَارِ وَمَكَانَ التَّمَتُّعِ، وَالْإِسْتِقْرَارُ يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْمُرَهَا، فَلَا يَقَرَّرُ تَخْرِيْبَهَا لَزَهْدِهِ فِيهَا، أَوْ لَخَوْفِهِ مِنْ فَنَاءِ خَيْرَاتِهَا، أَوْ لِأَنَّهُ ذَاهِبٌ لِلْآخِرَةِ، فَلَا دَاعِيَ لِلْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا.

تَصَوَّرْ جَمَالَ الْكَلِمَاتِ وَعَدْلَهَا وَنُورَهَا فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا الْقِرَائِيَّةِ، بَيْنَمَا تَجِدُ التَّوْرَةَ الْمَحْرَفَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْأَرْضَ لُعِنَتْ بِسَبَبِ خَطِيئَةِ آدَمَ ﷺ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ اللَّعْنَ لَا يَخْفَتُ مِنَ الثَّقَافَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْعَامَّةِ عِنْدَ مُتَّبِعِي هَذَا التَّحْرِيفِ.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا أَيًّا: بَيْئَةً مُتَكَامِلَةً لِلْإِسْتِقْرَارِ، وَمَحَلًّا لِلتَّمَتُّعِ إِلَى حِينٍ، أَيٍّ: إِلَى أَجَلٍ مُحَدَّدٍ تَسْتَطِيعُ الْبَشَرِيَّةُ فِيهِ أَنْ تُثَبَّتَ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ اصْطِفَاءَ مَلِكِ الْمُلُوكِ لَهَا فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدٍ صَدَقَ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمَتُّعُ، وَهَذَا الْإِسْتِقْرَارُ مَدْعَاةً لِلْغَفْلَةِ عَنْ نِهَايَةِ مَشْوَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيْثُ تَبْدَأُ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٦٩).

ولا بد أن يسأل المتدبر للقرآن المجيد: لماذا قال الله ﷻ هنا: ﴿أَهْبِطُوا﴾، وقال في سورة طه: ﴿أَهْبِطَا﴾؟

الجواب: تنوع عدد المخاطبين بصور لك أن الله -جلّ مجده- خاطبهم أكثر من مرة على أكثر من جهة:

فأما أولاً: فقد ذكر الله ﷻ هنا الطرفين: آدم وزوجه ﷺ من جهة وإبليس من جهة أخرى مراعيًا أفراد كل طرف، أي الذرية، فلذلك جمع في الخطاب، فقال: ﴿أَهْبِطُوا﴾ للثلاثة المخاطبين، ولذرياتهم الكائنة في أجسادهم إلى يوم القيامة، بينما ذكر في سورة طه المعسكرين المتحاربين، وهما البشريّة من جهة، والشياطين من جهة أخرى.

وأما ثانيًا: فيمكنك أن تضعيف، فتقول: إن الخطاب في هذه السورة قائم على مخاطبة آدم وزوجه ﷺ؛ ثم يحكي الله ﷻ دخول الطرف المعادي بينهما، فيقول لهما في هذه السورة: ﴿وَيَعَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا... فَتَكُونَا... فَوْسَوْسَ لَهُمَا... لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا... تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا... وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا... فَذَلَّلَهُمَا... ذَاقَا... بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِيقَا يُخِصِّفَانِ عَلَيْهِمَا... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا... وَأَقُلْ لَكُمَا... قَالَا﴾ [الأعراف: ١٩-٢٣]، فناسب أن يخاطب الله ﷻ الثلاثة بصيغة الجمع ﴿أَهْبِطُوا﴾.

وأما في سورة طه فالتركيز كان على الطرف القيادي ومسؤوليته الكبرى في الجانب البشري، وهو آدم ﷺ، وعلى إبليس من الطرف الآخر.. لاحظ في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ... فَنَسِيَ وَلَمْ نَحْذَرْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥... وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝١١٦... فَقُلْنَا يَكَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ۝١١٧، ثم صار الخطاب والحكاية له فقط - فقال: فَتَشَقَّى ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝١١٩ فَوْسَوْسَ

إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمْ هَلْ أَذْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٣٠﴾، وبعد أن حكى وقوعهما في الذنب عاد لبيان المسؤولية الكبرى للرجل فقال: ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَنَهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهْدَى ﴿١٣٢﴾﴾، فناسب أن يكون الخطاب متجهاً إلى قائدي المعسكرين المتحاربين فقال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿١٣٣﴾﴾.

وفي ختام هذه المشاهد المثيرة للمعركة الإنسانية الكبيرة التي وقعت في بداية الخلق مع الشيطان يَحْسُنُ أن نسأل: ما الحقائق التي نستخلصها من هذه المعركة؟
الجواب:

الحقيقة الأولى: الرؤية القرآنية تبصّرنا بالانسجام المدهش بين الإنسان والكون، حيث مكّن الله ﷻ للإنسان في الأرض، وجعل له المعاش الكافية مهما كان عدد أفراد، وزمان حياته، ما دام يسير على النظام الذي وضعه الله ﷻ الذي خلقه وخلق له ما في الأرض.
الحقيقة الثانية: كَرَّمَ الله ﷻ البشرية خَلَقًا ووظيفة، فليس الإنسان مجرد غبار عبث به التطورات العشوائية، كما يقول من يصادر عقله من الملحدين، ويحارب أدنى تفكير صحيح، وهؤلاء الغباريون يقاتلون من أجل أن يجعلوا العالم يصدق بعدم وجود إله خلق العالم حتى لا يتقيدوا بنظام هذا الخالق.. لماذا لا يريدون التقيد بالنظام الذي وضعه الخالق ﷻ؟

ليرضوا أنانيتهم، ويجعلوا طمعهم الشهواني والمادي غير مقيّد بحدٍّ إلا عندما يواجههم إنسان أقوى منهم فقط، ولذا يتبنون نظرية (فرويد) التي تقول: إن الغريزة الجنسية هي المحرك الفعلي للإنسان؛ لأنها تفتح لهم الشهوات على مصاريعها، لكنهم لا يرضون بما أنزله الله ﷻ في الكتاب الخاتم من نظام يوازن بين متطلبات الروح واحتياجات الجسد، ومطامح الفرد ولوازم الأمة والدولة.

بصيرة: يتبنى الملحدون نظرية (فرويد) الجنسية؛ لأنها تفتح لهم الشهوات على مصاريعها، ولا يرضون بما أنزله الله ﷻ في الكتاب الخاتم من نظام يوازن بين متطلبات الروح واحتياجات الجسد، ومطامح الفرد ولوازم الأمة والدولة.

الحقيقة الثالثة: جعل الله -جلّ في علاه- للجهد الإنساني دورًا عظيمًا في الحماية من الشيطان، وخاصة قبل أن يقع في المعصية؛ إذ يستطيع أن يجاهد نوازع السوء، وإغراءات الشيطان، وعند الوقوع في المعصية يستطيع كذلك أن يرجع إلى الله ﷻ رجوعًا حسنًا، ويعترف بظلمه دون حاجة لقيس، أو شيخ، أو ولي، أو أي واسطة، كما رجع آدم وزوجه ﷺ فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ومع هذه اليقظة الإنسانية وأوبئها إلى كنف ربّها ﷻ يبقى السعي الشيطاني ضعيفًا لا قدرة له ولا سلطان، ونبه الحافظ ابن القيم رحمه الله ﷻ إلى أن الله ﷻ قد أخبر «أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٦﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢]، وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه^(١).

(١) إغاثة اللهيان (١/ ٩٨).

الحقيقة الرابعة: على الرغم من التكریم للإنسان إلا أنه يحمل جوانب ضعف يمكن أن ينفذ الشيطان منها ، ويمكن أن تشكّل فخاً أمام القبيل الإبلیسی مثل: عدم معرفته بالغیب، ورغبته في حُبِّ التَّوَسُّسِ، واتباع هواه في حُبِّ اللَّذَّةِ العاجلة، واستغْلَ إبليس ذلك عندما قال لأبونا ﷺ: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

درس إبليس طبيعة الخلق الإنساني جيداً، ووضع خططه بناءً على معرفته بنقاط الضعف الإنسانية، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّالُكُ»^(١)، وفي رواية أبي يعلى قال إبليس عند ذلك: «ظَفِرْتُ خَلْقًا لَا يَتِمَّالُكُ»^(٢).. فهو يخطّط من وقت مبكر تخطيطاً متناهيًا في الذكاء والخبث لينتصر على الإنسانية، في الوقت الذي ترى فيه كثيرًا من الذُّرِّيَّةِ الْآدَمِيَّةِ ينسون إبليس، بل يضحكون على من يذكر إبليس، ثم ما يلبث أحدهم حتى يتحول إلى أن يكون جندياً عنده، بل يحاول التفوق على مكره، حتى يصير شعاره:

وَكُنْتُ فِتًى مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى بِي الْحَالُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

وربما تقول: كيف يمكن للإنسان أن يتخلص من نقاط ضعفه؟

الجواب: لا بد أن يستعين بالله القوي العلي العظيم عبادةً له واستمدادًا للنُّظُمِ والتشريعات التي أنزلها.

(١) مسلم (٢٦١١).

(٢) مسند أبي يعلى (٣٣٢١).



اللقطه العاشرة: بيان حيوية العلاقة بين البشرية والأرض :

وذلك في قول ربنا -تعالى- مجده-: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٥٣)،
ففيها الحياة والموت، ومنها البعث، وذلك يردُّ على فلاسفة النَّاسُخِ، والتائِهين بغيبات لا
يعرفونها إلا تخرُّصًا:

وهذه الآية ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٥٣): جاءت بصورة منطقية في
موضعها، فكأن السامع سمع ما قبلها: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢١) فسأله: وماذا يحدث عندما ينتهي الحين المحدد؟
فتأتى هذه الآية جوابًا، إذ يقول الله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي: الأرض لا في غيرها ﴿تَحْيَوْنَ﴾ أي:
أولًا وثانيًا على ما أنتم عليه بظواهركم وبواطنكم أبدانًا وأزواجًا، ﴿وفِيهَا﴾ أي: كذلك، لا
في غيرها كما أنتم لذلك مُشَاهِدُونَ ﴿تَمُوتُونَ﴾ أي: عندما ينتهي حين كل واحدٍ منكم، فإذا
مُتُّم كان لِلْأَرْوَاحِ تَعَلُّقٌ بِالْأَبْدَانِ بِوَجْهِ ما حَتَّى يَقْعَدَ الْمَيِّتُ فِي الْقَبْرِ، أي: في الحياة البرزخية،
وَيُجِيبُ سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَتَلَدُّ الْأَجْسَادُ بِلَدَّتِهَا، وَتَتَأَلَّمُ بِتَأَلُّمِهَا، فِي الْقَبْرِ اتِّصَالٌ عَلَى هَيْئَةٍ
ما بين الروح والجسد، ولكن هذا الاتصال ليس كاتِّصَالٍ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، بل
يكون الاتصال على هَيْئَةٍ مَعِينَةٍ لا نَعْلَمُهَا، فَأُشِيرُ إِلَى الْحَشْرِ مَعَ تَفْصِيلِ حَالِ الْكَوْنِ فِي
الْأَرْضِ، وَخُتِمَتِ الْقِصَّةُ بِمَا ابْتَدَأَتْ بِهِ مِنَ الْإِعْلَامِ بِالْبَعْثِ فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا﴾ فَقَدَّمَ
الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ لِلْحَصْرِ أَيْ: لَا مِنْ غَيْرِهَا ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي: رُوحًا وَبَدَنًا بَعْدَ مَوْتِكُمْ فِيهَا
وَعَوَدِكُمْ إِلَى ما كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَوَّلًا تَرَابًا، فَتُخْرَجُونَ لِلْجَزَاءِ وَإِظْهَارِ ثَمَرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي قُمْتُمْ بِهَا
فِي الْأَرْضِ^(١).

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٧٧/٧).



وَيُصَرِّحُنَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ لِلْبَشَرِيَّةِ عِلَاقَتَهُمْ بِالْأَرْضِ، فِيهَا الْحَيَاةُ، وَفِيهَا الْمَوْتُ، وَمِنْهَا الْبَعْثُ، وَبِذَا صَارَتْ الْأَرْضُ مُسْتَقَرًّا لَهُمْ كَمَا هِيَ مُسْتَقَرٌّ لِأَعْدَائِهِمْ مِنَ الْجَنِّ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ وَحَالِ مَوْتِهِمْ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦].

الْأَرْضُ مُضْجَعُنَا وَكَانَتْ أَمْنًا فِيهَا مَعَايِشُنَا وَفِيهَا نُقْبَرُ^(١) بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِيَّةِ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ حَتَّى لَا تُضَلَّهِمُ الْأَهْوَاءُ وَالتَّخَرُّصَاتُ الْغَيْبِيَّةُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنِ الْغَيْبِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ يَعَادُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَيْهَا حَتَّى مِنْ احْتَرَقَ أَوْ أُحْرِقَ، وَأَنَّهُمْ مِنْهَا يُخْرَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَا الْقَرَأَنِيَّةُ تُبْطِلُ قَوْلَ فَلَاسِفَةِ التَّنَاسُخِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ تُنْسخُ رُوحُهُ مِنْ جَسَدِهِ الْأَوَّلِ إِلَى جَسَدٍ آخَرَ رُبَّمَا يَكُونُ بَشَرًا، وَرُبَّمَا يَكُونُ حَيَوَانًا أَوْ جَمَادًا إِذَا كَانَ عَاصِيًّا فِي حَيَاتِهِ، وَبَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْكَوَاكِبِ أَوْ تَتَحَوَّلُ إِلَى هَيْئَةٍ مَلَائِكِيَّةٍ إِذَا كَانَ صَاحِبُهَا طَيِّبًا.

وَتَرَدُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمَلْحِدِينَ الضَّائِعِينَ التَّائِهِينَ بِغَيْبِيَّاتٍ لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا تَخَرُّصًا، فَاللَّهُ ﷻ بَيَّنَّ لَنَا الْحَقَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيْنَمَا هُمْ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَهَا. كَمَا أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَرَدُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ انْتِهَاءَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، فَالرُّوحُ تَعُودُ إِلَى جَسَدٍ يَعِيدُهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى هَيْئَةٍ أَقْوَى مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

وَقَدْ تَسَاءَلَ عَنِ الْقَرَأَتِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُخْرَجُونَ﴾، فَهَلْ تَصَوَّرَ لَنَا أَكْثَرَ مِنْ مَشْهَدٍ؟

الجواب: نعم! ففيها مشهدان تَوْضُحُهُمَا قَرَأَتَانِ^(٢):

(١) الْبَيْتُ لِأُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، يَنْظُرُ: رِبْعُ الْأَبْرَارِ وَنُصُوصُ الْأَخْيَارِ، (١/ ١٦٧).

(٢) يَنْظُرُ: النُّشْرُ فِي الْقَرَأَتِ الْعَشْرِ (٢/ ٢٦٧).

المشهد الأول: توضّحه قراءة الجمهور بضم التاء وفتح الراء على البناء لما لم يُسمَّ فاعله ﴿تُخْرِجُونَ﴾، فلم تحدّد لنا هذه الآية الفاعل، لماذا؟ لتعدّد الفاعلين في إخراجهم: فالله يخرجهم بأمره وإقداره من الأرض التي دفنوا فيها، أو تفرّقت أجسادهم في ترابها، والملائكة الموكّلة بذلك تنفذ الأمر الإلهي، والأرض تُخرج أثقالها، فتقذف بهم.

المشهد الثاني: توضّحه قراءة ابن ذكوان وحَمْزَة والكِسَائِيّ ويعقوب وخلف العاشر ﴿تَخْرِجُونَ﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الرَّاءِ، لأن الله ﷻ يعيد خلقهم كما بدأه أول مرة فينهبون ولا يجدون ملجأً أو مفرّاً إلا أن يخرجوا من الأرض، فهم يُخْرِجُونَ، فتقذف بهم الأرض، فيخرجون عند ذلك، فيقول الظالمون: ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، فيناديهم منادي الحق: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، فيُخْرِجُونَ وَيُخْرِجُونَ، ثم يدفعون دفعاً، ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطُّور: ١٣]، أما المفلحون، فيخرجون كما وصفهم الله تعالى: ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، اللهم اجعلنا في أرفعهم درجةً، وأعلاهم منزلةً.

وقد تتساءل: كيف يرُدُّ هذا القانون القرآني: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ﴾ (٢٥) على كهنه الإلحاد ومحترفي التزوير العلمي الذين يرون وجود الإنسان عبثاً؟

الجواب: ترى بعض كهنه الإلحاد يُحَقِّقُونَ من الوجود الإنساني، فيقولون: الجنس البشري مجرد وسخ كيميائي موجود فوق كوكب متوسط الحجم -هكذا قال (ستيفن هوكينج)- ويعتبرون أن وجود الإنسان كان صدفةً وعبثاً محضاً.

إن هؤلاء العابثين بالعقول لا يعرفون الله سبحانه، ولا يُقدرونه حقَّ قدره، بل مشكلتهم الحقيقية أنهم لا يريدون أن يتعرفوا إليه، كما أنهم لا يعرفون أنفسهم؛ فيريدون أن يتخذوا

أهواءهم آلهة، أما نحن فقد عرفنا طبيعة الوجود المخلوق، وعرفنا أن الخالق أخبر الإنسان عن رحلته في الأرض، ولخصها في هذه الكلمات الأربع، فقال:

الأولى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٤].

الثانية: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ ۖ﴾.

الثالثة: ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ ۖ﴾.

الرابعة: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

الكون الكبير الفسيح حولنا يجعلنا نشعر بأن الموطن الذي نعيش فيه لا يزيد على جزء من مليون جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحار العالم! لكننا عرفنا خالق السموات والأرض الذي أنبأنا بالغيب الصادق عن رحلة البشريّة وطبيعة وجودها، وهنا يحدث لنا الاطمئنان مهما تغيرت الحوادث.

اكتمال الصور من خلال الجمع بين آيات السُّور (مشهد التوبة أنموذجاً):

ولا بد أن تتساءل بتلهف: لماذا اختلفت طريقة سرد الأحداث بين سورة البقرة وسورة

الأعراف في هذا المشهد العظيم: مشهد التوبة؟

الجواب: اختلفت الطريقة لأن الله -تعالى مَلِكُهُ- نقل لنا في كلِّ سورة ما يناسب فكرتها وجوّها العام، وليحدث التكامل في الصورة، وتشاهد المشاهد الكليّة للقصة من خلال الجمع بين الآيات، ويمكن أن ترتّب الأحداث التي نقلتها لنا الآيات على النحو الآتي:

اللقطة الأولى: تنقلها سورة الأعراف إذ قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ﴾.

اللقطة الثانية: بمجرد أن ذاقا الشجرة حانت ساعة إخراجهما من الجنة، وتصوّر لنا ذلك

سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦].

اللقطة الثالثة: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وبعد هذه المناداة لا يتوقع أن آدم وزوجه ﷺ استطاعا الجواب بيسر، فالمتوقع أن يغلبهما الحياء، فلا يستطيعان الرد، وهنا تأتي:

اللقطة الرابعة: تنقلها لنا سورة البقرة؛ إذ أَلْهَمَ اللهُ ﷻ آدم وزوجه ﷺ بفضلِهِ ورحمته الأمر الذي ينبغي أن يفعلاه أمام معاتبته لهما، فقال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وبعد أن ألهمهما الله ﷻ الكلمات التي ينبغي أن يقولاهما ردداً لتلك الكلمات، وهنا تأتي:

اللقطة الخامسة: تنقلها لنا سورة الأعراف إذ توضّح لنا الكلمات التي قالها آدم وزوجه ﷺ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وبعد أن قالوا كلمات التوبة العظيمة وشعرا بها، يصور الله ﷻ لنا أنه قَبِلَ منهما التوبة، وهنا تأتي:

اللقطة السادسة: قبول التوبة: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وبعد أن تاب عليهما أعلن لهما ولإبليس أن ساعة الهبوط إلى الأرض قد حانت، وهنا تأتي:

اللقطة السابعة: بيّن الله ﷻ لهما طبيعة الحياة الجديدة في الأرض من الناحية الماديّة والجسديّة، فذكر القوانين الأربعة للحياة في الأرض: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۚ قَالَ فِيهَا تُحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

وبعد ذكر القوانين العامّة، أخبرهم أنه لن يترك الأرض من أن ينزل عليها هدايه، ومنهج الذي يجب على من أراد الحياة الحقيقيّة أن يسير عليه، فجاءت:

اللقطة الثامنة: بَيْنَ اللَّهِ ﷻ لَهُمُ الْمَنْهَجُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

هكذا اكتملت الصورة الكلية التي أظهرتها السورتان: البقرة والأعراف. وما أجملها من مناسبة عندما تتنوع المشاهد في السور للتنشيط، ولأجل الجمع المتدبر بين الآيات حسب الترتيب المصحفي، حيث يجيء الإجمال بعد التفصيل، والتفصيل بعد الإجمال، ولكلِّ مقامٍ مقال.

من مشاهد هيمنة القرآن على التوراة الحالية في قصة بدء بني الإنسان:

وبهذه النهاية السعيدة لقصة بدء الإنسانية في الأرض تشعر بالكرامة التي حباها الله ﷻ بها الإنسان والمكانة التي جعلها الله ﷻ له، وتحسُّ برحمة الله العظيم تغمرك وتحيط بك، فقد تساءل: قد عرفنا أن عصيان آدم وزوجه ﷺ بالأكل من الشجرة ثم توبتهما من ذلك كان علامةً على الهبوط إلى الأرض حيث كُلف آدم ﷺ بأن يكون فيها خليفة، فكيف كانت القصة في التوراة الحالية؟

الجواب: لا تلمس مثل هذا الشعور في نهاية القصة نفسها عندما تقرأ الرواية التوراتية المحرَّفة:

ففي سفر التكوين ٣ تنقل لنا التوراة الحالية قصة مشوهة تلقي باللوم على المرأة في خطيئة آدم ﷺ خلافاً للرؤية القرآنية:

١٣ فَقَالَ الرَّبُّ إِلَهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». التعليق: جعلت القصة المرأة هي من أضلَّ الرجل، وأثر هذا الاعتقاد تأثيراً كبيراً في نظرة الغرب الهمجية نحو المرأة في عصورهم المظلمة، وفي زمن النهضة الصناعية الحالية، ففي

عصورهم المظلمة كانوا ينظرون إليها باعتبارها رجساً، وفي زمن النهضة الصناعية رفعوا شعار تحريرها للتلاعب بجسدها، ولذلك شجعت مجتمعات المتعة والكسب المالي على قتل الأطفال باسم حرية الإجهاض في جريمة هي أشنع جرائم التاريخ.

ثم واصل سماع القصة من سفر التكوين لتجدها تصور لنا عقوبة مادية تلقفتها الحية:

١٤ فَقَالَ الرَّبُّ إِلَهُ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وَحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.

١٥ وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ».

التعليق: إذا كانت الحية قد تلقت عقوبتها فأين إبليس؟ وكيف أبرزت العداوة بين المرأة والحية، ولم يذكر إبليس أبداً؟ كيف تُخفى شخصية الشيطان وتبرز قصة الحية؟

مع أنني لا أميل إلى إثبات شيء غيبي بغير علم، بل الدور البارز كان لإبليس.

ويذكر السُّدِّيُّ رحمته الله في هذه الآية ﴿أَهْطَوْا بِعُضُكُم لِبَعْضِ عَدُوِّ ۖ﴾ أن الخطاب كان لأطراف مختلفة، فيقول: «فلعن الحية، وقطع قوائمها، وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب، وأهبطوا إلى الأرض: آدم، وحواء، وإبليس، والحية»^(١).

ونقول للسُّدِّي: لكننا لا نجد ذكراً للحية في القرآن المجيد، ولا يظهر لنا دليل جلي على إثبات دور ما لها في هذه القصة، بل إن ذكرها يغطي على العدو الحقيقي وهو إبليس، والسُّدِّي إن صح هذا عنه، فهو يأخذ من أهل الكتاب دون تحقيق.

(١) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٢٩٥/٥)، وضعه إسلام منصور.

أما حديث ابن عباسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةً طَلَبَهُنَّ فَلَيْسَ مِنَّا، مَا سَأَلَمْنَاهُنَّ مِنْهُ حَارِبْنَاهُنَّ»^(١)، فيتحدث عن طبيعة التوحش بين البشر والحيات إذا تواجها مع وجود كثيرٍ منهن في أماكن قريبة من حياة البشر.

ويطيب للغنوصيين حشر الحيّة في القصة وإسناد دور قوي لها فيها-بحسب المفكر المسيحي-، والغنوصية تميل إجمالاً إلى تقديس الشخصيات الملعونة في العهد القديم، ومنها الحيّة؛ إذ يعتبرونها رمز تحدي الخالق، ورفض الحدود والشرعية، ورفض الجهل الذي ضربه الإله الصانع على الإنسان^(٢)، إلى غير ذلك من الهرطقة والدجل.

نواصل القصة من سفر التكوين لنجد أن المرأة تلقت عقوبتها:

١٦ وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «كَثِيرًا أَكْثَرُ أَتْعَابَ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا.

التعليق: بدلاً من أن يكون الإنجاب نعمة أصبح عقوبة حسب هذه القصة المحرّفة، ولا يوجد في القرآن ما يدل على أن الولادة وآلامها سببه ما وقعت فيه حواء عليها السلام مع زوجها، بل يوجد أن الله ﷻ كتب على النساء هذه الطبيعة، وبين الله ﷻ في القرآن أنه تاب على حواء عليها السلام كما تاب على زوجها عليه السلام عندما ردّدا كلمات التوبة العظيمة، وأهبطهما الأرض، وتعال نكمل القصة في التوراة:

وإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيقَاكَ، وَهُوَ يَسْوَدُ عَلَيْكَ».

التعليق: ذكرت الترجمة العربية لهذه الطبعة التي نقل منها أن الرجل يسود عليها، بينما تجد القرآن يعبر عن علاقة الرجل بالمرأة بلفظ "القوامة"، والقوامة تعني أنه يقوم عليها، وينهض بأعبائها، ويضمن لها الراحة مقابل أن يتعب لأجل ذلك، وفرق عظيم بين التعبيرين:

(١) أحمد (٢٠٣٧) وصحّح إسناده الأرناؤوط، والألباني في صحيح الجامع الصغير (٦١٤١).

(٢) موسوعة اليهود واليهودية، المسيحي، (١٣/ ١٠٤).

السيادة، والقوامة، وللأسف فإن بعض المفسرين تأثر بهذا اللفظ التوراتي المُحَرَّف، وجعل القوامة بمعنى الإمارة، وفرق عظيم بين القوامة وبين الإمارة.

واصل لترى الأعرب:

١٧ وَقَالَ لَادَمَ: «لَإِنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ١٨ وَشَوْكًَا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ.

١٩ بِعَرَقٍ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

التعليق: ما ذنب الأرض حتى تعاقب ولا يعاقب آدم عليه السلام؟ ولكننا نرى في القرآن أن الأرض مباركة، وأن آدم عليه السلام أهبط ليقوم بدوره فيها خلال مدة اختباره مع زوجته عليها السلام، ثم لماذا لم تذكر التوراة شيئاً عن توبته وتوبة الله تعالى عليه وعلى زوجته عليها السلام؟ أمّا في القرآن فقد تاب آدم عليه السلام، وتاب الله تعالى عليه وعلى زوجته عليها السلام، وأهبطا إلى الأرض التي بارك الله في أقواتها، وجعل للإنسان تمكيناً فيها.

وكذلك يذكر أن ما سيلقاه آدم وزوجه عليها السلام على الأرض من العناء، يكون عقوبة على ما ارتكباه من معصية، ولا يظهر لي صحة مثل هذه التفاسير؛ لأن فيها لبساً كثيراً:

أما أولاً: فلائها غيب، ففتنقر إلى نقلٍ مصدّق، وأما ثانياً: فلائهما تابا، ونجد عتاباً لطيفاً في القرآن أعقبه بيان أن الله تعالى تاب عليهما، بينما نجد ذكراً لِلْعَنَةِ في التوراة، وأما ثالثاً: فقد أخبر الله تعالى آدم عليه السلام أنه سينزل إلى الأرض؛ لأن مخطط الهبوط إلى الأرض كان مقدراً سابقاً، وبين الله تعالى أنه سيخلق آدم عليه السلام لأجل ذلك، وأخبر الملائكة عليهم السلام عن ذلك، وكان أكله من الشجرة علامة على انتهاء المدة المؤقتة التي قضاه في الجنة.

تواصل الرواية لتجد:

٢١ وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لَادَمَ وَامْرَأَتِهِ أَفْصَصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا.

٢٢ وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: «هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ».

٢٣ فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا.

٢٤ فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكُرُوبِيمَ، وَلَهَبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.

التعليق: تشعر بأن الجنة المذكورة في التوراة لم يهبط منها آدم وزوجه ﷺ بل أُخرجوا، بينما نجد في الرؤية القرآنية: إهباطًا، وإخراجًا.

وتلمس من النص التوراتي أنه يمكن الوصول إلى الجنة، ولذلك وضعت حراسة حولها، بينما نعلم في القرآن أن الجنة في مكان لا يمكن الوصول إليه إلا عندما يُزَفُّ المفلحون في الآخرة إليها.. اللهم اجعلنا في أوائلهم.

وترى في النص التوراتي هذا القول الغريب الذي فيه خوفٌ من الإنسان: «هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ».

بينما في القرآن خلق الله تعالى الإنسان، وميّزه بالمعرفة حتى أبان فضله بذلك أمام الملائكة، وبيّن له مستقرّه في الأرض وتمتّعهُ بها، فهل تستوي القِصَّتَانِ؟ ثم لماذا لم يمت الإنسان عندما أكل من الشجرة كما قصّت علينا التوراة المعاصرة أن الله ﷻ قال ذلك مهددًا آدم لو أكل منها؟



هذا النصُّ التوراتي يشعرك أيضًا بأن آدم عليه السلام وذريته يمكن أن يصلوا إلى شجرة الحياة، وأن هناك حراسة فقط تحول بينه وبين ذلك، والعجيب أنك تجد في قصص الإغريق الوثنية أن البشر يحاولون الوصول إلى جنة الآلهة المفتراة، وأن بعضهم وصلها، فهل كاتبُ التوراة المعاصرة متأثر بأساطير الوثنيين.

أثَّرت هذه النصوص التوراتية المحرفة في إيجاد التفكير الخطأ لدى أتباعها، حتى ظنوا أن الوصول إلى الجنة إنما يكون بالخداع والكذب والاستماع لنصائح إبليس الذي أخفوه في شخصية الحية، وترى الرؤية القرآنية تظهر لك أنوارها بعيدًا عن هذه الأكاذيب.

المرحلة الزمنية الثالثة

3

الحياة في الأرض، وأهم النداءات الإلهية لبني آدم عليه السلام

[الأعراف: 26-36]

التمتع بالجمال الظاهري والباطني

نداء
[1]

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا تَقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 26]

يتعلق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله

نداء
[2]

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ...﴾ [الأعراف: 27-30]

وصية الذرية الادمية بالتمتع المشروع بزينه الحياة الدنيا بالقسط

نداء
[3]

فهي مقدمة للتمتع الحقيقي المادي والمعنوي في الآخرة ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا

زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ [الأعراف: 31-34]

منهج الحياة في العيش على الأرض يجب أن يكون مصدره الله عز وجل

نداء
[4]

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ...﴾ [الأعراف: 35-36]

عَبَّادُ السَّلَامِ مَقْبِلُ الْحِجَرِ

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

المرحلة الثالثة

الحياة في الأرض، وأهم النداءات الإلهية لبني آدم عليه السلام، ليفهموا طبيعتها وجمالها، ولينتبهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله [الأعراف: ٢٦-٣٦]، وهي أربعة نداءات

آيات هذه المرحلة:

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِىْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ عَائِدَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ۝٢٦﴾ يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا اِنَّهُ يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاً لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝٢٧ وَاِذَا فَعَلُوْا فَحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْنَا اٰبَاءَنَا وَاللّٰهُ اَمْرًا بِهَا قُلْ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ اَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝٢٨ قُلْ اَمَرَ رَبِّيْ بِالْقِسْطِ وَاَقِيْمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَاَدْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدٰى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ اِنَّهُمْ اَتَّخَذُوْا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاً مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ۝٣٠ * يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ۝٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللّٰهِ الَّتِيْ اُخْرِجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ۝٣٢ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَالْاِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ اَنْ تُشْرِكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَاَنْ تَقُوْلُوْا عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝٣٣ وَلِكُلِّ اُمَّةٍ اَجَلٌ فَاِذَا جَآءَ اَجْلُهُمْ لَا يَسْتَاْخِرُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ ۝٣٤ يَبْنِيْ عَادَمَ اِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمَنْ اَتَقٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ۝٣٥ وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ

﴿[الأعراف: ٢٦-٣٦].﴾

المناسبة والاتصال:

أول سؤال يطرأ هنا: ما المناسبة والاتصال بين هذه المرحلة التاريخية والمرحلة السابقة؟

الجواب: ترى الترتيب المنطقي السلس العذب الذي يحقق المقصد الأعلى لسورة الأعراف المباركة، فقد بدأ الله ﷻ السُّورَةَ بالمقدمة التي تبين خصائص الكتاب الذي يحمي البشرية من المخاطر الواقعة والمتوقعة، ثم جاء المحور الأول بالمرحلة الأولى من مراحل التاريخ البشري، حيث هيأ الله ﷻ الأرض لاستقبال البشرية، فقال: ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ثم خلق الله ﷻ آدم ﷺ، وكرمه بأن أسجد له ملائكته، وفي هذه المرحلة أظهر الله ﷻ آدم ﷻ عدوه الأول الأكبر وهو إبليس، وصوّر لنا خطته الخطيرة لإضلال البشرية تصويراً دقيقاً، حدّد فيها المعالم الأساسية التي يريد من خلالها تدمير بني آدم ﷻ، ثم جاءت المرحلة التاريخية الثانية حيث أسكن الله ﷻ آدم وزوجه الجنة ليقضيا مدّة تدريبية قبل الهبوط إلى الأرض، ووضع لهما نظاماً كاملاً في ذلك المكان ليتدربا على تنظيم حياتهما، وعلى الرغم من تحذير الله ﷻ لهما من خطر إبليس وعداوته، إلا أن إبليس وسوس لهما، فوقعوا في خداعه، واقتربا من الشجرة المحرمة، وأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما، ولكنهما لم يكابرا بل رجعا إلى الله تعالى تائبين، واعترفا بأنهما ظلما أنفسهما، وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وبذلك استطاعا أن يقلبا الخسارة أمام إبليس إلى انتصار، وهنا أخبرهما الله ﷻ بأن هذه هي اللحظة الفاصلة ليهبطا إلى الأرض إذ وضع لهما قوانين عامّة تعينهما على العيش في الأرض، وتساعدهما على فهم الحياة فيها إلى أن يجيء يوم البعث الأعظم: ﴿وَلَكُمْ فِي

الْأَرْضُ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٤﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٤-٢٥].

وبعد أن أظهر الله ﷻ للبشريّة طبيعة أول معركة بينهم وبين إبليس، وأخبرهم عن حقيقة استقرارهم في الأرض نقل البشريّة ليتعرفوا من القرآن عن المرحلة الثالثة من مراحل وجودهم، وهي مرحلة الاستقرار في الأرض بعد أن أُهبط أبوانا ﷺ إليها.

الفكرة الإجمالية لهذا المحور:

يحدثنا الله ﷻ في هذه المرحلة عن الحياة في الأرض، فما الفكرة الإجمالية لهذه المرحلة التاريخية التي تشمل عُمر كلِّ إنسان؟

الجواب: في هذه المرحلة ينزل الله ﷻ علينا مزيداً من رحمته جلّ ذكره، فيوجّه الله ﷻ أربعة نداءات إلهية تُكوّن أربعة أبواب دستورية للنجاح في مرحلة العيش على الأرض، وتضمنت توصيات وقوانين تفصيلية في الحياة الإنسانيّة تُوصِلُ إلى تحقيق الفلاح، وتحقّق هذه الأبواب الدستورية الأربعة ثلاثة أهداف لفهم الحياة:

الهدف الأول: طبيعة الحياة الأدميّة على الأرض، وكيف نجد فيها المستقرّ والمتاع، لنحقّق الشكر الأكبر لربّنا ﷻ الذي حباننا بكلّ شيء، وبين السُّبُل التي بها نجد الكرامة التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٥]، وكيف نحقّق التمكين في الأرض، ونقيم عمرانها، ممّا جعله لنا من مقاصد الحياة في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٠].

الهدف الثاني: طبيعة المعركة الدائمة بيننا وبين القوى الإبليسية، كما كانت مع أبوانا ﷻ نكون على حذر، ولا نقع في الغفلة عن عدوّنا، ولنحمي أنفسنا من الوقوع في فخاخ إبليس.

الهدف الثالث: طبيعة المستقبل القادم الذي ينتظرهم في الآخرة.

فالنداء الأول، وهو الباب الدستوري الأول: يتعلّق بالتمتع بالجمال الظاهري والباطني: حيث أنزل الله ﷻ الأدوات اللازمة لستر العورات الجسديّة والقلبية، وجمال الحياة الإنسانيّة على الأرض ظاهراً وباطناً: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكْ خَيْرٌ ذَلِكْ مِنْ عَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقد أنعم الله ﷻ علينا بأربعة أنواع من الألبسة:

- اللباس الحسي اللازم لستر العورات: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ﴾.
- لباس الزينة الزائد عن اللازم الذي يضمن الرقي في الحياة والترفّه والتلذذ بالأثاث: ﴿وَرِيْشًا﴾.
- وكذلك أنعم علينا باللباس الحقيقي المعنوي الذي يتكفّل ببناء الحياة النفسية: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكْ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]،
- ولباس التقوى الحربية لتقي شرّ المعارك.

والنداء الثاني، وهو الباب الدستوري الثاني: يتعلّق بطبيعة المعركة مع إبليس، وأساليبه في فتنة بني آدم ﷺ، وتعلّق به عدد من القوانين:

- (١) فهو حريص على أن يفتننا كما فتن أبونا ليُدْمِر حياتنا في الأرض كما أخرج أبونا ﷺ من الجنة: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.
- (٢) وهو يركّز على حرص إبليس على فضيحة بني آدم ﷺ بإظهار السوءات الحسيّة والمعنويّة: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا﴾.
- (٣) وأظهر الله ﷻ لنا أهمّ أسلحة إبليس وقبيله، وهو قدرتهم على العمل بخفاء دون تمكّنا من رؤيتهم بالأعين، فيقلّ حذرنا منهم: ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

(٤) ولذا يقع الذين لا يؤمنون بآيات الله ﷻ في فخ إبليس وولايته: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

(٥) وحذرنا الله ﷻ من أن الذين لا يؤمنون يحرسون على تطبيع حياتنا مع الفاحشة، ويكذبون فيجعلونها مما أمر الله ﷻ به؛ تحقيقاً لأهداف إبليس ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

والنداء الثالث، وهو الباب الدستوري الثالث: يتعلق بالتمتع المشروع بزينه الحياة الدنيا بالقسط، إذ:

(١) أمر الله ﷻ بأن نأخذ الزينة في اللباس عندما نؤدي العبادات فضلاً عن العادات: ﴿يَبْيَنِّي عَادِمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(٢) وبالتلذذ بالطعام والشراب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

(٣) على أن نحذر من الإسراف في ذلك كله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(٤) فلم يحرم الله ﷻ الزينة، بل امتن بها على الإنسانية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، (وعندما يحرم الله عز وجل أشياء فإنه يجعلها محصورة معروفة).

والنداء الرابع، وهو الباب الدستوري الرابع: يتعلق بتربية البشرية على التقوى والإصلاح، ولا يمكن ذلك أن يتحقق على وجهه الحق إلا باتباع آيات الله ﷻ التي أرسل بها الأنبياء ﷺ، فهي مفتاح السعادة في المصير الأخروي:



﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ اِمًا يَّاتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمَنْ اَتَقٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ﴾ [الْاَعْرَاف: ٣٥-٣٦].

هكذا استوعبت هذه النداءات الأربعة كلَّ معالم الحياة على الأرض في زمن الحياة الدُّنيا، وبيَّنت للذُّرِّيَّةِ الْاَدَمِيَّةِ كيف يعبدون ربَّهم ﷻ ويستمتعون بحياتهم، وكيف يُعدُّون أنفسهم للمصير الآخرى القادم.

فلنذهب إلى تفاصيل بصائر هذه النداءات:



النداء الأول: التمتع بالجمال الظاهري والباطني

القوانين التي تضمنها النداء الأول

﴿يَبْنِيٰ ۡءَادَمَۙ قَدْۢ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّورِیۡ سَوْۤءَتَکُمْ وَرِیْشًا وَلِبَاسًا لِّلتَّقَوٰی ذٰلِکَ خَیْرٌۭ﴾ [الاعراف: 26]

القانون الثاني

يجب على الإنسانية الاستفادة من أنواع الألبسة الأربعة التي أنزلها الله عز وجل عليها، فائننان يرجعان إلى اللباس الحسي المادي، أولهما: اللباس الظاهري الأساسي: ﴿قَدْۢ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّورِیۡ سَوْۤءَتَکُمْ﴾

القانون الأول

نسبة البشرية لآدم عليه السلام: ﴿يَبْنِيٰ ۡءَادَمَ﴾
تثبت انتقال التكريم إلينا، والمساواة بيننا.

القانون الرابع

الستر والتجمل فطرة ملازمة للإنسانية: ﴿يَبْنِيٰ ۡءَادَمَۙ قَدْۢ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّورِیۡ سَوْۤءَتَکُمْ وَرِیْشًا﴾.

القانون الثالث

تزدان حياة البشرية وترسخ في الحضارة والرفي الإنساني بلزوم النوع الثاني من أنواع الألبسة: اللباس الظاهري التكميلي: ﴿قَدْۢ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّورِیۡ سَوْۤءَتَکُمْ وَرِیْشًا﴾.

القانون السادس

الامتنان بانزال الملابس المادية والمعنوية يدل على ضرورة السعي لتحصيل المُمْتَنِّ به فينبغي للبشرية البحث عن السُّبُل المختلفة لصنع الألبسة والريش، والبحث عن لباس التقوى أيضًا: ﴿يَبْنِيٰ ۡءَادَمَۙ قَدْۢ اَنْزَلْنَا عَلَیْكُمْ لِبَاسًا یُّورِیۡ سَوْۤءَتَکُمْ وَرِیْشًا﴾.

القانون الخامس

أصل اللباس والريش منه من الله على خلقه قبل هبوطهم إلى الأرض: ﴿اَنْزَلْنَا﴾.

القانون الثامن

النوع الرابع: لباس التقوى الدفاعية، وهو كلُّ لباس بقي من الإبداء والاعتداءات المدمرة، مثل الدروع، كما قال بذلك بعض المفسرين ﴿وَلِبَاسًا لِّلتَّقَوٰی﴾.

القانون السابع

يجب على البشرية أن تتمتع بلباس التقوى الإيمانية، وهذا هو النوع الثالث من الألبسة: ﴿وَلِبَاسًا لِّلتَّقَوٰی ذٰلِکَ خَیْرٌۭ ذٰلِکَ مِنْۢ ءَاثِیۡبِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُوۡنَ﴾.

تَعَبُّرُ الْبَشَرِ إِلَى الْاِعْرَافِ

مُفَصِّلَاتُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْاِعْرَافِ (٢)

هذا النداء هو الباب الدستوري الأول، ويتعلّق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات الجسديّة والقلبيّة، وجمال الحياة الإنسانيّة على الأرض ظاهراً وباطناً: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سُوْءَ بَشَرِكُمْ وَرِيْثًا وَلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وتضمّن عدداً من القوانين:

فأول ما تراه في الآية قوله -تعالى ذِكْرُهُ-: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ﴾، فما القوانين الذي تحويه هاتان الكلمتان؟

القانون الأول: نسبة البشرية لآدم ﷺ: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ﴾ تثبت انتقال التكريم إلينا، والمساواة بيننا، فنحن من أصل واحد، وورثنا الاستقرار والتمتع في الأرض، كما ورثنا العداوة لإبليس وقبيله:

انظر للنسبة ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ﴾: تجد أن نسبة الإنسان إلى أَحَدِ أَجْدَادِهِ معتاد، فقد تنسب إلى الجَدِّ الَّذِي صَارَ رَئِيسَ الْقَبِيْلَةِ أَوِ الْعَشِيْرَةِ الْكَبِيْرَةِ الَّتِي انْحَصَرَ نَسَبُهَا فِيْهِ كَقُرَيْشٍ، وقد تنسب إلى الجد الذي استوطن مكاناً مثل: عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي، أو أقام دولة مثل: عُثْمَانُ مُؤَسَّسِ السَّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، أَوِ الَّذِي لَهُ صِفَةٌ مُمَيِّزَةٌ، أما النسبة إلى آدم ﷺ فتُذَكِّرُ بني آدم بكلِّ فضائل أبويهم، وبأصلهم المشترك الواحد^(١).

فهذا النداء الذي يُنسب البشرية لآدم ﷺ ورد في سياقٍ يتضمّن وصايا وقوانين قيّمة للبشريّة؛ فالنسبة للتكريم والتشريف، ولو كان السياق يتضمّن عتاباً أو يتضمّن تهديداً لكانت النسبة ربّما للتحقير أو للتهديد، لكن السياق هنا يتضمّن وصايا وقوانين قيّمة للبشريّة، وجاء بعد بيان توبة أبوينا ﷺ، فالنسبة تُذَكِّرُنَا بتكريمهما، فهو تكريم لنا.

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٢١).

ونسبة المخاطبين لآدم عليه السلام تذيب الحواجز المصطنعة بينهم، وتهدم نوازع التعالي والنظرة التَّرجسية للذات بأيِّ دعوى من الدعاوى، وتسقط جميع ما شَيَّده مُدْعُو التفضيل بمقتضى النُّطفة، أو السُّلالة أو الجنس أو العرق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تؤسِّس للإخاء الإنساني الواسع المُشعر بواحدية الرَّحِم والأصل الآدمي.

وهناك ملُمَحٌّ آخر في النسبة إلى آدم عليه السلام، فهذه النسبة إلى الأب الأول تنبئك أنه ليس قبله أَوَادِمٌ^(١) أو أصولاً غير آدمية، كما يحاول كثير من الملحدين الداروينيين ومن تابعهم من التائهين أن يقنعوا الناس بنظريات مفبركة كاذبة، وخرافات يخترعونها من عند أنفسهم عن "أصل الأنواع" كنظرية التطور الدارويني، والجديد في هذه النظريات التائهة أنهم يُلبسونها ستار العلم، بل يجعلونها سلطاناً يضرّبون به كلّ من يخالفهم، ويقولون: إنها في حيز القطعية، مع أنه لا يوجد دليل واحدٌ مقنع يدلُّ على صِحَّتِها.

﴿يَبْنَىٰ ۖءَادَمَ﴾: يشعرك بآلاء الرحمة الإلهية تحيط بك، فكما نادى ربُّنا الملك الحقُّ أَبَوَي الذرية الآدمية فقال: ﴿وَيَعَادَمُ ۖأَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] ، كذلك نادى الله ﷻ الذرية الآدمية هذه النداءات الأربعة.

والخطاب ﴿يَبْنَىٰ ۖءَادَمَ﴾ للبشرية جمعاء؛ تأكيداً على هذه المشتركات، فلم يأت النداء حصرياً بالمؤمنين ولا غيرهم، وإنما هو خطاب المشترك الإنساني بالحفاظ على أجزائه الأربعة بينهم: (ستر، وغذاء، وتقوى وصلاح).

(١) جمعُ: آدم.

الانتقال في الآية إلى قوله -تعالى مَجْدُهُ-: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرَيْشًا﴾^(١)، وهنا نرى القانون الثاني، فما هذا القانون؟

القانون الثاني: يجب على الإنسانية الاستفادة من أنواع الألبسة الأربعة التي أنزلها الله ﷻ عليها لتعبد الله تعالى وتترقى في حياتها، وتتمكّن من التمتع في الأرض، فاثنتان منها يرجعان إلى اللباس الحسي المادي، وأولهما: اللباس الظاهري الأساسي: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ﴾^(٢):

اللباس من (لَبَسَ) الثَّوبَ^(١) يَلْبَسُهُ بِالْفَتْحِ (لُبْسًا) بِالضَّمِّ، وهي كلمة تدلّ على مُخَالَطَةٍ وَمُدَاخَلَةٍ مع تغطية، واللَّبَاسُ واللَّبُوسُ واللَّبْسُ وَ(الْمَلْبَسُ) بوزن المَذْهَبِ وَ(اللَّبْسُ) أَيْضًا بوزن الدَّبْسِ: ما يُلْبَسُ، وقد أنشد بعضهم:

فَلَمَّا كَشَفْنَ اللَّبْسَ عَنْهُ مَسَحْنَهُ
بِأَطْرَافِ طِفْلِ زَانَ غَيِّلاً مُوشِماً^(٢)

بكسر "اللام" من "اللبس".

فاللباس هو: كل ما يغطي أكثر بدن الإنسان أو بعضه ممّا يُكره ظهوره وإن كان حسناً في ذاته، أو يغطي ما يقبح في الحياة أمام الناس من أمر ماديٍّ أو معنويٍّ، أو ما يزيد جسده حسناً وزينة.

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٣٤)، مختار الصحاح (ص: ٢٧٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٩٥١).

(٢) البيت لحمد بن ثور الهلالي في ديوانه (ص: ٣٥٩)، وفيه: (بان عَبْلاً) بدلاً من (زَانَ غَيِّلاً) ومن تعليق شاكر على الطبري: وقوله: (فلما كشفن اللبس عنه): يعني اليهودج. و(مسحنه): يعني الجوّاري اللواتي صنعتهن وَزَوَّقْنَهُ وَزَيْنَهُ. و(الطِّفْلُ): هو البنّان الناعم، وأراد: مسحنه بأطراف بنان طفل، فجعل (طفلاً) بدلاً من (البنّان) و (الغَيِّلُ): الساعد الريان الممتملي، و(الموشم): عليه الوشم، وكان زينة للجاهلية أبطلها الإسلام، ولعن الله متخذها، رجلاً كان أو امرأة.

وَكُلُّ مَا يَسْتَرُ الْجَسَدَ يَسْمَى لِبَاسًا سِوَاءَ سِتْرِ كَامِلِ الْبَدَنِ، أَوْ جِزْءًا مِنْهُ، فَالْقَمِيصُ لِبَاسٌ، وَالْإِزَارُ لِبَاسٌ، وَالْعِمَامَةُ لِبَاسٌ، وَيُقَالُ: لَيْسَ التَّاجُ، وَلَيْسَ الْخَاتَمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

ولذا جعل الله ﷻ الزوج لزوج لِبَاسًا، فالواحد منهما يمنع الآخر بوجوده وحنانه عن أن يقع في القبائح، ويَجْمَلُ حياته، فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكما أن كلاً منهما لِبَاسٌ للآخر، فقد يسمَّى الواحد إزارًا، كما قال الشاعر:

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا حَفْصٍ رَسُولًا فِدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةً إِزَارِي
قَلَا يَصْنَعُنَا هَذَاكَ اللَّهُ إِلَّا شَغِلْنَا عَنْكُمْ زَمَنَ الْحِصَارِ^(١)

القانون الثالث: تزدان حياة البشرية وترسخ في الحضارة والرقى الإنساني بلزوم النوع الثاني من أنواع الألبسة: اللباس الظاهري التكميلي ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا﴾^(٢)، وهو الريش مثل الأثاث والبطانة والزينة المصاحبة ظاهرًا وباطنًا، وسائر أنواع الأموال:

فبعد قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ تفاجئك كلمة ﴿رِيشًا﴾، وهذه لفظة فيها غرابة تُذَكِّر في سياق المِنَّة بعد اللباس، فما معناها؟

الجواب: الرِّيش^(٣): من قول القائل: "راشه الله يريشه رِيشًا ورِيشًا"، وهي كلمة تدلُّ على حُسْنِ الْحَالِ، وَمَا يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ، فَالرِّيشُ: الْخَيْرُ، وَالرِّيشُ: الْمَالُ، واللفظة استعيرت من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، والطير أجمل أنواع الحيوان بهجة وزينة، فيجمع الريش المنافع، والزينة، والمنظر الأسر الجذاب.

(١) البيتان لأبي المنهال بُقَيْلَةَ الأكبر. ينظر: تاج العروس (١٨ / ١٢١).

(٢) مقاييس اللغة (٢ / ٤٦٦)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٧٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢ / ٨٠٢).



وَيَقَال: رَشْتُ فَلَانًا أَرِيشُهُ رَيْشًا: إِذَا قُمْتَ بِمَصْلَحَةٍ حَالِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

فَرِشْنِي بِخَيْرٍ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي وَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَرِي^(١)

ومنه قيل: أعطاه إبلاً برِيشَهَا، أي: ما عليها من الثياب والآلات، واستعير لإصلاح الأمر، فقيل: رَشْتُ فَلَانًا فَارْتَأَسَ، أي: حَسُنَ حاله، ويطلق الرِّيشُ والرِّيشُ على الخِصْبِ، والمعاش، والمال، والأثاث، واللباس الحسن الفاخر.

ويظهر بذلك أن الرِّيش يُطلق على أنواعٍ من اللباس:

منها: نوع من اللباس الفاخر الحَسَنِ الملمس والمنظر يوضع في الظاهر ليزين الأثاث، وفي الباطن لِيُنْعِمَ اللباس.

ومنها: الأثاث والأدوات مما يُلبس أو يُحشى من فراش أو دثار، ويقولون: إنه لحسن ريش الثياب، وقد يستعمل "الرِّيش" في الخصب ورَفَاهة العيش، قال ابن عباس رضي الله عنه: (الرِّيش): «اللباس، والعيش، والنَّعيم»^(٢)، ويشترك بين اللباس والريش في المعنى، لكن الريش يدل على الأموال المتعددة، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد رضي الله عنه.

وما الفرق بين الريش والرياش؟

قيل هما بمعنى واحد كَاللَّبْسِ وَاللَّبَاسِ، وزعموا أن عثمان رضي الله عنه قرأ: (ورِيشًا)، وهي قراءة قرأ بها أَبُو زَيْدٍ عَنِ الْمُفَضَّلِ عَنْ عَاصِمٍ^(٣)؛ إما على أنه مصدر، أو على أنه جمع ريش كَشَعْبٍ

(١) البيت لسويد بن الصامت، كما في: البيان والتبيين (٣/ ٢٨٧، ٢٨٨)، عيون الأخبار (٣/ ٩٣)، الصداقة والصديق (ص ٩٧، ٩٨)، بيع الأبرار ونصوص الأخبار (١/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٥٦).

(٣) وهي قراءة شاذة. ينظر: جامع البيان في القراءات السبع (٣/ ١٠٨٦).

وَشِعَاب، وَذُئِبٌ وَذُنَاب، ولعل هذه القراءة تفسيرية؛ إذ أسانيد عثمان رضي الله عنه لم تثبت مثل هذه القراءة مع أنه من أكبر حفاظ القرآن المجيد في الأمة.

القانون الرابع: الستر والتجمل فطرة ملازمة للإنسانية: فقله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، يبصّرنا بأن من أهداف التربية القرآنية الاهتمام باللباس والريش.

لعلك تسأل: بين الله تعالى وظيفة اللباس، ولم يبين وظيفة الريش في قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ ٢٦، فما سرُّ ذلك، وما معنى الآية بناء على ذلك؟

الجواب:

معنى الآية: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوءاتكم، ولباساً يُزيّنكم.. وتصور هذه المسألة الجميلة الآن:

لم يمتنَّ الله ﷻ علينا باللباس الضروري، بل امتنَّ باللباس مطلقاً، ثم لم يقف الأمر عند ذلك حتى امتنَّ علينا بناعم اللباس وفاخره وهو الريش، ومما يبرهن لك على أن الاهتمام بالجمال والزينة من مقاصد الإسلام في إسعاد الذرية الآدمية هذه الآية، ومثلها قوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٦ [النحل: ٦]، وقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ٨ [النحل: ٨].

وليس الزهد أن تترك الزينة والأثاث والأموال من أنواع الريش، إنما الزهد أن يُمْلَكَ ثم لا يأسر الإنسان بزخرفته، ولا يكسبه كبراً وخيلاء، ولا يُسرف في طلبه واقتنائه، فيضيع عليه الواجبات الأخرى.

بصيرة: يُبَصِّرُنَا اللهُ ﷻ علينا بذكر الريش في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا﴾ أن الاهتمام بالجمال والزينة من مقاصد الإسلام في إسعاد الذرية الآدمية.

القانون الخامس: أصل اللباس والريش من الله على خلقه قبل هبوطهم إلى الأرض: فتُبَصِّرُنَا كلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ في قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] بأن أصل اللباس والريش لم يكن من الأرض بل امتنَّ اللهُ ﷻ به، فأنزله مع إهباط آدم وزوجه ﷺ:

هنا لا بد أن نتساءل عن قول الله جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ هل لفظة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ على مقتضى ظاهرها، فيكون أصل مواد اللبس والريش من خارج الأرض؟
الجواب: توقّف المفسرون هنا، ورأوا أننا في الواقع نصنع اللباس من جلود الحيوانات ومن ريش الطير، ومن المزروعات والأدوات المتوفرة في الأرض، فكيف نفهم معنى كلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾؟

أصول التفسير وقواعده تعلّمنا أن نحمل الألفاظ على ظاهرها إلا أن يرد دليل آخر يمنع من ذلك، فالإنزال يعني الإنزال، أي: إن الله ﷻ أنزل عناصر هذا اللباس من الأعلى إلى الأرض، وهذا يتوافق تمامًا مع قوله -تعالى جَدَّهُ-: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦]، فجعل الأنعام نازلةً من خارج الأرض فيما يظهر من اللفظ، ومن ذلك قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وذلك يدلُّ على أن الحديد عنصر من خارج الأرض.

ولكن عددًا من مفسرينا رحمہم اللہ حاولوا الخروج عن مقتضى ظاهر الإنزال، فابن جرير الطبري رحمہم اللہ قال:

«يعني بإنزاله عليهم ذلك: خلقه لهم، ورزقه إياهم»^(۱)، وكذلك ذهب الزمخشري رحمہم اللہ إلى أن كلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ ليست على مقتضى الظاهر، فقال: «جعل ما في الأرض مُنزلاً من السماء، لأنه قضى ثم وكتب»^(۲)، والرازي رحمہم اللہ مال إلى أن الله تعالى «أَنْزَلَ الْمَطَرَ، وَبِالْمَطَرِ تَتَكَوَّنُ الْأَشْيَاءُ الَّتِي مِنْهَا يَحْصُلُ اللَّبَاسُ، فَصَارَ كَأَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ اللَّبَاسَ، وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ لَمَّا كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالْأُمُورِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ صَارَ كَأَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهَا مِنَ السَّمَاءِ»^(۳)، وأما البقاعي رحمہم اللہ فرأى الحرج في الخروج عن مقتضى الظاهر دون مُسَوِّغٍ، ولم يشأ الخروج عن سبقه من المفسرين، فجمع بين الأمرين، وقال: «﴿قَدْ أَنْزَلْنَا﴾ مِنْ آثَارِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ إِذَا ابْتِدَاءً بِخَلْقِهِ، وَإِذَا بِإِنْزَالِ أَسْبَابِهِ لِمَطَرٍ وَنَحْوِهِ»^(۴)، وقرّر رشيد رضا رحمہم اللہ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لِبَنِي آدَمَ مَا دَتَهُ مِنَ الْقُطْنِ، وَالصُّوفِ، وَالْوَبَرِ، وَرِيشِ الطَّيْرِ، وَالْحَرِيرِ، وَغَيْرِهَا، وَعَلَّمَهُمْ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَائِزِ وَالْقَوَى وَالْأَعْصَاءِ وَسَائِلِ صُنْعِ اللَّبَاسِ مِنْهَا كَالزَّرَاعَةِ وَالْغَزْلِ وَالنَّسِجِ وَالْخِيَاطَةِ^(۵).

وأما ابن عاشور رحمہم اللہ فقد رأى أن كلمة ﴿أَنْزَلْنَا﴾ استعملت هنا لِقَصْدِ تَشْرِيفِ هَذَا الْمَطْهَرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَظَاهِرِ الْحَضَارَةِ، فَهُوَ مُنَزَّلٌ عَلَى النَّاسِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَوْ لِأَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْهُ عَلَى آدَمَ

(۱) تفسير الطبري (۱۲ / ۳۶۱).

(۲) الكشف (۲ / ۹۷).

(۳) تفسير الرازي (۱۴ / ۲۲۱).

(۴) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (۷ / ۳۷۸).

(۵) تفسير المنار (۸ / ۳۱۹).

الْعَلَمُ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَكَانَ لَهُ فِي مَعْنَى الْإِنزَالِ مَزِيدٌ اخْتِصَاصٍ^(۱)، فمال في نهاية المطاف إلى أنها استعارة بمعنى (خلق)، لكنها استعارة ألجأ إليها الإلهام الإلهي لكيفية صنع الملابس.

والذي يبدو لي ما قرَّرته -ورأيت ابن عاشور رحمته الله مال إليه- من أن أصل اللباس نزل مع آدم وزوجه عليهما السلام إذ تاب الله عليهما السلام عليهما قبل النزول، وقبل ذلك طفقا يخصفان أي يجمعان بين الأوراق على هيئة أقرب إلى الخياطة، فنزل أبوانا بملابس صنعها أو تلقياها من ربهما عليهما السلام بعد التوبة، ثم أنزل الله عليهما السلام أصول الأدوات التي تستخدم لصناعة الملابس، وكما أنزل الله عليهما السلام أصل اللباس فقد أنزل الأنعام أيضًا، ومثل ذلك الحديد، وبذا تعرف أكذوبة أن الإنسان كان يمشي عاريًا في بداية تاريخه، بل اللباس جزء من الفطرة الإنسانية، والستر لا ينفك عن النفسية البشرية، وإنك لتسمع عن العرب في صحرائهم الحارَّة، فترى شِدَّةَ حرصهم على التزين في عهود فقرهم المدقع، كما ترى حرص المصريين القدماء على الألبسة على الرغم من بيئتهم الشديدة الحرارة، وصحرائهم المترامية، ولكنك قد تتساءل عن بعض القبائل التي تمشي عارية في بعض المناطق، فالذي يظهر أن الشيطان زين لهم ذلك خاصة إذا كانت القبائل غارقة في الوثنية، ولذلك تراها تستتر بمجرد أن تعرف الله عليه السلام.

إلى أين يوصلنا هذا؟

يوصلنا إلى أن اللباس ارتبط بالإنسان منذ أن خلقه الله عليه السلام، وأسكنه الجنة، وبعد نزوله من الجنة، ولكنَّ انحرافَ بعض أبناء الذرية الآدمية وقبولهم لتلاعب الشياطين بهم أدَّى رويدًا رويدًا إلى فُسُوقِ حالة العُرْي وتطبيع الحياة معها كما تراه الآن في أكثر دول العالم تحضُّرًا

(۱) التحرير والتنوير (۸-ب/ ۷۳).

وغنى، فما المانع أن يكون ذلك حدث مع قبائل من الذرية الآدمية تعيش في الأدغال والغابات ممن لا يزالون يتعرون إلى اليوم؟

تصل بذلك إلى أن العري أمام الناس ينافي فطرة الإنسان، بل حتى في خلوته ينافي فطرته، وإنما يحتاج للعري في أوقات محدّدة، وأما غير ذلك فالإنسان يلجأ إلى الستر، ويطلب التجميل، وحسبك للشعور بذلك هذه الرغبة الإنسانية الجامحة نحو أجمل الملابس في أيام الأعياد الخاصّة والعامة، والاحتفالات الجامعة مثل اليوم الذي سمّاه المصريون: يوم الزينة، وحقيقة الذين يحاولون تعرية الأجساد من اللباس، وتجريد القلوب من التقوى بالمسابقات الشيطانية، والعروض الإعلامية الخبيثة، يريدون تحويل الإنسان من التكریم إلى عبودية العري والشهوة^(١).

وعُدُّ بنا لتبصر في بصائر قول ربِّنا ﷻ ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، فالنسبة لآدم عليه السلام تبعها بيان تكريمي جديد يأخذ بأيدي البشر إلى الرقي الحضاري، ففي أول نداء للذرية الآدمية يخبرهم عزَّ شأنه أنه لم يُنزلهم إلى الأرض وتركهم، بل أنزل معهم ما يعينهم على السَّتر الجسدي مما يساعدهم على التقدُّم الحضاري أثناء إعمار الأرض دون قلق أو فزع.

﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا﴾: تعني أنه أنزل عليهم العناصر التي يُصنع منها اللباس الأساسي لسَّتر الأجساد، وأنزل الريش الذي يُنتج منه اللباس المريح التكميلي لزيادة الترفُّه والتمتع.

(١) انظر: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد العفاني، (٢/ ١٢٩).

أفلا تعجب أن العرب الجاهليين، والوثنيين الرومان، والهنود كانوا يتعرّون عند التوبة أو العبادة في خرق واضح لأوامر الرحمن، وترك لِمَا أُنزل إليهم من ربهم ﷻ، وفي اتباع فاضح لأمر الشيطان، يخالفون في ذلك توبة آدم وزوجه ﷺ عندما تابا فإنهما طفقا يخرصان عليهما من ورق الجنة؟

هنا ربّما تسأل: الله تعالى يخبرنا بأنه أنزل لباساً وريشاً و﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ على قراءة النصب، وكذلك عندما يسمع الإنسان أن الله ﷻ أنزل علينا المطر بدون أن نكتسب أو نعمل شيئاً لإنزاله فهل يعني ذلك أن اللباس ينزل بنفس طريقة الغيث أو بنفس هيئة المطر، فنجد الملابس دون اكتساب؟

الجواب: لا! وهنا القانون السادس:

القانون السادس: الامتنان بإنزال الملابس الماديّة والمعنويّة يدل على ضرورة السعي لتحقيق المُمتنّ به، فينبغي للبشريّة البحث عن السُّبُل المختلفة لصنع الألبسة والريش، والبحث عن لباس التقوى أيضًا:

يخاطب الله ﷻ البشريّة، وهم الذرية الآدميّة مخاطبة المحبّ لمصالحهم، المُمتنّ عليهم بالنعم التي لا يستطيعون إيجاد مثلها، فيقول لهم:

قد أنزلنا عليكم المواد الأساسية التي تصنعون منها لباسكم الضروري الذي يستر السوءات، فإنكم تشعرون بأن من يمشي بدونه يُعدُّ ذليلاً مهيناً شأنه شأنُ السجين المهين الذي يعبث به عدوّه كيفما شاء، وأنزلنا عليكم الريش الذي تلبسونه للحاجات، وأنزلنا عليكم الريش الذي تلبسونه للزينة والتجمل اللائق بمختلف الحالات، وتفيدون منه في إقامة أنواع الأثاث الذي تحتاجونه، وتصنعون منه الحُلل التي تشبه ريش الطير في الزينة والوقاية من آفات الحرّ والقرّ، وتزينون به متديانكم، وبيوتكم، وقصوركم، ودوركم.

ويحكي الشيخ رشيد رضا رحمته الله لمحة عن التقدم الأخير الذي أحرزته البشرية في عصرها المتأخر، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِتْقَانِ صِنَاعَاتِ اللَّبَاسِ أَنَّ حَاكِمَ أَلْمَانِيَا دَخَلَ مَرَّةً أَحَدَ مَعَامِلِ الثِّيَابِ لِيُشَاهِدَ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِتْقَانِ فَجَزُّوا أَمَامَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ صُوفَ بَعْضِ أَكْبَاشِ الْغَنَمِ - وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ التَّجَوُّلِ فِي الْمَعْمَلِ، وَمُشَاهَدَةِ أَنْوَاعِ الْعَمَلِ فِيهِ وَأَرَادَ الْخُرُوجَ قَدَّمُوا لَهُ مِعْطَفًا لِيَلْبَسَهُ تَذَكُّارًا لِهَذِهِ الزِّيَارَةِ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ صُنِعَ مِنَ الصُّوفِ الَّذِي جَزَّوهُ أَمَامَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ - فَهُمْ قَدْ نَظَّفُوهُ فِي الْآلَاتِ الْمُنَظَّفَةِ، فَغَزَلُوهُ بِآلَاتِ الْغَزْلِ، فَنَسَجُوهُ بِآلَاتِ النَّسِجِ، فَفَصَّلُوهُ، فَخَاطُوهُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ، فَانْتَقَلَ فِي سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ مِنْ ظَهْرِ الْخُرُوفِ إِلَى ظَهْرِ الْإِمْبِرَاطُورِ^(١).

والامتنان بهذه النعمة الهائلة على البشرية في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرَى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيثًا﴾ [الأعراف: ٢٦] يقتضي أن تقوم البشرية بالبحث عن السبل المختلفة، وابتكار الوسائل اللازمة لتحصيل: الألبسة والريش لاحتياجاتها الجسدية، ولوازم التجميل الخاصة بها، ولاحتياجاتها المختلفة، في دورها ومكاتبها ومصانعها، في غير إسراف ولا غلو، ليعينها ذلك كله على اجتياز اختبار الحياة الدنيا، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وهنا ستقول: سبق أن ذكرنا أن أنواع الألبسة أربعة، فقال الله تعالى ذكره: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ^(٢)﴾ فما معنى لباس التقوى؟
هنا يأتي القانون الآتي:

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٢٠).

القانون السابع: يجب على البشريّة أن تتمتع بلباس التقوى الإيمانية، وهذا هو النوع الثالث من الألبسة، وهو اللباس الباطن الذي يدير لها الروح الحاكمة لتتصرف بجسدها على أحسن الوجود، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

بدأ الله ﷻ الآية بِذِكْرِ اللباس الحسي الذي يحمي جسد الإنسان، وَيُزَيِّنُهُ ويجملُه، وفصله إلى اللباس العام، واللباس الذي يقصد منه الحُسن والزينة والاستخدام المتعدد "الريش"، ولأن اللباس الحسي لا يكفي لصدّ أطماع الإنسان عن فعل القبائح، فقد ذكر الله ﷻ بعد ذلك اللباس الباطني، وهو لباس التقوى؛ لأنها العاصم الأكبر لستر الإنسان وصدّه عن القبائح إذ يقول جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فالأولان لستر وصلاح الظاهر، والثاني لستر وصلاح الباطن، وبين الظاهر والباطن تأثير متبادل.

وهنا تعجب من جمال هذا التصوير الذي يُظهره قول ربنا ﷻ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾! فاللباس قد عرفناه، فهو كل ما يغطّي أكثر بدن الإنسان أو بعضه مما يُكْرَه ظهوره وإن كان حسناً في ذاته، أو يغطّي ما يقبح في الحياة كشفه أمام الناس من أمر مادي أو معنوي، أو اللباس غطاءً يزيد جسد الإنسان حُسنًا وزينة.

وأما التقوى، فكلمة مشتقة من وقى^(١)، وهي كلمة واحدة تدلّ على الحفظ والحماية والصيانة بدفع المكروهات.

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٣١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٠)، تاج العروس (٤٠/ ٢٢٦)، مفردات القرآن للفراهي (ص: ٢٥٤).



فالتقوى تمثل الوقاية الحقيقية والحماية الصادقة للإنسانية بترك كل ما يسبب الضرر من الجرائم والصفات الخسيسة والردائل، ولا يتم ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصفات الكريمة النفيسة والفضائل.

التقوى تُوجد الإنسان الصالح الذي يَعْمُرُ الحياة، ويحمي نفسه من نقاط الضعف الكامنة، والأخطار المستقبلية.

عندما تجمع اللباس الذي يعني المادة التي تغطي جسد الإنسان وتُجَمِّله مع التقوى تُبَصِّرُ النور ظاهراً أمامك، فكما يغطي اللباس جسد الإنسان وَيُزِيْنُهُ وَيُجَمِّله، فإن هناك ما هو أعظم تغطية وسِتْراً وتجميلاً لجسده: إنه لباس التقوى.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾: يُبَصِّرُك بأن التقدم الحضاري باستخدام اللباس والريش لا ينفك عن ملء القلب والعقل والحياة الجماعية بقيَم التقوى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

الآن بعد أن أنزل الله تعالى اللباس والريش ولباس التقوى كيف ترى الأرض؟ لقد علم الله ﷻ بني آدم كيف يبنونها من الناحية الماديّة ومن ناحية النظام والحُكم، ويلتمس المرء اللباس الجسدي والريش في المخلوقات الماديّة حواليه مثل الأنعام والأشجار، وكذلك يلتمس قِيَم التقوى في وحي الله تعالى المُنْزَل على أنبيائه ﷺ، ويدخل ضمن التقوى العمل الصالح، والسَّمْتُ الحَسَن وخشيةُ الله، فعن الحسن ﷺ قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ، عليه قميصٌ قُوْهِيٌّ مَحْلُولُ الزَّرِّ^(١) قال: يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا عَمِلَ أَحَدٌ

(١) (القميص القُوْهِي)، منسوب إلى (قُوْهِسْتَان)، وهي أرض متصلة بنواحي هَرَاة ونيسابور، ينسب إليها ضرب من الثياب. تاج

قَطُّ سِرًّا إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءً عَلَانِيَةً: إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا»، ثم تلا هذه الآية: (وَرِيشًا) - ولم يقرأها: ﴿وَرِيشًا﴾ - ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾، قال: «السَّمْتُ الحسن»^(١) أي الخلق الحسن.

فالتقوى محلها القلب، فإن كان القلب تقيًا ظهر ذلك على أعمال الإنسان وسلوكياته، وإن لم يكن كذلك فإنه سيفُضَح حينًا من الدهر، وفي هذا المعنى يقول التهامي:

ثَوْبُ الرِّبَاءِ يَشْفُ عَمَّا تَحْتَهُ وَإِذَا التَّحَفَّتْ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِي^(٢)

فإن رأيت أن ضعف الحديث السابق يجعلك تتردد في قبوله فاسمع إلى حديث يريك التقوى، وقد لبست لباسها فصرت ترفل في أعظم زينة، إذ يقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيَيْنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرَبِّنَا الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيَّينَ»^(٣).

ويدخل ضمن لباس التقوى: «الحياء»، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾: أي لباس التقوى وهو الحياء خير من الثياب، لأن الفاجر إن كان حسن الثياب، فإنه بادي العورة - في أخلاقه - ألا ترى إلى قول الشاعر إذ يقول:

(١) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٠١/٥)، وقال إسلام منصور: «ضعيف: سليمان بن أرقم، أبو معاذ البصري ضعيف أو متروك، ومداره على إسحاق بن إسماعيل، وسند المصنف إليه هنا ضعيف؛ من أجل المثنى شيخ المصنف مجهول الحال»، والأثر كما ترى ضعيف، وحتى لو كان مقبولاً؛ فإنه يحتمل أن الراوي اختلطت عليه كيفية قراءة عثمان ؓ للآية.

(٢) ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي، تحقيق محمد الربيع، (ص ٣١١).

(٣) أحمد (١٨٣٢٥)، وصححه الأرناؤوط، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٧).

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسُطَّ الْقَوْمِ عُرْيَانًا»^(١)
 ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أخذ كثيرًا من تأمل الطبري رحمه الله، فعمّم معانيه بصورة لافتة، فقال:
 «وأولى الأقوال بالصّحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ استشعارُ النفوس تقوى الله في
 الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان،
 والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسّمت الحسن، لأن مَنْ اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما
 أمره به عاملاً، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحيًا. ومن
 كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديته، ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونوره»^(٢).
 اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ومن لباس التقوى أن يتقي بالدعاء والتعوذ برب السماء ليحتمي من الجن ومن شرورهم،
 ومن شرور نفسه ومن شرور الناس، فقد روى زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إِنَّ
 هَذِهِ الْحُشُوشَ - أي أماكن الخلاء - مُحْتَضَرَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَدْخُلَ - أي الخلاء -
 فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»^(٣)، وهذا نوع من لباس التقوى ليقيك من
 شرور الشياطين.

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١ / ٥٠٩)، والبيت لسوّار بن المُضَرَّب. ينظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٢ / ١٣٧)، (١٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٣٧١).

(٣) أحمد (١٩٢٨٦)، قال الأرنؤوط: «رجالُه ثقات رجال الشيخين، وهذا حديث تفرد به قتادة، ورواه عنه شعبة، وسعيد بن أبي عروبة، ومعمر، وهشام الدستوائي، واختلفوا عليه فيه... وقد عدّ الترمذِيُّ هذا الاختلاف اضطرابًا، فقال: وحديث زيد بن أرقم في إسناده اضطرابٌ، ثم سرده. وقال في "العلل الكبير" ١ / ٨٤: سألت محمدًا (يعني البخاري) أي الروايات عندنا أصحُّ؟ قال: لعل قتادة سمع منهما جميعًا عن زيد بن أرقم، ولم يقض في هذا بشيء». قال الأرنؤوط: «يريد البخاري بقوله هذا دفعَ الاضطراب عن إسناده هذا الحديث، لأن قول معمر فيه: عن أنس بن مالك، وهم، فيما نقله البيهقي في "سننه" ١ / ٩٦ عن الإمام أحمد، وروايته الدستوائي فيها انقطاع، فتمحّض من هذه الروايات روايتا سعيد وشعبة، عن قتادة. ولم يقطع البخاري

والتشبيه البليغ هنا في تصوير التقوى أنها كاللباس، فإذا تجرد الإنسان من تقواه فقد تجرّد من قيمه، وأخلاقه، وحيائه، وإذا لم يستح صنع ما شاء بنفسه دون خجل، إن التقوى لباس تلبسه الروح؛ فتكتسي به حياءً، ومهابةً، وخُلُقًا.

وهنا ستسأل: هل يحتمل قول الله - تعالى ذِكْرُهُ -: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ معنى آخر غير لباس التقوى الإيمانية؟

الجواب: نعم! إنه يحتمل نوعاً آخر من أنواع الألبسة:

القانون الثامن: النوع الرابع: لباس التقوى الدفاعية:

وهو كل لباس يقي من الإيذاء والاعتداءات المدمّرة، ويصّرننا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾، مثل ما يلبس من "الدروع التي تشمل أكثر الجسم"، و"الجواشن" أي: ما يُنسج من الدروع على قَدْر الصدر، و"المغافر" أي: ما يُنسج منها على قَدْر الرأس، ويلبس تحت القُلنسوة وهي ما يوضع على الرأس ليقى الإنسان، وغيرها مما يُتَّقَى به أذى الحر والبرد والحروب:

ويمكن أن يدخل في لباس التقوى الدفاعية إنشاء الحصون والأماكن الآمنة.

وهذا معنى تابع للباس التقوى، وليس معنى أصيلاً، فالمعتاد في القرآن الكريم استعمال التقوى في التقوى الإيمانية، وقد أثبتنا هذا المعنى الثاني للباس التقوى؛ لأن اللفظ يحتمله، وإن لم يَجْرِ العُرْفُ القرآني لكلمة "التقوى" عليه، لكنني اعتمدت على قوله - جَلَّ ذِكْرُهُ -: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَبِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَبِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾

باطظر ابهما، وإن لم يوافقهُ الترمذي ...»، وصَحَّحَهُ الألباني في الصحيحة (١٠٧٠)، وقال: «وهذا الذي ذكره البخاري ﷺ هو الذي نجزم به مطمئنين أن قتادة ﷺ رواه عن النضر بن أنس وعن القاسم بن عوف الشيباني كلاهما عن زيد بن أرقم ﷺ؛ وذلك لأن قتادة ثقة حافظ ثبت، فمثله جائز أن يكون له في الحديث إسنادان فأكثر».

لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ» [النحل: ۸۱]، فانظر كلمة ﴿تَقِيكُمْ﴾، وكذلك قوله -تعالى جدّه-: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ۸۰]، وبين الله ﷻ أن هذا اللبوس منه الدروع السابعة فقال: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ۱۰، ۱۱]، والمعنى: أي قدّر الحلقة الحديدية، أي لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): التقدير الذي أمر به هو في المِسمار، أي: لا تجعل مِسمار الدرع رقيقاً فيثقل، ولا غليظاً فيقصم الحلق. و"السرد" نسج حلقِ الدروع، ومنه قيل لصانع حلقِ الدروع: السَّراد والزَّراد^(١).

ستقول: وهل يوجد من المفسرين من قال بأن ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ يشمل لباس التقوى الدفاعية مثل الدروع وألبسة الحرّ والبرد؟

الجواب: وجدت بعض المفسرين يذكر نحوه، فقال الماتريدي (رحمته الله): «وأما من قرأ بالنصب فهو ردّه إلى قوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا﴾، ثم أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ -أيضاً- لِبَاسًا تتقون به الحرّ والبرد والأذى؛ فيكون فيه ذِكْرُ لباس سائر البدن، وفي الأول ذِكْرُ لباس العورة»^(٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٩٥)، ونقله الماوردي عن ابن بحر. انظر: تفسير الماوردي (٢/ ٢١٤).

وكذلك نقل الثعلبي رحمته الله هذا القول احتمالاً: «فقال زيد بن علي رحمته الله: لباس التقوى: الدَّرْع، والمِغْفَر، والسَّاعدان، والسَّاقان، والآلات التي يُتَّقَى بها في الحرب من العدو»^(١) أي إن ذلك يدخل في التقوى.

وقد ذكرت هذا النوع للاحتمال الوارد في معنى الآية، وإن كنت لا أميل إلى إثباته؛ إذ المعنى الأول هو المعتمد هنا.

وهنا نعود للألبسة الأربعة لنستذكرها:

فالأول: اللباس العام ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾.

والثاني: الريش ﴿وَرِيشًا﴾، وهو كل لباس يقصد منه الترفُّه والثأثير للمكان، وزيادة التمتع، سواء كان ظاهراً أم باطناً.

والثالث: لباس التقوى الإيمانية.

والرابع: لباس التقوى الدفاعية لاتقاء الحرب، وأنواع الأوبئة والمضار كالبرد والحر ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾.

وهنا سنبَرِّق عينك، فنقول: اسم الإشارة في قول ربنا تعالى مَجْدُهُ: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ على أي شيء يعود؟

الجواب: اجتمع لنا في قول ربنا ﷻ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ثلاثة معانٍ:

الأول: يُبَصِّرُك اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ بأن كل ما سبق ذكره من أنواع الألبسة الأربعة خيرٌ، وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾: اسمٌ يعني أن المصالح الحقيقية للإنسان موجودة في هذه الألبسة الأربعة،

(١) تفسير الثعلبي (١٢ / ٣٢٧)، ونقل هذا القول أيضاً: ابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وغيرهم. ينظر: المحرر الوجيز

(٢ / ٣٨٩)، الجامع لأحكام القرن (٧ / ١٨٥)، البحر المحيط (٥ / ٣١)

فكلمة ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ خبرها، والجملة مستأنفة تجيب عن سؤالٍ ناشئٍ عما سبق، كأنك قلت: لماذا يذكر الله ﷻ لنا هذه الألبسة الأربعة؟

فتأتي الإجابة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، فالألبسة الأربعة خير للإنسان في معيشته على الأرض ليمكن من عبادة ربه ﷻ، وليمكن من الاستقرار والتمتع فيها على خير وجه، وليست كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ هنا مفاضلة بين اللبس والتعري؛ لأن التعري لا خير فيه أصلاً، فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ اسم، وليست للتفضيل، ومال الواحدي رحمه الله إلى هذا المعنى، فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لصاحبه إذا أخذ به^(١).

الثاني: ورد عن عكرمة رحمه الله معنى آخر لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وهو أن المتقين في الدنيا يجدون المكافأة في الآخرة، فالمكافأة في الآخرة تكون مثل اللباس الذي يميزهم عن سائر أهل الموقف، فقد قال عكرمة رحمه الله: «فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يُقَالُ: مَا يَلْبَسُهُ الْمُتَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ مِنْ لِبَاسِ أَهْلِ الدُّنْيَا»^(٢).

الثالث: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: أي أن لباس التقوى الإيمانية - وكذلك الدفاعية - خير من اللباس العام والريش.

وستساءل: ما القراءات الواردة في قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾؟ وكيف وسَّعنا آفاق الصورة التي تُبَصِّرنا بها الآية؟

(١) الوجيز للواحدي (ص: ٣٩٠)، وذكر الواحدي رحمه الله هنا قولاً آخر يفيد أن كلمة "خير" للتفضيل فقال: «خيرٌ من التعري، وذلك أنَّ جماعةً من المشركين كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت»، وقد يقال: إنه أراد أن أفعال التفضيل ليس على بابه هنا، ولكن يغني عنه أن نقول هو اسم، فلا توجد مقارنة بين الستر والتعري.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٨).

في قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ قراءتان^(١) توضّحان مشهدين:

المشهد الأول: تُبَصِّرُك به قراءة عامة قُرَاء المكيين والكوفيين والبصريين: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى

ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ برفع ﴿وَلِبَاسُ﴾، وقراءة الرفع تحبوك بمعنيين:

الأول: يمكن أن تكون كلمة ﴿لِبَاسُ﴾ مبتدأ لخبر محذوف، وتقديره: ولباس التقوى أنزلناه، وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعود على اللباس الحسي والمعنوي، أي فكل ما أنزلنا لكم فهو خير في الحسّ والمعنى، والمظهر والجوهر، فانتفعوا به.

الثاني: يمكن أن تكون كلمة ﴿لِبَاسُ﴾ مرفوعة على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، و﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ثان، و﴿خَيْرٌ﴾ خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول، والرباط هنا اسم الإشارة، وقال السمين الحلبي رحمته الله: «وهذا الوجه هو أوجه الأعراب في هذه الآية الكريمة»^(٢)، وكأنه أراد أن لباس التقوى أخير من اللباس الحسي، فالمعنى: ولباس التقوى ذلك الذي قد علّمتموه خير لكم يا بني آدم من لباس الثياب التي تواري سوءاتكم، ومن الريش الذي أنزلناه إليكم، هكذا فالبسوه، وكأنه يقول لنا: فلا تحرصوا على اللباس الظاهري فقط وتتركوا لباس التقوى، فهو الأهمُّ.

وهذا تأويل جميل، مع أن المقارنة غير قائمة؛ لأن اللباس الحسي والمعنوي جنسان مختلفان يُكْمَل أحدهما الآخر، ولكن كثيرًا من الناس يحرصون على اللباس الظاهري، ولا ينتبهون لقلوبهم التي يجب أن يعمروها بالتقوى، فيكون المعنى: ولباس التقوى ذلك خير من اللباس الحسي والريش المظهري، وفي كل خير، ولكن لباس التقوى هو اللباس الذي

(١) قال ابن الجوزي: «قرأ المدنيان، وابن عامر، والكسائي بنصب السين، وقرأ الباقون برفعها». النشر (٢/ ٢٦٨).

(٢) الدر المصون (٥/ ٢٨٨).

يُنَظِّمُ حياتك العقلية والمادية ويحرك لك قراراتك في الحياة، ومن ذلك قراراتك في اختيار اللباس المناسب في كل مجالات الحياة، فقد حبانا هذا المعنى شيئاً زائداً على ما سبق.

والمعنى هنا أن حيازة لباس التقوى له حق التقديم، وإذا تحقق به العبد كان لازماً ظهور أثره على ظاهره وسمته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «فَأَصْلُ الْإِيْمَانِ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ قَوْلُ الْقَلْبِ وَعَمَلُهُ، وَهُوَ إِقْرَارُ بِالتَّصْدِيقِ وَالْحُبِّ وَالْإِنْقِيَادِ، وَمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مُوجِبُهُ وَمُقْتَضَاهُ عَلَى الْجَوَارِحِ وَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ دَلَّ عَلَى عَدَمِهِ أَوْ ضَعْفِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ مِنْ مُوجِبِ إِيْمَانِ الْقَلْبِ وَمُقْتَضَاهُ، وَهِيَ تَصْدِيقٌ لِمَا فِي الْقَلْبِ، وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَشَاهِدٌ لَهُ»^(١).

بصيرة: البس اللباس الذي تغطي به جسدك وبه تتجمل، وتأخذ الريش الذي تزين به حيانتك، وتترفه عن نفسك، ولا تنس ما هو أعظم من ذلك: إنه لباس التقوى، فادّرع به في سرك وعلايتك، وقيامك وقعودك، ومنطقك وصمتك، فهو خير الألبسة وأعظمها.

المشهد الثاني: تبصرك به قراءة عامة قراء المدينة والشام، وهي قراءة بعض قراء الكوفيين، وعند تحديدهم فهم نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، والكسائي: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ بنصب "اللباس"، عطفًا على "الريش"، بمعنى: قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً، وأنزلنا لباس التقوى، والمراد بذلك: أنزلنا عليكم اللباس الحسي، واللباس المعنوي إن اتبعتم ما أنزله الله ﷻ عليكم من الوحي الإلهي، وهذا الذي أنزلنا عليكم من اللباس الذي

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٤٤).

يواري سوءاتكم، والريش، ولباس التقوى خير لكم في حياتكم، فاتقوا الله واهتموا بزينتكم الظاهرية والباطنية.

وما أحسن قول أبي العتاهية رحمته الله:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التُّقى تَقَلَّبَ عُريَاناً وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا^(١)

وقد قدَّم الطبري رحمته الله هذه القراءة على الأولى، وأنت ترى أن المعاني في كليهما متدفقة ورائعة ومتكاملة في إظهار الصورة.

والآن فلننظر في البصيرة التي تحبونا بها خاتمة الآية إذ يقول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (٦٦) .. فما سرُّ هذا الختم؟ وما البصيرة التي تحبونا بها هذه الكلمات الختامية للآية؟

الجواب: هذا السؤال من أجمل الأسئلة؛ فلا بد للإنسان أن يجعل أواخر الآيات أمام عينيه لينظر ماذا يوجد فيها من المعاني العظيمة، وبعض الناس يقع في شعوره الباطن أن ختام الآيات مجرد ختام يشبه التَّيَمُّمَ التي تُراد للفصل لا أكثر، ويعتبرها مجرد تكميل، والأمر ليس كذلك

بصيرة: إن خاتمة الآية تحوي معاني سامية عظيمة، وتمثل قيمة أساسية للآية التي تختتمها، وتصوِّر لك الحياة التي ينبغي أن تسير عليها في الأرض.

والمعنى هنا: ﴿ذَلِكَ﴾ اللباس، والريش الحسِّيَّان، ولباس التقوى الإيمانية، ولباس التقوى الدفاعية من آيات الله عز وجل التي تخبركم أن الإسلام حق، وأن القرآن حق.

(١) ديوان أبي العتاهية (ص: ٤٣٤).

كَأَنَّ اللَّهَ ﷻ يُخْبِرُنَا بِأَنَّهُ أُنْزِلَ مَعَ آدَمَ ﷺ أَنْوَاعُ الْأَلْبَسَةِ الْأَرْبَعَةِ: اللباس العام، ولباس الريش الذي يقصد منه التَّرفُّهُ، ولباس التقوى الإيمانية القلبية، ولباس التقوى الدفاعية.. فنظَّم الله ﷻ حياة بني آدم ﷺ لا كما تروي الخرافات من أن البشر بدؤوا حياتهم عراة يعيشون في الكهوف.

فهذا يدلُّكم على أن الإسلام حقٌّ، فهو الذي نظَّم البشريَّة، وينبئكم بالحقِّ في حياتكم، ويرشدكم إلى الحياة التي تسعدكم، وتكون حُجَجًا وأدلةً تهديكم من الضلالات الشَّيطانيَّة، هي من آيات الله ﷻ: ألا ترى كم عدد سكان الأرض؟ وعلى الرغم من ذلك لا تنقصهم الألبسة، والمواد التي يحتاجونها لصنعها؟ فمن وفرَّ لهم مواد تلك الثياب؟ ومن يمدُّهم بالأدوات التي تُكوِّن الألبسة من الأنعام والأعشاب؟!

ترى الألبسة تزداد تنوعاً وفخامة وقوة وصناعة، وعلى الرغم من مليارات البشر إلا أنها ما انتهت ولا وُجِدَت أزمة لهم في حياتهم، فالله تعالى يرزقهم من الملابس رزقاً كأنه المطر ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

فهذا من الناحية الحسِّيَّة، ومن الناحية المعنويَّة تجد أن الله ﷻ نظَّم حياتهم، ووضع القوانين التي تدير معاشهم ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وكذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ عندما يُبصرون لباس التقوى التي تُمسِكهم من أن يتحولوا إلى وحوش يأكل بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن عندما تَحَلَّوْا عن لباس التقوى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ باعتبارها من آيات الله ﷻ العظمى تؤدي إلى التذكُّر، والتذكُّر يحمي من الغفلة المدمرة.

﴿يَذْكُرُونَ﴾: فالتذكُّر يرفع الناس إلى المجد والشرف العظيم، فيفلحون، ويقيم لهم الفوز والثناء الحسن، فينتصرون في معارك الحياة، ويظفرون، ويرتبطون بأن يذكروا الله ﷻ، فإذا هم في مَعِيَّتِهِ يمسون ويصبحون.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ فكيف جعلوا التَّرف في اللباس والريش أصولاً للغفلات وأبواباً للملهمات، ودور الأزياء معارض للرديلة والمنكرات وفقدان القيم وضياح الأخلاق بدلاً من أن تكون من آيات الله المذكرات؟

وربما سألت: لماذا التفت من الخطاب إلى الغيبة، فقال في بداية الآية: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾، ثم قال في نهاية الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، ولم يقل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ﴾؟

الجواب:

الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة يفيد التعظيم للنبي ﷺ، والتأنيس للدعاة من بعده كأن الله ﷻ خاطب بني آدم ثم بعد ذلك التفت إلى حامل القرآن ليحدثه عنهم، وأول حامل للقرآن هو النبي ﷺ ثم يأتي من بعده من العلماء والدعاة وحفظة القرآن، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، أي: يا حافظ القرآن، يا حامل القرآن، أخبرهم بذلك لعلهم يذكرون، وكأن الله ﷻ يخبر الداعية بأن يصبر على مخالطة الناس، وأن يصبر على تذكيرهم.

ولئلا يقول المتعنت: إن الحث على التذكُّر خاص بالمُخاطَب، ويدعي أن المقصود بالخطاب هنا المسلمون فقط، فتشعر عندما تصل أول الآية ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ بأخرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أن جميع الإنسانية مقصودة بهذا الخطاب، أي: أنزلنا ذلك ليكون حالهم حال من

يَتَذَكَّرُ، فَيَعْرِفُ أَنَّهُ يُسْتَقْبَحُ مِنْهُ مَا يُسْتَقْبَحُ مِنْ غَيْرِهِ^(١)، وأنه يجب على الداعية أن يصبر على الناس عندما يقوم بتذكيرهم، فالقرآن تكوّن من (٦٢٣٦) آية، كل كلماتها تذكير للبشرية.

فجعل الله ﷻ الأمرين جميعاً من آياته: فالمواد المخلوقة التي تصنع منها الألبسة والريش، والوحي النازل كل ذلك من آيات الله ﷻ التي يحتاج إليها الإنسان في الحياة ليتذكر ولا يغفل، فيقع أسيراً لعدوه؛ ولذا ختم الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^(٢).

ومن التذكّر أن يذكر المرء ربّه ﷻ ونعمه عليه، وأن يشكره على اللباس الظاهري والباطني، فعن أبي العلاء الشاميّ ﷺ قال: لبس أبو أمانة ﷺ ثوباً جديداً، فلَمَّا بَلَغَ تَرْقُوتَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي». ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَجَدَّ ثُوبًا فَلَبِسَهُ، فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوتَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوبِ الَّذِي خَلَقَ - أَيِ الثَّوبِ الْقَدِيمِ - فَتَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، وَفِي جِوَارِ اللَّهِ، وَفِي كَنَفِ اللَّهِ حَيًّا وَمَيِّتًا، حَيًّا وَمَيِّتًا، حَيًّا وَمَيِّتًا»^(٣).

وعن عليّ ﷺ أنه أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرُّسْعَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ، وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي». فَقِيلَ: هَذَا شَيْءٌ تَرْوِيهِ عَنْ نَفْسِكَ أَوْ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: هَذَا شَيْءٌ

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٨٠).

(٢) أحمد (٣٠٥)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف؛ لجهالة أبي العلاء الشامي. أصبغ: هو ابن زيد الجهنّي»، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٥٤٢).



سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْكِسْوَةِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ، وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي»^(١).

وهذان الحديثان - وإن ضعف إسنادهما - إلا أنهما في فضائل الأعمال، ويعضدهما أحاديث صحيحة في المعنى العام.

الانتقال:

بعد أن استلهمنا بصائر النداء الأول في الآية [٢٦] ننقل إلى قول ربنا جلَّ مجده:

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا اِنَّهُ يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٧﴾﴾، وهذه الآية بداية النداء الثاني، فما المناسبة والاتصال بين هذا النداء وما قبله؟

(١) أحمد (١٣٥٥)، وضعف الأرنؤوط إسنادَه، وكذا الألباني في الضعيفة (٦٢٦٣).

النداء الثاني: يتعلّق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله: {٣٧-٣٠}

قانون [2] قانون الحذر من الوقوع في الفتن والفتنة، ومن نتيجتهما ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 27].	قانون [1] الشريعة أنزلت لحماية البشرية والطبيعة ﴿يَبْنِي عَادَمَ﴾ [الأعراف: 27].
قانون [4] من أهداف الشيطان الأساسية نزع الحياء الفطري: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: 27].	قانون [3] قانون تذكّر المعركة القديمة المستجدة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27].
قانون [6] أعظم وسائل قوة الشيطان لتحقيق أهدافه ثلاث: الخفاء، والمساعدون من القبيل الإبلسي ﴿إِنَّهُ يَرِثُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، والتجنيد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].	قانون [5] أنت المسؤول عن الوقوع في الذنب، وليس الشيطان، ولذلك خاطبك الله عز وجل مباشرة فقال: ﴿يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ...﴾ [الأعراف: 27].
قانون [8] يجب الرد الإعلامي والتعليمي والتبليغي والتربوي والتشريعي على الذين يشعرون بالفحشاء: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].	قانون [7] يجب أن يحذر بنو آدم من أبرز مظاهر ولاية الشيطان، وأبرزها تقنين الفواحش، وتطبيع الحياة معها: ﴿وَلَا تَقْعَلُوا فُجُورًا قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا عِبَادًا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28].
قانون [10] من يزعم أن الله عز وجل أمر بالفاحشة فقد افترى الكذب ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29].	قانون [9] يجب أن نرد على الذين يفعلون الفواحش ثم يقولون: "الله أمرنا بما" برّدين: الأول: عقلي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، والثاني: نقلي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].
قانون [12] حرية الاختيار، فقد حقّت الضلالة على الفريق الضال بسببين: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30].	قانون [11] تنقسم البشرية إلى فريقين حسب قدرتهم على إدارة المعركة مع الشيطان ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: 30].
قانون [13] الحذر من وهم الاهتداء: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30].	

نَحْنُ بِنَا لِنَسْأَلُكَ بِمَا لَمْ يَجِزْ

مَفْصَلُ تَسْنِينَ سُورَةُ الْأَعْرَافِ (٢)



النداء الثاني

يتعلق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله: [الأعراف: ٢٧-٣٠]

آيات هذا النداء:

﴿يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهِمَا إِنَّهُ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧-٣٠].

المناسبة والاتصال:

النداء الأول كلمنا عن اللباس الجسدي والقلبي، وذلك لأن الله ﷻ أهبط آدم وزوجه ﷺ، ومن الطبيعي أن يكون أول ما يتلقيناه ما يتعلق بستر أجسادهما وذلك عبر اللباس، وتأثير بيوتهما عبر الريش، وتنظيم حياتهما عبر لباس التقوى، ولكن ذلك كله لا ينبغي أن يُنسيهما وذريتهما المعركة الهائلة مع إبليس وقبيله.

فمثل النداء الأول الباب الدستوري الأول من التوجيهات العظيمة التي منحها الله ﷻ بني آدم، وتعلّق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات الجسدية والقلبية، وجمال الحياة الإنسانية على الأرض ظاهراً وباطناً، وتضمّن ثمانية قوانين، حيث أنعم الله ﷻ علينا باللباس الحسي الذي يضمن ستر العورات والرقى في الحياة: ﴿يَبْنِي عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَيْكُمْ﴾، وكذلك يضمن الترفّة والتلذذ بالآثاء: ﴿وَرِيشًا﴾.

وكذلك أنعم علينا باللباس الحقيقي المعنوي الذي يتكفل ببناء الحياة النفسية: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وبعد أن قرّر الله ﷻ جمال الحياة الإنسانيّة على الأرض، واقتراها باللباس الحسي والمعنوي انتقل في النداء الثاني إلى طبيعة المعركة مع إبليس وقبيله، وأساليبه في فتنة بني آدم ﷺ، وتضمّن هذا النداء ثلاثة عشر قانوناً:

القانون الأول: الشريعة أنزلت لحماية البشريّة والطبيعة، ويُصَرِّنا بذلك مناداة الله ﷻ لبني آدم ﷻ مجدداً إذ قال: ﴿يَبْنِي ʼآدَمَ ʼ﴾:

ستسأل: نعرف أن الإيجاز أن يقال في الآية (٢٦): ﴿يَبْنِي ʼآدَمَ ʼ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَتَكُمْ ʼ﴾، ثم تكون التكملة في (٢٧)، فيقال: (ولا يفتنكم)، لكن الله ﷻ أعاد النداء فقال: ﴿يَبْنِي ʼآدَمَ ʼ﴾، فلماذا كرّر النداء؟

الجواب: كرّر النداء فقال: ﴿يَبْنِي ʼآدَمَ ʼ﴾ لبيان الأهمية الضخمة للفكرة الجديدة التي سيذكرها الله ﷻ، بعد الفكرة التي تضمنها النداء السابق، ففي مقام الوَعْظِ والتبصير، والتنبيه، والتذكير^(١)، والتوجيه، والتعليم، والتأثير ينبغي تمييز المعالم الكبرى بعبارات خاصة حتى يتنبه لها السامعون، ومثل ذلك عندما يقول الأب: يا بُني، ثم يعيد مرة أخرى: يا بني كما فعل لقمان ﷻ عندما قال: ﴿يَبْنِي ʼ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ʼ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ʼ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَبْنِي ʼ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ʼ﴾ [لقمان: ١٦]، والإنسان يجد ذلك عندما يستمع للآخرين، وهم يكرّرون اسمه أو وصفه، فيستفزّه هذا التكرار لرّدّة فعل مناسبة لطبيعة النداء، وفي قصة إبراهيم ﷻ مع أبيه في سورة مريم ﷻ نجده يقول له: ﴿يَتَابَت ʼ أربع مرات.

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٢١).

وفي قِصَّةِ الْجَنِّ مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿يَقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحْقَاف: ٣٠]، ﴿يَقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحْقَاف: ٣١].

وترى ذلك في وَعْظِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ غَافِرٍ، فقد كَرَّرَ كلمة ﴿يَقُومُ﴾. فإذا تَكَرَّرَ النداء كان أقوى وأعظم أثراً في نفس الإنسان من الناحية التربوية والتوجيهية والتعليمية على أن لا يكون مُمِلًا ولا مُتَفَرِّعًا، وأن يَصُورَ أهمية الفكرة الجديدة التي ستقال بعد النداء.

نفحة قرب، ولمسة حب:

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لمسة من لمسات الرحمة والحب لهذا المخلوق وشعور بالعطف عليه متمثلة في نداء الله للبشر جميعاً، ليس للمسلمين خاصة وهو يناديهم ويحذرهم من الوقوع في فتنة الشيطان^(١).

كان هذا الذي بَصَّرْنَا بِهِ التَّكْرَارُ فِي قَوْلِ رَبِّنَا ﷻ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾، وظهر لنا منه القانون الأول منه، فلنتقل إلى قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، فما القانون الثاني الذي نُبَصِّرُهُ هُنَا؟
الجواب:

القانون الثاني: قانون الحذر من الوقوع في الفتن والفتنة، ومن نتيجتهما، وَيُبَصِّرْنَا بِذَلِكَ قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾:

فنجِدُ فِيهِ الرِّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ بِالْبَشَرِيَّةِ إِذْ يَصُورُ اللَّهُ ﷻ لَنَا وَاقِعَ حَرَصِ الشَّيْطَانِ عَلَى تَدْمِيرِ الْإِنْسَانِ بِأَنْ يَعْرضَهُ عَلَى الْفِتْنَةِ، ثُمَّ يَجْعَلُهَا تَدْمِيرَهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا ذَهَابًا نَضَارًا خَالِصًا. وحتى ندرك معنى هذا الكلام لا بد أن نسأل: ماذا تعني كلمة ﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾؟

(١) البيان في مداخل الشيطان، عبد الحميد البلالي، (ص: ٤٤).

الجواب: أصل الفتنة والفتون^(١) مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ إِذَا عَرَضَهُمَا عَلَى النَّارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْعَدَ عَنْهُمَا الشَّوَابِ التي لصقت بهما مما ليس منهما، فيُعرف الزائد من الخالص النَّضَارَ، والزائف من الأصلي، وَيُعرف حَجَرُ الصَّائِغِ الَّذِي يَخْتَبِرُ هُمَا بِهِ بِاسْمِ الْفَتَّانَةِ، فعرض الذهب والمعادن على النار، لتخليصها من الغشِّ هذا يسمى الْفُتُونُ، ويترتب على ذلك أَنْ تخرج ذهبًا خالصًا، ومعدنًا لا زيف فيه، فينقشع عن الذهب ما ليس من حقيقته لأنه زيف تامٌّ، وهذا الْعَرَضُ على النار يُشعر المرء معه بالألم، فالفتنة تطلق على المحنة والامتحان؛ إِمَّا بِالشَّدَائِدِ فهل يصبر على دينه، وإِمَّا بِالِاسْتِمَالَةِ بِالشَّهَوَاتِ؛ فهل يصبر عن معصية الله، فكلُّ ذلك يسمَّى فتنة، وقد يكون الصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ أَعْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ^(٢).

فيستبين بالفتنة الصادق من الكاذب، فمثلاً في فتنة المال: هل سيأخذ المال الحرام أم سيكتفي بالمال الحلال، فإذا أخذ المال الحلال خرج أقوى إيمانًا، وأثبت عزيمة، وأعظم إرادة؛ لأنه يستطيع أَنْ يتحكَّم بنفسه، ويتغلب على شيطانه، ومثل ذلك فتنة النساء بالرجال، وفتنة الرجال بالنساء، وفتنة صلة الرحم وقطعها، وفتنة الشهوات والشبهات، فيتساقط الزيف من الإنسان؛ فإذا كان كلُّه زيفًا بقي في النار تذيقه السوء، ولم يخرج منها كما يخرج الذهب الأصلي من النار، وإن كان صدقًا خرج قويًّا، فلم تؤثر عليه الشهوة والشبهة.

وتطلق الفتنة على نتيجتها، فقول رَبَّنَا عَلَيْكَ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ يعني لا ينبغي أَنْ تكون نتيجة الفتنة أَنْ تقعوا فيما يريدكم الشيطان أَنْ تقعوا فيه، فلا يدخلكم الشيطان في فتنة تخسرون

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٢٣)، تاج العروس (٣٥/ ٤٨٩)، المعجم الاشتقاقي (٣/ ١٦٢٧).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٢٢).

فيها المعركة، فتذهب عنكم متعة الحياة الحقيقية، كما فتن أبويكم في الجنة، فأغواهما، فتسبب في إخراجهما.

ولا بد أن نتساءل عن الفتنة الشيطانية التي تعبر عنها الآية في قول الله ﷻ: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ هل تقتصر على المكر والخداع أم تشمل غير ذلك من الأنواع؟

الجواب: الفتنة الشيطانية تشمل المكر والخداع، كما تتضمن المكر الكبار الذي يقوم به أتباع الشيطان من سائر الأنواع مثل الإكراه على نشر الفحشاء، فيهدد أتباع الشيطان الإنسان: إما أن تتبعنا، فنشر الفحشاء في العالمين، وإما أن نعمل على إفقارك، ومصادرة مالك، وتدمير حياتك، فيلجأ أولياء الشيطان إلى التهديد والإرعاب، والإكراه الإعلامي والثقافي والأمني، ويحرّضون عملاءهم على أن يجعلوا الناس يتقبلون نشر الشرك والوثنية والخرافة، وتقبل الفاحشة، وجعلها جزءاً من الحياة الاجتماعية، فيطلبون من المفتي أن يصدر الفتاوى التي تؤيد باطلهم، ويطلبون من الإعلامي أن يعمل على تزيين الفاحشة والقمار وسائر المعاصي، حتى سمعنا بعض جنود الشياطين يزعم أنه يستهدف بالحفلات الماجنة الصالحين الذين قطعوا المسافات لعبادة ربهم ﷻ بأفضل القربات.

قوانين إبليسية مقابل القوانين الإلهية:

إذا كانت هذه النداءات المتوالية في هذه السورة تقرر قوانين السماء المنزلة بصائر للناس بما يحفظ عليهم مستقر حياتهم، ويضمن لهم هنيء العيش بما امتن عليهم من أنواع اللباس الأربعة، فإننا يمكن أن نستشف من دلالات الآيات كذلك القوانين الإبليلية المعتمدة في مخطط الشيطان في الإغواء وتدمير الحياة الإنسانية المادية والمعنوية، فإن «برنامج كلة ينحصر في الشر والفحش والخلاف، وأول مادة في هذا البرنامج وهي أول ما فتن به آدم وحواء ﷺ، الت كشف والتعري، ولبس القصير من الثياب: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ



كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧]، فكان نزع الثياب، وابداء العورات، أول مادة في هذا القانون الشيطاني^(١).

قد أدر كنا بعض بصائر هذه الكلمات مفردة: ﴿يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ فما معنى هذه الجملة مجموعة؟ هل هو نهى للفتنة من أن تطرق أبواب بني آدم ﷺ؟

الجواب: المعنى المباشر لهذه الجملة ﴿يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا تفتنوا بالشیطان، أي لا تقعوا أسرى له حال كونكم مفتونين بخُذَعِه وألأعیهه وتهديدات أتباعه، فتقعوا في فخاخه المدمرة، ولكن الله ﷻ لم يقل: لا تفتنوا، بل قال: ﴿يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، وهذه صيغة نهى مؤكدة: أي لا تفتنوا بالشیطان، وأكد ذلك بنون التوكيد، وكذلك هنا: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ بالمضارع؛ ليبين سعي الشيطان الدائب في تحقيق طموحه الذي نذر حياته له، وهو إيقاع البشرية في الفتنة.

لكن ينبغي أن نعلم أن الوقوع في الفتنة لا بد منه؛ لأن كل الحياة ليست إلا مجموعة متنوعة من الفتن، والمقصود هنا أن نحذر من الخسارة عند الوقوع في الفتنة، فمثلاً: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

ولكن الشأن أن نبين من خلال المال والولد أننا ننتهي إلى الصادقين الذين لا يخسرون عندما يعاينون الفتنة، من خلال الكسب الحلال للمال، والإنفاق له في وجوهه، ومن خلال التربية الصالحة للأولاد.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: تعني المجاهدة والمقاومة للعدو الحقيقي: ﴿الشَّيْطَانُ﴾، لأن الدفع أسهل من الرفع، أي إن دفع الشيطان عن أن يوقعنا في الذنوب أسهل من رفع هذه

(١) تعريف عام بدين الإسلام، الطنطاوي، (ص: ١٥٤).

الذنوب إن وقعنا فيها، ولذا قال الله ﷻ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: أي لا يوقعنكم في الفتنة، فإن وقعتم فيها فخرجوا منها وعالجوها قبل أن تعتادوا عليها.

هنا لا بد أن نسأل: لماذا وصف الله ﷻ إبليس بوصف الشيطان ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ مع أنه قد سبق أن سمّاه باسمه المباشر؟

الجواب: أما أولاً فلأن المقصود الآن ليس إبليس وحده، بل جنوده من الجن والإنس، وكلّ منهم يمكن وصفه بالشيطان، وأما ثانياً، فلننظر في هذه البصيرة:

بصيرة: ذُكر كلمة: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ مقترنة بالفتنة يصوّر لنا شِدَّةَ غضب إبليس وقبيله وحقدهم على بني آدم ﷺ، فقد اشتقت كلمة الشيطان من شاط أي غضب واحترق، كما تُظهر هذه الكلمة بُعْدَهُ عن أي خير يمكن أن يَعِدَ به، فهي مشتقة أيضاً من شطن أي بُعْد.

الانتقال:

بعد أن بَصَّرَنَا الله ﷻ بالقانون الأول في قوله: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ وبالقانون الثاني في قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، فماذا يكون القانون الثالث الذي يُبَصِّرُنَا به قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾؟

الجواب:

القانون الثالث: قانون تذكّر المعركة القديمة المتجددة:

وبَصَّرَنَا بهذا القانون قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ۖ﴾ يجب أن نتذكروا مشهدين في المعركة الأولى بين البشريّة والقوى الإبلisiّة: مشهد التكريم الإلهي للبشريّة، ومشهد النسيان للأمر الإلهي ولعداوة إبليس:

فلا تنسوا ما حدث مع أبويكم، فكلمة ﴿مَا﴾ في قَوْلِهِ: ﴿كَمَا أَخْرَجَ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ هُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لـ ﴿يَفْتِنَنَّكُمْ﴾^(١)، وَالتَّقْدِيرُ: أَي لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ فُتُونًا يُظْهِرُ زَيْفَكُمْ، كَمَا يَظْهَرُ زَيْفُ الذَّهَبِ إِذَا عُرِضَ عَلَى فِتْنَةِ النَّارِ، فَتَفْشَلُوا فِي اتِّخَاذِ الْمَوْقِفِ الصَّادِقِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَالْفِتْنَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ لِأَبَوَيْكُمْ ﷺ، فَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ.

وقوله: ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ أَي آدَمَ وَحَوَاءَ ﷺ، وَلِمَاذَا وَصَفَهُمَا بِالْأَبَوَيْنِ، وَلَمْ يَذْكُرْهُمَا بِأَسْمَائِهِمَا؟

الجواب:

بصيرة [١]: لِيَصْرَّحَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْرَكَةَ مُسْتَمِرَّةً، فَكَمَا وَقَعَتْ لِلْأَبَوَيْنِ فَسْتَقَعِ لِلذَّرِيَّةِ.

بصيرة [٢]: لِيَصْرِّحَ اللَّهُ ﷻ بِأَنَّ أَصْلَ الْبَشَرِيَّةِ يَعُودُ إِلَى هَذَيْنِ الْأَبَوَيْنِ، وَهَذَانِ الْأَبَوَانِ لَيْسَ لَهُمَا آبَاءٌ، وَلَا أَسْلَافٌ مِنَ الْخَرَافَاتِ الدَّارَوِينِيَّةِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عَنْهَا الدَّهْرِيُّونَ الْوَثْنِيُّونَ الْمَعَاصِرُونَ.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/٧٧).

بصيرة [٣]: لئلا ننسى فضل هذين الأبوين بعد الكلام عما حدث لهما مع إبليس؛ فإن الذي يسمع ما حدث لهما ربّما يتميز غيظاً من موقفهما، ويتجاوز في الكلام عليهما، فذكرنا الله ﷻ بفضل أُبُوْنَهُمَا لنذكر مع ذلك قوة الانتماء لهما، ونتذكّر انتصارهما أخيراً في تلك المعركة حينما تابا إلى الله ﷻ، ولنثير في أنفسنا الحميّة على عدوّنا وعدوّهما، وهو إبليس وقبيله.

بصيرة [٤]: وليكون ذلك حافزاً لنا من بعدهما للتمسك بعهدهما في عداة إبليس؛ إذ الثأر والعداء بينه وبين أبويننا يقتضي أن نستحضر عداوته، ونجاهر بها، ونجهد ما استطعنا الجهد في مدافعته ومراغمته وإبطال كيده، ولذا قال: ﴿كَمَّا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

فكلمة ﴿أَبَوَيْكُم﴾: مثنى أب^(١)، وهي كلمة تدلّ على التربيّة والتغذية، والتسبّب في الظهور، فيقال: أَبَوْتُ الشَّيْءَ أَبَوُهُ أَبَوًا: إِذَا غَدَوْتُهُ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَ الْأَبُ أَبًا، ويقال: أبوان للأم والأب تغليباً، وَيُقَالُ فِي السُّبَّةِ إِلَى أَبٍ: أَبَوِيٌّ وَمِنْهُ الْوَالِد، ويسمّى كلّ من كان سبباً في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا، «يقال فلان يَأْبُو هذا اليتيم إِبَاوَةً: يَغْذُوهُ كَمَا يَغْذُو الْوَالِد وَلَدَهُ.

(١) مقاييس اللغة (١/ ٤٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٥٦).



وما لَهُ أَبٌ يَأْبُوهُ: أي يَعْذُوهُ وَيُرِيَّهِ، وَأُطْلِقَ الْأَبُ هُنَا عَلَى الْجَدِّ؛ لِأَنَّهُ أَبٌ أَعْلَى، كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١).

﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبُوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾: هذا التذكير بنتيجة فتنة إبليس لأبونا ﷺ يُظْهِرُ لَكَ جَدِّيَّةَ المعركة مع الشيطان، فكأنَّ الله ﷻ يقول لنا: وَجَّهُوا طاقاتكم للتَّبَهُ لهذه المعركة، واحترسوا فهي مستمرة ذات ضراوة هائلة، فلا يستغفلنكم الشيطان فتظنوا أن الأمور كانت بينه وبين آدم وزوجه ﷺ فقط، وأنه لن يفتنكم، بل هو يسعى وراءكم كما يسعى وراء أبويكم ﷺ.

الانتقال: نتقل إلى الجملة التالية في الآية إذ قال الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهِمَا﴾^(٢)، فكان الهدف الأول لإبليس أن يخرج أبونا ﷺ من الجنة، وقد حدث، وهنا يبيِّن الله ﷻ لنا هدفاً ثانياً من أخطر أهداف الشيطان عندما فتن أبونا ﷺ.. فما هذا الهدف؟
الجواب: يبين هذا الهدف القانون الرابع:

القانون الرابع: من أهداف الشيطان الأساسية نزع الحياء الفطري:

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهِمَا﴾^(٣)، فيركِّز الشيطان على التعرِّي ونزع اللباس؛ لأنه يؤدي إلى نزع الحياء الذي هو جزء من فطرة الإنسان، فإن نزع الإنسان لباسه استباح فعل كلِّ القبائح والشهوات المحرَّمة النفسية والمادِّية، أي: لا يفتننكم الشيطان بإيقاعكم في مَكْرِهِ وخِداعه كما خدع أبويكم حال كونه نازعاً لباسهما:
فجُمْلَةُ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في مَوْضِعِ الْحَالِ، أي: لا يفتننكم الشيطان فتنة تؤدي إلى إخراجكم من رحمة الله ﷻ، ومن فطرتكم البشريَّة، كما أخرج أبويكم ﷺ حال كونه ينزع عنهما لباسهما.

(١) البخاري (٢٨٦٤).

وقد تسأل: ولماذا ذكر نزع اللباس بهذه الصيغة ﴿يَنْزِعُ﴾؟

الجواب: لِيُقَطَّعَ لَنَا هَيْئَةُ الْاِخْرَاجِ بِكَوْنِهَا حَاصِلَةً فِي حَالِ اِنْكِشَافِ سَوَاءِ تِهْمَا؛ لِأَنَّ اِنْكِشَافَ السَّوَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْفَطَائِعِ فِي مُتَعَارِفِ النَّاسِ الْأَسْوِيَاءِ^(١).

وَالْتَعْيِيرُ عَمَّا حَدَثَ لِأَبُونَا ﷺ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَنْزِعُ﴾ لِيَسْتَحْضِرَ السَّامِعُ الصُّورَةَ الْمَحْرُجَةَ الْمَزْعُجَةَ الَّتِي حَدَّثَتْ لِهَمَّا؛ إِذْ تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَنْ يَظْهَرَهُمَا عَرِيَانَيْنِ فِي مَكَانٍ يَكْرَهُانِ أَنْ يَظْهَرَا فِيهِ كَذَلِكَ.

وَكَمْ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تِهْمًا﴾ مِنَ التَّحْرِيزِ وَاسْتِثْنَاءِ الْحِمَاةِ تَجَاهِ الشَّيْطَانِ؛ إِذِ الْمَعْنَى: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ أَبِيكَم، وَتَجَرَّأَ عَلَيْهِمَا، وَمَكَرَ بِهِمَا، وَأَوْقَعَ بِهِمَا الشَّرَّ وَالضَّرَّ، فَحَمَّنُ أَنْ تَأْخُذَكُمُ الْحِمَاةُ وَالْحَقُّ، بِمَا يَقْتَضِي نَصَبَ الْعِدَاوَةِ لَهُ وَدَفْعَهُ بِمَا يَتَأْتَى دَفْعَهُ.

فَالشَّيْطَانُ يَرْكُزُ عَلَى فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ، لِذَا جَرَّجَرَ أَبُونَا ﷺ عِنْدَمَا نَفَذَ إِلَيْهِمَا مِنْ خِلَالِ شَهْوَةِ أَنْ يَكُونَا مُلْكَيْنِ أَوْ أَنْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَكَانَتِ النُّتِيجَةُ أَنَّهُ نَزَعَ لِبَاسَهُمَا، وَكَأَنَّ إِيقَاعَهُ لِهَمَّا فِي شَهْوَةِ الْمُتَمَعِّ النَّفْسِيَةِ مِثْلَ حُبِّ الرِّئَاسَةِ وَالْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ مِنْ أَعْظَمِ الْاِنْتِصَارَاتِ، وَهِيَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى نَزْعِ الْحَيَاةِ الطَّيْبَةِ، وَإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ فِي الْعَالَمِ، وَيَسْتَعْمِدُ الشَّيْطَانُ الشَّهَوَاتِ وَسِيلَةَ لَهَا لِاسْتِهْتَارِ الْإِنْسَانِ بِهَا، وَلِتَمَكُّنْهَا مِنْ غَالِبِيَةِ الْجِنْسِ الْإِنْسَانِيِّ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى إِرْجَاعِكُمْ إِلَى الْعُرْيِ بَعْدَ السَّتْرِ، مَعَ أَنَّ السَّتْرَ يَجْعَلُكُمْ فِي مَوْضِعِ التَّقَدُّمِ وَالْمَدَنِيَّةِ ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تِهْمًا﴾^(٧٧)، فَإِنْ عَوَّدَكُمْ عَلَى التَّعَرِّيِ دَخَلْتُمْ فِي مَرَحَلَةٍ مُشَاهِدَةِ السَّوَاتِ الْحَسِيَّةِ، فَيُدْفَعُكُمْ ذَلِكَ إِلَى كُلِّ الشَّهَوَاتِ الْمَحْرَمَةِ.

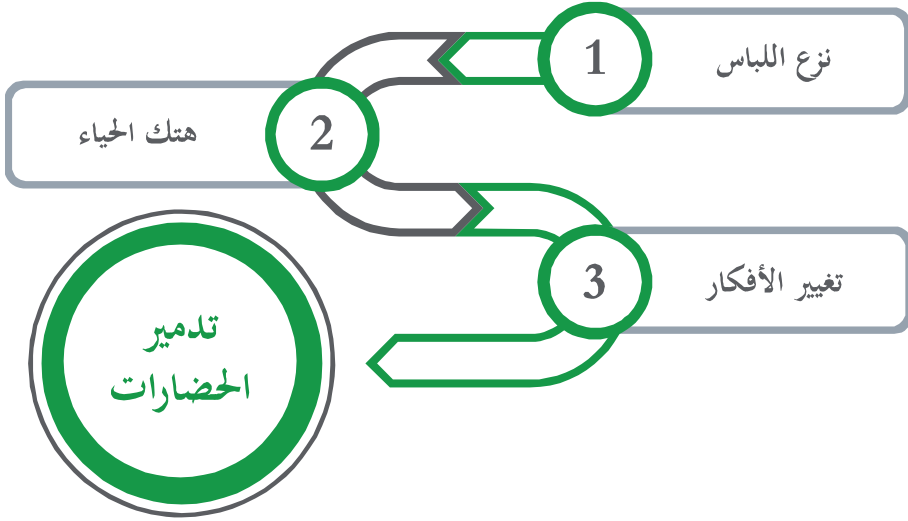
(١) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٨-ب/٧٧).

بصيرة: يركّز الشيطان على فتنة الشهوات؛ لاستهتار الناس بها، ولتمكّنها من غالبية الجنس الإنساني، فهو حريص على إرجاعكم إلى العُري بعد السّتر، مع أن السّتر يجعلكم في موضع التّقُدّم والمدنيّة.

فنزاع اللباس بداية هتك الحياء، وهتك الحياء بداية تغير فكر الإنسان، وانظر إلى الألبسة المحتشمة التي كان عليها أهل أوروبا وأميركا قبل قرنٍ واحدٍ من الزمان، ثم كيف نزاع الشيطان ألبستهم، فتغيرت أفكارهم تجاه الأسرة، مما قد يؤدي إلى تدمير البشريّة، والتغيير الذي سعوا وراءه جعلهم يغيرون شكل الأسرة، فتصبح من نوع واحد أسرة مكونة من اثنين أو من ثلاثة من الذكور أو من الإناث، واستمرارًا في محبة الشهوات المحرمة يبيحون الإجهاض، وهو أبشع جريمة تمرّ في التاريخ لأضعف طفل يُعرَف، وترتب على ذلك ما يسمى بشيخوخة الحضارات وتناقصها.

ويمكن صياغة خُطّة الشيطان في نزاع اللباس وما يترتب عليه في المعادلة الآتية:

نزاع اللباس ← هتك الحياء ← تغيير الأفكار ← تدمير الحضارات



سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ

مُضَلِّسَاتِ سُوْرَةِ الْاَعْرَافِ (٢)

وفي هذا العرض الذي سمعناه هناك "احتباك" في الآية، بذكر شيء وترك شيء في الجملتين

المتقابلتين.. فهلأ تم إيضاحه بصورة مبينة للقارئ؟

الجواب: نعم عندما قال الله ﷻ: ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ فظَّع وبشَّع وأن يقع الإنسان في المعصية، فاسمع للآية مجدداً ﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾، فذكر الفتنة للذرية الآدمية، وذكر مقابل ذلك الإخراج لأبوي الذرية، فنضع كل واحد من الحكم مع المحكوم عليه الثاني بما يناسبه، ويكون التقدير:

لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم من جنة الطاعة كما فتنَّ أبويكم فأخرجهما من الجنة، أو

تقول:

لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم عن الاستقرار والتمتع المقسط إلى حين في الأرض، ويمنعكم من الدخول إلى الجنة بعد ذلك، كما فتنَ أبويكم فأخرجهما من الجنة من قبل.

هنا ربما أعدت السؤال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمًا﴾ فماذا كان عليه الحال من

قبل؟ وهل ولد الإنسان مكسوءًا؟ وما اللباس الذي كان يوارى أبويننا في ذلك الوقت؟

الجواب: تبصّرنا الآية أن الأصل في الإنسان السّتر وليس التعرّي خلافًا لما يحاول بعض المشوّهين من علماء التاريخ والاجتماع أن يثبتوه في الأذهان من أن التعرّي حالة أصلية، فأخبرني ماذا تفهم من قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمًا﴾ [الأعراف: ٢٧]؟

لا تستطيع أن تفهم سوى أن أبويننا ﷺ كان عليهما لباس يوارى سوءاتهما، وأن استجابتهما للوسوسة الشّيطانيّة نتج عنها ذهاب ذاك اللباس، مما أفرعهما؛ لأن التعري ضدّ الفطرة الإنسانيّة، ولما زال اللباس الذي وجد على آدم وزوجه ﷺ فزعا إلى الأوراق يخصفان منها، أي: يجمعان منها على هيئة اللباس المخيط ليسترا أنفسهما، ثم إن الله ﷻ أنزل عليهما وعلى ذريتهما اللباس والريش.

ولقد حاول بعض المفسرين أن يعرفنا اللباس الذي كان على أبويننا قبل الوسوسة الشّيطانيّة، فروى الطبري رحمه الله عن جماعة من أهل التفسير منهم ابن عباس رحمه الله وعكرمة رحمه الله في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قالوا: كان لباسهما الظفّر، فلما أصابا الخطيئة نُزع عنهما، وتُرِكَتِ الأظفار تذكرة وزينة، وقال وهب بن منبه رحمه الله: «كان لباس آدم وحواء ﷺ نورًا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا»^(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٤).

ولكننا نقول: لا يوجد دليل صحيح صريح على هذين الأمرين؛ لأن معرفة ذلك غيبٌ، ولا يوجد عندنا نص ينبئنا بذلك الغيب، وأما نوع اللباس المادي الذين كان يغطيها فلا نعلمه على وجه اليقين، لكننا نتيقن من أن الله ﷻ قد أنعم عليهما بأجمل اللباس الذي يليق بالجنة التي سَكَنَها، ثم أنزل الله ﷻ إلى الأرض أسس صناعة اللباس، وموادَّ تكوينه.

والذي يظهر أنه كان عليهما ملابس كاملة، فلم يكن لباسهما على عورتاهما فقط، بل كان سابغاً شاملاً، ويُحتمل أن اللباس كان من نور، فالنور إذا لَطُفَ كان سبباً في الإبصار، فإذا كثف كان سبباً في التعمية والإبهار.

ويبعد أنهما كانا يمشيان عريانين كما جاء في التوراة المعاصرة، كما يبعد أنهما لم يُدركا ذلك إلا عندما ذاقا الشجرة، فالحياء جزء من فطرة الإنسان حتى الحياء الذي يأتي الإنسان عندما يذكر مراقبة ربّه ﷻ له؛ فعن معاوية بن حيدة ؓ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «أَحْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ؟ قَالَ: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيْنَهَا». قُلْتُ: فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ قَالَ: «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»^(١).

ونقول لمن يزعم أن آدم وحواء ؑ لم يكونا يعلمان عن حال أجسادهما قبل أن يذوقا الشجرة: أنت تعلم أن آدم كان يسكن إلى حواء ؑ، فقد خلقها الله ﷻ للسكن، كما قال جَلَّ مَجْدُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فكيف يمكن أن يسكن إليها ولا يلتصق جسدهما بالآخر؟ فالذي يظهر أنهما كانا يلتصقان ببعضهما عند المعاشرة الزوجية، ويرى الزوج من زوجه، والزوجة من زوجها ما

(١) أحمد (٢٠٣٤)، وحسن الأرنؤوط إسناده، وكذا الحويني في المنيحة (٥١٧).

اعتيد من ذلك، ولكنهما عندما يمشيان في الجنة كان هذا اللباس المخصَّص يغطيها دون أن يتعنيا في أن يخيطا شيئاً، وفزع أبوانا ﷺ عندما سقط اللباس عنهما فبرزتا عاريين في غير وقت اللقاء الزوجي، وهذا ينافي الفطرة الإنسانية القائمة على الحياء.

وبعض المفسرين نصَّ على ما ترتب على رؤية العورات من ذهاب الحياء الذي هو من أهمِّ مقومات التقوى، فلم يقتصر على اللباس المادي المحسوس حتى جاوزته إلى أخيه اللباس المعنوي الأعظم، فعن مجاهد رحمته الله: «يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا» قال: التقوى^(١).

ومن أهمِّ معالم التقوى: الحياء، فَإِنَّ كَشْفَ الْعُورَاتِ مَبْدَأُ تَرْكِ الْحَيَاءِ، وقد ورد عن نبينا ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»^(٢)، و«الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٣).

ولا شك أن كلاً من الأمرين قد حدث: فبنزع اللباس المادي نُزِعَ اللباس المعنوي فشعرا بنقص الإيمان، وتداركا ذلك بالتوبة، فالحياء شُرْطِي الْقِيَمِ، فَإِنْ نُزِعَ الْحَيَاءُ نُزِعَتِ الْقِيَمُ كُلُّهَا، وصراع الحضارة الغربية اليوم هو صراع مع الحياء، فَإِنْ كُسِرَ حَاجِزُ الْحَيَاءِ أَقْبَلَتْ زُحُوفُ الشَّهَوَاتِ تَتْرَى، وَفُتِحَ حَاجِزُ اللَّامَحْدُودِ «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَأَفْعَلْ مَا شِئْتَ»^(٤).

وهل هذه القصة تدلُّ على عدم جواز أن يرى الرجل كامل جسد امرأته، وتري ذلك منه؟

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٥).

(٢) الأدب المفرد (١٣١٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصحَّحه الألباني

(٣) البخاري (٦١١٧)، مسلم (٣٧) من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه.

(٤) البخاري (٣٤٨٣).

الجواب: لا! فَفَزَعُ أَبُوْنَا ﷺ إنما كان من ظهورهما بارزين عاريين في غير وقت اللقاء الزوجي، فذاك ينافي الفطرة الإنسانية^(١)، فلا ينبغي أن يستكثر من ذلك من غير حاجة كما يقول محمد رشيد رضا رحمه الله: «فَإِنْ إِطْلَاقَ الْعِنَانِ فِي الْمُبَاحَاتِ كُلِّهَا قَدْ يُفْضِي إِلَى الْإِسْرَافِ الضَّارِّ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ صَاحِبُهُ زِيَادَةَ اللَّذَّةِ فَيَصْدُقُ قَوْلُ الْأَمْثَالِ: مَنْ طَلَبَ الزِّيَادَةَ وَقَعَ فِي النُّقْصَانِ. وَرُبَّ أَكْلَةٍ هَاضِمَةٍ الْآكِلِ وَحَرَمَتُهُ مَآكِلَ، وَمَا جَاوَزَ حَدَّهُ جَاوَرَ ضِدَّهُ. وَلَكِنَّ هَذِهِ حِكْمَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَفْقَهُهَا إِلَّا حَكِيمٌ خَيْرٌ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ مُنْتَهَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّذَّةِ - وَإِنْ مَبَاحَةً - فَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ حَدِّ آدَبٍ شَرْعِيٍّ وَلَا فِطْرِيٍّ وَلَا طِبِّيٍّ أَلْ أَمْرُهُ فِي الْإِسْرَافِ إِلَى إِضْعَافِ هَذِهِ اللَّذَّةِ، حَتَّى يَحْتَاجَ فِي إِثَارَتِهَا إِلَى الْمُعَالَجَةِ وَالْأَدْوِيَةِ، ثُمَّ لَا تَكُونُ إِلَّا نَاقِصَةً، وَيُكْرَرُ إِضْعَافُهَا بَعْدَ إِثَارَتِهَا بِسُنَّةٍ رَدِّ الْفِعْلِ حَتَّى تَكُونَ مَرَضًا. وَيَكُونُ صَاحِبُهَا حَرَضًا أَوْ يَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ»^(٢).

(١) وأما الحديث المشهور عن عائشة رضي الله عنها: «ما أتى رسول الله ﷺ أحدًا من نسائه إلا متقنعا يرخي الثوب على رأسه، وما رأيته من رسول الله ﷺ ولا رآه مني -تعني الفرج-» فرواه أبو الشيخ رحمه الله في أخلاق النبي ﷺ (٧٤٠)، وهو حديث موضوع فيه محمد بن القاسم الأسدي الكوفي؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في "تقريب التهذيب" (ص: ٥٠٢): "كذبوه"، وروي قريب منه عند الطبراني رحمه الله في المعجم الصغير (١٣٨)، وهو حديث ضعيف، بل روى مسلم رحمه الله في صحيحه (٣٢١) عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ في إناء واحد تختلف أيدينا فيه من الجنابة. وفي صحيح البخاري رحمه الله (٢٥٠) عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد من قدح يقال له الفَرْقُ». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله عند شرح هذا الحديث: «واستدل به الداودي رحمه الله على جواز نظر الرجل إلى عورة امرأته وعكسه ويؤيده ما رواه ابن حبان رحمه الله عن طريق سليمان بن موسى أنه سئل عن الرجل ينظر إلى فرج امرأته فقال: سألت عطاء رحمه الله فقال: سألت عائشة رضي الله عنها فذكرت هذا الحديث بمعناه وهو نص في المسألة». فتح الباري (١/ ٣٦٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٢٣).

عند هذه الحالة من التدبر لا بد أن يلفت نظرك: تكرر ذكر حرص الشيطان على إبداء السوءات، فقد ذكر الله ﷻ هذا الهدف الإبليسي الخطير أربع مرات في آيات متقاربات.. أليس ذلك لافتاً؟

بلى! إن الله ﷻ يحذرننا بذلك تحذيراً شديداً.

فأخبرنا الله ﷻ بالهدف المرحلي الإبليسي الخطير لكشف السوءات أربع مرات في آيات متقاربة، وهي:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ۲۰].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [الأعراف: ۲۲].

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ۲۶].

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ۲۷].

عند هذه الحالة من التدبر لا بد أن يلفت نظرك هذا التكرار: فلماذا هذا التركيز الشيطاني على كشف العورات، ولماذا هذا التنبيه الإلهي على فهم هذا الهدف الشيطاني؟

الجواب: إن الله ﷻ يحذرننا تحذيراً شديداً ليخبرنا بأهم الوسائل التي يستخدمها الشيطان ليسقط الغافلين في شباكه:

وأهم وسائله: وحل الشهوات الجنسية المحرمة، وطريق الإيقاع في الشهوات الجنسية المحرمة جعل التعري أمام الآخرين جزءاً من الحياة الطبيعية.. هناك ينزع البشر الحياء من الله ﷻ، ومن أنفسهم.



وبذلك تُبَصِّرُكُ الْآيَاتُ أَنْ تربط يُسَّرُ بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم والدعوة السافرة لهم إلى العُرْيِ الجسدي باسم الزينة والحضارة والتقدم والحرية!

وتلك من أهمِّ الوسائل التي تكلم أولياء الشيطان عنها بصراحة ليسيطروا على الأمم، فاليهود كثيرًا ما يؤكِّدون أن الذهب الذي يحتكرونه هو أقوى الأسلحة لإثارة الرأي العام، وإفساد الشبان والقضاء على الضمائر والأديان والقوميات ونظام الأسرة، وإغراء الناس بالشهوات البهيمية الضارة، وإشاعة الرذيلة والانحلال، حتى تستنزف قوى "الأميين" استنزافًا، فلا تجد مفراً من القذف بأنفسها تحت أقدام اليهود.

وليتم الوقوع في هذه الشهوات البهيمية يشيعون مبدأ "الحرية" دون قيد، ويركِّزون على حرية الشخص في الجنس المحرَّم، ويخبرون أن الحرية تزجُّ بالمجتمع في نزاع مع كلِّ القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله، ويعتبرون خروج النساء عن أطر الحياء يجعلهن أضمن ناشرات للخلاعة والتَّهْتِك في حيوات المتزعمين على رؤوس الأمم.

والسَّتر ما زال من أعظم مطالب الإنسانيَّة، ولذلك تجد من أعظم الصناعات في الدُّنيا صناعة الألبسة، وفي مقابل ذلك تجد العُرْيَ فطرةً حيوانيةً، لا إنسانية، فمن مال إليه ارتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان. وإن رؤية العُرْيِ جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً، وعندما يصل الإسلام ديار قوم ينقلهم: من العُرْيِ إلى اللباس، ومن الجفاء إلى الحياء، ومن النجاسة إلى الطهارة باستعمال الماء، وانظر لأكثر الحضارات الصناعية تقدُّماً لا يعرف أهلها إلى الآن استعمال الماء في طهاراتهم، بل لا يعرفون ما معنى الطهارة!

وتجتهد الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام في إثبات العري النفسي من الحياء والتقوى طلباً لتتكس البشرية إلى طاعة الشيطان، وإقامة لطقوس الجاهلية الأولى.

وقد يلفتك التدبر في الآية إلى شيء واضح، فتساءل:

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ۖ﴾ فذكر أن الشيطان هو الذي أخرج أبونا ﷺ من الجنة، فهل يعني ذلك أن الشيطان هو المعلوم فقط على وقوع الإنسان في العصيان؟

الجواب: هنا يأتي القانون الخامس:

القانون الخامس: أنت المسؤول عن الوقوع في الذنب، وليس الشيطان، ولذلك خاطبك الله ﷻ مباشرة فقال لك ولي ولسائر أبناء جنسنا: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

اخترس يا ابن آدم، فلو كان الشيطان هو المعلوم فقط لخاطبه الله ﷻ، ولم يخاطبنا.. صرّف اللوم إلى الشيطان تفكير شيطاني.. ما التفكير الشيطاني؟

أن تقول: أخبرنا الله ﷻ بأن الشيطان أخرج أبونا من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما.. ربما تقول: نسب الله ﷻ هذه الأفعال الثلاثة للشيطان: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

هذا تفكير شيطاني حقاً سببه عدم معرفتك باللغة العربية، وهذا التفكير جعلك تحيل ذنوبك على الشيطان، وتظهر نفسك بمظهر غير المعلوم؛ فإنك عندما تجمع بين الآيات تتيقن بأن إبليس تسبب في وقوع أبوي البشرية ﷺ في المعصية لكن ذلك لا يعني أن التبعة على إبليس، وأن أبونا ﷺ لم يكن لهما اختيار.. بل إن الله ﷻ أثبت الاختيار لهما، وحمل الرجل التبعة الكبرى فقال: ﴿وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، فلم يُلَقِ باللوم كله على الشيطان، بل أدرك أبوانا ﷺ شيئاً من ذلك، فقاما يهتفان بوجل وخشوع: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فنسبوا الذنب لهما، وسميّا ظلمًا.



وهذه الوصية أو القانون يمكن أن نسّميه قانون الاحتراس من التفكير الشيطاني، بأن نسب ذنوبنا للشيطان فقط، ولتذكر نتيجةً من أهم نتائج المعركة الأولى مع إبليس: إذ ظهرت ثلاثة نماذج من خلق الله تعالى:

- (١) أنموذج الملائكة عليهم السلام، وهم يوالون الذرية الآدمية، وهو أنموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق.
- (٢) أنموذج إبليس وهو أعدى أعداء الذرية الآدمية، وهو أنموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت.
- (٣) وأنموذج الطبيعة الثالثة المزدوجة وهي الطبيعة البشرية، وقد تميل يا ابن آدم للملائكة، وقد تميل إلى إبليس.

هذا التقرير سيجعلك تتساءل: إذا كنا الملومين، فلماذا أسند الله ﷻ الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان؟

الجواب: لأن الشيطان كان سبباً في ذلك كله، وليشع لك الصورة عندما تتأمل فيها، فكأن الشيطان يقودك عندما تقع في المعصية، فيسوقك إلى حيث شاء، للدرجة التي ينزع فيها عن ابن آدم لباسه، وهل ترضى أن يكون عدوك اللدود هو الذي يقودك ويسوقك إلى تلك القبائح والفضائح التي يُستحيا منها؟ هل يرضى ابن آدم أن يجعل الشيطان ينزع بيده عنه لباسه ليريه سوءته؟

فلما نسب ذلك إلى الشيطان أراد أن يهيج النفسية الآدمية لتكون أشدّ عداوةً للشيطان، فما بالهم عنه غافلين؟



فذكرهم بأن الشيطان سيحاول فتنهم ليمنعهم من حياة الاستقرار والتمتع العادل في الأرض، ثم ليمنعهم من دخول الجنة بعد ذلك، كما فتن أبوي البشرية ﷺ فأخرجهما من الجنة.

الانتقال: أدركنا القوانين الخمسة التي تحتويها بصائر هذه الجمل الأربع من الآية (٢٧):
﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ﴾ ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ﴾ ﴿كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآتِيَهُمَا﴾، فننتقل إلى الجملة الخامسة ﴿اِنَّهُ يَرٰكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ففيها يبين الله ﷻ أعظم وسائل قوة الشيطان ليحقق هدفه في فتنة بني آدم.. فما هذه الوسائل؟
الجواب: هنا يأتي القانون السادس:

القانون السادس: أعظم وسائل قوة الشيطان لتحقيق أهدافه ثلاث:

الخفاء، والمساعدون من القبيل الإبليسي: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، والتجنيد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]:

الوسيلة الأولى: الخفاء.

الوسيلة الثانية: المساعدون من القبيل الإبليسي.

وَيُضَرِّرْنَا بهاتين الوسيلتين قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف ٢٧]، فهو وقبيله من شياطين الجن يعملون في الخفاء، حيث لا يمكن للبشرية أن يروههم، ولو ظهروا لشعر بنو آدم بأنهم أعداء حقيقيون، وهذا الخفاء ولَّد الغفلة عند بني آدم بدلاً من الحذر الشديد، واليقظة الدائمة.

سبحان الله! تنبعث الآيات على أجمل نظام لتهمين على حياتنا، وتَصِفَ لنا بِدَقَّةٍ كيف يتمكَّن الشيطان من أن يسيطر على الإنسان، فهو يستغل قدرته على الاختفاء، فيظن بنو آدم أنه ليس موجوداً في عالمهم، فيغفلوا عن عداوته، ويخبرنا الله ﷻ بهذه القدرة الضخمة التي يتمتع بها الشيطان، بالإضافة إلى أنه يؤكِّد لنا وجود مساعدين من قبيله، فيقول: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾، وهنا يقع ابن آدم في خطئه القاتل، ما الخطأ القاتل؟

الغفلة عن عداوة الشيطان وقبيله، ولذلك نرى تأكيداً في السُّورَةِ على خطر الغفلة.

وقد تتساءل: فما معنى كلمة ﴿وَقَبِيلُهُ﴾؟ وكيف وصفت لنا العدد الضخم من مساعدي

إبليس الذين يساعدونه ولا يستطيع بنو آدم رؤيتهم؟

الجواب: كلمة (قبيل) اشتقت من كلمة (قبل)^(١)، وهي تدلُّ على مُوَاْجِهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، فَالْقَبْلُ أَنْ يَتَقَدَّمَ الشَّيْءُ مُتَصِلًا أَوْ مُنْفَصِلًا، وَالدُّبُرُ أَنْ يَتَأَخَّرَ فِي الشَّيْءِ مُتَصِلًا أَوْ عَنِ الشَّيْءِ مُنْفَصِلًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ [الصفات: ٥٠]، وَقَبَائِلُ الرَّأْسِ: شُعْبَةُ الَّتِي تَصِلُ بَيْنَهَا الشُّوْنُ؛ وَسُمِّيَتْ ذَلِكَ لِإِقْبَالِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى الْآخَرَى؛ وَبِذَلِكَ سُمِيتِ الْقَبَائِلُ، فَهَمُ بَنُو أَبٍ وَاحِدٍ أَفْرَادُهَا يُقْبَلُ أَحَدُهُمْ عَلَى الْآخَرِ وَيُدْبِرُ عَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَقَبِيلُ الْقَوْمِ: عَرِيفُهُمْ. وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُقْبَلُ عَلَيْهِمْ يَتَعَرَّفُ أُمُورُهُمْ، وَيَقُومُ عَلَى شُؤْنِهِمْ، كَمَا قَالَ طَرِيفُ بْنُ تَمِيمٍ الْعَبْرِيُّ:

أَوْكَلَمَا وَرَدَتْ عُكَاطُ قَبِيلَةٍ بَعَثُوا إِلَيَّ قَبِيلَهُمْ يَتَوَسَّسُ^(٢)
فَالْقَبِيلُ غَيْرُ الْقَبِيلَةِ، فَالْقَبِيلُ جَمَاعَةٌ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى، وَجَمْعُهُ قُبُلٌ بَيْنَمَا الْقَبِيلَةُ: بَنُو أَبٍ وَاحِدٍ، وَقَبِيلُ إِبْلِيسَ هُمْ مَجَامِيعُ كَبِيرَةٍ مِنَ الْجِنِّ مِنْ جِهَاتٍ شَتَّى تَسَاعِدُهُ فِي مَهْمَاتِهِ الْخَبِيثَةِ، وَلِذَا قَالَ مُجَاهِدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْقَبِيلُ: الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿قَبِيلُهُ﴾: نَسْلُهُ^(٣)، وَالصَّحِيحُ أَنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مِنْ نَسْلِهِ لَكِنْ ابْنُ قُتَيْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَّعَ الْمَعْنَى فَقَالَ: قَبِيلُهُ: أَصْحَابُهُ وَجُنْدُهُ^(٤)، وَيَنْبَغِي أَنْ يَقَيَّدَ (قَبِيلَهُ) بِأَنَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ فَقَطْ، بِعَكْسِ جَنْدِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَحَزْبِهِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٥٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٥٣).

(٢) البيت منسوب له في مقاييس اللغة (٥/ ٥٣) بهذا اللفظ، وهو في لسان العرب (١/ ٥٤٨) بلفظ (عريفهم) بدلًا من (قبيلهم).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧).

(٤) تفسير الرازي (١٤/ ٢٢٤).

بصيرة: كلمة ﴿قَبِيلُهُ﴾: تصوّر لك كثرة الأنصار والحشود الجنّية الذين ينفذون المهام التي يطلبها منهم، وتصور لك كثرة أحلافه التي لا تقتصر على ذريته، وهي كلمة تخوّف الذرية الأدميّة من ضخامة جهود القبيل الإيليسين فيكونون أكثر حذرًا.

الآن ستقول: اجتمع وسيلتان من وسائل قوة مكر الشيطان في قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّهُ يَرِئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٧): الخفاء، وقبيل إبليس، وقد عرفنا قبيله، فما قصة الخفاء؟

الجواب: هنا ينبّه الله ﷻ البشرية إلى أعظم أسلحة إبليس وقبيله، وهو قدرته على مراقبة الإنسان دون أن يتمكن الإنسان من رؤيته ﴿إِنَّهُ يَرِئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٧). وكلمة ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبهم يراد به التعميم، فالقبيل الإيليسي يرونكم من أي مكان قُرب أم بُعد أي يَرَوْنَكُمْ من أمكنة متعددة دون أن يكونوا مرئيين لكم، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنهم هم من يسيطر على ميدان المعركة للأسف، فيسبّبون الضرر من حيث لا يرى من يسبّبه، فكيف يكون الضرر إذا كنت لا تشعر أنه ضرر، وتصور المسألة: إذا قال لك الطبيب: إنك مريض، فأبيت وأصررت على أنك معافى، والمرض يأكل جسدك.. متى ستعالجه؟!

واسمع لما قاله أحد أساطين علم السلوك والربانية (الإمام ابن محيريز رحمه الله) مصوّرًا ميدان الطراد بين الشيطان والإنسان: «صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك»^(١). ولقد عجبت من قومنا عندما يكون الانتماء المذهبي حاديًا لإظهار

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٣/ ٣١٦).

المخالفة، فتجدهم هنا يجعلون هذه المسألة من مسائل الخلاف: كيف يرى الجن الإنس، ولا يستطيع الإنس أن يروا الجن؟

ثم يعبرون عن الجواب بما ظاهره المخالفة لبعضهم، وباطنه الموافقة في نهاية المطاف، وخلاصة الكلام:

أن الجن يَرَوْنَ الإنس؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِي عُيُونِهِمْ إِدْرَاكًا، وَالْإِنْسُ لَا يَرَوْنَهُمْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ هَذَا الْإِدْرَاكَ فِي عُيُونِ الْإِنْسِ^(١)، وذلك لأن الله ﷻ خلق المخلوقات متفاوتة في القدرة البصرية، فَقَوَى شُعَاعَ أَبْصَارِ الْجِنِّ، وزاد فيه، وَلَوْ زَادَ اللَّهُ ﷻ فِي قُوَّةِ أَبْصَارِنَا لَرَأَيْنَاهُمْ كَمَا يَرَى بَعْضُنَا بَعْضًا، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى كَثَّفَ أَجْسَامَهُمْ، وَبَقِيَتْ أَبْصَارُنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَرَأَيْنَاهُمْ، فَعَلَى هَذَا كَوْنِ الْإِنْسِ مُبْصِرًا لِلْجِنِّ مَوْقُوفٌ إِمَّا عَلَى زِيَادَةِ كَثَافَةِ أَجْسَامِ الْجِنِّ، أَوْ عَلَى زِيَادَةِ قُوَّةِ أَبْصَارِ الْإِنْسِ.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿تَرَدُّ عَلَى النَّظَرِ الدَّارُونِيَّةِ﴾

وعند ذلك لا بد من أن يكون الحذر منه أشد، وهنا يسارع مُنْكَرُو الغيبات فيقولون: هل وجود الجن معقول أم أن ذلك مجرد خرافة؟

الجواب واضح سهل؛ فقد فتح العلم الحقيقي أعينًا عميًا على علوم لم يكن أحد من المتقدمين يتصوّر وصولنا إليها، لكن الغفلة التي ينتج عنها الكبر والظلم ما زالت تسيطر على موقف بعض البشرية:

ألم تر أنك تؤمن الآن بوجود الميكروبات والجراثيم، وهي كائنات كانت غير مرئية لقرون خلت؟

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٢٤).

فالعلم يخبرنا أن هناك مخلوقات لا يمكن رؤيتها إلا بالمجهر الذي يُكَبِّرُ الأشياء، وهل كان الإنسان ليصدق بذلك قبل ثلاثمائة سنة؟. كذلك وجود الجن.

والعجيب أنك ترى بعض الدَّارَوَنَةِ يؤمنون بالتطوُّر، ويزعمون أنه حصلت طفرات خَلْقِيَّة غير مرئية، فوصلت إلى ما وصل عليه الإنسان اليوم. يؤمنون بهذا وهم لم يروا هذه المخلوقات التي زعموا أنها تتحول، وتنقسم فتتحول إلى خلق آخر أعلى منها وأرقى منها حسب نظرية النشوء والارتقاء الداروينية. إذا لماذا لا يؤمنون بوجود الجن؟ بل من عجائبهم أني سمعت واحداً منهم يتكلم عن كائنات فضائية يزعم أنها سبب الوجود في الحياة في الأرض!

تصوُّر الخرافة: يؤمن بكائنات فضائية ولا يؤمن بوجود خالق الجن والإنس.. والجراثيم مخلوقات دقيقة تنفذ إلى البدن بنقل الذُّباب، أو البُعوض، أو القمل، أو البراغيث، أو مع الطَّعام، أو الشراب، أو الهواء، فتتوالد وتُنتَمَّى بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى تُفْسِدَ عَلَى الْمَرْءِ رِئَتَهُ فِي دَاءِ السُّلِّ، وَأَمْعَاءَهُ فِي الْهَيْضَةِ الْوَبَائِيَّةِ، وَدَمَهُ فِي الطَّاعُونِ وَالْحُمَمَاتِ الْخَبِيثَةِ، وَقَدْ أُشِيرَ فِي الْحَدِيثِ إِلَى سَبَبِ الطَّاعُونِ فِيمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ مِنْ وَخْزِ الْجِنِّ^(١)، وَإِلَى دَاءِ السُّلِّ فِيمَا وَرَدَ مِنْ تَحَوُّلِ الْغُبَارِ فِي الصَّدْرِ إِلَى نَسَمَةٍ^(٢).

وقد بيَّن الله ﷻ تفاوت الأبصار بين المخلوقات، فقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وكان النبي ﷺ قد أوتي من قوة الإبصار ما يرى به الملائكة والجن،

(١) الحديث عند أحمد (١٩٥٢٨)، وغيره. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٢٤).

ويرى آيات ربّه الكبرى، وقد قال ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ»^(١)، وهذه القدرة على الرؤية العظيمة ستكون لنا يوم القيامة سواء للمُنْعَمِينَ، اللهم اجعلنا منهم، أو للمُعَذَّبِينَ، نعوذ بالله من حالهم.

الأمر أوضح من أن يوضح، ونحن نعلم أن عددًا من الحيوانات يرون أكثر بكثير مما يراه الإنسان، فالصقر مثلاً، يستطيع اكتشاف الفأر من على بعد كيلومتر واحد، والطيور هي أكثر الفقاريات اعتمادًا على حاسة البصر. ذلك نراه منعكسًا بكون مركز البصر يشكّل نصف الدماغ عندهم، والطيور تتفوق على الإنسان في رؤية الألوان، وربما تتفوق عليهم في تحليل الألوان، والإنسان فيما يذكرون يستطيع التقاط ٦٠ صورة فقط في الضوء القوي، أما الذبابة المنزلية فتستطيع تمييز حوالي ٣٠٠ صورة في الثانية.

ويوضح الشيخ رشيد رضا رحمته الله أنه لو كَانَ الْإِسْتِدْلَالُ بِعَدَمِ رُؤْيَا الشَّيْءِ عَلَى عَدَمِ وُجُودِهِ صَحِيحًا وَأَصْلًا يَنْبَغِي لِلْعُقَلَاءِ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ لَمَا بَحَثَ عَاقِلٌ فِي الدُّنْيَا عَمَّا فِي الْوُجُودِ مِنَ الْمَوَادِّ وَالْقَوَى الْمَجْهُولَةِ، وَلَمَا كُشِفَتْ هَذِهِ الْمَيْكُرُوبَاتُ الَّتِي ارْتَقَتْ بِهَا عُلُومُ الطَّبِّ وَالْجِرَاحَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا، وَلَمَا عُرِفَتِ الْكَهْرَبَاءُ الَّتِي أَحْدَثَتْ كَشْفُهَا هَذَا التَّأثيرَ الْعَظِيمَ فِي الْحَضَارَةِ، وَلَوْ لَمْ تُكْشَفْ هَذِهِ الْمَيْكُرُوبَاتُ وَأَخْبَرَ أَمْثَالُهُمْ بِهَا مُخْبِرٌ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ لَعَدُوهُ مَجْنُونًا، وَجَزَمُوا بِاسْتِحَالَةِ وُجُودِ أَحْيَاءٍ لَا تَرَى يُوجَدُ فِي نُقْطَةِ الْمَاءِ الصَّغِيرَةِ أَلُوفُ الْأَلُوفِ مِنْهَا، بَلْ انْظُرْ إِلَى الْقَوَى الْخَفِيَةِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الْأُمَمُ الْيَوْمَ فِي الْاتِّصَالَاتِ اللَّاسِلِكِيَّةِ - كُلُّهُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ وَقَدْ وَقَعَ بِالْفِعْلِ.

(١) أحمد (٢١٥١٦)، وقال الأرناؤوط: «حسن لغيره، وهذا إسناد منقطع، مَوْزَقٌ - وهو العجلى - لم يسمع من أبي ذر رضي الله عنه»، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٨٠).

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْأَطِبَّاءَ قَدْ ثَبَتَ فَائِدَةُ طِبِّهِمْ وَأَدْوِيَتِهِمْ بِالتَّجَرِبَةِ فَوَجَبَتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ وَالتَّسْلِيمُ لَهُمْ بِمَا يَقُولُونَ - قلنا: إِنَّ فَائِدَةَ طِبِّ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرَثَتِهِمْ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ وَتَهْدِيدِ أَخْلَاقِهِمْ وَصَلَاحِ أَعْمَالِهِمْ أَشَدُّ ثُبُوتًا، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَادِيِّينَ عَلَى ضَعْفِ عُقُولِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا يَقُولُهُ الْأَطِبَّاءُ. وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُمْ بِالرُّؤْيَا، وَلَا بِنَظَرِيَّاتِ الْفِكْرِ، فَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي حِفْظِ أَبْدَانِهِمْ مِنَ الْجِهَةِ الْمَادِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ يَسْلُمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَعُقُولَهُمْ لِلْقَبِيلِ الْإِبِلِيسِيِّ، وَغَالِبًا مَا يَقْعُونَ أَسْرَى لَخِيَانَةِ قَوْمِهِمْ بِالتَّخَابُرِ مَعَ أَعْدَائِهِمُ الْقَوْمِيِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَعِنْدَهَا يَسُومُونَ قَوْمَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ طَلَبًا لخدمَةِ الْعَدُوِّ الْأَجْنَبِيِّ، وَطَمَعًا فِي تَأْتِلِ الْأَمْوَالِ وَالْإِدْخَارِ لِأَوْلَادِهِمْ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ (٧) وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿[الأنفال: ٢٧، ٢٨]..

وما بداية ذلك إلا عدم المبالاة بالحذر من كيد القبيل الإبليسي.

ولقد قال (هَرَبِرْت سِينْسِرْ) (في ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣ م) وهو من أعظم فلاسفة أوروبا: إِنَّ هَذِهِ الْأَفْكَارَ الْمَادِيَّةَ الَّتِي تَغَلَّبَتْ فِي أُورُبَّةَ عَلَى الْفَضَائِلِ قَدْ مَحَتِ الْحَقَّ مِنْ عُقُولِ أَهْلِهَا، فَلَا يَعْقِلُونَ مِنْهُ إِلَّا تَحْكِيمَ الْقُوَّةِ، وَسَتَتَخَبَّطُ بِهِ الْأُمَمُ وَيَتَخَبَّطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ هُوَ الْأَقْوَى فَيَكُونَ سُلْطَانُ الْعَالَمِ، وَقَدْ تَنَبَّأَ بِوُقُوعِ حَرْبِ ضُرُوسَ بَيْنَ الْمَادِيِّينَ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحَرَبِينَ الْعَالَمِيَّتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ^(١).

استراتيجيات مواجهة القبيل الإبليسي:

وهنا لا بد أن تتساءل: ﴿إِنَّهُ يَرِذُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] إذا كان القبيل الإبليسي يرى البشرية دون أن يقدر البشر على رؤيته، فما السبيل للانتصار عليه؟

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٢٦، ٣٢٧).

الجواب:

ليحقق البشر انتصارًا حقيقيًا وضع الله ﷻ استراتيجيتين في مواجهة القبيل الإبليسي:

الأولى: استراتيجية المقاومة والدفع:

وتعني أنه يجب على الإنسان أن يقوِّي مركزه وموقفه، ويزيد في مناعته باليقظة الدائمة أمام القبيل الإبليسي بأن يستعيد الإنسان بالله من الشيطان الرجيم، ويزداد من الطاعات ليقوِّي مرتبة التقوى، ويُخلص العبادة لله ﷻ، ويتخلَّق بما أمر به.

إنك لتشعر بأن صفة الخفاء صفة قوة عظيمة عند القبيل الإبليسي، فعن مالك بن دينار رحمته الله: «إِنَّ عَدُوَّكَ لَا تَرَاهُ لِشَدِيدِ الْمُؤَنَةِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ»^(١)، لكن الله جلَّ ثناؤه سلب إبليس القدرة على كيد البشرية إلا من خلال الوسوسة والتحريش، فلو كان إبليس وقبيله يقدرون على شيء أكثر من الوسوسة لجلبنا إلى المعاصي وجلب المعاصي إلينا دون أن يكون لنا أدنى إرادة، لكن الله ﷻ لم يُمكنه من ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً - أي فحمة - أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أي يفكر الإنسان بمعصية عقلية من الشبهات أو مادية من الشهوات تفكيرًا يفزعه، فماذا يفعل؟

فَقَالَ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ - أي الشيطان - إِلَى الْوَسْوَسةِ»^(٢).

(١) تفسير الزمخشري (٩٨/٢).

(٢) أبو داود (٥١١٢). وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح»، وقال الوادعي في الصحيح المسند (٥٩٩): «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين».

والوسوسة تستطيعون يا بني آدم دفعها إذا استعذتم بالله جلّ في علاه، فقد اكتسب القبيل الإبليسي نقطة قوة في مراقبة عدوّه من البشرية في الخفاء لكن مؤامراته لتدمير البشرية يعترها الضعف؛ إذ لا يقدر على أكثر من الوسوسة، ولذا وصف الله ﷻ كيده بالضعف، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولكن البشرية لا يمكنها الانتصار على هذا العدو الدائم الحريص على تدميرها إلا بالرجوع إلى ربّها ﷻ الذي خلق الطرفين، وهو أعلم بحقائق كلّ منهما، واختار بعض البشرية أن يلجأ إلى الاستسلام لقبيل إبليس لينجو بزعمه من الهجمات الضارة التي يشنها عليه كما قال تعالى جده: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].. ماذا يفعل هؤلاء؟

يقوم السحرة والدجالون بإظهار شفاء الناس ومساعدتهم عندما تنزل بهم الأمراض الغريبة مثل ادعاء ردّ المفقودين، وإعادة المحبة بين المتزوجين والعشاق بالحيل الشيطانية كأن يعقدوا جلسات خاصة يسمونها (الزّار) الذي يُخْرِجُونَ بِهِ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْأَجْسَادِ بِزَعْمِهِمْ^(١)، ويتقربون فيه إلى الجن لإبعاد الرهق الذي أصاب الإنسي منهم، مع أن الله جلّ ذكره لخص طريقة النجاة من الرهق الذي يحدثه القبيل الإبليسي على ألسنة الجن أنفسهم، إذ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا أَلْهَدَىٰ ءَامَنًا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

ومن أخفى ما يقوم به القبيل الإبليسي لتدمير البشرية: التخطيط العميق لصرف البشر عن مواسم الرحمة الإلهية لتحويلها من مواسم طاعة إلى مواسم معصية.. مثل ماذا؟

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٢٧)

مثل: مكة، ورمضان، والحج، وقيام الليل، والإحسان إلى المحتاجين.. فيدفعون أتباعهم من الإنس ليصدوا بقية البشرية عن استغلال هذه الأوقات الفاضلة التي ربما غُفرت لهم فيها الذنوب.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «افْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رُوعَاتِكُمْ»^(١)، وفي رواية عن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه: «إِنْ لَرَبِّكُمْ صلى الله عليه وسلم فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٢).

وإنك والله لتعجب كيف يتمكن القليل الإبلسي من حشد أنصاره من البشر يوحون إليهم زخرف القول غرورًا ليغوا بقية البشرية عن التعرُّض لنفحات الله صلى الله عليه وسلم التي يحبها الإنسانية! وبدلاً من أن تكون مواسم للغفران تصبح مواسم للسخط والتفنُّن في العصيان.

ليتمكن الإنسان من دحر الشيطان يجب أن يستقيم على النظام الحيوي الذي وضعه الله صلى الله عليه وسلم في جانب الأمر (افعل)، وفي جانب النهي (لا تفعل)، ويروِّض النفس على ذلك حتى تصبح الاستقامة مَلَكَةً راسخة، وعادة دائمة، فينزعج إذا نام مثلاً وأُذِنَ المؤذن وذهبت عليه

(١) المعجم الكبير (٧٢٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٣١): «رواه الطبراني، وإسناده رجاله الصحيح غير عيسى بن موسى بن إلياس بن البكير، وهو ثقة»، وتعقبه الألباني (١٨٩٠)، فضَعَّفَ موسى بن عيسى، وذكر أن فيه انقطاعاً، ولكنه حسَّنه بحديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط، وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً به. رواه الخرائطي في "مكارم الأخلاق" كما في "الجامع الكبير" (٢ / ٤٩ / ١).

(٢) المعجم الأوسط (٢٨٥٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٣١): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه، وفيه من لم أعرفه، ومن عرفتهم وثَّقُوا»، وذكره الألباني في الصحيحة (١٨٩٠) شاهداً محسناً به حديث الطبراني في الكبير: «افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله...».

تكبيرة الإحرام. لابد أن يتعوّد الإنسان على الانزعاج والقلق في مثل هذا الموقف، كيف يمكن أن يستطيع النجاة من القبيل الإبليسي وهو يقع في المعصية ولا يزعج منها؟ وهنا لا يستطيع الشيطان اختراق الإنسان بسبب ذلك بسهولة، وقد اعترف إبليس بقوة هذا العلاج، وأهميته، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿[الحجر: ٣٩-٤٢]﴾، وقد ذكر الله تعالى هذه الاستراتيجية الدفاعية الصلبة أمام القبيل الإبليسي في هذه السورة، فقال: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأعراف: ٢٠٠]﴾ الاستعاذة معناها أن يتكلم الإنسان فيقول: أعوذ، وكذلك أن يشعر بواقع ذلك بأن يشعر بأنه التجأ إلى الله ﷻ، ولجأ إليه، ووجد الملاذ الذي يحميه من عدوه، وقد تصفو النفوس المخلصة المتعلقة بالله ﷻ صفاء مدهشاً حتى لا يستطيع القبيل الشيطاني التأثير عليها، فمن هذه النفوس: نفس عمر بن الخطاب ؓ، إذ قال له رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ» (١).

وهاهو شاعر البصائر يستحثك لمنازلة عدوك وقبيله، يندبك لملازمة الرباط في الميدان فلا تغفل عن كيده ووحى وساوسه:

لَا زِمَ حُصُونَكَ لَا تُغَادِرْ صَرْحَهَا
وَأَشْدُدْ سِلَاحَ الذِّكْرِ نَحْوَكَ وَاسْتَعِنْ
مَا زِلْتَ فِي سَاحِ الزَّلَالِ فَلَا تُضِعْ
النَّفْسَ تَطْمَحُ وَالْهَوَى يُرْدِي الْقَتَى
حَازِرٌ مِنَ الْوَسْوَاسِ وَالْخَنَاسِ
بِاللَّهِ رَبِّكَ مَالِكِ الْأَنْفَاسِ
سَهْمًا شَدَدَتْ بِمَنْزَعِ الْأَقْوَاسِ
وَيُؤَزُّهُ إِبْلِيسُ ذُو الْإِبْلَاسِ

(١) البخاري (٣٢٩٤).

مَا زِلْتَ فِي مِيدَانِ حَرْبِكَ لَا تَدَعُ
تَغْرًا لِصَائِلِ جَنْهَا وَالنَّاسِ^(١)

الثانية: استراتيجية الرفع:

ولكنك قد تقول: فإن وقع المرء في فخ الشيطان، فهزمه الشيطان، واستعبده، فهل يمكنه أن

يتحرر من هذه الهزيمة؟

الجواب: هنا يطبق الاستراتيجية الثانية، وهي استراتيجية الرفع عند وقوع الإنسان مهزوماً

أمام القبيل الإبليسي:

فإذا قارف المرء شيئاً من المعاصي التي يوسوس القليل الإبليسي له ليفعلها، فيجب على الإنسان المبادرة إلى التوبة، كما يبادر إلى أخذ العلاجات اللازمة لرفع الضرر الذي أحدثته الجرائم والبكتيريا الضارة في جسده، والتوبة تعني التذكر والانتباه، وقد ذكر الله ﷻ بداية هذه الاستراتيجية الصلبة أمام القبيل الإبليسي في هذه السورة أيضاً، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والتذكر يقتضي الاستغفار، وأن نفعل ما فعله أبوانا ﷺ عندما وقعا في المعصية: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقد لخص ابن رسلان رحمه الله استراتيجية الدفع والرفع فقال^(٢):

وَلَا تَخَفْ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ
فَإِنَّهُ أَمْرٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
فَإِنْ تَخَفَ وَقُوعَهُ مِنْكَ عَلَى
مَنْهِيٍّ وَصَفٍّ مِثْلَ إِعْجَابٍ فَلَا
وَإِنْ يَكُ اسْتَغْفَرْنَا يَفْتَقِرُ
لِمِثْلِهِ فَإِنَّا نَسْتَغْفِرُ

(١) الآيات للدكتور/ سعيد بن دحاج - وفقه الله - . ينظر: عتب القوافي (ص: ٤٥).

(٢) متن الزُّبْد (ص: ٣٤٠-٣٤٢).

فَاعْمَلْ وَدَاوِ الْعُجْبَ حَيْثُ يَخْطُرُ
وَأِنْ يَكُنْ مِمَّا نُهَيْتَ عَنْهُ
فَإِنْ تَمَلَّ إِلَيْهِ كُنْ مُسْتَغْفِرًا
فَيَغْفِرَ الْحَدِيثَ لِلنَّفْسِ وَمَا
فَجَاهِدِ النَّفْسَ بِأَنْ لَا تَفْعَلَا
وَحَيْثُ لَا تُقْلِعْ لِاسْتِلْذَاذٍ
فَاذْكُرْ هُجُومَ هَازِمِ اللَّذَاتِ
وَأَعْرِضِ التَّوْبَةَ وَهِيَ النَّدَمُ
تَحْقِيقُهَا: إِقْلَاعُهُ فِي الْحَالِ

مُسْتَغْفِرًا فَإِنَّهُ يُكَفِّرُ
فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاحْذَرْنَاهُ
مَنْ ذَنْبِهِ عَسَاهُ أَنْ يُكْفِرَا
هَمَّ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمَ
فَإِنْ فَعَلْتَ تُبْ وَأَقْلِعْ عَجَلًا
أَوْ كَسَلٍ يَدْعُوكَ بِاسْتِحْوَاذٍ
وَفَجْأَةً الزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ
عَلَى ارْتِكَابِ مَا عَلَيْكَ يَحْرُمُ
وَعِزُّمُ تَرْكِ الْعَوْدِ فِي اسْتِقْبَالِ

الانتقال: أدركنا وسيلتين من وسائل القوة التي يعتمد عليها إبليس ليتمكن من البشرية، وهما الخفاء، والمساعدون من قبيله، فما الوسيلة الثالثة التي تبصّرنا بها الجملة السادسة من جمل الآية (٢٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟

الجواب:

تبصّرنا بالوسيلة الثالثة من وسائل قوة إبليس، وهي:

الوسيلة الثالثة: التجنيد:

ويبصّرنا بها قوله تعالى جده: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٢٧]، والفرق بين هذه الوسيلة والوسيلة السابقة أننا نجد في الوسيلة السابقة مساعدين من قبيله من الجن، بينما نجد في هذه الوسيلة عملاء مُجَنَّدِينَ من أعدائه من الإنس، بأن يستحوذ وقبيله في خفائهم على مجموعة من الإنس، ويجندوهم ليصبحوا أولياءهم، ويكونوا جنودًا

مخلصين، فيقومون في عالم الإنس بدوره الذي لا يستطيع أن يقوم به، فهو يحكم في الباطن الخفي، وأولياؤه يقومون بالدور الظاهر الجلي.

هذه الوسيلة من أسوأ وسائل العدو وأقواها أثرًا.. لماذا؟

لأنه يتمكّن من خلالها من تجنيد مجموعة كبيرة من أعدائه من البشرية لا ليساعده فقط، بل ليحبّوه ويوالوه ويقوموا بدوره، وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون.. هؤلاء يقومون بالعبث في الحياة الدنيوية.

فَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ أَنْ يَكُونُوا خَدَمًا عِنْدَ إِبْلِيسَ؟

يصفهم الله تعالى وصفًا دقيقًا، فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، فهم الذين يشبهونه في الاستكبار والظلم وإباء النظام الإلهي، وإذا جندهم معه وسوس لهم ليزدادوا إثمًا حتى يوصلهم من مرحلة التجنيد والخدمة إلى مرحلة الولاية. يا له من وصف قرآني عميق! ويا لها من ولاية مدمّرة!

ستسأل: كيف تصوّر هذه الآية المباركة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾؟

القوة المدمّرة التي يعتمد عليها إبليس وقبيله في تدمير البشرية؟

الجواب: كلمة ﴿إِنَّا﴾ تصوّر لك التأكيد على أن الشياطين سيكونون "أولياء أمر" لهذه الفئة الغافلة المستكبرة الظالمة ممن وصفهم الله ﷻ بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

و﴿الشَّيَاطِينَ﴾ هنا يُراد بهم إبليس وقبيله؛ لأنه تقدّم ذكرهم، وتعال الآن لهذه الكلمة الخطيرة ﴿أَوْلِيَاءَ﴾^(١)، فهي جَمْعٌ وَلِيٍّ، مِنَ الْوِلَايَةِ بِكَسْرِ الْوَاوِ: وَهِيَ النُّصْرَةُ أَوِ الْمَحَبَّةُ، وَمِنَ الْوِلَايَةِ بِفَتْحِ الْوَاوِ: أَيِ تَوَلَّى الْأَمْرَ، وكلاهما مشتقٌّ من الولاء والتوالي بأن يحصل شيان

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٢٨)، مقاييس اللغة (٦/ ١٤١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٣).

فصاعداً حصوْلاً ليس بينهما ما ليس منهما، أي: ليس بينهما ما يفرقهما، وهذا يدلُّ على القرب الشديد الذي يصل إلى ما يشبه التلاصق، والوَلِيُّ: القربُ والدنوُّ، ومنه قول النبي ﷺ: «كُلُّ مِمَّا يَلِيكَ»^(١)، أي مما يقاربك قريباً مباشراً.

فصارت الولاية والموالاتة والولاء تدلُّ على شِدَّةِ التلاصق وعدم الانفكاك الذي يؤدي إلى اعتزاز الولي بوليهِ، وشعوره بالقوة بوجوده، وقربه منه من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولي والمولى يستعملان في معنى الفاعل أي المُوَالِي، وفي معنى المفعول أي المُوَالَى، وبذا يكون لقوله تعالى مجدّه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧﴾ معنيان:

الأول: جعلنا شياطين الجن أولياء أمرٍ يتسلطون على الذين لا يؤمنون، فيوسوسون لهم، فيطيعون، ويوجهونهم نحو الإجرام والعصيان والفاحشة فيستجيبون.

الثاني: جعلنا شياطين الجن محبين للذين لا يؤمنون؛ لأنهم يجدونهم مُنْفِذِينَ لمطالبهم، قائمين بالأدوار التي لا يستطيع الجن القيام بها، وجعلنا الإنس محبين لشياطين الجن، فهم ينتمون إليهم، ويدافعون عن مطالبهم، شعروا أم لم يشعروا، فبعض الإنسانية قد أقام كنائس لعبادة الشيطان، ويحتفلون بذلك تحت سمع العالم وبصره، بل يبرِّئون إبليس من تهمة الظلم والإجرام، ويعقدون له المسلسلات التي تبرِّئه، وبعضهم يحبُّ إبليس وقبيله وإن لم يعترف بوجوده.

(١) البخاري (٥٣٧٧)، مسلم (٢٠٢٢).

وبذا تتولى شياطين الجن أمر الذين لا يؤمنون حُكْمًا ومحبةً ونصرةً، فهم أقرب إليهم من غيرهم، حتى يجعلوهم بمنزلة أرواحهم، وذلك يعني أنهم يتصرفون فيهم كما شاءوا، فالولاية أعلى درجات التحالف؛ إذ صارت أقرب إلى الامتزاج منها إلى التحالف.

وبإعمالنا لمفهوم المخالفة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧) نخلص إلى أن أهمَّ ضمانات مدافعة الشيطان، وإبطال مخططاته الأثيمة تقوية جبهة الإيمان، وحمل النفوس على التحقق بمعالمه وحقائقه، لتكون حاجز ردٍّ، وكتيبة صدٍّ أمام هجماته، فلا خلاص من كيد الشيطان، إلا بالتحرُّز في حصن الإيمان، واللياذ بكنف الرحمن.

فقول ربَّنَا ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: قُرباءَ وقُرباءَ وأعزاء وحلفاء ﷻ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) أي: الذين يمتنعون عن الإيمان لغفلتهم، أو استكبارهم، أو ظلمهم، أو شهواتهم ولرغبتهم في التروُّس، ولماذا يكون الشياطين أولياء لغير المؤمنين؟

لأنَّ بَيْنَهُمْ تَنَاسُبًا فِي الطَّبَاعِ يُوجِبُ التَّقَارُبَ وَالْإِتِّبَاعَ^(١) كما يقول البقاعي ﷻ، ويمكنك أن تقول: لا اشتراكهم في الوسائل والأهداف، فالشيطان أراد الشهوات العاجلة، وهؤلاء أرادوا ذلك أيضًا.

وقد تكون هذه الولاية بالسوسوسة الدائمة مع طاعة الآدمي لها، وقد تكون بالتواصل المباشر مع الجنِّيِّ لمن كان يستطيع ذلك من الكهنة، ولذلك لا بد أن يستعيذ الإنسان من الشيطان الرجيم صادقًا بصورة دائمة، ولنقص هذه القصة القديمة التي يحدث مثلها في عالمنا بصورة أوسع، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ لشيءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لَا أَطْنُهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَطْنُ.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٨٢).

بَيْنَمَا عُمَرُ ۞ جَالِسٌ، إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ، فَقَالَ عُمَرُ ۞: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ: لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتَقْبَلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، قَالَ: فَإِنِّي أَعِزُّمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي، قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جَنِّيَّتُكَ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ، جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجَنَّ وَإِبْلَاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالْقَلَاصِ، وَأَخْلَاسِهَا، قَالَ عُمَرُ ۞: صَدَقَ - أَي هَذَا الرَّجُلُ فِي كَلَامِ الْجَنِيَّةِ لَهُ -. ثُمَّ قَالَ عُمَرُ ۞: بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهِتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعَجَلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ، لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ: يَا جَلِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحُ، رَجُلٌ فَصِيحُ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَوَثَبَ الْقَوْمُ، قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا، ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحُ، رَجُلٌ فَصِيحُ، يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقُمْتُ، فَمَا نَشَبْنَا أَنْ قِيلَ: هَذَا نَبِيٌّ (١).

فترى أن عددًا من المشركين كانوا وما زالوا يؤمنون بالشياطين على سبيل الحقيقة في حياتهم.

وفي السورة نفسها ضرب مثلاً لمن تفوَّق على أستاذه في الشيطنة، حتى بات الشيطان من أتباعه ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]... قال القاضي أبو السعود ۞: «أي: تبعه حتى لحقه وأدركه، فصار قريناً له، وهو المعنى على قراءة (فاتَّبعه) (٢) من الافتعال، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية، أو أتبعه خطواته» (٣).

(١) البخاري (٣٨٦٦).

(٢) قراءة شاذة، قرأ بها: طلحة بخلاف عنه، والحسن في ما روى عنه هارون. يُنظر: تفسير البحر المحيط (٥/ ٢٢٢).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٩٢).

والآن اربط بين قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله في أول السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

[الأعراف: ٣].. ماذا تجد؟

الجواب: يستبين لك قوّة الاتصال بين الآيات في السورة، فمن أعظم مقاصد السورة الأمر بولاية الله تعالى، والتحذير من ولاية غيره، فكيف يوالي بني آدم من أخرج أبويهم من الجنة، والله ﷻ يحذّرهم من أول السورة من هذه الولاية المدمّرة؟

الانتقال:

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: هذه الآية تكملة مباشرة للآية السابقة، فهي جزء من البيان الذي يقدمه النداء الثاني، وهذه الآية تمدّننا بالقانون السابع من قوانين هذا النداء:

القانون السابع: يجب أن يحذر بنو آدم من أبرز مظاهر ولاية الشيطان:

وأبرزها تقنين الفواحش، وتطبيع الحياة معها، فتصبح طبيعية، فهذا هدف الشيطان من رغبته في إبداء السوءات، ويُبصّرنا بذلك قول ربنا جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (٢٨) .

فبيّن الله تعالى في الآية السابقة حرص الشيطان على فتنتنا لأننا بنو آدم، وذكرنا بالمعركة القديمة المتجدّدة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾، وأخبرنا أن من أهداف الشيطان الأساسية نزع الحياء الفطري عن طريق نزع اللباس ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا

﴿٢٧﴾، فيركز الشيطان على نزع اللباس والتعري؛ لأنه يؤدي إلى نزع الحياء الذي هو جزء من فطرة الإنسان، فإن نزع الإنسان لباسه استباح فعل كل القبائح والشهوات المحرمة النفسية والمادية.

ومعنى الآية: لا يفتنكم الشيطان بإيقاعكم في مكره وخداعه كما خدع أبويكم حال كونه نازعاً لباسهما، وأظهر الله تعالى لنا أن أعظم وسائل قوة الشيطان لتحقيق أهدافه ثلاث: الخفاء، والمساعدون من القبيل الإبلسي ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف ٢٧]، والتجنيد ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والآن نقلنا الله ﷻ إلى بيان السبب الذي لأجله يوالي بنو آدم الشيطان، ويمتنعون عن الإيمان، وهو السبب نفسه الذي لأجله يريد الشيطان نزع اللباس: إنه المحبة لأن تشيع الفاحشة في المجتمعات: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، بعد أن يوقع الشيطان بعض البشرية في الفتنة، ويتخذ أولياء من الذين لا يؤمنون، هنا يبين الله ﷻ أن الأمور الظاهرة لولاية الشيطان: أن يشيع بينهم اعتياد التعري، ثم يطبع حياتهم على فعل الفاحشة، فقال جل ثناؤه كاشفاً لهذه الولاية الشيطانية: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾، ففعل الفاحشة وتطبيعها في الحياة هدف مشترك بين الشيطان وأوليائه، فهو يريد إيقاعهم فيها، وأوليائه من بني آدم يحبون إشاعتها.

وستساءل: ما معنى الفاحشة؟ هل معنى ذلك أن كل شهوة جسدية مادية تكون فاحشة؟
الجواب:

الفاحشة^(١) مثل الفُحْشِ وَالْفَحْشَاءِ: ما عَظُمَ قبحه وشناعته من الأفعال والأقوال مما كان الذنب فيه متجاوزاً لحدِّ الذنب المعروف في كثرته وقوّته، فيُكَنَّى بها عن الذنوب الفظيعة التي يُتَقَرَّرُ منها، وَيَنْفَرُ منها أصحاب الفِطَرِ السليمة، والعقول الراجحة، كما في قول ربنا: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومن أبرز ما يدخل فيها: الزنا كما في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وإذا أُطلقت في معرض التحديد فهي إتيان الذكران: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وبذا يدخل في الفاحشة الجرائم الكبرى، مثل: الزنا وإتيان الذكران، وَالْوَأْدُ، وقتل الأطفال في بطون أمهاتهم، وَالسَّرِقَةُ، وكَشْفِ الْعَوْرَةِ في الطَّوَافِ، وغيره...

وعلى هذا فقضاء الشهوة الجسدية المادية إذا كان عن طريق حلال فهو مطلوب لإقامة الحياة وإعمارها، وهدف الشيطان أن يفعل الإنسان ذلك عن طريق محرم.

حجج إبليسية لفعل الفاحشة وتقنينها:

وبعد أن استبان لنا معنى الفاحشة تصوّر لنا الآية في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أن عدداً من بني آدم يفعلونها، ولكنهم لا يكتفون بفعل الفاحشة، بل يخلطون الأعذار التي تجعل فعلهم لها مشروعاً، ويضعون القوانين التي تنظمها، ويستدلّون بحجج على فعلهم، فما هذه الحجج؟

الجواب: يشرّعون جرائمهم، أي يجعلونها شرعية، بأن يُقنّنوا حياة الفاحشة ليجعلوا منها واقعاً طبيعياً، والطهارة واقعاً شاذّاً، فيضعون لها قوانين تشرّعها، وحسبك أن ترى الوفود الشَّيطَانِيَّة تَفْدُ إلى بلدان البشر الذين يسرون على منهج الفطرة والحياء والدين، فتأتي هذه

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٢٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٣٧).



الوفود لتطلب منهم قتل الأطفال باسم حرية الاختيار في إباحة الإجهاض، وتشريع لهم ترك الزواج الذي يؤدي إلى بث الحياة الإنسانية باسم الحرية في ممارسة الجنس عبر الزنا أو الاستمتاع بالجنس المثلي... تصوّر! يصبح الشاذون طبيعيين، ويطالبون من الطاهرين أن يعالجوا العقد التي عندهم!!

ولا تترك الآيات حائراً كيف يمكنهم أن يفعلوا ذلك، فتبصّر بأنهم يعتمدون على حجّتين تشريعتين تُشرّعان الفاحشة:

الحجة الأولى: التمسك بعهد الآبائية الإنسانية، والتقليد البائس الكاذب:

وَيُصَيِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، فيجعلون

الفاحشة هي الأصل، ويزعمون أنها كانت منهج الآباء الأولين:

لكنك ستقول لهم: لم يكن الآباء الأولون يبيحون الزنا مثلاً، وهنا ينبعث لك من يقول لك: غير صحيح، فإنسان العصر الحجري هو إنسان الكهوف لم يكن يعرف الزواج، ولم يكن قد تعلم كيف يخطط الثياب، هذا التقيد للتعري والفاحشة تسمعه في العصر الحاضر، وهنا تدرك لماذا أخبرنا الله ﷻ بأنه أنزل اللباس مع إنزال آدم وزوجه ﷻ، فالزواج شرع منذ أن خلق الله ﷻ حواء ﷻ ليسكن إليها آدم ﷻ، واللباس كان جزءاً من الواقع الإنساني، ولم يُنزع من الجسد خارج اللقاء الزوجي إلا عندما أكل أبوانا ﷻ من الشجرة.

وأما عندما نزلت الآية فإن كفار قريش وجاهليي العرب والعجم كانت تشيع عندهم الفاحشة بأنواعها، مثل ما كانت تشيع الوثنية، وأكل مال اليتيم، والتعري، والزنا، والتطفيف، وقتل الأطفال، وغير ذلك من الفواحش.

عندما تسألهم: من أين وجدوا شرعية فعل الفاحشة، يحتجون بآبائهم، ويزعمون أن ذلك تشريع فرضته العادات والتقاليد الآبائية، ويقدمون التقليد على الحقائق الواضحة.

تصوّر ذلك!.. أناس منحهم الله ﷻ العقول يميّزون بها الخير من الشر، فيصرّون على إلقاء عقولهم بعيداً، ويحتجّون بالتقليد، ويلوذون بالعادات السّابقة لآبائهم، ولم يجبههم الله ﷻ عن هذه الحجة بصورة مباشرة هنا؛ بل أجابهم في آيات أخرى مثل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولا بد أن نُعمل الفكر: لماذا لم يرد الله ﷻ عليهم هنا مباشرة؟

الجواب: لأن سياق السّورة هنا يبين أنهم يكذبون، فقد حدثنا الله ﷻ في هذه السّورة خاصّة عن بداية البشريّة، ويبيّن لنا أن بداية البشريّة اقترنت بالستر من جهة، وبكوين الآل أو الأهل أو الأسرة من جهة أخرى، فقد خلق الله ﷻ حواء ﷺ ليسكن إليها آدم ﷺ، فهما محتاجان لبعضهما بطريق شرعي، فكيف يزعمون أن: التعرّي أصل، والله ﷻ أنزل اللباس معهما؟! وكيف يزعمون أن إشاعة الفاحشة أصل والله ﷻ خلق حواء لآدم ﷺ، وجعله لها، فكوّنا معاً أول أسرة بشرية؟

ستقول: لأنهم لا يؤمنون بذلك، ونحن نعطي هذه الحقائق للذين يؤمنون، ولكنهم يتابعون من يشيع الفاحشة.

أما في سورة البقرة والمائدة فإن السياق فيه كلام عن آبائهم الذين قد شاع فيهم ما ينافي الفطرة، مثل: الوثنية، وفعل سائر الفواحش، فردّ الله ﷻ عليهم بصورة مباشرة.

ويمكنك تنزّلاً أن تجاريهم في كذبهم، وتسألهم: فهل كانت هذه الاختراعات الضخمة عند الآباء؟ هل كانت توجد عندهم السيارات والطائرات والمكيفات وهذه الاختراعات المذهلة؟

إذن فليس كلُّ ما كان عليه الآباء لا بد من الثبات عليه لكن الذي يجب الثبات عليه هو ما كان فطرياً مثل الستر، فهذه الحجة المزعومة تدلُّ على بلادة العقل، وسفَه التفكير.. كيف تجعل العادة التي عند الآباء بديلاً عن العلم والاكتشاف والهداية؟! وتعجب ممن يبحث في دنياه في دقائق المواد والعلوم ليصل إلى تسجيل اكتشاف جديد، ثم لا يبحث في دينه عن الحقِّ الذي يجبُ أن يجده في السماوات والأرض! وإذا كان كلُّ واحد سيقُلِّد آباءه بطلت هذه الأديان جميعها؛ لأنَّ كلَّ أتباعها يقلدون من قبلهم مع تناقض حياتهم الفكرية.

وإذا كانت الحجة في قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ صحيحةً، فهل يعني ذلك أننا سنعود إلى آبائهم عن آبائهم إلى أن نعود إلى الجاهلية الأولى، فمن الآباء الذين يقلدونهم؟ هل الذين اتبعوا الإسلام وسلخوا سبيله أم الذين اتبعوا الظلمات؟ فتقليد الآباء وأتباعهم إنما يكون على نور الكتاب والسنة.

والآية تبطل التقليد كما ترى، لكنها تبطل التقليد لمن لا يكون أهلاً لأن يُقلَّد، ولا تبطل الاقتداء بمن يكون أهلاً لأن يُقتدى به في الأمور التفصيلية، فلا يحتاج بهذه الآية مَنْ يقول: لا نقلد الإمام الشافعي ولا مالكا عليه السلام... لأن التقليد لمن يتبع الكتاب والسنة مطلوب ممن لا يملك آلة الاجتهاد، أما التقليد في الفحشاء فحزي على المقلِّد والمقلَّد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَقْتُلُ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١)، فَقُلِّدَ الْقَتْلَةُ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَمِثْلَ آثَامِهِمْ، وقال صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢).

(١) أحمد (٤١٢٣)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وصحَّحه الألباني. التعليقات الحسان (٥٩٥١).

(٢) مسلم (١٠١٧).

وهنا ستنقل لنكمل بصائر الآية، فتقول: أدر كنا أن الحجة الأولى التي يستدل بها من يفعل الفاحشة حجة متهافئة، وهي قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فما الحجة الثانية؟
الجواب:

الحجة الثانية: الشرعية الدينية إذ قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (٢٨):

فتقدير الآية: وإذا فعل أولياء الشيطان الذين لا يؤمنون الجرائم "الفاحشة" التي يفحش ذكرها، ويقبح أمرها لشدة سوءها راجعهم بعض المسلمين وبعض الكافرين ممن عندهم بقايا من الفطرة، فردوا عليهم، وقالوا: «هذا جزء من التقاليد والتراث التي وجدنا عليها آبائنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستنُّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

ما معنى هذا القول الكِبَار الذي يصدر منهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (٢٨)؟

يقولون: ما نقوم به من أنشطة ثقافية وطقوس وإشاعة للشهوات المحرمة إنما هي عادات شرعية؟! فيزعمون مثلاً أنه قد وُجد مثل ذلك في عهد الرسول والرسول، ويطلبون من الجهات الدينية أن تفترى على الله الكذب، وتنسب أفعالهم المحرمة إلى الله تعالى، وهنا تعلم: لماذا يحرصون على إظهار القيادات الدينية لتبرر أفعالهم، وحينها يقولون مُعْبِرِينَ بِالِاسْمِ الْأَعْظَمِ غَيْرِ مُحْتَشِمِينَ مِنْ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (٢٨) (١).

ومن أبرز الصور الجاهلية التي صبغوا بها الحياة وجعلوها جزءاً من الدين: عبادة الأصنام، وتعظيم الأنصاب المبتوثة حول الكعبة، ومن ذلك التعري في العبادة كأنهم جعلوا منه ستاراً للُعْرَى في الحياة الاجتماعية عندما ييغون الفواحش، فكانت قريش تطلب من الإنسان عندما

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٨٤).

يصل إلى مكة أن يشتري منها ملابس خاصة، أو أن يمنَّ عليه قرشي بذلك، أو أن يطوف بالبيت عاريًا؛ فقد قال مجاهد رحمته الله: كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبْلِها النَّسْعَةَ أو الشيء -والنسعة: قطعة من الجلد مضمفورة عريضة- فتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ^(١)

فانظر: كيف وضعوا تشريعاتٍ وأنظمةً غَيَّرُوا بها شرع الله ﷻ، ثم جعلوها سُلَمًا لفعل الفواحش وتشريعها، فقد كانت عندهم دور البغاء ظاهرةً وعليها الرايات مثل دور البغاء التي توجد في بعض الدول هذه الأيام ويفرضون عليها الضرائب.

وَأُسْنِدُ الْفِعْلِ وَالْقَوْلُ إِلَى صَمِيرٍ (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا﴾، وَقَدْ يَكُونُ الْقَائِلُ غَيْرَ الْفَاعِلِ، وَالْفَاعِلُ غَيْرَ قَائِلٍ، اعْتِدَادًا بِأَنَّهُمْ لَمَّا صَدَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ؛ فَكَانَتْهُمْ فَعَلُوهُ كُلُّهُمْ، وَاعْتَدَرُوا عَنْهُ كُلُّهُمْ^(٢)، ونسبوا إلى الله ﷻ هذا الكذب الذي افتروه.

وقريش مثلاً عندما تطلب من الناس أن يشتروا منها أو أن يطوفوا عراة فإنها تفرض ذلك لتثبت الاحتكار الاقتصادي، وتبين نزعتها العنصرية، وكأنهم أظهر ممن يأتي إلى مكة.

ويوقفنا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله على طائفة أخرى تحتج بهذه الحجة الزائفة، فقال وهو يتحدث عنها مُقَبِّحًا صنيعها: «وربما دخل أحدهم في الاتحاد والحلول المطلق وفيهم من يخص الحلول والاتحاد ببعض المخلوقات كالْمَسِيحِ ﷺ أو عليٍّ عليه السلام أو غيرهما، أو المشايخ والملوك والمردان، فيقولون بحلوله في الصور الجميلة ويعبدونها، ومنهم من لا

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/٨٣).

یرى ذلك، بل يتدين بحب الصور الجميلة من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك ويرى هذا من الجمال الذي يحبه الله ﷻ فيحبه هو، ويلبس المحبة الطبيعية المحرمة بالمحبة الدينية، ويجعل ما حرمه الله ﷻ مما يقرب إليه ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ۲۸] (۱).

ولكنك ستسأل: ألم يكن لكفار قريش السلطة؟ ألا يكون للأنظمة الجاهلية الحكم؟ فلماذا يحتجّون بهاتين الحجّتين على فواحشهم؟ لماذا يضطرون أن يبحثوا عن أدلة تجيز لهم فعل الفاحشة؟

الجواب: يكون لهم الحول والقوة، ولهم النفوذ والسلطان، والحكم والكلمة، ولكنهم يعلمون أنهم يخالفون الفطرة الإنسانيّة، والشرع الرباني، ويجدون من ينكر عليهم من أصحاب الفطر السليمة، وأما في عهد الإسلام فالإسلام يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المستبشع، ولذا يقومون بإيذاء من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأما قبله فقد كان الصالحون ينكرون عليهم مثل زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه الذي كان ينكر على قريش ما تفعله من عادات في الجاهلية الذميمة التي شرعت بها الفاحشة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلی اللہ علیہ وسلم لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلَدَحَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم الْوَحْيُ فَقَدَمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم سُفْرَةٌ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ أَكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا أَكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى

(۱) مجموع الفتاوى (۲۲/۱۲۶).

قَرِيشٍ ذَبَّاحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذَبْحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟ إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ^(١).

الانتقال: ثم قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) فما الذي يعلمنا الله ﷻ إِيَّاهُ في هذه الآية عند النقاش مع من يفعل الفاحشة، ويتمحل الحجاج على جوازها؟

الجواب: يعلمنا الله ﷻ القانون الثامن من القوانين التي خاطب بها بني آدم:

القانون الثامن: يجب الرد الإعلامي والتعليمي والتبليغي والتربوي والتشريعي على الذين يشرعون الفحشاء، ويصرون بذلك قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

﴿قُلْ﴾: تعني التبليغ، أي بلغ الناس معنى ذلك.

﴿قُلْ﴾: تعني التعليم، أي علم الناس الحق.

﴿قُلْ﴾: تعني التربية، أي رب الأجيال على ذلك.

﴿قُلْ﴾: تعني التشريع، أي ضع التشريعات التي أنزلها ربك ﷻ.

﴿قُلْ﴾: تعني الردّ والمواجهة، أي ادمغ الباطل بالحق أي كذبهم في ادعاءاتهم وافتراءاتهم

مِنْ طَرِيقَي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ^(٢)، وهو من أعظم الرد وأقواه، وفيه إيقاظ للإنسانية.

هذه خمس وظائف تؤديها كلمة ﴿قُلْ﴾ وهذا من عجائب كلمات القرآن الكريم.

(١) البخاري (٣٨٢٦)، و(تَلَدَح): بفتح الموحدة وسكون اللام وفتح الدال وآخره حاء مهملتين: وإِ قبل مكة من جهة المغرب

مكان في طريق التنعيم. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/ ١٧١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٣٣).



وبعد أن أدركنا الوظائف التبصيرية لكلمة ﴿قُل﴾ ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)، فما الذي تُبَصِّرنا به هذه الكلمات البينات؟

الجواب: تُبَصِّرنا هذه البينات بالقانون التاسع من قوانين النداء الثاني لبني آدم:

القانون التاسع: يجب أن نرد على الذي يفعلون الفواحش ثم يقولون: "الله أمرنا بها" بردين:

الأول: عقلي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، فلا يمكن أن يُنسب لله ﷻ الذي خلق الخلق أنه يأمر بالفحشاء عقلاً.

والثاني: نقلي: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)، فطريق معرفة ما أمر الله ﷻ، هو الأنبياء ﷺ، والأنبياء ﷺ لم يقولوا: إن الله يأمر بالفحشاء.

فهذه الكلمات ردٌ عليهم من ناحية العقل:

فالخطاب هنا للعالم: للمسلمين وللإهود وللنصارى ولغيرهم يخبرهم جميعاً أن هناك مشتركات واضحة بينهم حتى لو لم يدخل غير المسلمين في الإسلام، فالفواحش العظيمة المنكرة لا ينبغي للإنسانية أن تقتربها، فهي جرائم يرتكبها الإنسان في حق نفسه وحق غيره مثل القتل، وترك الفطرة في الزواج الذي يُكوّن الحياة الإنسانية..

هذا الرد يخاطب القلوب الغافلة من المسلمين واليهود والنصارى فضلاً عن الجاهليين الذين ربما اقترفوا أفعال الجرائم في خصومهم، ونسبوا ذلك لدينهم، كأن الله ﷻ يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (٢٨) ردٌ عقلي على الذين يفعلون الفواحش المحرمة، ثم يختبئون خلف الفتاوى الدينية التي تقول: الله أمر بها.

يقول الله جلّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل﴾ يا من تعتمد على القرآن في محاورتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساوئها.

فأنتم تعلمون أن هذا الفعل مِنَ الْفَحْشَاءِ أَيْ أَقْبَحِ الْقَبَائِحِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ بِكَمَالِهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا شَائِبَةَ لِلنَّقْصِ فِيهِ أَنْ يَأْمُرَ بِالْفَحْشَاءِ^(١)، فمن الفحشاء عبادة الأحجار والحيوانات، وقتل الأبرياء من الأطفال والرجال والنساء، وقتل الأجنة، والزنا، وشرب الخمر الذي يذهب بالعقل: فكيف تفعلون ذلك ثم تقولون: الله أمرنا بهذا؟!

وغير المسلم الذي يعتقد أن فاحشة مثل الزنا حلال قل له: أنت تعلم أنه مرّت مدة طويلة بالبشرية كانوا يحرمون فاحشة الزنا، ويعتبرونها من أعظم المعاصي، وكانت الأسرة متماسكة في ذلك الوقت سواء عند المسلمين وعند غيرهم، فانتشار الفاحشة يهدّد الوجود الإنساني؛ ويُدْخِلُ الحضارات والأمم في مرحلة الشيخوخة وفناء المجتمعات، والذي يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ هُوَ الشَّيْطَانُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فمجرد أن يكون الفعل منتمياً للفحش كافٍ في ذمّه، وتركه، فكيف تزعمون أن الله أمركم به؟!^(٢)

بصيرة: انتشار الفواحش والمنكرات يهدّد الوجود الإنساني؛ ويُدْخِلُ الحضارات والأمم في مرحلة الشيخوخة وفناء المجتمعات.

وأما من طَرِيقِ النَّقْلِ: فقل لهم: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كيف يأمر الله ﷻ بالجريمة؟! كيف يأمر بالاعتداء على حدوده؟!

كيف يأمر بالمخالفة لما أمر به من الستر والحياء والتقوى؟!

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٣٣).

(٢) الرد العقلي الذي تُبَصِّرُك به الآية هنا ينبئك بالبغي الذي حدث بين فرق المسلمين في الغلو والجفاء في موضوع التحسين والتقبيح العقليين.

من الذي أعلمهم بأن الله ﷻ أمر بالفحشاء؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء.. إن أوامره وشرائعه يبلغها الأنبياء ﷺ، فلا يوجد مصدر آخر للتبليغ، وإلا فأى فوضى يمكن أن تكون إذا قدّم كل إنسان هواه، وهو يزعم أنه دين الله!!

في الرؤى الجاهلية المعاصرة يحاول كثير من المفسدين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يبحثوا عن مفتين مأجورين، فيخبرهم بأهوائه، وشهواته، ويطلب منهم البحث عن مسوغات شرعية لها، فينبري كل كاذب أثيم يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، فيقدّم له فتوى جاهزة، فإذا أشيعت الفواحش، أيدتها هذه الفتاوى الكاذبة المزخرفة ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

وهاهو شاعر البصائر يُسَنِّعُ على هذا الصنف من المتزينين بزي العلم، وهم بمنأى عن واديه:

يَا مَنْ سَعَى بِالْعِلْمِ يُشْبِعُ بَطْنَهُ	لِيَصُدَّ عَنْ خَبَرِ الْهَدَى وَالْمُبْتَدَا
وَأَبَاحَ لِلطَّاعُوتِ كُلِّ جَرِيرَةٍ	حَتَّى وَلَوْ هَتَكَ السُّتُورَ وَأَفْسَدَا
إِنْ قَامَ عَرَسٌ لِلطَّغَاةِ وَظُلْمِهِمْ	أَقْبَلَتْ بِالْفَتَوَى إِلَيْهِ مُزْغَرِدَا
إِنْ كَانَ أَوْغَادُ الطَّغَاةِ تَجَاهَرُوا	فَلَأَنْتَ صَرْتَ مِنَ الطَّغَاةِ الْأَوْغَدَا ^(١)

فإن قلت: ما نوع الاستفهام في هذه الآية؟ وما فائدته؟

الجواب: الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ للإنكار التوبيخي الذي يعني أن ما بعد الهمزة واقع وهو أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، وأن قائل ما لا يعلم عن الله كاذب، وحذف المفعول به، والتقدير: أتقولون على الله ما لا تعلمون أنه أمر به،

(١) الأبيات للدكتور/ سعيد بن دبحاج وفقه الله. ينظر: عتب القوافي (ص: ٥٢).

فمجرد عدم العلم بأن هناك نصًّا يكفي في توقُّف الإنسان عن نسبة أمرٍ إلى الله ﷻ، فكيف يبلغ الافتراء أن تنسب إلى الله ﷻ الفحشاء؟ ويصوِّر البقاعي ﷺ قوة هذا الاستفهام، فيقول: «وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ قَبِيحًا فِي نَفْسِهِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْبَحُ الْقَبِيحِ مُطْلَقًا، فَكَيْفَ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَلَى أَعْظَمِ الْعُظَمَاءِ؟ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ مُّوَبِّخًا لَهُمْ مُهَدِّدًا: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: الَّذِي لَهُ جَمِيعُ الْعِظَمَةِ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لَأَنْكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ بَلَا وَإِسْطَةِ وَلَا نُقِلَ إِلَيْكُمْ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ عَنْ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَفِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى الْجَهْلِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِالظَّنِّ»^(۱).

وربما يلفت نظرك أن الله ﷻ قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: أتقولون عن الله، فلماذا؟

الجواب: لأن الله جلَّ مجده ضمن ﴿تَقُولُونَ﴾ معنى تَكْذِبُونَ أو تفترون، ولذلك عدَّاه بـ ﴿عَلَى﴾، فهم لم يفعلوا تلك الفواحش لأن الله ﷻ أمرهم بها، بل اتباعًا لأهوائهم، ولاتخاذهم الشياطين أولياء، ومن أبرز أصحاب الرؤى الجاهلية الذين شرَّعوا الفواحش، وزعموا أن الله أمر بها عمرو بن لُحَيٍّ

فقد قال النبي ﷺ عنه: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأْخَرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(۲)، وقال عنه ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحَيٍّ بَنِي قَمْعَةَ بْنِ خَنْدَفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ»^(۳)، فلماذا هذا العذاب الذي أصاب هذا الرجل الجاهلي؟

(۱) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (۷/ ۳۸۴).

(۲) البخاري (۱۲۱۲).

(۳) مسلم (۲۸۵۶).

ينقل أهل التاريخ أنه كان رجلاً فاعلاً مؤثراً يقود قبيلة خزاعة اليمانية، فاستطاع أن يبغي على قبيلة جرهم اليمانية أصهار إسماعيل عليه السلام، وأن يزيحهم من البيت الحرام، وكان حازماً، فأصدر قانون الإعدام الفوري لكل جرهمي يبقى قريباً من الحرم، ثم إنه «أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَسَيَّبَ السَّوَابَّ»^(١)

كيف أحدث هذا الرجل كل هذا التغيير لعهد إبراهيم عليه السلام؟
لقد كان رجلاً مؤثراً جداً في قومه، وذكروا أنه شديد الكرم ليكسب وجوه العرب، ويستطيع التأثير عليهم.

فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ، وبهرته الثقافة السائدة هناك، وأراد إدخال تغييرات في حياة العرب ليحسب له القدرة على صناعة التاريخ، وتغييره، وكما رأت بنو إسرائيل قومًا يعكفون على أصنام لهم رأى عمرو بن لحي بعض أهل الشام يعكفون على أصنام لهم، فسألهم: مَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي أَرَاكُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا لَهُ: هَذِهِ أَصْنَامُ نَعْبُدُهَا، فَتَسْتَمْطِرُهَا فَتَمْطِرُنَا، وَتَسْتَنْصِرُهَا فَتَنْصُرُنَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَفَلَا تُعْطُونَنِي مِنْهَا صَنَمًا، فَأَسِيرَ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ، فَيَعْبُدُوهُ؟ فَأَعْطَوْهُ صَنَمًا يُقَالُ لَهُ هُبْلُ، فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ، فَنَصَبَهُ وَأَمَرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ^(٢).
وهكذا أدخل تغييرات كثيرة على ملة إبراهيم عليه السلام، وجعلها معتقدات دينية.

وفي الآية درس في طريقة تعاطي الآراء ونقد الأفكار، فعندما قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، أقرهم على الأولى، وأنكر عليهم الثانية، وهذا إنصاف في الخطاب، وإقرار ببعض كلام الخصم.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٧) (٣٥٧٤٠).

(٢) سيرة ابن هشام، ت: السقا (١/ ٧٧).

الانتقال:

ثم قال الله تعالى مجده: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾، فما القانون الجديد الذي تقدمه لنا هذه الآية؟
الجواب:

القانون العاشر: مَنْ يزعم أن الله ﷻ أمر بالفاحشة فقد افترى الكذب:

فأهم الأسس التي أمر الله ﷻ بها لتشكّل دستور الدين الحقّ هي التي يجب عليكم أن تقتنوها لتحفظ البشرية، وهي أربعة بيّصّرنا بها في قوله تعالى مجده: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾:
الأول: القسط في الحياة وفي العلاقة مع الله ﷻ وفي العلاقة مع المخلوقات: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.

الثاني: الإحسان في العلاقة الظاهرة بالخالق بإقامة الوجوه عند كل مسجد، فإذا أقمت وجهك خضعت لله على أحسن السبل الشرعية المطلوبة: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

الثالث: الإخلاص والصفاء في العلاقة الباطنة بالخالق، فتتبرأ من الشرك الباطن، فلا شرك عبادي ولا تشريعي: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

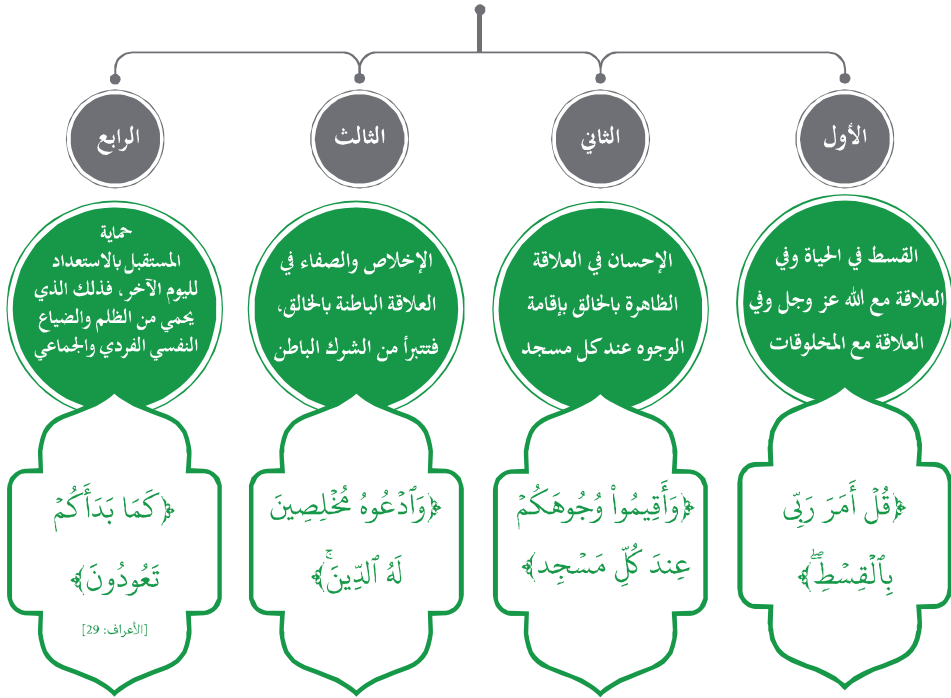
الرابع: النظر إلى المستقبل، فيجب الاستعداد لليوم الآخر، فذلك الذي يحمي من الظلم والضياع النفسي الفردي والجماعي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لا بد أن نتساءل عن المناسبة والاتصال بين هذا القانون وما قبله؟

الجواب: جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى مجده: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فأخبرهم الله ﷻ أنهم كذبوا عليه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ۲۸]، وهنا أخبرهم الله ﷻ بالذي أمر به، فجاء القانون التاسع لبيان أصول الأوامر التي أمر الله ﷻ بها، فكأنه يقول لهم: أنتم تقولون: إن الله يأمر بالفحشاء، هذا افتراء، سأخبركم ما الذي أمركم الله ﷻ به ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ۲۹].

بصيرة: لا يكفي أن تبطل دعاوى المفترين، وتسقط أباطيل الظالمين، بل لا بد أن تقدم للناس الحقَّ جلياً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ولا التواء.

الأسس التشريعية لتنظيم حياة البشرية



تَجَنَّبُوا السَّلَامَةَ قَبْلَ الْبُحَيْرَاتِ

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

الأسس التشريعية لتنظيم حياة البشرية:

الذي يجب أن يُقَنَّ في حياة البشرية هو الذي أمر به الله ﷻ على الحقيقة، وهو الله ﷻ، ويتلخص في هذه الأسس الأربعة:

الأساس الأول: القسط في الحياة وفي العلاقة مع الله ﷻ، وفي العلاقة مع العالمين، وبيَّصَرنا بذلك قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾:

ولعلك تسأل: لماذا بدأ هذا الأساس بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿قُلْ﴾ تؤدي الوظائف الخمس المشوقة التي ذكرناها في الآية السابقة، وهذه الكلمة تلحُّ على السامع أن يبلِّغ رسالة الله ﷻ، وأن يعقد أكبر قدر من جلسات الدعوة والبيان لدينه مع الآخرين مسلمين أو غير مسلمين؛ ليعين دين الله ﷻ على الوجه الصحيح، وهذه الكلمة تدفعك لأن تعتمد أقوى الأساليب في إيصال هذه الرسالة المباركة: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وهنا تعلم لماذا يصِرُّ الذين يُقَنِّنون الفاحشة في المجتمعات على تدمير قوى الخير، واضطهادها، وإسكات أصواتها.. إنهم لا يريدون الشعوب أن تسمع ما قاله الله ﷻ على الحقيقة، فلا يريدون إلا أن يسمع الناس ما افتروه هم، ونسبوه إلى الله ﷻ ليزدادوا فجورًا وتهتكًا، فردَّ الله ﷻ عليهم بأن قال لهم: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل الذي قام في النفوس السوية أنه مستقيم حسن عند كلِّ ممیز، والقسط هو إعطاء الحق أو النصيب المحدد الذي يليق بما خُلِقَ لأجله، ويعبر عن الوَسَطِ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ.

وهنا نتساءل: ما العلاقة بين تذكير الله ﷻ لنا أنه أمر بالقسط، وبين إصرار أولياء الشيطان من الذين لا يؤمنون على فعل الفحشاء والتشريع لها؟

الجواب: يحرص أولياء الشيطان من الذين لا يؤمنون على فعل الفحشاء، والتشريع لها، وذلك لإلهاء الناس عن الظلم الهائل الذي يقترفونه في حقِّ البشريَّة، ولا يزالون يهدرون الكرامة الإنسانيَّة، فيسجنون الأبرياء، ويفرِّقون بين الأطفال وأمهاتهم، ويحرقون بأسلحتهم وعتوهم عامة الضعفاء، وما يعلمون أن الله ﷻ ليس بغافل عما يعمل الظالمون:

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظَّالِمَ شُؤْمٌ
إِلَى الدَّيَّانِ يَوْمَ الدِّينِ نَمُضِي
سَتَعْلَمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا التَّقَيْنَا
سَتَنْقَطِعُ اللَّذَازَةُ عَنْ أَنْاسٍ
لَأْمُرٍ مَا تَصَرَّفَتِ اللَّيَالِي
لَأْمُرٍ مَا تَحَرَّكَتِ النُّجُومُ^(١)
وَلَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّالِمُ
وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
غَدًا عِنْدَ الْمَلِكِ مِنَ الْغُشُومِ
مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْقَطِعُ الْهُمُومُ

فترى في التعبير القرآني هنا الإعجاز التشريعي الحقيقي حيث يتم الربط بين إشاعة الفاحشة التي تغطي الظلم الذي يقترفه ناشروها، وبين ترك القسط الذي أمر الله ﷻ به، فهؤلاء المجرمون يزعمون أن الله ﷻ أمر بالفحشاء، والله ﷻ يخبرهم أن الذي أمر به هو القسط الذي يتركونه، وترى الله تعالى هنا يحدثنا كيف يخفون الظلم الرهيب الذي يقترفونه بما يزعمونه من أن الله ﷻ أمرهم بإشاعة الفحشاء. ألا تصوّر لك الآية هذا الواقع المظلم الذي يشيع اليوم؟

ومن الظلم الذي يعملون على نشره: تشجيع الإلحاد، والفحشاء والتعري والعنصرية في المجتمعات، فالعبادة التي يتميز فيها بعض البشر عن بعض ليست من القسط، بل هي حركة عنصرية ظالمة، فالقسط هو النصيب المستحق المحدد لكل ذي حق حسب حقه، وبذا يكون الأمر الوسيط بين ما فحش في الإفراط صاعداً عن الحد، وفي التفريط هابطاً منه.

ثم قال الله بعد ذلك: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فما الأساس الذي أمرنا الله ﷻ به هنا؟ وما معنى الآية؟

الجواب: إنه الأساس الثاني الذي أمر الله ﷻ به وهو:

(١) تنسب الأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ينظر ديوانه، (ص: ١٥٩).

الأساس الثاني: الإحسان في العلاقة الظاهرة بالخالق بإقامة الوجوه عند كل مسجد، فإذا أقمت وجهك خضعت لله على أحسن السبل الشرعية المطلوبة، ويصّرنا بذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

والمعنى: قوموا بالعبادة على الوجه اللائق الصحيح بأن توجّهوا أنفسكم نحو القبلة، كما يقال: أقيموا الصلاة، وقامت السوق، فاقصدوا عبادة ربكم ﷺ مستقيمين إليها، غير عادلين عنها إلى غيرها عند كل وقت سجود، ووجّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى القبلة التي أمركم الله ﷻ بها في الفلاة أو المسجد أو في غيرها، واجعلوا سجودكم لله خالصًا، دون ما سواه من الآلهة والأنداد لا مكاء ولا تصدية، ولا تلاعبًا ولا تزجية.

فقوله: ﴿كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: كل موضع سجود وزمانه، فهو من مسجد، واسم المكان والزمان منه على وزن مَفْعَل أي مسجد، ولكنه جاء على غير القياس بكسر الجيم، والمسجد اسم للزمان والمكان، وهو بذلك يشمل الأرض كلها إلا ما استثنى، ويصّر بأنّه يشمل الأرض كلها أن النبي ﷺ قال: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ»^(١).

لعلك تسأل: ما المراد بإقامة الوجه عند كل مسجد؟

الجواب: إقامة الوجه قد يكون حسّيًا، وقد يكون معنويًا:

فمن الحسّي قوله تعالى: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩].
ومن المعنوي قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] أي استقم على دينك مخلص القلب، صحيح الفعل، حاضر الفؤاد، منصرفًا عن الشواغل، مجتنبًا للشرك الأكبر والأصغر.

(١) البخاري (٣٣٥).

وبناء على إقامة الوجه يدخل في قول ربنا جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أن يحسن الإنسان صلاته، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ»^(١)، أي ينبغي أن يكون العبد عندما يناجي ربّه على أكمل حال من إقامة وجهه أمام الله ﷻ، ولا ينبغي له أن يشتغل خاطره بأمور الدنيا، والإمام إسماعيل ابن المقري اليميني رحمه الله يستلهم ذلك، فيلوم من لا يفقه صلاته عندما يقوم بين يدي ربّه ﷻ، فيقول^(٢):

تُصَلِّي بِإِلَّا قَلْبٍ صَلَاةً بِمَثَلِهَا	يَكُونُ الْفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوبَةِ
تَظُلُّ وَقَدْ أَتَمَمْتَهَا غَيْرَ عَالِمٍ	تَزِيدُ احْتِيَاطًا رُكْعَةً بَعْدَ رُكْعَةٍ
فَوَيْلَكَ! تَدْرِي مَنْ تَنَاجِيهِ مَعْرُضًا	وَبَيْنَ يَدَيَّ مَنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتٍ؟
تَخَاطِبُهُ ﴿يَاكَ نَعْبُدُ﴾ مُقْبَلًا	عَلَى غَيْرِهِ مِنْهَا بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ
وَلَوَرَدَ مَنْ نَاجَاكَ لِلْغَيْرِ طَرْفَهُ	تَمَيَّزَتْ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْهِ وَغَيْرَةٍ
أَمَّا تَسْتَحْيِي مِنْ مَالِكَ الْمُلْكِ أَنْ يَرَى	صُدُودَكَ عَنْهُ يَا قَلِيلَ الْمُرُوءَةِ

فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أمر بترك الشرك الظاهر؛ لأنك عندما تقيم وجهك في الصلاة إلى قبلتها لا تتوجه إلى صنم، ولا إلى الشرق، ولا إلى الغرب بل إلى المكان الذي أمرك الله ﷻ أن توجه نفسك إليه، وبذلك تبراّت من الشرك الظاهر. والتعبير بكلمة ﴿عِنْدَ﴾ أقوى من التعبير بكلمة ﴿فِي﴾؛ لأن المطلوب أن تقيم وجهك عند بداية العبادة، وليس فيها فقط.

(١) البخاري (٤٠٥).

(٢) مجموع القاضي الفاضل الإمام العلامة شرف الدين أبي الذبيح إسماعيل بن أبي بكر المقري (ص: ٦١، ٦٢).

وقد تسأل هنا: كيف عَطَفَ الأمر على الخبر؟ فقله تعالى جَدُّهُ: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ خَبَرٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقِمْ وَجُوهَكُمْ﴾ أَمْرٌ، وَعَطَفَ الْأَمْرَ عَلَى الْخَبَرِ لَا يَجُوزُ.

الجواب: يجوز عطف طلب الجملة الخبرية على تقدير أنها طلبية أو العكس على تقدير أن كليهما خبرية، والتقدير: قُلْ: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ، وَقُلْ: أَقِمْ وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَقُلْ: ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ^(١).

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فما الأساس الذي يُبَصِّرنا الله به في هذه الكلمات؟

الجواب:

الأساس الثالث: الإخلاص والصفاء في العلاقة الباطنة بالخالق، فتتبرأ من الشرك الباطن، فلا شرك عبادي ولا تشريعي، وَيُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. فإذا كان الأساس الثاني السابق لهذا قد عُنِيَ -في الأغلب- بضبط العلاقة الظاهرة مع الله ﷻ، فإن هذا الأساس يُعْنِي بضبط العلاقة الباطنة به سبحانه، ليحصل التوازن والتكامل في حياة العبد، «وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»^(٢).

لاحظ أن الجاسوس البريطاني (لورانس) كان يتظاهر بالإسلام، فكان يقيم وجهه ظاهرًا عند كل مسجد، وهكذا المنافقون يقيمون وجوههم عند كل مسجد إذا صلوا أمام الناس، ولكن ذلك لا يغني شيئًا، لأنهم لم يتبرؤوا من الشرك الباطن، فجاء هذا الأساس بعد قوله:

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٨٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، (١/٩٢).

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ليكون في غاية المناسبة، فكأنك الآن أقمت وجهك، فوقفت لله خاشعاً، وبقي أن تكون مخلصاً؛ لأنه يمكن أن تقف خاشعاً وتصلي لغير الله، وتدعو غير الله.

فإن قلت: ما معنى ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؟ ولماذا قيده بالإخلاص؟

الجواب: الدعاء كلمة عظيمة تجعل قلبك يهتز؛ لأن حقيقته استنجاد المستغيث الفقير بالغني القوي الكبير.

ولكن الله ﷻ قيّد الدعاء بالإخلاص، فقال: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فأمر بأن يكون الدعاء لله خالصاً، وأن يكون صاحبه مخلصاً، وهذا يعني:

ألا يختلط بشوائب الدنيا، ولا بما يناقض الضراعة والذل، ولا يُشاب بشيء من الشرك، ولا يُلْتَفَت فيه إلى صنع المخلوقين، فالمشركون، وَضَعُوا صَنَمًا سَمَّوهُ (هَبْل) في جوف الكعبة ليكون الطواف بالكعبة لله ولهبل، وَضَعُوا صَنَمِينَ (إِسَافًا وَنَائِلَةً) عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ليكون السعي لله ولهما، وَكَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَهْلُونَ إِلَى (مَنَاة) عِنْدَ (الْمُشَلَّلِ) في مكة، فَالْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الْوُجُوهِ عِنْدَ الْمَسَاجِدِ كُلِّهَا أَمْرٌ بِالتَّوْحِيدِ، وَكَمَالِ الْحَالِ فِي شَعَائِرِ الْحَجِّ كُلِّهَا^(١).

وكذلك عندما تقف بين يدي الله ﷻ ينبغي أن تدعوا الله مخلصاً، وتترك عنك الرياء، فعندما قال ربنا ﷻ: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ أي: اعبدوه، وسلوه حال كونكم مخلصين، وَالْإِخْلَاصُ أن تكون خالصاً من الغير لا تتجه عينك وقلبك ونفسك إلا للواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وليكن لهج القلب واللسان لله وبالله وإلى الله.

لنا الله إِنْ حَاطَتْ دَوَاهِي الْمَصَائِبِ
لنا الله إِنْ حَلَّتْ جُمُوعُ النَوَائِبِ
ولله فَوَضُّنَا جَمِيعَ أُمُورِنَا
عليه اعتمدنا في جميع المذاهبِ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٨٨).

وبالله نمضي في اعتصامٍ بدينه
 مِن الله نرجو كلَّ خيرٍ ومِنَّةٍ
 وإنْ أَقْبَلْتُ جُنْدُ الشَّيَاطِينِ نَحُونَا
 عسى الله يَنْجِينَا مِنَ الْهَوْلِ إِنَّهُ
 وَمَنْ يَعْتَصِمَ بِاللَّهِ يَوْمًا وَيَرْتَجِي
 هُدَاةً عَلَى دَرْبٍ مِنَ الْحَقِّ لَاحِبٍ
 فَأَنْعِمَ رَبِّي مِنْ كَرِيمٍ وَوَاهِبٍ
 فَأَنْعِمَ رَبِّي مِنْ عَزِيزٍ وَغَالِبٍ
 مِنَ اللَّهِ يَرْجُو نَالَ كُلَّ الْمَطَالِبِ
 فَلَيْسَ بِمَرْدُودٍ وَلَيْسَ بِخَائِبٍ^(١)

وأما كلمة الدين في قوله: ﴿وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيُعنى بها النظام الذي يستقيم عليه الإنسان في حياته، فتصبح طاعته لله، وتوجُّهه نحوه، وكلُّ أحواله خالصةً لرَبِّه. والمعنى: اعبدوه وسلوه مخلصين نظام حياتكم وفق ما أمر به، وأنتم في ذلك مخلصون له غير مشركين به غيره.

وهذه الأسس الثلاثة هي التي أمر الله ﷻ بها في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] «تضادُّ ما هم عليه في ثقافتهم الجاهلية القائمة على الشرك، ونشر الفحشاء، والتعري.. تضادُّ اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عبادُ أمثالهم، مع دعواهم أن الله ﷻ أمرهم بها.. وتضادُّ العُري والتكشُّف، وقد امتن الله ﷻ على بني آدم بأنه أنزل عليهم لباسًا يوارِي سوءاتهم وريشًا يتجملون به كذلك.. وتضادُّ هذا الشرك الذي يزاولونه، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم وعبادتهم..».

(١) الأبيات للدكتور/ سعيد بن دجباح، سده الله. ينظر: عتب القوافي (ص: ٤٥).

الانتقال:

الجمال الثلاث السابقة كانت جملاً طلبية قال الله تعالى فيها: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ثم قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فهل هناك أساس آخر أمر الله تعالى به يظهر لنا من هذه الجملة الخبرية؟

الجواب: نعم إنه:

الأساس الرابع: النظر إلى المستقبل، ووجوب الاستعداد لليوم الآخر: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

فهذا تفنن في الأسلوب القرآني العظيم الكريم الحكيم، حيث يأتي بأساسٍ على هيئة الطلب، ثم يفاجئك أساس آخر على هيئة الإخبار، وهذا التفنن البلاغي العظيم - كما يقول الزركشي رحمه الله - «هُوَ بَيْتُ الْقَصِيدَةِ، وَأَوَّلُ الْجَرِيدَةِ، وَغُرَّةُ الْكُتَيْبَةِ، وَوَاسِطَةُ الْقِلَادَةِ، وَدُرَّةُ التَّاجِ، وَإِنْسَانُ الْحَدَقَةِ»^(١).

وتقدير الآية عند الطبري رحمه الله: «قل لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقرؤوا بأن كما بدأكم تعودون. فترك ذكر "وأن أقرؤوا بأن"، كما ترك ذكر "أن" مع "أقيموا"، إذ كان فيما دُكر دلالة على ما حُذف منه»^(٢).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ والحقائق التي تشبها:

وهنا لا بد أن نسأل معاً: لماذا يقول الله ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ على هذه الهيئة؟

لماذا لم يقل: آمنوا بأنني كما بدأتكم سأعيدكم؟

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٦).

الجواب: هذه ثلاث كلمات موجزة تخبئ كنوزًا من المعاني في ثناياها، فهي تقتضي الحقيقتين الآتيتين:

الحقيقة الأولى: الاحتجاج عليهم على عدم جدوى عبادتهم غير الله ﷻ؛ فإن الذي يتحكّم بحياتهم ابتداءً وبعثًا هو الله جلّ في علاه، فكأنه تعالى قال لهم: فكيف تشركون به؟ كيف لا تخلصون له وهو الذي بدأكم؟ كيف تشركون به وهو الذي سيعيدكم؟ فهل هذه الأصنام التي تعبدونها تدبّر حياتكم كما يدبّرها ربكم ﷻ؟!

الحقيقة الثانية: التذكير بوجود البعث المادي في المستقبل الأخروي، وكيفيته، والاحتجاج على وقوعه، فيقال: «بدأ الله الخلق بيدوهم، وأبدأهم يُبدئهم إبداءً»^(١)، والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ لِتَشْبِيهِ عَوْدِ خَلْقِهِمْ بِبَدْئِهِ، وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: تَعُودُونَ عَوْدًا جَدِيدًا كَبَدْئِهِ إِيَّاكُمْ^(٢)، فكما بدأكم، فأنشأ أجسادكم من تراب، وأنشأها من نطفة، كذلك ينشئها يوم القيامة مما شاء، وكما بدأكم، فنفخ فيكم روح الحياة، فكذا ينفخ فيكم روح الحياة يوم البعث الأكبر. اللهم اجعلنا فيه من الفائزين الآمنين.

فتصوّر هذه الكلمات المشهد العظيم للرحلة الكبرى للإنسان، والرحلة الكبرى بدأت بوجود الإنسان ستنتهي في الدنيا بموته، وستبدأ في الحياة القادمة بإحيائه وبعثه، وهنا شبه الله ﷻ الحال في إعادتهم بالحال في بدنهم، أي: كَمَا بَدَأَكُمْ رَبُّكُمْ خَلْقًا وَإِنْشَاءً وَتَصْوِيرًا وَتَرْكِيبًا وَتَكْوِينًا فإنه سيعيدكم خلقًا وإنشاءً وتصويرًا وتركيبًا وتكوينًا. فهذه الكلمات تتضمن الاحتجاج عليهم عندما أنكروا البعث.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٨٩).

بصيرة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ تختصر لك مشهدًا واحدًا يجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى ونقطة النهاية ونقطة الإعادة. نقطة الانطلاق في البدء ونقطة المآب في الانتهاء.

ويورد الله ﷻ هذه الحجة العقلية بأساليب متعددة لأهميتها، فهم أنكروا أن يعود الإنسان خلقًا حيًّا من جديد بعد موته، وقالوا: ﴿أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، وقالوا: ﴿أَوَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [الأنبياء: ١٠، ١١] فردَّ عليهم بأنهم كما بدأهم يعيدهم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الزوم: ٢٧]. ويتدبر الحسن البصري رحمه الله هذه الكلمات؛ إذ وجدها تذكّر بالمستقبل الأخروي، حيث يبعث الله ﷻ البشرية كما خلقها أول مرة، فقال: «كما بدأكم ولم تكونوا شيئًا فأحياكم، كذلك يميّتكم، ثم يحييكم يوم القيامة»^(١).

ويروي ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، «وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام»^(٢)، وكلمة (غُرْلًا) تدلُّك على مقدار التطابق المادي في البعث، فهو جمع (أغرل)، هو الأفل الذي لم يُختن، فكما بدأه الله ﷻ كذلك يعود كذلك. اللهم نسألك أن تجعلنا في أول المكسّيين المُكرّمين ذلك اليوم يا أرحم الراحمين.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٥).

(٢) البخاري (٣٣٤٩).

الانتقال:

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ففي الجملة الأولى من هذه الآية قال الله ﷻ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] ذهب بعض المفسرين إلى ربط بداية هذه الآية بما قبلها، وهو قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فكيف ذلك؟

الجواب: هذا معنى ثانٍ لقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، إذ ذهب بعض المفسرين إلى ربط بداية الآية (٣٠) بما قبلها، فجعل البدء والعودة منصباً على الحجة العقلية للبعث، ودعنا نراجع ما سبق:

فالمعنى الأول لقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما أنشأكم أول مرة فخلقكم، كذلك سينشئكم في خلقكم الجسدي.

أما المعنى الثاني هنا، فتقديره: كما بدأكم في الدنيا صنفين: كافرين، ومؤمنين، كذلك تعودون في الآخرة فريقين: فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، فنصب ﴿فَرِيقًا﴾ الأول بقوله: ﴿تَعُودُونَ﴾، وجعل الثاني عطفاً عليه، والتقدير: تعودون فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، ويجلي ذلك ابن عباس ؓ في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: «إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم: مؤمناً وكافراً»^(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٢).

فهذه دعوة إلى الإيمان والاهتداء كأنه يقول: كما بدأكم مختارين لطريقي الخير والشر تعودون -حَالَةً كَوْنِكُمْ فَرِيقَيْنِ- فَرِيقًا هَدَاهُمُ اللَّهُ ﷻ عندما اتبعوا ما أنزل إليهم، وأقاموا القسط، وأقاموا وجوههم في العبادة، ودعوه مخلصين له الدين، وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ لِإصرارهم على أن يكونوا من أولياء الشياطين، وعن أبي العالية ﷻ قال: «عادوا إلى علمه فيهم، ألم تسمع إلى قول الله فيهم: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؟ ألم تسمع قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾؟».

وعن محمد بن كعب ﷻ في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: «من ابتداء الله ﷻ خَلَقَهُ على الشُّقْوَة صار إلى ما ابتداء الله ﷻ خَلَقَهُ عليه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خَلَقَهُ. ومن ابتدئ خَلَقَهُ على السعادة، صار إلى ما ابتدئ عليه خَلَقَهُ، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئ عليه خَلَقَهُ»^(١).

وستبين لنا الآية أن العمل قائم على الاختيار لا على الإجبار، فلا يحتاج بمثل ما سبق على أن الإنسان مُجْبَرٌ على شيء ما.

هنا ربما تقول: المعنى الأول لقول ربنا ﷻ: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف ٣٠]: كما بدأكم كفاراً ومؤمنين ستعودون كفاراً ومؤمنين يوم القيامة، فهل هناك معنى

ثانٍ يُظهر لنا قانوناً آخر؟

الجواب: نعم، إنه:

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٨٢، ٣٨٣).

القانون الحادي عشر: تنقسم البشرية إلى فريقين حسب قدرتهم على إدارة المعركة مع الشيطان:

الفريق الأول: الفريق المهتدي: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾، وهم الذين استقاموا على النظام الذي أمر به الله ﷻ، واحترسوا من الشيطان، فَمَنَّ الله عليهم، فهداهم.

الفريق الثاني: الفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ إذ استجابوا لوسوسة الشياطين، ويصِّرننا بذلك قوله تعالى جده: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾.

فكلمة ﴿فَرِيقًا﴾ الأولى: منصوبة بفعل يفسِّره ما بعده وهو كلمة: ﴿هَدَى﴾، وكلمة ﴿فَرِيقًا﴾ الثانية: منصوبة بفعل يفسِّره ما بعده وهو قوله: ﴿حَقَّ﴾، كما قال جل ثناؤه: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]، كأنه قيل: هدى فريقًا، وخذل فريقًا حَقَّ عليهم الضلالة.

ومعنى ﴿حَقَّ﴾ أي: ثَبَتَ وَوَجَبَ على وجه الحقِّ الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وتدل على أنهم استحقُّوا أن يكونوا ضلَّالًا، وكما ترى: أن يستحقُّوا الضلالة لا ينفي أن يكون الإنسان مختارًا، بل إن هذه الآية تبين كمال قوة الله ﷻ، وعظمة إحاطته بالمخلوقين، وليجمع بين كمال القدرة الإلهية والاختيار البشري، قال: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، فأثبت بهذا الكلام كمال علمه وكمال قدرته، وسترى في الآية مزيد بيان لحرية الاختيار عند الإنسان.

وهنا يظهر الأسلوب البلاغي الرائع الذي يسميه علماءنا الاحتباك^(١):

(١) الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه. ينظر: التعريفات، الجرجاني، (ص ١٢).

ففي الفريق الأول قال: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ أي هداه الله ﷻ، ولم يذكر أنه اهتدى أي اختار طريق الهدى ابتداءً، والفريق الثاني ذكر أنه ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم بين أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﷻ، والمعنى:

ذلك أن الفريق الأول اتخذوا الله ﷻ ولياً، فهدهم، والفريق الثاني اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﷻ، فأضلّوهم، فحقّ عليهم الضلالة، وبذلك وضحت مسألة تقسيم الفريقين في الدنيا، كما أنهم ينقسمون إلى ذلك في الآخرة.

ربما تتساءل: لماذا حقّ عليهم الضلالة؟ وكذلك فإن المعنى الذي ذكرتموه يقتضي أن الله ﷻ جعل ذكر البدء والعودة منصباً على الحجة العقلية للبعث، فالله ﷻ بدأهم كفاراً ومؤمنين، ضالين ومهتدين، فهل هذا ينافي مبدأ الاختيار والإرادة الإنسانية الحرة؟

الجواب:

هنا يبين الله ﷻ لنا قانوناً جديداً يكشف بوضوح سبب استحقاق هؤلاء للضلالة.. إنه:

القانون الثاني عشر: حرية الاختيار، فقد حقت الضلالة على الفريق الضال بسببين:
 ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف ٣٠]:

فهنا ينبئك الله ﷻ بأجمل أسلوب واصفاً قانوناً من قوانين الاجتماع لا يخلف؛ إذ يحدثك عن إرادتهم الحرّة في اختيار الضلال:

السبب الأول: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

السبب الثاني: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

كأن قائلاً قال: لماذا حق عليهم الضلالة؟

الجواب: بَيَّنَّ اللهُ ﷻ بوضوح كالشمس: لماذا حَقَّ عليهم الضلالة، فقال مباشرةً بعدها حتى لا تضل الأفهام: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٠)، فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾، وكلمة ﴿إِنْ﴾ إِذَا وَقَعَتْ فِي صَدْرِ جُمْلَةٍ عَقِبَ جُمْلَةٍ أُخْرَى تَكُونُ لِلرَّبْطِ والتوكيد والتعليل وبيان السببية، كما يقرّر ابن عاشور رحمه الله (١).

ونسب الفعل إليهم، فهم الذي اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﷻ بدلاً من أن يعادوهم، وكلمة ﴿اتَّخَذُوا﴾ تبصّر بوضوح بحريتهم في الاختيار، فهم الذين اختاروا فاتخذوا، ولم يجبرهم أحدٌ على الاتخاذ، فليست ضلالتهم بسبب جبري.. لم يجبرهم الله ﷻ على الضلالة؛ بل طابت أنفسهم بوسوسة الشياطين، ومالوا نحوهم، ولم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ، بل اتخذوا الشياطين من دونه أولياء.

كلُّ ذلك يحدثك الله ﷻ فيه عن الإرادة الحرة التي جعلها للذرية الآدمية، ويحدثنا الله جلَّ في علاه أكثر من ذلك، فيخبرنا أنه فطرهم على التقوى واليقين، لكنهم نفروا ممّا فطرهم الله ﷻ عليه من معرفته ومحبه، واتبعوا أهواءهم، فطوروا قابليتهم ليكونوا أصدقاء للشياطين ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾، أي: أقرباء وأنصاراً وأصدقاء أعزاء ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: الإله الحق المَلِكُ الأعظم الأعلى الَّذِي لا مِثْلَ لَهُ، فتركوا الله ﷻ، وتولّوا الشياطين بالطاعة فيما أمروهم به..

تصوّر إنساناً لا يحترس من تناول القَذَارَةِ والأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ الْفَاسِدَةِ أَوْ الْقَابِلَةِ لِلْفَسَادِ، ويزعم أن هذه حُرِّيَّة.. كيف يكون حاله؟

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٩١).

وعد مجدداً إلى أصل الخلق لتجد ربك عز شأنه يذكر أنه خلق الخلق على الفطرة التي تعبر عن العهد القديم بين الله ﷻ وبين البشر، وقال عن هذه الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، لكنَّ الله تعالى شأنه علِمَ أن منهم من يحدد عن هذه الفطرة، وينقض الميثاق، فَقَدَرَ مِنْهُمْ شَقِيًّا، وَمِنْهُمْ سَعِيدًا، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال النبي ﷺ مبيِّناً الاختيار: «كُلُّ النَّاسِ يَخْدُو، فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوْبِقُهَا»^(١)، أي مهلكها، وهم الذين نقضوا العهد القديم الذي كان بينهم وبين ربهم، وبين النبي ﷺ، أثر البيئة في الانحراف العقدي، ومخالفة سبيل الحق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(٢)، وكذلك يجعلانه يفعل الفاحشة بزعم الحرية، وقد يمنعانه من التهود والتنصر والمجوسية وفعل الفواحش، ولكن البيئة المحيطة به تزيّن له ذلك، ثم يختار السوء، ولا يجد الأبوان معه قدرة على منعه من اختيار السوء.

ويخبرنا رسولُ الله ﷺ كيف تولّى كثير من البشر الشياطين وتركوا فطرة الله ﷻ، فيقول: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»^(٣).

ومن أعظم أسباب ولاية الشيطان اتباع الأولياء من دون الله ﷻ، والنفور من تحكيم كلمة الله تعالى في مجالات الحياة، ولا يغيبنَّ عنك قول الله ﷻ في مطلع السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) البخاري (٣٨٥).

(٣) مسلم (٢٨٥٦).

إِيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ٣]، ليتجلى الربط والتناسب، وعود الآي بعضه على بعض بالمؤازرة والمعاوضة.. هنا إذ يبذل الغُفْل والأغرار ولأهم طوعاً لعدوهم يغرس الشيطان راياته، ويوسوس لأوليائه ليقعهم في الأوهام والخُرَافَاتِ والطُّغْيَانِ، وَالْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، حتى يطبّع حياتهم على السماح بعبادة الشيطان بصورة صريحة، في الوقت الذي تسمتز فيه نفوسهم من سماع القرآن أو التقرب من الرحمن، وهنا تفهم قول ربنا جَلَّ وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وإذا كان هذا تراه بيناً ضمن أنظمة الواقع الدولي اليوم؛ إذ ترى كنائس عبادة الشيطان تُنصب وتنتشر، ومعابد الإلحاد الفكري تُهيم، في الوقت الذي تقصف فيه المساجد ودُور القرآن.. وربما ترى صورةً أخرى تمكن الشيطان فيها من الإنسانيّة؛ إذ يلجأ أولياء الشيطان إلى أن يَتَقَرَّبَ إِلَى الشَّيَاطِينِ بِكِتَابَةِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَشَدِّهِ عَلَى عَوْرَتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَسْفَلِهَا^(١).

لكن هؤلاء الضالين لم يتوقفوا عند اتخاذ الشياطين أولياء، بل ذكر الله ﷻ سبباً ثانياً في استحقاقهم الضلالة، وهو قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، فما معنى ذلك؟
يظهر الجواب في:

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٣١).



القانون الثالث عشر: الحذر من وهَم الاهتداء:

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى جُذْه: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(١)، فيرون آباءهم أو الثقافة العالمية حولهم تدفعهم إلى الضلال بأن يفعلوا الفواحش، فيندفعون ويصنعون ذلك، ويحسبون أنهم مهتدون، فيجب على بني آدم أن يبحثوا عن الحق المبين، وأن لا يعتمدوا على الآبائية أو العادات الثقافية السائدة التي توهم بأنهم يسرون على الحق:

ما أشد الألم الذي يعتصر القلب عندما ترى إنساناً في غاية الذكاء في الأمور المادية كأن يكون طبيباً أو مهندساً ثم يعبد الحجر أو الحيوان، أو يفعل الفاحشة أيّاً كان نوعها، وعندما تعرض عليه أن يفكر بالإسلام يقول لك: أنا بخير مع ديانتني ليغلق الباب أمامك في الحوار عن تحريك عقله في البحث عن الحق.. إن الآية تنبهك أن مجرد ظنك أنك على الحق لا يعني أنك معذور في اتباع ما أنت عليه، والأمر يعود إلى اختيارك.

فَعَطَفَ اللَّهُ جُمْلَةً: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾ لِيَبَيِّنَ السَّبَبَ الثَّانِي الَّذِي جَعَلَ الضَّلَالَةَ تَحَقُّ عَلَيْهِمْ، فلما جاءهم الهدى من ربهم لم يفكروا به، بل سارعوا إلى متابعة أهوائهم بسبب كبرهم، وصاروا متحمسين في الضلالة في الوقت الذي يحسبون فيه أنهم مهتدون، ولم يخطر ببالهم أنهم يحتاجون إلى أن يعيدوا النظر في نداءات الحق من حولهم، وَالْحَسْبَانُ: الظَّنُّ، وَهُوَ هُنَا ظَنُّ مُجَرَّدٌ عَنْ دَلِيلٍ^(١)، أي يحسب الإنسان دون أن يتيقن، وربما بلغ الحمق ببعض هؤلاء الأقوام إلى اعتقاد الحُسْنِ فيما ليس بحَسَنٍ أصلاً، وهذا تسفلٌ في المدركات والتصورات، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ٩١).

هنا ربما نتساءل عن قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾: ألا يكفي أن يحسب الإنسان أنه على الخير؟ ألا يعذر بجهله في عدم معرفة الحق؟

الجواب: ينبغي أن نتأمل في هذه البصيرة الخطيرة هنا، فالله ﷻ حكى عنهم أنهم يحسبون، والأصل أن الحسابان ظن، والظن يعني الترجيح، ولكن الله ﷻ لم يعذرهم، فالظن هنا لا يغني من الحق شيئاً، والجهل قد لا يكون عذراً بموجب هذه الآية، والطبري رحمه الله يوضح ذلك بصيحة تحذير: «وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله ﷻ لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه ﷻ فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسب أنه هادٍ، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله ﷻ بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية»^(١).

فالمقصود من كلامه أن بعض الضالين يظن أنه يكفي أن يرى نفسه على الحق، فلا يؤاخذ إذا أخطأ، وعند هؤلاء أن الذين يحاسبون ويؤاخذون المعاندون الذين أبصروا الحق، ثم تركوه، أما الذين لم يعرفوا الحق، فلا يحاسبون، والآية تخبرهم بأنه يجب عليهم أن يبحثوا عن الحق.

وحسبان من حقت عليهم الضلالة ﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ هو بيان لمسلكية الشيطان في دقة تخفيته وتزيينه، حتى باتت تلك الأساليب والمسلكيات في أذهانهم مختلطة مؤولة، فغم عليهم، وحسبوا أنهم على درب الهداية يمهدون.

أصناف المجرمين الذين استحقوا الضلالة:

والآية تبصّرنا أن المجرمين على ثلاثة أصناف:

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٨).

الصف الأول: المقلدون في الضلالة، وهم كثرة يقتفون الإجماع ويحسبون أنهم مهتدون.

والثاني: يجحدون الحقَّ الواضح الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لا يعترفون به، مثل فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وَمِنْهُمْ كِبَرَاءُ طَوَاغَيْتِ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَالنَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

الثالث: وهم كثرة يعرفون الحق، ويعترفون به لكنهم اختاروا لأنفسهم ما اختاره إبليس: التفوق في إثبات الذات اتباعاً للهوى أمام اتباع ما أنزل الله، فيجعلون الإجماع والعناد هو الصواب والهدى الذي يريدون حمل بقية العالم عليه، فيستمعون بآلام الضعفاء، ويستلذون بنشر الفساد في العالم؛ لأنهم يكتفون بأن يمدحوا في العاجلة غير عابئين بالآخرة، ونفستهم كما ترى معقدة جداً، وعقليتهم لا تكاد تفهمها؛ لأنهم يجمعون المتناقضات جميعها، وهم سبب شقاء العالم، فقد يُسمَّى أحدهم باسم مسلم ولكنه يفعل كلَّ شيء يضاد الإسلام، وينشئ في الوقت ذاته مؤسسات لها اسم إسلامي ليضرب بها الإسلام.

وليس المقصود بهذا الوصف ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ من فقد عقله أو مَنْ لا عقل له؛ لأنه أصلاً فَقَدَ أداة التكليف، بل المقصود هذه الأصناف الثلاثة لأنهم يستطيعون معرفة الحق، وإدراكه، واتباعه.

لو أردنا تطبيق ذلك على نشر الفاحشة الخاصة في هذه الأيام، وهي فاحشة الشذوذ، فإننا نجد وسائل كثيرة من وسائل الإعلام والثقافة والرياضة والتمثيل والصحافة والقصص تُروَّج لهذه الفاحشة باعتبارها تمثل اختياراً لفئة كثيرة من بني آدم، فإذا جاء من ينكر عليهم حاسبوه وحاصروه وربَّما عزلوه من وظائفه وأعماله، ولم يعتبروا مجرد الإنكار عليهم حرية تعبير، وهم في ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون؛ لأنهم منحوا هؤلاء حقَّ الاختيار، كما يُمنَحُ كثير من



هؤلاء حق الإجهاض، وهو قتل متعمد لنفس حية جعلها الله سبحانه أمانة في قرار مكين.. ألا ترى كيف استطاع الشيطان أن يُجند بعض بني آدم ليغيروا خلق الله سبحانه، ويصوروا الباطل حقاً، والحق باطلاً؟

الانتقال:

نتقل إلى قوله تعالى شأنه: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]



النداء الثالث

وصية الأذية الأدمية بالتمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط،
فهي مقدمة للتمتع الحقيقي {الأعراف: ۳۱-۳۶}

القانون الثاني

الحرص على متطلبات الجسد الدنيوية
من الأكل والشرب بالقسط واجب مشروع
﴿وَكُلُوا وَشَرِبُوا﴾ [الأعراف: 31].

القانون الأول

قانون مشروعية أخذ الزينة
﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾
[الأعراف: 31].

القانون الرابع

قانون الزينة والطيبات

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32] فأصول المباحات الدنيوية تشمل كل زينة الحياة الدنيا، والطيبات من الرزق، وفق النظام الإلهي.

القانون الثالث

قانون حرمة الإسراف

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

القانون السادس

قانون الزينة والطيبات

تقييد مشروعية أخذ الزينة وأكل الطيبات من الرزق
بعدم الإسراف، ويصيرنا بذلك الجمع بين الآيتين
(31، 32).

القانون الخامس

حق التشريع العام إما يكون لله عز وجل، ولرسوله ﷺ
وتبصرنا بذلك كلمة (قل) التي تكررت مرتين هنا:
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: 32].

القانون الثامن

الآيات المفصلة واجتماع الذي يمتد العلم

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32] أي:
أن آيات الله عز وجل المنزلها ما قيمتها العظيمة في
الحياة.

القانون السابع

الالتزام بشرع الله عز وجل في التمتع

بزينة الملبس والمنظر والطيبات من الرزق في الدنيا يؤول
بصاحبه إلى تمام وكمال الاستمتاع بها في الآخرة ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
[الأعراف: 32].

القانون العاشر

قانون الزمن والعمل

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34] فيجب على بني آدم أن
يعملوا وفق الوصايا الإلهية، وألا يحشوا عن الأجل
المحددة لحياهم في الأرض.

القانون التاسع

أصول المحرمات المدبرة في الحياة الدنيا خمسة

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ
وَالنَّبْيَ يَغْتَرِ الْحَقُّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

القانون الحادي عشر

قانون انتهاء الفرص

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34] فعندما ينتهي الأجل المحدد، وطلب أحدهم
التأخر لحظة أو التقدم لحظة لم يقبل منه.

الدعاء الثالث

وصية الذرية الآدمية بالتمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط، فهي مقدمة للتمتع الحقيقي المادي والمعنوي في الآخرة [الأعراف: ٣١-٣٤]

آيات هذا النداء:

﴿يَبْنَىٰ ٓءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ٣١﴾
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿[الأعراف: ٣١-٣٤].

ما المناسبة والاتصال بين هذا النداء وما قبله؟

يمكننا تبين المناسبة والاتصال في الآتي:

أما أولاً: فقد نادى الله ﷻ الذرية الآدمية بأربعة نداءات في هذه السورة مبتدئاً كل نداء بقوله:
﴿يَبْنَىٰ ٓءَادَمَ﴾:

فالنداء الأول، وهو الباب الدستوري الأول: يتعلق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات
الجسدية والقلبية، وجمال الحياة الإنسانية على الأرض ظاهراً وباطناً: ﴿يَبْنَىٰ ٓءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا
عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والنداء الثاني، وهو الباب الدستوري الثاني: يتعلق بطبيعة المعركة مع إبليس، وأساليبه في
فتنة بني آدم، وتعلق به عددٌ من القوانين: ﴿يَبْنَىٰ ٓءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ

مِّنَ الْجَنَّةِ ﴿[الأعراف: ٢٧]﴾، وحذّرنا الله ﷻ من أن الذين لا يؤمنون يحرسون على تطبيع حياتنا مع الفاحشة، ويكذبون، فيجعلونها مما أمر الله ﷻ به تحقيقاً لأهداف إبليس: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وهنا يأتي النداء الثالث، وهو الباب الدستوري الثالث: بالتمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط، فهي مقدمة للتمتع الحقيقي المادي والمعنوي في الآخرة.

- فأمر الله ﷻ بأن نأخذ الزينة في اللباس عندما نؤدي العبادات فضلاً عن العادات: ﴿يَبْنِيْٓ أَدَٰمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.
- وبالتلذذ بالطعام والشراب: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا﴾.
- على أن نحذر من الإسراف في ذلك كله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ [الأعراف: ٣١].
- فلم يحرم الله ﷻ الزينة بل امتن بها على الإنسانية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وعندما حرم الله ﷻ علينا شيئاً فإنه جعل المحرمات محصورة معروفة.

وأما ثانياً: فقد أمر الله تعالى بالقسط في الآيات السابقة قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ ❶، ومن أهم معالم القسط: أن تستقيم الذرية الآدمية على القسط في التمتع بزينة الحياة الدنيا ملبساً ومطعماً ومشرباً، قال تعالى: ﴿خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ﴾، ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا﴾، فلا تهجر ولا تسرف، فقرر الله ﷻ ذلك في هذا النداء، ولما أمر الله ﷻ بالعبادة المحضة في قوله: ﴿وَأَقِيْمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ❷ أخبر هنا أن العبادة لا تعني التجرد من الثياب، والعُري في اللقاء مما يفعله الذين يتلاعب بهم الشيطان، بل العبادة تقتضي أخذ الزينة.

فلنخُص في ذكر القوانين التي نجدها في هذا النداء:



ما الذي يُبَصِّرُنَا به قوله: ﴿يَبَيِّنِي ۖ ءَادَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؟

الجواب: تضمن هذا النداء عددًا من القوانين:

القانون الأول: مشروعية أخذ الزينة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

فلا يكتفون بستر العورة بل يأخذون الزينة، فإذا أمر جلَّ شأنه بأخذ الزينة عند عبادته مع أنه لا تخفى عليه خافية، فإن ذلك يدلُّ على مشروعية أخذ الزينة في الأحوال الأخرى، كما يدلُّ على وجوب أن تتعلَّم البشريَّة تصنيع ما يزينها:

وفي هذا القانون ترى أن الله ﷻ يعلم البشريَّة الترقِّي في التقدُّم الحضاري الإنساني، فلا يكتفي المرء بستر العورة، بل ينبغي له أن يأخذ الزينة عند كلِّ مسجد، أي عند كلِّ فعل سجود وموضع عبادة مثل الطواف. وكانت جبابرة قريش يشرِّعون ما لم يأذن به الله تعالى؛ رغبةً في استغلال الحرم المكي في الشراء الاقتصادي، فكانوا قد وضعوا نظامًا للطواف حول الكعبة، فلا يطوف أحد في ثيابه إلا أن يلبس ما لبسه القرشيون، أو يمشي عائرًا ثيابًا أحمرسيًا أي: من ولد كنانة، أو يستأجر ثيابًا من الحمَّس، أو يستعيرها، وإلا طاف بالبيت وهو عارٍ، فعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ فَتَقُولُ مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوُّفًا - والتطواف: ثوب تلبسه المرأة تطوف به - تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَبَدًا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١).

(١) مسلم (٣٠٢٨).

ولعلَّ قريشاً أرادت تحقيق مكاسب عنصرية واقتصادية في الوقت ذاته من خلال تشريعات ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان في الطواف؛ إذ منعت الطواف إلا بتياب من عند الحُمس، أي: من قريش.

فَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: كَانَتْ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاءً إِلَّا الْحُمْسَ. وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وما وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاءً إِلَّا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجَالَ وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ^(١). وَعَنْهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَصَلُوا إِلَى مَنْى طَرَحُوا ثِيَابَهُمْ وَأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُرَاءً. وَرُوي أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلَّا فِي ثِيَابِنَا وَلَا يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْبًا، وَلَا يَجِدُ مَا يَسْتَأْجِرُ بِهِ كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُريَانًا، وَإِمَّا أَنْ يَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ فَلَمْ يَمْسَهُ أَحَدٌ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّى: اللَّقَى - يَفْتَحُ اللَّامِ - قَالَ شَاعِرُهُمْ^(٢):

كَفَى حَزْنًا كَرِيًّا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقَى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمٌ

وَعَنْ طَاوُوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَطُوفُ عُريَانًا وَيَدْعُ ثِيَابَهُ وَرَاءَ الْمَسْجِدِ وَإِنْ طَافَ وَهِيَ عَلَيْهِ ضَرْبٌ وَانْتَزَعَتْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَا نَعْبُدُ اللَّهَ فِي ثِيَابٍ أَذْنَبْنَا فِيهَا^(٣)، وَقَدْ أَبْطَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ

(١) مسلم (١٢١٩).

(٢) البيت لورقة بن نوفل. يُنظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي الوليد محمد بن عبد الله المعروف بالأزرقي، (١٧٥/١).

(٣) الكشف (١٠٠/٢).

إِذْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ ﷺ عَامَ حَجَّتِهِ سَنَةَ تِسْعٍ، أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمَوْسِمِ: «أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»^(١).

وَعَنِ السُّدِّيِّ ﷺ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ التَّزَمُوا تَحْرِيمَ اللَّحْمِ، وَالْوَدَكَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ، وَلَا يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا قُوتًا، وَلَا يَأْكُلُونَ دَسْمًا^(٢)، وَنَسَبَ فِي الْكَشَافِ ذَلِكَ إِلَى بَنِي عَامِرٍ، وَكَانَ الْحُمْسُ يَقُولُونَ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا أَنْ يَأْكُلَ إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا^(٣)، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ: كَانُوا إِذَا حَجَّجُوا حَرَّمُوا الشَّاةَ، وَلَبَنَهَا، وَسَمَنَهَا، وَفِيهِ عَنْ قَتَادَةَ ﷺ: أَنَّ الْآيَةَ أَرَادَتْ مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ، وَالْوَصِيلَةِ، وَالْحَامِي^(٤).

وهنا سنتساءل في قوله: ﴿يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ﴾.. ما معنى الزينة؟ وهل الأمر في الآية يعني ضرورة أن نلتزم بالزينة؟ وإذا كان الخطاب لبني آدم مسلمهم وكافرهم، فما علاقة المسجد بالكافر والخطاب يشملهم؟!

الجواب: الزينة: مَا يُزَيِّنُ الشَّيْءَ أَوْ الشَّخْصَ، فَهِيَ اسْمٌ مِنْ زَانَهُ يَزِينُهُ زِينًا، ضِدُّ شَانَهُ - أَيَّ عَابَتِهِ - يَشِينُهُ شَيْنًا^(٥)، وَأَخَذُهَا: تَجْمِيلُ النَّفْسِ بِالزِّيْنِ بِهَا، فَإِنَّ الزَّيْنَةَ تَجْمِيلُ لِلنَّفْسِ مَا تَزِدُّ بِهَ شَعُورًا لِلْجَمَالِ، وَأَنْوَاعُ الزَّيْنَةِ فِي الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا الْمَالُ وَالْبَنُونَ، فَالْمُرَادُ بِهَا حَسَبُ

(١) البخاري (٣٦٩).

(٢) تفسير الطبري (٣٩٦/١٢).

(٣) الكشاف (١٠٠/٢).

(٤) التحرير والتنوير (٨-ب/٩٣، ٩٤) تفسير الطبري (٣٩٦/١٢).

(٥) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٤١، ٤٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٨٨، ٣٨٩)، تاج العروس (٣٥/ ١٦١).

السياق: الثَّيَابُ الْحَسَنَةُ التي اعتاد الناس على لبسها ليظهروا بمظهر حَسَنٍ مما يوافق فطرتهم، وأثبتته الشرائع، لماذا نقول ذلك؟

حتى لا يأتي من يستدلُّ بالآية على جواز أن يتزين الرجال بزينة النساء، والعكس، ولا يدخل فيه أن تقرّر الأعرافُ المتغيرةُ الزينة الجديدة باسم تَغْيِيرِ الْمُؤَصَّاتِ، وكذلك لا يدخل فيها أن تتزيّن المرأة بالحلي أثناء الصلاة، ولا أن يتزيّن الرجال بالغالي من الثياب، بل مردُّ ذلك إلى التطبيق النبويّ، وقيد الله ﷻ الزينة في آخر الآية بعدم الإسراف، ووفق هذه الآية فالزينة لا تطلق على مجرد ستر العورة فقط، والمشكلة أن بعض الفقهاء يستدلُّون بهذه الآية على وجوب ستر العورة التي هي من شروط الصلاة، ولكن الآية واضحة، إذ بيّن الله ﷻ لنا فيها ما هو أكثر من ستر العورة، وستر العورة أساس لكن المطلوب أكثر منه، فلا يجوز أن يأتي شخص ويقول: يكفي أن أصلي وألبس من السُرّة إلى الركبة، بل نُعْمَلُ هذه الآية على ظاهرها والكلمات على ظاهرها، فالإقتصار على ما ذكره بعض المفسرين هنا قصرٌ للنصّ بغير مُوجِبٍ ظاهر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ، فَقَالَ: «أَوْكُلْكُمْ يَجِدُ ثَوْبَيْنِ» ثُمَّ سَأَلَ رَجُلٌ عُمَرَ رضي الله عنه، فَقَالَ: «إِذَا وَسَّعَ اللَّهُ فَأَوْسِعُوا»، جَمَعَ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ، صَلَّى رَجُلٌ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ، فِي إِزَارٍ وَقَمِيصٍ، فِي إِزَارٍ وَقَبَاءٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَرِدَاءٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَمِيصٍ، فِي سَرَاوِيلَ وَقَبَاءٍ، فِي ثُبَّانٍ وَقَبَاءٍ، فِي ثُبَّانٍ وَقَمِيصٍ، قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: فِي ثُبَّانٍ وَرِدَاءٍ^(١).

(١) البخاري (٣٦٥).

فقوله: (رداء) ما يوضع على أعلى الجسم من الثياب، (قباء) ثوب منضم الأطراف مشتق من القبو وهو الجمع والضم؛ سمي بذلك لأنه يضم لابسه، (تَبَّان) سروال صغير مقدار ستر العورة.

ولقد أتعب الرازي رحمته الله ^(١) نفسه ليقرّر هنا أن الزينة ستر العورة فقط، فهي الواجبة، ودونها ليس كذلك، ولا أدري ما الذي ألجأه إلى محاولة تخصيص ظاهر النص؟ ما أظن ذلك إلا لاستدلال الفقهاء على وجوب ستر العورة بهذه الآية.. وإيقاع النصّ بعمومه خير من هذا التخصيص الذي لا معنى له.

التزين جبلة إنسانية، ومطلب ديني، ومظهر حضاري:

أنت ترى أن النصّ بعمومه يحوي معالم ضخمة من الجمال في الترفي بالإنسانية، فيدخل في الزينة جمال الثياب، ونظافتها، وجمال الهيئة بأن يمتشط الإنسان، ولا يظهر أشعث أغبر، وهو يقدر على إزالة شعث شعره، وغبرة بشرته، وكان النبي صلّى الله عليه وآله يحثُّ على التوسّع في الزينة عند الصلاة، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله قَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ (أَيَّ أَرَادَ الصَّلَاةَ) فَلْيَلْبَسْ ثَوْبَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جلّ جلاله أَحَقُّ مَنْ تُزَيَّنْ لَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيَتَرَزَّ إِذَا صَلَّى، وَلَا يَشْتَمِلْ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ اشْتِمَالَ الْيَهُودِ» ^(٢).

كما يدخل في الزينة أن يتطيب، وأن يأخذ أحسن هيئة للصلاة، وهذا لا ينافي محظورات الإحرام؛ فتلك عبادة لها شأنها المستقلُّ بعد الدخول فيها، على أن عائشة رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وآله.

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٢٩).

(٢) المعجم الأوسط (٩٣٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٥١): «رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن»، ولعله سبق قلم أو وهم، فالحديث في الأوسط وليس في الكبير، ونبه على ذلك الألباني في الصحيحة (١٣٦٩)، وقال: «وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

قَالَتْ: «كُنْتُ أَطِيبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِإِحْرَامِهِ حِينَ يُحْرِمُ، وَلِحِلِّهِ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ»^(١)، فبعد أن يحرم يصبح الطيب محرماً، ولكنه يمكن أن يضعه على جسده قبل ذلك. ويدخل فيه نظافة الفم، وتطيبه بالسواك، وقد جاءت سنة النبي ﷺ من قوله وفعله بالمدامومة عليه، والأمر به فقال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»^(٢). ومن الزينة بيض الثياب، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبُسُوءُ مِنَ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضُ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفُّوا فِيهَا مَوْتَاكُمُ، وَإِنَّ مِنْ خَيْرِ أَكْحَالِكُمُ الْإِثْمَدُ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ، وَيَنْبُتُ الشَّعْرَ»^(٣).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشْتَرَى رِدَاءً بِأَلْفٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ^(٤). وانتبه لكلمة "ألف" هنا، فهو لم يبين هل هي من الدراهم أو من الدينار، وسيبين تميم رضي الله عنه أنه أراد أن يتجمل لربه ﷻ، وليس المقصود أن يظهر مشتهراً بذلك أمام الناس.

بصيرة: يدعونا الله ﷻ بقوله: ﴿يَبْتَغِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إلى أن نلقاه، وقد ظهرت علينا بسطة نعمائه، ونضارة عطائه، لتكون العبادة عنوان السعادة المقتضية للحمد، لا محطة الشقاء الذي ينادي على صاحبه بالبؤس.

ولعلك تسأل: ما موقع قوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]؟ وهل تخصيص الزينة بأن تكون عند كل مسجد يعني عدم الاهتمام بها خارج ذلك النطاق؟

(١) البخاري (١٥٣٩).

(٢) البخاري (٨٨٧).

(٣) أحمد (٢٢١٩)، وقال ابن كثير في تفسيره (٤٠٦/٣): «هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم».

(٤) المعجم الكبير (١٢٤٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٥٨٩): «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح»، وقال ابن كثير

في تفسيره (٤٠٦/٣): «وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ».

الجواب: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أتت بعد ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾، والإنسان يتوقع عند سماع ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أن تنتهي الجملة، فلماذا خصص هذه الآية بقوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؟
نقول إنما ذكر ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لسببين:

السبب الأول: لأن قريشاً كانت تمنع الناس من الطواف حول البيت إلا بثياب الخمس، أي ثياب القرشيين، وإلا طافوا عُراءً؛ فالله ﷻ قال: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعمَّ كل المساجد ولا تخصوا بعض المساجد بالتعري مثل المسجد الحرام ومسجد منى.

السبب الثاني: أن الله ﷻ ذكر ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لبيان أن الإنسان ينبغي أن يُحسِنَ التزيين أمام الله جلَّ في علاه مع أن الله تعالى يعلم السرَّ وأخفى، وهو يرى نياط عروق كل مخلوق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

فلا يتهاون بأخذ الزينة أمام الله ﷻ؛ لأنه يزعم أن الله ﷻ معه على كل حال، فعن نافع رضى الله عنه قال: رأني ابن عمر رضى الله عنهما أصلي في ثوب واحد، فقال: ألم أكسك ثوبين؟ فقلت: بلى، قال: أرايت لو أرسلتك إلى فلان أكنت ذاهباً في هذا الثوب؟ فقلت: لا، فقال: «اللَّهُ أَحَقُّ مَنْ تَزَيَّنُ لَهُ - أَوْ مَنْ تَزَيَّنْتَ لَهُ -»^(١)، وعن أبي هريرة رضى الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُصَلِّي أَحَدُكُمْ فِي الثُّوبِ الْوَاحِدِ، لَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ مِنْهُ شَيْءٌ»^(٢)، وعن بُرَيْدَةَ رضى الله عنه قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ

(١) مصنف عبد الرزاق (١٣٩١).

(٢) البخاري (٣٥٩)، واللفظ له، مسلم (٥١٦).

يُصَلِّي الرَّجُلُ فِي لِحَافٍ [ثَوْبٌ يُلتَحَفُ بِهِ] وَاحِدٍ لَا يَتَوَشَّحُ بِهِ، وَنَهَى أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ فِي سَرَائِيلَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رَدَاءٌ^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله عَنِ الصَّلَاةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ فَقَالَ: «أَوَّلِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ؟»^(٢).

وَذَكَرُوا فِي هَذَا السُّؤَالِ أَنَّ سَبَبَهُ مَا وَرَدَ أَنَّ أَبِي بَنَ كَعْبٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه اخْتَلَفَا فَقَالَ أَبِي رضي الله عنه: الصَّلَاةُ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ غَيْرُ مَكْرُوهَةٍ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ وَفِي الثِّيَابِ قَلَّةٌ - فَقَامَ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى الْمُنْبَرِ فَقَالَ: الْقَوْلُ مَا قَالَ أَبِي، وَلَمْ يَأَلِ ابْنُ مَسْعُودٍ - أَيُّ لَمْ يُقَصِّرْ -^(٣).

وإذا كان سيأخذ زينته في مقابلته لربه تعالى، وهو صلى الله عليه وآله يعلم منه كل شيء، فذلك حثٌ على أخذ الزينة عند التعامل مع بقية العالم، كما ترى في هذا القانون تعظيم الصلاة بأخذ الزينة لها، وعدم الاكتفاء بستر العورة.

ثم إن المساجد مواطن الاجتماع ولقاء الناس، وعلى هذا الاجتماع رتب الشرع كثيراً من السنن والمستحبات؛ من الاغتسال، وإزالة الروائح، وغيرها.

وربما سألت: ما الجانب الحضاري المشرق المبهر الذي يُبصرنا الله تعالى به في قوله: ﴿يَبْنِي عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؟

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣٢٦٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٣٠).

(٢) البخاري (٣٥٨)، مسلم (٥١٥).

(٣) مصنف عبد الرزاق (١٣٨٥)، وهو منقطع؛ لأن الحسن لم يدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة (٢٣٨/١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقال: «هذا إسناد رجاله ثقات».

الجواب: عندما يأمرنا الله ﷻ بأن نأخذ زينتنا ونحن نقدر على الزينة إمّا مالا وإمّا صناعةً فهل نقصّر في شرائها أو أخذها أو في تصنيعها؟ لا، فالآية من باب آخر تؤسّس لصناعة النسيج والغزل وتجارة الثياب في العالم، فكيف صار المسلمون يحتاجون إلى استيراد ذلك من غيرهم؟ هذا أمرٌ ينافي أن يكونوا عاملين بالقرآن حقاً.

﴿يَبْنَىءُ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تَبَصَّرْنَا بِالْغَاءِ وَجُودِ التَّعَرِّيِّ فِي الْعَالَمِ، وَبِإِعَانَةِ النَّاسِ عَلَى لِبْسِ أَفْضَلِ الثِّيَابِ، وَلِذَا قَالَ مُحَمَّدٌ رَشِيدُ رِضَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«وَلَمَّا أَسْرَفَ بَعْضُ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ الْأُورُيِّينَ فِي الطَّغْنِ فِي الْإِسْلَامِ لِتَنْفِيرِ أَهْلِهِ مِنْهُ وَتَحْوِيلِهِمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ، وَلِتَحْرِيطِ أُورُبَّةَ عَلَيْهِمْ، رَدَّ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْمُنْصِفِينَ مِنْهُمْ، فَذَكَرَ فِي رَدِّهِ أَنَّ لَا تَنْشَارَ الْإِسْلَامَ فِي إفْرِيقِيَّةٍ مِنْهُ عَلَى أُورُبَّةَ بِنَشْرِهِ لِلْمَدَنِيَّةِ فِي أَهْلِهَا بِحَمْلِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْعُرِّيِّ، وَإِيجَابِهِ لُبْسِ الثِّيَابِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا لِرَوَاجِ تِجَارَةِ النَّسِيجِ الْأُورُبِّيَّةِ فِيهِمْ»^(١).

لقد كان هذا الأصل الإسلامي الإصلاحي للذريعة الآدمية مصدر إلهام لكثير من الشعوب المتوحشة التي كانت تعيش عارية، فلما جاء الإسلام علّمها كيف تستر عورتها وكيف تأخذ زينتها، فصارت من أسياد صناعة الغزل والنسيج، فما إن عرفت الإسلام حتى شاع فيهم الستر، وراجت فيهم صناعة الثياب والتجارة فيها، ونقلتهم إلى بُعدٍ مدنيٍّ جديدٍ في سُلَمِ الرقي البشري.

وكل ما سبق تقريره من ندب الإسلام إلى اتخاذ الزينة إنما هو مما تطلبه الفطرة وتقتضيه، لا مما تكلفه شريعته وتُعنت الناس حملاً عليه وقسراً؛ إذ الإنسان مفطور على حب الزينة والتجمل، والزينة من مظاهر الإنسانيّة الكاملة والمدنية الراقية، والتجرد عنها رجوع إلى

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٤١).

الانحطاط والحيوانية، والحياة البشريّة لا تسير إلى الوراء والتقهقر إلا إذا أصابتها نكسة تغير الأفكار والآراء كما هو واقع اليوم.

وإذا كان اتخاذ الملابس والزينة مطلوباً للرجل الذي يحضر المساجد، ومجتمعات العبادة، فإنه بالنسبة للمرأة كذلك من ألزم اللوازم، فهو الحافظ الوحيد لها ولدينها، وشرفها، وعفافها.

نتنقل إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) .. ما القانون الذي نجده في هذه الكلمات المباركات من الآية؟

الجواب: هنا يأتي:

القانون الثاني: الحرص على متطلبات الجسد الدنيوية من الأكل والشرب بالقسط واجب مشروع، ويُبصّرنا بذلك قوله تعالى جُده: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (٣١):

يمكننا أن نطلق على هذا قانون التغذية والغذاء، وفي هذا القانون يظهر حرصُ الشريعة على بناء الأجساد، كما يظهر مَقْصِدُها في المحافظة على الإنسانية، وذلك بالأكل والشرب الملائمين، فلا يقصّر الإنسان في متطلبات جسده، ولا يظنّ أن البحث عن الآخرة يعني الإعراض، والازورار عن الدنيا.

وهنا نتساءل: فما معنى الأمر في قوله تعالى جُده: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾؟ وهل هو للوجوب أم للاستحباب؟ وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (٣١)؟

الجواب: ذهب كثير من المفسرين ^(١) إلى أن الأمر في قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ لِلْوُجُوبِ؛ لأنهم أسقطوه على ستر العورة، وفي قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (٣١) لِلإِبَاحَةِ مستدلّين بالسياق

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/٢٢٩).

التاريخي لنزول الآيات؛ لأن المراد من هذه الأوامر إبطال التحريم الذي افتراه أهل الجاهلية، عندما أمروا الناس بأن يطوفوا حول الكعبة عراة، إلا أن يأخذوا ثياباً قرشيةً، فدل هذا السياق التاريخي على وجوب ستر العورة.

فذكر علماءنا أن الأمر بأخذ الزينة للوجوب، وذكروا أن الأمر بالأكل والشرب للإباحة. قالوا: وهو سببه بالأمر الوارد بعد الحظر، فإن أصله إبطال التحريم وهو الإباحة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] بعد قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١] ^(١).

والذي يظهر لي أن الأمر في كلا الوصيتين للوجوب في أصله، وللإباحة فيما لم يحتاج إليه في العرف الشرعي، فله يعلم الذرية الآدمية العبادة ولكن وفق سبل العيش الكريم وليس وفق العيش الضروري.

دعونا نوضح الأمر أكثر: عندما أمرنا الله ﷻ بالعبادة، وأهبطنا إلى الأرض، فهل أمره لنا بأخذ الزينة يقتصر على ستر العورة فقط؟ وهل أمره لنا بالأكل والشرب يقتصر على سد الحاجة الضرورية حتى نقول: الأمر للإباحة؟

الجواب: بل أمره للوجوب، ليس لمجرد البقاء على الحياة فقط، بل لتظهر الكرامة الإنسانية لبساً ومطعماً ومشرباً، فلا يمكن أن تتحقق العبادة الصحيحة عندما يكشفون عوراتهم، بل كشف العورات هدف شيطاني، كما لا يمكن أن يستطيعوا ممارسة حياتهم الطبيعية دون أكل أو شرب لائق بهم، ولكن ذلك لا يقتصر على الضرورة، بل لا بد أن يأكلوا ما يؤدّي إلى بناء الجسم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ٩٤).

فصارت مراتب الأكل عندنا ثلاثة، مثل مراتب أخذ الزينة:

- المرتبة الأولى:** الوجوب، ويكون بأن يحصل الإنسان ما يحقق من خلاله الحاجات الأساسية في أخذ الزينة أو في الأكل والشرب، وما يُظهِره بمظهر العيش الكريم.
- المرتبة الثانية:** الإباحة، وهو ما يزيد على ذلك مما لا يؤدي إلى فساد جسده.
- المرتبة الثالثة:** عدم الإسراف فإذا أسرف أصبح في حيز التحريم.

ويرى الإمام المحقق الشاطبي رحمته الله أن مقتضى الأمر بالزينة لا يبلغ إلى الوجوب، وعلل عدم الوجوب في مثل هذه الأمور بأنها مما تقتضيه الفطرة السليمة أو مكارم الأخلاق أو محاسن العادات، وأن الشارع قد اكتفى في طلبها بمقتضى الجبلة الطبيعية والوازع الباعث على الفعل^(١).

وقد تتساءل: لماذا يأمر الله تعالى بالأكل والشرب؟ وما وجه الاتصال والمناسبة بين الأمر بأخذ الزينة، والأمر بالأكل والشرب؟

الجواب: يجذبك الإحكام القرآني بين كلماته وجُمَلِه وآياته، ووجه الاتصال هنا:

فأما أولاً: فإن الله جلَّ ذِكْرُه لَمَّا أَمَرَ بِكُسُوةِ البدن الظَّاهِرِ بما يزينه من الثيابِ أَمَرَ بِكُسُوةِ الباطنِ بالطَّعامِ والشَّرَابِ^(٢)؛ لِيَتِمَّكَنَ الإنسان من ممارسة الحياة عبادة محضة أو عبادة بإعمار الأرض على الوجه الأمثل.

وأما ثانياً: فحتى لا يفهم أن الحياة تقتصر على الحضور في المساجد عندما قال الله تعالى:

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٣)، وحتى لا يفهم من الأصل في الأكل والشرب المنع؛ لأن الله تعالى حَرَّمَ آدم وزوجه عليهما السلام من متعة الأكل من تلك الشجرة المحرَّمة، ولذا وصَّى الله

(١) الموافقات، الشاطبي، (٢/ ٣٠٦).

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٨٧).

جَلَّ ذِكْرُهُ بني آدم بأن يتزَيَّنوا، وأن يأكلوا ويشربوا كيفما شاءوا، والأمر في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ﴿٣١﴾ مُطْلَقٌ فَيَتَنَاوَلُ جميع الأوقات، وجميع الأحوال وجميع الأمكنة، وسبق أن ذكرنا أن ذِكْرَ أخذ الزينة عند كل مسجد يدل على وجوب أخذها في بقية الأحوال، وَيَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الملبوسات والمطعمومات والمشروبات، فالأصل فيها الجِلُّ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ الْمُنفَصِلُ، فالأصل في المنافع الجِلُّ والإباحة^(١).

وأما ثالثاً: فهناك المناسبة التاريخية التي ذكرناها سابقاً حيث كان الحُجَّاج والمُعْتَمِرُونَ الآفاقيون في الجاهلية يطوفون عُرَاءً، وَيُحَرِّمُونَ أنواعاً من المأكولات، وكل ذلك حتى تحقِّق قريش هيمنتها، وتُظَهِّرَ عنصريتها، والله ﷻ ينتزع منهم هذا الامتياز العنصري بربط التحليل والتحریم بالتشريعات الإلهية، وليس بالتحكُّمات الوضعية البشرية.

نتنقل إلى الجزء الثالث من الآية، وهو قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ فما القانون الذي تُبَصِّرنا به هذه الكلمات المباركات من الآية؟
الجواب:

القانون الثالث: قانون حرمة الإسراف:

وَيُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى جَدَّهُ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣٢﴾، فيَحْرُمُ الإسراف في أخذ الزينة والمطعم والمشرب وفي أمور الحياة، وذلك ليتحقَّق القسط في الأرض:
هنا تعرف لماذا بدأ الله ﷻ أوامره بالقسط في قوله قبل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فينبغي التمتع في الحياة بأخذ الزينة، والأكل والشرب، ولكن يجب أن يكون كل ذلك بالقسط، فيَحْرُمُ الامتناع عن أخذ الزينة والأكل والشرب، كما يَحْرُمُ الإسراف في الوقت ذاته،

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٣٠).

ونلاحظ أن تحريم الإسراف ورد في هذه السُورَة، وهي سورة مكية، وتحريم الشيء في مكة يشعرنا بأهمية هذا الحكم.. فما معنى الإسراف؟

الجواب: الإسراف^(١): هو تَعَدِّي الحَدِّ وصولاً إلى الإهدار والفساد، والتعدي على حقوق الغير، وَمِنْ تَعَدِّي الحَدِّ الإِغْفَالُ لِحَقِّهِ، فهو تجاوز الحَدِّ في كُلِّ فعلٍ يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. تَقُولُ: فِي الْأَمْرِ سَرْفٌ، أَي: مُجَاوِزَةٌ لِلْقَدْرِ، ومنه السَّرْفَةُ: دَوِيْبَةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ وَالْوَرَقَ، وَتَبْنِي لِنَفْسِهَا بَيْتًا حَسَنًا، بالاعتداء على غيرها، وَيَقُولُونَ فِي الْمَثَلِ: "أَصْنَعُ مِنْ سَرْفَةٍ"^(٢)، فهي تتسم بالبناء الحضاري والعمراني اللائق بها، والذي يبعث على الإعجاب بصنعتها مقارنة بحجمها، ولكنها تجاوزت الحَدَّ، فتعدت ما تحتاجه إلى غيره، واعتدت على ما يجاورها، وكم يوجد في هذه الأيام من أمثالها من البشر، وسَرَفُ الماء بالتحريك: ما ذهب منه في غير سَقْيٍ ولا نفع، وَرُويَ في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه: «الثَّالِثَةُ فِي الْوُضُوءِ سَرْفٌ، وَالرَّابِعَةُ سَرْفٌ»^(٣)، ويصدق حديث: «هَكَذَا الْوُضُوءُ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ»^(٤)، وقد يكون الإسراف بإغفاله؛ لأنه جاوز قَدْرَ الشيء، وحقُّه التقدير، لا الإغفال والإهمال والتضييع، ومنه قَوْلُ الْقَائِلِ: "مَرَرْتُ بِكُمْ فَسَرَفْتُكُمْ"، أَي: أَغْفَلْتُكُمْ.

فإن قلت: ففي أي المجالات يدخل الإسراف؟ هل هو قاصر على الأكل والشرب؛ لأن النهي جاء بعدهما؟

(١) «مقاييس اللغة» (٣/ ١٥٣)، «المفردات في غريب القرآن» (ص ٤٠٧).

(٢) جمهرة الأمثال (١/ ٥٨٣).

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ١٠٣).

(٤) النسائي (١٤٠)، وحسن الألباني إسناده. الصحيحة (٢٩٨٠).

الجواب:

النهي في قول ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يرجع إِلَى الثَّلَاثَةِ: أَخَذَ الزَّيْنَةَ، وَالْأَكْلَ، وَالشَّرْبَ، وترى أن الله ﷻ حَذَفَ الْمَعْمُولَ، فلم يقيّد النهي في شيء محدّد، فلم يقل: ولا تسرفوا في الطعام أو اللباس أو المسكن أو الاستراحة، وذلك ليدلّ على الْعُمُومِ في كُلِّ شيء، أي لَا تُسْرِفُوا فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهَا؛ وحققة الإسراف تَجَاوُزُ الْحَدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، وَالْحُدُودُ:

مِنْهَا: طَبِيعِيٌّ كَالْجُوعِ وَالشَّبَعِ وَالظَّمَا وَالزِّي، فقد يسرف الإنسان في الجوع كما قد يسرف في الشبع.

وَمِنْهَا: اقْتِصَادِيٌّ كَأَن يَنْفَقَ نَفَقَةَ الْعَشْرَةِ عَلَى وَاحِدٍ.

وَمِنْهَا: عَقْلِيٌّ أَوْ عِلْمِيٌّ، وَمِنْهَا عُرْفِيٌّ وَشَرْعِيٌّ، وَمِنْ حُدُودِ الشَّرْعِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللَّبَاسِ أَنَّهُ حَرَّمَ مِنَ الطَّعَامِ الْمَيْتَةَ، وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْخَمْرُ وَهِيَ كُلُّ مُسْكِرٍ، كَمَا حَرَّمَ كُلَّ ضَارٍّ مِنْهُمَا كَالشُّمُومِ، وَمِنَ اللَّبَاسِ حَرَّمَ الْحَرِيرَ الْمُصَمَّتَ أَيَّ الْخَالِصِ... فَهَذِهِ أَشْيَاءٌ مُحَرَّمَةٌ بِأَعْيَانِهَا، فَلَا تَبَاحُ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا، وَحَرَّمَ مِمَّا يَلَا بِسُهَا الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ فِي أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ^(١).

الإسراف إهدار للخيرات، وتبديد للمكتسبات:

وهنا قد يقول قائل: لماذا النهي عن السرف؟ يقولون: الله وَسَّعَ علينا: فلماذا لا نأخذ حريتنا

في التصرف فيما وَسَّعَ علينا فيه؟

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٤٢).

الجواب: الإسراف یعنی تدمیر الخیرات الأرضیة، وإشاعة الکبر، ویعنی الأنانیة المُفْرِطَة، وعدم محبة الخیر للآخرین، فبعضهم یسرف تفاخرًا وبطرًا ورتاء الناس، وبعضهم یسرف لیسابق غیره من المسرفین، ولباهیة، وَكَمْ خَرِبَتْ هَذِهِ الْمُبَارَاةُ وَالْمُنَافَسَةُ مِنْ بُیُوتٍ کَانَتْ عَامِرَةً، وَتَصَوَّرَ أَنَّ بعض الناس الأغنیاء یطلبون الزکاة لأنفسهم؛ لأنهم أسرفوا فی حیاتهم حتی احتاجوا إلى الزکاة، وَلَا سِیمَا إِذَا اتَّبَعَتْ فِیْهَا أَهْوَاءُ النِّسَاءِ فِی التَّنَافُسِ فِی الْحُلِيِّ، وَالْحُلَلِ، وَالْمُهِوْرِ، وَتَجْهِیزِ الْعَرَائِسِ، وَاحْتِفَالَاتِ الْأَعْرَاسِ وَالْمَآتِمِ، وَمَا يَتَّبِعُهُمَا مِنَ الْوَلَائِمِ وَالْوَضَائِمِ، وَإِنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَرَى مِنَ الْعَارِ أَنْ تَلْبَسَ ثِیَابًا مَحْدَدَةً فِی زِیَارَتِهَا لِأَمْثَالِهَا مَرَّتَيْنِ، بَلْ لَا بُدَّ لِكُلِّ زِیَارَةٍ مِنْ حُلَّةٍ جَدِیدَةٍ، وَهَذَا سَرْفٌ کَبِیرٌ، وَضَرَرُهُ عَلَى الْأُمَّةِ أَكْبَرُ مِنْ ضَرَرِهِ عَلَى الْأَفْرَادِ^(۱)، ویؤدّی ذلك إلى أن یشعر الإنسان عبداً للاستهلاك، والتفاخر، ثم ما یلبث حتی یشعر رقیقاً للقوى الدولیة؛ لأنه یحب أن یشعر على هذا العیش المُسْرِفِ المُتَرَفِّ، والمصیبة العظمی: أن یشعر وجارُهُ جائع، ومن قال بأن المقصود بالجار هم من داخل الدولة الواحدة؟ وهل كانت حدود (سایکس بیکو) هی المعتبرة فی القرآن؟ فکیف إذا اقتضى السَّرَفُ أن تعتدي الدول على جيرانها، لطمعها وأنانیتها!

الإسراف جريمة بحق الأجيال البشريّة:

قد تتساءل: لماذا أتبع الله ﷻ النهی عن الإسراف بقوله تعالى جَدُّهُ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾؟ وما علاقة الإسراف بما سبق من الآیات؟

الجواب:

(۱) تفسیر المنار (۸/ ۳۴۲).

أولاً: هذا تهديد يدل على شذوذ المسرف، فالله ﷻ لا يحب المسرفين؛ لأنهم يدمرون خيرات الأرض، ويمنعون التنمية المستدامة، ويحرمون الأجيال المجاورة أو الأجيال القادمة من التمتع بالأرض، ويهدرون ما كان ينبغي لهم أن يشاركوه مع بقية العالمين؛ ولذا عرّف المسرفين في سورة الشعراء بأنهم: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢].

ثانياً: دلّ النص على أن جريمته بلغت حدّاً سيئاً؛ لأنّه عندما أسرف فعل ما لا يحبه الله ﷻ مدبر الكون، فقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ تعليل للتحريم المذكور كما تقتضيه (إن)، وبهذا فقد دخل المسرف فيمن لا يحبه مدبر الكون جلّ ثناؤه، فإذا دخل أبعد الله ﷻ عنه وصار من أولياء الشياطين وقال الله تعالى عنه في الآية السابقة ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وكأنه أمسى مطروداً من العناية الإلهية، والعطاء الإلهي، ثم إنه جعل نفسه بإسرافه ندّاً لربه ﷻ إذ فعل ما لا يحبه ربه تعالى ذكره.

ثالثاً: الإسراف أحد أضداد القسط الذي أمر الله تعالى مجّده به في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فالقسط يقتضي إعطاء كلّ شيء حقه، فزيادته على حقه يؤدي إلى تدميره، ونقصانه من حقه يؤدي إلى تشويهه، وهذا في كلّ شيء، والإسراف: زيادة الشيء على حقه، فالقسط في الطعام والشراب واللباس فضيلة بين جريمتين:

جريمة البخلاء المحرّمين لما أحلّ الله ﷻ، وجريمة المسرفين المتجاوزين حدود النظام الإلهي في الحياة.

فانظر كيف تجاوز الناس الحدّ في أخذ الزينة، وكيف تجاوزوا الحدود في المأكل والمشرب.

ومن أبرز التشريعات الإسلامية التي تجذبك جذباَ بروعتها: حرمة الإسراف في الماء المعد للوضوء فكيف في غيره؟ فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، قال: «هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء، وتعدى، وظلم»^(١).

لعلك تسأل: هل هناك أسباب لنزول هذه الآية أو قصص وقعت أيام النبي ﷺ تتعلق بهذه الآية؟

الجواب: ذكروا في نزول هذه الآية أن بني عامر في أيام حَجَّهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دَسَمًا يعظمون بذلك حَجَّهم، فقال المسلمون: فإنّا أحقُّ أن نفعل، ف قيل لهم: كلوا واشربوا ولا تسرفوا، ويحدّد النبي ﷺ هذا القانون القرآني العظيم في آداب الأكل والشرب واللباس، فيقول: «كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَابْسُوا، وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ»^(٢).

وعن ابن عباسٍ ؓ قال: «كُلْ مَا شِئْتَ، وَابْسُ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ»^(٣).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَابْسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ، وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ»^(٤).

(١) أحمد (٦٦٨٤)، وقال الأرنؤوط: «صحيح، وهذا إسناد حسن»، وحسنه الألباني. صحيح الجامع (٦٩٨٩).

(٢) رواه البخاري معلقاً (١٤٠/٧)، وقد وصله ابن حجر ؓ في تعليق التعليق (٥٢/٥)، وفي فتح الباري (١٠/٢٥٣). وَالْمَخِيلَةُ (بَفَتْحِ الْمِيمِ يَوْزَنُ سَفِينَةٍ): الْخِيَلَاءُ وَالْإِعْجَابُ وَالْكِبَرُ.

(٣) رواه البخاري معلقاً (١٤٠/٧)، ووصله ابن حجر ؓ في تعليق التعليق (٥٣/٥، ٥٤).

(٤) أحمد (٦٧٠٨)، وحسن إسنادَه الأرنؤوط، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٥).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان لا يأكل حتى يُؤتى بِمِسْكِينٍ يأكل معه، فأدخلت رجلاً يأكل معه فأكل كثيراً، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا عليّ، سمعتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يقول: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١)، قيل: ليس المراد به ظاهره، وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكان المؤمن لتقلُّله من الدنيا يأكل في معي واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء، ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلُّل من الدنيا والاستكثار منها، فكانه عبّر عن تناول الدنيا بالأكل، وعن أسباب ذلك بالأمعاء، ووجه العلاقة ظاهر»^(٢).

وفي آداب الأكل والشرب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ»^(٣).

ويلوح لي من القرن بين الأمر بأخذ الزينة وبين الأمر بالأكل والشرب في غير إسراف معنى لم أقف عليه قبل -وأرجو الله أن يكون صواباً- ألا وهو: أن من تمام الزينة الظاهرة للإنسان اعتدال قوام بدنه، وأن يكون وسطاً في ذلك، فلا يكون بديناً سميناً تمجّه الطباع، ولا يكون هزيلاً نحيفاً تزدريه الأعين، ولا ريب أن لعادات الأكل والشرب أثراً في حالة الإنسان البدنية، ولذلك نجد الأمر صريحاً بالحثّ على الأكل المغذي الباني المقوي للبدن، مقترناً بالنهي

(١) البخاري (٥٣٩٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٥٣٨ / ٩).

(٣) ابن ماجه (٣٣٥٢)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤ / ٣١): «هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ... وَقَدْ صَحَّحَ الْحَاكِمُ إِسْنَادَهُ لِمَتْنٍ غَيْرِ هَذَا، وَحَسَنَهُ غَيْرُهُ، وَأُورِدَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمَوْضُوعَاتِ مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ عَنْ بَقِيَّةِ بْنِ الْوَلِيدِ بِهِ، وَصَعَفَهُ بَنُوحُ ابْنُ ذُكْوَانَ».

عن الإسراف المفضي إلى التخمّة والبدانة المخرجة للإنسان عن حد الاعتدال وتناسق الأعضاء، وزينته الظاهرة، والله أعلم.

قد يتساءل أحدهم عن حديث المِقْدَام بن معد يكرّب الكِنْدِيّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِيلاً لَا مَحَالَةَ، فَتُلُتْ طَعَامٌ، وَتُلُتْ شَرَابٌ، وَتُلُتْ لِنَفْسِهِ»^(١)، فهل الحديث يعني أن لا نأكل إلا القوت الضروري الذي يبقينا على قيد الحياة؟

الجواب: بل إقامة الجسد مثل إقامة الصلاة تعني المحافظة على كماله، وقوله: «يُقْمَنَ صَلْبُهُ»: يعني يَبْنِيَن جسده، وليس المقصود أنهن يُقْمِنَهُن فقط على قيد الحياة بدليل أن النبي ﷺ أفطر يوم الفتح؛ لأن المعركة تقتضي ذلك، وأفطر يوم عرفة؛ لأن الأمر يقتضي ذلك، كما أن قوله: «يُقْمَنَ صَلْبُهُ» دليل على طلب المستجد المغذي المقوي من الأكل، حتى ولو قلّ، فهو الذي يقيم الصلب، لا كما هو حال كثرة من الناس همه حشو بطنه بما طرف له.

وهنا في سورة الأعراف قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] بينما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]

٢٧] فربما تساءلت: ما الفرق بين التبذير والإسراف؟

الجواب: ذكر بعض علمائنا ﷺ ثلاثة فروق بينهما:

الأول: التبذير: الجهل بمواقع الحقوق. والسرف: الجهل بمقادير الحقوق.

الثاني: قال ابن عابدين رحمه الله: «الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، والتبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي»^(٢).

(١) المستدرک (٧٩٤٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٢) الدر المختار وحاشية ابن عابدين (٦/٧٥٩).

الثالث: التبذير إنفاق المال في المعاصي وتفريقه في غير حق، مثل الفرق الثاني، والإسراف مجاوزة الحد، سواء كان في الأموال أم في غيرها، كالإسراف في القتل، لماذا لا يسرف في القتل؟ لأنه ذكره بعد استحقاق القصاص، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، أي: يجوز له أن يقتص من قاتل صاحبه، ولا يحولها لمسألة ثأر فيقتل بالواحد عشرة وعشرين، فيعمل الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، ثم لا يسرف هو بأن يحقق هو الحكم، فتنفيذ القصاص بيد النائب عن المسلمين، وهو القضاء.

الإسراف من المفاهيم التي ضيقها المتحدثون وحسوها في غرفة الطعام، غير أن التعبير القرآني لمصطلح الإسراف أكثر استيعابًا وسعة لكل التواءات الخارجة عن حدودها ولو كانت ذنوبًا نذت عن الفطرة البشرية ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه: ١٢٧].

نتقل إلى قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [الأعراف: ٣٢]، فما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟ وما القانون الذي تبصّرنا به هذه الآية؟

الجواب: هنا يأتي:

القانون الرابع: قانون الزينة والطيبات:

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى شَأْنُهُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٣١)، فَأُصُولُ الْمَبَاحَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَشْمَلُ: كُلَّ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، إِذْ يُشْرَعُ التَّمَتُّعُ بِهَا وَفْقَ النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ مِنْ تَعَالِيمِ الْكِتَابِ دُونَ إِسْرَافٍ، فَالْكِتَابُ لَا يَدْعُو إِلَى تَحْرِيمِ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ.

المناسبة والاتصال:

فِي الْآيَةِ (٣١) ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَوَانِينَ الثَّلَاثَةَ السَّابِقَةَ: قَانُونُ مَشْرُوعِيَّةِ اخْتِذَاكَ الزَّيْنَةَ، وَقَانُونُ مَشْرُوعِيَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَقَانُونُ حُرْمَةِ الْإِسْرَافِ، وَهِيَ الْقَوَانِينُ الْأَسَاسِيَّةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ النِّدَاءِ الثَّلَاثِ، وَبَعْدَ أَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٢) قَدْ فُيْهِمَ مِنْهُ الزَّهْدُ وَالتَّنَزُّهُ عَنِ الزَّيْنَةِ، فَزَفَّ لِلْبَشَرِيَّةِ خَبَرَ إِبَاحَتِهِ لِلزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؛ لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ الْإِسْرَافَ لَا يَعْنِي الزَّهْدَ فِيهَا، بَلْ يَنْبَغِي الِاسْتِمْتَاعُ بِهَا، فَهَذِهِ الْآيَةُ تَقَرِّرُ لَنَا قَانُونِ حِلِّ مَا يُسْتَمْتَعُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ مِنَ الزَّيْنَةِ مِنَ الْمَلَابِسِ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا، كَالطَّيِّبَاتِ فِي الرِّزْقِ.

وَهُنَا رُبَّمَا نَتَسَاءَلُ: مَا مَعْنَى السُّؤَالِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟

الجواب: هَذَا سُؤَالُ إِنْكَارِيٍّ قَصْدُهُ بِهَ التَّهَكُّمُ؛ إِذْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ عِلْمٍ يُطْلَبُ مِنْهُمْ الْبَيَانُ وَالْإِفَادَةُ، نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وَقَرِينَةُ التَّهَكُّمِ: إِضَافَةُ الزَّيْنَةِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ ﷻ، وَتَعْرِيفُهَا بِأَنَّهَا أَخْرَجَهَا اللَّهُ ﷻ لِعِبَادِهِ، فَزِينَةُ اللَّهِ ﷻ أَيُّ: الزَّيْنَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ اللَّهِ ﷻ،

وخلقها الله ﷻ لكم ، وَوَصَفُ الرِّزْقِ بِالطَّيِّبَاتِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي عَدَمَ التَّحْرِيمِ^(١)، بل يقتضي الإقبال على الزينة والطيبات، فهو أسلوب ترغيبي جمع بين الإنكار على المُحَرَّمين، والإنكار للتحريم، والحثُّ على الإقبال عليها.

وقد تسأل: ما الذي دخل في الزينة هنا؟

الجواب: عندما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ دخل في الزينة كل أنواعها، مثل: الملابس، والقصور، والشوارع، والبساتين، والمراكب، والمتاع، كما قال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ومن الزينة العظيمة: الأنعام وبقية المأنوسات من الحيوانات، كما قال الله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

ويدخل فيها تَنْظِيفُ الْبَدَنِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَالطَّيِّبُ، وَأَنْوَاعُ الْحُلِيِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ زِينَةٌ، وَلَوْلَا النَّصُّ الْوَارِدُ فِي تَحْرِيمِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْإِبْرِسِمِ [الحرير] عَلَى الرِّجَالِ لَكَانَ ذَلِكَ دَاخِلًا تَحْتَ هَذَا الْعُمُومِ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كُلُّ مَا يُسْتَلَذُّ وَيُسْتَهَى مِنْ أَنْوَاعِ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ^(٢)، وَيَدْخُلُ أَيْضًا تَحْتَهُ الزَّوْجُ حَيْثُ يَتَمَتَّعُ النِّسَاءُ بِالرِّجَالِ، وَالرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، وَأَمَّا الطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ فَكُلُّ مَا كَانَ طَبِيبًا طَبْعًا غَيْرَ مُحَرَّمٍ شَرْعًا؛ فَقَدْ تَطِيبَ بَعْضُ الْأُمُورِ طَبْعًا مِثْلَ لِبْسِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَيَحْرِمُهَا الشَّرْعُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِحِكْمَةٍ أَعْلَى.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٩٦).

(٢) تفسير الرازي (١٤ / ٢٣٠).

المخاطبون بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...﴾:

ولكنك ستسأل من المخاطب الذي أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يوجّه له هذا السؤال في قوله:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟

الجواب: المخاطب هنا ستُّ فئات من الناس:

الفئة الأولى: الوثنيون والمحرفون الذين يُلزمون الناس بالتعري عند الطواف وأداء

العبادات:

وذلك كما فعل الوثنيون القرشيون حين ألزموا المتعبدين أن يطوفوا حول البيت عُراةً إن لم يجدوا ثياباً قُرَشِيَّةً يقتنونها من مكة، وكذلك ما يزعمه الخرافيون من أن التوبة تقتضي أن يسير المرء عارياً في الطريق لِيُثَبِّتَ صدق توبته.

قال الكلبي: «لَمَّا لَيْسَ الْمُسْلِمُونَ الثِّيابَ وَطَافُوا بِالْبَيْتِ عَيْرُهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِذَلِكَ»^(۱).

تصوّر كيف انقلب الميزان عند البشرية.. بدلاً من أن يُعَيَّرَ المرء بأن يمشي عارياً.. يُعَيَّرُ أنه يمشي متسترًا!

وإذا مشى المرء عارياً في عبادته فمن السهل تصوّر أن يمشي عارياً في بقية مجالات حياته، «وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب؟ وجاهلية المشركين الإغريق؟ وجاهلية المشركين الرومان؟ وجاهلية المشركين الفرس؟ وجاهلية المشركين في كلّ زمان وكلّ مكان؟! ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تُعَرِّبَهُم من اللباس، وتُعَرِّبَهُم من التقوى والحياء؟ ثم تدعو هذا رُقِيًّا وحضارةً وتجديداً، ثم تُعَيِّرُ الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات، بأنهن (رَجَعِيَّاتٌ)،

(۱) البحر المحيط في التفسير (۴۴/۵).

أو تقليديّاتٍ، أو متخلّفاتٌ... وحتى يكن تقدّمياتٍ لا بدّ من مواكبة المؤصّة التي تنتجها بيوت الأزياء العالمية، ومتابعة دور الاستعراض.. وبحث عن الذي يقبع وراء بيوت الأزياء لتجد أنهم المفسدون في الأرض.

مَن الذي يقبع وراء دكاكين التجميل؟ مَن الذي يقبع وراء سُعار العُري والتكشّف؟ مَن الذين يقبع وراء الأفلام والصور والروايات والقصص، والمجلات والصحف، التي تقود هذه الحملة المسعورة.. وبعضها يبلغ في هذا إلى حدّ أن تصبح المجلة أو القصة ماخوّرًا متنقلا للدّعارة؟! من الذي يقبع وراء هذا كلّهُ؟

مَن الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلّها، في العالم كله؟

إنهم الذين يسوقون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحسبك أن يتردّد ما يفعلونه من بيع لعفة الصغار الأطهار في العالم.. حسبك أن تبلغ البشريّة هذا الحدّ المُقرّف عندما تتردّد الأسماء الكبيرة لتكون خلف أسواق النخاسة البشريّة للأبرياء من الأطفال.

صحيح هم يقومون بتحقيق الأهداف الاقتصادية في هذه التجارة المُجرّمة المُحرّمة، لكن الأسوأ أن تربط ذلك كلّهُ بالهدف الشيطاني من تعرية الجنس الإنساني في العالم.. ألا ترى كم مَسَحَتِ الجاهلية مَن التصورات والأذواق والقيم والأخلاق؟!

ألا ترى كيف جعلتِ العُري - الحيواني - تقدّمًا ورُقِيًّا، والسَّتْر - الإنساني - تأخّرًا ورجعية! وليس بعد ذلك مسحٌ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان؟!..

فالآية تردّد على العابثين المفترين الذين حرّموا زينة الله ﷻ بزعم التقاليد الثقافية وحرية الاختيار، فاختاروا التعريّ والألبسة الفاضحة بقصد الإثارة الجنسية.



ذكرنا بأن المخاطب في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ستُّ فئات، فالفئة الأولى: المشركون والمحرفون الذي يلزمون الناس بالتعري لأداء العبادات.. فما الفئات الأخرى؟

الفئة الثانية: الدنيويون الذين يعتدون على الإيمان والمؤمنين بالافتراء عليهم:

فيطعنون في الكتاب بأنه يحرم زينة الحياة الدنيا، ويطعنون في المؤمنين بأنهم ظلاميون جامدون لا يريدون للبشرية التمتع بالحياة، فيردُّ الله ﷻ على هؤلاء الكاذبين الظالمين، فيقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

الفئة الثالثة: بعض المؤمنين الذين حرّموا ما أحلَّ الله ﷻ من زينة الحياة الدنيا، فمنعوا أنفسهم من الاستمتاع بها:

فترد الآية على الزهاد والعباد الذين حرّموا زينة الله زهداً، ويحدثنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ائذن لي أن أختصي، فقال رسول الله ﷺ: «خِصَاءُ أُمَّتِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ»^(١)، وعن ابن شهاب: أن عثمان بن مظعون أراد أن يختصي ويسيح في الأرض، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ لَكَ فِي أَسْوَةِ حَسَنَةٍ؟ فَأَنَا آتِي النِّسَاءِ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، إِنَّ خِصَاءَ أُمَّتِي الصِّيَامِ، وَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ خَصَى أَوْ اخْتَصَى»^(٢)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم

(١) أحمد (٦٦١٢)، وقال العراقي: إسناده جيد. الإحياء وبهامشه المغني (ص: ٩٢١)، وصححه الأرنؤوط لغيره، دون لفظ (القيام)، وكذا الألباني. الصحيحة (١٨٣٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٩٤) بسند جيد، كما قال الألباني في الصحيحة (٤/ ٤٤٥).

الدَّهْرَ، وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

ويعلم النبي ﷺ هذا التوازن في صورة مزينة، فعن عبد الله بن عمرو ؓ، قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ، ثُمَّ وَنَمَ، وَصُمَّ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ عَسَى أَنْ يَطُولَ بِكَ عُمرُ، وَإِنَّ مِنْ حَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ»^(٢).

وَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ ؓ، فَرَأَى أُمُّ الدَّرْدَاءِ ؓ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ؓ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ؓ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ ؓ: قُمْ الْآنَ، فَصَلِّ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»^(٣).

هل يدخل في المخاطب في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ من يحرم على نفسه اللحوم؛ لأنه يعتبر أكل اللحوم تعدياً عليها؟

(١) البخاري (٥٠٦٣).

(٢) البخاري (٦١٣٤).

(٣) البخاري (١٩٦٨).

الجواب: نعم، وهذه الفئة الرابعة:

الفئة الرابعة: من حرّم الزّينة المباحة أو الرزق المباح مثل أكل اللحوم، والذين يحرمون أكل اللحوم، ومنهم الذين يعيشون بالطريقة النباتية (Vegetarianism) أو (Veganism):

إما أن يحرموها عبادةً كما فعل وثنيو العرب حين حرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، فهذا لا يجوز لأن الله ﷻ لم يُشرّع هذه العبادة، وإما أن يحرموها سياسةً، وإما صحّةً فيما يزعمونه، وإما شفقةً على المأكول مع أن الله ﷻ الذي خلقه هو الذي أباح له الأكل منه، وجعل غذاءه فيه، ولتعرف مقدار الخرافة التي يعيشها من حرّم زينة الله والطيبات من الرزق في هذا الموضوع اقرأ كتاب: "الخرافة النباتية" للكاتبة الأمريكية (ليبر كيث) التي قضت ٢٠ سنة من حياتها نباتية ثم رجعت عن ذلك، ودوّنت تجربتها، واستعانت بعشرات المراجع والدراسات الرصينة.

الفئة الخامسة: من حرّم على نفسه الزّينة والأكل في أوقات خصّصها من عند نفسه دون أن يكون عنده نصّ:

وهذا كحال اليهود الذين يحتكمون في طعامهم إلى القوانين الخاصة بالطعام في العبرية التي تدعى «كاشروت»، ومما تنص عليه حرمة تناول اللحم والجبن أو الزبد أو نحوهما في وجبة واحدة، بحيث يجب أن يفصل بين تناول أيّ منها والآخر ست ساعات^(١).

(١) موسوعة اليهود، واليهودية، المسيحي، (١٤/٦٤).

الفئة السادسة: من حَرَّمَ على نفسه الزَّيْنَةَ وَالْأَكْلَ تَعَبُّدًا أَوْ عِبَادَةً لِلْمَأْكُولَاتِ:

فعن قتادة رضي الله عنه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وهو ما حَرَّمَ أهل الجاهلية عليهم من أموالهم: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.
وعن ابن عباس رضي الله عنه قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، قال: إن الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله ﷻ من الثياب وغيرها، وهو قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الرِّزْقِ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾، [يونس: ٥٩]، وهو هذا، فأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١).

فمنهم من يزعم أن الله ﷻ حَرَّمَ زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق، وهذا قول مفترى على الإسلام الذي جاء به كل الأنبياء عليهم السلام، وذلك مثل الذي يزعم تحريم النكاح، وجعله مباحًا للعامة، وتنزيه المتسبين إلى السلك الديني منه.

ومنهم من يكذب فيدعي أن الإسلام جاء بالتضييق على الناس في دنياهم، فالحل أن يترك الناس الدين حتى يتمتعوا بالدنيا، وهذا كذب مقابل للكذب السابق.

ويبين الله ﷻ أن التمتع بهذه الأنواع من الزينة الأرضية يشترك فيه جميع بني آدم عليهم السلام المؤمنون والكافرون في الدنيا، لكن الله ﷻ يجعل هذا التمتع خاصًا بالمؤمنين يوم القيامة وفق ميزان العدل الإلهي بناءً على الأعمال التي يقدمها الناس في حياتهم الدنيا.

وهنا يلفت انتباهك تكرر كلمة ﴿قُلْ﴾ مرتين في هذه الآية، فما المعنى الذي يُبصِّرنا به هذا

التكرار؟

الجواب: كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا تزودنا بقانون جديد هو:

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٩٨).

القانون الخامس: حق التشريع العام إنما يكون لله ﷻ، ولرسوله ﷺ:

وَتُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ كَلِمَةً ﴿قُلْ﴾ الَّتِي تَكَرَّرَتْ مَرَّتَيْنِ هُنَا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأعراف: ٣٢]:

فكلمة ﴿قُلْ﴾ تخبر بالمصدرية الإلهية للتشريع، فلا يُترك للبشر يعثون به حتى يدمروا حياتهم، فيحرموا ما شاءوا، ويحلوا ما شاءوا، وهم لا يحيطون علماً بما ينفع أجسادهم وبيئتهم، فقلوه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يبين مصدرية التشريع، فهي لله ﷻ ولرسوله ﷺ، فبأيّ برهان حرموا ما شاءوا، وأباحوا ما شاءوا؟! ثم يبين في الوقت ذاته أن انتفاء تحريم الزينة والطيبات من الرزق واضح، ولذلك وجّه الله ﷻ نبيه ﷺ أن يجيب عن السؤال بنفسه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على طريقتي قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿النبي: ١-٢﴾.

بصيرة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ هذا السؤال الإنكاري يوضح عظمة الخطاب القرآني، فكما خاطب البشرية لإقامة الصلاة فقد خاطبهم للتمتع بالحياة.

لاحظ عندما قال تعالى: ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ هذه للصلاة، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ هذا يتعلق بالتمتع بالحياة، وكذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ للتمتع بالحياة، وهذا بخلاف المحرّفين الذين يقولون بأن الله ﷻ منع آدم ﷺ أن يأكل من شجرة المعرفة، بينما نجد هنا العكس، الله ﷻ يحثُّ بني آدم

على أن ينهلوا من كل المعارف، وأن لا يحرموا زينة الله التي أخرجت لعباده والطيبات من الرزق.

والسؤال هنا سؤال إنكاري، فالله ﷻ لم يجعل الدين خاصاً بالمساجد ولا لتجويد الإنسان... لم يجعل الدين ليتعزى الإنسان، وإنما جعل الدين محققاً لمصالح الإنسان. ولا يمكن أن يحقق الدين مصالح الإنسان إلا إذا أقام الإنسان نظام حياته وفق مراد ربه ﷻ، عند ذلك سيجد كل خير يريده في الدنيا، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وهذه الآية مكية في سورة الأعراف المكية، توضح هدفاً عظيماً من مقاصد القرآن هو: حقُّ التمتع بالحياة لكل بني آدم، ففيها ردُّ على المستكبرين القُرشيين وغيرهم؛ إذ كانوا يظنون أن العبيد لا حقَّ لهم في التمتع بالحياة، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، فهو إنكار على فهمهم وتفكيرهم، ونسبها الله ﷻ إليه؛ تشريفاً لها، فزينته هي ما أباحه لعباده من النعم.

ستقول: هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، السؤال فيها إنكاريٌّ، ينكر على من حَرَّمَ زينة الله والطيبات من الرزق، فهل يعني هذا مشروعية أخذ الزينة والطيبات من الرزق مطلقاً دون تقييد؟

الجواب: هنا يأتي قانون جديد:

القانون السادس: تقييد مشروعية أخذ الزينة وأكل الطيبات من الرزق بعدم الإسراف:
وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَلَا يَتَشَدَّقَنَّ أَحَدٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِيُبَيِّحَ لِنَفْسِهِ الْعَبَثَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فبَعْضُهُمْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِسْتِهْلَاكِ، فَيَأْخُذُ مَا حَقُّهُ مَائَةً بِمَائَةِ أَلْفٍ مَبَاهَاةً وَمَفَاخِرَةً:

ولذا قال الحسن رحمته الله مبيِّناً معنى هذه الآية مستلهمًا ذلك من القرآن: لما بعث الله صلواته على محمد وآله قال: هذا نبيي، هذا خيارِي، استنُّوا به، خذوا في سنَّته وسبيله، لم تُغْلَقْ دُونُهُ الْأَبْوَابُ، وَلَمْ تُقَمَّ دُونَهُ الْحِجَبَةُ، وَلَمْ يُغْدَ عَلَيْهِ بِالْجِفَانِ -أي صحون الطعام المتنوعة الكبيرة-، وَلَمْ يُرْجَعْ عَلَيْهِ بِهَا، وَكَانَ يَجْلِسُ بِالْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ طَعَامَهُ بِالْأَرْضِ، وَيَلْعَقُ يَدَهُ، وَيَلْبَسُ الْغَلِيظَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيُرْدِفُ بَعْدَهُ -أي يجعل من الشباب والضعفاء من يكون خَلْفَهُ عَلَى دَابَّتِهِ دُونَ أَنْ يَتَحَرَّجَ- وَكَانَ يَقُولُ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

قال الحسن رحمته الله: فما أَكْثَرَ الرَّاغِبِينَ عَنْ سُنَّتِهِ، التَّارِكِينَ لَهَا! ثُمَّ إِنَّ عُلُوجًا ^(١) فُسَّاقًا، أَكَلَةَ الرِّبَا وَالْعُلُولَ، قَدْ سَفَّهَهُمْ رَبِّي وَمَقَتَّهُمْ، زَعَمُوا أَنَّ لَا بَأْسَ عَلَيْهِمْ فِيمَا أَكَلُوا وَشَرَبُوا، وَزَخَرُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ، يَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ^(٢).

والحسن رحمته الله يخاطب الذين يسرفون في استهلاك الزينة والطيبات متناسين ما يجب عليهم إزاء إخوانهم من بني الإنسان.

نتقل إلى قوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ^(٣)، فما القانون الذي يُبَصِّرُنَا اللهُ صلواته على محمد وآله به هنا؟

(١) جمع عِلَج، وهو الجافي الغليظ. غريب الحديث للخطابي (٢/١٤٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٣٩٧).

الجواب: هنا يأتي:

القانون السابع: الالتزام بشرع الله ﷻ في التمتع بزينة الملبس والمنظر والطيبات من الرزق في الدنيا يؤول بصاحبه إلى تمام وكمال الاستمتاع بها في الآخرة:

وَيُصِّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى شَأْنَهُ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، فقولهُ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: هذه الزينة وتلك الطيبات يتمتع بها المؤمنون في الحياة الدنيا قبل الآخرة، ولم يأمر الله ﷻ بالاعتصار على الجانب العبادي المحض، لكن التمتع بها يجب أن يكون من أهدافه الاستعداد لليوم الآخر، إذ سيكون التمتع بها خالصاً للمؤمنين يوم القيامة دون غيرهم من الناس.

فقولهُ: ﴿قُلْ﴾ ذكرنا بأن هذه الكلمة الذهبية تعني أنه يجب على النبي ﷺ وورثته من بعده أن يقوموا بالتبليغ والتعليم والتربية والتوجيه والتثقيف والإعلام، فهذه الكلمة تقتضي إنشاء كل هذه الوزارات والمؤسسات لإفهام البشرية مراد الله ﷻ في حياتهم، والمعنى: قم يا صاحب القرآن بما يلزم لتخبر الناس بأمر الله ﷻ، فقل للعالم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ثم أخبرهم بنفسك عن الإجابة:

زينة الله ﷻ التي أخرج لعباده وطيبات رزقه يشترك فيها الذين آمنوا وغيرهم في الحياة الدنيا، لكنها ستكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا يشركهم في ذلك أحدٌ كفر بالله ﷻ ورسوله ﷺ، وخالف أمر ربّه ﷻ، فمن أراد الطيبات في الآخرة، فعليه بالإيمان.

بصيرة: كلمة ﴿قُلْ﴾ توجب القيام بالتبليغ، والتعليم، والتربية، والتوجيه، والتثقيف، والإعلام، وتقتضي إنشاء كل هذه الوزارات والمؤسسات لإفهام البشرية مراد الله ﷻ في حياتهم.

فإن قلت: قد أدر كنا من هذا الأسلوب القرآني: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ^(۱)﴾ أن هناك كلامًا محذوفًا دلّ عليه الكلام الموجود، فكيف يكون تقدير الآية؟ ولماذا أدمج بين الجملتين، ولم يوضح المحذوف؟

الجواب: التقدير: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم؛ أو مشتركة بينهم وبين غيرهم، لأنّ المشركين شركاء للمؤمنين فيها، لكنها ستكون خالصة للمؤمنين يَوْمَ الْقِيَمَةِ لا يَشْرِكُهُمْ فيها أحد، ولم يصرّح بأنها مشتركة بين المؤمنين وغيرهم في الدنيا؛ لِيُبَيِّنَ على أن الزينة والطيبات خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة إنما يتمتعون بها في الدنيا تبعًا للمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ۱۲۶].

وهنا تبصّرنا الآية بأن المؤمنين هم الأحقّ بالإفادة من زينة الحياة الدنيا تدوفاً، واستعمالاً، وتفكيراً بخصائصها، وإقامة لمختلف الأنشطة حولها مثل الأنشطة الصناعية والتجارية؛ وَلَا يَنْهَهُمْ أَحَقُّ بِشُكْرِهِ عَلَيْهَا بِالسُّتْهُمْ وَجَوَارِحِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، فَمِنْ أَصُولِ الشُّكْرِ: قَبُولُ النِّعْمَةِ، وَاسْتِعْمَالُهَا فِيمَا وَهَبَهَا الْمُنْعِمُ لِأَجَلِهِ وَهُوَ شُكْرُ الْجَوَارِحِ، وَلَا يَكْمُلُ شُكْرُ الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّهَا مِنْ فَضْلِهِ، وَشُكْرُ اللِّسَانِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ إِلَّا بِشُكْرِ الْأَعْضَاءِ الْعَمَلِيِّ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَبَاحُ لَهُ أَوْ يَرْضَىٰ رَبَّهُ ﷻ^(۱).

(۱) تفسير المنار (۸/ ۳۴۷).

أيهما أفضل منزلة الطاعم الشاكر أو الصائم الصابر؟

بَوَّبَ البخاري رحمته الله في صحيحه ضمن القواعد العظيمة التي تتوارى في تبويباته، فقال: «بَابُ: الطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِثْلَ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»، ثم قال: فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ^(١)، وهو يشير بذلك إلى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «الطَّاعِمِ الشَّاكِرِ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ» ^(٢)، ولفظه عند البخاري رحمته الله في التاريخ: «لِلطَّاعِمِ الشَّاكِرِ مِثْلُ أَجْرِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» ^(٣).

ونقل ابن حجر هنا عن ابن بطَّال رحمته الله قال: «هذا من تفضُّل الله عز وجل على عباده أن جعل للطاعم إذا شكر ربَّه عز وجل على ما أنعم به عليه ثواب الصائم الصابر، وخالف الكرمانى رحمته الله فرأى أن التشبيه هنا في أصل الثواب لا في الكمية ولا الكيفية، والتشبيه لا يستلزم المماثلة من جميع الأوجه، وكأنه يميل إلى ترجيح الصائم الصابر على الطاعم الشاكر، فخالفه الطَّيْبِيُّ رحمته الله، وقال: ربما توهَّم متوهَّم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب الصبر، فأزيل توهُّمه. ويمكن أن يقال: وجه الشَّبه اشتراكهما في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة المنعم، والشاكر يحبس نفسه على محبته. وفي الحديث الحثُّ على شكر الله عز وجل على جميع نعمه؛ إذ لا يختص ذلك بالأكل» ^(٤).

فحسم الحديث الاختلاف في أي المنزلتين أفضل، وبيَّن أنهما سواء، وأشار ابن حجر رحمته الله إلى أن التحقيق عند أهل الحِذْق أن لا يجاب في ذلك بجواب كُلِّيٍّ، فلا يقال: الصائم الصابر

(١) البخاري (٨٢/٧).

(٢) أَحْمَد (٧٨٠٦)، والترمذي (٢٤٨٦)، واللفظ له، وحسنه، وكذا الأرناؤوط، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٥٥).

(٣) التاريخ الكبير للبخاري (١٦٤) (١/١٤٣)، وقال د. محمد عبد الكريم بن عبيد في تخريج الأحاديث المرفوعة المستندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري (٤٣٧/١): «حسنٌ لغيره».

(٤) فتح الباري (٥٨٣/٩)، وينظر: شرح البخاري لابن بطَّال (٥٠٨/٩)، الكواكب الدراري للكرمانى (٦٦/٢٠)، شرح المشكاة للطَّيْبِيِّ (٢٨٥٣/٩).

خير من الطاعم الشاكر، ولا يقال بالعكس، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والاحوال، وكذلك الأثر على الآخرين، فقد يُطعم الغني الآلاف شكراً لله على نعمة الطعام. قال ابن حجر رحمته الله: «نعم عند الاستواء من كل جهة، وفرض رفع العوارض بأسرها، فالفقير أسلم عاقبة في الدار الآخرة، ولا ينبغي أن يُعدَّلَ بالسلامة شيء»^(١).

ولكننا نسأل ابن حجر رحمته الله: أفرأيت غنياً يشكر نعمة الله، وينشئ المدارس والجامعات ودور القرآن، ويطعم الطعام، ويقرأ السلام على من عرف ومن لم يعرف، وآخر اقتنع بأن يكون في زاويته يصوم ويصلي.. أيهما أكثر أجراً، وأسلم عاقبة؟

الأول: فَعُلُ الرسل عليهم السلام وأولي العزم، والثاني: فَعُلُ من أراد السلامة لنفسه فحسب، فهل يستويان؟ وهل يستوي من أنشأ المصانع يبغي أن يحمي المسلمين من تحكُّم المجرمين في أكلهم وشربهم وقوتهم، ومن اكتفى بأن يعبد ربّه معتزلاً في جبل من الجبال؟!

ولأجل هذا روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُورُؤٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ»^(٢)، وَعَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي ثَوْبٍ دُونَ - يَعْنِي قَدِيمٍ لَا يَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ - فَقَالَ: «أَلَيْكَ مَالٌ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ. قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ، فَلْيُرْ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتُهُ»^(٣)، وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ

(١) فتح الباري (٩/٥٨٣).

(٢) الطبراني في الأوسط (٦٠٢٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨): «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه مسكين بن سراج، وهو ضعيف»، وحسنه الألباني لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٩٥٥).

(٣) أبو داود (٤٠٦٣)، وصححه إسناده الأرنؤوط، وقال الوادعي في الجامع الصحيح (٢٧٩٤): «هذا حديث صحيح على شرط مسلم».

يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(١)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ أَتَيْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه فَقَالَ: ائْتِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ. فَأَمَرَهُ بِالذَّهَابِ لِحَوَارِهِمْ.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قُلْتُ: مَا تَعْيِبُونَ عَلَيَّ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ^(٢).

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: وَجَّهَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى ابْنِ الْكَوَّاءِ وَأَصْحَابِهِ -أَيِ الْخَوَارِجِ- وَعَلَيَّ قَمِيصٌ رَقِيقٌ وَحُلَّةٌ، فَقَالُوا لِي: أَنْتَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَلْبَسُ مِثْلَ هَذِهِ الثِّيَابِ؟ قُلْتُ: أَوَّلُ مَا أُخَاصِمُكُمْ بِهِ. قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، وَ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَلْبَسُ فِي الْعِيدَيْنِ بُرْدِي حَبْرَةَ^(٣).
وَلَا حِظَّ أَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه اسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّزَيُّنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

وَذَكَرَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ يَزِيدَ النَّوْفَلِيَّ كَتَبَ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: مِنْ يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَلْبَسُ الدُّقَاقَ -أَيِ الثِّيَابِ النَاعِمَةِ- وَتَأْكُلُ الرُّفَاقَ -أَيِ الْأَكْلِ الطَّيِّبِ الْهَنِيِّءِ- وَتَجْلِسُ عَلَى الْوُطِيِّءِ -أَيِ الْفُرَشِ الْمَرِيحَةِ- وَتَجْعَلُ عَلَى بَابِكَ حَاجِبًا -يَعْنِي مَدِيرَ أَعْمَالٍ- وَقَدْ جَلَسْتَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ وَقَدْ ضُرِبَتْ إِلَيْكَ الْمَطْيِيُّ، وَارْتَحَلَ

(١) الترمذي (٢٨١٩)، وحسنه، وكذا الألباني في مشكاة المصابيح (٤٣٥٠).

(٢) الدر المنثور (٤٤٢/٣).

(٣) الدر المنثور (٤٤١/٣).



إِلَيْكَ النَّاسُ، وَاتَّخَذُواكَ إِمَامًا وَرَضُوا بِقَوْلِكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى يَا مَالِكُ، وَعَلَيْكَ بِالتَّوَّاضِعِ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِالنَّصِيحَةِ مِنِّي كِتَابًا مَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ ﷻ، وَالسَّلَامُ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكُ ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ. مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ، فَوَقَعَ مِنِّي مَوْعِجَ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْأَدَبِ، أَمَتَكَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى، وَجَزَاكَ بِالنَّصِيحَةِ خَيْرًا. وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى التَّوْفِيقَ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ لِي: أَنِّي أَكُلُ الرُّقَاقَ، وَأَلْبَسُ الدُّقَاقَ، وَأَحْتَجِبُ وَأَجْلِسُ عَلَى الْوُطِيِّ، فَنَحْنُ نَفْعَلُ ذَلِكَ، وَنَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ تَرَكَ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ، وَلَا تَدْعُنَا مِنْ كِتَابِكَ، فَلَسْنَا نَدْعُكَ مِنْ كِتَابِنَا، وَالسَّلَامُ اهـ^(١).

وهذه الحكاية إن صحَّت ترى فيها الأدب العظيم، ويظهر فيها فقه مالك، وفكره الذي به جعله الله ﷻ سيدًا في الدنيا، ونرجو أن ينال أعظم من هذه السيادة في الآخرة، فإنه استدلل بكلام الله، بينما مال التوفلي ﷺ إلى طرح فكرة طرأت على نفسه، وعزب عنه أن يجمع بين الأدلة. قال محمد رشيد رضا ﷺ: «وَلَمْ يَكُنِ التَّوْفَلِيُّ مِنْ طَبَقَةِ مَالِكٍ ﷺ فِي عِلْمٍ، وَلَا عَمَلٍ، بَلْ ضَعَفَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ﷺ وَغَيْرُهُ فِي الْحَدِيثِ»^(٢).

وقد تتساءل: ما القراءات الواردة في قوله ﴿خَالِصَةً﴾؟ وهل لها أثر معنوي؟

(١) إحياء علوم الدين (١/٦٧).

(٢) تفسير المنار (٨/٣٤٩)، وينظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩/١٩٨).



الجواب: قرأ نافع رحمه الله ﴿خَالِصَةً﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ بَعْدَ خَيْرٍ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ عَاقِلٌ لَيْبٌ، وَالْمَعْنَى: قُلُ الزَّيْنَةُ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الزَّرْقِ ثَابِتَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَ غَيْرِهِمْ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقرأ الباقون بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: هِيَ ثَابِتَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَ غَيْرِهِمْ حَالِ كَوْنِهَا خَالِصَةً لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

وتعال فانظر كلمة ﴿خَالِصَةً﴾ لتجدها جمعت ثلاثة معانٍ:

أنها يوم القيامة مُصَفَّاةٌ عَنْ كُلِّ الشَّوَابِّ وَالْأَكْدَارِ، وَلَا يَشَارِكُهُمْ فِيهَا الْأَغْيَارُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلَا تُعَقَّبُ الْمُتَمَتِّعِينَ بِهَا التَّبَعَاتُ الْجَانِبِيَّةُ وَلَا الْأَضْرَارُ.

ثم ختم الله ﷻ هذه الآية بقوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فلماذا كان هذا الختم؟

الجواب: هنا يأتي:

القانون الثامن "الآيات المُفَصَّلَة والمجتمع الذي يُمجِّد العلم": ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) تعني أن آيات الله ﷻ المنزلة لها قيمتها العظيمة في الحياة، فهي التي تتضمن تفاصيل تشريعية تحفظ الإنسانية، لكن لا يفيد منها الغفلة الأغبياء، ولا المتكبرون الأشقياء، بل يفيد منها الذين يعملون عقولهم:

فاسم الإشارة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٤) يشير إلى التفصيل السابق المثير حول خلق الأرض، وتهيتها للبشر، والإخبار عن تفصيل المعركة الهائلة بين آدم وزوجه ﷺ من جهة وإبليس من جهة أخرى، ثم تفصيل: قانون الألبسة، وطبيعة قبيل إبليس، وإمكاناته، وأهدافه في تطبيع الفاحشة في حياة البشرية، ثم تفصيل التمتع بالحياة وحدود ذلك التمتع.

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٢)، النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تُبَصِّرُنَا بِأَنَّ الَّذِينَ يَفِيدُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعِلْمَ الحقيقي، وليس الخرافات، فَهُمْ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِأَنَّهُمْ ذُوو قُلُوبٍ مُبْصِرَةٌ، وَعَقُولٍ مُفْتُوحَةٌ، فَالْآيَاتُ لَا تُفْصَلُ لِقَوْمٍ مُتَعَصِّينَ أَغْلَقُوا عَقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ، وَالْقَوْمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ يُمَكِّنُهُمُ النَّظَرُ فِي خِصَائِصِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ، وَبِنَاءِ النَّتَائِجِ عَلَيْهَا لِيَتَوَصَّلُوا إِلَى تَحْصِيلِ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ، وَعِنْدَهُمْ مَلَكَهٌ وَقَابِلِيَّةٌ لِلْعِلْمِ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى الْإِعْتِقَادِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ سُنَنَ الْاجْتِمَاعِ، وَطَبَائِعَ الْبَشَرِ وَمَصَالِحَهُمْ، وَطُرُقَ الْحَضَارَةِ الشَّرِيفَةِ فِيهِمْ، وَقَدْ فَصَّلَهَا تَعَالَى لَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُوَافِقِ هَدْيَهَا لِفِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْأُمِّيِّ ﷺ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ تَارِيخِ الْبَشَرِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ، وَإِفْرَاطِهِمْ وَتَفَرِّطِهِمْ فِيهِمَا، قَبْلَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَعَادَتِهِمْ، فَكَانَ هَذَا التَّفْصِيلُ مِنَ الْآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ خُلَاصَةُ عُلُومٍ كَثِيرَةٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، مَا كَانَ لِمِثْلِهِ أَنْ يَعْلَمَهَا بِذَكَائِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ وَحْيُ اللَّهِ لَهُ.

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ بِكُلِّ الْعُلُومِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْهُمْ أَعْلَمَ مِنَ الْمُتَّبِعَةِ بِذَلِكَ. نَعَمْ، هَكَذَا كَانَ، فَلَوْلَا الْقُرْآنُ لَمَا خَرَجَتْ الْعَرَبُ مِنْ ظُلُمَاتِ جَاهِلِيَّتِهَا وَبَدَاوَتِهَا وَوَنِيَّتِهَا إِلَى ذَلِكَ النُّورِ الَّذِي صَلَحَتْ بِهِ وَأَصْلَحَتْ أُمَّمًا كَثِيرَةً بِالْدِّينِ وَالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْآدَابِ بِمَا أَحْيَتْ مِنْ عُلُومِ الْأَوَائِلِ وَفُنُونِهَا، وَأَصْلَحَتْ مِنْ فَاسِدِهَا، فَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ تَعْرِيفُ الدِّينِ الْمَشْهُورِ بِأَنَّهُ: وَضَعَ إِلَهِي سَائِقُ لِدَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ بِاخْتِيَارِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ نَجَاحُهُمْ فِي الْحَالِ، وَفَلَاحُهُمْ فِي الْمَالِ، أَوْ إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَغْفَلَ الْكَثِيرُونَ عَنْ سَبَبِ هَذِهِ الْحَضَارَةِ أَوْ يَجْهَلُوا أَنَّهُ الْقُرْآنُ. حَتَّى كَانَ الْجَهْلُ لِسَبَبِهَا سَبَبًا لِإِضَاعَتِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَمْسَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَجْهَلِ الشُّعُوبِ وَأَفْقَرِهِمْ وَأَضْعَفِهِمْ، وَأَقْلَهُمْ خِدْمَةً

لِدِينِهِمْ، فَعَايَةُ دِينِهِمْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتُهَا وَسَيَادَتُهَا وَمُلْكُهَا، وَأَنْ يَكُونُوا فِيهَا شَاكِرِينَ لِلَّهِ عَلَيْهَا، قَائِمِينَ بِمَا يُرْضِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَكُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ خِلَافَتُهُ فِي الْأَرْضِ وَبِذَلِكَ يَكُونُونَ أَهْلًا لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ أَحَدُ حُكَمَاءِ دِينِهِمْ، ثُمَّ انْتَهَى هَذَا الْجَهْلُ بِالْكَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ أَنْ صَارُوا يَظُنُّونَ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ سَبَبُ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَجَهْلِهِمْ وَذَهَابِ مُلْكِهِمْ! وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ بُطْلَانَ هَذَا الْجَهْلِ الَّذِي قَلَبَ الْحَقِيقَةَ قَلْبًا، وَحُجَّتَنَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ وَتَارِيخُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَكِنَّ الْقَارِئِينَ قَلِيلُونَ، وَالَّذِينَ يَفْهَمُونَ مِنْهُمْ أَقَلُّ، وَالَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ بِمَا يَفْهَمُونَ أَنْدَرُ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ»^(١).

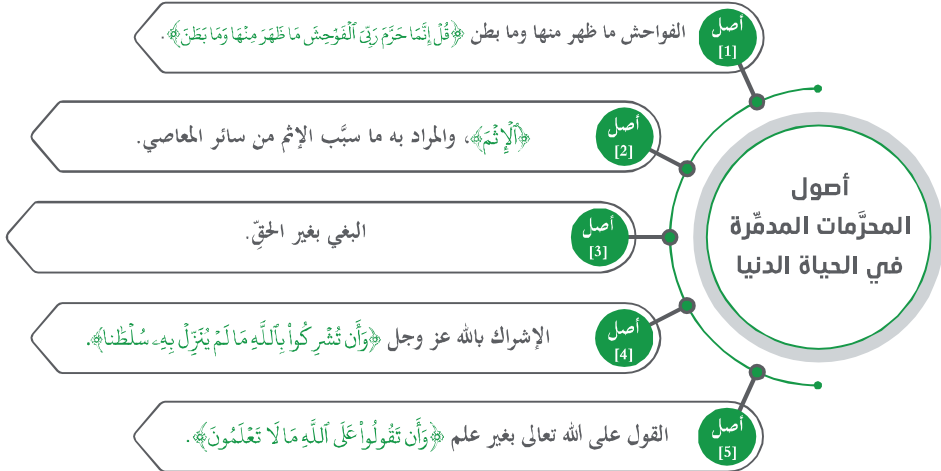
الانتقال:

ننتقل إلى قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٥٠).

القانون التاسع: أصول المحرمات المدمرة في الحياة الدنيا خمسة:



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْثَدَةَ بْنِ الْحَكِيمِ

مُفَصِّلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

يُيَصِّرُنَا بِهَا اللَّهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأَنفُسَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣):

المناسبة والاتصال والفكرة:

ذكر الله ﷻ فيما سبق نِعَمَهُ على الذرية الآدمية، التي منها اللباس والطعام والشراب، فصار الأصل أنه يشرع للإنسان الزينة والطيبات في كل شيء مشروعيةً تصل إلى حد الوجوب للوصول إلى العيش الكريم.

كما أخبر الله ﷻ أن جهلة الذرية الآدمية أحلوا ما حرم الله ﷻ من الفواحش، وجعلوا لها تشريعات إلهية كذباً، وحرموا ما أحل الله ﷻ من ستر العورة في الطواف والطعام والشراب في موسم الحج والعمرة، وبما أن الله ﷻ أمر بأخذ الزينة والأكل والشرب، ونهى عن

الإسراف، فقد تشوّقت النفوس لمعرفة المحرّمات على سبيل الحصر، فكأن السامع لكلمات الله ﷻ يتساءل: إذا كنت ربّنا أمرت بالقسط، وأخذ الزينة، والأكل والشرب، وحرّمت الإسراف، وأنكرت على من حرّم زينة الله، والطيبات من الرزق، فما أصول المسائل التي تحرّمها؟

فيجيء الجواب: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

والآية تلفت نظرك إذ بدأها الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ﴾، فلماذا هذه البداية؟

الجواب: للسبب ذاته الذي ذكرناه في الآية السابقة:

التشريع لكيفية الحياة البشريّة في الأرض حقّ الله الذي له الخلق والأمر، ولا يستطيع البشر أن يعرفوا بيسرٍ ما الذي ينفعهم ولا يضرهم إلا بعد تجارب مريرة وحياة طويلة، ثم حتى لو أدركوا النافع والضار فإنهم لا يلتزمون بتطبيق مقتضياته، فتأتي كلمة ﴿قُلْ﴾ لتبصّرنا أن التحليل والتحریم تشريعٌ إلهيٌّ وليس تفكيرًا بشريًّا، ومنذ أن أسكن الله ﷻ آدم وزوجه ﷻ الجنة عودَ البشريّة على أن التشريع حقٌّ إلهيٌّ، وليس عبثًا يتلاعب به المخلوق، ولذا حدّد الله المحرّمات هنا، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾، والمخاطب هو السامع المبلّغ للقرآن، وأول سامع مبلّغ للقرآن كان النبي ﷺ.

وهنا لا بد أن نتساءل: فلماذا جاءت كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ بعد كلمة ﴿قُلْ﴾؟

الجواب: أتى بـ﴿إِنَّمَا﴾ لتفيد الحصر لينبئك بأن المحرّمات عددها قليل مقارنة بالمباحات، فالأصل في الأشياء الإباحة، ولا حظ مجدّدًا القصر في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

رَبِّي ﴿ فَصِيْعَةٌ "اِنَّمَا" تقوم مقام الإثبات والنفي؛ إذ هي بِمَعْنَى (ما - وإِلَّا)، فَأَفَادَ تَحْلِيلَ مَا زَعَمُوهُ حَرَامًا وَتَحْرِيمَ مَا اسْتَبَاحُوهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَمَا مَعَهَا ^(١).

ثم قد تتساءل: لماذا أمر الله ﷻ السامع المبلغ للقرآن بأن يتكلم عن الله ﷻ بقوله: ﴿رَبِّي﴾؟
الجواب: وصف الله ﷻ نفسه بالربوبية ﴿رَبِّي﴾ ليعودك على الاعتزاز بالانتساب إليه، وليخبرك أن تحريره كتحليله قائم على تربية الإنسانية على خير ما ينفعهم.

وهنا نمضي متلهفين، فتساءل: فما هذه الأصول الخمسة للمحرّمات التي تدمّر البشريّة؟
الجواب: هي خمسة كما هو منصوص الآية:

(١) الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(٢) الإثم.

(٣) البغي.

(٤) الإشراف بالله ﷻ.

(٥) القول على الله بغير علم.

وقد نظمها د/ سعيد بن دحاج - وفقه الله - بقوله:

وحرّم الله رفقا في الكتاب بنا	كلّ الفواحش ما أخفي وما علنا
إثما وبغيا بغير الحقّ حرّمه	بآيه قد قضى فيه وأعظمه
والشّرك بالله أو قولاً عليه بلا	علم، فتلك حدود الله فامتثلا
وإليها مفصلة بحسب الآتي:	

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/٩٩).

الأصل الأول للمحرمات: الفواحش ما ظهر منها وما بطن:

﴿الْفَوَاحِش﴾: جمع الفاحشة وهي الأمر الشنيع الذي تَفَاحَشَ أمره، وَفَطَعَ فعله، وقد سبق بيان شيء من دلالة هذا اللفظ عند تفسير قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ۲۸]. وتلاحظ أن الله ﷻ ذكرها مجموعة ﴿الْفَوَاحِش﴾؛ لِيُبَيِّنَ أنها أنواع متعددة، ثم أوضح عمومها بأن قَسَمَهَا إلى قسمين:

﴿مَا ظَهَرَ﴾: والذي يظهر منها هو ما يَطَّلِع عليه الناس، مثل: زنا المسافحين العلني الفردي والجماعي، والعري المستشري الشائع في المجتمعات، والرِّبَا الذي يُفَاخِر به مَصَّاصو دماء الشعوب، والقتل العلني، وَالبُّخْلُ الشَّدِيد، وَالْقَذْفُ بالأمور المُنْكَرَة، وَالبَدَاءُ المُتَنَاهِي فِي القُبْح، ومن الفواحش الكبرى: قتل الأبرياء من الرجال والأطفال والنساء، وأسوأ أنواعه قتل الأطفال في بطون أمهاتهم الذي يسمُّونه الإجهاض.

﴿وَمَا بَطَّنَ﴾: والذي بطن يُطلق على الجرائم التي يفعلها المرء مستخفياً عن الناس، مثل الزنا الذي يحدث سراً مُخَادَنَةً، كما يطلق على نوعٍ خطيرٍ من المعاصي، وهو المعاصي التي تخفى عن الناس ممَّا يكتمه المرء في قلبه، مثل: الحسد، والحقد، والشُّح، والأنانية، وكم يدق ويخفى على الكثير من الناس أن هذه العلل الباطنة من بوائق الذنوب وكبائرها، وأنها على التحقيق، أَسُّ ومنشأ كثير من الجرائم والجرائم الظاهرة التي تترتب عليها، وتنتج عنها، ولما وضع الإمام ابن حجر الهيتمي ﷺ كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) بدأ بالكبائر الباطنة وعلل صنيعة ذلك فقال: «وَقَدَّمْتُهَا لِأَنَّهَا أَخْطَرُ، وَمُرَّتْكِهَا أَذَلُّ العُصَاةِ وَأَحْقَرُ، وَلِأَنَّ مُعْظَمَهَا أَعْمٌ وَوُقُوعًا وَأَسْهَلُ ارْتِكَابًا وَأَمْرٌ يُبْوَءُ، فَقَلَمَّا يَنْفَكُ إِنْسَانٌ عَنْ بَعْضِهَا لِلتَّهَوُّنِ فِي أَدَاءِ فَرْضِهَا، فَلِذَلِكَ كَانَتْ الْعِنَايَةُ بِهَذَا الْقِسْمِ أَوْلَى وَكَانَ صَرْفُ عِنَانِ الْفِكْرِ إِلَى تَلْخِيصِهِ وَتَحْرِيرِهِ أَحَقَّ وَأَحْرَى. وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَيَّامَةِ: كَبَائِرُ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ كَبَائِرِ الْجَوَارِحِ؛ لِأَنَّهَا

كُلَّهَا تُوجِبُ الْفُسْقَ وَالظُّلْمَ، وَتَزِيدُ كِبَائِرَ الْقُلُوبِ بِأَنَّهَا تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ وَتُوَالِي شِدَائِدَ الْعُقُوبَاتِ. وَلَمَّا ذَكَرَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ الْكِبَائِرَ الْبَاطِنَةَ وَأَوْصَلَهَا إِلَى أَكْثَرِ مِنْ سِتِّينَ قَالَ: وَالذَّمُّ عَلَى هَذِهِ الْكِبَائِرِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّمِّ عَلَى الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَالْقَتْلِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ؛ لِعَظَمِ مَفْسَدَتِهَا وَشَوْءِ أَثَرِهَا وَدَوَامِهَا، فَإِنَّ أَثَارَهَا تَدُومُ بِحَيْثُ تَصِيرُ حَالًا لِلشَّخْصِ وَهَيْئَةً رَاسِخَةً فِي قَلْبِهِ بِخِلَافِ أَثَارِ مَعَاصِي الْجَوَارِحِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ بِمُجَرَّدِ الْإِفْلَاحِ مَعَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ^(١).

ولقد عَظَّمَ النبي ﷺ أمر الوقوع في الفاحشة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ» ^(٢).

بصيرة: ﴿حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿٣٣﴾ **تحريم الفواحش من أعظم الجواذب نحو الإسلام.**

اجتهد جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَيَانِ الْمَزِيَّةِ الْعَظِيمَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، فَقَدْ دَعَا النُّجَاشِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ التَّجَاؤا إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءُوهُ دَعَا النُّجَاشِي أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، لِيَسْأَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْسِيءُ الْجَوَارِ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، (١/٤٣).

(٢) البخاري (٤٦٣٤)، مسلم (٢٧٦٠).

وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَاةً، فِدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَحْنُ نَعْبُدُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ، وَأَمَّنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَّا عَلَيْنَا قَوْمًا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا تُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ^(١).

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: قَدَّمَ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ لَشِيعُوهُ، وَتَأْثِيرِهِ فِي هَوِيَةِ الْمَجْتَمَعِ، وَزَحْفِهِ عَلَى ثِقَاتِهِ، فَشِيعَ الْفَوَاحِشَ تَعْبِيرًا عَنْ إِلْفِهَا فِي الْمَجْتَمَعِ، وَتَطْيِيعِهَا مَعَهُ، وَشِيعُوهَا تَعْبِيرًا عَنْ تَقْنِينِهَا، وَالتَّعَايِشِ مَعَهَا، وَتَبْرِيرِهَا.

الانتقال:

بَصَّرْنَا اللَّهَ أَنَّ الْفَوَاحِشَ هِيَ الْمَحْرَمُ الْأَوَّلُ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^(٢)، فَمَا الْأَصْلُ الثَّانِي مِنْ أَصُولِ الْمَحْرَمَاتِ؟

الجواب:

(١) أحمد (١٧٤٠)، وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن، رجاله ثقات»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق، وقد صرح بالسماع»، ولعله يقصد ابن إسحاق، فسقطت (ابن).

الأصل الثاني: ﴿الْإِثْمُ﴾، والمراد به ما سبَّب الإثم من سائر المعاصي:

هذا يدفعنا إلى نتساءل: ما معنى الإثم؟

الجواب: هذه الكلمة (إثم)^(١) تدلُّ على البُطء بسبب الثقل، وينتج التأخر. يُقال: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أي: مُتَأَخِّرَةٌ. قَالَ الْأَعَشَى الكبير:

جُمَالِيَّةٌ تَغْتَلِي بِالرَّدَافِ إِذَا كَذَّبَ الْآثِمَاتُ الْهَجِيرَا^(٢)

فالإثم والأثام: اسم للأفعال التي تسبَّب الثقل، وتنتج البطء عن الثواب، وتؤخِّر عن الصلاح، ودرجات الفلاح، وجمعه آثام، يقال: آثِمٌ إِثْمًا وَأَثَامًا، فهو آثِمٌ وَآثِمٌ وَأَثِمٌ.

وبذلك يكون (الإثم): الوزر والذنب، و(الأثام): حَمْلُهُ أو عاقبته، و(التأثيم) تحميله، و(الآثم): مُرْتَكِبُهُ لَمَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ أو نحو ذلك، أي: قليلاً، و(الآثيم) مُرْتَكِبُهُ على المبالغة.

ومن أبرز ما يدخل في الإثم الخمر، فهي من أوضح ما يحجب الإنسان عن الخيرات، فقد سُمِّيت بالإثم في قول الشاعر:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الْإِثْمُ تُذْهِبُ بِالْعُقُولِ^(٣)

الآن إليك المفاجأة الرائعة في تسمية هذا النوع من أصول المحرمات بالإثم:

الله تعالى يندبك إلى المسارعة إلى الخيرات، والترقي في أرفع الدرجات في عمل الدنيا والآخرة، فإذا ما اقترفت شيئاً يؤخرك عما ينبغي أن تعمله من عمل الدنيا والآخرة، فقد

(١) مقاييس اللغة (١/ ٦٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٥٤).

(٢) ديوان الأعشى الكبير (ص: ٩٧)، و(جُمَالِيَّة): ناقة وثيقة كالجمال، (تغلي): تغلو في مسيرها، (الرديف): الذي يركب خلف الراكب، أي: لا تبالي أن يركبها أكثر من واحد، (الآثمات): النُوق الضعيفة، جعل تخلفها إثماً.

(٣) البيت بلا نسبة في: مقاييس اللغة (١/ ٦١)، ولسان العرب (١٢/ ٦)، تاج العروس (٣١/ ١٨٤) بلفظ (تصنع) بدلاً من (تذهب).

ارتكبت الإثم، حتى لو كان العمل يحجبك عما ينبغي أن تفعله في الدنيا كالحصول على المال الحلال.

وربما تسأل: ما الفرق بين الإثم والخطيئة؟

الجواب: رأى بعضهم أن الخطيئة قد تكون من غير تعمّد ولا يكون الإثم إلا تعمّداً^(١)، ولكن ذلك لا يظهر لي، والذي يظهر أن الإثم: وصفٌ لنتيجة الذنب، وهو حدوث الفشل والإخفاق والتأخر والبطء عن الوصول إلى الفلاح، والخطيئة: وصفٌ لطبيعة الذنب، وهو أنه يخالف الصواب.

عرفنا أن الأصل الأول من أصول المحرمات هو: الفواحش، والثاني: الإثم، وهنا ستقول:

أليس الإثم يدخل في الفواحش، فلماذا ذكر الله ﷻ الإثم بعد الفواحش؟

الجواب: الفرق بين الإثم والفاحشة أن الفاحشة: ذنبٌ خاصٌّ في كلّ ما يَفْحُشُ ذكره، وَيُسْتَبَشِعُ فِعْلُهُ مثل الزنا، وإتيان الذُّكران، وألفاظ السوء، وأما الإثم: فعامٌّ لكلِّ ذنب، وخاصةً شرب الخمر، والظاهر أن العطف هنا من قبيل عطف العامِّ على الخاصِّ، فالإثم يعمُّ كلّ ذنب صَغُرَ أم كَبُرَ، لكن الله ﷻ خصَّ الفواحش بالذكر أولاً لأنه يدخل فيها ما يتعلّق بالجرائم المؤثّرة على التماسك الإنساني مثل جرائم الفروج، وجرائم الكبر، والحسد، والحقْد، ثم عمّم كلّ إثم بعد ذلك ليشمل مطلق الذنب سواءً كان كبيراً أو صغيراً، والفائدةُ فيه: أنّه تعالى لَمَّا حَرَّمَ الْكَبِيرَةَ أَرَدَ فَهَآ بِتَحْرِيمِ مُطْلَقِ الذَّنْبِ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ أَنَّ التَّحْرِيمَ مَقْصُودٌ عَلَى الْكَبِيرَةِ، ومن ذلك إثم الخمر^(٢)، وزعموا أن الخمر كانت تعرف بالإثم، لأنها تسبب الإثم، كما في

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٣٣).

(٢) تفسير الرازي (١٤/٢٣٢).

قوله تعالى جده: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، واعترض بأن السُّورَةَ مكية وتحريم الخمر بعد أُحُدٍ، وقد قتل فيه شهداء وهى في بطونهم، وزعموا أن من تسميتها بالإثم قول الشاعر:

 نهنا رسول الله أن نَقْرَبَ الزَّنَى وأن نَشْرَبَ الإِثْمَ الذى يُوجِبُ الوِزْرَا

 وَأَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ أَيْضًا:

وَرُحْتُ حَزِينًا ذَاهِلَ الْعَقْلِ بَعْدَهُمْ كَأَنِّي شَرِبْتُ الإِثْمَ أَوْ مَسَّنِي خَبْلٌ ^(١)

 وأنكر بعض المحققين صِحَّةَ البيتين ورأى أنهما بيتان مصنوعان إيهامًا أن الإثم من أسماء الخمر، وخاصة أن الخمر حرمت في المدينة، وهذه الآية مكية، والمسألة يعوزها تحقيق أوسع، وكما حَرَّمَ الفواحش المعلنة والخفية، حَرَّمَ كذلك الإثم المعلن والخفي.

الانتقال:

نعود للآية ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فما الأصل الثالث من أصول المحرمات؟

الجواب:

الأصل الثالث: البغي بغير الحق:

فأول ما تتساءل عنه هنا: ما معنى كلمة ﴿الْبَغْيُ﴾؟ وما وجه قوة استعمال هذه الكلمة؟

 الجواب:

البغي ^(٢): كلمة مشتقة من بغي يبغي إذا طلب الشيء، وعندما يطلب إنسان الشيء فإنه ربما يطلبه طلبًا معتادًا، وقد يطلبه طلبًا يتجاوز المعتاد، كالْبَغْوِ والبَغْوَةُ وهو كل شجرٍ غُضِّ ثمرُهُ

(١) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٤٤).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٢٧١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٣٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٤٩).

أخضرٌ صغيرٌ لم يبلغ، فهو في طور النمو يطلب أن يكتمل، ومنه: البَغْيَةُ - كَهْدِيَّة-، وهي الطليعةُ التي تكون قبل ورود الجيش (فهي تُهَيَّئُ وتُمهِّد لبلوغ الجيش مأربه).

وفصله الراغب رحمه الله تفصيلاً بيناً، فعَرَّفَ البغي بأنه: طلبٌ تجاوزَ الاقتصاد فيما يتحرَّى، تجاوزَ أم لم يتجاوزَه، فتارةً يعتبر في القَدْر الذي هو الكمية، وتارةً يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، ومن ذلك قَوْلُهُمْ: بَغَى الْجُرْحُ: إِذَا طَلَبَ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَهُ، فأفسد موضعه، وَالبَغْيِيُّ: الْفَاجِرَةُ، تَقُولُ: بَغَتْ تَبْغِي بَغَاءً، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها، قال رحمه الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

فاتضح أن كلمة: بغى يعني قد يراد به الطلب المعتاد، ومن ذلك قولك: بغيت كذا، أو أبغى كذا، وقد يراد بها الطلب المتجاوز للقدر المطلوب أو للوصف المطلوب، وهنا يأتي ما لا يجوز، وَمِنْهُ أَنْ يَبْغِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى آخَرَ، إذا تجاوز الحدَّ الذي ينبغي أن يقف عنده، فيقال: بغى عليهم، أي: عدَلَ عن الحقِّ واستطال، وبذا يكون البَغْيُ نوعاً من الظُّلم. قَالَ^(١):

وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمَلَ بَنَ بَذْرٍ بَغَى، وَالبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيَمُ

وقد تسأل: لماذا قيَّد الله تعالى البغي بقوله: ﴿بَغْيٍ الْحَقِّ﴾؟

الجواب: لأن البَغْيَ على ضربين:

أحدهما: محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوُّع، وغالبًا ما يستعمل فيه كلمة: الابتغاء، خصَّ بالاجتهاد في الطلب، فمتى كان الطلب لشيء محمود، فالابتغاء فيه محمود نحو: ﴿أَبْتَغَاءَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨].

(١) البيت لقيس بن زهير العبسي كما في الحماسة للبحري (ص: ٢٣٨).

والثاني: مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى المشتبه، كما قال النعمان بن بشير: ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لعرضه ودينه...»^(١).

فقوله تعالى: ﴿بَغْيٍ أَحَقَّ﴾ صفة تقييدية، وليست كاشفة عند النظر إلى المعنى العام، فقيد الله ﷻ البغي المذموم بأنه ما كان بغير الحق، لأنه قد يوجد بغي بحق، وأما إن خصصنا البغي بما يتجاوز فيه غير الحق فإنها صفة كاشفة للبغي، مثل العشاء الآخرة؛ فالبغي غالباً لا يكون إلا بغير حق، أما التجاوز فيه بوجه حق فلا يسمى بغياً ولكنه أذى قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَآذَوْهُمْ﴾ [النساء: ١٦]^(٢).

وفي هذه الحالة يكون هذا الوصف ﴿بَغْيٍ أَحَقَّ﴾ للبغي لبیان بشاعة البغي، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ أَحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، فلا يوجد نبي يقتل إلا بغير حق، فأضاف قوله: ﴿بَغْيٍ أَحَقَّ﴾؛ ليصف واقع المجرمين الذين قتلوا الأنبياء ﷺ.

فالبغي المحرم هو الإثم: الذي فيه تجاوز لحدود الحق، أو اعتداء على حقوق أفراد الناس أو جماعاتهم وشعوبهم؛ والاستطالة على البشرية بالأذى والسوء، والاستعلاء عليهم بالظلم.. إنه الإقدام على أذى الغير نفساً، أو مالا، أو عرضاً، وقد كان البغي شائعاً في الجاهلية فكان القوي يأكل الضعيف، وذو البأس يُغير على أنعام الناس، ويقتل من يشاء منهم، ومن البغي أن يضربوا من يطوف بالبيت بشابه إذا كان من غير الخمس، وأن يلزموه بأن لا يأكل غير طعام الخمس، ولا يطوف إلا في ثيابهم^(٣).

(١) البخاري (٥٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٠٠).

وتحريم البغي تجريم لكل صور الاعتداء المقنن المعاصر الذي تمارسه القوى الدولية المتغولة على غيرها من دول العالم وشعوب الأرض، ويدخل في ذلك حتمًا هذا التدخل السافر في قرارات ومصائر الأمم والشعوب والإضرار بمصالحها واقتصادها، واستخدام حقّ الفيتو لفرض العقوبات دون مبرر سوى عدم الانصياع والخضوع لإملاءات أبالسة الشر، وعتاولة الفجور العالمي.

ستعود لتسأل: في الآية قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَا تَمْلِكُونَ الْغِيَّ وَالتَّبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فسبق أن ذكر الله ﷻ في الآية ﴿أَلَا تَمْلِكُونَ﴾، فما العلاقة بين ﴿أَلَا تَمْلِكُونَ﴾ و﴿التَّبَغْيَ﴾؟

ويلوح لي أنه يمكن أن نحرّر من ذلك:

الإثم كلمة عامّة، والبغي نوع من الإثم، فهذا الأسلوب من باب عطف الخاصّ على العامّ لأهمّيّته، فبدأ بالفواحش وهي المعاصي التي يَفْحُشُ ذكرها مثل الزّنا، والفواحش قد لا تتضمّن الاعتداء على الآخرين، فهي أخصّ من الإثم، ثم انتقل إلى العامّ وهو الإثم، ثم انتقل إلى مسألة خاصّة من الإثم أيضًا، وهي البغي، وفي البغي اعتداء على الآخرين.

وفي العلاقة بين الإثم والعدوان والبغي يمكن أن نلاحظ الآتي:

(الإثم): ما كان محرّم الجِنس على العموم، والبغي: ما كان محرّم القَدْر حيث تجاوز صاحبه الحقّ إلى ما لا حقّ فيه، كمن له حقّ عند آخر، فأخذه، ثم بغى عليه بأن زاد على حقّه، مثل أن يكون لك نصيب من الأرض فتأخذه ثم تتجاوز به إلى نصيب غيرك، والعدوان ما كان محرّم الجِنس والقَدْر، والإثم في البغي والعدوان يتعلّق بحقوق الآخرين ظلمًا، كَالْإِعْتِدَاءِ على الأرض، واغتصابها من صاحبها.

ومن البغي: أن لا يستطيع الإنسان أن يبيع لُقْمته، وأمامه كأس خمر، ولا يوجد وقت لشرب الماء لعدم وجوده، فيُسيغ اللقمة، ويُبعد الغصة بشرب شيء من ذلك الخمر، ولكنه يتجاوز ذلك القدر، فيشرب الكأس كلها، أو أُبيحَ لَهُ نَظَرَةُ الخِطْبَةِ، والسَّوْمِ في البيع، والمُعَامَلَةِ والمُداوَاةِ، فَأُطْلِقَ عِنَانَ طَرْفِهِ فِي مَيَادِينِ مَحَاسِنِ الْمَنْظُورِ، فَتَعَدَّى الْمُبَاحَ إِلَى الْقَدْرِ الْمَحْظُورِ.

وَالْغَالِبُ فِي اسْتِعْمَالِ الْبَغْيِ أَنْ يَكُونَ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ وَالْإِسْطِطَالَةِ عَلَيْهِمْ، فَهَهُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ: حَقٌّ لِلَّهِ وَلَهُ حَدٌّ، وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ وَلَهُ حَدٌّ، فَالْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ وَالظُّلْمُ تَجَاوُزُ الْحُدُودَ إِلَى مَا وَرَاءَهُمَا، أَوْ التَّقْصِيرُ عَنْهُمَا فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمَا^(١).

نعود للآية ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، فما الأصل الرابع من أصول المحرمات التي ذكرتها الآية؟

الجواب:

الأصل الرابع: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ﷻ: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾:

هنا ستسأل: ألا يدخل الشرك في الفواحش، وفي الإثم، وفي البغي؟

الجواب: يدخل، فالشرك فاحشة، والشرك إثم، والشرك بغي بغير الحق، ولكنه ذكره من عطف الخاص على العام لخطورته، فالشرك أقدر أنواع الفواحش والإثم والبغي، فاستحقَّ أَنْ يُفَرَّدَ بالذِّكْرِ.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٥)، تفسير المنار (٨/ ٣٥٣).

والآن لاحظ هذا التعبير: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ لتجده يُبَصِّرُنَا بِأَنْ الشُّرْكُ فَعْلٌ بِإِرَادَةِ بَشَرِيَّةٍ حُرَّةٍ، فَالْآيَةُ تَرُدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ مَذْهَبَ الْحَتْمِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الشُّرْكِ. فأنت ترى أَنَّ اللَّهَ ﷻ نَسَبَ الشُّرْكَ إِلَى فَعْلِهِمْ كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ الْقَدَمَاءَ وَالْمُعَاصِرِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وربما تقول: "الحتميون" مثل المؤمنین بقضاء الله وقدره؟

الجواب: الحتميون غير المؤمنین بقضاء الله وقدره.. الحتميون ملحدون يزعمون أَنَّ كُلَّ حَدَثٍ فِي الْكَوْنِ يَقُومُ عَلَى الْإِجْبَارِ.

يقولون: إدراك الإنسان وتصرفاته خاضعة لتسلسل منطقيٍّ سببيٍّ محدّدٍ سلفاً ضمن سلسلة غير منقطعة من الحوادث التي يؤدّي بعضها إلى بعض وَفْقَ قَوَانِينٍ مُحَدَّدَةٍ هِيَ قَوَانِينُ الطَّبِيعَةِ.

وبعضهم بعد ذلك يتحدلق، فينكر وجود الله ﷻ مثل (ستيفن هوكنج)، ويجعل القوانين هي الخالق المؤثر، ولا أظنه يوجد في الدُّنْيَا أَعْبَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا نَظْرِيَّةُ أَنَّ يَكُونُ الْإِلَهَ مَخْلُوقًا. وبعضهم يثبت وجود الله ﷻ احتمالاً، ويقول ضمن احتمالاته: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، كأنهم يقولون: إِنْ كَانَ اللَّهُ ﷻ حَقًّا يَرَعَى هَذَا الْعَالَمَ، فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْنَعَنَا مِنَ الشُّرْكَ لَمْنَعْنَا، فَيَجْعَلُونَ اخْتِيَارَهُمُ الْخَاطِئَ حُجَّةً؛ إِمَّا عَلَى عَدَمِ وَجُودِ اللَّهِ ﷻ، وَإِمَّا عَلَى رِضَاهِ بِأَفْعَالِهِمْ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرُدُّ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ بَيَانُ أَنَّ الشُّرْكَ كَانَ اخْتِيَارًا لَهُمْ بَعْدَ أَنْ حَبَاهُمْ بِالْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ فنسب الشُّرْكَ إِلَى أَفْعَالِهِمُ الْاخْتِيَارِيَّةِ. وأما قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فَقَيَّدَ وَقُوعَ الشُّرْكَ بِالْمَشِئَةِ.

نقول: صحيح! لو شاء الله ما أشركتم، ولكنه أعطاكم حرية الاختيار، فقال مثلاً: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدر: ٣٧]، فأخذتم المفهوم الأول، وتركتم الثاني.

وهنا نتساءل: الشرك هو أكبر الكبائر مطلقاً، فلماذا قيده بقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؟

فهل يوجد شرك أنزل الله به سلطاناً؟

الجواب: هذا القيد قيدٌ توضيحي كاشف لا مفهوم له، وليس قيداً تأسيسياً، فالقيد التأسيسي - كما بينت في كتابي: الأساس في أصول التفسير - له مفهوم مخالفة، والشرك كله لم ينزل الله ﷻ به سلطاناً، فلا يوجد مفهوم مخالفة لقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، ومثل ذلك قولهم: فلان لا يُرجى خيره، ليس يريدون أن فيه خيراً لا يُرجى، وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه^(١).

(١) وهذا الأسلوب جرى على قريب من قول امرئ القيس:

عَلَى لَاحِظٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِي جَرَجَرَا
يصف طريقاً، وأراد بقوله "لا يُهْتَدَى بمَنَارِهِ" أنه لا منار له فيهتدي به، والعود: المسن من الإبل، والدِّيَافِي: منسوب إلى دياف وهي قرية بالشام، وسافه: شمه وعرفه، والجرجرة مثل الهدير، وإنما أراد أن العود إذا شمه عرفه فاستبعده، وذكر ما يلحقه فيه من المشقة فجرجرج لذلك.

وقد أطنب المرتضى في الأمالي (١/ ٢٢٩) في ذكر مثل هذا، وعلى الحافظة العريضة التي أوتيتها ففي بعض ما قال غلو، ومن الأمثلة التي أوردها:

ومثل ذلك قول ابن أحمر:

لَا يُفْزَعُ الْأَرْزَبُ أَهْوَالَهَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَجِرُ

وأراد: ليست بها أهوال حتى يفزع منها الأرنب، ومثله قول النابغة:

يَحْفُفُهُ جَانِيَانِيَتِي وَتُبْعُهُ

مثل الزجاجية لم تُكحل من الرمد

أراد: ليس بها رمد فتكتحل له.

ولكن هَلُمَّ بنا إلى تأمل الجانب البلاغي في هذا التعبير بصورة أكبر لتأمل لماذا هذا القيد التوضيحي.. ما الفوائد البانية الضخمة التي نفيدها من هذه الإضافة ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؟

الفائدة الأولى: توضيح طبيعة الشرك، فوجوده غير عقلي لأنه ينافي وجود الكون: فقلوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يبين لك الطبيعة الرذيلة للشرك ويتهكّم بها، فالشرك لا سلطان نزل به من الله ﷻ يجعل الخلق يعتقدونه، أي لا حجة فيه، ولا برهان عند من يدّعيه، فمن يشرك إنما يفترى الكذب المحض الواضح.. لماذا نقول: **الشرك لا سلطان فيه؟** لأن وجود الشرك في الألوهية يقتضي نفي وجود الكون كله.. وجود أكثر من إله يحكم الكون يفضي إلى عدم هذا الكون، ولذا قال الله تعالى جَدُّهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فالشرك يقتضي النزاع بين الإلهين، وذلك سيؤدّي إلى دمار الكون كما يثبت ذلك مخرفو الأساطير الوثنية الإغريقية، والرومانية، والسلافية، والفارسية، والأفريقية، والمصرية.. كلهم يصوّر آلهة متنازعة فيما بينها، وهذا من عجيب اتفاقات تصوراتهم.

فانظر وضوح مبدأ الإيمان بإله واحد.. وتأمل لترى أن الشرك يناقض وجودك، ووجود المخلوقات حولك، فلو كان هناك إله حقيقي آخر لكان هناك احتمالان:

إما أن يكون الإلهان متساويين في القوة، وعند ذلك لا بد من فساد هذا الكون وتدميره في النهاية لحدوث النزاع الضروري بينهما كما تراه في البشر.

وإما أن يكون أحدهما أعلى من الآخر، فالآخر لن يكون متصرفاً إلا بإذن الأول، فلا يسمّى إلهًا، ولا يكون شريكًا، فعُدنا إلى التوحيد.

فالله ﷻ يخبرنا هنا أنه لا يمكن أن يكون للمشرك سلطان يحتاج به على شركه. وكذلك لو قلت لعابد الشمس: لماذا تعبدوها؟ فأجابه: لأنها مساوية لله. تعالى الله عن ذلك، وهنا تقول له: هذا غير معقول، وأنت في هذه الحالة تصادر عقلك، فكيف تُسوِّي المخلوق بالخالق، وهل تُسوِّي الآلة بصانعها مع فارق القياس؟! والله المثل الأعلى.

هنا ربّما يبهت، ولا يبقى له حجة عقلية لعبادة غير الله ﷻ إلا أن يزعم أن الله تعالى أنزل سلطاناً أي برهاناً يأمر فيه بأن يُعبد غيره، فبيّن الله ﷻ أن هذا لا يوجد أيضاً، فلا برهان أنزله الله ﷻ يؤيّد دعوى المشركين، ولا حجة متسلّطة على البشر تبرر الشرك أو تبيحه، فصار الشرك غير جائز عقلاً، ولا يوجد دليل نقليّ يؤيّد كيف نحكم على عقول من يفعله؟! ففي قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وحتى تستبين فائدة هذا القيد: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ نذكر قصة الحصين الخزاعي، فقد قال للنبي ﷺ: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أنك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، فقال: «يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟» قال: سَبْعًا فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قال: «فَإِذَا أَصَابَكَ الضَّرُّ مَنْ تَدْعُو؟» قال: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قال: «فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟» قال: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قال: «فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ؟! أَرْضَيْتَهُ فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ أَنْ يُغْلَبَ عَلَيْكَ؟!»

أي ما الذي دعاك إلى الشرك: هل طلب الذي في السماء أن تُشرك معه هذه الأصنام فعبدهم لترضيه في شكره، أم تخاف عليه منهم أن يصنعوا له شيئاً.

قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: «يَا حُصَيْنُ، أَسْلِمَ تَسْلَمُ»^(١).

(١) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٧٧)، والذهبي في العلو للعلي الغفاري (ص: ٢٤)، وقال: «عمران ضعيف».

هنا يطرح الملحدون تساؤلاً مثل: كيف تفعلون بالكعبة التي تطوفون حولها؟ هي حجارة

—زادها الله شرفاً— أفلا يقاس على الأصنام؟

نقول: الله ﷻ أمرنا أن نُقَبِّلَ الحجر الأسود، كما أمرنا أن نستقبل القبلة، ونطوف حول الكعبة، وأن نكون على أرض عرفات في الحج، فنحن لا نعبد هذه الأماكن، بل نعبد الله تعالى الذي أمرنا أن نتعامل مع هذه الأماكن، وَفَقْ مَا أمره، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أي رأيت رسول الله ﷺ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ»^(١).

الفائدة الثانية: يعلمنا هذا القيد ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أن ننزل مع صاحب الاحتمال المستحيل لنناقشه ونبين له خطأ تفكيره:

قال الله ﷻ: ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي لا يمكن أن يكون للمشرك سلطان، ولكنه تنزّل معهم، وقال: لا سلطان نزل بشأنه، فكأنه قال للمشرّكين خاصّةً وليس للملّحين الذين ينكرون الله ﷻ: أنتم تعظمون الله ﷻ، لكنكم تشركون معه هذه المعبودات، مثل الأصنام، ومثل عيسى عليه السلام، وهذا الشرك مقبول بشرط أن تبينوا أن الله ﷻ الذي خلق السموات والأرض أنزل به سلطاناً.

الفائدة الثالثة: يعلمنا قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أن نبحت عن السلطان أي البرهان الذي يدل على صحّة الإيمان بشيء، وعلى السلطان الذي يدل على صحّة عبادة نتعبد بها الله ﷻ، فلا نخترع ذلك من أنفسنا، فلا بد من برهان يؤيد ما نقول، ويصدّق ما ندّعي:

فهذا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] الآية، وَقَدْ قَالَ فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ عَلَى تَوْحِيدِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُرْهَانٌ مِمَّا قُلْتُمْ أَنْ تُدْعَىٰ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٨١] الآية.

(١) أحمد (٣٢٥)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، والحديث في البخاري (١٦٠٥) بلفظ: «وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ».

صَدِيقِينَ ﴿[النمل: ٦٤]، وَكَيْفَ يَكُونُ لَدَيْهِمْ مَا هُوَ فِي نَفْسِهِ مُحَالٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]، ﴿إِنْ﴾: هُنَا نَافِيَةٌ، أَي: مَا عِنْدَكُمْ أَذْنَى دَلِيلٍ بِهَذَا الْقَوْلِ الْفَظِيعِ الَّذِي تَقُولُونَهُ مَعَ أَنَّ مَا تُبْطِلُ الْبَرَاهِينَ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَةُ مِثْلُهُ يَحْتَاجُ مُدَّعِيَهُ إِلَى أَقْوَى الْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجِ وَأَعْظَمِهَا سُلْطَانًا عَلَى الْعُقُولِ، وَلَكَمَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ قَدْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ قَوْلٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ مِنَ الْعَقْلِ، بَلْ لَا يَتَصَوَّرُ الْعَقْلُ وُجُودَهُ، وَلَكِنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ وَرَدَ بِهِ النُّقْلُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ ادَّعَاهُ لِنَفْسِهِ قَالَ: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

نعود للآية ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٣)، فما الأصل الخامس من أصول المحرمات التي ذكرتها الآية؟ ولماذا أخر الله ﷻ هذا الأصل إلى آخر الآية؟

الأصل الخامس: القول على الله تعالى بغير علم: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٣):

هذا من عطف الخاص على العام لخطورته أيضًا، فيدخل في الفواحش والإثم كل ما بعدها، وآخر هذه الفواحش والإثم: القول على الله بلا علم، فهو من الفواحش الظاهرة، وهو من الإثم، وهو من البغي بغير الحق، وهو أصل الشرك، فالقول على الله بلا علم أساس المُحَرَّمَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي دِينِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ، فَإِنَّهُ أَصْلُ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، وَمَنْشَأُ تَحْرِيفِ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ، وَشُبْهَةُ الْإِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ الْحَقِّ^(٢).

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٥٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٥٤).



فمن القول على الله بلا علم: أن تعبدوا مخلوقاً وتزعموا أن الله تعالى أمركم بهذا، ولأجل ذلك تعلم لماذا جمع الله تعالى بين الشرك وقول الزور في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٣١﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۖ ﴿[الحج: ٣٠، ٣١].

ومن القول على الله بلا علم: أن تقولوا: إن الله تعالى أمركم بالتعري والتجرد للطواف بالبيت، وحرّم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتها وسيّمتها وجعلتموها وصائل وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرّمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله ﷻ تحريمه وحظره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرّمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله ﷻ حرّمه، أو تقولون: إن الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقة ما تقولون، وتضيفونه إلى الله ﷻ.

ومن القول على الله بلا علم: الجُرّاة في القول بالتبديع لأي شيء بادي الرأي، والجُرّاة في القول بالاستحباب لأي شيء بادي الرأي.. وهذان طرفان متقابلان فليتنق الله تعالى من يقول بطرفٍ منهما.

وخوفاً من أن يقول الإنسان على الله تعالى بلا علم تحامى علماء الصحابة والتابعين الفتوى، وقال ابن القيم رحمه الله: «وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَذْيَانُ، وَلَا تَبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنزِيرِ الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمُهُ عَارِضٌ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾، فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللَّهِ،

وَأَشَدُّهَا إِثْمًا، فَإِنَّهُ يَتَّصِمُنُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَنَسَبَتَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ، وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ، وَإِبْطَالَ مَا أَحَقَّهُ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالَاهُ، وَمُؤَالَاةَ مَنْ عَادَاهُ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ، وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ، وَوَصْفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا، وَهُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ. فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ^(١).

بصيرة: القول على الله بغير علم أصل الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ.

والقول على الله بلا علم جرأ المشركين، فاتخذوا الأصنام، وزعموا أنهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى.

والقول على الله بلا علم جرأ مُحَرِّفِي الْيَهُودِ فزعموا أنهم شعب الله المختار، وأبناؤه وأحباؤه.

والقول على الله بلا علم جرأ مُحَرِّفِي النَّصَارَى فادَّعوا أن عيسى ابن الله، وبعضهم زعم أنه الله، وبعضهم زعم أن الله ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

والقول على الله بلا علم جرأ مشركي الحكم، فشرَّعوا من الحلال والحرام ما لم يأذن به الله تعالى، الله ﷻ يقول عن هؤلاء المتلاعبين بتشريعات الحياة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٨).

والقول على الله بلا علم هو الذي يبنى دار الفاسقين في الدنيا، إذ تظهر المعاصي، وتستعين السلطات التنفيذية بالعلماء المذهنين ليشروعوا لهم ما يبرر فسقهم وإجرامهم، وينقل لنا أنس بن مالك رضي الله عنه أنه في مثل هذه الحال تُعطل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيوع الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف إذ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى نَدْعُ الْإِثْمَارَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذَا كَانَتِ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ»^(١).

وقوله: «إذا كانت الفاحشة في كباركم»، قال السندي رحمته الله: أي إذا شاع الزنى حتى إن الكبار لا يستنكفون منها، والمراد بالكبار ذوو الأسنان، وقوله: «في رذالكُم»، أي: في الأراذل في الدين، وهم لا يتقون الله تعالى، ولا يعملون بالعلم^(٢).

والقول على الله تعالى بلا علم أسلوب شيطاني يحث عليه الشيطان وينهى الله تعالى عنه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وعندما تعود لقراءة الآية تجد أن الله تعالى جدّه قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ فجاء بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾، فلماذا حصر المحرمات في هذه الأصول الخمسة مع أن هناك محرمات لم تذكر؟

(١) أحمد (١٢٩٤٣)، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي، أبو مُعِيد - وهو حفص بن غيلان - صدوق لا بأس به، وباقي رجاله ثقات»، وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٧٠٣)، وذكر أنه منكر؛ لأن مكحولاً مدلس، وقد عنعن الحديث، وهذه علة الحديث، ولعل من قوَى الحديث لم يتنبه لها، أو تغاضى عنها، ثم ذكر أن الحديث مخالف لما في القرآن والسنة من التصريح بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل (٧/ ٣٥٦).



الجواب: هل أبقت هذه المحرمات شيئاً من المحرمات الأخرى؟ الحصر دلّ على قِلَّةِ المحرمات، لكن هذه الأصول جمعت كلَّ المحرمات، فقد قرّر الرازي رحمته الله أن الجِنَايَاتِ مَحْصُورَةٌ فِي خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: الجِنَايَاتُ عَلَى الْأَنْسَابِ، وَهِيَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالزَّنا، وَهِيَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾.

وِثَانِيهَا: الجِنَايَاتُ عَلَى الْعُقُولِ، وَهِيَ شُرْبُ الْخَمْرِ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْإِثْمَ﴾.

وِثَالِثُهَا: الجِنَايَاتُ عَلَى الْأَعْرَاضِ.

وَرَابِعُهَا: الجِنَايَاتُ عَلَى النُّفُوسِ وَعَلَى الْأَمْوَالِ، وَإِلَيْهِمَا الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

وَخَامِسُهَا: الجِنَايَاتُ عَلَى الْأَدْيَانِ، وَهِيَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهَا: الطَّعْنُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾.

وِثَانِيهَا: الْقَوْلُ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢٣) فَلَمَّا كَانَتْ أَصُولُ الْجِنَايَاتِ هِيَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ، وَكَانَتْ الْبَوَاقِي كَالْفُرُوعِ وَالتَّوَابِعِ، لَا جَرَمَ جَعَلَ تَعَالَى ذِكْرَهَا جَارِيًا مَجْرَى ذِكْرِ الْكُلِّ، فَأَدْخَلَ فِيهَا كَلِمَةً ﴿إِنَّمَا﴾ الْمُفِيدَةَ لِلْحَضَرِ ^(١)

الانتقال:

(١) تفسیر الرازي (١٤/٢٣٣).



ننتقل إلى قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٢٤]، هذه الآية تتكلم عن الآجال، ونحن في النداء الثالث من السورة، فما علاقتها بالقوانين الإلهية التي ذكر الله بها الذرية الآدمية في النداء الثالث؟

الجواب: هنا يأتي:

القانون العاشر: قانون الزمن والعمل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [٢٤]:

فيجب على بني آدم أن يعملوا وفق الوصايا الإلهية، وأن لا يبحثوا عن الآجال المحددة لحياتهم في الأرض، وأن لا يطلبوا موعد انتهاء معركتهم مع إبليس وقبيله، لأن حين انتقالهم من الدنيا محدّد في علم الغيب، ولكل قضية في حياتهم أجل قد يجدون فيها الانتصار، وقد يجدون فيها الهزيمة والاندحار والانكسار، فلا ييأسوا من إحسان أعمالهم:

تتعجّب من دخول هذه الآية في وسط الكلام، فالله ﷻ خاطب بني آدم، فقال لهم: ﴿يَبْنَىٰ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورَىٰ سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقال: ﴿يَبْنَىٰ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿يَبْنَىٰ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وأمر بالتمتع بزينة الحياة الدنيا، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ونهى عن مقاربة المحرّمات، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٣٣].

فلماذا جاءت هذه الآية تتكلم عن الآجال هنا؟

الجواب: لتبين أن الاستمتاع في الحياة الدنيا ذكره الله ﷻ لكل بني آدم عموماً في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

فتحديد "الحين" الذي يتعلّق بكلّ إنسان، ويتعلّق بكلّ مجموعة، ويتعلّق بكلّ دولة.. تحديد الحين ليس إلى بني آدم بل إلى الله ﷻ، وهنا يُبصّرنا بأن هذا الاستمتاع بالحلال أو بالحرام يختلف من آدميٍّ إلى آخر حسب الأجل الذي حدّده الله ﷻ لكلّ واحد منهم. لا ينبغي أن يغيب عن الجميع أن الحياة الدُّنيا مؤقتة، وكلُّ عمل فله أجله، وكلُّ عَرَض من حزن، أو فرح، أو سعادة، أو شقاء، أو همٍّ، أو سلوان.. كلُّ ذلك له أجل.

فقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ دخل فيها:

أجل الإنسان، أي: مُهلَّتُهُ إلى وقت موته.

ودخل فيها أجل العمل، أي: مُدَّة قُدْرَتِهِ على العمل، فإن العمل إذا ذهب أجله لم يستطع الإنسان أن يقوم به.

ستدبر الآية، فتقول: ما تقدير العطف في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؟ وما معنى هذه القاعدة

العظيمة؟

الجواب: هنا أتى بالواو، والواو عاطفة، وتقدير العطف هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾، وقل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، أي: أَمَدٌ مَضْرُوبٌ وزمنٌ محدّدٌ لحدوث تغيرات في الحياة، وقل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: فيجازيكم بما عملتم في تلك المهلة؛ فإمّا أن يرفعكم، ويكافئكم، ويشيكم، وإمّا أن يعاقبكم.

ويصحّ أن يكون عطف قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ على قوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، أي وعندما يحين أجل ارتحالكم، وانتهاء استقراركم في هذه الحياة، وتمتعكم فيها، حينها لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.

وكان وجود هذه الآية يذكّرنا بأنه يجب العمل وفق الوصايا الإلهية، ولا يبحث الإنسان عن الآجال المحددة للانتصار أو الاندحار، يجب عدم البحث عن الآجال المحددة للوجود

أو الإفناء، لأنها محدّدة في علم الغيب. أنت ينبغي أن تعمل فيما أمّرت، وبعد ذلك عندما يأتي الأجل المحدد: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْخُصْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، فلكلّ أمة من الصالحين والمصلحين والمجرمين والفاسقين أجلّ محدّد لينتصروا أو لينهزموا.

بادرِ المُهَلَّةَ فالعمرُ أجلّ واطرحِ عنك التواني والكسل
إنما الدُّنيا سبيلٌ ما لنا غيره درب فأحسنْ في العمل
واغتنم بالخير أوقاتاً فهل تأمن الموت إذا الموت نزل؟! (١)

وكلمة ﴿أُمَّةٌ﴾: إما أن يُعنى بها المجموعة من الناس، وإما أن يُعنى بها المجموعة من الأشياء والأحداث والأفعال والأزمان والأمكنة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤]، أي: أجله المحدّد عند ربّه ﷻ، فالله جلّ في علاه يبيّن أن الآجال قد كتبها على كلّ شيء، مثل أجل الإنسان: متى يولد، وأجله متى يتوفى، وأجله متى يكبر، وأجله متى يُرزق، وأجله متى يتزوج، وأجله متى يُنجب، وأجله متى يبقى صحيحاً سليماً معافى، وأجله متى يصيبه المرض، وأجله متى يحزن، وأجله متى يسعد، متى يتعلم، متى يتفوق، متى ينكسر، متى يرتفع وينتصر... كلّ ذلك مكتوب.

فالله ﷻ يبيّن وهو يخاطب الذرية الآدميّة أنهم لا يملكون الكون. هناك أشياء من السنن الإلهيّة تتحكّم بهم ينبغي أن ينظروا كيف يتعاملون معها ليستطيعوا النجاح في مسيرة الحياة التي كتبها الله ﷻ عليهم في هذه الأرض.

(١) الأبيات للدكتور/ سعيد بن دجاج ثبته الله.

القانون الحادي عشر: قانون انتهاء الفرص: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٥)، فعندما ينتهي الأجل المحدد لكل قضية، ولكل فرد، ولكل دولة، ولكل عمل، وطلب أحدهم التأخر لحظة أو التقدم لحظة لم يقبل منه:

فكلمة (إذا): ظَرَفُ زَمَانٍ لِلْمُسْتَقْبَلِ فِي الْغَالِبِ، وَتَتَضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ غَالِبًا، وَالْأَجَلَ هُوَ الْوَقْتُ الْمَوْقُوتُ الْمَحْدَدُ لِحُدُوثِ أَمْرٍ مَا، أَوْ لَانْتِهَاءِ حَدَثٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ فَرْدٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ. فَلَاسْتِقْرَارُ وَالتَّمَتُّعُ فِي الْأَرْضِ مَوْقَّتَانِ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي وَقَّتهُ اللَّهُ ﷻ لَانْتِهَاءِ حَدَثٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ عُمُرٍ لَا يُمْكِنُ التَّأَخُّرُ عَنْهُ وَلَا التَّقَدُّمُ.

واضرب لذلك مثلاً: بانتصار المؤمنين فهو مؤقَّت بأجله، وكذلك بهلاك المجرمين، فهو مؤقَّت بأجله، وكذلك إذا جاء الوقت الذي حدَّه الله ﷻ لانقطاع حياة إنسان في الدنيا، أو إذا جاء الوقت الذي حدَّه الله ﷻ لانقطاع الحياة في الأرض كلّها، وبداية الآخرة، فعند ذلك ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِدُّونَ﴾ (٣١).

وربما تسأل في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: ما معنى كلمة ﴿سَاعَةً﴾ هنا؟ هل هي الساعة المعروفة؟

الجواب: الساعة هنا تصدق على أقل وقتٍ مثل اللحظة، وبعض الناس يأتي بالمصطلحات السائدة عند الناس فيوقعها على لغة القرآن، وفي لغة القرآن كلمة الساعة يختلف معناها من موضع إلى موضع، فهي هنا تطلق على أصغر الوقت، أي على اللحظة التي يحدث فيها الحدث، فقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، أي: لا يستأخرون لحظةً، ولا يستقدمون لحظةً، سواء طلبوا ذلك، أو عملوا لأجله، وليس المراد الساعة الاصطلاحية التي هي جزء من أربع وعشرين جزءاً من اليوم، فالتعبير بالساعة؛ لأنها أقل الأوقات المشهورة في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، أي: في لحظة،



يريد أقصر وقت وأقربه، ولأن كلمة ساعة تحتل الامتداد من اللحظة إلى اللحظات، فتمتد إلى يومٍ مثلاً.

﴿يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾: تُبَصِّرُنَا بأنه عند حلول الأجل المُحَدَّد عند الله ﷻ لا يمكن لأحد أن يتأخر عنه ساعة، فلا يتأخر الناس والأعمال والمخلوقات عن ساعتهم المحددة لانقضاء ذلك الأجل.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: تُبَصِّرُنَا أن الإنسان لو أراد أن يُحْدِثَ أمراً ما في وقتٍ لم يحدده الله ﷻ كأن يموت في ذلك الوقت، أو يتزوج، أو يربح في تجارته، أو ينجح في نيل وظيفته، فإن ذلك لا يحدث، فقانون الأجل يعني أن التأخر لا يحدث إذا طلبه الإنسان، والتقدم لا يتحقق ما دام الله ﷻ وقت لكل شيء وقته.

بصيرة: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: تُبَصِّرُنَا بأنه لا يمكن للمؤمنين أن يستأخروا، ولا أن يستقدموا ليجدوا طعم الانتصار أو ألم الاندحار، ولا يمكن للمجرمين أن يستأخروا ليتذوقوا كأس التفوق أو يتجرعوا مرارة الهزيمة، فكل ذلك بيد الله ﷻ.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي قل لهم يا رسول الله: لكل أمة أمدٌ مضروب، وزمن معين عندنا قد حدّدناه لحدوث التغيرات في الحياة، فلا اغترار بالواقع القائم. فإذا حدث أمر فإنه إنما وقع في وقته الذي حدّده الله ﷻ، أما أنتم يا بني آدم فلا علاقة لكم بتحديد زمن التغير إلى الأحسن أو الأسوأ، فذلك أمرٌ قد قدره الله ﷻ.

بصيرة: هذا القانون العظيم: قانون الزمن والعمل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، وهذا القانون الكبير: قانون الفرص: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) يمنحان الإنسان الدافع ليزدأ أقصى ما يستطيع من العمل، ويتجنب المعصية والزلل، ويعبد الله ﷻ بانتظار حلول الأجل من غير كآل ولا ملأ.

ومن أنوار الحكمة النبوية الواردة في ذلك ما رواه ابن عمر ؓ: قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(١)، أي فاستغل الفرص القائمة، والأوقات التي منحك الله ﷻ إياها، ولا تتوقع أن تستقر طويلاً، فلكل أمة أجل، ومن أجل ذلك كَانَ ابْنُ عُمَرَ ؓ يَقُولُ لمجاهد بن جبر ؓ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَّظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَّظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(٢).

قد تقول: كان يمكن أن يقال: لا يتأخرون، ولا يتقدمون، فماذا يعني وجود السين والتاء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ ، يَسْتَقْدِمُونَ﴾؟ وماذا يترتب على ذلك في مصير الأفراد والأمم؟

الجواب: السين والتاء في قوله: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ ، يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لهما معنيان:

الأول: قد تكون بمعنى قَدِمَ وَأَقْدَمَ وَتَقَدَّمَ، وَمِثْلُهُ "اسْتَأْخَرَ" كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] بِمَعْنَى أَجَابَهُمْ إجابةً مؤكَّدةً، والمعنى هنا: أي لا يمكنهم أن يستأخروا مهما فعلوا، ولا يمكنهم أن يتقدموا مهما فعلوا، فتكون السين والتاء للتأكيد.

الثاني: قد تكون السين والتاء للطلب، والطلب قَدْ يَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ، فَمَنْ أَتَى سَبَبَ الشَّيْءِ كَانَ طَالِبًا لَهُ بِالْفِعْلِ، بمعنى أن الإنسان إذا جاءت له النكبة، وصار يطلب

(١) البخاري (٦٤١٦).

(٢) البخاري (٦٤١٦).



ويقول: يا ربي لا داعي لها.. يا ربي ارفعها عنا، أي يطلب التأخر إذا أصابته النكبة، وقد يطلب أن يستقدم ساعة؛ لأنه رأى أن هناك فرصة أتته ولم يستغلها، فطلب التقدم والتأخر مرفوض، لأن الله ﷻ جعل الآجال محدّدة.

فالذي ينزل عليه الموت وهو مضيع مفرط في حياته يصوّر الله ﷻ لنا حاله، وهو يطلب التأخر، ويصوّر لنا نتيجة طلبه، فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وكذلك الأمم عندما ترتكب أسباب الهلاك تطلب أن تؤخر لعلها تصلح أعمالها، كما في أي معركة خاسرة، والنتيجة أن الساعة المحدّدة لحدوث النتيجة لا يمكن تأخيرها...

خذ مثلاً: الصف الأول في صلاة الجماعة، فساعته محدّدة، فإن فاتت فلا يمكن إعادتها.

خذ مثلاً: صحبتك للوالد والوالدة.. أجل محدّد... فإن فات فات.. انتهى الأجل.

خذ مثلاً: الرزق الذي ربما تكسبه لو بكرت صباحاً.. لكنك ثققلت، ونمت، وتأخرت، وجاء من قطفه قبلك.. انتهى الأجل.

وأعظم ذلك: الشباب الذي جعل الله ﷻ لك فيه كلّ القوّة.. كلّ الإمكانيات.. إذا فات وذهب، انتهى الأجل.

وأعظم الأعظم: العُمُر.. جعل الله ﷻ لنا فيه كلّ الفرصة للشكر وللصبر.. وهو آناء معدودة، ولحظات محدودة.. إذا انتهى العمر.. انتهى الأجل.

وكأن الآية تنبئك أن كثيراً من الناس لا يرغبون في حدوث التغيير نحو الفلاح أو الخسار، أو العمران أو الدمار إلا عند حدوث ظروف معينة يفرضونها لأنفسهم، فليستفيقوا.. فإن الآجال محدّدة عند الله، وقد يجب على كلّ أمة أن تُغيّر من نفسها لتجد نتائج الفلاح، وإلا لم ينفعها طلب التقدم أو التأخر، وفي الآية إنذار شديد لمن يتواكلون ويؤهّمون أنفسهم أنهم

على الله ﷻ يتكلون، فتأتي عوادي الزمان في آجالها المضروبة لها عند الله فتجتاحهم، ويذهب بالمجد خصومهم، كما قال هاشم الرفاعي رحمه الله :

وَمَا فَتَى الزَّمَانَ يَدُورُ حَتَّى
 وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرِّكْبِ قَوْمِي
 وَأَلْمَنِي وَأَلَمَ كُلَّ حَرٍّ
 تَرَى هَلْ يَزِجُعُ الْمَاضِي؟ فَإِنِّي
 ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ قانون مركزي صارم:

هذا القانون المركزي ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يجيبك عن السر الذي عمي عنه الغافلون، فازدادوا
 إثماً لما رأوا أن الله ﷻ لا يعاقبهم على جرائمهم.. بل قاموا يفاخرون بجرائمهم، ويحسبون
 أنهم مهتدون، ويقولون: لو كنا على ضلال لعاقبنا الله ﷻ، وبعضهم يقول: لو كان الله موجوداً
 لعذبنا، وفي هذا القانون الجواب على الملحدين الذين يضلون الشباب، ويتبجحون
 بجرائمهم الباغية، وفواحشهم الفظيعة أمام العالم، فيقولون: إن العادة المستمرة للملوك أنهم
 يعاقبون من يخالفهم، ولا يمهّلون من تتكرّر مخالفته لهم، فلو كان الله موجوداً فلم لا يهلك
 من يخالفه؟ فكيف يجيبهم الله ﷻ عن افتراءهم؟

الجواب:

هذا القانون ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يجيب عن ذلك كله، فالأجل المحدّد لنصرة المظلوم، وقمع
 الظالم ليس بيد المظلوم ولا بيد الظالم، بل قد وقّته الله ﷻ، فالله ﷻ محيط بهم، فسواء عند
 الله بقاءهم وهلاكهم، وإنّما يستعجل الملوك من المخلوقين عقوبة من يخالفهم؛ لأنهم

(١) ديوان هاشم الرفاعي: المجموعة الكاملة، جمع وتحقيق: محمد حسن بريغش، (ص: ٣٨٣، ٣٨٤).

يَخَافُونَ أَنْ يَهْرَبَ مَعَارِضُهُمْ، وَيَخْشَوْنَ أَنْ يَتَضَرَّرُوا بِتَأْخِرِ الْعُقُوبَةِ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِرَبِّنَا ﷻ فَمَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُحْدِثَهُ هَذَا الْمَخْلُوقُ الصَّغِيرُ حَتَّى يَخَافَهُ رَبُّهُ ﷻ، فَيَعَاقِبُهُ مِنْ فَوْرِهِ؟ وَهَلْ هَذَا الْمَخْلُوقُ يَسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ عِظَمَةِ اللَّهِ ﷻ وَقُدْرَتِهِ؟ وَقَدْ قَالَتِ الْجَنُّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، وَيَجِبُ لِلَّهِ ﷻ عِبَادُهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا؟﴾، أَي: أَنْ يَفُوتُونَا، فَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِمْ؟! أَوْ يَهْرَبُوا مِنَّا فَلَا نَصِلُ إِلَيْهِمْ، مِثْلَ الْمَعَارِضَةِ الَّتِي تَهْرَبُ مِنْ دَوْلَةٍ إِلَى دَوْلَةٍ أُخْرَى لِتَحْتَمِيَ بِهَا.. أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِينَ أَنْ يَهْرَبُوا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

فَهَذَا الْقَانُونُ يَخْبِرُنَا أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ، أَيْ لِكُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَقْوَامِ، أَوِ الْحَضَارَاتِ، أَوِ الْأَفْرَادِ، أَوِ الْأَعْمَالِ، أَوِ الْأَزْمَنَةِ، أَوِ الْأَمْكَنَةِ، أَجَلًا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ اسْتِيفَائِهِ، فَالْمَجْرُمُونَ فِي الْأَرْضِ قَدْ وَقَّتَ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ أَجَالًا، وَهُمْ أَقْلُ شَأْنًا مِنْ أَنْ يَسْتَفِزُّوا اللَّهَ ﷻ لِيُنْزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَحَدَّوْنَ فِيهِ رَبَّهُمْ ﷻ.. بَلِ الْأَجَلُ الْمُسَمَّى عِنْدَهُ لَا عِنْدَهُمْ.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وَرُصِدَ أَجَالُ الْأُمَمِ وَالْدُولِ وَالْحَضَارَاتِ:

لَكِنَّكَ تَجِدُ فِي هَذَا الْقَانُونِ مَسْأَلَةَ اجْتِمَاعِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ أُخْرَى تَتَعَلَّقُ بِالْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، فَمَا هَذِهِ

السُّنَّةُ؟

الجواب: إِنَّ هَذَا الْقَانُونُ يَحْدِثُكَ عَنْ أَجَالِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ وَالْجَمَاعَاتِ، أَي: مِنْ بَدَايَةِ وَكِبَرٍ، وَفُتُوَّةٍ، وَقُوَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي الْهَرَمُ، فَإِنْ لَوَقْتُ هَلَاكَهَا أَوْ انْتِصَارَهَا أَمَدًا مُحَدَّدًا يَقُومُ عَلَى جَلِبِهَا لِأَسْبَابِ الْهَلَاكِ أَوْ طَلِبِهَا لِأَسْبَابِ النُّصْرِ، وَبِحَسَبِ طَلِبِهَا يَحُلُّ بِهَا فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ مَا طَلِبْتَ.

وقرر ابنُ خلدونَ رحمته الله أن آجال الأمم وأعمال الدول تتعرض للهَرَم، فإذا حلَّ بها الهَرَم لم يرتفع، وجعل عُمر الدول ثلاثةَ أجيالٍ، أي ۱۲۰ سنة^(۱)، وعند تطبيق ذلك على الواقع تجد عدم الدقة، فقد تهرم الأمة من جيل واحد.. لماذا؟ لأن قيادة هذه الأمة بقيت على رأس سلطاتها، ففسا الفساد المالي والإداري، وبهرم القائد تزداد الأوبئة من حواليه، وهو لا يشعر، ولا يريد أن يشعر إلا أنه لولاه لما كان نصرٌ ولا تقدُّمٌ.. انظر حواليك، ولا تغفل، فهذا الداء الوبيل تجده في الشركات التجارية؛ فإن لم توجد فيها دماء خبرات سابقة تستفيد منها طاقات جديدة، فتجدد حيوتها ونشاطها، فإنها يوشك أن تؤول إلى الخسارة، وفي الجماعات الثقافية والدعوية والاجتماعية، وفي الدول والأنظمة السياسية، فالله تعالى عندما قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(۲) فإنه يحذّرنا من فوات الفرص.

وتكون النتيجة المحتممة تمكّن جيلٍ جيدٍ متربّصٍ من تدمير الواقع السابق، وبناء مجد جديد خاص بالمغامرين الذين رأوا مكانم الخلل، فنفذوا من خلالها، ويقرّر محمد رشيد رضا رحمته الله أن عمر الدولة ثلاثة أيامٍ من أيام الله: طُفُولِيَّةٌ، وَبُلُوغٌ أَشَدُّ وَرُشْدٌ، وَشَيْخُوخَةٌ وَهَرَمٌ^(۳).

ولم يحذّدها بالسنين، وهذا صحيح؛ فإن عوامل الفساد قد تدمرها مبكرًا حين تدخلها في مرحلة الشيخوخة في وقت قصير، وقد تتأخّر عوامل الفساد نتيجة الحزم القيادي، و(الكاريزما) الصارخة، لكن اليد الواحدة المستبدّة يوشك أن تعجز عن متابعة تغيّرات الحياة، فيأتي الهَرَم في عهد جيل واحد؛ نظرًا لشدّة استبداد القيادة بالقيادة.

(۱) ينظر: تاريخ ابن خلدون (۱/ ۲۱۵).

(۲) تفسير المنار (۸/ ۳۶۰).

ويطرح السيد محمد رشيد رضا رحمته الله هنا سؤالاً ملخصه: أسباب هلاك الأمم بالظلم والفساد والإنغماس في حمأة الرذائل والفسق قد بلغ من أُمم أوربة مبلغاً عظيماً، فما بالها تزداد قوة وعزّة وعظمة حتى صارت الأمم المغلوبة على أمرها، ولا سيما المستدلة لها، تعتقد أن تقليدها في مدنيّتها الماديّة وحرّيّة الفسق المطلقة من كل قيد -إلا تعدي الفرد على حرّيّة غيره - هو الذي يجعلها عزيزة سعيدة مثلها؟

الجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً: الظلم والفسق والفساد يدمّر الأفراد والأمم، ولكن جعل الله ﻋﻠﯿﻬﻢ لكلّ منهم كتاباً محدّداً.

ثانياً: تملك هذه الدول كثيرًا من القوى المعنويّة والماديّة التي تقاوم بها سرعة تأثير هذه الأدواء الاجتماعيّة، وأعظم هذه القوى الواقية للأمم: النظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى في نفس الظلم، وفي إخفائه عمّن يضُرّ الظالمين علمهم به ولو من أقوامهم، وإتقان الوسائل والأسباب في إلباس ظلمهم لباس العدل، وجعل باطلهم عين الحق، وإبراز إفسادهم في صورة الإصلاح، وإيجاد أنصار لهم عليه من المظلومين، بل إقناع الكثيرين منهم، بأن سيادتهم عليهم خير لهم من سيادتهم لأنفسهم، وغير ذلك ممّا لا محلّ لشرحه هنا، وما أحسن قول الشاعر المصريّ في تفريقه بين ما كان من الظلم الوطنيّ وما هو كائن من الظلم الأجنبيّ في مضر وأمثالها:

لَقَدْ كَانَ هَذَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهَذَّبْتُ حَوَاشِيهِ حَتَّى صَارَ ظُلْمًا مُنْظَمًا^(١)

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٦١).

ثالثاً: لأنهم نظّموا حياتهم ونظروا إلى الأمور التي تقيمها لهم فأخذوا بذلك كالقوة الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية، وهي من أعظم ما يُبقي الأمم، ولذلك نحن في كلّ خطبة نقول: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ثم نكون أول المخالفين لذلك.

إذا ينبغي أن ننتبه لأجل الشباب، ومتى ينتهي، ولأجل الهرم متى يأتي، فنعدّ للأمر عدته حتى لا نعود في حيز الإفناء، هذا كلام عن الدول، أما الإنسان فإنه يفنى ويؤول إلى ربّه ﷻ، فينبغي أن يقدم أحسن ما عنده قبل أن يقابل ربّه ﷻ. فالمأساة أن الظلم الاجتماعي يزداد عندما يغفل الإنسان عن أجله، وعما يُعدّه لربّه ﷻ، ثم يتحول هذا الظلم لشيء مُقَنَّ ومُشرّع.

رابعاً: لأن ظلمهم الهائل، وفسادهم العريض لم يقابله حقٌّ دامغٌ، بل قابله ظلمٌ أكثر وفسادٌ أعرض عندنا بسبب إفساد الرؤوس الذين يدّمرون كلّ جميل، ويعملون على إحياء كلّ قبيح.

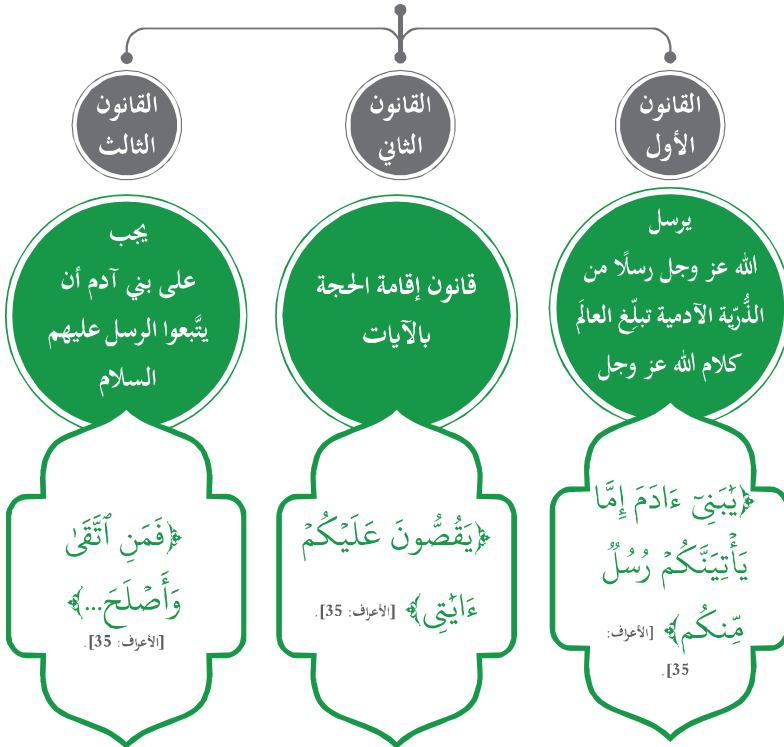
خامساً: الفسق الذي يجتاحهم يقابله تنظيم في العدالة والحقوق، والتداول للحكم فيما بينهم، والحرية النسبية في الانتقاد لمسؤوليهم، وذلك كله يخفف وطأة الفسق، وهناك سبب آخر يضاف، وهو إصرارهم الدائم على اتخاذ عدوٍّ خارجيٍّ يعملون من خلال إيهام الناس به على رصّ صفوفهم، والابتكار في وسائل دفاعهم، وسببٌ ثالث: اتفاقهم النسبي على ضرورة استغلال الأمم الأضعف، وامتصاص خيراتهم، وسببٌ رابع: عدم ظهور البديل الصالح الأكثر عدالةً منهم.. فمن الطبيعي أن يظّلوا الأعلى في واقع الأمم.

الانتقال:

نتنقل إلى قوله تعالى جده: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، ما موقع هذه الآية في هذه السورة؟ أي ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الدعاء الرابع

منهج الحياة في العيش على الأرض يجب أن يكون مصدره الله عز وجل
{الأعراف: ٣٥-٣٦}



تَبَارَكَ الَّذِي مَقْبَلُ الْحَيَاتِي

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

النداء الرابع

منهج الحياة في العيش على الأرض يجب أن يكون مصدره الله ﷻ [الأعراف: ۳۵، ۳۶]

آيات هذا النداء:

﴿يَبْنَى عَادَمَ إِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ۳۵، ۳۶].

المناسبة والاتصال:

ذكرنا بأن هذا القسم تكوّن من أربعة نداءات، تمثل أربعة أبواب دستورية، تشمل كلّ أمور الحياة:

فالنداء الأول: يتعلّق بإنزال الأدوات اللازمة لستر العورات الجسديّة والقلبية، وجمال الحياة الإنسانيّة على الأرض ظاهراً وباطناً ﴿يَبْنَى عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ۲۶]:

إذ أنعم الله ﷻ علينا بأربعة أنواع من الألبسة: اللباس الحسي الذي يضمن ستر العورات والرقى في الحياة: ﴿يَبْنَى عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَتَكُمْ﴾، وكذلك يضمن الترفّه والتلذذ بالآثاث: ﴿وَرِيشًا﴾.

وكذلك أنعم علينا باللباس الحقيقي المعنوي الذي يتكفّل ببناء الحياة النفسية: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ۲۶]، ولباس التقوى الحربية لتقى شر المعارك.

والنداء الثاني: يتعلّق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله: [الأعراف: ۲۷-۳۰] ﴿يَبْنَى عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾، وله تركيز على إظهار السوءات الحسية

وَالْمَعْنُوَّةُ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ نَهْمًا﴾، وله ولقبيله إمكانيات: ﴿إِنَّهُ يَرَلَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، ويقع في فحّه وقبيله من يصبحون أولياء له: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

والنداء الثالث: يتعلّق بالتمتع المشروع بزينة الحياة الدّنيا بالقسط، فهي مقدّمة للتمتع الحقيقيّ الماديّ والمعنويّ يوم القيامة [الأعراف: ٣١-٣٦] ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

وإذا كانت النداءات السّابقة تتعلّق بالتمتع بالحياة في الأرض إلى انتهاء الحين المُسمّى عند الله ﷻ، فإن النداء الرابع: يتعلّق بتربية البشريّة على التقوى والإصلاح، ولا يمكن ذلك أن يتحقّق على وجهه الحقّ إلا باتباع آيات الله ﷻ التي أُرسل بها الأنبياء ﷺ، فهي مفتاح السعادة في المصير الآخرى:

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦]، وهي مع ذلك ضميمة الآية وقرينتها في مطلع السورة معنّى ومقصدا: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ما الذي نلاحظه في العلاقات بين هذه النداءات الأربعة؟

الجواب:

الملاحظة الأولى: أن هذه النداءات تدرّجت في منح الإنسان أهمّ ما يحتاج إليه حسب الأولوية، فالنداء الأول ابتداء بما يحتاج إليه فور نزوله، وهي الملابس: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَعَمُّكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا الْقَفْوَى...﴾ [الأعراف: ٢٦]، والنداء الثاني أخبره عن

عدوه الذي نزل معه إلى الأرض: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، والنداء الثالث أخبره عن الوسائل التي تعينه على التمتع في الحياة بالقسط: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، ثم أخبرته بالمنهاج الذي سيسير عليه في حياته: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ اِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمَنْ اَتَقٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

الملاحظة الثانية: المزوجة بين الروح والجسم في رسم صورة متكاملة متوازنة منسجمة لبني آدم، فقد حدثتنا النداءات عن تنظيم التمتع المتعلق بالدنيا في النداءات الثلاثة الأولى، وفي الرابع حَدَّثْنَا عن الأمور الدينية، وهذا يُبَصِّرُك أن القرآن لا يمكن أن يفصل عن واقع الحياة، وأن الإسلام ليس أذكاءً، ولا استغفاراً فحسب، بل هو نظام شامل يكفل التمتع في الدنيا، والإعداد للآخرة، كما قال د. حسان تحتوت ﷺ:

حَسِبُوا بِأَنَّ الدِّينَ عَزَلُهُ رَاهِبٌ	وَاسْتَمَرُّوْا الْاُورَادَ وَالْاَذْكَارَا
عَجَبًا اَرَاهُمْ يُوْمِنُوْنَ بَبَعْضِهِ	وَأَرَى الْقُلُوبَ بَبَعْضِهِ كُفَّارَا
وَالدِّينُ كَانَ وَلَا يَزَالُ فَرَاثُصَا	وَنَوَافِلًا لِلّٰهِ وَاسْتَغْفَارَا
وَالدِّينُ مُصْبَاحٌ حَمَلْنَا نُورَهُ	لِنُبَيِّنَ مَا بَيْنَ الدُّجَى اَنْوَارَا
وَالدِّينُ مَيْدَانٌ وَصَمَصَامٌ وَفُرُ	سَانٌ تُبِيدُ الشَّرَّ وَالْاَشْرَارَا
وَالدِّينُ حُكْمٌ بِاسْمِ رَبِّكَ قَائِمٌ	بِالْعَدْلِ لَا جَوْرًا وَلَا اسْتِهْتَارَا
ذَاكَ الْهُدَى يَا مَنْ يُسَائِلُ مَا الْهُدَى	فَبِأَيِّ آلَاءِ الْهُدَى تَتَمَارَى؟ ^(١)

(١) مجلة المسلمون (١٩٩/٣).

هكذا استوعبت هذه النداءات الأربعة كلَّ معالم الحياة على الأرض في زمن الحياة الدُّنيا، وبيَّنت للذُّرِّيَّةِ الْآدَمِيَّةِ كيف يعبدون ربَّهم ﷻ ويستمتعون بحياتهم، وكيف يُعَدُّون أنفسهم للمصير الآخرى القادم.

فجاء النداء الرابع في موقعه ليتَّمم النداءات الثلاثة، وليبيِّن قوانين إلهية جديدة ينبغي أن تتبنَّه لها الذرية الْآدَمِيَّة، فالله ﷻ قال في النداء الثالث: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ۝﴾ [الأعراف: ٣١].

فربما ظنوا أنه لا يجب عليهم شيء، وأنهم فقط ينبغي أن يتلذذوا بهذه الحياة، هنا أخبرهم الله تعالى بأنه سيرسل إليهم رسلاً يَقْصُونَ عليهم ما أمرهم به، فيجب أن يكون نظاماً لهم. وعندما تأتي للآية قبلها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝﴾، وهنا قال: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، وهذا النداء متعلق بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۝﴾ أي: ومن الآجال مجيء الرسول ﷺ، فبعد عيسى عليه السلام بقي الناس نحو ستمائة سنة ما جاءهم رسول، وبعد أن بيَّن الله ﷻ تخبطَ النُّظُمِ الجاهلية في التحليل والتحريم، وأخبر كيف وقعوا في فتنة الشيطان الذي هدف إلى تعرية الذرية الْآدَمِيَّة، وأنهم نسبوا ذلك إلى الله ﷻ، كان لا بد من أن يخبرنا الله ﷻ أنه سيرسل للناس رسلاً يبينوا لهم الأنظمة التي ينبغي أن يسيروا عليها، ويقوموا بها ليجمعوا بين سعادة الدُّنيا وسعادة الآخرة، وليستطيعوا الجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع، وأظهر الله ﷻ لنا هنا المنهج الصحيح لمعرفة المصدر الذي نتلقى منه التشريعات الإسلامية.. إنه مصدر الرسل الذين لا بد أن يكونوا من البشر لذلك قال الله ﷻ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۝﴾، وهنا جاءت هاتان الآيتان في موضعهما.



ذكر الله ﷻ في هاتين الآيتين عدّة قوانين، فقد تسأل: ما القانون الكوني الذي يرشدنا إليه قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ اِمَامًا يَّاتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِيْ ۖ﴾؟ ما الهدايات التي تُبَصِّرنا بها هذه الآية؟

الجواب: تضمّنت هاتان الآيتان ثلاثة قوانين، وهي:

القانون الأول: يرسل الله ﷻ رسلاً من الذرية الأدمية تبلغ العالم كلام الله ﷻ، فالله يصل بني آدم بإرسال الرسل، ولا يمكن أن يتركهم سدى:

فلن تأتي رسل من الملائكة أو من الجن حتى لا يلتبس الأمر، ولا يشتبه الحال، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ اِمَامًا يَّاتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ ۖ﴾.

﴿اِمَامًا يَّاتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿اِمَامًا﴾: هي (إن) شرطية، ضمت إليها (ما) مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمّت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة^(١)، فأصلها: (إنّ ما)، فالشرط أن يأتيكم رسل يحدّدون لكم ما الذي يجوز لكم، وما الذي يحرم عليكم، أي: لا بدّ لكم من رسل ينظّمون لكم حياتكم: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ اِمَامًا يَّاتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِيْ ۖ﴾، ولكن ما جنس هؤلاء الرسل؟

كلمة ﴿مِّنْكُمْ﴾: تبصّرنا أنهم من جنسكم البشري، ومن أنفسكم، ومن عشائركم وقبائلكم التي تعرفونها حتى لا تقولوا: جاءنا رسول ما ندري من أين أتى، فكيف يمكن أن نصدقه؟ ففيه ردٌّ على جهتين:

الجهة الأولى: الذين استنكروا أن يكون الرسول بشراً، مثل قوم نوح عليه السلام، إذ قالوا: ﴿مَا نَرْنَكَ اِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ومثل المشركين من أهل مكة؛ إذ كذبوا رسالة محمد ﷺ.

(١) ينظر: الكشاف، (١٠٢/٢)، تفسير الرازي، (٥٧/١٤).



بِأَنَّهُ بَشَرٌ قَالِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وقد تسأل: ما الأهداف العظيمة لكون الرسول من البشر؟

الجواب:

الهدف الأول: أننا نراه، فلا يمكن أن يلتبس علينا، بخلاف ما إذا كان ملكًا، أو من الجن.

الهدف الثاني: أننا يمكن أن نفتدي به، فلو كان من الملائكة أو من الجن، أو من أي جنس آخر لاعتذر البشر بأنهم لا يستطيعون الاقتداء به لاختلاف الجنس.

الهدف الثالث: أننا نستطيع أن نراجع ونكلمه.

الهدف الرابع: أن نأمن من أن يحدث تزوير لرسالته.

فيخبر الله ﷻ بني آدم بأن الرسول سيكون من الذرية الآدمية، فلا تتصوروا أن يأتيكم ملك ينذركم؛ والآية تطمئن البشر بأن الشياطين لن يتمكنوا من التمثل على صورة رسول.

فأمّا أن الرسل لن تكون ملائكة فلأن الله ﷻ قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فيحتمل أن يشك الناس في الملك، فيتوهموا أنه شيطان، فكيف يميزون أنه ملك، فيلتبس عليهم الأمر، ولأنهم إذا فتنوا بالبشر الصالحين فكيف تكون فتنهم بالملائكة؟! ستكون فتنهم أعظم، فلذلك اقتضت الحكمة أن يكون الرسول من البشر، ولأن البشر لن يستقيموا على شرعة الله إذا كان الرسول ملكًا، وسيقولون: كيف نفتدي به؟

وَأَمَّا أَنْ الْجَنِيِّ لَا يَتِمَكَّنْ مِنْ أَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ الْإِنْسِيِّ النَّبِيِّ، فَقَدْ أَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ فَقَالَ: «لَا يَتِمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»^(۱).

وربما تتساءل: لماذا لا يتمثل الشيطان بالنبي ﷺ؟

الجواب: حتى لا يلتبس الوحي على البشرية، وبالقياص على ذلك لا يتمثل الشيطان بالصالحاء والكبراء حتى لا تختلط الأمور على الناس فلم يَرِدْ أَنْ شَيْطَانًا تَمَثَّلَ بِأَبِي بَكْرٍ، أَوْ بِعُمَرَ، أَوْ عُثْمَانَ، أَوْ عَلِيٍّ ﷺ، وَحَاوَلَ أَنْ يُغْوِيَ النَّاسَ، وَحَتَّى عِنْدَمَا يَتِمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ فَإِنْ ذَلِكَ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُودِ الْمُؤَقَّتِ وَلَيْسَ الْمُسْتَمَرِّ؛ وَيَتِمَثَّلُ بِمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ، كَمَا حَدَثَ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ حِينَ تَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ بِرَجُلٍ يَسْرِقُ الطَّعَامَ، لَكِنْ هَذَا التَّمَثُّلُ مُحَدُودٌ فِي زَمْنِهِ، وَمُحَدُودٌ فِي شَخْصِهِ.

على أنك ترى ضرورة أن ينتمي الرسول للذرية الأدمية حتى يمكنهم الاقتداء به.

الجهة الثانية: الردُّ على من استنكر أن يكون الرسول محمدًا ﷺ؛ فإن الرسول جاء من أنفسهم، فصارت معرفتهم به حجة عليهم لمعرفة السَّابِقَةِ بِأَحْوَالِهِ وَبِطَهَارَتِهِ، وَكَوْنَهُ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ يَمَلَأُ قُلُوبَهُمْ بِالْأَلْفَةِ وَسُكُونِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ جَنْسِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَا يَكُونُ مِنَ الْجِنْسِ، فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْأَلْفَةُ^(۲)، فَلَنْ يَكُونَ بِهِ جِنَّةٌ، وَلَا سِحْرٌ، وَلَا هُوَ شَاعِرٌ، وَلَا هُوَ كَاتِبٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِمَّا أَعْجَزَهُمْ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَلَقَدْ اسْتَدَلَّتْ الْمُؤَفَّقَةُ خَدِيجَةُ ﷺ بِذَلِكَ عَلَى اسْتِحَالَةِ أَنْ يُتَّهَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَيِّ صِفَةٍ مِمَّا سَبَقَ، فَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ:

(۱) مسلم (۲۲۶۶).

(۲) ينظر: تفسير الرازي (۱۴ / ۲۳۵).



فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادَهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﷺ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي». فَقَالَتْ خَدِيجَةُ ﷺ: «كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الصَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(١).

وفي رواية: قال النبي ﷺ لخديجة ﷺ: «إِنِّي أَرَى ضَوْءًا، وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنٌّ». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله». ثم أتت ورقة بن نوفل، فذكرت ذلك له، فقال: «إن يك صادقًا، فإن هذا ناموسٌ مثل ناموس موسى ﷺ، فإن بُعِثَ وأنا حيٌّ فسأعزِّزه، وأنصره، وأؤمن به»^(٢)، وقد نسبوا إلى ورقة أشعارًا شائقة في ذلك مثل قوله:

وَفِي الصَّدْرِ مِنْ إِضْمَارِكَ الْحُزْنَ قَادِحُ	أَتُبَكِّرُ أَمْ أَنْتَ الْعَشِيَّةَ رَائِحُ
كَأَنَّكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نَازِحُ	لِفُرْقَةٍ قَوْمٍ لَا أَحِبُّ فِرَاقَهُمْ
يُخَبِّرُهَا عَنْهُ إِذَا غَابَ نَاصِحُ	وَأَخْبَارِ صِدْقٍ خَبَرْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ
بِغَوْرٍ وَبِالنَّجْدَيْنِ حَيْثُ الصَّحَاحُ	فَتَاكِ الَّذِي وَجَّهَتْ يَا خَيْرَ حُرَّةٍ
وَهُنَّ مِنَ الْأَحْمَالِ قُعُصُ دَوَالِحُ	إِلَى سُوقِ بُضْرَى فِي الرِّكَابِ الَّتِي عَدْتُ
وَلِلْحَقِّ أَبْوَابٌ لَهُنَّ مَفَاتِحُ	فَخَبَّرْنَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ بِعِلْمِهِ
إِلَى كُلِّ مَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ	بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسَلُ
كَمَا أُرْسِلَ الْعَبْدَانِ هُوْدُ وَصَالِحُ	وَوُظِّنِي بِهِ أَنْ سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا

(١) البخاري (٣).

(٢) أحمد (٢٨٤٦)، وقال الأرنؤوط: «إسناده على شرط مسلم، إلا أنه اختلف في وصله وإرساله».

وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ حَتَّى يُرَى لَهُ
وقال أيضًا:

لَجِجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِ لَجُوجًا
وَوَصَفٍ مِنْ خَدِيجَةٍ بَعْدَ وَصَفٍ
بِبَطْنِ الْمَكَّتَيْنِ عَلَى رَجَائِي
بِمَا خَبَرْتَنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّ
بِأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَسُودُ فِينَا
وَيُظْهِرَ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ حَسَارًا
لَهُمْ طَالَمَا بَعَثَ الشَّيْخَا
فقد طال انتظاري يا خديجا
حديثك أن أرى منه خروجا
من الرهبان أكره أن يعوجا
ويخصم من يكون له حجيحا
يقيم به البرية أن تموجا
ويلقى من يسألهم فلوجا^(١)

وربما تلاحظ أن الله ﷻ جمع الرسل ﷺ؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ﴾، فلماذا جمع الله ﷻ الرسل ﷺ مع أن المشهور أن كل قوم يأتيهم رسول واحد غالبًا؟

الجواب:

لأن الله ﷻ يطمئن بني آدم أن الرسل سيكثر، فلكل قوم هاد، فالجمع باعتبار مجموع بني آدم، ولأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل ﷺ، فإن رسالتهم لا تتجزأ، وكلهم جاء من عند الله جلّ ذكره، وتلحظ فيه معنى آخر هو التعظيم للرسول الواحد بجعله مكان الرسل ﷺ، وقد جاء ذلك في مواضع متعددة لتأكيد هذين المعنيين، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوِّجَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧] أي كذبوا رسوله نوحًا عليه السلام.

(١) سيرة ابن إسحاق (ص: ١١٥) وسيرة ابن هشام (١/ ١٩١).



وهنا ستسأل: ما معنى ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِيَّتِي﴾؟ ولماذا جاءت كلمة ﴿يَقْضُونَ﴾ هنا وفي سورة الأنعام، دون كلمة ﴿يَتْلُونَ﴾ التي جاءت في سورة الزمر؟
الجواب: هنا يأتي:

القانون الثاني: قانون إقامة الحجة بالآيات:

مهمة الرسل ﷺ الذين يرسلهم الله ﷻ إلى بني آدم أن يَقْضُوا آياته، فيبينوها كأنهم يتتبعون أثرها لينقذوا العالم من الشقاء الذي تدفعهم إليه اختياراتهم ورغباتهم، ويدفعهم إليه إبليس وقبيله، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِيَّتِي﴾ (٣٥):
فقوله: ﴿يَقْضُونَ﴾: كلمة مشتقة من القَصِّ، وهي تدلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ تَتَبُّعًا مُحْكَمًا في كُلِّ جزء من أثره لتستبين حقيقته، أو ليدلَّ على واقعه، أو مكانه، ومن ذلك قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، أي يَتَتَبَّعَانِ الأثر الذي بقي في الطريق الذي سارا عليه سابقًا ليصلا إلى المكان الذي فَقَدَا فيه الحوت، وسُمِّيَ الْخَبْرُ الطَّوِيلُ قِصَصًا؛ لِأَنَّهُ بَعْضُهُ يَتَّبِعُ بَعْضًا حَتَّى يَطُولَ، وَإِذَا اسْتَطَالَ السَّامِعُ الْحَدِيثَ قَالَ: هَذَا قِصَصٌ^(١)، فيكون معنى: ﴿يَقْضُونَ﴾: أي يَتَتَبَّعُونَ كُلَّ الْأَوْجِهَةِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُظْهِرُ الْآيَاتِ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ ﷻ بَيَانَهَا لِلْعَالَمِ، فَيَتْلُونَهَا، وَيَبَيِّنُونَ مَعَانِيَهَا، وَيُطَبِّقُونَهَا، وَيَحْكُمُونَ بِهَا الْوَاقِعَ، فَكَلِمَةُ ﴿يَقْضُونَ﴾ أَقْوَى مِنْ كَلِمَةِ ﴿يَتْلُونَ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ تَبْلِيغَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﷻ عَلَى أَبْلَغِ الْوَجْهِ، أَمَا فِي سُورَةِ الزَّمْرِ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

(١) الفروق اللغوية، العسكري، (ص: ٤٢).

لأن خزنة جهنم يسألون أهل النار عن أدنى درجات التبليغ، وهو سماع الآيات عندما تلاها عليهم الرسل ﷺ، أما هنا في سورة الأعراف فإن الله ﷻ يبين لبني آدم أن الرسل ﷺ لا يقتصرون على أدنى درجات التبليغ، وهو التلاوة وإنما يبلغون الآيات على أكمل الوجوه والتفاصيل، والتعبير المناسب لذلك ﴿يَقْضُونَ﴾.

بصيرة: عبّر الله ﷻ هنا بكلمة ﴿يَقْضُونَ﴾ دون ﴿يَتْلُونَ﴾؛ لأن مقام سورة الأعراف يقتضي تبليغ رسالات الله ﷻ على أبلغ الوجوه لإقامة الحجة عليهم، أما في سورة الزمر فخزنة جهنم يسألون أهل النار عن أدنى درجات التبليغ، وهو سماع الآيات من الرسل ﷺ.

أنواع الآيات في القرآن الكريم:

ولكنك ربما تسأل أيضًا في قوله: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِيَّتِي﴾ ﴿٥٩﴾ ما معنى الآيات؟

الجواب: آيات^(١) جمع آية، وتعني العلامة، وهي ثلاثة أنواع في القرآن:

النوع الأول: المعجزات المادّية الخارقة للعادة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَائَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

النوع الثاني: مكنونات الكون التي تمثل علامات واضحة على مكوّناتها وهو الله ﷻ:

فهي المخلوقات التي بُثت في الكون مُدَبَّرَةً بقوة عظيمة مدهشة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ وَمِنْ عَائِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٦٨)، مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٦١)، تاج العروس (٣٧/ ١٢٢)، التحرير والتنوير (١/ ٤٦٣).

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾
[الروم: ٢٠، ٢١].

ووجه كونها آيات: أنها علامات تدلُّ على صانع لها، موجد لقوانينها، ولا يستطيع أحد من المخلوقات أن يدَّعي أنه صانعها، فهي علامات على صانعها الذي أتقن كلَّ شيء، وهي علامات على حياة الله ﷻ، وقيوميته، وتوحيده في الإلهية.

النوع الثالث: كلمات الله ﷻ التي هي آيات القرآن المجيد:

فآيات هي كلمات الوحي الإلهي الخاصّة، ومن الوحي الإلهي: القرآن الكريم، فالآية منها هي الجملة المفصولة المتكونة من مجموعة كلمات بشكل خاصّ ولو تقديرًا كما قال - تعالى جَدَهُ-: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ عَآيَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

سبب تسمية كلمات القرآن الكريم بالآيات:

فإن قلت: لماذا سمَّى الله ﷻ كلماته المنزلة في القرآن الكريم آيات؟

الجواب:

أولاً: لأنها علامات بارزة تدلُّ على صدق النبي ﷺ، وعلى مراد الله ﷻ في تنظيم الحياة البشرية:

فالآية: العلامة الظاهرة، والأمانة الواضحة، كما قال النَّابِغَةُ:

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَغْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعٌ^(١)

وثانياً: لأنها ترتقي من كونها علامة إلى كونها حجة عقلية على صدق النبي ﷺ:

فقد قال الحارث بن حِزْرَةَ:

(١) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٣٠).

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا ت ثلاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ^(١)
 أي: حُجَج، وبين الله ﷻ أن آيات القرآن المجيد حججٌ كافية، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فسَمَّى الله ﷻ كلامه في القرآن المجيد آياتٍ؛ لأنها علاماتٌ حقيقيةٌ على رسالة الرسول
 ﷺ، وهي التي تصلح البلاد، وتسعد بها الأرواح والأجساد، ولا يمكن لبشرٍ أن يأتي بنظام
 يساويها يُصلح الروح والجسد، ويوازن بين احتياجات الكون والحياة، وهي حجة على
 الناس عند سماعها، وقد جاءت هذه الآيات على نَظْمٍ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ تَأْلِيفِ مِثْلِهِ لَفْظًا.

وثالثًا: لأن الآياتِ عِبَرٌ تذكّر الأفراد والأمم بالهدى الذي ينبغي أن يتبعوه قبل أن يقعوا فيما
 يدمّر حياتهم:

فالآية العبرة التي يَعْبُرُ بها فكر الإنسان من المشاهد إلى المغيّب، ومن المعروف في العقل
 إلى المجهول، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِيلِينَ﴾ [يوسف: ٧] أي:
 أُمُورٌ وَعِبَرٌ مُخْتَلِفَةٌ.

والمقصود بالآيات في قول ربِّنا ﷻ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ ءَايَاتِي﴾ ﷻ هي كلمات الله ﷻ التي
 أنزلها على رسله ﷺ، ليتلوها على أقوامهم، ويدخل في الآيات: المعجزات التي أيدهم بها
 لتظهر حجتهم أنهم رُسل، وكذلك الآيات التي في الكون لتبين مجد الذي خلقها، وبذلك
 يعلم الناس القصة الحقيقية للوجود، فمعنى ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ ءَايَاتِي﴾ ﷻ أي يتلون عليكم
 الكلمات التي أنزلتها، ويخبرونكم بالآيات التي حوالىكم الماثلة في الأنفس والآفاق.

(١) شرح المعلقات التسع ويليها معلقة الحارث الشكري (ص: ٣٥٨).

فإن قلت: فهنا القانونين الأول والثاني اللذين بَصَّرْنَا بهما الآية، وهما: أن الرسل بشر يتمون إلى بني آدم، ومهمتهم أن يقصوا الآيات على العالم، فما القانون الذي يبصِّرنا به قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟

الجواب: هذا قانون جديد يبين ما الذي يترتب على موقف الناس من الآيات:

القانون الثالث: يجب على بني آدم أن يتبعوا الرسل ﷺ:

وأتباع الرسل ﷺ يعني الجمع بين تقوى الله ﷻ، وإصلاح الحياة: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾، وهنا يتحقَّق للمتقي المصلح المصير المستقبلي المشرق: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وأما المكذب المستكبر فينتظره المستقبل المظلم، الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: تكون ﴿إِنَّمَا﴾ من (إن) الشرطية ضُمَّت إليها (مَا) مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمَت فعلُها النونُ الثقيلة أو الخفيفة، وفعل الشرط: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾.

فإن قلت: ما جزاء هذا الشرط؟ ماذا يحدث بعد الإتيان والقص؟

هنا يأتي الجواب: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾:

فالفاء وما بعده هو جواب الشرط، وهو أيضًا مُكوِّن من شرط وجواب، ففي البداية قال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ ماذا سيحدث إذا أتى هؤلاء الرسل وقصوا الآيات؟

سينقسم الناس إلى صنفين:

الصنف الأول: يؤمنون بهم، ويتبعونهم.

والصنف الثاني: يكفرون بهم ويستكبرون عن اتباعهم.

فبدأ بالصنف الأول، فقال عنه: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾، ولكننا نعلم أن هذا الصنف قبل أن يتقي لا بد أن يؤمن بالرسول وأن يتبعهم، فالفاء تُسمَّى الفاء الفصيحة التي تُفصح عن كلام محذوف، أي: فمن آمن بهم واتبعهم، واتقى، وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، وجملة: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ جواب الشرط وبينها وبين جملة: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ محذوف وتقدير الآية: إما يأتينكم رسل منكم، وقصوا عليكم آياتي، فينبغي أن تتبعوهم، ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، فالفاء في قوله: ﴿فَمَنْ﴾ للتفريع، والتقدير:

فستفزعون إلى صنفين: صنف يتبع فيتقي ويصلح، وصنف يكذب ويستكبر:

الصنف الأول: المتبع المتقي المصلح:

اتباع الرسل يعني أن تحققوا صفتين عظيمتين في حياتكم يشير الله ﷻ إليهما في قوله: ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾:

الصفة الأولى: التقوى:

والتقوى مشتقة من وقى^(١)، وهي كلمة تدلُّ على الحفظ والحماية والصيانة بدفع المكروهات، والحماية من المخافات، فهي تعني: تكوين الوقاية الحقيقية والحماية الصادقة للنفس وللإنسانية بترك كل ما يسبب الضرر من الجرائم والصفات الخسيسة

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٣١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٠)، تاج العروس (٤٠/ ٢٢٦)، مفردات القرآن للفراهي (ص: ٢٥٤).

والرذائل، ولا يتم ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصفات الكريمة النفيسة والفضائل.

بصيرة: التقوى تُوجد الإنسان الصالح الذي يملأ حياته بنور الله ﷻ، ويحمي نفسه من نقاط الضعف الكامنة، والأخطار المستقبلية.

ولكن الله ﷻ بيّن أن التقوى لا تكفي، بل لا بد من صفة إضافية للتقوى، وهي التي عبّر عنها بقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، فما معناها؟

الصفة الثانية: الإصلاح:

وهذا يعني إصلاح الآخرين، وإصلاح الأرض التي يعيش فيها الناس، وإعمار الحياة. فليس المتقي هو الذي يعتزل الناس، ويدع الحياة من أن يُصلحها، بل لا بد أن يجمع إلى التقوى الإصلاح، وهاهنا يحدث له الابتلاء الشديد، ففرق كبير بين أن يكون المرء متقياً أي صالحاً في نفسه، وبين أن يكون متقياً مصلحاً لغيره، فهو يجمع بذلك بين الصلاح والإصلاح، والنبي ﷺ كان صالحاً قبل البعثة، فلم ينكر عليه الناس، ولم يؤذوه، بل كانوا يمدحونه، فأرسله الله ﷻ ليكون مصلحاً، وهنا انبعث شياطين الجن والإنس يؤذونه ما استطاعوا.

فما جزاء المتقي المصلح؟ بيّن الله ﷻ جزاءه، فقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: لا خوف عليهم في المستقبل، ولا هم يحزنون على الماضي.. ما أجمل الآيات حين تحدثك عن نفسك وعن الناس، فإن الجزاء هنا يحدثك عن أن الخوف في المستقبل الحقيقي لا يمكن أن يأتيك، والمستقبل الحقيقي إنما هو في الآخرة، وكذلك فإن الحزن لا يمكن أن يعتربك على الماضي، ولماذا ذكر الله ﷻ الحزن على الماضي؟

لأن بعض الناس يقولون لك: لماذا تضيع حياتك في الدنيا بعناء التقوى والإصلاح؟ لماذا لا تستمتع بحياتك وتترك الناس؟

فبيّن الله ﷻ لك أن الخمسين عاماً أو السبعين عاماً أو المائة عام التي ربما تقضيها في الدنيا لا يمكن أن تحزن على ما فاتك فيها؛ وإن عانيت فيها من تبعات التقوى والإصلاح؛ وسبب عدم حزنك أنك ستجدها لا شيء مقارنة بالنعيم الذي ينتظرك. اللهم أذكنا منه أوفر الحظ والنصيب يا قريب يا مجيب.

الخوف والحزن معولان يدمران البنية الداخليّة النَّفْسِيَّة للإنسان، ويطران المصاب بهما بالشلل الذي يقعه عن الحركة والتحصيل.

ونفي الخوف والحزن عن تلك القوائم التي سجّلها القرآن الكريم في مواضع عديدة يفيد بإمدادات الطاقة التي تغذي الحالة النَّفْسِيَّة الداخليّة، وتمنحها الاستقرار، فينعكس العطاء على أدائها وإنتاجها، فصد الخوف: الأمان، وضد الحزن: السعادة، وهما عنصران مهمان في إعمار البيئة الداخلية للإنسان، فبأمانه وسعادته لا تتوقف إمدادات الحياة ونتائجها، بل وتشهد الحياة تلك الانعكاسات النَّفْسِيَّة الداخليّة على سلوك الخارج. إذ يرى (ول ديورانت) في موسوعة "قصة الحضارة" أن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها^(١).

وكان من قول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] لما كان سيسببه الحزن لهم من إعاقة تمنعهم الوصول.

(١) قصة الحضارة (ص: ٣).



فهذا الصنف الأول الذي يتبع الرسل، فيتقي ويصلح، فما المعنى الكلِّي للصنف الثاني الذي ذكره الله ﷻ في قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؟

الصنف الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ذكر لهم صفتين مقابل الصفتين اللتين ذكرهما للصنف الأول:

الصفة الأولى: التكذيب بآيات الله ﷻ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

والتكذيب هنا نسبة الكذب إلى الرسل، أي الذين كَذَّبُوا بآيات الله التي أنزلها وحياً من عنده، وكَذَّبُوا بالمعجزات التي جاء بها الأنبياء ﷺ، وكَذَّبُوا بالآيات التي حولهم مثل آيات الآفاق والأنفس.

والفعل ﴿كَذَّبَ﴾ يتعدى بنفسه كما قال ربُّنا ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء ١٠٥]، وقد يتعدى بالباء كما هنا، فالعادة أن يقال: كَذَّبَ الآيات لكنه هنا قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

ويظهر لي أن الباء هنا للاستعانة، أي جعلوا الآيات بمنزلة الآلة التي استعانوا بها على إثبات الكذب للرسل، فالأصل أن الآيات لإثبات صدق الرسل، فإذا بهؤلاء الأشقياء المحرِّفين جعلوا الآيات أداة لإثبات أن الرسل تكذب، فلم يكتفوا بتكذيب الرسل، بل جعلوا برهان الرسل برهاناً عليهم، ودليلاً ضدهم، وبدلاً من أن يتخذوا الآيات طريقاً ليعرفوا ربَّهم ﷻ اتخذوها طريقاً لتحججهم عن ربَّهم ﷻ بتزييف المعلومات المتعلقة بها، فأثاروا الأكاذيب حول القرآن، ونقلوا الأكاذيب حول آيات الله ﷻ الكونية في الآفاق والأنفس، وبدلاً من أن



يستدلُّوا بها على الله ﷻ استدلُّوا بها على أنه لا يوجد خالق للكون، ومنهم الملحدون المعاصرون الذين يزعمون أن هذا الخلق العظيم دليل على عدم وجود خالق!

تصوِّر هذه الكذبة الكبرى، هؤلاء لا تدري هل عندهم عقول أم لا، لأنهم يُقرُّون بأن (الهاتف) وهو جهاز صغير أمامهم لا بد أن تصنعه شركة أو صانع، وأي جهاز مهما صغر حتى الإبرة لا بد أن يكون لها صانع، ثم هم أنفسهم يأبون أن يجعلوا لأنفسهم صانعاً! تصوِّر مقدار التكذيب بالآيات، بل إنه يجعل الآية الواضحة مثل جسده الذي يتحرَّك به آية على عدم وجود الله ﷻ.. فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟

والحقيقة أنهم يفقهون في هذا الموضوع، ولكنهم يستكبرون.

وهكذا ندرك جمال التعبير بالباء في قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فلم يقل: كَذَّبُوا آيَاتَنَا.

الصفة الثانية: الاستكبار والإعراض عن الآيات: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾:

أي طلبوا أن يكونوا أكبر من أن يؤمنوا بالآيات حال كونهم مترفعين عن قبول الحق.

والآن انظر في الصفتين اللَّتَيْنِ جعلهما الله ﷻ لكلٍّ من الصنفين:

الصنف الأول: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

الصنف الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٣٦].

فماذا ترى؟

لا يوجد تقابل مباشر بين الصِّفَات الأربع، فالمتوقع أن يقال: فمن اتقى وأصلح، ومن فسق وفسد، أو فمن آمن بالآيات، وخضع لها، ومن كذب بالآيات واستكبر عنها، لكن الصِّفَات جاءت غير متقابلة تحقيقاً لمبدأ بلاغي جميل وهو الاحتباك، وبذلك يكون التقدير الصنف الأول أربع صفات أي: فمن آمن بالآيات وخضع لها، فاتقى وأصلح، ويكون التقدير في الصنف الثاني أربع صفات: والذين كذبوا بآياتنا، واستكبروا عنها، ففسقوا، وأفسدوا.

وما نتیجة الصنف الثاني؟

النتيجة: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (۳۶).

فكلمة ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وهذه الجملة خبرها، أي مصير الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أن يكونوا أصحاب النار، والصحبة تقتضي الملازمة للمكان، والخلود يقتضي الديمومة في الزمان وعدم المفارقة.. نعوذ بالله من النار وأصحابها، وحالهم، ومصيرهم.

وهنا ترى احتباكًا ثانيًا:

فالصنف الأول قال الله ﷻ عن مصيره: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (۳۶)، ولم يقل: أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

والصنف الثاني قال الله ﷻ عن مصيره: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (۳۶)، ولم يقل: أولئك يخافون ويحزنون، وذلك لتجمع أنت في فهمك للآيات، فيكون التقدير: فمن اتقى وأصلح أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ومن كذب واستكبر أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون خائفين حزانى.

المرحلة الرابعة

العودة الحتمية في المستقبل الأخروي القادم، حيث تعاین الذرية الآدمية

نتائج أعمالها في الحياة الدنيا، وتنقسم إلى فريقين [الأعراف: ۳۷-۴۳]

آيات هذه المرحلة:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُم نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِلْتُمْ لَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِلْتُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ۳۷-۴۳].

نتقل هنا إلى قسم جديد يبدأ من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ...﴾ [الأعراف: ۳۷].

فما المناسبة والاتصال بين هذا القسم وما قبله؟

المناسبة والاتصال:

ما زلنا في المحور الأول من محاور هذه السورة، وهو المحور الذي عرض قصة بدء الإنسانية، وحياتها على الأرض، وإعمارها لها، ونهايتها، وقد سبقت ثلاث مراحل زمنية مرتبة من مراحل هذا المحور، وهي:

المرحلة الأولى: وتتعلق ببداية التاريخ الإنساني بالتكريم والتمكين الإلهي، وإعلان العداوة الشيطانية وامتدت في الآيات [الأعراف ١٠-١٨].

يرسم لك التصوير القرآني في هذه المرحلة ما قبل بداية التاريخ الإنساني، ثم يذكر الله بداية الانطلاقة الإنسانية الكبرى في الحياة بخلق آدم عليه السلام، وإسجاد الملائكة له واختيار إبليس لمعاداته.

والمرحلة الثانية من هذا المحور: تجربة آدم وزوجه عليهما السلام للعيش في الجنة: حيث تحدثنا هذه المرحلة عما بعد المرحلة الأولى في التاريخ الإنساني، إذ أخبرنا الله تعالى عن تجربة آدم وزوجه عليهما السلام في الجنة قبل النزول إلى الأرض، وفي هذه المرحلة تصوّر لنا الآيات النجاح الإبليسي الأول في اختراق البشرية بإغرائهم بترك ما أنزل إليهم من ربهم تعالى، كما يحدّد لك هذا القسّم السبيل الوحيد للتحرر من هذا النجاح الشيطاني، وامتدت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف ١٩-٢٥].

ولما انتهت هاتان المرحلتان من التاريخ الإنساني حدث الانتقال في تكامل منطقي رائع إلى:

المرحلة الثالثة في التاريخ الإنساني: إذ حدّثنا الله تعالى عن هبوط الإنسان إلى الأرض، وأهمّ النداءات الإلهية للذريّة الأدمية، فقد تضمّنت هذه النداءات توصيات محدّدة ليفهموا طبيعة

الحياة في الأرض وجمالها، ولينتهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله، وامتدت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف ٢٦-٣٦].

وهذه النداءات الإلهية عبارة عن أربعة نداءات نادى الله ﷻ فيها بني آدم، وتضمنت توصيات وقوانين في الحياة الإنسانية توصل إلى تحقيق الفلاح، وتحمي من الوقوع في فخ إبليس.

ثم تأتي هذه المرحلة (الرابعة) في الآيات [الأعراف: ٣٧-٤٣] لتعرض للانتقال من الدنيا إلى الآخرة: إذ قصَّ الله تعالى علينا صُورًا مباشرة من المصير الأخروي الأعظم، وانقسام الناس إلى فريقين، ولكأن هذه المرحلة تبرز لنا النتيجة النهائية للابتلاء الذي مرَّت به البشرية في حياتها الدنيوية، وبهذا تتجلى روعة المناسبة والاتصال.

فكرة هذه المرحلة:

ستساءل: ما الفكرة العامة التي تدور حولها هذه المرحلة؟

فَصَّلَ اللهُ ﷻ في هذه المرحلة الأحوال الأخروية في المصير الدائم المنتظر لكلٍّ من الفريقين:

فريق الذين كذبوا بآياته واستكبروا عنها، وفريق المؤمنين العاملين على سبيل الف والنفوس المعكوس، فقد قال الله ﷻ في النداء الرابع للذرية الآدمية: ﴿يَبْنَى عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦]، فبدأ بالمؤمنين، وفي هذه المرحلة بدأ بالمكذبين المستكبرين.

وانظر فكرة هذا القسم، فقد ذكرت لنا بصائر القرآن هنا أولاً أسوأ صنفين يتبعان إلى المكذبين المستكبرين، ثم أخبرت عن كيفية دخولهم في النار، وذلك في الآيات الثلاث



[الأعراف ٣٧-٣٩]، ثم عن كيفية خلودهم فيها في الآيتين [الأعراف ٤٠، ٤١]، ثم فصلت أحوال أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآيتين [الأعراف ٤٢، ٤٣]، ولننظر المشاهد المتعلقة بهذين الفريقين:

الفريق الأول: المكذبون المستكبرون

وظهرت لهم تسعة مشاهد في هذه الآيات:

وهنا ستسأل متلهفاً: فما المشهد الذي نراه في قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؟

الجواب: في هذه المرحلة نرى التسعة المشاهد الآتية:

المشهد الأول: مشهد المكذبين المستكبرين، وهم يتسلمون شهادة: "أسوأ الظالمين ظلماً":

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾^(٢٧): تُبَصِّرُنَا المعرفة القرآنية هنا بوصف جديد للمكذبين المستكبرين الذين ذكرهم الله ﷻ في الآية الْمُتَقَدِّمَةِ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، إذ أخبر الله ﷻ عنهم أنهم الأظلم، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾^(٢٧).

فالفاء في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للتعليل وللتفريع على الصنف السابق المذكور في قول ربنا ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، فكأنه قال: والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار، فإن سألتهم: لماذا استحقوا أن يكونوا أصحاب النار الخالدين فيها؟ فاعلموا أن ذلك لأنهم أشدُّ الناس ظلماً، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته. فالمكذبون المستكبرون أشدُّ الناس ظلماً؛ لأنهم إما أن يفتروا على الله الكذب، وإما أن يكذبوا بآياته، وإذا فعلوا أحد الأمرين ظلموا الناس والأرض والحياة؛ لأنهم يحولون بين الناس وبين اتباع آيات الله، ويفترون فيضعون تشريعات في الحياة يكذبون فيها على الله ﷻ.

وعلى أنفسهم وعلى الناس، ولذا ينتشر الظلم في الأرض، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، والذي يحول بين البشريّة وبين اتّباع هذه الآيات يظلم الإنسانِيّة كلّها بصدّها عن آيات الله ﷻ، ويمنعها من رؤية جمال الشريعة، وعظمتها.

فهذان الصّنفان جعلهما الله ﷻ أشدّ البشريّة ظلماً:

الصّنف الأول: المفترّون على الله كذباً:

ويُصّرنا به قوله تعالى جدّه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فيدّعي أن الله ﷻ يأمر بالفحشاء:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: أشنعُ ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾، والفري: تركيبُ شيءٍ على شيءٍ في تناسق، فإذا ركب الكذب على الكذب على صورة يظنها الناس صدقاً أجرم في حقّ العالم؛ لأنهم يظنون ما يفعله صدقاً وليس كذلك.

والمشكلة أنه عندما يفعل ذلك فإنه يفترى ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، والله هو المَلِكُ الأعلى والإله الحقّ، وهو ربُّ العالمين، فيزيد المفترى العالم ضلّالاً، وتيهّها عن الحقّ، وذكر الله ﷻ اسمه العَلَمُ ﴿اللَّهُ﴾؛ لإظهار مدى إجرام من يفترى عليه الكذب، أي كيف يتجرّأ على ذلك؟!

فهذا هو الصنف الأول، ويدخل فيه كلّ من حرّف الدّين، أو اختلق ديناً من عنده كمن أنكر الله ﷻ، أو وضع الكفر ديناً يقتات منه، أو جعل الإلحاد نظاماً يسير عليه، أو قال على الله ﷻ أو على أنبيائه ﷺ غير الحقّ، كما يدخل فيه قول من أثبت الشّريك لله، سواءً كان ذلك الشّريك عبارة عن الأصنام، أو عن الكواكب، أو عن مذهب القائلين بالثنويّة: إله النور وإله الظلام، يزدان وأهرمن، ويدخل فيه المثلثة الذين عبدوا مع الله المسيح والروح القدس،

ويدخل فيه من افترى على الله الكذب، فادعى أن مريم أم الإله، وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوْلُ مَنْ أَثْبَتَ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوْلُ مَنْ أَصَافَ الْأَحْكَامَ الْبَاطِلَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى^(١).

ومعنى الآية: فلا يوجد أحد أعظم جرماً، وأكثر فساداً، وأكثر خطأً، وأجهل قولاً، وأبعدهم ذهاباً عن الحق والصواب ممن افترى على الله كذباً، أي: ممن اختلق على الله زوراً من القول، فجعل ما يرتكبه من فساد شرعاً مُنزَلاً من ربِّ العباد. هذا هو الأظلم على الإطلاق، فإذا فعل فاحشة أو أمر بها غيره قال: إن الله أمرنا بها.

عرفنا الصنف الأول الأشد ظلمًا، فمن الصنف الثاني؟

الصنف الثاني: المكدِّبون ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فتأتيه الآيات لتهديه لكنه يُكذِّبُ بها:

سبق لنا أن الآيات تشمل آيات الوحي فهي كلماته المُنزَّلة، والمعجزات، وعجائب الكون وتشمل كل مخلوقاته الماثلة، والتكذيب بها يكون بالقول، ويتحقق بالفعل، إذ يفعل المرء ضدَّ ما تقتضيه الآيات، فالآيات تقتضي الشكر، وتقتضي الإيمان، ويتحقق التكذيب بالآيات بالإستكبار عن أتباعها، أو الاستهزاء بها، ويتحقق بتفضيل غيرها عليها بالعمل^(٢)، ويتحقق التكذيب بآيات الله بشرع خلاف ما شرعه الله ﷻ في آياته، أي: ومن أظلم ممن كذب بآيات الله لما جاءت، أي كذب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، وبآياته التي فيها أخبار أخبر الله ﷻ بها، أو تشريعات أمر الله ﷻ بأن تتَّبَع في الحياة.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ قَوْلُ مَنْ أَنْكَرَ كَوْنَ الْقُرْآنِ كِتَابًا نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَوْلُ مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ويدخل في هذين الصنفين من كذَّبوا بآيات الله التي جاء بها مُحَمَّدٌ

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٦٧).

ﷺ، ومن افترى على الله الكذب فزعم أنَّ الله ﷻ أمره بالفواحش، فقد فضحهم الله ﷻ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

ويدخل فيهم عمرو بن لحي الذي استورد الأصنام من الشام حيث كانت تعبد، وحرص العرب الحنفاء ليعبدوها، ويتنافسوا في اقتنائها، وقد قال عنه النبي ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عامر بنِ لُحَيٍّ الْخَزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(١)، وفي رواية: «عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ بِنِ قَمْعَةٍ بِنِ خُنْدِفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ - أي أمعاءه - فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(٢).

كما يدخل فيهم كل من نسب إلى الله ﷻ شيئاً افتراءً عليه، مثل الذين يضعون القوانين والديساتير ثم يزعمون أن الله ﷻ وسَّع عليهم فيما يقترفون.

نعود للآية مجدداً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾^(٣) فما معناها إجمالاً؟

الجواب: معنى الآية إجمالاً: مَنْ أَشْنَعُ ظُلْماً، وَأَفْحَشُ جَرِيْمَةً مِمَّنْ تَقَوَّلَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مَا لَمْ يَقُلْهُ، أَوْ كَذَّبَ مَا قَالَهُ؟

والاستفهام ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لِلْإِنْكَارِ، أَوْ لِتَقْرِيرِ مَا بَعْدَهُ، فَاسْتَعْمَلَ فِي تَهْوِيلِ ظُلْمِ الْمُتَكَلِّمِ عَنْهُمْ، أَيُّ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ، فَهُمَا أَشَدُّ الْأَصْنَافِ الْبَشَرِيَّةِ سُوءًا.

فهذان الصنفان الأشدُّ ظُلْماً فِي الْبَشَرِيَّةِ.. هل يعجّل الله ﷻ عقوبتهم، وقد اقترفوا هذه الجرائم؟ هم يسخرون ويقولون: إن كان الله ﷻ خالقاً لنا فلم لا يعذبنا؟ ويقولون: إن كنتم على حقٍّ فلم لا يعذبنا الله ﷻ بما نقول ونفعل؟

(١) البخاري (٤٦٢٣).

(٢) ابن حبان (٧٤٩٠)، وحسن الأرنؤوط إسناده.

الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثاني: مشهد نصيب القدر المكتوب:

فَيَمْتَعُ الْمَفْتَرُونَ وَالْمَكْذِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ أَجْلُهُمْ، وَتَضِيعُ فُرْصُهُمْ فِي الْعُودَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَيُصَيِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ٣٧.

يجيب الله ﷻ عن سؤال: هل يعجل الله ﷻ لهم العقوبة، هنا يقول ﷻ: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ٣٧، واسم الإشارة الدال على البعد هنا ﴿أُولَئِكَ﴾ للتشيع، أي: أولئك البعداء البغضاء المحرومون من الخير ينالهم نصيب من الكتاب فلا نجعل عقوبتهم. إن هذه الجملة تخبرك بتفصيل القانون السابق في قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهنا ترى الأحكام والترابط على أوسع نطاق.

ربما تقول: ما القصة هاهنا؟ لو زدت الأمر إيضاحاً؟

الجواب: إن قصة هذا المفهوم تجيبك عن السؤال الذي حير العقول عند الخصوص والعموم، فقد طعن الملحدون في الإيمان، وقالوا: إن كان الإسلام هو الحق، فلماذا نرى المسلمين في هذا التخلف المريع تأكلهم الأمراض ويجتاحهم الفقر، ويسيطر عليهم الأعداء، وتتناوشهم الأوبئة، وتفتك بهم أنياب الظلم، ويذوقون سوء الحياة؟ لماذا نرى المؤمن كثيراً ما يكون هو الطرف الضعيف بينما نرى الملحدين أو الكافرين هو الطرف المختار الذي ينال بهرج الحياة، ويردد التائهون المتحيرون:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقت مذهبُه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي جعل الأفكار حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

هنا يجيبك الله ﷻ عن ذلك فيقول: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ﴾.

هذه الجملة ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ﴾ تنبئنا بمفهومين مدهشين:

المفهوم الأول: ينال هؤلاء الظالمين حظُّهم من الأرزاق والأعمال، فلا يعذبون حتى يكتمل لهم الأجل، وهم مهما اقترفوا من جرائم فهم لن يضرروا الله شيئاً، وسيبقيهم على الأرض إلى الحين الذي حدَّده لهم في كتاب الآجال، وأما بالنسبة للمظلومين فإن الله ﷻ سيحكم لهم يوم القيامة.

فهؤلاء الظالمون صنفان كما حدَّدهم الله ﷻ: المفترون الكذب، والمكذبون بالآيات، وهم أشدُّ الناس ظلمًا.. فهل كونهم: أشدُّ الخلق ظلمًا يعني أن يحرمهم الله ﷻ من حظُّهم من الحياة الدنيا؟ كلا! بل قانون الحياة قائم على رزق جميع الخلائق بمقدارٍ فيه ابتلاء لكلِّ منهم، ويقرِّر ربُّنا ﷻ هذه الحقيقة بأساليب متعدِّدة مثل قوله: ﴿كَلَّا تُنِيدُ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۖ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالله ﷻ خلق الخلق، واستدعاهم إلى الوجود، وضمن لهم مقومات الحياة، فقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، فكما سخر الأرض للمؤمنين، فقد سخرها للمكذِّبين، والذي يطبق قوانين الرزق في استخراج خيرات الأرض سيجد النتيجة بغضُّ النظر عن إيمانه وكفره، وبعد ذلك هل سيشكر أم يكفر؟ هذا موقف يتخذه هو، ويترتَّب عليه الجزاء الأخروي، فلينتبه، وليس تعجيل العقوبة الدنيوية إلا في نطاق محدود، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام أفاد من هذا الدرس، فلما طلب أن يرزق الله ﷻ أهل مكة من الثمرات طلب أيضًا تخصيص ذلك بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] هنا نبَّهه الله ﷻ إلى أن الرزق الدنيوي عامٌّ يقوم على بذل

الأسباب اللازمة، فلا يختص بالمؤمنين، فقال له: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي يناله رزقي أيضاً، ثم قال: ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

المفهوم الثاني: ينالهم نصيبهم المكتوب في الكتاب من الأعمال الاختيارية والإجبارية، فالاختيارية مثل: الكفر، والإيمان، والإجبارية مثل: تحديد جنسه، وعمره، وطوله، وعرضه...^(١).

فإن قلت: ما معنى كلمة ﴿الْكِتَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾؟

الجواب: في ﴿الْكِتَابِ﴾ وَجْهَانِ:

أحدهما: أنه كتاب الوحي المنزل على الرسل ﷺ، ويتضمن هذا الكتاب: وعداً، ووعداً على الأعمال، فكل من وعده الله ﷻ في كتاب الوحي بشيء على عمل طاعة سيناله نصيبه منه، وكل من توعدده الله ﷻ في كتاب الوحي بشيء على عمل معصية سيناله نصيبه منه، وهذا المعنى ذهب إليه مجاهد رحمه الله، فقال عن كلمة ﴿نَصِيبُهُمْ﴾: «مَا وَعِدُوا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ»^(٢).

وثانيهما: أنه كتاب المقادير، فهو الكتاب الذي كتب الله ﷻ فيه تدبيره لنظام العالم، ويتضمن الأعمال والآجال والأرزاق، وفيه الأعمال التي تنتج السعادة، والأعمال التي تنتج الشقاوة، وفيه الأجل الذي سيتمتع فيه كل من المسلم والكافر في الدنيا، وفصل الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوءًا وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

و**مال ابن عباس** رحمه الله في تفسيره للنصيب إلى هذا المعنى، فقال: «مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ»، وفي رواية أخرى عنه: «مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ»، وفسر محمد بن كعب

(١) وهناك أقوال أخرى في المراد بـ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾. ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٠٨-٤١٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٤١٢).

الْقُرْطُبِيُّ رحمته الله النَّصِيبَ بِالرِّزْقِ وَالْأَجْلِ وَالْعَمَلِ^(١)، وَرَجَّحَ هَذَا الْمَعْنَى ابْنُ كَثِيرٍ رحمته الله فَقَالَ: «وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ فِي الْمَعْنَى، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ»^(٢)، أَيْ: يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمُ الْمَكْتُوبُ فِي الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ الْعُمْرُ، وَالصَّحَّةُ، وَالْقُوَّةُ، وَأَيْضًا يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمُ الْمَكْتُوبُ فِي الْكِتَابِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ وَالْإِجْبَارِيَّةِ.

وَعِنْدَ حُلُولِ الْأَجْلِ الْمُؤَقَّتِ لِلْمُفْتَرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ أَيْ يَنَالُهُمْ عَذَابُ اللَّهِ عز وجل الَّذِي أَعَدَّهُ لِلظَّالِمِينَ، فَمَا كَتَبَهُ اللَّهُ عز وجل عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَعِيدِ حَقٌّ لَا زَيْفَ فِيهِ، فَلَنْ يَفْرُوا مِنْهُ كَمَا أَنَّ الرِّزْقَ الْمَقْدَّرَ لَهُمْ لَنْ يَمْلِكُوا أَنْ يَتْرَكُوهُ لَوْ أَرَادُوا، سِوَاءَ أَكَانَ الْمَكْتُوبُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ أَمْ فِي الْقُرْآنِ الْمَتْلُوِّ فِي الْعَشِيِّ وَالْبُكْرِ، فَمِنَ النَّصِيبِ الْمُتَعَلِّقِ بِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى جُدَّةً: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وَهَذَا النَّصِيبُ الْقَدَرِيُّ بَيْنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته عليه، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣)، وَفِي رَوَايَةٍ:

(١) تفسير الطبري (١٢/٤١٢، ٤١٣).

(٢) تفسير ابن كثير، (٣/٣٩٣).

(٣) البخاري (٣٢٠٨).

«إِذَا مَرَّ بِالنُّفْثَةِ ثِتَانٍ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أَمَرَ وَلَا يَنْقُصُ»^(١).

وقد قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رحمته الله: طَلَبْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْجُمُعَةِ فَأَعْيَنَنِي، فَلَزِمْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَانْتَهُوا إِلَى عِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نَهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نَهَائِكُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ اللَّهُ تعالى فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي كَيْفَ اللَّهُ تعالى صَانِعٌ فِيهِ، فَلْيَتَرَوِّدِ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمَنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنْ الشَّبَابِ قَبْلَ الْهَرَمِ، وَمِنْ الصَّحَّةِ قَبْلَ السَّقَمِ، فَإِنَّكُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ، وَالْدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تعالى لِي وَلَكُمْ»^(٢).

تعال إلى كلمة ﴿يَنَالُهُمْ﴾: فما معنى النيل؟

الجواب: أَصْلُ النَّيْلِ إِصَابَةُ الْإِنْسَانِ شَيْئًا لِنَفْسِهِ بِيَدِهِ، وَنَوَلُهُ: أَعْطَاهُ فَنَالَ، فَالْأَصْلُ أَنْ تَقُولَ: نَالَ فُلَانٌ كَسْبًا، وَالْعَادَةُ أَنْ الْإِنْسَانَ يَنَالَ الشَّيْءَ، وَلَيْسَ الشَّيْءُ هُوَ الَّذِي يَنَالَ الْإِنْسَانَ، وَقَدْ جَاءَ هُنَا بَعَكْسٍ ذَلِكَ، فَجَعَلَ اللَّهُ تعالى النَّصِيبَ هُوَ الَّذِي يَنَالَ الْإِنْسَانَ، وَلَأَجْلَ ذَلِكَ ذَهَبَ كَثِيرٌ

(١) مسلم (٢٦٤٥).

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٩).

من المفسرين إلى أن هذا التعبير تعبير مقلوب: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾^(١)، وأن التقدير: أولئك ينالون نصيبهم من الكتاب، فهل هذا صحيح؟

الجواب: غير صحيح، بل التعبير القرآني على استقامته دون قلب، في أعلى درجات الفصاحة، فقد جاء على هذه الهيئة ليبين لك أن الكتاب هو الذي ينال من الخلق بحسب ما أُتيح لهم في الحياة، إذ يحتوي على أمور لا اختيار للإنسان فيها، وهي الأجل والرزق والوعد والوعيد، وكلها تنال الإنسان، فكأن الأجل والرزق يطلبان الإنسان، حتى يأخذا حظهما منه، وليس العكس، ومصدق ذلك ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «إِنَّ الرِّزْقَ لِيَطْلُبَ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»^(١)، وأنشد عروة بن أذينة:

لقد علمتُ وما الإسرافُ مِنْ خُلُقِي أَنّ الذي هو رِزْقِي سوف يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينِي تَطْلُبُهُ ولو قعدتُ أَتَانِي لَا يُعَنِّينِي
وَأَنْ حَظَّ امْرِئٍ غَيْرِي سَيَبْلُغُهُ لَا بُدَّ لَا بُدَّ أَنْ يَحْتَازَهُ دُونِي^(٢)
وقال آخر:

تَأْتِي المَقِيْمَ - وَمَا سَعَى - حَاجَاتُهُ عَدَدَ الحَصَى، وَيَخِيْبُ سَعْيِي الخَائِبِ^(٣)
ويحتوي الكتاب أيضًا على الأعمال التي سيقوم بها العبد، وهيئة استمتاعه في الأرض، وهكذا يثبت عندك القدر والحكم النافذ لمشئة الله ﷻ، فبقاء المُفْتَرِّين والمُكْذِبِينَ في الحياة وتمتعهم بها ليس لقوتهم وجبروتهم وذكائهم، وليس للعلوم التي أوتوها، وليس للعمارات

(١) صحيح ابن حبان، (٣٢٣٨)، قال الألباني: صحيح لغيره، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث قوي، رجاله ثقات وإسناده جيد.
(٢) شعر عروة بن أذينة (ص: ٤٢).
(٣) البيت لبشار بن برد، ويروى البيت: (ويخيب سعي الطالب)، وهي الأصح؛ لأنها في مقابل (تأتي المقيم) أول البيت. ينظر: ديوان بشار بن برد (١/ ١٩٢). ويروى: (ويخيب سعي الناصب). يُنظر: لباب الآداب، أبو منصور الثعالبي، (ص: ١٧١).

التي شيدوها، ولا للقصور التي زخرفوها، وليس للآلات التي صنعوها.. بل لأن نصيبهم من الكتاب لا بد أن يستوفي من حياتهم ما قد قدره الله ﷻ لهم من التمتع في الدنيا، فهم لن يخالفوا هذا النصيب، حتى إن أرادوا أن يفرّوا لن يستطيعوا..

وأحياناً يكون النصيب الذي يُنال من حياة المغترين محدوداً وهم يظنونه واسعاً بسبب ما رأوه من قوة وذكاء.. اضرب لذلك مثلاً بالملوك الفضائي "تسالنجر" وهي كلمة إنجليزية تعني "المتحدي"، فقد كان نصيبه مع أصحابه من الكتاب ٧٣ ثانية عام ٨٦م، وانتهى كل شيء.

هنا تشعر بعظمة القدرة الإلهية كما تنبئك الآية أن هناك من يحكم حياتهم، وليس العكس، فهم لجبروتهم، ولطول بقائهم وتحكمهم في الحياة يظن المرء أنهم قد جعلوا للتاريخ نهاية، ولذلك ألفَ (فوكوياما) كتابه الذي ضحك عليه التاريخ "نهاية التاريخ"، فزعم فيه أن أميركا بعينها سادت العالم، وستبقى تتحكم بزمامه، وأنه لن يكتب تاريخ جديد بعدها في رؤية مُعْتَرَّة ساذجة أضحكت عليه أستاذه (هنتنجتون)، فالتاريخ ليس بيدها، ولا بيد غيرها، بل الله ﷻ هو الذي كتب الكتاب، وهم كغيرهم ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

الآن اربط بين الآيات لتجدها تنير بصيرتك على نحو مدهش:

فالله ﷻ جعل لهم نصيباً من الحياة كُتِبَ لهم، فحتى لو أرادوا تغييره فلن يتمكنوا.. ذلك السرُّ في هذا التعبير العظيم: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾، فالنصيب من تمتعهم بالدنيا سينالهم كما أن الغضب الإلهي سينالهم أيضاً، وذكر الله ﷻ ذلك في هذه السورة في قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، ولهذه اللفتة البلاغية المدهشة ترى أن التركيب على استقامته، وأنه ليس من التشبيه المقلوب في شيء، وهنا تراني أخالف ابن عاشور رحمه الله فيما قرره من أن التركيب هنا جاء على القلب، إذ قرّر أن مقتضى الظاهر أن يكون النصيب

مُنَوَّلًا لَا نَائِلًا، لِأَنَّ النَّصِيبَ لَا يُحْصَلُ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، بَلْ بِالْعَكْسِ: الَّذِينَ افْتَرَوْا يُحْصَلُونَهُ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْقَلْبِ الْمَبْنِيِّ عَلَى عَكْسِ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِ رُؤْبَةٍ:

وَمَهْمَهُ مُعْبَرَةٌ أَرْجَاؤُهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ^(١)

فقوله: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ عندي على الحقيقة، وليس على عكس التشبيه، وهو يشبه تمامًا قراءة ابن كثير رحمته الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٌ﴾ [البقرة: ٣٧]^(٢)، فإنها عندي على الحقيقة أيضًا، وكلٌّ من القراءتين أبانت جزءًا من الصورة الكاملة.

وأشار ابن عباس رحمته الله، وتلميذه مجاهد رحمته الله، إلى أنهم ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر، وقال ابن زيد ومجاهد رحمته الله: من الأعمال والأرزاق والأعمار، فإذا فُتِيَتْ وانْقَرَضَتْ وَفَرَّغُوا مِنْهَا أَتَاهُمْ أَجْلُهُمْ^(٣)، وهنا يذكر الله تعالى الغاية التي ينتهون إليها فيقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾^(٤) وقد فرغوا من هذه الأشياء كلها.

فمهما بلغوا من قوة وثروة وتمكّن وسيطرة.. فإنهم مساكين.. ضعيفة عقولهم.. أفترأهم يُعجزون الموت عندما يحين وقته؟!

وهذا المعنى ينبئنا الله تعالى عنه صريحًا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، ماذا يحدث لهم؟ ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١١٤)، والرجز في ديوان رؤبة (ص: ٣)، ولكن صدره بلفظ: «وبلد عامية أعماءه»، كما في مقاييس اللغة (٤/ ١٣٤)، ولسان العرب (١٥/ ٩٨)، وهو باللفظ الذي ذكره ابن عاشور في شرح شواهد المغني (٢/ ٩٧١).

(٢) قرأ ابن كثير بنصب (آدم) ورفع (كلمات)، وقرأ الباقر بن رفع (آدم)، ونصب (كلمات) بكسر التاء. يُنظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢١١).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ ماذا يحدث لهم؟ قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿لَقَمَان: ٢٣، ٢٤﴾.

نتنقل إلى قوله جَلِّ ذِكْرُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٢٧)، فما المشهد الذي نبصره من خلال هذه الكلمات المباركات في الآية؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثالث: اللحظة الأخيرة في الدنيا:

انظر جيداً لها، حيث تأتي رسل الله ﷺ من الملائكة لقبض أرواح هؤلاء الظالمين، وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٢٧).

هذه الآية السابعة والثلاثون بداية استعراض طويل لمشاهد تنقل لك مباشرة كأنك حاضِر فيها، تصوّر لك الغيب الخفيّ عن أعين البشريّة اليوم.. إنها تنقل لك مشاهد الآخرة ابتداءً من ساعة الاحتضار وحضور الموت، وهنا تخفق القلوب، وتتشعرُّ الجلود، وتجري النفوس مستغرقة في الغيب القادم، فأين سيكون موضعها؟ وما نهاية مرتعها فيه؟ لماذا وَجِلَتْ قلوب السابقين من الصحابة ﷺ وسائر الصالحين؟

لقد أخذ القرآن بتصوراتهم ليشاهدوا الغيب القادم عند ساعة الاحتضار، فصار عالم الآخرة واقعاً مشهوداً لا مستقبلاً موعوداً كأنهم يرونه.

«وربما كانت هذه المشاهد -المعروضة هنا- أطول مشاهد القيامة في القرآن، وأحفلها بالحركة، وبالمناظر المتتابعة، وبالحوار المتنوع، في حَيَوِيَّةٍ فائضة يَعْجَبُ الإنسان كيف تنقلها الألفاظ، حيث لا ينقلها للحس هكذا إلا المشاهدة!».

وانظر لترتيب السُّورَة: ينقل الله ﷻ الذرية الآدمية من بداية البشرية، ومعركتها الضارية مع الشيطان إلى المستقبل الحقيقي المنتظر في الآخرة.. لئلا تعمينا المشاهد العابرة في الحياة الدنيا، ولئلا تسلبنا الأفكار القاصرة عن الحقيقة العميقة العظيمة القادمة..

إنها الحقيقة التي يقال فيها للمكذبين المستكبرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].
ويقال فيها للمؤمنين الصالحين: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهنا ستسأل: ما معنى كلمة: ﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؟
الجواب:

﴿حَتَّى﴾ غائية تُبَصِّرنا بانتهاء الوقت المحدد لهم لينالهم نصيبهم من الكتاب:
تنقلنا الآية إلى مُشَاهَدَتِهِمْ، وقد انقضى أجلهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، فكلمة ﴿حَتَّى﴾ غائية يمكنك أن تفهم منها نهاية المشهد الذي سبقها على المعنى الأول لقوله: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، والمعنى: أنهم يتمتعون إلى غاية موتهم، فهو وقت محدد عند الله ﷻ، وحينها يأتيهم ما كانوا يوعدون، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۖ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۖ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ

الْقَرَارُ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿إِبْرَاهِيم: ٢٨ - ٣٠﴾.

كما لك أن تجعل ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية على المعنى الثاني لقوله: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾، أي ينالهم حظُّهم من العقوبة التي أخبرهم الله ﷻ عنها في القرآن المجيد، فأول تلك العقوبة تبدأ عندما تجيء ملائكة العذاب إليهم.

وربما تسأل: ما معنى ﴿رُسُلَنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؟
الجواب: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ تُبَصِّرنا بأن هناك لحظة استدعاء ستتحقق لهؤلاء الظالمين، إذ سيأتي وفدٌ قاسٍ قويٍّ، وقواتٌ خاصَّةٌ تخترق عليهم البيت والمكان دون استئذان، ودون طَرَقٍ للأبواب، ودون التفاتٍ لمن حولهم مهما كانت قوتهم.. إنهم رسل الله ﷻ الذين يتكونون من ملك الموت ومن معه من ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، وهم رسل الله ﷻ إلى كلِّ إنسان، وهؤلاء المفترون المكذبون سيأتيهم ملائكة العذاب.

فالرسل هنا هم ملائكة العذاب، وقوله: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ حالٌ من الرسل ﷻ، فيتَوَفَّون هذين الصَّنْفَيْنِ الأشدَّ ظلمًا وهما: المفترون والمكذبون، ويكون المعنى: حتى إذا جاءتهم ملائكة العذاب مع ملك الموت حال كونهم يطلبون آخر حياتهم وفاءً للأجل المضروب عليهم، فيقبضون أرواحهم، وحينها يبدؤون مرحلة جديدة في قدرهم: إنها المرحلة البرزخية التي تكون بين حياتي الدُّنيا والآخرة.

ومعنى ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: يستوفون عدَدَهم، أو يستوفون أعمارَهم، ويطلبون وفاتهم بعد أن نالهم نصيبُهم المحدَّد في الكتاب في دنياهم، فلا بد أن يأخذ الله ﷻ ما أعطى، والله ﷻ قد أعطى كلَّ إنسان الجسد والروح، وأن الأوان ليأخذهما منه.

فإن قلت: ماذا سيحدث لهؤلاء المفترين الظالمين؟

الجواب: عندها يحدث الفرع الشديد لهؤلاء الظالمين عندما يعاينون رسل الله ﷺ من الملائكة.. فماذا يكون بعدها؟

تصوّر لنا كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطية بالذي يقع فور وصول رسل الله ﷺ من ملائكة العذاب ليقبضوا رُوحَ المفترى أو المكذّب، فيبادرهم الملائكة ﷺ فور وصولهم، فيسألونهم: ﴿أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ﴾.

وهنا ستسأل: ما معنى قوله تعالى: ﴿أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ﴾؟

الجواب: ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، وكلمة ﴿تَدْعُونَ﴾ إمّا بمعنى: تعبدون، والتقدير: أين الآلهة الذين كنتم تدعونهم من دون الله ﷻ؟ والآلهة من الحجر والبشر والحيوان والشمس والقمر، فهم يدعونهم من دون الله ﷻ لِيُنْجُوهم.

ويمكن أن يكون معنى ﴿تَدْعُونَ﴾: يعني تنادون، وتطلبون، فيجيبون أوامرهم، والتقدير: أين الأتباع الذين كنتم تدعونهم، وتأمرؤهم، فيجيبون، ويُلَبُّون، فتدعونهم من دون الله ﷻ، أي: تعتمدون عليهم دون الله ﷻ طائنين أنهم يغنونكم عن الله تعالى، وقد سمعنا واحداً من هؤلاء المُغْتَرِّين يقول: الحلُّ في الأرض لا في السماء، وهو يعني أن أتباعه أو من يشابههم يمكن أن يقوموا بتقديم الحلِّ للأمراض الموجودة، مع الاستغناء عمَّن في السماء... اغترّ، فكأنه لم يسمع قول الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضُ﴾ [الملك: ١٦].

وكلمة ﴿تَدْعُونَ﴾ عجيبة جداً تشمل كلَّ من يُدعى تعبداً كآلهة وكبار الزعماء، ومن يُدعى ليؤمر فيطيع.

والإِسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ﴾ في الإنكار والتَّهْكُمِ عليهم، وإثارة غيظهم وتأيسهم من أن ينصرهم أحد، وإثارة الحسرة في نفوسهم أن يغيثهم أحد من

أصحابهم، أي أين الذين كنتم تدعونهم آلهة من دون الله؟ دَعُوهم يحمونكم منا.. دَعُوهم يبعدونكم عنا. ادعوهم فليخلصوكم منا.

أين الآلهة الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله ﷻ، وكنتم تعبدونهم وتقدمونهم على اتباع ما أنزل الله ﷻ؟ أين الآلهة الذين كنتم تنادونهم في الحياة لجلب المنفعة ودفع المضرة؟ أين الأتباع الذين كنتم تتفاخرون بهم، وتستعملونهم لظلم الآخرين؟ أين المؤسسات التي أقمتموها لتعيشوا بها في الأرض فساداً؟ أين القوات الخاصة والعامة التي كَوْنْتُمُوهَا لترهبوا بها الناس؟

وما أصدق قول أبي الطيب في هذا المعنى:

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي
وَقَالَ آخِر:

رَأَى الْحِصْنَ مَنْجَاةً مِنَ الْمَوْتِ فَارْتَقَى
وَقَالَ الْمَوْسَوِي:

تَفُوزُ بِنَا الْمَنُونُ وَتَسْتَبِدُّ
رُؤَيْدَكَ بِالْفِرَارِ مِنَ الْمَنَايَا
وَكُلُّ فَتًى يَحْفُفُ بِجَانِبِيهِ
فَمَا دَفَعَ الْمَنَايَا عَنْهُ وَفُرَّ
وَيَأْخُذُنَا الزَّمَانُ فَلَا يَرُدُّ
فَلَيْسَ يَفُوتُهَا السَّارِي الْمُجِدُّ
خَوَاطِرُ بِالْقَنَاقِنِ وَجُرْدُ
وَلَا هَزَمَ النَّوَائِبَ عَنْهُ جُنْدُ^(٣)

(١) شرح ديوان المتنبي، (٢/ ١٢) .

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، (٢/ ٥٠٧) .

(٣) المدهش، ابن الجوزي، (ص: ١٥٩) .

ادْعُوا جميع الذين كنتم تعبدونهم أو تأمروهم عسى أن يبعدوكم عنا، عسى أن يحموكم من الموت.. هل يمكن أن يدفعوا عنكم ما قد جاءكم من أمر الله ﷻ الذي هو خالقكم وخالقهم؟ هل يمكن أن يدفعوا عنكم ما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ هلأ يُغيثونكم من كَرْبٍ ما أنتم فيه، فينقذونكم منه؟

وهذا تفصيلٌ واضحٌ للآية الثالثة في مقدمة السُّورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فإن كنتم تدعون أنفسكم من دون الله ﷻ، فقاوموا الموت، وامنعوه، وإن كنتم تدعون حَجْرًا فاسألوه أن يغيثكم، وإن كنتم تدعون بَشَرًا فدونكم أظهروا قوتكم، وإن كنتم تدعون المنظمات الدولية الظاهرة والخفية فاطلبوا منها أن تثبت أنها نِدُّ الله ﷻ لتمنع عنكم الموت.. أين ما كنتم تدعون من دون الله ﷻ ليغيثكم وينصركم؟

يجيب هؤلاء المفترون المكدِّبون: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ ﴿٧٧﴾ فما معنى إجابتهم هذه؟ وما

الصورة البيانية التي ترسمها الآية هنا؟

الجواب: يعترفون متحسِّرين ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾:

أي تاهوا وهلكوا وذهبوا بعيدًا عنا، فلا نجد أحدًا من الذين كنا ندعوهم أولياء لنا.. غابوا عنا وأضاعونا، ولذلك لم يَحْضُرُوا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم.. لا نجد أحدًا منهم يُمكنه أن يُذهب عنا ما نزل من الموت، فكلُّ أوليائنا تاهوا أو هلكوا، أو صاروا مثلنا في المحاسبة والمعاقبة والمعاقبة، أو ضعفوا فزاغت تصرفاتهم.

هذا اعترافٌ منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يتبها إلى نتائج أفعالهم، ومعنى ذلك أنهم يستحضرون أسماء أوليائهم الذين اتخذوهم من دون الله ﷻ، وربما استحضروا صُورَهم، وبحثوا عنهم، ثم رأوا أنهم لا ينصرونهم.

﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾: من ﴿ضَلَّ﴾ بمعنى تاه أو هلك، أي: ذهب المُلْك، وذهبت الثروات، وذهبت تلك العبادات الضالَّة، فعَدَّى الفعل بحرف الجرّ ﴿عَنْ﴾؛ لِيَبَيِّنَ أن هؤلاء الأَشْقِيَاءَ يشعرون أن أولياءهم من معبوداتهم الْحَجَرِيَّةَ وَالْبَشَرِيَّةَ وَالشَّيْطَانِيَّةَ ربما بحثوا عنهم لكنهم ضلُّوا عن مكانهم، وتجاوزوا مواضعهم، وبحثوا عن سبيلٍ ليدفعوا عنهم تهمة الرضا بشرك العابدين لهم، أي يتبرؤون، والمعنى جاوزونا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفَعُونَا «غابوا عنا وتاهوا! فلا نحن نعرف لهم مَقَرًّا، ولا هم يسلكون إلينا طريقًا! ما أضيع الحياة التي تمضي مع من يعبد غير الله ﷻ! ما أضيع عِبَادًا لا تهتدي إليهم آلَهِتهم، ولا تُسَعِّفُهُمْ في مثل هذه اللحظة الحاسمة! ما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها في مثل هذا الأوان!».

وقولهم: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أن الظالمين يعترفون بأنهم كانوا مشركين، ولكن آلَهِتهم ضَلَّتْ عنهم أي تاهت، فلم تهتدِ لنصرتهم في هذا المقام، ويدلُّ لهذا المعنى نهاية الآية، إذ قال الله ﷻ: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣١).

الثاني: أن الظالمين يعترفون بأنهم كانوا مشركين، ولكن أَتْبَاعَهُمْ وَقَوَّاتَهُمْ تاهوا عنهم، فلم يعرفوا كيف ينصرونهم؛ لأن أَتْبَاعَهُمْ لا تبلغ قوتهم أن يضاهوا الملائكة قوة، وهذا اعتراف أيضًا بأنهم كانوا كافرين يعتمدون على من لا يغني عنهم شيئًا عندما يريد الله أن يأخذهم. يقول أبو العتاهية:

إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْمًا قَاصِدًا لَيْسَ يَفْدِي أَحَدًا مِنْهُ أَحَدًا^(١)

(١) محاضرات الأدباء، الأصفهاني، (٢/ ٥٠٩).

الجمع بين اعتراف المشركين هنا بكفرهم وبين إنكارهم ذلك في سورة الأنعام: قد تتساءل: ربما كان قولهم: ﴿صَلُّوا عَنَّا﴾ عبارة عن محاولة منهم للمكابرة واختلاق العذر لآلهتهم بأن الآلهة أضاعت أماكنهم، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مشركين، فكيف نجتمع بين اعترافهم هنا بذلك، وإنكارهم أنهم ما كانوا مشركين في سورة الأنعام، إذ حكى الله ﷻ عنهم أنهم سيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ۲۳]؟

الجواب: سورة الأعراف في هذا الموضع تحدّثنا عن اللحظات الأخيرة في الحياة الدنيا.. لحظات الموت، حيث تأتي ملائكة العذاب لتقبض أرواح المفترين المكذبين، وتسألهم سؤال تهكّم وإنكار عن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ﷻ، لماذا لا تنصروهم؟ فيجيبون: ﴿صَلُّوا عَنَّا﴾، وأما سورة الأنعام فتصوّر لنا حالهم بعد أن يحشروا يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ۲۲]، ولأنهم قد تأكّدوا من مصيرهم المظلم، وتيقّنوا أن القيامة حقّ ذهبوا يحاولون الكذب حتى لا يقذفوا في النار، فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ۲۳]، ويردّ الله ﷻ عليهم: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ۲۴].

فكلّ من السورتين تصوّر لنا موقفًا من مواقف المشركين في أحوال مختلفة. قال الله ﷻ تعقيبًا على قولهم في ختام الآية: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾، فما معنى هذا الختام للآية؟

الجواب: لما سألهم الملائكة عن آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله ﷻ، فأجابوا: ﴿صَلُّوا عَنَّا﴾ كان هذا اعترافًا منهم أنهم كانوا كافرين، وشهادة منهم على أنفسهم أثناء موتهم، وبعد موتهم، فأقروا بذلك أنهم كانوا كافرين، والإقرار أعظم أنواع الشهادة؛ لأنها شهادة على

النفس، والكفر معناه هنا تغطية الحقّ جحودًا للحقّ، أي كافرين جحودًا للحقّ الذي جاءهم، أو طلبًا لغيره.

الانتقال:

نتقل إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها من الآيات؟

المشهد الرابع: مشهد صدور الحكم الفصل في الظالمين من الثقلين، وكيفية دخول النار، ويُبَصِّرنا بها قوله جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ ٣٨:

بعد أن بيّن الله ﷻ لنا في الآية ٣٧ حال الصّنفين الأشدّ ظلماً في التاريخ، وهما اللذان ذكرهما في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ٣٦.. من الصّنفان؟ إنهم المفترّون والمكذّبون، وأخبرنا ﷻ أنهم سيستمتعون بالحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ٣٧، وعندما تأتيهم رسل الله ﷻ من ملائكة العذاب يتوفونهم يسألونهم عن معبوداتهم الباطلة، وقوّاتهم التي كانوا يتفاخرون بها ﴿قَالُوا أَإِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وعندها يعترفون بأنهم كانوا كافرين بالله ﷻ، وأن معبوداتهم وثرواتهم وقواتهم تاهت عنهم، فلم تنقذهم ولم تُفدّهم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، وبذلك اعترفوا وأقرّوا على أنفسهم بالكفر، والاعتراف سيّد الأدلة ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاْفِرِينَ﴾ [الأعراف ٣٧].

هنا تأتي هذه الآية لتظهر لنا مشهد الحُكْم العادل عليهم إذ أصدر الله ﷻ حُكْمَهُ الفصل، وكان الحكم قوياً وعادلاً، فقال الله ﷻ لهم بعد أن شهدوا على أنفسهم بالكفر: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ (٣٨).

فيصدر الله ﷻ حكمه في هذين الصنفين الأشدّ ظلماً في البشريّة، فيقول لهم: ادخلوا أيها الظالمون المفترون المكذّبون في الأحزاب والجماعات الظالمة التي كانت على شاكلتكم، فهي ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يقول: قد سلفت من قبلكم، وسبقتكم، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار قد خلت، فتقدّم زمانهم زمانكم، وهذا يُشعرُ بأنّه تعالى لا يُدخلُ الكفّارَ بأجمعتهم في النار دُفْعَةً واحدةً، بل يدخلُ الفَوْجَ بَعْدَ الفَوْجِ، فيكونُ سابقٌ ومَسْبُوقٌ، ليصحّ هذا القولُ، ويُشاهدُ الدّاخلُ مِنَ الأُمَّةِ في النَّارِ مِنْ سَبَقِهَا^(١).

فإن قلت: ما أجناس الأمم التي قد خلت قبلهم في النار؟

الجواب: يبينهم الله ﷻ بقوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ (٣٨)، وقدّم الجنّ؛ لأنهم الأصل في الإغواء، فهم من جرّوا خلفهم أولياءهم من الذين لا يؤمنون.

كيف يسمعون هذا الحُكْم؟

ربما كان ذلك بواسطة ملكٍ يُبلّغهم إيّاه حين موتهم، أو بأمرٍ لا تستطيع عقولنا تصوّره الآن.

ولكن قد تتساءل: هذا الأمر ﴿أَدْخُلُوا﴾ متى يوجّه لهم؟ وما معنى قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾؟

الجواب: يظهر لي أنه يوجّه لهم هذا الأمر مباشرةً في ثلاثة مواطن:

الموطن الأول: عند موتهم أي عند ساعة الاحتضار، أو عند السؤال الأوّل أي عندما يوجّه الملكان الأسئلة الأربعة التي تكون في القبر، أي في الحياة البرزخية، فيصدّر الحكم الأوّل.

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٣٨).

الموطن الثاني: عندما يَحْدُثُ الحساب الفاصل يوم القيامة، عند صدور الحكم النهائي.

الموطن الثالث: عندما يُوقَفُ الكفار والفجار على النار، ويصوّرُ الله ﷻ لنا ذلك المشهد بَدِيقَةٍ، فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وهناك يقول الله ﷻ لهم: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

هذا الحكم القوي يَصْدُرُ والإنسان في البرزخ أي في حياة (القبر) في المحاكمة الأولى، وكذلك يَصْدُرُ بصورة نهائية والإنسان في يوم القيامة في المحاكمة الأخيرة، وَيَصْدُرُ مجدداً والمجرمون يشاهدون النار تكاد تَمَيِّزُ من الغيظ.

ويصوّرُ لنا النبي ﷺ صدور هذا الحكم الأولي في حياة البرزخ، فيقول: «وإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ^(١)، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ. قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَتَرَعَّعُهَا كَمَا يُتَرَعَّ السَّفُودُ^(٢) مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول

(١) جمع (مسح): تَوَبَّ من الشَّعْرِ غليظاً. تاج العروس (٧/ ١٢٢).

(٢) حَيْدِيْدَةٌ ذَاتُ شُعْبٍ مَعْقَفَةٌ يُسَوَّى بِهَا اللَّحْمُ. تاج العروس (٨/ ٢٠٨).

الله ﷻ: «اَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ أَبَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُصِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتِنُّ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١).

فهو حكاية ما سيقع لهم في هذين الوقتين، وذهب ابن عاشور رحمته الله إلى أن الأمر مُسْتَعْمَلٌ لِلْوَعْدِ، فَيَتَأَخَّرُ تَنْجِيزُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢)، ويمكن اعتبار ذلك بالنظر إلى أن حكاية المستقبل وعيدٌ للحاضر.

ولاحظ أن الله ﷻ يَصَوِّرُ لَنَا المشهدَ، فيقول: ﴿قَالَ﴾ بِصِغَةِ الْمَاضِي كَأَنَّ الْوَاقِعَةَ قَدْ حَدَثَتْ وَانْتَهَتْ، وَذَلِكَ لِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ سَيَتَحَقَّقُ دُونَ أَدْنَى رَيْبٍ. وَأَمَّا كَلِمَةُ ﴿فِي﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فِي أَمْرٍ﴾ فَهِيَ لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ، أَيِ هَذِهِ الْأُمَمِ هِيَ الصَّنْفُ الَّذِي سَتَكُونُونَ فِيهِ لِأَنَّ لَكُمْ حُكْمًا وَاحِدًا هُوَ الْاسْتِقْرَارُ فِي النَّارِ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْهَا، سِوَا

(١) أحمد (١٨٥٣٤)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٦٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/١١٨).

أدخلتموها قبلهم أم بعدهم، أي: كونوا ضمن الأمم التي ستدخل النار، وقد يكونون أوّل الناس دخولاً أو آخرهم، وكأنه يقول لهم: لن تنفكوا عن أن تكونوا فيهم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي: ادخلوا لتكونوا ضمن أمم قد مضت وسبقت من قبلكم من الجن والإنس، ولكن هل تعلمون المكان الذي ستجتمعون فيه جميعاً؟

إنه النار ﴿فِي النَّارِ﴾. إن سماع هذا الاسم يُشعر الإنسان بالقلق والرعب والفرع وعدم الاستقرار، فكيف لو كان واحداً من أولئك الذين يسمعون أنهم أصحاب هذا القرار، فواعجباً لِمَنْ يَأْمَنُ، وَكَمْ قَدْ أَخَذَ آمِنٌ مِنْ مَأْمَنٍ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الذُّنُوبِ عَلِمَ أَنَّ لَذَاتِ الْأَوْزَارِ زَالَتْ، وَالْمَعَاصِي بِالْعَاصِي إِلَى النَّارِ آلَتْ، وَرُبَّمَا بُعِتَ الْعَاصِي بِأَجَلِهِ وَلَمْ يَبْلُغْ بَعْضُ أَمَلِهِ، وَكَمْ خَيْرٌ فَاتَهُ بِآفَاتِهِ، وَكَمْ بَلِيَّةٌ فِي طَيِّ جَنَائِيَتِهِ^(١).

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ فما المشهد الذي تقدّمه لنا الآية

هنا؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) التبصرة لابن الجوزي (ص: ٣٤).



المشهد الخامس: مشهد تلاعن حلفاء الإجرام وأصدقاء الأُمس:

وَيُبْصِرْنَا بِهِ قَوْلَهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾، إذ يحدث التَّلاعن الرهيب

بين الأحزاب والجماعات الظالمة عند التقائهم ببعضهم في نار الجحيم:

وتقدير الجملة: فيدخلون، وبعدها يتكاثرون، كلما دخلت أمة لعنت أختها، وكلمات هذه الآية تصوّر لنا أنهم يدخلون النار أمةً أمةً بحسب فصل القضاء والجرائم التي ارتكبوها في الدنيا، فيكون هناك سابقون يدخلون النار قبل غيرهم، ويكون هناك لاحقون.

وتعال لتسمع شُفِيًّا الْأَصْبَحِيَّ عليه السلام، يحدث عن صورة لأوّل فوجٍ يدخلون النار، فقد دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ وَبِحَقِّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَفْعَلُ، لِأَحَدِثْنِكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ ^(١) أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه نَشْغَةً فَمَكَّنَا قَلِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لِأَحَدِثْنِكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعَلُ، لِأَحَدِثْنِكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدَتْهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قَتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا

(١) النَّشَغُ: الشَّهيقُ وَمَا أَشْبَهَهُ حَتَّى يَكَادُ يُبْلَغُ بِهِ الْعَشْيُ. غريب الحديث للقاسم بن سلام (٤/ ١٩٥).

عَمِلْتَ فِيمَا عَلَّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فَلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ»، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتَيْ فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلَ خَلْقِي تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَقَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عَثْمَانَ: فَأَخْبَرَنِي عُقْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ «أَنَّ شُفْيَا، هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا» قَالَ أَبُو عَثْمَانَ: وَحَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، أَنَّهُ كَانَ سَيَافًا لِمُعَاوِيَةَ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ ﷺ: قَدْ فَعَلَ بِهِؤَلَاءِ هَذَا فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ ﷺ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقَلْنَا قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ ﷺ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْنَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿هُود: ١٦﴾^(١).

فهؤلاء المنافقون المراءون يكونون في أول فوج يدخل النار.

(١) الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وقال الألباني: «صحيح»، وأصله عند مسلم.



فَقَوْلُ رَبَّنَا ﷻ: ﴿كُلَّمَا﴾ كلمة تأمين كامل لِتَجَدُّدِ حَدَثِ التَّلَاْعُنِ كلما دخلت أُمَّةٌ جديدة النار، ف﴿كُلَّمَا﴾ من صيغ العموم، فهي ظَرْفُ زَمَانٍ ومكانٍ لِأَنَّ كَلًّا أُضِيفَتْ إِلَى ﴿مَا﴾ الظَّرْفِيَّةِ الْمُصْدَرِيَّةِ، فَصَارَتْ لِاسْتِعْرَاقِ الْأَزْمَانِ، فهي تصوّر لك التكرّر والاعتیاد في الأوقات والأمكنة بصورة دائمة، فهي منصوبة على الظرفية باتفاق، وَأُشْرِبَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَنَاصِبُهَا الفعل الذي هو جواب في المعنى، وهو ﴿لَعَنْتُ﴾^(١)، والتقدير: لعنت الأمة أختها كلما دخلت في كُلِّ أَوْقَاتٍ دُخُولِ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ.

فالتحية بينهم التلاعن ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنْتُ أُخْتَهَا ﷻ﴾، فتلعن السَّابِقَةَ اللاحقة، وتلعن اللاحقة السَّابِقَةَ، وعندما تدخل جماعة منهم النار تلعن أختها.

بصيرة: ﴿كُلَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنْتُ أُخْتَهَا ﷻ﴾ كلمة تأمين كامل تدلُّ على تَجَدُّدِ حَدَثِ التَّلَاْعُنِ كلما دخلت أُمَّةٌ جديدة النار.

ولكن قول رَبَّنَا ﷻ: ﴿أُخْتَهَا﴾ يثيرك، فما نوع الأخوة التي بين هذه الأمم؟

الجواب: المقام هنا يعيّن نوع الأخوة، فالأخوة هنا أخوة المعصية والذنوب.. أخوة الفكر المجرم والنظام الطاغوتي المدمر.. إنها أخوة الفجور والدين الخُرَافِي أو الْمُحَرَّفِ، كأنه قيل: كلما دخلت أُمَّةٌ لعنت أُمَّةً أخرى من أهل ملتها ودينها، ولعنت أختها ممن عصوا رَبَّهُمْ ﷻ قبلها أو بعدها.

والضمير في قوله ﴿لَعَنْتُ﴾ يعود إلى الأمة الداخلة حيث تُفَاتِحُ مَنْ سَبَقَهَا باللعن عند اللقاء بين الفريقين، ثم ما تلبث حتى تأتي أُمَّةٌ أخرى بعدها لتلعنها، فَالتَّلَاْعُنُ سيكون الحدث الأبرز بين أُمَمِ الزُّورِ الظالمة التي كَذَّبَتْ بآياتِ الله ﷻ واستكبرت عنها، وسيكون تحية وفود النار

(١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٢٠١)، وانظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٥٦)

من الأمم الداخلة تباعاً إليها، فيلْعَنُ أهل النار بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الرَّحْف: ٦٧].

ولكنك ستسأل: ما سبب لعن أهل النار لبعضهم؟

الجواب: أما في الدنيا فربما كانوا أكثر الناس تواداً وتعاوناً، إذ كَوْنُوا أُمَّماً مَتَّحَةً، وَأَخَوِيَّاتٍ مُؤْتَلَفَةً، وَمُنْظَمَاتٍ سِرِّيَّةٍ وَعَلْنِيَّةٍ يَدَافِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، فَتَبَنَّى بَعْضُهُمْ نَشْرَ الشَّرِّ فِي الْعَالَمِ، وَبَعْضُهُمْ تَبَنَّى نَشْرَ الْفُسْقِ، وَبَعْضُهُمْ تَبَنَّى نَشْرَ السُّكْرِ وَالْفَاحِشَةِ، وَبَعْضُهُمْ تَبَنَّى نَشْرَ الْإِثْمِ، وَبَعْضُهُمْ سَاعَدَ فِي ذَلِكَ إِعْلَامِيًّا، وَبَعْضُهُمْ تَعَاوَنَ مَعَهُمْ مَادِيًّا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَرْزَهُم بِالْفَتَاوَى الْكَاذِبَةِ الْخَاطِئَةِ الْخَادِعَةِ، وَبَعْضُهُمْ مَدَّهُمْ بِالرَّجَالِ، وَالْأَمْوَالِ، وَبَعْضُهُمْ تَابَعَهُمْ وَكَثَّرَ سَوَادَهُمْ، وَيُظَنُّ الْجَمِيعُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا يُوْجَدُ حِسَابٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ كَانَ هُنَاكَ حِسَابٌ فَإِنَّهُمْ كَمَا كَانُوا مُمَكِّنِينَ فِي الدُّنْيَا فَيُسَيِّمُكِّنُونَ فِي الْآخِرَةِ...

سيكتشفون ساعة الحساب أن كل ذلك سراب، وسيشعرون وهم يُدْفَعُونَ إِلَى النَّارِ دَفْعًا، وَيُدْعَوْنَ لَهَا دَعَاً أَنْ بَعْضُهُمْ أَضَلَّ الْآخَرَ، وَسَاعَدَ الْآخَرَ عَلَى ارْتِكَابِ أَعْظَمِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تَسْخَطُ اللَّهُ ﷻ، وَتُفْسِدُ الْأَرْضَ... سَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَدْيَانَهُمْ كَانَتْ كَاذِبَةً بَاطِلَةً، وَأَنَّ أَفْكَارَهُمْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا ضَلَالًا، وَأَنَّ حِسَابَاتِهِمْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا خَاطِئَةً، وَحِينَ يَرُونَ أَنَّهُمْ أُلْقُوا فِي النَّارِ يَكْرَهُونَ كُلَّ شَخْصٍ أَثَّرَ عَلَيْهِمْ، وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَعَانَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ الْإِعَانَةُ عِبَارَةً عَنْ فِكْرَةٍ قَالَهَا وَاحِدٌ مُتَقَدِّمٌ، فَأَعْجَبَتْ وَاحِدًا مُتَأَخِّرًا جَاءَ بَعْدَ زَمَانِهِ، فَيَذْكُرُ أَنَّهُ تَأَثَّرَ بِهِ، وَبِمَجْرَدِ دُخُولِهِ النَّارِ يَلْعَنُهُ وَيَسُبُّهُ... ﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾.

يا للخي والوقوف الرهيب.. يصل كُرُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَتَحْمِيلُ بَعْضُهُمُ الْمَسْئُولِيَّةَ أَنْ يَرَى الْمُتَقَدِّمُ أَنَّ الْمُتَأَخِّرَ لَمْ يَعتَبِرْ بِهِ، وَلَمْ يَتَبَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِهِ، وَيَرَى الْمُتَأَخِّرُ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ هُوَ الَّذِي سَنَّ لَهُ طَرِيقَ الْمَعْصِيَةِ، وَافْتَتَحَ خَطِّهَا، وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَوْلَا الْأُمَّةُ

الأخرى لكان لهم فرصة في أن يتركوا الكفر، ويرجعوا إلى الإيمان.. يرون أنه لولا الأمة الأخرى لكان يمكن أن يرجعوا عن العصيان إلى الصلاح والشكران.. يرون أنه لولا غيرهم لكان يمكنهم أن يتركوا الطغيان ويكونوا من الصالحين في بني الإنسان، لكن الأمم المتأخرين لم يعتبروا بالسابقين، والسابقون لم يجدوا استغفاراً لهم من المتأخرين، بل كانوا أئمة لهم في النار: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، فلعن بعضهم بعضاً، فيتذكرون تعاونهم على الكفر، وتواصيهم به، وتكوين البرامج لنشره، فيلعن بعضهم بعضاً.

وهنا تتذكر التبجيل الذي يُسبغه الملحدون على مَنْ سبقهم في الإلحاد، والمودة التي تؤلف بين المجرمين في الحياة الدنيا، لقد كانوا يتسمون لبعضهم، ويعينون بعضهم، وكانوا يتحالفون ضدَّ أهل الإيمان.

وكلُّ ذلك ينقلب في الآخرة إلى تلاعن وحقد وكرهية متبادلة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِلُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [٣١] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

[البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [٣٨]، فما المشهد الذي تقدّمه الآية هنا؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد السادس: تخاصم أهل النار:

وهو نوع من العذاب، حيث يحاول أهل النار الاعتذار للرحيم الغفار بإسناد جرائمهم إلى الآخرين، والتخلي عن المسؤولية الفردية، ويبيصّرنا بذلك قول الله تعالى جَدُّه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِلْتُمْ لَأُوقِلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾^(٣٨)، فتندرع عصابة المتأخرين من أهل النار لربّها، وتسند جرائمها إلى المعلمين الأوائل السابقين لهم في محاولة استئنافية مبطنّة لاستدرار رحمة الله:

وهنا ستسأل: ما الصورة البديعة التي تقدّمها كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾؟

الجواب: ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا﴾ ابتدائية تُفيدُ معنى التَّسَبُّبِ، أي: تَسَبُّبِ مَضْمُونٍ ما قَبْلَهَا في مَضْمُونٍ ما بَعْدَهَا^(١)، فكان السامع لما سمع قول الله ﷻ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ربما سأل متشوّقاً للمعرفة: إذا كانت تحيتهم التلاعن عند اللقاء، فما الذي وقع بينهم عندما اجتمعوا جميعاً؟

فأجابهم الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِلْتُمْ لَأُوقِلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ستقول: وما الصورة التي تقدّمها كلمة ﴿أَدَارَكُوا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾؟

الجواب: ﴿أَدَارَكُوا﴾ أصله ﴿تَدَارَكُوا﴾، فَقَلِبَتِ التَّاءُ دَالًّا لِيَتَأْتِيَ إِدْغَامُهَا فِي الدَّالِّ لِلتَّخْفِيفِ، وَسُكِّنَتْ لِيَتَحَقَّقَ مَعْنَى إِدْغَامِ الْمُتَحَرِّكَيْنِ، وَاجْتَلَبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ لِأَجْلِ الْإِبْتِدَاءِ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٢١).

بِالسَّائِكِينَ، وَمَعْنَاهُ: أَدْرَكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَصِغَ مِنَ الْإِذْرَاكِ وَزُنُ الْتَفَاعُلِ، وَالْمَعْنَى: تَلَاَحَقُوا وَاجْتَمَعُوا فِي النَّارِ^(۱).

على أنك تلمح في هذه الكلمة الثقيلة الوقع ﴿أَدَارَكُوا﴾ معنى آخر.. إنها تذكر بدركات جهنم؛ لأن الله ﷻ سَمَّى الْمَنَازِلِ الْهَآوِيَةِ إِلَى الْأَسْفَلِ فِي جَهَنَّمَ دَرَكَاتٍ نَعُوذُ بِاللَّهِ ﷻ مِنْهَا، بِعَكْسِ دَرَجَاتٍ، وَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَهْوِي وَرَاءَ الْآخَرِينَ فِي دَرَكَاتٍ جَهَنَّمَ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى مَكَانٍ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ ﴿جَمِيعًا﴾، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿أَدَارَكُوا﴾ تَصَوَّرُ لَكَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ خَارِجَ جَهَنَّمَ مِمَّنْ عَوَّقَ بِهَا أَحَدٌ، أَيْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ أُمَّمُ الضَّلَالِ كُلُّهَا يَرَى فِيهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَكَلِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مُتَلَاعِنِينَ مُتَخَاصِمِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنَ الْأُولَى وَمِنَ الْآخِرَى فِي قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُمْ لِأُولَهُمْ﴾؟

الجواب: عندما تجتمع القوى الظالمة التي كانت تظلم نفسها وتظلم البشرية، ويكون فيهم مَنْ ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ۳۷]، ويأس المجرمون من أن تصيبهم رحمةٌ تخرجهم من مكانهم في النار.. عندها يحصل حوارٌ بين أربع فئات منهم، وتكشف لنا الآية عن هذه الفئات الأربع، والنزاع ظاهره أنه بينهم، وحقيقته تضرعٌ لربهم: فأخبرنا الله -تعالى مجده- عن هذه الفئات الأربع، فقال: ﴿قَالَتْ أَخْرَجْنَاهُمْ لِأُولَهُمْ﴾..

وستسأل: نحن نسمع عن فئتين، فكيف صاروا أربعاً؟

الجواب: الأخرى منهم يمكن أن يراد بهم: الأخرى زمنًا أي المتأخرة في الزمن، وتكون الأولى مقابلها أي السابقة لهم في الزمان.

(۱) التحرير والتنوير (۸-ب/ ۱۲۱).

ويمكن أن يراد بالأخرى: الأخرى منزلة وهم الأتباع والسفلة، ويقابلها الأولى منزلة وهم القادة والرؤوس المتبوعون.

فصارت الفئات أربعاً: الفئة المتأخرة بالزمان، والفئة المتأخرة بالرتبة، والفئة المتقدمة بالزمان، والفئة المتقدمة بالرتبة.

في قوله: ﴿قَالَتْ أَخْرِهُمْ لِأَوْلَهُمْ﴾.. هذا التركيب عجيب ومشوق، فكيف يكون التخاصم بين الفئات، ويكون الخطاب متجهاً إلى الله ﷻ، فالمتوقع أن تقول فئة لأخرى: أنتم فعلتم كذا، لكنهم بدلاً من ذلك يوجهون الخطاب لربنا جلّ مجده؟

الجواب: هذا التعبير الفريد أكسبنا موقفين معاً:

الموقف الأول: المحاوره كانت بين الفئتين، ولكن الفئة المشتكية وهم المتأخرون زماناً أو رتبةً، أي الأتباع المقلدون لأئمة الضلالة ونجوم السوء يشتكون إلى الله ﷻ مباشرةً مضمرين، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، فكأنهم يقولون لربهم ﷻ: ربنا أنت الرحيم العدل، والذين سبقونا إلى النار هم الذين أضلونا عن طريقك المستقيم.. هم الذين دعونا إلى عبادة غيرك.. هم الذين زينوا لنا عبادة الشيطان ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ ربنا هؤلاء هم الذين جرؤونا على الكفر والمعصية، هؤلاء الذين زينوا لنا طاعة الشيطان، ونحن لم نكن لنضل لولا أننا وجدنا أمماً سبقتنا في الضلال، فأعجبنا بهم، وافتخرنا بأفكارهم، ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، فهم يستحقون العذاب عن أنفسهم أصالة، ويستحقون العذاب عنا أيضاً بسبب إضلالهم لنا، فآتهم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا.

أو يقول الأتباع: هؤلاء الذين كان لهم النفوذ والتأثير علينا فأصلونا، وبذلك فهم يستحقون ضِعْفًا من النار، أي: يستحقون عذابًا مضاعفًا، فينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويصف بعض المختبين هذا فيقول: «يجسد لك الحوار بين الفئات البائسة الآيسة مهزلتهم أو مأساتهم، ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء، وهم متناكرون أعداء يتهم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ويطلب له من (ربنا) شر الجزاء.. من (ربنا) الذي كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء!».

وقد تتساءل: كيف يُضِلُّ المتقدِّمون المتأخِّرين مع أنهم ربِّما لم يلتقوا؟

الجواب: من أمثلة إضلال المتقدمين لمن يأتي بعدهم:

المثال الأول: يخترع المتقدمون لمن بعدهم أنظمة المعصية مثل القتل والتدمير والإجرام، كما في النظرية الماركسية اللادينية، ومثل الوثنية التي سنَّها للعرب عمرو بن لُحَيٍّ، ومثل الوثنية التي تراها في المشرق والمغرب، ومثل النسوة التي تريد تدمير المرأة باسم المرأة، ومثل الليبرالية التي تدمر حقوق الإنسان باسم حقوق الإنسان، ومثل الثورية التي تستبعد الإنسان باسم الإنسان، ومثل تُجَّار الحروب الذين يسمُّون أنفسهم: صانعي السلام، ومثل تُجَّار الأمم المتحالفة على نشر السلاح والمخدرات ومافيا الأدوية الذين سنَّوا القتل وحماية المجرمين باسم عمليات الأمم المتحالفة لحفظ السلام، وانظر كيف يترَبَّح الوسطاء الدَّوليون من مآسي اليمنيين والسوريين والليبيين مثلاً هذه الأيام.

المثال الثاني: القاتل الذي بدأ أول عملية قتل في التاريخ، وهو شرُّ ابْنِي آدم ابتداءً أول عملية قتل للأبرياء فاقتدى به من بعده، فيكون عليه مثل أوزار من يتابعه ويقتدي به، فعن عبد الله



بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١).

المثال الثالث: اختراع أمرٍ باطل باسم العلم، أو الضرورات الدولية، أو الضرورات الاقتصادية، وتزيين هذا الباطل، وتدريسه، مثل اختراع نظرية أن الربا هو الأساس الاقتصادي الذي لا تقوم الحياة بدونه مع أنه امتصاص لحقوق الناس، أو اختراع نظرية أن الحكم الحقيقي لا يتم إلا بالبطش والإجرام والإرهاب، أو اختراع نظرية أن الحاكم لا يكون حاكمًا إلا إذا سفك الدماء المُحرَّمة، أو مما ذكر في بعض الكتب التي تعلّم السياسة مثل كتاب (ميكافيللي) حول الحكم المجرم، فهو يلقّن نظريات يُعتقد أنها الأفضل وهي الأظلم، أو اختراع نظرية أن المثقف لا يكون مثقفًا أو عصريًا إلا إذا كان فاسقًا أو متهتكًا، أو حَدَاثِيًّا، والحَدَاثَة عندهم الفسق، وليست الحَدَاثَة اختراع منتج جديد يفيد البشرية، فقد أشارت عالمة التونسية رانيا التوكابري: «العلم يقربنا دومًا من الله ﷻ»، فردّ عليها المتحلّلون والفاسقات؛ لأنهم إذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزت قلوبهم.

ومن الأمثلة: اختراع النظرية المنسوبة إلى (فرويد) في الجنس، إذ جعل الجنس هو الأصل في العلاقات الإنسانيّة، لا أن يكون الجنس إحدى وسائل الاستمتاع الإنساني لقيام هذه البشريّة بالسير على منهاج ربّها ﷻ.

ومن أخطر هذه النظريات النظرية الداروينية "نظرية النشوء والتطور"، فهي التي قنّنت الوثنية، وجعلت العنصريين يشعرون بأن كلّ غير البيّض مرتبةٌ منحطةٌ عنهم، وسوّلت لهم عدم الشعور بالذنب عندما يُبيدون غيرهم.

(١) البخاري (٣٣٣٥)، مسلم (١٦٧٧).

كل هذا من الإضلال، ولذلك يطلب الذين أضلوا بهذه النظريات، وهذه الأفكار الخاطئة الكاذبة الآثمة أن يُضَاعَفَ العذاب على من اخترع مثل هذه النظريات.

وقد بيّن الله ﷻ لنا أن الذي يؤثر على غيره في السوء يكون عليه وزرُه ومثْل وزر من تابعه، فقال: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [التخل: ٢٥].

كما قرّر النبي ﷺ أن كل من اخترع نظرية ملحدة أو عملاً مجرماً، فتابعه عليه آخرون يصير إماماً في ذلك، فيكون عليه وزرُه، ووزر من عمل بمثله إلى يوم القيامة، فقال: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهُمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا، وَوزر من عمل بها مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وكذلك قد يعنى بقوله: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنِي وَأَخْرِجْنِي لَأُولَهُنَّ﴾ الأوليّة في الرتبة والتأثير، فيكون المراد بالأخرى الأتباع، وبالأولى المتبوعين، فيشتكي الأتباع أمراءهم وساداتهم كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ [٦٧] رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وهنا ربما تسأل: لماذا أفادت سورة الأعراف أنهم طالبوا بتشديد العقوبة بأن يضاعف العذاب على من أضلّوهم ضعفاً، بينما أفادت سورة الأحزاب أن المطالبة امتدّت إلى ضعفين، فهل في هذا تناقض؟

(١) مسلم (١٠١٧).

الجواب: لا تناقض، فيحتمل أن الذين طالبوا بالضعف هم المتأخرون في الزمان، والذين طالبوا بالضعفين هم الأتباع أي المتأخرون في الرتبة، ويحتمل أن بعضهم قاطع بعضًا، وهم ينادون الله ﷻ، فصوّرت لنا الآيات مطالباتهم جميعًا، فبعضهم طالب بالضعف، وبعضهم طالب بالضعفين كما يحدث عادةً عند أهل الدنيا، إذا قاطع بعضهم بعضًا في الحديث.

وبكل حال فإن اختلاف الصيغتين يحكي بؤس الفئات المتخاصمة التي حشرت جميعها في جهنم، ولم تعد تملك من أمرها شيئًا، فما ثَمَّ إلا التلاوم والتلاعن، والندم المُمِضُّ. وبذلك ترى أن قوله: ﴿قَالَتْ أَخْرِنَهُمْ لِأَوْلٰئِهِمْ﴾ تضمّنت القول المباشر أو المضمّر من فئة لأخرى، ثم تضمّنت كلام الأخرى عن الأولى.. وحقّق هذا التعبير لنا الأمرين معًا.

تقول الأخرى للأولى مشككيةً إلى ربّها: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۚ﴾ **فما الضّعف الذي تطلبه الأخرى للأولى؟**

الجواب: (الضّعف) ^(١): بِكَسْرِ الضَّادِ هو مِثْلُ الشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً، ويجوز أن يراد به المِثْلُ إلى ما زاد وليس بِمَقْصُورٍ عَلَى المِثْلَيْنِ، والدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سَبَأ: ٣٧]، وهو الذي بَيَّنَّ لَنَا أَنَّ هَذَا الضَّعْفَ قَدْ يَكُونُ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الْأَجْرِ الْأَصْلِيِّ، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الْأَنْعَام: ١٦٠]، فَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الضَّعْفُ فِي مُطْلَقِ التَّكْثِيرِ، وَذَلِكَ إِذَا أُسْنِدَ إِلَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْمِقْدَارِ، مِثْلَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الْفِرْقَان: ٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٠]، أَرَادَ الْكَثْرَةَ الْقَوِيَّةَ فَقَوْلُهُمْ هُنَا: ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٨] أَي: أَعْطِهِمْ عَذَابًا هُوَ ضِعْفُ عَذَابٍ آخَرَ، فَعَلِمَ أَنَّهُ آتَاهُمْ عَذَابًا، وَهُمْ سَأَلُوا زِيَادَةَ قُوَّةٍ فِيهِ تَبْلُغُ

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٣٨/١٤)، تاج العروس (٤٩/٢٤)، التحرير والتنوير (٨-ب/١٢٢).

ما يُعَادِلُ قُوَّتَهُ، وَلِذَلِكَ لَمَّا وُصِفَ بِضَعْفٍ عُلِمَ أَنَّهُ مِثْلُ لِعَذَابٍ حَصَلَ قَبْلَهُ؛ إِذْ لَا تَقُولُ: أَكْرَمْتُ فَلَانًا ضِعْفًا، إِلَّا إِذَا كَانَ إِكْرَامُكَ فِي مُقَابَلَةِ إِكْرَامِ آخَرَ، فَأَنْتَ تَزِيدُهُ، فَهَمَّ سَأَلُوا لَهُمْ مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ.

هنا يجيب الله ﷻ على شكوى الأمة الأخرى من الأولى فيقول: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فما معنى ذلك؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد السابع: مشهد الرد الحاسم، والحكم العدل من الله الملك الحق المبين، ويُبَصِّرُنَا به الله ﷻ في قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾:

أي: لِكُلِّكُمْ، أُولَئِكَمْ وَآخِرِكُمْ، وَتَابِعِيكُمْ وَتَتَّبِعِيكُمْ ﴿ضِعْفٌ﴾، لَأَنَّ كَلًّا مِنْ الْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ وَالتَّأَخَّرِينَ وَالتَّمَقَّدِمِينَ كَانُوا ضَالِّينَ مُضِلِّينَ، أَي: لِكُلِّ مِنْكُمْ ضِعْفٌ مُحَدَّدٌ مُعَيَّنٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ.

وقد تسأل: فهما لماذا يستحق المتقدمون والمتبوعون الضعف، فلماذا يستحق غيرهم الضعف؟

الجواب: بالنسبة لمن يأتي في الزمان قبل غيره كُلٌّ مِنْهُمْ سَابِقٌ لِمَنْ بَعْدَهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ قَبْلِهِ، وَبِالنَّسْبَةِ لِلرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ أَجْبَرُوا أَتْبَاعَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ مَنْهَجِ الشَّقَاءِ لَهُمْ ضِعْفٌ، وَلَكِنْ الرُّؤَسَاءُ لَمْ يَكُونُوا لِيَجْبَرَوْهُمْ لَوْلَا أَنَّ الْأَتْبَاعَ وَافَقَوْهُمْ، وَأَوْهَمَوْهُمْ أَنَّهُمْ يَطِيعُونَهُمْ، فَلَوْلَا الْأَتْبَاعُ لَمَا وُجِدَ الرُّؤَسَاءُ، وَلَوْلَا الرُّؤَسَاءُ لَمَا اجْتَمَعَ الْأَتْبَاعُ، فَلِكُلِّ ضِعْفٌ، وَيَشْتَرِكُونَ فِي الْمَسْئُولِيَّةِ، فَصَارَ كُلُّ مِنْكُمْ مُسْتَحَقًّا لِلضَّعْفِ مِنَ الْعَذَابِ.

وهنا ستسأل: فما معنى قول ربنا: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾؟

الجواب: لم يبين لنا بماذا تعلّقت كلمة ﴿تَعْلَمُونَ﴾، بل أطلق، ولذا احتملت الآية معاني متعددة منها:

المعنى الأول: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) أي: ولكنكم يا معشر أهل النار، لا تعلمون قدر العذاب، ولا حجمه، فلا تعلمون ما أعدَّ الله ﷻ لكم من العذاب، فلذلك تسأل الأمة المجرمة منكم الضّعف لأختها، فلا تظنوا أن العذاب شيء يسير حتى تحتاجوا إلى طلب مضاعفته على غيركم، وخذ أنموذجاً لأيسر عذاب في أهل النار؛ إذ يصفه النبي ﷺ، فيقول: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ، عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ»^(١)، و(المِرْجَلُ): قِدْرٌ مِنْ نَحَاسٍ، و(القُمْقُمُ): إِنْاء ضِيقُ الرَّأْسِ يُسَخَّنُ فِيهِ الْمَاءُ يَكُونُ مِنْ نَحَاسٍ وَغَيْرِهِ، فإذا كان هذا أخفَّ أهل النار فكيف غيره؟!

المعنى الثاني: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) طبيعة العذاب المضاعف لكل منكم، فالعذاب ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، أَوْ جَسَدِيٌّ وَنَفْسِيٌّ^(٢).

فالعذاب الظاهر مثل: العذاب الذي وصفه الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

والعذاب الباطن مثل: الذي وصفه الله ﷻ في قوله: ﴿كَأَلَّا لِيُثَبِّدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۖ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۖ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

(١) البخاري (٦٥٦٢).

(٢) تفسير المنار (٣٦٩/٨).



المعنى الثالث: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ الذي أنزله عليكم، فلم تتبعوا ما أنزل إليكم، فصرتم لا تهتمون أن تعلموا ما الذي يجب عليكم، فأورثكم هذا استهانة بربكم ﷻ، وبمستقبلكم، وصرتم تفترون الأكاذيب على الدين وتعاليمه التي جاء بها.

فإن قلت: في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ قراءتان توضحان مشهدين.. فما هما؟

الجواب:

المشهد الأول: توضحه قراءة شعبة عَنْ عاصِمٍ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بِالْيَاءِ عَلَى الْكِنَايَةِ عَنِ الْغَائِبِ، وَالْمَعْنَى: وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ كُلُّ فَرِيقٍ مِقْدَارَ عَذَابِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ^(١)، فهم يَتَنَوَّنُ جميعاً، فيخاطب الله ﷻ المشتكين فيقول: ولكن لا يعلم الآخرون، أو يخاطب ملائكته فيقول: لا يعلم هؤلاء المشتكون ماذا سيحلُّ بهم من مضاعفة العذاب لهم، ولمن اشتكوا عليهم.

المشهد الثاني: توضحه قراءة الباقيين: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ^(٢)، وَالْمَعْنَى: وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ المشتكون ما لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، ولا تعلمون بأن مجرد مسَّ النار كافٍ للإيلام والإيجاع، ويجوز أيضاً ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي يا أهل الدنيا ماذا تخبئ لكم النار، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ»^(٣)، وقال أنس رضي الله عنه: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنْيْنٌ^(٤)، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٣٩).

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/٢٦٩).

(٣) أحمد (١٨٣٦٠)، وحسنه الأرناؤوط والوداعي في الصحيح المسند (١١٥٧).

(٤) البخاري (٤٦٢١).

تَبِطُّ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى، أَوْ إِلَى، الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ»^(١).

ننتقل إلى قوله ﷺ: ﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٣٦) ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثامن: الاعتراف بأن الأعمال الاختيارية أساس تحديد المصير:

حيث تردُّ الأمم النارية القيادية والسَّابِقَةُ على الأمم التابعة والمتأخِّرة: ﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٣٦):
كلمة ﴿أُولَى﴾ وكلمة ﴿أُخْرَى﴾ ذكرنا أنهما تشيران إلى الأولوية الزمانية أو أولية المتابعة والإمرة، وهنا نشهد الفرقة النارية التي سبقت في زمان دخول النار كما كانت سابقة في الزمان في الدُّنيا، نشهدها وهي تردُّ على الفئة التي جاءت بعدها في دخول النار كما جاءت بعدها في زمان الدُّنيا.

وكذلك تردُّ فئة السادة الأمراء المتبوعين على أتباعهم، فيقولون لهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٣٦)، الفاء فصيحة أفصحت عن كلام محذوف، والمعنى على الجهتين:

(١) أحمد (٢١٥١٦)، وحسنه الأرناؤوط وغيره، وذكره الألباني في الصحيحة (١٧٢٢)، وذكر في كتاب النصيحة (ص: ٢٤٥) أنه لم يجد لجملة: «وما تَلَذَّذْتُمْ بالنساء على الفُرُش» ما يقويها.

الجهة الأولى: إن كان المقصود الأولية الزمانية: فيردُّ السابقون زمانًا من عصابة الظلم المفترين المكذبين على اللاحقين ممن جاء بعد زمانهم، فيقولون: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فقد جئتم بعدنا، واتبعتم باطلنا، ولم تحاولوا أن تمنعونا عن ذلك الباطل، ولا أن تستغفروا لنا على ذلك الإجماع.

الجهة الثانية: إن كان المقصود الأولية الرئاسية: فيردُّ السادة الأمراء المتبوعون على تابعيهم، فيقولون لهم: لو أنتم كنتم على خير، وفكرتم بعقولكم لما أطعتمونا عندما كنا سادة، ولما تبعتمونا عندما وجَّهناكم إلى الباطل، ولتركتم طاعتنا عندما أمرناكم بقتل الأبرياء، أو سفك الدماء، أو الكفر برَّبِّ الأرض والسماء، ولو فعلتم ذلك لتفضَّلتم علينا، لكنكم لما أطعتمونا ما كان لكم علينا من فضل، فلا نفعتمونا، ولا نفعتم أنفسكم. فيقولون لهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ يصوِّر لنا أن المتقدمين والأمراء المتبوعين يوجَّهون الكلام للمتأخرين والتابعين من أهل النار، فيقولون لهم:

كان يمكنكم أن تعتبروا بنا، وتنبذوا معاصينا، وجاءتكم الرسل والنذر، وقرأتم الكتب، فهل أنبئتم إلى طاعة الله ﷻ، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالكم؟ أنتم أولى أن تأخذوا الضَّعْف «فما فضَّلُكم علينا، وقد بيَّن لكم ما صُنِع بنا، وحُدِّرتُم؟» - كما يقول أبو مجلز لاحق بن حميد رحمه الله -^(١)، لقد سبقناكم في الظلم، وأنتم علمتم الحق، فأبيتم إلا البعد عنه، ولو أسلمتم لربما استغفرتُم لنا، لكنكم تستحقون العذاب بكسبكم، وليس لأننا سبقناكم في الضلالة فاقديتم بنا، ولو اعتبرتم بنا لكان يمكن أن تستغفروا لنا فيخفَّف عنا العذاب - كما

(١) لاحق بن حميد بن سعيد أبو مجلز البصري الأعور (ت: ١٠٦ هـ)، تابعي، وأحد رواة الحديث النبوي من الثقات، التاريخ الكبير (٥/ ٥١٨)، وتهذيب الكمال (٣١/ ١٧٦).

يشير إليه مجاهد وهو معنى صحيح، - وإن استبعده الطبري رحمته الله؛ - لأنه يرى أن هذا القول منهم كان على سبيل التوبيخ على ما سلف منهم وليس على قِلبهم ^(١).

ولكنك عندما تنظر إلى القول الفاصل الذي صدر من مقام الإلهية المعظمة أي إلى قول الله ﷻ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٣٨ يمكن أن يكون المعنى ما ذكره ابن عاشور رحمته الله بقوله: «التَّقْدِيرُ: فَإِذَا كَانَ لِكُلِّ ضِعْفٍ فَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ فَضْلٍ، وَالْمُرَادُ بِالْفَضْلِ الزِّيَادَةُ مِنَ الْعَذَابِ» ^(٢).

فهذا الكلام بين أهل النار لا يعبر عن تخفيف في العذاب، بل يزيدهم آلاماً وحسرة. نعوذ بالله من النار وأهلها.

وخلاصة المعنى: كلمة ﴿أُولَى﴾ تشير إلى الأولوية الزمانية أو القيادية، وكلمة ﴿أُخْرَى﴾ تشير إلى التأخر في الزمان أو المنزلة، أي قالت الأولى إمارةً أو زمناً للأخرى منزلةً أو زمناً: أنتم مثلنا ما كان لكم علينا من فضل ليخفف عنكم العذاب بل تستحقون النار بسبب اختياركم للأعمال السيئة.

وهذا التخاصم النكد بين فئات الظالمين يذكره الله ﷻ لنا في أكثر من سورة، كما في قوله تعالى جده في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِدَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ٣١ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ ٣٢ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ

(١) تفسير الطبري (١٢/٤٢٠، ٤٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/١٢٤).

وَالْتَهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا الثَّدَامَةَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سَبَّأٌ: ٣١-٣٣﴾.

وإذا كان المتقدمون مكانةً وزماناً هنا يلومون أتباعهم ومقلديهم بأنه لم يكن لهم فضل، فإنهم يكشفون لهم في سورة الصافات بأنهم كانوا أصحاب حرية في الإرادة فاختاروا الغواية على الهداية، إذ يحدثنا الله ﷻ عن تخاصمهم، فيقول: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصَّافَات: ٢٨].

أي قال الضعفاء والأتباع لرؤسائهم: إنكم كنتم تأتوننا عن القدرة، لأنكم تتحكمون بقرارتنا.

ويرد عليهم أولئك: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصَّافَات: ٢٩، ٣٠].

وهنا لا بد أن تسأل: ما المعنى الذي تقدمه لنا الباء في كلمة: ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣١﴾﴾؟

الجواب: الباء هنا تدل على السببية؛ أي يختم مقدمو الإجماع زماناً ورتبةً ومكانةً كلامهم بأن يقولوا: ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿الْعَذَابَ﴾ في سَجِينِ ﴿بِمَا﴾ أي: بِسَبَبِ مَا ﴿كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، لا بِسَبَبِ اتِّبَاعِكُمْ لَنَا فِي الْكُفْرِ، وهذا القول يدل على التشفي والشماتة والإهانة المرة التي لا تفيد شيئاً؛ لأن الجميع مشترك في العذاب.

ولذلك يصور الله ﷻ لنا أن الأوائل في النار، والسادة الأمراء يقولون للمتأخرين في زمان الدنيا ممن يدخلون النار، ولأتباعهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٩].

فذوقوا العذاب بسبب اختياركم، وحركتكم، وإرادتكم، والكسب تحصيل عمل والحصول على النتائج، وهم حصّلوا عمل الكفر والشر، وحصدوا نتائجه وهي النار والعذاب والخزي.

فماذا سيقول المتأخرون الذين يتبعون المتقدمين في غيِّهم؟

ماذا سيقول الأتباع الذين يتبعون الملوك والأمراء والسادة والقادة في غيِّهم؟

ماذا سيقولون بعد ذلك؟

لقد انقضت حُجَّتُهُمْ، وغلبوا في الخصام، ولم يطيقوا جوابًا، ولو آمنوا لقالوا: فَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ أَنَّا اعتبرنا بكم، فلم نقع في الكفر الذي وقعتم فيه، ولم نقع في الإجمام الذي ارتكبتموه، ولم نطعكم عندما أمرتمونا بالفسق والإجمام، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فلم يقولوه عندما قالوا له: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

ويصحّ أن تكون هذه الجملة ختامية وجَّهها الله ﷻ للجميع - كما ذهب إليه بعض المفسرين - فبعد انتهاء الحوار المؤلم بينهم يقول الله لجميعهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، فيقولون لهم: ذوقوا بسبب اختياركم النكد.

وربما تساءل: لماذا عبّر الله ﷻ عن عمل هؤلاء المجرمين بلفظ الكسب، فقال: ﴿فَذُوقُوا

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؟

الجواب: الكسب تحصيل عمل، فيقال: فلان مَكْسَبُهُ كذا وكذا أي: مَرْبَحُهُ. ومن أين يأتي هذا المربح أو الربح؟ يأتي من العمل فهو تحصيل عمل ويجد الإنسان من خلاله النتائج، فهو يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ، وَإِصَابَةٍ، والاكْتِسَابِ: افتعال يدلُّ على جهد زائد، ومبالغة في العمل، وهنا تدرك لماذا قال الله ﷻ: ﴿مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالكسب في جانب الخير والاكْتِسَابِ في جانب الشر.. لماذا؟

لأن الفطرة السليمة التي خلق الله ﷻ الإنسان عليها تميل إلى الخير، فتأتي سليقةً وطبيعةً، أما عمل السوء فما يتأتى إلا بجهد وصعوبة لأنه يناقض الطبيعة السليمة، وخذ لذلك مثلاً إذا أراد الإنسان المعصية يُؤَنَّبُهُ ضميره في البداية وليس بعد أن يتكرَّر ذلك منه، ولذلك: احذر من الخطوة الأولى؛ لأن ما بعدها يترتب عليها، ويصبح العمل بعد ذلك عندك طبيعةً وعادةً معتادةً، فذلك سرُّ التعبير في سورة البقرة إذ يكون الوصف عامًّا لبيان الحقيقة الإنسانيَّة..

فلماذا عبَّر في مواضع أخرى عن فعل السوء بالكسب المحض؟

الجواب: لأن هؤلاء اعتادوا على فعل السوء، وأصبح طبيعةً دائمةً يتفاخرون بها، فلم يعودوا يجدون لها ألمًا في النفس، ولا يحتاجون إلى جهد ليتفَنَّنُوا في أدائها، فانتقل من الاكتساب إلى الكسب.

فذوقوا جميعكم -أيها المجرمون- عذاب جهنم بما كنتم في الدنيا تكسبون من الآثام والمعاصي، وتجترحون من الذنوب والإجرام.

وفيما قَصَّ الله من مُحَاوَرَةِ قَادَةِ الْأُمَمِ وَأَتْبَاعِهِمْ مَا فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَتَحْذِيرٌ لِقَادَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِيقَاعِ بِأَتْبَاعِهِمْ فِيمَا يَزُجُّ بِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ، وَيُحَسِّنُ لَهُمْ هَوَاهِمَ، وَمَوْعِظَةً لِعَامَّتِهِمْ مِنَ الْإِسْتِرْسَالِ فِي تَأْيِيدِ مَنْ يُشَايِعُ هَوَاهِمَ، وَلَا يُبَلِّغُهُمُ النَّصِيحَةَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

«بَكَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ لَيْلَةً فَأَطَالَ، فَسُئِلَ عَنْ بُكَائِهِ، فَقَالَ: ذَكَرْتُ مَصِيرَ الْقَوْمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ﴿فَرِيقٌ فِي الْحَجَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ١٧]، ثُمَّ صَرَخَ، وَغَشِيَ عَلَيْهِ.

كَمْ ذَا أَغْطِطُ أَمْرِي كَأَنِّي لَسْتُ أَذْرِي

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٢٥)، والحديث في البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

أَغْفَلْتُ ذَا الَّذِي كَا
وَلَمْ أَزَلْ أَتَمَّادَى
مَنْ لِي إِذَا صِرْتُ رَهْنًا
بِأَيِّ عُذْرٍ أَلْقِي
فَلَيْتَ شِعْرِي مَتَى أُدْ
يَا مَنْ قَدْ وَهَى شَبَابُهُ، وَامْتَلَأَ بِالزَّلَلِ كِتَابُهُ، أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ الْجُلُودَ إِذَا اسْتُشْهِدَتْ نَطَقَتْ، أَمَا
عَلِمْتَ أَنَّ النَّارَ لِلْعَصَاةِ خَلَقَتْ، إِنَّهَا لَتَحْرِقُ كُلَّ مَا يُلْقَى فِيهَا، قَالَ ﷺ:
«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الرَّقُومِ قَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ»^(١)، فَكَيْفَ
بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ لَا طَعَامٌ لَهُ غَيْرُهُ!

أَسَفًا لِأَهْلِ النَّارِ قَدْ هَلَكُوا وَشَقُّوا، لَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُ أَنْ يَصِفَ مَا قَدْ لَقُوا، كُلَّمَا عَطِشُوا
جِيءَ بِالْحَمِيمِ فَسُقُوا، وَهَذَا جَزَاؤُهُمْ إِذْ خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ وَفَسَقُوا، قُطِّعُوا وَاللَّهُ بِالْعَذَابِ
وَمُزَّقُوا، وَأَفْرَدَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ فَرِيقِهِ وَفَرَّقُوا، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ قَدْ كُتِبُوا فِي السَّلَاسِلِ وَأُوثِقُوا^(٢).

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] ما
المشهد الذي تقدّمه لنا؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) أحمد (٣١٣٦)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٨٣).

المشهد التاسع: مشهد الحكم الفاصل النهائي في حال من كذب بآيات الله ﷻ واستكبر عنها، وكيف سيكون خلوده في النار، ويُبَصِّرُنَا بِهِ اللَّهُ ﷻ فِي الْآيَاتِينَ [الأعراف: ٤٠-٤١].

آيات المشهد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ٤٠ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

والآن لا بد أن نسأل: ما المناسبة والاتصال بين هذا المشهد في هاتين الآيتين، والمشهد الذي قبله؟

الجواب: أظهر الله ﷻ لنا في المشهد السابق تخاصم أهل النار إذ يلعن بعضهم بعضاً ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَذَابُكُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وكان لعن بعضهم بعضاً يخفي محاولةً أخيرةً مبطنَةً لاستدرار رحمة الله ﷻ، إذ يلهجون بنداء ربهم، والرجوع إليه، وربما توقعوا وهم يرفعون الأمور إلى الله ﷻ أن يحدث لهم خلاصٌ ما من المصيبة التي حلت بهم، ولو بعد حين، فجعلوا ذنوبهم مرتبطة بالآخرين، فالأخرى تجعل الأولى سبباً في الضلالة، والأولى تجعل الأخرى سبباً في منع نزول الرحمة، وكأنهم يقولون: ربنا لك الحجة علينا، ولكن الذنب ليس متعلقاً بنا فقط، بل يتعلّق بالآخرين بسبب أو بآخر، فكأنهم يطلبون من الله ﷻ أن يخفّف عنهم، أو أن يعفو عنهم، ولكن الله - جلّ مجّده - يصدر حكمه الفصل في هذا المشهد، فيخبرهم النتيجة النهائية الدائمة لما كانوا

يعملون في الدنيا، لتعلم البشرية أن حكم الله ﷻ قائم على العدل الكامل والعلم الشامل، فانظر كيف فصل جَلَّ شأنه الحكم في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: حدّد المحكوم عليهم بدقّة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ۝٤﴾:

قد تقول: الله تعالى حدّد المحكوم عليهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٤٠]، أليس قد ذكرهم في الآيات السابقة، فقال: ﴿يَبْنِيْ عَادَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِيْ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦]، فلماذا أعاد ذكرهم بأوصافهم نفسها؟

الجواب: هؤلاء هم أنفسهم الذين أرسل الله ﷻ لهم الرسل ﷺ فاختاروا التكذيب والاستكبار، وبعد أن قال الله ﷻ لهم: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ربما أملوا أن يجدوا الفرج لكنهم يسمعون الحكم النهائي، فأعاد الله ﷻ أوصافهم، لقبح هذه الأوصاف، فاستحققت بها أن يذكرّك الله ﷻ حتى لا تقع في شيء منها، ولا جزء من هذا الشيء، وتسلم نفسك متواضعا لرّبِّك -جَلَّ مجده-، فقال ربُّنا الملك الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ۝٤﴾.

فتكلم عنهم بصيغة الغائب، والسياق كان يقتضي أن يخاطبهم مباشرة، إذ قال الله قبل ذلك: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وكان يمكن أن يقول لهم: (أنتم يا من كذبتُم بآياتنا واستكبرتم عنها)، فلماذا؟

الجواب: ليدركنا الله ﷻ بخطر هذه الصفات، وقبحها، وأن كلَّ إنسان مُعرّض لأن يكون فيه منها، فلذلك تكلم الله ﷻ عنهم بصيغة الغائب، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا



عَنْهَا ﴿٥٣﴾، وأظهر في موضع الإضمار ليعمّ الحكم على جميع من توجد فيه هذه الصفات، وليهوّل من حال مصيرهم، ووَصَفَهُم بِالْأَمْرِينَ الْمَدْمَرِينَ لأي مستقبل بشري: التكذيب بالآيات، والاستكبار عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ﴿٥٤﴾.

اخْتَرَسَ - حماني الله وإياك من التكذيب والاستكبار - فقد يوجد فينا شيء من ذلك، ولا نشعر، فإن التكذيب يشمل مَنْ يتردّد في قبول أمر ربّه ﷻ، حتى لو خالف هواه.. اسمع إلى الله ﷻ يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، لا يجدوا حرجًا في الأمور المالية، والاجتماعية.. لا يعبدون أهواءهم فيتخرجون من شريعة ربهم ﷻ، وانظر ذلك في عبادة الناس هذه الأيام لاتفاقيات سايكس بيكو، ثم انظر مثال ذلك فيما يكره بعض الرجال التذكير به في الأمور المالية، وتكره النساء التذكير به في الأمور الاجتماعية... والله المستعان.

وكذلك ما أكثر ما يوجد الاستكبار في نفس الإنسان، وهو لا يشعر، فيعرض عن آيات، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾، ثم ضَمَّن الاستكبار الإعراض، فقال: ﴿عَنْهَا﴾ أي استكبروا في أنفسهم عن اتباع الآيات، فأعرضوا عنها.

وستسأل: ما وظيفة السين والتاء في قول ربنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، فكان يمكن أن يقول: وَكَبَرُوا، أَوْ تَكَبَرُوا؟

الجواب: السين والتاء في قول ربنا الملك الحق: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تحبونا ثلاث وظائف:

الأولى: التأكيد أي: تكبّروا بصورة مؤكّدة عن الإيمان بالآيات.

الثانية: الطلب أي: طلبوا أن يكونوا أكبر من أن يؤمنوا بتلك الآيات، فأنفوا عن اتباعها والانقياد لها تكبرًا، فشاهاوا إبليس في التكبر.

يقول سيويه رحمه الله: «استعطيت، أي: طلبت العطية، واستعنته، أي: طلبت إليه العتبي. ومثل ذلك: استفهمت واستخبرت، أي: طلبت إليه أن يخبرني...»^(١)، ويفهم التحول من هذه الحالة في قولهم: استحجر الطين أي تحول حجرًا.

هل رأيت قوة التصوير القرآني؟

يصوّر لك السين والتاء في قوله: ﴿وَأَسْتَكْبِرُوا﴾ بأنهم طلبوا الكبر كما قال الله ﷻ عن إبليس: ﴿قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، ﴿قَالَ يَبْنَئِيلُيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ﴾ [ص: ٧٥]، وكذلك يصوّر لك الحرفان: السين والتاء التكبر المؤكّد الذي يتصف به هؤلاء، فليس تكبرًا عارضًا بل هو تكبر مؤكّد، قائم على الطلب والتحصيل.

فالمكذّبون المستكبرون لم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ، واتخذوا من دونه أولياء إما أنفسهم أو أصنامهم أو البشر الذين يتبعونهم، فبعض الناس يتخذ العالم وليًا من دون الله ﷻ، وبعضهم يتخذ الحاكم وليًا من دون الله ﷻ، وهذه الأيام يتخذون الأنظمة الدولية أولياء من دون الله ﷻ، فلم يكتفوا بعدم الاتباع حتى أضافوا لذلك أن كذبوا بالآيات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، والآيات يدخل فيها أنواعها الثلاثة:

(١) آيات الوحي، فهي الحجج الصادقات النازلة من الله ﷻ التي بلغها الأنبياء.

(٢) الآيات بمعنى المعجزات المادّية.

(٣) الآيات الكونية الباهرة في الآفاق وفي الأنفس، فهذه الآيات المسطورة والمنشورة،

تدل على أصول الدين، وهؤلاء المكذّبون المستكبرون أصناف:

(١) الكتاب (٧٠ / ٤).

الصنف الأول: الدَّهْرِيَّةُ الملحدة الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الْحَاجِيَّة: ٢٤] فهؤلاء ينكرون دلائل الآيات على إثبات ما لله ﷻ من الذَّاتِ والصفات، فيُنْكِرُونَ حياة الله ﷻ، وقيوميَّته على العالم، فيكذبون بالآيات ويستكبرون عنها.

الصنف الثاني: المشركون الذين يصرون على أن يعبدوا حَجَرًا، أو بَشَرًا، أو أي مخلوق مع الله ﷻ، فيكذبون بالآيات التي تُلزمهم بتوحيد الله ﷻ، ويستكبرون عنها.

الصنف الثالث: مُنْكَرُو النُّبُوءَاتِ الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله ﷻ، ولكنهم يُكْذِّبُونَ بالآيات ويستكبرون عنها، فلا يؤمنون بالوحي، ولا بالرسل ﷺ، ويكذبون على أنفسهم، فيزعم بعضهم أنه يؤمن بالله ﷻ، ولكن لا يؤمن بالرسل ﷺ.

الصنف الرابع: مُنْكَرُو الآخرة، حيث ميعاد اللقاء بالله ﷻ والحساب بين يديه، فيكذبون بالآيات، ويستكبرون عنها.

الصنف الخامس: اليهود الذين ينكرون نبوة رسولنا محمد ﷺ بخصوصه، رغم علمهم المسبق، ودلائل التوراة التي بين أيديهم على صدقه ونبوته، وهم الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ويصدق فيهم قوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وقد تتساءل: لماذا جمع الله ﷻ في وصفهم بين التكذيب بالآيات والاستكبار عنها؟

الجواب:

انظر: كيف ذكر التكذيب أولاً، والتكذيب سمة الكافر في الأصل، ثم ذكر الاستكبار عنها ثانيًا، والاستكبار سمة الكافر، وقد يقع فيه المؤمن. فليراجع المرء نفسه، فالآخرة دار القرار.

وكذلك جمع بين التكذيب والاستكبار؛ لأن بعضهم يكذب بالآيات، فيتبع أولياء من دون الله ﷻ، فإذا أقيمت عليه الحجة، وظهر له أن آيات الله ﷻ حق، لم يكذب، ولكنه أيضًا لم يصدق، لماذا؟ لأنه يستكبر عن اتباع هذه الآيات، مثل هرقل حينما أثر ملكه على اتباع آيات نبوة النبي ﷺ التي يعرفها كما يعرف أبنائه، فقد قال بعد أن تعرّف إلى أوصاف النبي ﷺ: «إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلِكَيْلَعَنَ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ».

«قَالَ الزُّهْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَدَعَا هِرَقْلَ عَظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشْدِ آخَرُ الْأَبَدِ، وَأَنْ يَتَّبِعَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ، قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِمْ، فَدَعَا بِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمْ الَّذِي أَحْبَبْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ»^(۱).

فالقائدات السياسية العفنة، والقيادات الدينية التي تعيش على أكل أموال الناس بالباطل تكذب بالآيات وتستكبر عنها.

ومثل اليهود الذين صدّقوا بالنبي ﷺ، ولكنهم لم يؤمنوا به زعمًا أنه نبيّ الأمين. ومثل الذين يعرفون الحقّ من الشخصيات والمنظمات المحلية والدولية والشركات الاقتصادية لكنهم جميعًا يؤثرون الفانية على الباقية، فيكذبون بالآيات ويستكبرون عنها.

(۱) البخاري (۴۵۵۳).

دلالة الاقتران بين التكذيب والاستكبار:

وأنت لو استقرأت مادة التكذيب والاستكبار في السورة (الأعراف) لوجدتها شائعة، واللافت تكرر الاقتران بينهما في غير موضع، فقد قال الله ﷻ:

- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

- ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا

بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن هذا الاقتران يوحي بالتلازم بين الداءين، وأن وجود أحدهما يقتضي أو يفسر وجود الآخر، وإذا كان التكذيب يأخذ صورة ظاهرة مرئية مسموعة من صاحبها فإن الاستكبار هو الرصيد الباطن من السوء، وهو الدافع الحافز للتكذيب، واسمع للنبي ﷺ يقرن بين المعنيين حينما يقول: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»^(١)، وهل بطر الحق إلا دفعه وتكذيبه بلسان الحال أو المقال أو كليهما؟ وهل غمط الناس إلا التكبر والتعالي عليهم والخط منهم؟ يقول نطاسي أمراض القلوب أبو حامد الغزالي: «والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له»^(٢).

(١) مسلم (٩١).

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٣/ ٣١).

وربما تسأل: لماذا جاء الحرف ﴿إِنَّ﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؟ ما سرُّ التعبير به؟

الجواب: أكَّد الله ﷻ خبر عدم دخولهم الجنة بِـ (إِنَّ)، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، والتأكيد يشعرك بأنه لا مجال للتراجع في الحكم الذي سيسمعونه، فليأسوا من تغيير هذا الحكم، ولاحظ أن الله ﷻ أعاد وأخبر عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، فلم يقل مباشرة: إنهم لا تفتح لهم أبواب الجنة، بل أظهر أوصافهم القبيحة: التكذيب بالآيات، والاستكبار عنها، ومن أهم أسباب ذلك: أن يذكر الله ﷻ العالم بالصفتين اللتين توجبان الخلود في النار، وعدم قبول الرحمن أن ينزل عليهم رحمة منه بعد صدور الحكم عليهم، والصفتان هما: التكذيب بالآيات، والاستكبار عنها.

ولذلك أظهر هاتين الصفتين ليعلم لنا أن الكلام يعود إلى الأمم السابقة التي ذكر الله ﷻ تحاورها في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فهم جميعًا كذبوا بآيات الله ﷻ واستكبروا عنها، وسينطبق عليهم هذا الحكم الأبدي.

ألا يذكرنا هذا بشؤم الكبر على إبليس اللعين، وعوده عليه باللعن والطرده بعد القرب من حضرة الله، وبالمذمة والإهانة بعد شرف المكان والكرامة؟ نعم، لقد مر بنا في أوائل آيات السورة كيف أودى بإبليس تكبره على آدم ﷺ وحسده إياه، أفلا يتعظ ملتحفو إزار التكبر أن يصيبهم ما أصاب إبليس في مقتل، وأنزله من عالي المقام فهو إلى الحضيض وتسفل، وكأن السورة تكافح الكبر والغطرسة، إذ ركزت على هذا الخلق في أكثر من موضع.



فإن قلت: حدّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ المحكوم عليهم، فماذا أخبرنا الله ﷻ في قوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]؟

الجواب: هنا تأتي:

الفقرة الثانية: انتقل الكلام من وصف المحكوم عليهم إلى إصدار الحكم الفاصل المتعلق بهم، والحكم تكون من مادتين:

مادة أولى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾:

تطلق كلمة "السَّمَاء" على كل ما علا، فيقال للسقف سماء، ولكن المقصود هنا العالم العلوي الذي تصلُّه الدعوات، وتصعد إليه الأعمال الصالحات، وتُستقبل فيه أنات المظلومين، وتنزل منه الهبات والرحمات، وتُدبّر فيه شؤون المخلوقات ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فإن قلت: فما معنى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾؟ وما البصائر التي تحبونا بها؟

الجواب: المراد بقول ربنا ﷻ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ ثلاثة معانٍ:

الأول: لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: عني بها الكفار، أن السماء لا تفتح لأرواحهم، وتُفتح لأرواح المؤمنين.

ويدلُّ لهذا المعنى الحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال عن خروج روح الكافر: «يَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ تَنْ رِيحَ جِيفَةٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ»

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٢٢).

بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله ﷻ: «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] (١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ، قَالَ: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي جَسَدٍ طَيِّبٍ، اخْرِجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فيقال: مَنْ هَذَا؟ فيقال: فلان، فيقال: مَرَحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فيقال لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءَ، قِيلَ: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرِجِي دَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحُمِيمٍ وَعَسَاقٍ، وَآخِرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فيقال ذلك حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فيقال: مَنْ هَذَا؟ فيقال: فلان، فيقال: لَا مَرَحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرِجِي دَمِيمَةً، فَلَنْ تُفْتَحَ لِكَ أَبْوَابِ السَّمَاءِ» (٢).

(١) أحمد (١٨٥٣٤)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٣٠).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١١٣٧٨)، وقال البوصيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٥٠): «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ»، وصحَّحه الوادعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على شرط الشيخين. الصحيح المسند (١٣١٥).



ستقول: فهما المعنى الأول لقوله تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، وهو: لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم، فما المعنى الثاني؟

الجواب:

الثاني: لا يصعد لهم في حياتهم إلى الله ﷻ قول، ولا عمل، ولا دعاء^(١)، فلا يطمحون أن ترفع لهم أفعال، أو أفعال، أو دعاء حتى لو عملوا صالحاً.

سيقال كيف ذلك؟ ألم يستجب الله ﷻ دعاء المشركين عندما يدعونه مخلصين له الدين ﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]؟ قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٦٤]، فالله ﷻ استجاب لهم، واستجاب لإبليس عندما قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

الجواب: الله ﷻ لا يقبل لهم دعاء يتعلق بنجاتهم الحقيقية الباقية في الآخرة، وأما ما يتعلق بأحوال الدنيا فقد بين الله ﷻ أن عطاءه ينال المؤمنين كما ينال الكافرين: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولذلك قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، فأبواب السماء مفتوحة للكلم الطيب، وكذلك قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، أما لأعمال الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها فهي غير مفتوحة، فمهما فعلوا من خيرات ظاهرات أمام الناس فإن الله تعالى قد علم بواطنهم الفاسدة، فإذا خدعوا الناس فإنهم لن يخدعوا ربهم ﷻ، وهذا المعنى ورد عن ابن عباس ؓ، وهو يخبرك بأن من هؤلاء المجرمين من يعمل بعض الأعمال الصالحة، فما أكثر من يبني المساجد، أو يحرك القوافل الإغاثية، سواء أكان ممن يتسبب إلى المسلمين أم إلى غيرهم، لكنه يصرُّ على التكذيب

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٢٢).

بآيات الله ﷻ والاستكبار عنها، فهؤلاء لا ترفع لهم الأعمال؛ إذ قد دمر أعمالهم الصالحة الخُبثُ الهائل الذي ينطلقون منه في إجرامهم، وإنما يُرفع إلى الله ﷻ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالح، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ۱۰].

فإن قلت: فهنا المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، وهو: لا يصعد لهم في حياتهم إلى الله ﷻ قول، ولا عمل، ولا دعاء، فما المعنى الثالث؟

الجواب:

الثالث: لا تنزل عليهم البركة والخير، ويدل على هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ۹۶].

قال الرازي رحمه الله: «هذه الآية تدلُّ على أنَّ الأرواحَ إنما تكونُ سعيدة؛ إمَّا بأنَّ ينزلَ عليها منَ السماءِ أنواعُ الخيرات، وإمَّا بأنَّ يصعدَ أعمالُ تلكَ الأرواحِ إلى السَّمَاوَاتِ، وذلكَ يدلُّ على أنَّ السَّمَاوَاتِ مَوْضِعُ بَهْجَةِ الأرواحِ وأماكنُ سَعَادَتِهَا، ومنها تنزلُ الخيراتُ والبركاتُ، وإليها تصعدُ الأرواحُ حالَ فوزِها بِكَمَالِ السَّعَادَاتِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ من أعظمِ أنواعِ الوَعِيدِ والتَّهْدِيدِ»^(١).

فقوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ كلمةٌ جامعَةٌ لِمَعْنَى الْجُرْمَانِ مِنَ الْخَيْرَاتِ الإلهيَّةِ الْمُحْضَةِ، وإنَّ كانوا يَنَالُونَ مِن نِّعَمِ اللَّهِ ﷻ الْجُثْمَانِيَّةِ مَا يَنَالُهُ غَيْرُهُمْ، فَيَعَاثُونَ بِالْمَطَرِ، وَيَأْتِيهِمُ الرِّزْقُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَهَذَا بَيَانٌ لِحَالِ خِذْلَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا الْحَائِلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وَسَائِلِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مُبَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٠).

(٢) البخاري (٧٥٥١)، مسلم (٢٦٤٩).



وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠-٥﴾ [الليل: ١٠-٥] (١).

وقد يعترض بعضهم فيقول: كيف ذلك ونحن نرى أن الخيرات في ديار من كذب بالآيات؟ ونرى الكفار في خير ونعيم مقيم في الدنيا فكيف نجتمع بين هذا وهذا؟

الجواب: نعم ينبغي أن نفرّق بين الحظّ الدنيويّ وبين الخيرات والبركات التي تنزل من السماء على هذا الحظّ الدنيوي، وأبرز ما يعطيك هذا أنك تجد فقيراً مسلماً وهو يعرف الله ﷻ ويعبده، ثم تجده في غاية الرضا والهدوء، والأنس والسكينة، برغم كلّ المصائب التي تأتيه، لكنه ما زال يذكر الله ﷻ ويطمئن إلى قضائه، ويعلم أن ما فاته من نصيب الدنيا، فسيعوض عنه في الآخرة أضعافاً مضاعفةً بصورة لا يمكن أن يعدّها أو أن يحسبها، بينما تجد غير المسلمين ربما كان في نعيم من الخيرات، وفي الأخير يشعر بضيق شديد وألم؛ ولهذا تكثر حالات الانتحار في ديار الذين لا يعرفون الرحيم الغفار أكثر من مجتمعات المسلمين. ومن جهة أخرى يمكن القول: إن نيل حظوظ الدنيا واجتناء زهرتها وتحصيل متعها والغنى والرغد فيها مشاع للمؤمن والكافر على السواء، فمن أخذ بأسبابها وصل إليها وحازها مؤمناً كان أو كافراً، ومن فرط وقصر في الأخذ بالأسباب لم ينل منها إلا بقدر جهده وسعيه. ولا يخلو الأمر من حالين:

الأول: الاستدراج: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٢٧).

الثاني: الدنيا ليست جزاء للمؤمن: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَثَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقد تتساءل: ما القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴿٣٥﴾﴾؟ وهل تصور لنا مشاهد جديدة؟

الجواب: في قوله: ﴿لَا تُفْتَحْ﴾ ثلاث قراءات^(١) تبين لنا مشاهد متعددة:

القراءة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿لَا يُفْتَحْ﴾ بالتذكير والتخفيف، بمعنى: لا يفتح لهم جميعها مرة واحدة، ولا تفتح لهم حتى فتحة واحدة، فالسماوات دونهم مغلقة في الدنيا والآخرة... نسأل الله ﷻ أعظم الكرامة يوم القيامة.

القراءة الثانية: قرأ أبو عمرو ﴿لَا تُفْتَحْ﴾ بالتأنيث والتخفيف، وتصور لنا أن السماء وإن كثرت أبوابها فيكفي لفتحها أمر إلهي واحد.

القراءة الثالثة: قرأ الباقون ﴿لَا تُفْتَحْ﴾ بالتأنيث والتشديد، فالتشديد يصور لك التأكيد، كما يصور لك التردد بمعنى: لا يفتح لهم باب بعد باب؛ ولا يفتح لهم في الباب الواحد شيء بعد شيء، فتصور لك هذه القراءة كثرة الأبواب المغلقة، وشدة إغلاق الباب الواحد؛ فالتشديد للفعل يدل على التكرار، والقوة، والعدد في الغالب مثل قوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فالتشديد يصور لك هنا وجود أكثر من باب، وفي الوقت ذاته على إغلاق الباب الواحد منها إغلاقاً محكمًا أي: غلقت مجموعة من الأبواب غلقاً محكمًا، وكذلك أبواب

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

السماء متعدّدة، ولها مغاليقها القوية المحكمة، ولها مفاتيحها الخاصّة المعظّمة، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَاهُمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ [القمر: ١١].

لاحظ أن الله ﷻ لم يُسمّ الذي يفتح، فلم يقل: لا نفتح لهم، ولم يقل: لا تفتح لهم الملائكة... لماذا؟

ليعمّ الأمر كلّ مَنْ له شأن في الفتح، فالله الرحمن الرحيم يمنع رحمته عنهم، فلا يأمر الملائكة بفتح أبواب السماء، ولا يمكنهم من ذلك، والملائكة لا تفتح لهم، ولا ترغب في ذلك، فهم لا يجدون رحمة من الله ﷻ، وقد يكون إخفاء الفاعل حرماناً لهم من التشريف. فأرواح الكفار لا تفتح لها ولا لأعمالهم الخبيثة أبواب السماء بمرة واحدة، ولا مرة بعد مرة، ولا يفتح لهم باب بعد باب.

ولعلك تسأل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؟
الجواب:

مادة ثانية من الحُكْم: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: فأخبرنا العزيز الحكيم أن تحریم الجنة عليهم مستمرّ دائماً ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، إلا أن يحدث شيء مستحيل، وهو: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. فقولُه: ﴿يَلِجُ﴾ يعني: يدخل، من وَلَجَ الْبَيْتَ يَلِجُ وَلُوجًا، بالضم^(١)، والولوج يظهر أنه خاصّ بالدخول في مضيق، أو على هيئة محدّدة، بينما الدخول عامّ.

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٤٢)، مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٨٨٢)، تاج العروس (٦/ ٢٦١).

فكأنه يقول لهم: إذا ولج الجَمَل - وهو البَعِيرُ - في سَمِّ الخِيَاطِ يمكن أن يدخل المكذَّبون المستكبرون الجنة، ولكن ذلك مستحيل، فكَذَلِكَ لا يدخل الذين كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ واستكبروا عنها الجنة التي أَعَدَّهَا اللهُ ﷻ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

ولكنك قد تتساءل: ما ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؟

الجواب: سَمُّ الخِيَاطِ^(١): هو الثُّقْبُ الضيق الذي في الإبرة يُدْخَلُ فِيهِ خَيْطُ الخَائِطِ، وكلُّ ثقب لَطِيفٍ في عين أو أنف أو غير ذلك في الْبَدَنِ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِيهِ "سَمًّا"، وتجمعه "سُمُومًا"، فَالسُّمُومُ: الثُّقُوبُ كُلُّهَا: الْمِسْمَعَانِ وَالْمَنْخِرَانِ وَالْقَمَمِ. و"السَّمَام"، في جمع "السَّمِّ" القاتل، أشهر وأفصح من "السُّمُوم"، وهناك اشتراك بين "السَّمِّ" و"السَّمِّ القاتل"، فقول للسَّمِّ القاتلِ سَمًّا؛ لِأَنَّهُ يَنْفُذُ بِلُطْفٍ فِي مَسَامِّ الْبَدَنِ دون شعور صاحبه حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، ومن "السَّمِّ" الذي بمعنى الثُّقْبِ قول الفرزدق:

فَنَفَسْتُ عَنْ سَمِيهِ حَتَّى تَنَفَّسَا وَقُلْتُ لَهُ: لَا تَخْشَ شَيْئًا وَرَأْيَا^(٢)

يعني بِسَمِيهِ، ثُقْبِي أَنْفِهِ.

(١) العين (٧/ ٢٠٦).

(٢) ذكر شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١٢/ ٤٢٧) e أن القصيدة للفرزدق يهاجي بها جريراً، وينصر البعيث ويهجو معاً، وكان الذي هاج الهجاء بين جرير والفرزدق، أن البعيث المجاشعي، سُرقَت إبله، سرقها ناس من بني يربوع، من رهط جرير، فطلبها البعيث حتى وجدها في أيديهم، فأرسل لسانه في بني يربوع، فاعترضه جرير، فهجاه، فانبعث الشر بالبعيث، فانطلق الفرزدق بعد قليل ينصره، فقال هذه القصيدة يهجو جريراً، وينصر البعيث ويهجو، فيقول للبعيث:

دَعَانِي ابْنُ حَمْرَاءِ الْعَجَّانِ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ إِذْ دَعَا، مُسْتَأْجِراً عَنْ دُعَائِيَا

فَنَفَسْتُ عَنْ سَمِيهِ
.....

(نفس عنه): فرج عنه كربته، إِذْ أَطْبِقَ عَلَيْهِ جرير، فاستنقذه من تحت وطأته، فاستطاع أن يتنفس، وقوله: (لا تخش شيئاً ورأياً)، أي: لا تخش ما دمْتُ دَرَعًا لَكَ، وَأَنْتَ من ورثي تحتمي بلساني وهجائي جريراً. ينظر: شرح نقائض جرير والفرزدق (٣٤٢/١).

وأما "الخِيَاط" فإنه "المَخِيْط"، وهي الإبرة، قيل لها: "خِيَاط"، و"مَخِيْط"، كما قيل: "قِنَاع"، و"مِقْنَع"، و"إزار" و"مِئْزَر"، وثُقْبُ الإِبْرَةِ أَضْيَقُ الْمَنَافِدِ، يُقَالُ: أَضْيَقُ مِنْ خُرْتِ الإِبْرَةِ، ومنه يقال: المَاهِرُ الْخَرِيْتُ لِلدَّلِيلِ الَّذِي يَهْتَدِي فِي الْمَضَائِقِ الْمُشَبَّهَةِ بِأَخْرَاتِ الإِبْرِ^(١).

فعرفنا كلمة ﴿سَم﴾، وكلمة ﴿الْخِيَاطِ﴾، وبقيت كلمة ﴿الْجَمَلِ﴾:
بين ابن عباس ؓ أن الجمل المقصود في قول ربنا العلي الكبير: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِ الْخِيَاطِ﴾: هو الجمل العظيم، لا يدخل في خُرْتِ الإبرة مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْهَا.
وخصَّ الله ﷻ الْجَمَلَ بالذكر مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ الْحَيَوَانَاتِ جِسْمًا عِنْدَ الْعَرَبِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا بِأَسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلِ وَمِنْ عِظَمٍ جِسْمُ الْجَمَالِ، وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ^(٢)
ولقد تعجب بعض السامعين من الرِّبْطِ بين عدم دخول المكذبين المستكبرين النار، وبين دخول الْجَمَلِ فِي سَمِ الْخِيَاطِ، فظنوا أنه ربما عني بِالْجَمَلِ شيئاً آخر، فقالوا: الْجَمَلُ يعني به الحَبْلُ الَّذِي يُلْفُ، ويتصل بِمِرْسَاةِ السَّفِينَةِ، فأعادهم أولو العلم إلى الحقيقة الواضحة، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَمَلِ، فَقَالَ: زَوْجُ النَّاقَةِ، وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ؓ فَقَالَ: ابْنُ النَّاقَةِ الَّذِي يَقُومُ فِي الْمَرْبَدِ عَلَى أَرْبَعِ قَوَائِمَ، وَالْمَرْبَدُ (كَمَنْبَرٍ) مَحْبَسُ الْإِبِلِ^(٣).

ماذا تلاحظ في إجابة الحسن ﷺ؟

لقد فصل تفصيلاً كبيراً؛ إمَّا اسْتِجْهَالاً لِلِسَائِلِ، وإمَّا رَدًّا عَلَى مَنْ يَطْلُبُ مَعْنَى آخَرَ.

(١) ينظر: الكشاف (١٠٣/٢)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٠٠/٧).

(٢) تفسير الرازي (٢٤٠/١٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٤٢٨، ٤٢٩)، تفسير المنار (٣٧٢/٨).

فهذه العبارة في الحكم الإلهي الفاصل: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] تبصّرنا بأن دخولهم الجنة مستحيلٌ كما أن دخول الجَمَل في سَمِّ الْخِيَاط مستحيل. فالمعنى: لا يدخلون الجنة أبدًا.

وستسأل: فلماذا لم توجز العبارة، ويقول: لا يدخلون الجنة أبدًا؟

الجواب: لأن الله ﷻ بدلاً من أن يقول ذلك أراد أن يقول ما هو أبلغ في الدلالة على التأييد، فكأنه لما قال: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ﴾ ترقّب العالم أن يسمعوها خبر الصّفح عنهم في زمنٍ من الأزمان ولو بعيداً، أو حالة من الحالات ولو كانت صعبة الحدوث، وظنوا أن ذلك هو الأليق برحمة الله ﷻ الواسعة، ففاجأهم الوحي بأن الحالة التي يمكن فيها أن يدخلوا الجنة مستحيلة الحدوث، فقال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، ولكنه زيادة في تأييدهم لم يقل من البداية: إن دخولهم الجنة مستحيلٌ، بل أتى بكلمة ﴿حَتَّىٰ﴾؛ ليظنوا أن هناك احتمالاً ما، ثم قطع عليهم كلّ أمل بما ذكر من مثل.

وورد عن ابن عباس رضيهما الله قراءة ثانية له مع مشاركته الجمهور في القراءة الأولى، والمعنى الأول، فروى الطبري رحمه الله أنه قرأ: (الْجَمْلُ) مثقلة، وأخبر أنه قلّوس السّفن، وهِي حِبَال السفينة الغلاظ المتعلقة بالمرساة، وروى عن سعيد بن جبیر رحمه الله مثلها مخففة: (الْجَمَلُ)، على مثال: (الصُّرْدُ)، و(الْجُعَلُ)، فَوَجَّهَهُ إِلَى جَمَاعِ جُمْلَةٍ مِنَ الْحِبَالِ جُمِعَتْ (جُمَلًا)، كما تجمع الظُّلْمَةُ ظُلُمًا، والخُرْبَةُ خُرْبًا، والمعنى واحد مثل المثقل.

قال الطبري رحمه الله: «وكان بعض أهل العربية ينكر التشديد في "الميم" ويقول: إنما أراد الراوي "الجمل" بالتخفيف، فلم يفهم ذلك منه فشدّه" ثم أسند عن الكسائي رحمه الله أنه قال: "الذي رواه عن ابن عباس رحمه الله كان أعجمياً" (١).

ولا شك أن القراءة الثابتة هي الأولى: ﴿الْجَمْلُ﴾.

عُدْ من هذا إلى القراءة الثابتة: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

إنها تصوّر لك تصويراً عظيماً مشهداً مخيفاً، فالرحمة الإلهية الواسعة لا تشمل هؤلاء بعد أن ينزل عليهم الحكم الإلهي، «ودونك فقف بتصوّرك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.. مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة. فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمروور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذّبين، فتقبل - السماء - دعاءهم أو توبّتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن، وإلى أن يلج الجمل في سمّ الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً، وتلاحقوا، وتلاوموا فيها، وتلاعنوا، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء! ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]».

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «فإن قال قائل: كيف خصّ الجمل من دون سائر الدواب، وفيها

ما هو أعظم منه؟

فعنه جوابان:

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٣٢، ٤٣٣).

أحدهما: أَنَّ ضَرْبَ المثل بالجمَل يحصل المقصود ، والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمَل في ثقب الإبرة ، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه: جاز. والناس يقولون: فلان لا يساوي درهماً، وهذا لا يغني عنك فتيلًا، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل.

والثاني: أن الجمَل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب، فانهم يقدّمونه في القوّة على غيره، لأنه يوقّر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب... فأثر الله تعالى ذكره على غيره لهذا المعنى^(١).

هنا قد تتساءل: ما العلاقة بين الحكم الأول والثاني؟ أليس إذا لم تفتح لهم أبواب السماء فإنهم لا يدخلون الجنة؟

الجواب: هناك معانٍ متعدّدة في العلاقة بين الحكم الأول والثاني منها:

الأول: في الحكم الأول بينَ الله ﷻ أن السماء لا تفتح لهم، وهنا قد يقع في نفوسهم أنه يمكن أن يدخلوا الجنة حتى لو لم تفتح لهم أبواب السماء ولو بعد حين، فجاء الحكم الثاني ليخبر العالم أن هؤلاء المجرمين الأنجاس لَيَسُوا أَهْلًا لَيَتَشَرَفُوا بِمَوَاطِنِ الْأَقْدَاسِ - كما قال البقاعي رحمه الله^(٢) -، فلا أبواب السماء تفتح، ولا يدخلون الجنة.

الثاني: لا بد من الحُكْمَيْنِ عسى أن يقلعوا عن إجرامهم في الدُّنيا قبل فوات الأوان، فقد يقول قائل: يمكن أن لا تفتح لهم أبواب السماء، ولكن ذلك لا يمنع أن يرحمهم الله ﷻ، فيدخلهم الجنة بعد ذلك، فنفى الله ﷻ ذلك، وقد يقول آخر طامعًا في رحمة الله تعالى: يمكن أن لا يدخلوا الجنة، ولكنهم قد تتسع لهم رحمة الله ﷻ فلا يكونون في النار، ولا في الجنة كحال آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، فإنه يُحبس في مكانٍ بين الجنة والنار متّجهًا إلى النار في

(١) زاد المسير (٢/ ١١٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٩٩).

البداية، ثم يرحمه الله ﷻ، فيوجهه إلى الجنة، ولا تزال الرحمة تدركه حتى يدخل الجنة، وهؤلاء ربما إن لم يدخلوا الجنة يكونون بينها وبين النار، وحسبهم ذلك، فبينَ الله ﷻ أن ذلك يعني أن تفتح لهم أبواب السماء لتحديث لهم الرحمة، ولكنهم لا ينالونها. نعوذ برحمة الله وإحسانه وفضله وامتنانه من حالهم، ومن مصيرهم.

الثالث: أن يهينَ الله ﷻ هؤلاء، ويُبشعَ مصيرهم، بالتأكيد على حالهم البائس، فأنت عندما تريد أن تهين شخصاً إهانة بالغة لا تكتفي بكلمة، بل تزيد ثلاثاً وأربعاً وخمساً، فمثلاً تقول له: أنت يا فلان مفلس في أخلاقك مُنحطٌ في أفعالك... وهكذا تُسلطُ عليه مجموعة من الكلمات المتقاربة جداً في معانيها لزيادة إهانتته، فمن أسباب العطف زيادة الإهانة، وكذلك فصلَ الله ﷻ لهؤلاء الإهانات المتتابة، وأنهم سيحرمون من أدنى رحمة إلهية. لماذا؟ لأن بعضهم من أصحاب الإرجاء يُمني نفسه يقول: حتى لو عُدبت بالآخرة، فإنني سأعذبُ أمدًا محدودًا، وبعد ذلك سأخرج، فأراد الله ﷻ أن يأسوا من هذا الرجم بالغيب. حتى الذين خاضوا في موضوع فناء النار في ظني ما كان ينبغي لهم أن يخوضوا في هذه المسألة الغيبية مع هذا الوعيد الشديد، فلأمر إلى الله ﷻ، وفي كل الأحوال، فلا ينبغي للإنسان أن يشغل نفسه إلا بالتفكير في هذا المعنى المرعب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيشعر بالرعب الشديد من هذا المصير.

وربما تسأل: لماذا ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]؟

الجواب: هنا تأتي الفقرة الثالثة في الحكم:

الفقرة الثالثة: بين حَيثِيَّة الحُكْم وسببه، وامتداده لكلِّ من يعمل أَعْمَالًا مشابهة، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فهذا الختم بكاف التشبيه واسم الإشارة ﴿كَذَلِكَ﴾ يمنحنا معنيين:
الأول: عندما يسمع سامع هذا الحكم الشديد ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ربما يتساءل: لماذا هذا الحكم الشديد ربنا؟
فيذكر الله ﷻ بأن الذين كذبوا بآياته واستكبروا عنها يستحقون، لأنهم مجرمون، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، ومثل هذا العذاب يستحق أن نجازي به المجرمين، فلا يكون إلا لهم.

الثاني: الكاف واسم الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ يشير إلى أن هذه العقوبة ليست خاصة بالذين كذبوا بآياته، واستكبروا عنها، بل تنال كلَّ مجرم رسخ في الإجمام، لذلك جاء جمع المذكر السالم ليدلَّ على رسوخهم في الإجمام، فالمعنى: ومثل هذا الجزاء يستحقُّه كلُّ مجرم، سواء كان من المذكورين أم من غيرهم، ما دام مجرمًا.
فكان الله ﷻ يقول: فحُكِّمْنَا على المكذبين المستكبرين عدلًا، وجزاؤنا لهم مثل جزائنا للمجرمين، فالتشبيه هنا لبيان أن المكذبين المستكبرين ارتكبوا الجُرم الممين، فاستحقُّوا هذا الحكم المهين، ولجعل هؤلاء مقياسًا لما يحلُّ بالمجرمين من العذاب، أي وكذلك نجزي المجرمين من غيرهم.

وقد تسأل: لماذا وصف المستحقين لهذا العذاب بالإجمام؟

الجواب: لأن كلمة ﴿مُجْرِمِينَ﴾ تصوِّر الصَّنْف الذي يستحقُّ هذه العقوبة، فهي جمع مُجْرِمٍ: اسم فاعل من أجرم، وهذه الكلمة جاءت في الأصل لتدلَّنَّا على معنى: قطع الثمر عن الشجر لاكتساب الرزق الرديء المُتَعَب منها، ورجل جَارِم، وقوم جَرَام، وَثَمَرٌ جَرِيم،

وَالْجُرَامَةُ: رديء التَّمَرِ الْمَجْرُومِ أَي: المقتطوع، وَهنا جاء قَوْلُهُمْ: جَرَمَ، أَي كَسَبَ ثَمَرًا جَرِيمًا، أَي: يابسًا رديئًا، فاقطعته، ولذا صار الْجُرْمُ وَالْجَرِيمَةُ عند الراغب رحمته الله: الذَّنْبُ؛ وَالْمُجْرِمُونَ - عند ابن عاشور رحمته الله -: فاعِلُو الْجَرِيمَةِ، وهي الْمَعْصِيَةُ وَالسَّيِّئَةُ.

ولكنك عندما تنظر في القرآن تجد أن وصف المجرمين لا يأتي للمذنبين الذين اقترفوا ذنوبًا فحسب، بل يأتي لوصف المذنبين الذين يقترفون الذنوب العظام الفاحشة؛ كالقتل المتكرر، والفاحشة التي صارت عندهم نظام حياة، ولذا قال الدكتور محمد حسن جبل رحمته الله: «أؤيد تمامًا ما جاء في [الكليات] أن الجُرم لا يطلق إلا على الذنب الغليظ»^(١).

فالمجرمون يرتكبون الذنوب الفاحشة الكبيرة، وهي الجرائم التي يقطعون بها أجرامًا أي أجزاء من أبدان الناس وأقواتهم، فهذه من أعظم الجرائم، وأعظم منها: عندما يقطعون أديان الناس وأخلاقهم.

وأنتى بجمع المذكر السالم؛ ليبين رسوخهم في الإجرام، وتأصلهم فيه، فلم يقل: نجزي من أجرم، لأنه قد يجرم مرةً أو مرتين أو ثلاثًا، ولكنه أراد أن يبين أن الإجرام راسخ؛ لذلك أتى باسم الفاعل: "المُجرم".

فإذا استبان ما أفاده وصف ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ فلربما سأل سائل: ما وجه استحقاق هؤلاء المستكبرين المكذبين لهذا الوصف؟

الجواب: أن الكبر إنما هو اعتداد بالنفس، وتعزز مردول بها، وأنت لو بحثت في قائمة الجرائم والجرائم لوجدت التكبر والتعزز كامناً وراءها، واسمع للغزالي رحمته الله يقول معلقاً

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٤٤٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٢)، الكليات (ص: ٤١)، التحرير والتنوير (٨) - ب/ ٢٣٨، المعجم الاشتقاقي (١/ ٣٠٢-٣٠٥).



على قول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(١)، «وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز»^(٢).

الانتقال: هنا قد تسأل: فما معنى الآية التي جاءت بعدها: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]؟

الجواب: في الآية السابقة ذكر الله ﷻ المحكوم عليهم، وذكر الحكم، وذكر حَيْثِيَّةَ الْحُكْم، وهنا يصوِّر لنا فقرة رابعة:

الفقرة الرابعة: يصوِّر الله ﷻ لنا أثناء إصداره للحكم لمحة خطيرة من واقعهم في النار: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾^(١).

المهاد: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوَطُّعٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، يقال: مَهَّدْتُ الْأَمْرَ فْتَمَهَّدَ: وَطَّأَتْهُ وَهَيَّأَتْهُ ليكون كالمهد والمهاد: وهو الْوِطَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فصار قابلاً لأن يجد الإنسان فيه هَنَاءَهُ،

(١) مسلم (١٤٧).

(٢) إحياء علوم الدين، (٣/ ٣٤٤).

ومن مادتها المَهِيد أي: الزُّبْدُ الخالص، والمُهْدَة من الأرض - بالضم: ما انخفض في سهولة واستواء، ومنه مَهْدُ الصبي: الفراش، أو المكان المُمَهَّد الذي يُهَيَّأُ له ليجد راحته وهَنَاءَهُ^(١). فانظر لهذا العذاب: فهو لاء المجرمون يكون العذاب تحتهم كالمهاد الذي يكون تحت الصبي، وبدلاً من أن يكون سبباً لراحتهم يكون سبباً لشقائهم وآلامهم، فإذا أرادوا أن يناموا، أو يجلسوا، أو يقفوا، أو يمشوا وجدوا العذاب يحيط بهم، فهل يمكن للإنسان أن يجد راحته إذا كان المهاد الذي يُهَيَّئُ لِنَافِ، أو يجلس، أو يقف، أو يمشى "جَهَنَّمَ"؟

أحياناً يصاب الإنسان بمرض: إذا جلس يتألم، وإذا نام يتألم، وإذا قام يتألم، فكيف يمكنه أن يجد الخلاص؟ والله إنه لحال عظيم مريع يجعل الإنسان يخاف منه أعظم الخوف.

وقد تساءل: لماذا استعمل كلمة ﴿مِهَادٌ﴾ مع أن الأصل فيها اليسر والنعمه لمن يكون عليها؟

الجواب: للتبكيه والسخرية والتهكم بهم.

والغواشي جمع "غاشية"، وذلك ما غَشَاهُمْ فغطَّاهم من فوقهم، فهي كُلُّ ما يَغْشَاكَ، أي: يُجَلِّلُكَ.

فجهنم تحتهم، ويأتيهم من فوقهم غواشٍ منها أيضاً تَغْطِيهِمْ، وتَلْفَحُهُمْ، وتصيبهم.

وكلمة ﴿جَهَنَّمَ﴾ اشتقاقها مِنَ الْجَهْمَةِ وهي الغَلْظُ، يُقَالُ: رَجُلٌ جَهْمٌ الْوَجْهَ غَلِيظُهُ، وَسُمِّيَتْ بِهَذَا لِغِلَظِ أَمْرِهَا فِي الْعَذَابِ.

والآية مِنَ الْإِحْتِيَاكِ، فَذَكَرَ جَهَنَّمَ أَوَّلًا دَلِيلًا عَلَى إِرَادَتِهَا ثَانِيًا، وَذَكَرَ الْفَوْقَ ثَانِيًا دَلِيلًا عَلَى إِرَادَةِ التَّحْتِ أَوَّلًا، وَمَعْنَى الْكَلَامِ: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ مِنْ جَهَنَّمَ

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٨٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٨٠)، المعجم الاشتقاقي (٤/ ٢١٣١).

غواشٍ، وهم بين ذلك، نعوذ بالله من حالهم ومصيرهم، فالمراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلهم منها غطاءٌ، ووطاءٌ، وفراشٌ، ولحافٌ^(١).

ولعلك تسأل: لماذا ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؟

الجواب: للمعنيين السابقين اللذين ذكرناهما؛ لأن الله ﷻ يذكرنا بعدالته المطلقة، فرحمته انصرفت عن هؤلاء؛ فهم جمعوا بين الإجماع والظلم كما في هذه الآية، فهؤلاء كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، فأجرموا، وجعلهم هذا يظلمون أنفسهم، ويظلمون غيرهم، ولذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

ولاحظ أن الله ﷻ ذكر صفات هؤلاء المُعَذِّبِينَ في البداية فقال عنها: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٣٦]، ثم خصَّ منهم الأشدَّ ظلمًا، وهم الكاذبون على الله ﷻ، والمكذبون بآياته في الآية (٣٧)، ثم عاد فوصفهم بالصفات الأصلية فقال في الآية (٤٠): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾.

ولكنه قال في ختام الآية (٤٠): ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، وقال في ختام الآية (٤١): ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

فما العلاقة بين هذه الأوصاف الواردة في الآيتين: الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، والمجرمين، والظالمين؟

الجواب: إمَّا أن يكون الجميع فريقًا واحدًا وهذه صفات متعددة لهم تبين أحوالهم المختلفة، فهم لا يفيقون من إجرام إلا إلى ظلم، ولا من ظلم إلا إلى تكذيب بآيات الله ﷻ

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٤١).

واستكبار عنها، هذا حالهم، فالمكذبون المستكبرون هم المجرمون الظالمون، وتعدد الأوصاف للتنبيه على جرائمهم المختلفة، وهذا صحيح.

ويلوح لك معنى آخر من الجمع بين الآيتين:

فإجرامهم سَلَبَ منهم الخير، حيث لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة. وظلمهم سَعَرَ لها النار، وأوجب لهم الشرَّ.. فبُعْدًا للقوم الظالمين.

وإمّا أن يكونوا ثلاثة أصناف: المكذبون المستكبرون، والمجرمون، والظالمون، فالمكذبون المستكبرون هم الكفار والملحدون، والمجرمون هم اللذين يقتربون الجرائم في حق الآخرين، والظالمون الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الناس قد ينتمون إلى المسلمين، وقد ينتمون إلى غيرهم، والعبرة ليست بانتمائهم، وإنما بأفعالهم، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(۱)، كما يقول النبي ﷺ.

والذي يظهر لي أن هذا تهديد شديد للمسلمين ولغير المسلمين يحذرهم الله ﷻ من هذه الأفعال، فقد يقول الإنسان: لست كافراً حتى أُعَذَّبَ، فيأتيه وصف المُعَذَّبِينَ بالإجرام ليحذر؛ فإنه قد يكون مسلماً غير مستقيم، فيرتكب أفعال المجرمين، ويتكلم على أنه في الأصل مسلم، وقد يقول قائل: لست مجرماً، لكنه ربما يكون ظالماً، فما أكثر الذين لا يُجرمون أي: لا يقتلون الناس، ولا ينشرون الفاحشة، لكنهم يظلمون، فيأخذون أموال الناس بالباطل؛ لأن النظام في صالحهم، والقوانين تعينهم، وقد يقول قائل: أنا لست بظالم، لكنه مجرم، وقد يقول: أنا لست مكذباً بالآيات، ولكنه مجرم من أعظم المجرمين، وظالم من أعظم الظالمين، ويدل على صحة هذا المعنى: أن الله ﷻ لما ختم الكلام عن المكذبين

(۱) مسلم (۲۵۶۴).

المستكبرين قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، وقال في ختام الآية (٤١): ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، وهذا التعبير يجوز أن يعود على المذكورين سابقاً، ويجوز أن يراد به المماثلة بين الصنف المُتَكَلِّم عنهم سابقاً، ومن ذُكِّرُوا لاحقاً.. وذلك كله يحمل تهديداً شديداً، ووعيداً كبيراً، فلا يَمْنِي المسلم نفسه الأمانى لمجرد انتسابه إلى الإسلام.. يتنمي إلى الإسلام ثم تراه يقوم بأفعال المجرمين والظالمين، ويريد النجاة من مصير المكذبين المستكبرين كما قال أبو العتاهية رحمه الله:

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ	وَإِنْ تَسَتَّرْتَ بِالْحُجَابِ وَالْحَرَسِ
وَأَعْلَمَ بِأَنْ سِهَامَ الْمَوْتِ قَاصِدَةٌ	لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِّنَّا وَمُتَّرِسٍ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا	إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ
مَا بَالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدْنِسَهُ	وَتُوبِكَ الدَّهْرَ مَغْسُولٍ مِنَ الدَّنَسِ ^(١)

ننتقل إلى قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، فما الذي تصوّره لنا هذه الآية؟

الجواب: تصوّر لنا هذه الآية والتي بعدها:

(١) أبو العتاهية أشعاره وأخباره (ص: ١٩٤)، والبيت الثاني بلفظ: فما تزال سهام الموت نافذة... في جنب مدرع منها ومترس.

الفريق الثاني: المؤمنون العاملون، وهم الفريق المقابل للمكذِّبين المستكبرين.

الفريق الثاني

المؤمنون العاملون

أساس صفات هذا الفريق: الإيمان والعمل الصالح

مشهد
[1]

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف: 42]

الاجتهاد في الإيمان والعلم الصالح في الدنيا

مشهد
[2]

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: 42]

ذكر الله عز وجل لهم ستة أنواع كبرى من النعيم القادم

مشهد
[3]

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ... وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 42-43]

عَبَّادُ السَّلاَمَةِ مُقْبِلُ الْمُجِيدِ

مُفَصَّلَاتُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

وَيُبَصِّرُنَا به قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وأول ما يلفت تدبرك أن تسأل: ما المناسبة والاتصال بين هذا المشهد والذي قبله؟

المناسبة والاتصال:

العلاقة بين هذا المشهد والذي قبله علاقة تضاد ومقابلة، فكما ذكر الله ﷻ الفريق المجرم الظالم ذكر الفريق المضاد له.

وعلاقة المقابلة والتضاد إحدى العلاقات المعبرة في بيان وقائع العالم وحقائقه، فيجمع الله ﷻ بين الجنة والنار، والوعد والوعيد، والقصص والأحكام، والثواب والعقاب، ويبدأ بأحد الفريقين أو النوعين ليناسب الواقع والسياق، ويُقَيِّمُ بِالْآخِرِ؛ فإذا ذكر حال الفريق الفائز يذكر بعده حال الفريق الخاسر، وإذا ذكر حال فريق الأشقياء ذكر في مقابله حال فريق السعداء، لماذا؟

لتكتمل الصورة ولتوضح المعنى، فبعد أن بيَّن لنا بشاعة المستقبل الذي ينتظر المفتري والمكذَّب من الظالمين المجرمين انتقل إلى نقل مشهد مثير للأشواق من مشاهد المؤمنين الصادقين.

ما المشاهد المثيرة التي تحدث للمؤمنين الصادقين، والتي يصورها قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [الأعراف: ٤٢]؟

الجواب: أظهرت الآيات لهذا الفريق ثلاثة مشاهد:

المشهد الأول: أساس صفات هذا الفريق: الإيمان والعمل الصالح ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف: ٤٢].

لعلك تسأل: لماذا وصف الله ﷻ هذا الفريق بهاتين الصفتين: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟

الجواب: لأنهم جمعوا قوتين:

القوة الأولى: ﴿ءَامَنُوا﴾: قوة الإيمان في قلوبهم وعقولهم، فهي القوة الفكرية الحقة، فكلمة: ﴿ءَامَنُوا﴾ تعني أنهم حازوا الأمن بالتصديق بالله ﷻ، والتصديق له، واعتناق كلماته، واليقين بها، والتسليم لها، والانقياد لمقتضياتها، فيتحقق الأمن في ظلها.

فإن قلت: لماذا جاءت الكلمة بصيغة الماضي؟

الجواب: لأن الفعل ﴿ءَامَنُوا﴾ بصيغة الماضي يصوّر لنا تصويرًا دقيقًا أنهم آمنوا في الماضي أي في الزمن الذي ينفعهم فيه الإيمان، ويظهر صدقهم فيه، فهذه الآية تحدّثنا عن القيامة، والله ﷻ يَحْكُمُ بِالْجَنَّاتِ لمن آمن في الدنيا، أي في زمن الابتلاء، ومن آمن في الدنيا لا بدّ أن يكون مؤمنًا في الآخرة، والفاشلون الخاسرون سيعلمون الإيمان في الآخرة، ولكن دون جدوى، فقد حكى الله ﷻ عنهم، أنهم سَيَصْرَحُونَ بأعلى عبارات الإيمان، وهي اليقين: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَةُ: ١٢]، لكن حيث لا ينفعهم ذلك، فقد قال الله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غَافِر: ٨٥]. إذن التعبير بصيغة الماضي ﴿ءَامَنُوا﴾ في محلّه البهّي الكبير من آيات الكتاب المنير.

القوة الثانية: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: قوة العمل، فلم يكتفوا بالإيمان في قلوبهم، بل جاؤوا بالأعمال الصالحات، فهم المؤمنون المكرّمون، هم الصادقون اليقظون الذين يجمعون بين القوة الإيمانية والقوة العملية الصادقة التي تبرهن على صدق إيمانهم.

وقد ورد الإيمان مقترنًا بالأعمال الصالحة في قرابة أربعة وخمسين موضعًا، وهذا له دلالة الجلية على التلازم بين الأمرين "فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح، وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الإيمان، وما أحوجنا- نحن الذين نقول إنا مسلمون- أن نستيقن هذه الحقيقة: أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح! فأما الذين يقولون: إنهم مسلمون ثم يفسدون في الأرض، ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى وهي إقرار منهج الله في الأرض، وشريعته في الحياة، وأخلاقه في المجتمع، فهو لاء ليس لهم

من الإيمان شيء، وليس لهم من ثواب الله شيء، وليس لهم من عذابه واق، ولو تعلقوا بأمانى كأمانى اليهود".

ولا حظ أن الله ﷻ قَيَّدَ أعمالهم بالصالحات؛ لأن العامل قد يعمل السيئات، لكنه جَلَّ ثناؤه لم يَبَيِّنْ متعلّق الإيمان.. لم يخبرنا بماذا آمنوا ؛ لِأَنَّ الإيمانَ صَارَ كَاللَّقَبِ لِلإيمانِ الخاصِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ دِينُ الإسلامِ، وهو الإيمانُ بالله ﷻ وَحْدَهُ^(١)، وما يتبعه من الإيمان باليوم الآخر، والرسل جميعاً، وغيرها من قضايا الإيمان وأركانه.

لكنك قد تسأل: فما معنى قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟ ولماذا جاءت في سياق الكلام عن المؤمنين؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثاني: الاجتهاد في الإيمان والعمل الصالح في الدنيا:

إذ قاموا باتباع ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ، وتنفيذ النظام الذي نزل به آدم وزوجه ﷺ إلى الأرض على قدر الاستطاعة البشرية، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١٢)، فتضمّنت هذه الجملة التكليف والتخفيف معاً:

فقول ربنا ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، وخبرها جملة: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

ولكن الله ﷻ قبل أن يذكر المصير الجميل للمؤمنين مدحهم بأنهم بذلوا جهدهم في الإيمان والعمل الصالح، وذلك بهذه الجملة المعترضة بين المبتدأ والخبر ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١٣)، وهذه الجملة تُظْهِرُ أن إيمانهم وعملهم الصالح كان حسب وُسْعهم، فلا يكلف

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٣٠).

الله نفسًا إلا وسعها، كما تبينُ أنهم لم يكسلوا، بل اجتهدوا ليكتسبوا من النعيم الخالد ما يُمُنُّ الله ﷻ برحمته ليقابل اجتهادهم.

وجملة ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٥٢﴾ جاءت على طريقة الإدماج، «وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين، لأنه لما بشرهم بالجنة على فعل الصالحات طمأن قلوبهم بأن لا يطلبوا من الأعمال الصالحة بما يخرج عن الطاقة، حتى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنة، بل إنما يطلبون منها بما في وسعهم، فإن ذلك يرضي ربهم»^(١).

يقول رشيد رضا رحمه الله: «وهي حجة قطعية على ما أحدثه المتوسعون في الاستنباط والاجتهاد في أحكام العبادات التي جعلوها حملاً ثقیلاً يعسر تعلمه، ولا يدخل في وسع أحد عمله (إلا المتنطعين من العباد) حتى إن أحكام الطهارة وحدها لا يمكن تلقّي ما كتبه فيها إلا في عدة أشهر»^(٢).

وقد تتساءل: ما الجمال الذي يظهر في اختيار هذا اللفظ: ﴿وُسْعَهَا﴾؟

الجواب: ﴿وُسْعَهَا﴾^(٣): (وَسِعَ): كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى انْفِسَاحٍ وَانْبِسَاطٍ، خِلَافِ الصَّيْقِ وَالْعُسْرِ. يُقَالُ وَسِعَ الشَّيْءُ وَاتَّسَعَ، وَالْوُسْعُ: الْغِنَى، وَالْوُسْعُ: الْحِدَّةُ وَالطَّاقَةُ، وَالْفَرَسُ الذَّرِيعُ الْخَطْوِ: وَسَاعٌ.

(١) التحرير والتنوير، (٨ / ١٣٠).

(٢) تفسير المنار، (٨ / ٣٧٤).

(٣) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٩)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٧٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١٠١٣).

فقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١) تشير إلى أنه يكلف عبده دون ما تنوء به قدرته، بل يطلب منه الله ﷻ العمل الذي يقدر عليه حال سعته، ولذلك يرى الواحدي رحمه الله أن «أقصى الطاقة يُسمَّى جهدًا لا وسعًا، وغلط من ظنَّ أن الوسع بذل المجهود»^(٢).

لماذا كلمة ﴿وُسْعَهَا﴾؟

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣) تُبَصِّرُك بأن عملك الصالح الذي يطلبه الله ﷻ منك إنما هو في حدود سعتك، وعندما تقوم به، فإنه يثمر لك السَّعة، وأعظم أنواع السعة جنة عرضها السموات والأرض، كما قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالجنة العظيمة يصل إليها المرء بالعمل السهل الذي يدخل في سعته.

وهذه القاعدة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤) تظهر لنا أن الذين كانوا قبل النبي ﷺ ومعه وبعده لا يكلفهم الله ﷻ إلا وسعهم، فمن عرف النبي ﷺ منهم لزمه الإيمان به، ومن لم يعرفه لزمه الإيمان المُجمل بكل ما يأمر الله ﷻ به، واستنبط الفقهاء من هذه القاعدة قواعد مثل: إذا ضاق الأمر اتَّسع؛ والمشقة تجلب التيسير، فالله ﷻ يندبهم إلى العمل الصالح، ولكن هذا العمل الصالح يكون بحسب وسعكم، فإذا ضاق عليكم الأمر فاعلموا أني لا أكلفكم ما لا تطيقون، ولذلك أورد هذه الجملة ترغيباً في الأعمال الصالحات وأن لا يُقَصِّروا، وفي الوقت نفسه ينبغي أن لا تستهلك نفوسهم وأنفاسهم، وإن اشتاقوا لفعل ذلك.

فالتخفيف في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥) يقتضي أن لا يهلك الإنسان نفسه في الأعمال الصالحة، وألا تذهب مهجته لأجل ذلك، لكن التكليف هنا خطير جداً، فالإنسان

(١) التفسير البسيط (٩/ ١٣٧).

يعلم مقدار وسعه، فيبذله، ولا يتعلل بأنه قد بذل جهده مع أنه ربما يوجد شيء من سعيه لم يستنفده بعد.

ومجيء هذه الجملة الاعتراضية بين العمل والجزاء -بحسب البرهان البقاعي رحمته الله - «تَرْغِيًّا فِي اكْتِسَابِ مَا لَا يُوصَفُ مِنَ النَّعِيمِ بِمَا هُوَ فِي الْوُسْعِ»^(١)، أي: إن العمل في مساحة الممكن بهذين الأمرين (قلبًا وجارحة) يسمح بالخلود في الجنة، ويؤكد الفخر الرازي رحمته الله أن هذا التدخل اللغوي بين المبتدأ والخبر «فيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمُّل الصَّعب»^(٢)، ويلخص ابن عطية رحمته الله أن هذه الجملة «نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق»^(٣).

ثم أكمل الله سبحانه الآية فقال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] لماذا جاء خبر المبتدأ في نهاية الآية، ولم يأت بعد المبتدأ مباشرة وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؟
الجواب: هنا يأتي:

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٠١).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٢).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٠١).



المشهد الثالث: ذكر الله ﷻ لهم ستة أنواع كبرى من النعيم القادم:

أنواع النعيم القادم للذين آمنوا وعملوا الصالحات

القانون الثاني الخلود الأبدى في النعيم المقيم ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42].	النوع الأول تَمْلُكُ الْجَنَّةِ الْكُبْرَى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 42].
القانون الرابع الجمال الخارجي ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: 43] فبعد الاطمئنان إلى حسن الجوار يأتي الاطمئنان إلى طيب القرار.	النوع الثالث مشهد النقاء الداخلي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43].
النوع السادس النداء الاحتفالي بهم حيث يناديهم الله عز وجل وملائكته بالثناء على جهودهم التي قاموا بها في الدنيا ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]	النوع الخامس مشهدهم وقد استراحوا وقاموا يناجون ربهم متذوقين جمال الحق الذي صبروا في سبيله في الدنيا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43].

يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ مُمْتَازِينَ

مُفَصِّلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

النوع الأول: تَمَلُّكُ الْجَنَّةِ الْكُبْرَى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، فضلاً عما يفيد هذا التعبير من " قصر ملازمة الجنة عليهم، دون غيرهم" ^(١).

النوع الثاني: الخلود الأبدي في النعيم المقيم ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دون أن يتغيَّر عليهم الحال، فلا انقطاع لحياتهم فيها.

قال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ﴾ باسم الإشارة الظاهر، ولم يقل: "لهم الجنة"؛ ليزيد في الإشادة بهم، فبشَّرههم بأنهم أصحاب الجنة، والصحبة تدلُّ على الملازمة، والأنس، والتنعيم بالمصحوب غالباً، ثم بشَّرههم أخرى بأنهم خالدون في الجنة، ماكثون بصورة دائمة، لا يخرجون منها، ولا يُسلبون نعيمها.

والآن: انظر في الآية مجدِّداً، فاجمع بين قوله: ﴿ءَامَنُوا﴾، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٤٢) فالعمل منهم مطلوب في حدود طاقتهم دون مشقة. واجمع إلى ذلك هذا التشويق البالغ للمكافأة الأخيرة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٤٣)، والخلود في النعيم يعني استحالة أن يشعروا بمللٍ فيه، وإلا لم يكن نعيماً.

وَمَا ذَاكَ إِلَّا غَيْرَةٌ أَنْ يَنَالَهَا	سَوَى كُفَيْهَا وَالرَّبُّ بِالْخَلْقِ أَعْلَمُ
وَأِنْ حُجِبَتْ عَنْهَا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ	وَحُقِّقَتْ بِمَا يُوْذِي النُّفُوسَ وَيُؤْلَمُ
فَلِلَّهِ مَا فِي حَشْوِهَا مِنْ مَسَرَّةٍ	وَأَصْنَافٍ لَذَاتٍ بِهَا يُتَنَعَّمُ
وَلِلَّهِ بَرْدُ الْعَيْشِ بَيْنَ خِيَامِهَا	وَرَوْضَاتِهَا وَالثَّغَرُ فِي الرِّوْضِ يَبْسَمُ ^(٢)

ثم ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا

(١) التحرير والتنوير، (٨ / ١٣٠).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٧).

أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، وهنا يُكْمِلُ اللهُ ﷻ وصف النعيم الذي ينتظر المؤمنين في الآخرة، فوصفهم وصفًا مفاجئًا وهو يبين النعيم الذي سيتلقونه، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ ﴿٤٣﴾﴾ فما معنى ذلك؟
الجواب: هنا يأتي:

النوع الثالث: مشهد النقاء الداخلي:

إذ يشعر الإنسان بالصفاء والنقاء والنعيم فيبعد عنه الغِلُّ، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ ﴿٤٣﴾﴾ فكم من صاحب نعيم ماديٍّ تأكله أضغاثُهُ، فهل يهنأ بعيش؟
انظر لجمال البيان القرآني:

لعظمة هذه النعمة وغرابتها جعلها الله ﷻ في أول الآية، فقال الله ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾.

وقد تسأل: لماذا عبّر الله ﷻ عن إبعاد الغل في صدورهم بالنزع؟

الجواب: لاحظ التعبير بالنزع؛ فهو يُبَصِّرنا بأمرين:

الأول: يُبَصِّرنا بمقدار تمكّن هذه الأدناس من نفوسنا البشريّة، فحقيقة النزع قَلْعُ الشَّيْءِ مِنْ مَوْضِعِهِ بِقُوَّةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَّشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولذا تحتاج إلى مجاهدة عظيمة لإبعادها من نفوسنا في الدنيا.

فطبيعة النفس في الدنيا لا بدّ أن يعتريها شيءٌ من الغلِّ، فقد قال الله ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشَّمْس: ٨].

فلكلّ إنسان حظُّه من الغلِّ ظهر أو استتر، فأما المخبت المتقي فيَقْمَعُهُ، وأما المنافق فيُطْلَعُهُ، وبينهما مراتب يخلط فيها المؤمنون عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهنا يقاوم المؤمن



ويقمع هذه النزعة الخبيثة: فأما النبي ﷺ، فقد شقَّ الله ﷻ صدره، وأخرجت العلقه السوداء من قلبه، وقال المَلَكُ عندما نزع العلقه السوداء: هذا حظُّ الشيطان منه، ومعنى ذلك أن بقية الناس عندهم العلقه السوداء ابتلوا بها ليدفعوها، فجعل الله ﷻ للمؤمن نفساً لوامة، تلومه عندما يقع في المعاصي القلبية أو القولية والفعلية.

ولا يقدر على مقاومة هذا الغلُّ الخفيِّ إلا الذين يجاهدون أنفسهم حقَّ المجاهدة، وكان الذي يقدر على نزع الغل من قلبه في الدُّنيا يُبَشِّرُ نفسه بمكانه في الجنة، فقد روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ؓ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلِيهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ؓ فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِبُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسُ ؓ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ ﷻ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ نَمَ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَارٍ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدَيْتَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي

نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَشَا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ»^(١).

ويُجَلِّي يونس بن عبيد ﷺ صعوبة التحقق بهذه الخصلة العظيمة، فيقول جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ ﷺ: «بَلَّغَنِي عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ ﷺ فَضْلَ وَصَالِحٍ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ: يَا أَخِي اكْتُبْ إِلَيَّ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَتَانِي كِتَابُكَ تَسْأَلُنِي أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ، وَأَخْبِرُكَ أَنِّي عَرَضْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لَهَا، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا، فَإِذَا هِيَ مِنْ ذَاكَ بَعِيدٌ، ثُمَّ عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى تَرَكَ ذِكْرَهُمْ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَوَجَدْتُ الصَّوْمَ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ الْحَرِّ بِالْهَوَاجِرِ بِالْبَصْرَةِ أَيْسَرُ عَلَيْهَا مِنْ تَرَكَ ذِكْرَهُمْ، هَذَا أَمْرِي يَا أَخِي، وَالسَّلَامُ»^(٢).

ولشرف هذه الخصلة وسُمُوها نرى كرام الناس يتمدحون بها، فهذا المقنع الكندي يقول^(٣):

وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا
وَيُرَوِّى أَنَّهُ قِيلَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: مَنْ أَسْوَدُ النَّاسِ؟ فَقَالَ: «الْأَخْرَقُ فِي مَالِهِ الْمُطَّرِحُ
لِحِقْدِهِ»^(٤).

(١) أحمد (١٢٦٩٧)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٨٤): «رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم»، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٧٢٨)، قال معلقاً على كلام المنذري: «هو كما قال، لولا أنه منقطع بين الزهري وأنس ﷺ، بينهما رجل لم يسم، كما قال الحافظ حمزة الكتاني على ما ذكره الحافظ المزي في تحفة الأشراف (١/ ٣٩٥)».

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٨).

(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة، (١/ ٣٢٨). ويروى البيت: (وليس كريم القوم) بدلاً من: (وليس رئيس القوم). يُنظر: شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة: أحمد سامي زكي، (ص ١٠٤).

(٤) الذخائر والعقبريات، (٢/ ١٧١).

لقد صار نزع الغلّ من الصدر نوعاً من النعيم العظيم، وقد علّمنا في كلام ربنا أن من دعاء الصالحين البررة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، كما كان النبي ﷺ يعلمنا أن ندعو الله ﷻ أن يصنع بنا ذلك في الدنيا قبل الآخرة، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو، فيقول: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهَدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَرًا، لَكَ ذَكَرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطَوَاعًا، إِلَيْكَ مُخِبًّا، لَكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(١).

فقوله: «مُخِبًّا» أي: مطمئناً بك، غير ناظرٍ إلى ما عند الناس نظرة غلٍّ، وقوله: «واسئل سخيمة قلبي» أي: أزل الغلّ الأسود منه، وقد حدث.

الثاني: أن الذي ينزع الغلّ في الآخرة بصورة كاملة هو الله ﷻ، ولذلك قال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ بد(نا) الدّالة على كامل العظمة والقدرة والقوة.

وتشعر هنا بعظمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أحسّ بأن هذه الآية تتحدث عنه، وعن بعض أصحابه رضي الله عنهم ممن أصابهم الشيطان بنزغه، فعن أبي حبيبة مولى طلحة رضي الله عنه قال: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه مَعَ عِمْرَانَ بْنِ طَلْحَةَ رضي الله عنه بَعْدَ مَا فَرَّغَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَمَلِ - وكان أبوه طلحة رضي الله عنه قد قُتِلَ فِي وَقْعَةِ الْجَمَلِ - قَالَ: فَرَحَّبَ عَلِيٌّ بِعِمْرَانَ بْنِ طَلْحَةَ، وَأَدْنَاهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ لِي اللَّهُ وَأَبَاكَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، فَقَالَ عَلِيٌّ يسأله عن أحواله وأقربائه ممن يعرفهم ملاطفاً له: يَا ابْنَ أَخٍ

(١) أحمد (١٩٩٧)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح غير طليق بن قيس، فقد روى له أصحاب السنن والبخاري في "الأدب المفرد"، وهو ثقة»، وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٦٠٦).

كَيْفَ فَلَانَةٌ؟ كَيْفَ فَلَانَةٌ؟ قَالَ: وَسَأَلَهُ عَنْ أُمّهَاتِ أَوْلَادِ أَبِيهِ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ لَمْ نَقْبِضْ أَرْضِيكُمْ هَذِهِ السَّنِينَ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ يَنْتَهَبَهَا النَّاسُ.

يعني أن علياً عليه السلام منع عمران عليه السلام ومن معه من التصرف في أراضي طلحة عليه السلام وقتاً من الزمان، واعتذر له عن هذا التصرف بأنه خاف عليهم من أن يغتصب أراضيهم أحد، ولذا قال علي عليه السلام:

يَا فَلَانُ أَنْطَلِقْ مَعَهُ إِلَى ابْنِ قَرْظَةَ - يعني أحد مسؤولي بيت المال عند علي عليه السلام - مَرُّهُ فَلْيُعْطِهِ غَلَّتْ هَذِهِ السَّنِينَ، وَيَدْفَعْ إِلَيْهِ أَرْضَهُ، فَقَالَ رَجُلَانِ جَالِسَانِ نَاحِيَةً أَحَدُهُمَا الْحَارِثُ الْأَعْوَرُ اعْتِرَاضًا عَلَى كَلَامِ عَلِيٍّ عليه السلام: اللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ نَقْتُلَهُمْ وَيَكُونُوا إِخْوَانَنَا فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: قَوْمًا أَبْعَدَ أَرْضِ اللَّهِ وَأَسَحَقَهَا، فَمَنْ هُوَ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَةُ؟!

ثم خاطب عمران بن طلحة عليه السلام، فقال: يَا ابْنَ أَخِي إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَأْتِنَا^(١)، وروى الطبري عليه السلام عن علي عليه السلام قال: فِينَا وَاللَّهِ أَهْلَ بَدْرٍ نَزَلَتْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، والآية التي أشار إليها في سورة الحجر مكية كما أن هذه الآية مكية، وقد أراد علي عليه السلام من ذلك أنهم أولى من غيرهم في أن يدخلوا فيما تَضَمَّتْهُ من حُكْم، وفي رواية قال علي عليه السلام: إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعِثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾^(٢).

والآن عد بنا مجدداً لنكمل بصائر هذا القبس القرآني المدهش:

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٧١٦٠)، والحاكم في المستدرک (٥٦١٣)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) تفسير الطبري (٤٣٨/١٢).

﴿وَنَزَعْنَا﴾: تُبَصِّرُكَ ﴿نَا﴾ الدَّالَّةُ عَلَى الْعِظَمَةِ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ هَذَا الْحِطَّ الْخَفِيِّ الدَّنَسَ مِنْ نفوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِمَا لَهُ ﷻ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْعِظَمَةِ الَّتِي لَا يَحْدُهَا الْعِجْزُ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الْاسْتِئْذَانِ.

فَفِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ سَيَكْرِمُهُمُ اللَّهُ ﷻ بِأَن يَنْزِعَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غُلٍّ، وَهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَشْعُرَ بِالصُّورَةِ الَّتِي تَقْدِّمُهَا لَنَا كَلِمَةُ ﴿غِلٍّ﴾.

﴿غِلٍّ﴾: بِالْكَسْرِ هُوَ الْقَيْدُ النَّفْسِيُّ الَّذِي يَتَغَلَّغِلُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، مِثْلُ "غُلٍّ" وَهُوَ الْقَيْدُ الْحَسِّي الَّذِي يُقَيِّدُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا لَّا يَهْتَدُونَ﴾ [يس: ٨]، فَكِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ تَعْبُرُ عَنِ الْقِيُودِ الَّتِي تُكَبِّلُ حَرَكَةَ الْإِنْسَانِ، أَيْ: تَمْنَعُهُ مِنَ الْحَرَكَةِ الصَّحِيحَةِ، فَيَدْخُلُ فِي ﴿غِلٍّ﴾ الْحَقْدُ الَّذِي يَغْمُرُ الْقَلْبَ، وَالضَّغِينَةُ الَّتِي تَسِيطِرُ عَلَيْهِ، وَالْغِشُّ الَّذِي يُقَيِّدُهُ، وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي تَدْمُرُ حَيَاتَهُ، وَالْإِحْنُ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضِدَّ غَيْرِهِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ غَلٍّ (يَغُلُّ) أَيْ: يَدْخُلُ بِلُطْفٍ إِلَى صَمِيمِ الْقَلْبِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْغُلُولِ، وَهُوَ الْوُصُولُ بِالْحِيلَةِ الْخَفِيَّةِ إِلَى الْأَمْوَالِ، فَالْغُلُولُ يَمْنَحُنَا صُورَةً حَسِيَّةً، وَكَذَلِكَ الْغُلُّ يَتَغَلَّغِلُ فِي الْجَسَدِ خَفِيَّةً وَيَدْخُلُ فِيهِ حَتَّى لَا يَشْعُرُ صَاحِبُهُ بِذَلِكَ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَهُ حَقًّا فِي كِبَرِهِ، أَوْ حَقْدَهُ، أَوْ حَسَدَهُ، أَوْ غِشَّهُ، أَوْ عَدَاوَتَهُ، وَكَذَلِكَ مِثْلُ الْحُبِّ يَتَغَلَّغِلُ فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ، وَبِذَلِكَ فَإِنَّ الْغُلَّ يَتَصِفُ بِأَمْرَيْنِ:

الأول: أَنَّهُ يَتَغَلَّغِلُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ، فَيُظَنُّ كِبَرَهُ عَلَى الْآخَرِينَ مَبْرَرًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ.

الثاني: أَنَّهُ يَدْمُرُ حَرَكَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ، كَالْغُلِّ الَّذِي يُقَيِّدُ الْيَدَ إِلَى الْعُنُقِ.

بصيرة: يدخل في كلمة: ﴿غِلٌّ﴾: الحقد الذي يغمر القلب، والضغينة التي تسيطر عليه، والغش الذي يُقَيِّدُهُ، والعداوة التي تدمر حياته، والإحْنُ التي تمكّنت من قلبه ضدَّ غيره.

فقول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ (١٣) يصوّر لك أصحاب الجنة فيها، وقد أبعد الله ﷻ عنهم هذه الأغلال الخفية المدمرة، فنقّاهم من الدّسّ البشري الذي كان يجتاح قلوبهم، فيغلبهم أحياناً، ويأكل نفوسهم، وربما اجتاحتهم الحسد أو شيء من الكبر الطارئ فغلبهم، وجعلهم يتخذون مواقف يندمون عليها لاحقاً، وربما يدفعهم الحسد أو الغل بعيداً عن النقاء في التصرفات، فالدار لا تطيب إلا بحسن الجوار، وهل تطيب أنفسهم وهم لا يطمنون لجيرانهم؟ هل يجدون السعادة وهم يشعرون بالألم في قلوبهم لمن يعيش معهم في الجنة؟

بصيرة: حتى يشعر أهل الجنة بالذّ درجات النعيم لا بد أن تمتلئ نفوسهم بأعلى درجات المحبة والنقاء إزاء من يعيشون معهم من الأتقياء السعداء.

والسؤال الذي يطرح نفسه: نحن نعرف كيف ننزع الغلّ المادي، فكيف يُنزع هذا الغلّ النفسي من قلوبهم؟

الجواب: ينزع الله ﷻ منهم الغلّ على رتبتين:

الرتبة الأولى: يُنزع الغلّ من نفوسهم قبل دخول الجنة، فتذهب الأحقاد والكبر والضغائن والحسد، ويُبصّرنا بكيفية نزاعها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ - أي نالوا الأمان من النار - حُسِبُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - أي قبل

أن يدخلوا الجنة يحبسون في جسر عظيم بين الدارين - فَيَتَقَاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا - أي لا يعدّون بما كان بينهم في الدُّنْيَا من عداواتٍ خفية، بل يقتص لهذا من هذا، وهنا تشعر بخطر الغلّ؛ لأنه سيؤدّي إلى أن يأخذ المظلوم فيه حقه من الظالم درجةً عاليةً في الجنة - حَتَّى إِذَا نُفُوا وَهُدُّبُوا ، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحْدَهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدْلَ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

وهنا ترى الوضع خطيراً في وجود الغلّ - اللهم نقنا منه -: فالذي يُخفي في صدره حسداً، أو حقداً، أو كبراً، أو نحو ذلك من الأمراض النفسية دون أن يعالجه؛ إما أن يَمْنَعَ من الجنة، وإما أن يُقْتَصَّ للمظلوم منه، فيقدّم حسناته لمن كان في قلبه غلٌّ عليه.. يا للخسارة.. تعمل كلّ تلك الحسنات لتقدّمها هدية لمن في قلبك غلٌّ عليه.

ولا يدخل أهل الجنة الجنة إلا إذا نزع هذا الغلّ منهم، فيصوّر لنا النبي ﷺ الزُّمَرَةَ المفلحة التي تسبق إلى الجنة، وهي تدخلها، وقد نزع الله ﷻ الغلّ من قلوبهم، فيقول: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَحِطُونَ، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ، آيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ»^(٢)، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مِخْ سَوْقَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٣).

(١) البخاري (٢٤٤٠). ومعنى: (لأحدهم بمسكنه في الجنة أدلّ بمنزله كان في الدنيا): أي إن أهل الجنة أعرف بمنازلهم فيها من أهل الدنيا بمنازلهم.

(٢) «وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ» (المَجَامِرُ): جَمْعُ مَجْمَرٍ وَمُجْمَرٍ، فَالْمَجْمَرُ بِكَسْرِ الْمِيمِ: هُوَ الَّذِي يُوَضَعُ فِيهِ النَّارُ لِلْبُخُورِ. وَ(الْمُجْمَرُ) بِالضَّمِّ: الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ وَأَعْدَلُهُ الْجَمْرُ، وَهُوَ الْمُرَادُّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَيِ إِنْ بَخُورَهُمْ بِالْأَلْوَةِ وَهُوَ الْعُودِ. النّهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٩٣).

(٣) البخاري (٣٢٤٥).

فهل سبقوا إلى الجنة؛ لأنهم نقوا قلوبهم في الدُّنيا من الغُلِّ، فسبقوا غيرهم ممن كان في قلبه غُلٌّ؟ يحتمل احتمالاً كبيراً. اللهم اجعلنا منهم.

يا دافِنَ الحِقْدِ في ضِعْفِي جِوَانِحِهِ
سَاءَ الدَّفِينُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدَثًا
الحِقْدُ دَاءٌ دَوِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ
يَرِي الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمُرَهُ حُرْثًا
فاسْتَشَفَّ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتِبَةٍ
فإنَّما يَبْرَأُ المَصْدُورُ مَا نَفَثَا^(١)

الرتبة الثانية: عندما يكونون في الجنة على سُرُرٍ متقابلين ينزع الله ﷻ كُلَّ شعورٍ خفيٍّ ينغص عليهم ذلك النعيم، فترى صاحبَ الدَّرَجَةِ الدُّنيا لا يَحْسُدُ صاحبَ الدَّرَجَةِ العَالِيَةِ، فلا يحسد بعضهم بعضاً على شيءٍ خَصَّ الله ﷻ به بعضهم وفضَّله من كرامته عليهم، ولا يغط بعضهم بعضاً في الجنة لا قبلها، فإنهم في موقف الحساب يغط بعضهم بعضاً، يفقدون الشعور بالحزن والألم على أنهم في مرتبة دون مرتبة غيرهم في الجنة، وكذلك يفقدون الشعور بالحزن على من أُلقي من أحبائهم في النار. نعوذ بالله من النار.

فالنبي ﷺ في رؤيته عن الجنة أن بعض المؤمنين على كراسي وبعضهم يكون على كُثبان المسك، فلا يرى من هم على كُثبان المسك أن لأهل الكراسي مزية عليهم، فينزع الله ﷻ الغُلَّ من النفوس، فيطهر الله نُفُوسَهُمْ في حَيَاتِهِم الدائمة عَنِ الْإِنْفَعَالِ بِالْخَوَاطِرِ السَيِّئَةِ الَّتِي مِنْهَا الْغُلُّ.

وهذا النوع من النعيم يقابل ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَبَرِّي بَعْضِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ بَعْضٍ، وَلَعَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِيَعْلَمَ أَنَّ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا مُفَارَقَةٌ لِحَالِ أَهْلِ النَّارِ^(٢).

(١) الأبيات لابن الرومي. يُنظر: ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد بسج، (١/ ٢٧٧). زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي

القيرواني، (٣/ ٧١٦). والبيت فيه: (فإنما يُبرئُ المصدورَ ما نفثا). ومعنى (يَري) أي: يُشعل.

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٣).

وبعد ذلك قال الله ﷻ واصفًا نعيم أهل الجنة: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فلماذا وصفهم بهذا النعيم؟

النوع الرابع: الجمال الخارجي: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، فبعد الاطمئنان إلى حسن الجواريات الاطمئنان إلى طيب القرار، حيث يعيشون في جنات تجري من تحتها الأنهار:

فبعد أن وجدوا الجمال الداخلي بأن نقَّاهم الله ﷻ في صدورهم ونفوسهم أخبر أن الجمال الخارجي المادي المحسوس من حولهم يحيط بهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، فبين أن الأنهار تجري من تحتهم، فذكر أعظم أسباب السعادة المادية الخارجية وهو وجود الماء الذي يعني راحة النفس، وطيب المنزل، والشعور بالجمال، ووصفه بالجريان؛ لأن الماء الجاري ألذ وأعذب وأجمل وأتقى وأنقى وأطرب من الماء الراكد، وكلمة ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾، تدلُّ على علوِّهم ورفعتهم، إذ يعيشون في غرفاتهم، ومن شرفاتها يرون الأنهار تجري متدفقة سابحة، وكم يسافر الإنسان لكي يرى الشلالات والأنهار تجري من تحته.

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ سَبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الْفَيْضَانِ
مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاءَوا مُفْجَءَ جَرَّةً وَمَا لِلنَّهْرِ مِنْ نُقْصَانٍ^(١)

قابل هذا النعيم بذلك الجحيم الأليم، فأهل النار يصطلون النار ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الرَّؤْم: ١٦]، بينما أهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار، وتبعث في قلوبهم السعادة، والسكينة والسلام، وتأخذهم بجمالها الأنسام.

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (ص ٣٢٦).

يحدثنا الله ﷻ بعد ذلك عن مشاعر أهل الجنة، وقد استقروا في الجنة فيقول: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ﴾، فما موقع هذه الكلمات من النعيم الذي يتذوقونه؟

الجواب: هنا يأتي:

النوع الخامس: مشهدهم وقد استراحوا، وقاموا يناجون ربهم متذوقين جمال الحق الذي صبروا في سبيله في الدنيا:

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ﴾.

يرفعون أصواتهم إذ تعدُّبُ الكلمات، وتجمُّلُ الدعوات، وتخرج من القلوب الابتسامات، وركَّزوا في كلامهم على ثلاث نقاط صنعت لهم هذا النجاح العظيم:

النقطة الأولى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ إثبات الفضل لله ﷻ في الهداية:

يقولون: الحمد لله الذي هدانا هداية الإبانة، وهداية التوفيق والتسديد والإعانة، الحمد لله منحنا القدرة، والباعث النفسي للإقبال على الأعمال الصالحات بالجد والاهتمام.

الحمد لله أزال الموانع، وغفر الذنوب، وجنبنا مصيبات الآثام.

قارن هذا بالكلمات التي تنبعث في أسى وحرقة من أهل النار حينما يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ

عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وجاء باللام في قوله: ﴿لِهَذَا﴾ ليصوِّر لنا أنه بتوفيقه أوصلنا، وبلطفه ورحمته ورأفته بلَّغنا،

فلم يعلمنا فحسب، بل أوصلنا إلى حيث مستقر الصالحات الطيبات.

ثم لم يتوقفوا، حتى انتقلوا إلى النقطة الثانية:

النقطة الثانية في كلامهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ نفى الفضل عمن سواه: ربما ستقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ يفيد المعنى نفسه عندما قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فلماذا يجمعون بين هاتين الجملتين؟

الجواب: إن تفصيل الفرح في محله جزء من النعيم العظيم، فكيف إذا كان الكلام يعبر عن تدفق المشاعر والأحاسيس بعد أن حققوا الفوز العظيم.. هنا يتكلمون عن أسباب نجاحهم وفلاحهم، ويسهبون في ذلك وحق لهم:

حبيبي زدني من حديث ذكرته لیسکن هذا القلب بعض سكون^(١) والإنسان يعمد إلى الكلام الكثير عند الحزن الشديد، أو عند الفرح الشديد إذا وجد لذلك سبيلاً، فعند الحزن الشديد يحاول أن يسهب ليخفف عن نفسه، أو يستدر عطف الآخرين، أو ليفرغ بعض الحزن الذي في نفسه إذ لا يقدر على الصبر، وكذلك عند الفرح الشديد تراه يعبر عن فرحه بكلمات متعددة، وأصحاب الجنة هنا يكلمون أنفسهم ومن حولهم، ويناجون ربهم ﷻ ذاكرين أهم أسباب الفلاح في حياتهم: إنه الاهتداء.

وحدَّثني يا سعد عنها فزدني جُنُونًا فزدني من حديثك يا سعد
 هواها هوى لم يعلم القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد^(٢)
 ففي قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أثبتوا الحمد لله ربهم حمداً خارجاً من حنايا نفوسهم مصحوباً بأعلى درجات السعادة والاعتباط، تكاد الفرحة أن تخرج منهم ما في النياط.

(١) البيت لبهاء الدين زهير (ت: ٦٢٦هـ) في ديوانه (ص: ٣٦٣).

(٢) ديوان أبي الفضل بن الأحنف (ت: ١٩٢هـ)، تحقيق عاتكة الخزرجي (ص: ٩٨).



وفي قولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ أثبتوا الفضل في كل هذا النجاح لله ﷻ، وحصروه فيه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم وذكائهم وإمكاناتهم وأصدقائهم ومن حولهم، وبينوا أنه لولا الله ﷻ لما عرفوا الهداية، ولا سلكوا سبيل المهتدين.

ولقد تذوق ذلك عبد الله بن رواحة ؓ في الدنيا قبل الآخرة، فقال أمام النبي ﷺ: قولاً أشاد به النبي ﷺ فردده معه، ثم رددته عامر بن الأكوع ؓ عام خيبر، ودعا له النبي ﷺ فاستشهد:

تَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْتَنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
إِنَّ الَّذِينَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا فَجَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا
وَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا^(١)

هنا يظهرون مشاعرهم القوية الجياشة، وأنهم لم يهتدوا لولا ربهم، وانظر كيف قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾.

فنفوا أن يكون لهم كيان أو وجود لولا هداية الرب المعبود جلّ مجده، فأفادت اللام ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾ بأن الله ﷻ أعظم معين، وهو الناصر للراغبين والطالبين، فقد كانوا قبل هداية الله ﷻ لهم في حياة تمتلئ بالضلال والجهل والوثنية، فمنَّ الله ﷻ عليهم فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(١) مسلم (١٨٠٧)، وأحمد (١٦٥٣٨).

وفي قول ربنا جلَّ مجده: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] قراءتان بالواو قبل ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾، وبدون واو^(١)، والقراءتان كأنهما تصوَّران أن أهل الجنة انقسموا إلى قسمين في ثنائهم على الله ﷻ:

القسم الأول: صورته لنا قراءة ابن عامرٍ: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ بِدُونِ وَاوٍ قَبْلَ مَا﴾، وهكذا كتبت في المصاحف المرسلة إلى أهل الشام، وحذف الواو يصوِّر لك مشهدهم، وهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

فكأنهم سكنوا وسكتوا بعد ذلك، ثم عادوا ليستدركوا ما فاتهم، ويتلذذوا بالشعور أن الله ﷻ اجتباهم فهداهم، فقالوا: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].
والقسم الثاني: صورته لنا قراءة الجمهور، فتتابعت كلماتهم معاً، فقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ويصوِّر لنا رسول الله ﷺ كيف يتلذذ أصحاب الجنة بهذا القول، وكيف يتحسَّر أهل النار بما يقابل هذا القول، فيقول: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ»^(٢).
ولم يتوقفوا عند ذلك حتى انتقلوا إلى نقطة ثالثة في كلامهم:

(١) قرأ ابن عامر بغير واو قبل (ما)، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. وقرأ الباقر بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم. النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

(٢) البخاري (٦٥٦٩).

النقطة الثالثة: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أثنوا على رسل الله ﷺ، فجمعوا بذلك بين

معنى الشهادتين:

بعد أن امتلأت قلوبهم بالثناء على الله ﷻ، وفاضت ألسنتهم بحمد الله على هذا المسار الذي ساروا فيه، فهو الذي هداهم إليه، ورددت ألسنتهم، فنسبوا كل نجاح حققوه إلى الاصطفاء الإلهي، أثنوا على الفضل الإلهي بإرسال الرسل ﷺ، إذ قام الرسل ﷺ بتبليغ الرسالة على خير الوجوه، ولم يذكروا للإنسانية في الدنيا إلا الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، فقالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

أثنوا على الله ﷻ، ثم أثنوا على رسله ﷺ، وعبروا عن ابتهاجهم، واعتباطهم بما حدث لهم، فأكدوا أن الرسل ﷺ جاءت بالحق، فأخبرت بما تحقق لهم الآن، «لَأَنَّ تَذَكُّرَ الْأَمْرِ الْمَحْبُوبِ، وَالْحَدِيثَ عَنْهُ مِمَّا تَلَذُّ بِهِ النَّفُوسُ، مَعَ قَصْدِ الثَّنَاءِ عَلَى الرَّسُلِ ﷺ»^(١)، فإذا كان حمدهم لربهم من باب الشكر اللازم الواجب، فإن ذكر رسل الله ﷻ بالثناء من الوفاء، وهذا من أخلاق أهل النبيل التي وصف الله بها عباده الأخيار.

وقول أصحاب الجنة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ هتاف يملؤه الفرح بما وصلهم من ربهم ﷻ، وهو ثناء على الرسل ﷺ في الوقت نفسه، وهذا الهتاف يُبَصِّرُنَا أَنَّكَ إِذَا أَثْنَيْتَ عَلَى اللَّهِ ﷻ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّ لَا تَشْكُرَ الْبَشَرَ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ لَهْدَايَتِكَ، وَلَا تَقُلْ: أَدَّى وَاجِبَهُ، فَالَّذِي يُوَدِّي وَاجِبَهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكِرَ عَلَى بَذَلِهِ.

ومن فرحهم بما حققوه أكدوا كلامهم بلام القسم وبـ(قَدْ): ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، كأنهم قالوا: والله لقد جاءت رسل ربنا بالحق، والتأكيد بلام القسم و(قد) ليس لأنهم كانوا

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٣٣).

في شكٍّ مما قاله الرسل ﷺ، بل لأن مقام الفرح والاعتباط يقتضي مثل هذا التعبير كما هو مشاهد، فقد وعدتهم الرسل ﷺ أن هناك قيامةً، وبعثاً، وحساباً، وفوزاً أو خسارةً، فقد سمعوا الرسل ﷺ في الدنيا يقولون: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وسمعوا النبي ﷺ يقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

فرددوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

والآن وجدوا كل ذلك حقاً.

وفي حديث لعليّ عليه السلام يصوّر لنا متى يكون هذا الحمد في الجنة، وكيف يصدر من أهلها، فيقول: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَجَدُوا عِنْدَهُ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ سَاقِهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهُمَا، كَأَنَّمَا أَمْرُوا بِهِ فَشَرِبُوا مِنْهَا، فَأَذْهَبَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ قَذَى أَوْ أَذَى أَوْ بَأْسٍ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الْأُخْرَى فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ وَلَمْ تُغَيِّرْ أَشْعَارَهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَا تَشَعَثُ رُءُوسُهُمْ أَبَدًا كَأَنَّمَا دُهِنُوا بِالذَّهَانِ، ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالُوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ثُمَّ تَلَقَّاهُمُ الْوِلْدَانُ يَطِيفُونَ كَمَا يَطِيفُ وَلَدَانُ أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْحَمِيمِ يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْبَتِهِ يَقُولُونَ لَهُ: أَبَشِّرْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ كَذَا، قَالَ: ثُمَّ يَنْطَلِقُ غُلَامٌ مِنْ أَوْلِيكَ الْوِلْدَانِ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَيَقُولُ: قَدْ جَاءَ فُلَانٌ بِاسْمِهِ الَّذِي كَانَ يُدْعَى بِهِ فِي الدُّنْيَا قَالَتْ: أَنْتَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: أَنَا رَأَيْتُهُ وَهُوَ بِأَثَرِي فَيَسْتَخِفُّ إِحْدَاهُنَّ الْفَرَحُ حَتَّى

(١) البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

تَقُومَ عَلَى أُسْكُفَةٍ بَابِهَا، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى مَنْزِلِهِ نَظَرَ إِلَى أَسَاسِ بُيَانِهِ، فَإِذَا جَنَدُلُ اللَّوْلُؤِ فَوْقَهُ، صَرَخَ أَخْضَرُ وَأَحْمَرُ وَأَصْفَرُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ إِلَى سَقْفِهِ، فَإِذَا مِثْلُ الْبَرْقِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدَرَهُ لَأَلَمَ أَنْ يَذْهَبَ بَصَرُهُ، ثُمَّ طَاطَأَ رَأْسَهُ، فَإِذَا أَرْوَاجُهُ ﴿وَأَكْوَابُ مَوْسُوعَةٍ﴾ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٍ ١٥ وَزَرَائِي مَبْنُوثَةٌ ﴿الْعَاشِيَةِ: ١٤-١٦﴾، ثُمَّ اتَّكَوْا، فَقَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﷻ﴾ [الأعراف: ٤٣] الْآيَةِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: تَحْيَوْنَ فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَتَقِيْمُونَ فَلَا تَطْعَنُونَ أَبَدًا، وَتَصِحُّونَ - أَرَاهُ قَالَ - فَلَا تَمْرُضُونَ أَبَدًا»^(١)، وهذه الهداية التي يحمدون الله ﷻ عليها مترتبة على الهداية السالفة الحاصلة لهم في الدنيا، فمن لم يهتد في الدنيا لم تحصل له في الآخرة هداية.

وعن أبي هاشم رحمه الله قال: كتب عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ، إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أَنْ مِنْ قِبَلِنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ حَتَّى خِفْتُ عَلَيْهِمْ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ ﷺ: قَدْ فَهِمْتَ كِتَابَكَ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ رَضِيَ مِنْهُمْ بِأَنْ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، فَمَرَّ مِنْ قِبَلِكَ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ ﷻ^(٢).

وربما تتساءل: ذكر الله ﷻ كلامًا تفصيليًا لأهل الجنة يساوي تقريبًا ما ذكره من نعيم لهم، فلماذا؟

(١) مسند ابن الجعد (٢٥٦٩).

(٢) الدر المنثور (٣/ ٤٥٨)، وهو في سنن سعيد بن منصور (١٨٧٤)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٠٨٩) ولفظ البيهقي: أَنَّ عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ، كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ... فَقَالَ: لَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مِنَ الْخَيْرِ، كَادُوا يَبْطِرُونَ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ النَّارَ، وَأَهْلَ النَّارِ الْجَنَّةَ، فَرَضِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ قَالُوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فَمَرَّ مِنْ قِبَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ»، وقال محقق شعب الإيمان (الدكتور عبد العلي عبد الحميد): «رجالها ثقات».

الجواب: لاحظ متدبراً، وقِف متأثراً: ترى الله ﷻ لم يفصل نعيمهم السابق تفصيلاً في هذه الآيات بل عدّد أربعة مظاهر عظيمة للنعيم، فالأول صوره، فقال عنه: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ۴۲].

والثاني صوره، فقال عنه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ۴۲].

والثالث صوره، فقال عنه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ [الأعراف: ۴۳].

والرابع صوره، فقال عنه: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ۴۳].

فلم يصف نعيمهم الماديّ والنفسيّ وصفاً طويلاً، لكنه نقل كلامهم عن ربهم ﷻ بصورة كبيرة نسبياً، فلماذا؟ كأنه يشعرنا -تبارك اسمه وتعالى جده- أن كلّ بلاء مرّوا به في الدنيا، وأن كلّ اختبار امتحنوا به في السابق لم يعد شيئاً في ذكرياتهم، بل إن أعظم الذكريات المسيطرة عليهم من حياتهم الدنيا: نعيم الهداية العظيمة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ۴۳].

يختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فما محلّ هذا النداء من النعيم الذي يتلقاه أهل الجنة؟

الجواب: هذا هو النوع السادس من أنواع النعيم التي يجدها أهل الجنة:

النوع السادس: النداء الاحتفالي بهم: إذ يناديهم الله ﷻ وملائكته بالثناء على جهودهم التي قاموا بها في الدنيا: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

إنه نعيمٌ مميّزٌ ترى فيه مشهد الإعلان والإشادة والثناء على أهل الجنة المحتفل بهم؛ إذ يناديهم الله ﷻ مبشراً، والملائكة ﷺ تناديهم ثانياً تذكيراً بعظمة أعمالهم التي صبروا على تحقيقها في الدنيا ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

هنا يهون عليك كل عناء شعرت به في الدنيا.. فماذا يساوي عناء مقاومة الشهوة أمام هذا النداء؟

وماذا يمثل عناء الصبر على الأذى أمام هذا النداء؟

وكلمة: ﴿وَنُودُوا﴾ تصوّر لك الندى مع النداء، فالندى هو الرطوبة العليقة الجميلة التي تستلذ بوجودها، وتستمتع بحلاوتها، والنداء مأخوذ منها؛ لأن الأصل أنه يتضمّن خبراً يُهمّ المنادى.

لم يحدّد الله ﷻ من المنادي، وذلك لتتصوّر أهل الجنة، وهم يحمدون الله ﷻ، ويتمتعون بنعيمهم؛ فإذا بهم يزدادون تمتّعاً ونعيمًا عندما يناديهم ربهم ﷻ، أو تناديهم الملائكة ﷻ، أو ينادي كبارهم وقاداتهم من الأنبياء ﷺ بقيّتهم من الصالحين الأتقياء: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فإن قلت: هل نودوا جهارًا بحيث يسمع الجميع، أم نودوا سرًّا؟

الجواب: الأصل في النداء الجهر، وقد يراد النداء مقيدًا بالخفاء، دألاً على الإلحاح، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِذَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فكلمة ﴿نُودُوا﴾ تدلّ حسب المقام هنا على مقدار الاحتفال بالمنادى ﴿وَنُودُوا﴾ نداء التكريم إتماماً لذلك النعيم.

﴿أَنْ﴾ كلمة تفسّر محتوى النداء، فهي المُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أو هي المُفَسَّرَةُ.

بصيرة: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ﴾ ولم يصفها بوصفٍ؛ لتذهب نفُسك كل مذهب في الشعور بعُلُوّها وعظمتها وجمالها وبهائها وقوتها ونعيمها ومكانتها، والإشارة بالبعيد؛ لبُعْدِ المكانة وعظمة المنزلة ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بين مشهدي الفريقين في هذه السُّورة:

فأهل النار يشتغلون بالتنازع والخصام، والتلاعن الذي يكون بين اللئام: ﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، بينما ترى أصحاب الجنة يشتغلون بالحمد، والتعبير بأجمل الكلمات عن محبة رب الأرض والسموات، والثناء على عظماء القيادات من الأنبياء: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (٣٩).

وأهل النار ينادون بالتحقير والتوبيخ والتقريع والتأنيب: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].
وأهل الجنة ينادون بالتأهيل والتكريم: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

لقد عادوا من رحلة الحياة الدنيا، فنُودوا بهذا النداء «فكأنما هي أوبة المهاجرين، وعودة المغتربين، إلى دار النعيم!».

بصيرة: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا النداء تذكيرٌ بِحُرِّيَّةِ الاختيار، والقيام بالأسباب الظاهرية، ويصور لك التوازن بين هداية الله وعمل الإنسان.

فأهل النار ينادون بما يذكّرهم بأن مصيرهم البائس كان نتيجة لأعمالهم، وصنعاً بأيديهم، وكسباً كسبته أنفسهم، فصنعت تلك النتيجة البائسة الشقية، فقال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

وأهل الجنة ينادون بأن مصيرهم المكرّم المعظم كان نتيجة لأعمالهم الصالحة، وسعيهم العظيم، وحركتهم التي تريد وجه الله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فهذا يدل على حرية الاختيار، فلا يلومن أحدٌ إلا نفسه، فلن يجد من ربّه إلا ما يأمله، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

وهذه الآية ترد على مذهب الجبرية، وهنا نستحضر كلاماً ذهبياً للإمام الجويني رحمته الله؛ إذ قال: «فمن أحاط بذلك كله، ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إثارهم واختيارهم واقتدارهم، فهو مصاب في عقله، أو مستقر على تقليده، مُصَمِّمٌ على جهله، ففي المصير إلى أنه لا أثر لقدرة العبد في فعله قطع طلبات الشرائع، والتكذيب بما جاء به المرسلون»^(٢).

وهنا قد تتساءل: هذا النداء ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كان موجّهاً لأهل الجنة يخبرهم أنهم حازوا الجنة، وصاروا أصحابها، فكيف أظهر لنا حرية الاختيار، فجمع بين العطاء الإلهي، والكسب الإنساني؟

الجواب: سرّ هذه المسألة في كلمتين:

الكلمة الأولى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، والكلمة الثانية ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) العقيدة النظمية في الأركان الإسلامية (٤٣، ٤٤).

كلمة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ وغيث المعاني المنهمر:

وهنا ستسأل: الكلمة الأولى كلمة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ عجيبة، فما الذي تصوره، وماذا يعني

التعبير بالإرث، فلم يقل: تلك الجنة فزتم بها أو حصلتوها؟

الجواب: هذه الكلمة العظيمة تصوّر لك ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: تصوّر لك أن الجنة صارت لهم من غير تعبٍ حقيقيٍّ يكافئ النعيم الذي فيها، فكلمة (ورث) تعني: انتقال أمر مادي أو معنوي من السابق إلى اللاحق من غير تعب، ومن غير عَقْد، ولا ما يجري مجرى العقد، قال عمرو بن كلثوم:

وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءٍ صَدَقٍ وَوَرِثْنَاهَا إِذَا مِتْنَا بَنِينَ^(١)

فيدخل في الإرث أنواع:

النوع الأول: الأموال المتنقلة من الميت لمن يرثه ﴿وَوَرِثَهُ آبَاؤُهَا﴾ [النساء: ١١].

النوع الثاني: الذي تؤول المسؤولية الكاملة فيه إلى من يأتي بعد المؤسّس أو المُكْتَشِف أو المُظْهِر، فقد قال ﷺ في الحجّ: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢)، فإبراهيم عليه السلام هو الذي وضع المعالم العامّة للمشاعر المقدّسة، والمسلمون ورثوها، بمعنى آلت المسؤولية إليهم للحفاظ عليها.

النوع الثالث: الأرض التي تملّكها الأقوام الجدد بعد هلاك السابقين أو ذلّتهم، كما قال

تعالى: ﴿وَأُورِثَكُمُ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

والجامع بين هذه الأنواع وصول الشيء إلى أشخاص أو جهات، دون أن يبذلوا لوصولها أدنى تعب، أو دون أن يبذلوا مشقة حقيقية تكافئ ما وصل إليهم، ومن ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَ

(١) المعلقات العشر (ص: ١١٧).

(٢) أحمد (١٧٢٣٣)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٦).

سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴿النَّمْل: ١٦﴾، فالإرث وصول الموروث دون تعب يكافئ قيمته، وتَمَلُّكُ الوارث له دون منازعة حقيقية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ أي: وصلت لكم بفضل الله ﷻ ورحمته، دون أن تتعبوا تعباً يكافئ القيمة العظيمة التي للجنة، فتتملكونها فلا ينازعكم فيها أحدٌ، وتلتذون بما فيها من بُحْبُوحَةِ الْعَيْشِ، والقدرة على التصرف.

فإنَّتم هذا النعيم بغير تعب حقيقي، فإنكم مهما عملتم؛ فإن عملكم لا يمكن أن يساوي أدنى متاع في الجنة، فكأن الجنة صارتْ إِلَيْكُمْ كَمَا يَنْتَقِلُ الميراث إلى أصحابه، والتعبير بالإرث مشعرٌ بقوة الملكية، وصيرورة الموروث بصورة تلقائية كما يحدث في خروج المُلْك من المُوَرِّث إلى الوارث، فأنتم عملتم، وعملكم أتعبكم، ولكن النعيم الذي في الجنة لا يساوي شيئاً من عملكم.

بصيرة: التعبير بالإرث مشعرٌ بقوة الملكية، وصيرورة الموروث بصورة تلقائية كما يحدث في خروج المُلْك من المُوَرِّث إلى الوارث.

المعنى الثاني: كلمة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ تدلُّ على الخلود، أي: ترثونها إِرْثَ مَنْ لا ينتقل عنه مَلِكُهُ إلى غيره، وذلك لأنه لا يوجد بعد ذلك دنيا أخرى، ولا حياة أخرى.

فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبَاسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(١).

(١) مسلم (٢٨٣٧).

يقول ابن القيم رحمته الله:

هَذَا وَخَاتِمَةُ النَّعِيمِ خُلُودُهُمْ أَبَدًا بِدَارِ الْخُلْدِ وَالرَّضْوَانِ
 أَوْ مَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الْإِيمَانِ يُخْ — بِرٍ عَنْ مُنَادِيهِمْ بِحُسْنِ بَيَانِ
 لَكُمْ حَيَاةً مَا بِهَا مَوْتُ وَعَا فِيهِ بَلَا سَقَمٍ وَلَا أَحْزَانِ
 وَلَكُمْ نَعِيمٌ مَا بِهِ بُؤْسٌ وَمَا لِشَبَابِكُمْ هَرَمٌ مَدَى الْأَزْمَانِ^(١)

المعنى الثالث: يرث أهل الجنة المنازل المُعدّة لهم كما يرثون المنازل التي كانت مُعدّة للكافرين لو أسلموا، فقد قال السُّدِّي رحمته الله: «لَيْسَ مِنْ كَافِرٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَنْزِلٌ، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ؛ رُفِعَتِ الْجَنَّةُ لِأَهْلِ النَّارِ، فَنَظَرُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلُكُمْ لَوْ عَمِلْتُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ رِثُوهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَيَقْسَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنَازِلُهُمْ»^(٢).

ويفصل لك ذلك ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]»^(٣).

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَرِحٍ وَلَا مَشْغُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فيقول: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فيقالُ لَهُ: مَا هَذَا

(١) نونية ابن القيم (ص: ٣٥٠).

(٢) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٥/٣٤٨)، وضعفه إسلام منصور.

(٣) ابن ماجه (٤٣٤١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٦٦): «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ»، وذكر ابن حجر في فتح الباري (١١/٤٤٢) أنه عند ابن ماجه وأحمد بسند صحيح، ولم أجده عند أحمد، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٢٧٩)، ونَبّه أيضًا أنه لم يره في مسند أحمد.

الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ الله؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى الله. فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِيْنِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَيُجْلِسُ الرَّجُلُ السُّوءِ فِي قَبْرِهِ فِرْعَا مَشْعُوْفًا، فَيَقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ، فَيُفْرَجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ إِلَى النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ»^(١).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزِدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً»^(٢). وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبَاسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]^(٣).

(١) ابن ماجه (٤٢٦٨)، وهذا سند صحيح كما قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٥١)، وقال الوادعي في الصحيح المسند

(٢) البخاري (٦٥٦٩). «صحيح على شرط الشيخين».

(٣) مسلم (٢٨٣٧).

نتنقل إلى الكلمة الثانية التي تُحَدِّثُ التوازن في حياة المسلم، وهي كلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾، فكيف وازنت هذه الكلمة بين دخول الجنة برحمة الله ﷻ ودخولها بعمل الإنسان؟

الجواب: الباء في قوله تعالى: ﴿أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ باء السبب؛ أي: بسبب الذي ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فأنتم اتخذتم القرار الصحيح في الدنيا.. اتخذتم أهم قرار في حياتكم، وهو أن تعملوا الصالحات أقوالاً، وأفعالاً، وهذه الأعمال كانت سبباً لأن تستحقوا رحمة الله ﷻ، وفضله، فلما استحققتهم رحمة الله ﷻ أدخلكم الجنة، وأورثكموها، مع أن العمل الذي قدّمتموه لا يمكن أن يكافئ أدنى نعيم في الجنة، فالله ﷻ هو الذي أعطاكم كل شيء، ولم يطلب منكم إلا أن تتخذوا القرار باستعمال ما منحكم من الأدوات كالسمع والبصر والفؤاد والأطراف في الخير.

وقد تسأل: كيف نجمع بين هذه الآية ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾، وهي تدلُّ على أَنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وبين حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يُبْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدَّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاعْدُوا، وَرَوْحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا»^(١)؟

الجواب: الباء في الآية بَاءُ السَّبَبِ أَي: بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ، وَالَّذِي نَفَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِهِ بَاءُ الْمُقَابَلَةِ كَمَا يُقَالُ: اشْتَرَيْتَ هَذَا بِهَذَا أَي: فِي مُقَابَلِ هَذَا، فَحَقِيقَةُ الْمَبِيعِ تَسَاوِي قِيَمَةِ الْمَدْفُوعِ، أَمَا فِي الْجَنَّةِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسَاوِيَ قِيَمَتُهَا أَيُّ عَمَلٍ، فَلَيْسَ الْعَمَلُ عَوْضًا وَثَمَنًا كَافِيًا فِي دُخُولِ

(١) البخاري (٦٤٦٣).



الْجَنَّةِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ ﷻ، وَفَضْلِهِ، وَرَحْمَتِهِ، فَبِعَفْوِهِ يَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وَبِرَحْمَتِهِ يَأْتِي بِالْخَيْرَاتِ، وَبِفَضْلِهِ يُضَاعِفُ الْبَرَكَاتِ. وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ ضَلَّ فَرِيقَانِ مِنَ النَّاسِ: فَرِيقٌ آمَنُوا بِالْقَدَرِ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ كَافٍ، فَأَعْرَضُوا عَنِ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَؤُلَاءِ يُوَوِّلُ بِهِمُ الْأَمْرَ إِلَى أَنْ يَكْفُرُوا بِكُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَدِينِهِ؛ لِأَنَّهُمْ جَبَرِيَّةٌ يَظُنُّونَ أَنَّ مَوْضِعَ الْأَعْمَالِ مُحْصُومٌ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْتَارُوا الْعَمَلَ الصَّالِحَ.

وَفَرِيقٌ أَخَذُوا يَطْلُبُونَ الْجَزَاءَ مِنَ اللَّهِ ﷻ كَمَا يَطْلُبُهُ الْأَجِيرُ مِنَ الْمُسْتَأْجِرِ، مُتَّكِِلِينَ عَلَى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ جُهَالٌ ضَلَالٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِالصَّالِحَاتِ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَا نَهَاهُمْ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ بُخْلًا بِمَا يَشْتَهُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُمْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَمِيرَةَ عليه السلام - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم - قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلَدَ، إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ، وَلَوْ دَأَّ أَنْهُ رَدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزِدَّادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالْثَوَابِ»^(٢).

أَيُّ لَوْعَةٍ فِي نَفْسِهِ احْتِقَارُ كُلِّ أَعْمَالِهِ مُقَابِلَ مَا يَرَى مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَنَعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، فَهَذِهِ الْبَاءُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﷻ بَاءُ السَّبَبِ وَالتَّاهُلِ لِدُخُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ.

فَلَا تَنَاقُضَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَيْنَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ، فَالْتَدَبُّرُ يَخْرِجُكَ بِنَتَائِجِ وَاضِحَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ النَّصِيحِينَ:

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٠)، والحديث رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أحمد (١٧٦٥٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٤٨): «رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرَوَاتُهُ رَوَاةُ الصَّحِيحِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَرْنَؤُوطُ، وَالْأَلْبَانِي.

بصيرة: الْعَمَلُ لَا يُوجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، بل هو علامة على استحقاق العبد لرحمة الله ﷻ، وفضله، وبصائر القرآن المجيد تُجَلِّي لنا هذا بصورة واضحة، إذ يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وإلا فإن العبد مهما عمل في حياته لا يستطيع أن يقدم ثمن نعمة البصر، أو ثمن نعمة اليد، أو ثمن نعمة الحركة.

فقول النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ»^(١)، ليس فيه نفْي أن يكون العمل سبباً لدخول الجنة، لكنه يفيد قصور العمل عن أن يكون مساوياً لشكر نعم الله ﷻ، واستحقاق جنته، فمجرد السبب لا يوجب حصول المسبب، كما أن اللقاء الزوجي لا يستلزم الإنجاب، والتداوي لا يستلزم الشفاء، وإن كان سبباً في الشفاء، والمطر لا يستلزم الإنبات، وإن كان سبباً في الإنبات، والمذاكرة لا تستلزم النجاح، وإن كانت سبباً في النجاح، وهذا مجرد تمثيل للتقريب، وإلا فالفرق كبير؛ فإن الجنة لا يمكن أن يساويها أي عمل يقوم به العبد مهما صنع؛ لأن العبد كله من الملك العلي العظيم.

والأمر كما ذكر بعض المفسرين المختبين: «وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين»، وربما تداخل الهوى والغضب في النقاش، فانتصر بعضهم لجزء من الحق!

فالمعنى أن عَمَلَ الْإِنْسَانِ مَهْمَا يَكُنْ عَظِيمًا لَا يُسْتَحَقُّ بِهِ الْجَنَّةُ لِذَاتِهِ لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ وَفَضْلُهُ؛ إِذْ جَعَلَ هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، فَدُخُولُ الْجَنَّةِ بِالْعَمَلِ دُخُولٌ بِفَضْلِ اللَّهِ

(١) البخاري (٦٤٦٧).



وَرَحْمَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ: «فَسَدُّدُوا، وَقَارِبُوا» أَيُّ: لَا تُبَالِغُوا وَلَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلَا تَتَكَلَّفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا تُطِيقُونَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَدْخُلُونَهَا بِفَضْلِهِ وَيَقْتَسِمُونَهَا بِأَعْمَالِهِمْ^(١).

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبقها من آيات؟

المناسبة والاتصال:

هنا ننتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل حياة الإنسانية، تزيد هذا المحور من السورة وضوحاً وعمقاً، وهذه المرحلة هي:

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٧٦).

المرحلة الزمنية الخامسة

5

مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التلذذ والشفاء" [الأعراف: 44-51]

نداء انتصار أهل الجنة

مشهد
(1)

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: 44].

جواب الاندحار والانكسار

مشهد
(2)

﴿قَالُوا نَعَمْ﴾، فيجيبهم أهل النار بما يجعل الحسرة تملأ نفوسهم.

ساعة الأذان الأكبر

مشهد
(3)

حيث يتجلجل في نواحي السموات والأرض نداء اللعنة للظالمين ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ...﴾ [الأعراف: 44-45].

ظهور فئة ثالثة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار هم أهل الأعراف

مشهد
(4)

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ...﴾ [الأعراف: 46-49].

مشهد نداء الانكسار المثير أمام الانتصار الكبير

مشهد
(5)

حيث ترى أصحاب النار يطلبون غوث أصحاب الجنة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 50].

عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ

مُفَصَّل تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

المرحلة الزمنية الخامسة

مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و" حوارات التلذذ والشقاء "

[الأعراف: ٤٤-٥١]

آيات هذه المرحلة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ [الأعراف: ٤٤-٥١].

فقد صوّرت المرحلة الرابعة من مراحل التاريخ الإنساني الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، إذ قصَّ الله ﷻ علينا صوراً مباشرة من المصير الأخروي الأعظم، وامتدّت هذه المرحلة في الآيات [الأعراف: ٣٧-٤٣]:

(١) فقد حدّثنا الله ﷻ عن بقاء بني آدم في الدنيا إلى أن ينتهي كتاب أجلهم، وهناك سيأتي الموت ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

(٢) وصوّرت لنا تلك المرحلة استقرار أهل النار في النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٣) وصوّرت لنا استقرار أهل الجنة في الجنة، حيث يتلذذون بالنعيم، ويحمدون الوهاب الكريم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

٤) ثم تصوّر لنا "وراثه النعيم": وتختتم هذه المرحلة بالإشادة الإلهية بهم: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ كُمُ الْجَنَّةِ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

هنا يتم الانتقال إلى مرحلة زمنية جديدة في المحور إنها: المرحلة الزمنية الخامسة: مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التلذذ والشقاء"، وذلك في الآيات [الأعراف: ٤٤-٥١]، ونجد فيها ثلاثة أنواع من الحوار، وأربعة مشاهد:

١) **فالمشهد الأول:** نشهد فيه حوار الانتصار: حيث يتلذذ أهل الجنة بتوجيه النداء لأهل النار، فيقولون: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

٢) **والمشهد الثاني:** تصوّر لنا الآيات فيه "مشهد شهادة أهل المعرفة": حيث ينبعث أصحاب الأعراف بين الدارين ليشهدوا للمؤمنين، ويوبّخوا الخاسرين: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

٣) **والمشهد الثالث:** تصوّر لنا الآيات فيه "مشهد الطلب المستحيل": وهنا تشاهد أصحاب النار يطلبون بعض قطرات من الماء من أهل الجنة، لكنه الطلب المستحيل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويظهر الله ﷻ لنا في ختام هذه الحوارات محطة الشقاء الأخيرة في هذه المرحلة، إنه مشهد "النسيان المرعب":

نسيان اللقاء الحتمي الأخير يؤدي إلى عدم اتباع القرآن، فيرتب عليه الشقاء، فوصف الله ﷻ هؤلاء الذين يستحقون الشقاء بقوله: ﴿الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، وإن شئت قلت: قد جُوزوا بالنسيان نسيانًا؛ إذ الجزء من جنس العمل.

فالنسيان معناه الترك عن قصد وعدم مبالاة، مما يؤدي إلى التناسي حتى يصبح الترك عادةً وطبيعةً في الإنسان، وهذا لا يغتفر في أمور الدنيا اليسيرة، فكيف يغتفر في أهم مطالب الحياة؟ وهنا ستقول: فما المشهد الأول الذي نبصره في مرحلة ما بعد الاستقرار لأهل الجنة وأهل النار؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد الأول: نداء انتصار أهل الجنة: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]:

فيتلذذ أهل الجنة، ويتمتعون بالإعلان عن انتصارهم الكامل بمناداة أهل النار بعد الاستقرار.. استقرار كل من الفريقين في مثواه الأخير:

فالواو في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ﴾ عاطفة للمشهد الحالي على المشاهد السابقة، وتكشف الواو أن أهل الجنة بعد أن قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، جاءهم نداء الاستقرار: ﴿نُودُوا أَنْ

تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٣]، فعطف الله ﷻ على كلامهم هذا النداء العظيم الذي يشعرهم بالفوز الذي لا يضاهيه فوز، والفلاح الذي دونه كل فلاح.

وبنداء الاستقرار أُسدل الستار على مشهد الفريقين:

أهل النار، وهم كما قال ربُّهم ﷻ عنهم: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾.

وأهل الجنة، وهم كما قال عزَّ جاره عن حالهم: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٥﴾.

استقرَّ كلُّ منهم في داره الأبدية.

ثم عطف الله ﷻ على نداء الاستقرار نداء الانتصار من أهل الجنة لأهل النار، فلما اطمأن أهل الجنة، عطف الله ﷻ نوعاً من النعيم الذي يتلذذون به على نداء الاستقرار فقال: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٤٤]، فهذا النداء الذي وجَّهوه إلى أهل النار يعكس البهجة العظمى التي تملؤهم، والشعور الغامر الذي يجتاحهم.

هذا النداء يصوِّر لنا فصلاً من فصول نعيم أهل الجنة، وهو نفسه فصلٌ من فصول عذاب أهل النار في الوقت ذاته؛ إذ يجد أهل الجنة من النعيم الذي يتلذذون به أنه يمكنهم رؤية أهل النار، يمكنهم أن يشاهدوا أهل النار في عذابهم.. بل يمكنهم أن يحاوروهم ليذكروهم فصول الاستهزاء والسخرية التي كان أهل النار يكيلونها للمؤمنين.. لقد كان إعلام المجرمين، ومتندياتهم، وقوَّاتهم لا تفتر عن الاستهزاء بالمسلمين، والسخرية منهم.. آن الأوان ليتقابل الفريقان بعد أن ظهرت الحقائق، وتحول الغيب إلى شهادة.



فَ «لَمَّا اسْتَقَرَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَنُودُوا بِدَوَامِ الْإِسْتِقْرَارِ، أَخْبَرَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُمْ أَقْبَلُوا مُتَبَجِّحِينَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، شَامِتِينَ بِهِمْ فِي إِحْلَالِهِمْ دَارَ الْبَوَارِ؛ تَلْذِيزًا لَأَنْفُسِهِمْ بِالنَّعِيمِ، وَتَكْدِيرًا عَلَى الْأَشْقِيَاءِ»، كما يقول البقاعي رحمته الله، فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار «يُخْبِرُونَهُمْ بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيُقَرِّرُونَهُمْ بِمَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَهُمْ بِهِ مِنْ حُلُولِ النَّقَمِ»^(١).

وهنا ستسأل: لما قال الله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] يتوقع السامع أن يكون الكلام بعدها: ونادوا أصحاب النار، لكن الله ﷻ أظهر اسم أصحاب الجنة في محل الإضمار؛ إذ تقدّم ذكرهم في الآية السابقة، ثم عاد فأظهر ذكرهم، فقال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فلماذا؟

الجواب: أظهر الله - جل ذكره - في مقام الإضمار؛ لزيادة الإشادة بهم، وإشعار العالم بمكانتهم، وليظهر لهم وللعالم أنهم صاروا أصحاب الجنة، أي مالكوها الذين لا يفارقونها، في مقابل أصحاب النار، أي المحبوسون فيها الذين لا يغادرونها، وعندما يُذكر الإنسان في محلّ الإشادة يزداد فرحاً وجَدلاً وسروراً وغبطةً، وبما أن الفريقين عُرفوا بهذا العنوان: أصحاب الجنة وأصحاب النار، سيتوجّه العالم من حولهم لندائهم بذلك، إذ سيذكر الله ﷻ بعد هذا أصحاب الأعراف، وهم ينادون الفريقين كلّاً بلقبه، فاللهم ارزقنا أشرف الألقاب في أعلى المراتب في ذلك المقام يا أرحم الراحمين.

ثم عدّ متأملاً مرةً أخرى لترى أن الله ﷻ وصف بداية المُحَاوَرَةِ بأنها نداء، فقال: ﴿وَنَادَى﴾، ولم يقل: (وقال)، فلماذا؟

(١) نظم الدرر (٧/ ٤٠٤).

الجواب: عَبَّرَ اللَّهُ ﷻ عَنِ الْمُحَاوَرَةِ بِالنَّدَاءِ؛ لِيُصَوِّرَ لَنَا أَنَّ الصَّوْتِ يَصِلُ مَسَامِعَ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَافَةٍ سَحِيقَةِ الْبُعْدِ^(١)، فَبَيْنَ الْفَتْنَيْنِ حِجَابٌ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وَهَذَا الْحِجَابُ عَظِيمٌ فِي حَجْزِهِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ، فَلَا يَصِلُ مَا فِي الْجَحِيمِ مِنْ أَذَى وَأَسَى وَظَلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، وَسَعِيرٍ، وَلَفْحٍ، إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَا يَصِلُ أَدْنَى نَعِيمٍ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى أَهْلِ النَّارِ، مَعَ أَنَّ رِيحَهَا يَوْجَدُ عَلَى بُعْدِ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ، فَتُصَوِّرُ الْبُعْدَ الْهَائِلَ بَيْنَ الدَّارَيْنِ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَنَادَى﴾ يَصُورُ لَكَ الْبُعْدَ وَالْقَرَبَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ، فَإِنَّ النَّدَاءَ فِي ذَاتِهِ يُوْحِي بِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْمُنَادِي وَالْمُنَادَى، وَيُوْحِي بِالْقَرَبِ مِنْ حَيْثُ الْوَصُولُ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمَسَافَةِ إِلَّا أَنَّ كَلًّا مِنْهُمَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَ الْآخَرَ، وَاضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا: الْهَاتِفُ التَّصْوِيرِيُّ يُسْمِعُكَ مَنْ يَعِيشُ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ وَفِي أَقْصَى الْغَرْبِ كَأَنَّكَ بِجَوَارِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ بِجَوَارِكَ. وَهَذَا تَقْرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ يَكُونُ التَّلَذُّذُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِنَدَائِهِمْ لِأَهْلِ النَّارِ!

وَرَبِمَا تَقُولُ: كَيْفَ يَوْجَدُ بُعْدٌ، وَاللَّهُ ﷻ وَصَفَ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ ﷻ، فَقَالَ عَنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وَقَالَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦]؟

الجواب: الْبُعْدُ قَدْ يُعْنَى بِهِ الْبُعْدُ الْمَكَانِي كَمَا فِي نَدَاءِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ لِأَصْحَابِ النَّارِ، وَقَدْ يُعْنَى بِهِ تَعْظِيمُ الْفَرْقِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، فَاللَّهُ ﷻ أَقْرَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَلَكِنْ مَا مَقْدَارُ هَذَا الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَخَاطَبَ خَالِقَهُ؟ فَيَفْهَمُ مِنْ كَلِمَةِ ﴿إِذْ نَادَى﴾ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﷻ بِتَذَلُّلٍ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٣٦).

شديد يشبه حال المنادي الذي ينادي صاحبه من بُعد ليسمع صوته، ولا يقتضي هذا أن يرفعوا أصواتهم، فالنداء يشمل معنيين:

المعنى الأول: رفع الصوت من أجل أن يصل إلى الجهة الأخرى.

والمعنى الثاني: العناء والقوة لرفع هذا الصوت، ولكن الإنسان عندما ينادي رَبَّهُ ﷻ لا يحتاج لرفع صوته، بل نهى النبي ﷺ عن رفع الصوت.

فإن قلت: نداء أصحاب الجنة أصحاب النار يُشَوِّق السامع لمعرفة ماذا سيقولون لهم؟ وكيف فصّلت لنا كلمة (أَنْ) ذلك؟

الجواب: تأتي كلمة ﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ وهي مخففة من (أَنْ) الثقيلة لتفسر لنا تفاصيل هذا النداء؛ إذ يقولون لهم:

يا أهل النار إن الحال والشأن في هذا الزمان أننا ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾. يتباهى أهل الجنة، فحق لهم التباهي، ويتفاخرون فيا لذة ذلك التفاخر! ويظهر تفاخرهم في كل حرف في الآية:

- (١) فأول ذلك أنهم قالوا: ﴿قَدْ﴾ وهي تؤكد تحقق ما وعدهم الله ﷻ به.
- (٢) وثاني ذلك: أنهم قالوا: ﴿وَجَدْنَا﴾، والأصل أن الإيجاد لشيء محسوس، وكأنه كان غائباً بعيداً نائياً، فإذا بهم قد وجدوه بين أيديهم، وأمام أعينهم، فكأنهم قالوا: وجدناه «بالعيان» كما كنّا واجدين له بالإيمان^(١). فتذوق كلام الله ﷻ، وانظر الصور التي يقدمها لك.
- (٣) وثالث ذلك أنهم قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ فجاءت كلمة ﴿مَا﴾ بمعنى (الذي)؛ لتكون أشمل في تصوّر كل الوعود التي ذكرها الله ﷻ لعباده في الدنيا.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٠٤).

٤) ورابع ذلك أنهم قالوا: ﴿مَا وَعَدْنَا﴾، بنسبة الوعد إليهم؛ إيماناً منهم بأنهم متيقنون بوعده الله لهم، دون ارتيابٍ أو شكٍّ، كما جاء في وصف أهل النار ﴿مَا وَعَدَ﴾.

٥) وخامس ذلك أنهم قالوا: ﴿مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا﴾ فاختاروا وصف الله ﷻ بالربوبية؛ لأنه الوصف الذي يثير الأنس، والشعور بالرحمة المصاحبة للتربية، أي: ربُّنا ﷻ الذي أحسن إلينا في تربيته بالنعم وتغيُّر الأحوال في الدُّنيا، فوعدنا بوعودٍ متعدّدة حسب الأحوال، وكلُّ ذلك كان على ألسن رسله ﷺ.. إنه ربُّنا وربُّكم الذي ربَّانا، فقابلنا تربيته بالاستغفار والشكران، وقابلتم تربيته بالإساءة والكُفْران.

٦) وسادس ذلك أنهم قالوا: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، وكلمة ﴿حَقًّا﴾ تعني: ثابتاً واقعاً، وأول هذا الذي وعدنا ربُّنا ﷻ به وجود حياة حقيقية جديدة بعد الموت، ودار حقيقة جديدة بعد الموت، هي الدار الآخرة، ووجدنا في هذه الدار التي رأيناها حقيقةً ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا من الثواب على الإيمان، وعلى العمل الصالح.. لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا على ألسن رسله ﷺ واقعاً مشاهداً، وتمتعنا بمسابقتنا إلى الإيمان به، فهل وجدتم ما وعدنا ووعدكم ربُّنا وربُّكم ووعد العالمين من وجود الدار الآخرة حَقًّا؟ هل وجدتم ما وعد الله ﷻ به العالمين على ألسنة أنبيائه ﷺ من العقاب على الكفر به، وعلى معاصيه؟

﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ﴾، وعد الله ﷻ العالم بأنهم سيجدون نتائج أفعالهم في الآخرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزَّلَٰزَلَةُ: ٧، ٨]، فسمع العالم ذلك كله إمّا إجمالاً وإمّا تفصيلاً، وإمّا مباشرةً، وإمّا بالنقل عن سبقيهم، فقامت عليهم الحجة، والآن وجدوا ما وُعدوا حاضراً، فالكل يشاهدونه، وبلذته أو ألمه يذوقونه، فيا لله كم هي المرارة والندم والألم الذي يغشى أهل

الجحود والظلم والاستكبار في ذلك الموقف، ولكن لات حين مندم، فقد قضى الأمر، ووقعت الحسرة بساحتهم.

هل شعرت بهم، هل عايشت الآن سؤالهم، فعُدْ لنفسك، فقل لها:

يَا نَفْسُ أَأَنْتِ تُوَفِّكِينَا حَتَّى مَتَى لَا تَرَعَوِينَا
حَتَّى مَتَى لَا تَعْقِلِينَا وَتَسْمَعِينَ وَتُبْصِرِينَا
يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تَصْلُحِي فَتَشَبَّهِي بِالصَّالِحِينَ
وَتَفَكَّرِي فِي مَا أَقُولُ لَعَلَّ رُشْدَكَ أَنْ يَحِينَا
فَلْيَأْتِينَ عَلَيْكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الْأُولِينَ

يَا مَنْ يُؤْمَرُ بِمَا يُصْلِحُهُ فَلَا يَقْبَلُ، أَمَّا الشَّيْبُ نَذِيرٌ بِالْمَوْتِ قَدْ أَقْبَلَ، أَمَا أَنْتَ الَّذِي عَنْ أَفْعَالِهِ تُسْأَلُ، أَمَا أَنْتَ تَخْلُو فِي اللَّحْدِ بِمَا تَعْمَلُ، سَتَعْلَمُ يَوْمَ الْحِسَابِ عِنْدَ الْعِتَابِ مَنْ يَخْجَلُ، يَا مُبَادِرًا بِالْخَطَايَا تَوَقَّفْ لَا تَعْجَلْ^(١).

وَلَا بُدَّ مِنْ طَوْلِ الْحِسَابِ وَعَرْضِهِ وَدِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ يَبْرُزُ عَرْشُهُ
فَطَائِفَةٌ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ خُلِدَتْ فَيَا شَوْمَ حَظِي حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ ذُنُوبِي مَخْرَجٌ^(٢) وَهَوَلِ مَقَامٍ حَرُّهُ يَتَوَهَّجُ
وَيَحْكُمُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْحَقُّ أَبْلَجُ وَطَائِفَةٌ فِي النَّارِ تَصَلَّى فَتَنْضَجُ

السؤال هاهنا متعة.. أي متعة.. اللهم أكرمنا بالفوز الأعظم أعظم الكرامة.. يتمتع أهل الجنة، وهم على الأرائك متكئون، أو في نواديبهم على سرر متقابلون، أو في طُرقاتهم وجنانهم

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٢٨).

(٢) الأبيات للبرعي. ينظر ديوانه (ص: ٢٦١).

يَتَفَكَّهُونَ.. يَتَمَتَّعُونَ بِنَدَاءِ أَهْلِ النَّارِ، فَاشْعُرْ بِمَقْدَارِ فَرَحِهِمْ وَاعْتِبَاطِهِمْ، وَقَدْ تَبَاهَوْا بِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ وَتَفَاخَرُوا، حَتَّى إِنْ الْآيَةِ تَصَوَّرَ لَكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُظْهِرُوا الْمَوْعُودَ بِهِ فِي الْآيَةِ، بَلْ جَعَلُوهُ مُطْلَقًا، وَاكْتَفَوْا بِأَنْ قَالُوا: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَلَمْ يَقُولُوا: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا مِنَ النِّعَمِ حَقًّا، لِيَشْمَلَ كُلُّ مَا وَعَدَهُمُ رَبُّنَا اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السُّؤَالِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ الْبَرْزَخِيَّةِ إِلَى الْبَعْثِ وَالْمَشَاهِدِ التَّالِيَةِ لَهُ.

وَيَخْبُرُونَ أَهْلَ النَّارِ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ كَانَ فِي الْمَاضِي، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَخْبُرُوا عَنْ نَوْعِ الْوَعْدِ.. إِنَّهُ الْوَعْدُ ذَاتُهُ الَّذِي دَعَا رَبَّهُمْ ﷻ أَنْ يَحَقِّقَهُ لَهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وَمِنْ أَعْظَمِ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِهِ: الْجَنَّةُ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْفَرْدُوسَ الْأَعْلَى مِنْهَا- إِذْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وَقَالَ ﷻ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، وَقَالَ فِي حِكَايَةِ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

انتظر، ولا تعجل، فربما تقول: أليس هنا فرق بين التعبيرين: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ ❶؟ فلماذا قالوا: ما وعدنا ربنا، ولم يقولوا: ما وعدكم ربكم؟ أثبت المفعول في الأول وحذف المفعول في الثاني.. لماذا؟

الجواب: يمكنك أن تقول: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة ﴿وَعَدَنَا﴾ عليه، ولكنك عند التأمل ستري أن الله ﷻ أثبت المفعول الأول؛ تَلْذِيذًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، وَحَذَفَهُ فِي مَخَاطَبَةِ

أصحاب النار؛ اِحْتِقَارًا لِلْمُخَاطَبِينَ، كما يقول البقاعي رحمته الله ^(١)، ولأمرٍ آخر: أن يَشْمَلَ ما لِلْفَرِيقَيْنِ، فأطلق الوعد ولم يقيد به بالمفعول فقالوا: ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾، ولم يقولوا: (ما وعدكم ربكم)؛ ليعمَّ كل شيء، فتناول كل مَنْ وعده الله ﷻ من الفريقين من الجنة والنار، كما يتناول كل ما وعده الله ﷻ من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، فأهل النار المخاطبون كانوا مكذِّبين بذلك أجمع، ولأن الموعد كله مما ساءهم، سواء العقوبة التي وجدوها، أو النعيم الذي وجده أهل الجنة، فالعقوبة عذاب لأهل النار، ونيعم أهل الجنة عذاب لأهل النار، فأطلق لذلك، فحذف المَعْمُولَ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ.

وقد تسأل: لِمَ عَبَّرُوا بِالْوَعْدِ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ.. مع أن الذي أصابهم وعيدٌ لا وعدٌ؟

الجواب:

يمكن أن نقول: الأصل أن الوعد يكون خاصًا بالخير، وبذلك ففي التَّعْيِيرِ بِالْوَعْدِ مع أهل النار دُونَ الْوَعِيدِ سَخَرِيَّةٌ بِهِمْ تَكَافَى سَخَرِيَّاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَضَحْكٌ بِحَالِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا عَلَى ضَحْكَاتِهِمْ الْمَجْنُونَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَتَهْكُؤٌ بِمَصِيرِهِمْ يَكْفَى تَهْكُؤَهُمُ الْمُسْتَعْرِ فِي الدُّنْيَا.

ويمكن أن نقول: الوعد يشمل الخير والشر، وإن كان يكثر في الكلام عن الخير، وأما الْوَعِيدُ فَخَاصٌّ بِالشَّرِّ أَوْ السُّوءِ، وقد وعد الله ﷻ أهل النار بالشرِّ، وَالْمَعْنَى حَيْثُذِ: فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ، وَمَا وَعَدَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَصَاهُ حَقًّا بِدُخُولِنَا الْجَنَّةَ وَدُخُولِكُمُ النَّارَ؟

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧ / ٤٠٤).

ومما يدلُّ على أن الوعد يشمل الشرَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، «على أنَّ لَوَعْدِ الشَّيْطَانِ هُنَا نُكْتَةُ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ شَرٌّ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ عَلَى سَبِيلِ الْخِدَاعِ، فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْوَسْوَسَةِ لِلْمَرْءِ بِتَرْكِ الصَّدَقَةِ، وَعَمَلِ الْبِرِّ اتِّقَاءً لِلْفَقْرِ بِذَهَابِ مَالِهِ، وَتَظْهَرُ مُقَابَلَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي وَعْدِ اللَّهِ ﷻ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]، وقوله عز جاره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، ومثله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [البقرة: ٥٢]، أشار إلى الْبُعْثِ^(١).

ولعلك تسأل: بماذا أجاب أهل النار أهل الجنة عن كلامهم وسؤالهم؟

الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثاني: جواب الاندحار والانكسار ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾^(١١)، فيجيبهم أهل النار بما يجعل الحسرة تملأ نفوسهم، والندم يأكل قلوبهم، وأنياب الخزي تنهش أجسادهم، مذعنين، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة ﴿نَعَمْ﴾:

تصوّر كم تختصر لك كلمة ﴿نَعَمْ﴾ في هذا السياق.. من كلمات الحسرة والألم التي تكاد أن تغطي الآفاق.

﴿نَعَمْ﴾ تختصر لك تصديقهم لربهم في حالهم ومصيرهم، وتصديقهم لأهل الجنة في سؤالهم.

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٧٨).

﴿نَعَمْ﴾ هنا تختصر لنا مقدار ذلَّتْهم وهوانهم، ورجائهم أن يرحمهم أهل الجنة بعد إذ لم يجدوا الرحمة من أرحم الراحمين.

السؤال مغلق فكان جواب الأسئلة المغلقة بـ(لا) أو (نعم)، فلما أجابوا بـ(نعم) أغلقوا في أبوابهم الأمل، ولم يتركوا الباب مفتوحاً للكلام المفتوح المتداول.

بصيرة: كلمة ﴿نَعَمْ﴾ في جواب أهل النار تختصر الكثير من كلمات الحسرة والألم التي تكاد أن تغطي الآفاق، وتقطع الأكباد، وتدلل على مقدار الذلة والهوان الذي حلَّ بهم.

فإن قلت: ماذا تجد في سؤال أهل الجنة: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟

الجواب: تجد السخرية والتهكُّم بهؤلاء الذين كانوا يضحكون من المؤمنين في الدنيا، وتجد في الوقت ذاته الافتخار باتباع وعد الله ﷻ، وتصديق رسله ﷺ، وتجد الشوة والفرح بتحقيق موعد الله ﷻ لهم.

وماذا تجد في اقتصار أهل النار على أن أجابوا بكلمة واحدة، فلم يزيدها عليها: ﴿نَعَمْ﴾؟
اقتصارهم على كلمة واحدة يبصرك بمقدار الغصّة التي تملأ نفوسهم، ويصور لك مدى الشعور بالمرارة والهزيمة المذلة التي تسيطر عليهم.

لاحظ أن أهل الجنة أطالوا في كلامهم، وفصلوا في منطقهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

تشعر بالتمتع بالكلام، والتلذذ بالإبانة عن مشاعر الفرح التي تجتاحهم.

وأما هؤلاء فقد انكسروا في خبرهم، واكتفوا بأدنى جواب، وسنرى أن هذا الجواب إنما قالوه رجاء أن يبقى التواصل بينهم وبين أهل الجنة، وربما ينتج عنه أن يساعدتهم أهل الجنة في حالتهم الشَّقِيَّةَ.

ومثل الفريقين هنا مثلك عندما تخاطب المذنب وتقول: أنت فعلت كذا وكذا وكذا، والمذنب أمامك ليس له إلا الاعتراف، فيقول: نعم. بِخُفْوٍ وَذَلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ وَتَحَسُّرٍ، وتشعر في جوابه باشتعال الأسى واليأس والألم في قلبه، وسيطرة الإحباط على كلماته.

ويفضّل ابن عباس رضي الله عنه ما يفهمه من هذا النصّ، فيقول: وذلك أن الله ﷻ وعد أهل الجنة النعيم والكرامة وكلّ خير علّمه الناس أو لم يعلموه، ووعد أهل النار كلّ خزي وعذاب علّمه الناس أو لم يعلموه، فذلك قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]. قال: فنأدى أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾؟ يقول: من الخزي والهوان والعذاب. قال أهل الجنة: فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من النعيم والكرامة^(١).

وقد تتساءل: لماذا تعددت مشاهد المحاوراة بين أهل الجنة وأهل النار في القرآن الكريم؟

الجواب: لأن تلك المحاورات تمثّل زيادةً في نعيم أهل الجنة، وتُظهر زيادةً في عذاب أهل النار، وذلك عندما يخاطب الفائزون الخاسرين، فإن الإنسان يشعر بغصّة هائلة إذا رأى عدوّه في موقف العِزّة، ورأى نفسه في موقف الدلّة.

(١) تفسير الطبري (١٢/٤٤٦).

حوار هادئ وتفقد لقرين هالك خاطئ:

وقد تنوعت مشاهد المحاورات بين أهل النار أنفسهم، وبين أهل الجنة أنفسهم، وبين الفريقين، ومن ذلك:

القِصَّة التي قصَّها الله ﷻ علينا في سورة الصافات عن واحدٍ من أهل الجنة كان له صاحب مُقَرَّبٌ في الدُّنيا، لكنه من أهل النار الدُّنيا، وكاد أن يُغْوِيَهُ لولا أنه انتبه فثَبَّتَهُ اللهُ ﷻ، فأخبر أصحابه من أهل الجنة عنه.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠﴾ أي: أقبل أهل الجنة بعضهم على بعض يتساءلون عما كان حدث لهم في الدنيا: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ أي: صاحب مقارن لي يأمرني بالكفر، وينهاني عن الإيمان:

﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ أَعَدَا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ أي: يقول لي: هل تُصَدِّقُ خرافة البعث في اليوم الآخر؟ فيسخر من المؤمن الذي يصدِّق أن الله ﷻ يجمع العظام وهي رميم في يوم البعث.

وهاهم أهل الجنة قد رأوا اليوم الآخر، ووجدوا ما وعدهم ربُّهم حقًّا، فيدعو هذا المَوْفَّقُ أصحابه من أهل الجنة لِيُطْلِعُوا على هذا الصديق الكافر البائس الذي صار في النار ﴿قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطْلِعُونَ ۝٥٤﴾: تعالوا ننظر ماذا حدث لهذا الصديق الكافر.

فينظرون معه من أماكنهم إلى حال هذا البائس الشقي ﴿فَأُطْلِعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ أي يراه وسط الجحيم، فيشعر عند ذلك بلذَّة النعيم أكثر، ويفخر بتوفيق الله ﷻ إذ هداه لِيُخْتَارَ قرار الإيمان، ويتلذَّذُ بالمجد الذي صنعه لنفسه في الدُّنيا عندما كان يصبر على طاعة الله ﷻ، ويصبر عن معصية الله تعالى أي: يبتعد عنها، ولا يتأثر باستهزاء المستهزئين، ويخاطب هذا المَوْفَّقُ ذلك الرَّجُلَ الناري، فيقول له: ﴿قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيِّنَ ۝٥٦﴾ أي



كدت أن تهلكني، وتجعلني أتردى في جهنم لو صدقتك: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٧ أي: لو صدقتك لكنت من المحضرين في النار، ثم يقول مع أصحابه وهم يخاطبون أهل النار:

﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥١-٦١].

ومن مشاهد التبكي لأهل النار ما تقوله الملائكة لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦].

يسرع رسول الله ﷺ في تطبيق الآية بمجرد انتقال الكفار إلى الحياة الآخرة، فهاهو يخاطب قَتْلَى الْقَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ، فنأدهم: «يَا أَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ، وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رِبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رِبِيعَةَ - وَسَمَى رُءُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا». فَسَمِعَ عُمَرُ ۞ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا قَدْ جِئُوا؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا»^(١)، فقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] يقصد به: ما أنت بمسمعهم سماعاً يقدرون معه على الإجابة.

أيها الحبيب: أفق، وعاین بقلبك، إن العين غافلة عن الحقيقة:

إِذَا بَكَيْتُ مَا مَضَى مِنْ زَمَنِ فَحَقَّ لِي أَبْكِي وَمَنْ لِي بِالْبُكََا
مَنْ أَبْصَرَ الدُّنْيَا بِعَيْنِ عَقْلِهِ أَدْرَكَ أَنَّ الدَّارَ لَيْسَتْ لِلْبَقَا

(١) مسلم (٢٨٧٤).

مَطِيَّةً وَارِدَةً اِلَى الرَّدَى
اِنْ هِيَ اَعْطَتْ كَانَ هَمًّا حَاضِرًا
وَالْمَرْءُ رَهْنُ اَمَلٍ مَا يَنْتَهِي
حَتَّى يُوَافِيَ اَجَلًا قَدْ اَنْتَهَى
كَانَ بَشْرُ الْحَافِي ﷺ اِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ الْمَوْتُ يَقُوْلُ: يَنْبَغِي لِمَنْ يَعْلَمُ اَنَّهُ يَمُوْتُ اَنْ يَكُوْنَ
بِمَنْزِلَةٍ مَنْ جَمَعَ زَادَهُ، فَوَضَعَهُ عَلَى رَحْلِهِ لَمْ يَدَعْ شَيْئًا مِمَّا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ اِلَّا وَضَعَهُ عَلَيْهِ^(١).

فما الذي وضعناه من زاد ومتاع نأخذه معنا إلى يوم الأذان؟ وستقول: ما يوم الأذان؟
يوم الأذان هو الوقت الذي يأتي بعد أن يجيب أهل النار أهل الجنة... هل ينتهي الحوار؟
الجواب: هنا يأتي:

المشهد الثالث: ساعة الأذان الأكبر، حيث يتجلجل في نواحي السماوات والأرض نداء
اللجنة للظالمين ﴿فَادْزَنْ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ اَنْ لَّعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰلِمِيْنَ ۝۱۱﴾ الَّذِينَ يَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِيْلِ اللّٰهِ
وَيَبْغُوْنَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كٰفِرُوْنَ ﴿[الأعراف: ٤٤-٤٥].

هنا ينبعث صوتٌ إعلانيٌّ إعلاميٌّ لأهل الدار الآخرة بعد الحوار الأوَّلِيِّ بين أهل الجنة وأهل
النار، فيعلن النداء للفريقين قرارًا إلهيًّا يزيد في نعيم المتنعمين، ويملاً أصحاب الجحيم
بالحسرات، فيقول: ﴿اَنْ لَّعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰلِمِيْنَ ۝۱۱﴾ الَّذِينَ يَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَيَبْغُوْنَهَا عِوَجًا
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كٰفِرُوْنَ ﴿١٥﴾.

لاحظ التصوير المباشر، ويُقَرَّبُ لك المسألة أنه عندما تفوز جهةٌ ما، وتخسر جهةٌ أخرى
في مؤسسة أو مدرسة، يقام الاحتفال الهائل الذي يقوم المتكلم فيه بإعلان النتائج، وربما

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٢٨).



يَبَيِّنُ أَسْبَابَهَا، وَتَصَوَّرُ أَنْتَ الْآنَ: يُوْذَنُ مُؤَذِّنٌ مَعْلَقًا عَلَى الْحَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ﴿١﴾ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾.

وَيَصَوِّرُ لَنَا حَرْفَ الْفَاءِ مِنْ كَلِمَةِ ﴿فَأَذَّنَ﴾ انبعاث هذا الصوت العظيم للمؤذن الذي يكون بين الجنة والنار يهزُّ أركان الجهتين بقوته.

وكلمة ﴿أَذَّنَ﴾^(١) مشتقة من: أَذَنَ التي تجمع الإعلام، وتحديد الموقف بالموافقة أو الرفض، وهذا المعنى مأخوذ من الأذن التي هي الجارحة المحددة للاستماع، ويوصف الرجل بأنه أذُنٌّ إذا كان مستمعًا جيدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌّ قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] أي: استماعه لما يعود بخيرٍ لكم، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢، ٥] المراد استمعت استماع المطيع، والمؤذن: كُلُّ مَنْ يُعْلِمُ بِشَيْءٍ نَدَاءً يَسْمَعُهُ الْآخَرُونَ، فالتأذين في قول رَبَّنَا ﷻ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: رفع الصوت بكلام يسمعه المقصودون، وهم أهل الجنة وأهل النار، وربما غيرهم.

والمؤذن مَلَكٌ، أو مخلوقٌ يأمره الله ﷻ، فينادي بينهم نداءً يسمعه الجميع. ورفع الصوت هنا جاء على سبيل الاحتفاء والاحتفال لأهل الجنة، والذم والتقييح لأهل النار؛ زيادة في التأنيس لأهل الجنة، والتبكيك والتأيس لأهل النار.

(١) مقاييس اللغة (١/ ٧٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٠).

صفات أهل النار
الذين حلت عليهم
لعنة الله عز وجل

الجواب: ورد في قوله: ﴿أَنْ﴾ قراءتان: بالتخفيف والتشديد، وهذا التنوع بالتشديد والتخفيف، لعله يصور لنا حال السامع لوصف الحوار بين أهل الجنة وأهل النار؛ لزيادة إيضاح الصورة، وتحسير أهل النار، وتكريم أهل الجنة:

فالقراءة الأولى: قراءة نافع، وأبي عمرو، وعاصم، ويعقوب، وقُتُبِلَ في أحد وجهيه^(١): ﴿أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ بِتَخْفِيفِ نُونٍ ﴿أَنْ﴾ عَلَى أَنَّهَا تَفْسِيرِيَّةٌ لِفِعْلِ أَذَّنَ، وَرَفَعَ ﴿لَّعْنَةُ﴾ عَلَى أَنَّهَا مُبْتَدَأٌ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ التَّفْسِيرِيَّةِ، فَكَأَنَّ الْمُسْتَمَعَ لِلْمَشْهَدِ سَأَلَ مَاذَا حَوَى نِدَاءَ هَذَا الْمُؤَذِّنِ؟ فَأَجِيبَ: ﴿أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

والقراءة الثانية: ﴿أَنْ﴾ بِتَشْدِيدِ النُّونِ، وَبِنَصْبِ ﴿لَّعْنَةُ﴾، وَالْمَعْنَى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ، وَمَحْتَوَى الْأَذَانَ: أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

وستقول: لماذا خصص المنادي الظالمين باللعة ولم يقل: أن لعنة الله على أهل النار؛ إذ كان الكلام بين أهل الجنة وأهل النار؟

الجواب: هذا من الأسلوب القرآني المميز في إيجاز الأحداث، وتصويره لما ينبغي أن يهتم به السامع، فسأل أهل الجنة أهل النار: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، فأجابوا: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وحينها أراد الله ﷻ أن يصف لنا أنه لعن أهل النار، فطردهم من رحمته، لكنه وصف أعمالهم في الدنيا بدلاً من أن يصف حالهم في الآخرة، فقال: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فالظلم وصفٌ للعمل في الدنيا، وهو الذي ينبغي أن يهتم بمعرفته من يسمعون القرآن الآن عسى أن يرتدعوا.

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

ولقد كانت مواقف رجال خير القرون مختلفة في تأثرهم بالقرآن عن هذا الزمان، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون، هذا ملك الدنيا كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ كان جَالِسًا عَلَى الْمَنْبَرِ أمام رعيته بقوته وحراسته وشبابه وأُبهَتِهِ، فإذا بِرَجُلٍ يقوم فيقول له: يَا سُلَيْمَانُ، اتَّقِ اللَّهَ، وَادْكُرْ يَوْمَ الْأَذَانِ، قَالَ: فَتَزَلَّ عَنِ الْمَنْبَرِ مُغَضَّبًا، وَدَعَا بِالرَّجُلِ، فَقَالَ: أَنَا سُلَيْمَانُ، فَمَا يَوْمُ الْأَذَانِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فوقف هذا الملك الشاب سليمان عند الآية قَلْعًا متفكرًا، وخاف أن يدخل في الظالمين، ولم يقل هذه الآية نازلة في الكفار، بل قال: وَمَا مَظْلِمَتُكَ؟ قَالَ: وَكَيْلُكَ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضِي، قَالَ: فَأَمَرَ بِالْكِتَابِ إِلَى وَكَيْلِهِ أَنْ أُعْطِيَ أَرْضَهُ وَأَرْضِي مَعَ أَرْضِهِ^(١). أولئك آبائي لله درهم..

لايغضبونَ لغيرِ الله، إنْ غَضِبُوا وَلَا يُضِيعُونَ حُكْمَ اللَّهِ إِنْ حَكَمُوا^(٢)
 ننتقل إلى قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ فما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبقها؟

الجواب: لما أخبر الله ﷻ بالحوار الذي دار بين أهل الجنة وأهل النار، وأعلمنا أن منادي الحق ارتفع بينهم ليزيد أصحاب الجنة سعادةً، وأصحاب النار بُؤْسًا، وذكر محتوى الإعلان الذي أعلنه هذا المنادي، فقال: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾، وعندها يسمع أهل الدنيا هذا التصوير، فيشتاقون لمعرفة صفات هؤلاء الملعونين الذين لعنهم الله ﷻ، حتى يجتنبوها كأن القائل يقول: يَا رَبِّ بَيِّنْ لَنَا أحوالهم حتى لا نقع في الطرد من رحمتك، وهنا بَيَّنَّ الله ﷻ لهؤلاء الذين استحقوا اللعنة أربع صفاتٍ مرعية:

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (٢١٤٧).

(٢) البيت لأبي فراس الحمداني، ينظر: ديوانه، (ص: ٣٣١).

الصفة الأولى: الظلم:

وهذه الصفة يُبَصِّرنا بها قوله تعالى: ﴿فَأَدْنِ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١) و(الظُّلْمُ)^(١): عَرَفَهُ الرَّاعِبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْمُخْتَصَّ بِهِ؛ إِمَّا بزيادةٍ أَوْ بِنَقْصَانٍ، وَإِمَّا بَعْدُولٍ عَنِ وَقْتِهِ وَمَكَانِهِ، وَيُقَالُ فِيْمَا يَكْثُرُ، وَفِيْمَا يَقُلُ مِنَ التَّجَاوُزِ؛ وَلِهَذَا يُسْتَعْمَلُ فِي الدَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَفِي الدَّنْبِ الصَّغِيرِ، لِذَلِكَ قِيلَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَعْدِيهِ: ظَالِمٌ، وَفِي إِبْلِيسَ: ظَالِمٌ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الظُّلْمَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ، وَهُوَ يَسبَبُ النَقْصَ وَالْخَسَارَةَ مَعَ أَنَّ الظَّالِمَ يَظُنُّ أَنَّهُ بَظْلَمِهِ يَزِدُّهُ مِنَ النِّجَاحِ أَوْ الْإِنْجَازَاتِ الَّتِي يَصْنَعُهَا لِنَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَا أَلْجَتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أَي وَلَمْ تَمْنَعْ أَوْ تَنْقُصْ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَدَمَ ظَلَمِ الْجَتَيْنِ مَعْنَاهُ: لَمْ تَضَعْ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَلَمْ تَنْقُصْ مِنْ ثَمَرَاتِهَا، وَلَا أَتَتْ بِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا لَذَةً، وَحِلَاوَةً، وَإِنْتِاجًا.

والظلم ثلاثة أنواع:

الأوَّلُ: ظَلَمَ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ بِشْرَكَه بِاللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والثَّانِي: ظَلَمَ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ بِمَعْصِيَتِهِ رَبَّهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُتَّقِينَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وَالثَّالِثُ: ظَلَمَ الْإِنْسَانُ لِلْعَالَمِ حَوْلَهُ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

فَيَدْخُلُ فِي الظَّالِمِينَ كُلُّ مَنْ ظَلَمَ مِنْ كَافِرٍ، أَوْ مُشْرِكٍ، أَوْ فَاسِقٍ عَاصٍ؛ إِذْ هَذَا مُقْتَضَى عَمُومِ كَلِمَةِ (ظَلَمَ).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٥)، تاج العروس (٣٣/ ٣٣).

والظلم داء لا يكاد ينفك عن النفس البشرية، وإنما يتفاوت الناس فيه بين مقل ومستكثر، ويجاهد الأخيار الصالحاء أنفسهم للتنزه عنه ومجانبتها، يقول المتنبي:

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ^(١)
فهذه الصفة الأولى ظهرت لنا من قوله تعالى: ﴿فَادَّعَىٰ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، فما الصفة الثانية التي نجدها في قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟
الجواب:

الصفة الثانية: الصدُّ عن سبيل الله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

﴿الَّذِينَ﴾ تعريف للظالمين، بذكر صفة خاصة من صفات الظلم لأهميتها، وليس لحصر الظلم فيها، فصوّرت لنا كلمة ﴿الَّذِينَ﴾ أن الظالمين يتصفون بالظلم، وخاصة الصفات التي ستذكر بعد الاسم الموصول، وكلمة (صَدَّ) ^(٢) تعني صرف النفس أو الغير عن الشيء والامتناع النافر الكاره له، بوضع حائل ماديٍّ أو معنويٍّ كثيف يمنع منه، فيقال: صَدَّ يَصُدُّ صُدُودًا، وَصَدَّ يَصُدُّ صَدًّا، وَالصَّدُّ مِنَ الْجَبَلِ: مَا يَحُولُ، وَالصَّدَّانِ: جَانِبَا الْوَادِي، الْوَاحِدُ صَدٌّ.

وكلمة (صَدَّ) تعبّر عن صَدَّ النفس، فيكون الفعل لازماً، وصَدَّ الغير فيكون الفعل متعدياً، فيقال: صَدَّ فلان أي: جعل بينه وبين ما يُدعى إليه حاجزاً حال كونه نافراً كارهاً، ويقال: صَدَّ غيره أي: جعل ذلك الحاجز بين غيره وبين الشيء الآخر فيكون المعنى: يعرضون عن سبيل الله حال كونهم كارهين لها، ويعملون على منع غيرهم من هذه السبيل المباركة، بأن يجعلوا بينهم وبينها حواجزَ ماديةً ومعنويةً، فالمادّية مثل الإغراءات المالية، والملاهي الدنيوية،

(١) شرح ديوان المتنبي، (٤/ ١٢٥).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٢٨٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٧٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٠١).

والتعذيب لمن يُصْرُّ على سلوكها، والمعنوية مثل الشبهات، والترهيب منها، وتشويه حقائقها، وشيطنة أصحابها.

فهذا معنى قوله: ﴿يَصْدُون﴾، وأما قوله: ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾، فهو الطريق الواضح الذي يسير فيه المرء على منهاج الله ﷻ، وقوانينه.

وهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله صنفان:

الأول: من كفروا بالله ﷻ ابتداءً، ثم لم يكتفوا بالكفر، بل نشطوا في إدخال العالم في الكفر، وصدّهم عن سلوك سبيل الله ﷻ. ويحاولون أن يصدّوا العالمين عن سلوك سبيل أرحم الراحمين.

الثاني: من أظهروا الإيمان، وربما كانوا مسلمين حسب التصنيف والاسم، لكنهم يصدون العالم عن سبيل الله ﷻ، ويخادعون الناس بأسمائهم الإسلامية، وهم يستخدمون كل طاقة مادية أو بشرية لصدّ الناس عن اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ.

ولكنك ستساءل: كيف يصدون العالم عن سبيل الله؟

اتخذ هؤلاء المجرمون مبدأ الصدّ عن سبيل الله ﷻ أعظم مهماتهم وأهدافهم في الحياة، ولذلك تجدهم في غاية النشاط في أن يُظهروا في الأرض الفساد، والفعل المضارع ينبئنا بأنهم يسلكون شتى الأساليب لتحقيق هذا الهدف الأكبر الأغرب في حياتهم، فيفعلون كل ما يمكن لتحقيقه: بالترهيب والترغيب، والإزغاب والإرهاب، والمكر والخداع، والفتنة والإغراء بالشهوات، وبثّ الشبهات، وخذ مثلاً جزئياً: ما أكثر الكتب والبرامج التي تنشر الإلحاد في العالم، في مقابل التضييق على القنوات والمؤسسات الإسلامية، بل ترى مؤسسات في بلدان إسلامية تُروّج للملحدين، والفساقين، وترجم أعمالهم، وتنشر برامجهم، وتقيم المسابقات ذات الأجور الضخمة لنشر الكفر والفسوق والعدوان في القنوات، وتكرّم أصحابها، وتشهر

كُتِبَ بِهَا بِاعْتِبَارِهَا أَكْثَرُ الْكُتُبِ انْتِشَارًا مِثْلَ كِتَابِ الزُّوَرِ وَالْإِفْكَ الْمُعْنُونِ بِعَنْوَانِ: (الله.. الفرضية الشاملة) كيف يثبت العلم عدم وجود الله لـ(فيكتور ستنجر)، وترى هذه القنوات تروج لـ(ستيفن هوكنج) باعتباره الملحد الأذكي في العالم، وهو الذي يتكلم عن مسائل لم يستطع إثبات جزئية صغيرة ولا كبيرة منها، ودعك مما ينفقه المنفقون على قنوات الشهوات والإغراء التي تصدُّ عن سبيل الله صباح مساء.

وقد يكونون ممن أظهر الإسلام، لكنه يعمل حثيثاً على منع العالم من محبة الإسلام واعتناقه، فَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْ قَبُولِ الدِّينِ الْحَقِّ، تَارَةً بِالزَّجْرِ وَالْقَهْرِ، وَأُخْرَى بِسَائِرِ الْحِيلِ. وفي هذه الآية نجد الله ﷻ يصف هؤلاء الظالمين بقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، فما معنى ذلك؟ وما معنى هاتين الكلمتين؟ ولماذا اختارهما الله ﷻ لِيُصَوِّرَا واقع هؤلاء الملعونين من أصحاب النار؟

الجواب: هنا نجد:

الصفة الثالثة للذين يلعنهم الله يوم الأذان الأكبر: جَعَلَ سَبِيلَ اللَّهِ ذات عوج: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾:

حتى نفهم معنى هذه الصفة ينبغي أن ننظر في كلماتها، وقد احتوت على ثلاث كلمات: ﴿يَبْغُونَ﴾، والهاء في قوله: ﴿يَبْغُونَهَا﴾، والكلمة الثالثة: ﴿عِوَجًا﴾. فكلمة ﴿يَبْغُونَ﴾ مشتقة من بَغَى ^(١) يبغي إذا طلب الشيء طلباً يتجاوز المعتاد في الطلب، ومن ذلك قَوْلُهُمْ: بَغَى الْجُرْحُ: إِذَا طَلَبَ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَهُ فَأَفْسَدَ مَوْضِعَهُ، وقد سبق تحليل هذا اللفظ عند تفسير الآية [٣٣] ^(٢)، ولم يقل الله ﷻ في وصف أصحاب النار: يطلبون

(١) مقاييس اللغة (١/ ٢٧١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٣٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٤٩).

(٢) ينظر تفسير الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا يَمُنَّ بِالْغَيْبِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

سبيل الله عوجًا، بل ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون أن يجعلوا سبيل الله ﷻ ذات عوج طلبًا مجتهدًا نشطًا خارجًا عن نطاق العادة.

والضَّمِيرُ الْمُؤَنَّثُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ ﴿سَبِيلٍ﴾ تُؤَنَّثُ وَتُذَكَّرُ، فَمِنْ تَأْنِيثِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وَمِنْ تَذْكِيرِهَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وَالْمَعْنَى: يَبْغُونَ سَبِيلَ اللَّهِ عِوَجًا.

والسبيل: هو الطريق الواضح البين المُسَبَّل أي: المهيأ الممدود لأجل السلوك فيه. وكلمة ﴿عِوَجًا﴾: مشتقة من (عوج)^(١)، فيقال فيه: عَوْجٌ يَعُوجُ عِوَجًا، وَيُقَالُ اعْوَجَّ يَعُوجُ اعْوِجَاجًا وَعِوَجًا، فَهِيَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ، وَعَدَمُ الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْإِنْعِطَافُ بَعْدَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعَوْجُ: عَطَفَ رَأْسَ الْبَعِيرِ بِالزَّمَامِ أَوْ الْخِطَامِ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ^(٢):

خَلِيلِي عَوْجًا بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْمَا عَلَى دَارِ مَيٍّ مِنْ صُدُورِ الرِّكَائِبِ
وقال الشاعر:

قِفَا نَسْأَلُ مَنَازِلَ آلِ لَيْلَى مَتَى عِوَجٌ إِلَيْهَا وَأَنْشَاءُ؟^(٣)
فَالْعَوْجُ مَفْتُوحُ الْوَاوِ: فِي كُلِّ مَا يَدْرِكُ بِالْبَصَرِ كَالْحَائِطِ وَالْعُودِ، يُقَالُ مِنْهُ عَوْدٌ أَعْوَجُ بَيْنَ الْعَوْجِ، وَالنَّعْتُ أَعْوَجُ وَعَوْجَاءُ، وَالْجَمْعُ عَوْجٌ، وَالْعَاجُ: أُنْيَابُ الْفِيلَةِ.

وَالْعَوْجُ مَا كَانَ فِي أَمْرٍ مَعْنَوِي يَدْرِكُ بِالْفِكْرِ وَالْبَصِيرَةِ نَحْوَ دِينٍ وَمَعَاشٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

(١) مقاييس اللغة (٤/ ١٧٩)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٩٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٠٧).

(٢) ديوان ذي الرمة (ص: ٣١).

(٣) البيت بلا نسبة. ينظر: لسان العرب (٢/ ٣٣٢).

فإن قلت: أدر كنا المعنى التفصيلي للكلمات الثلاث في هذه الصفة، فما وجه قوة التعبير القرآني لهذه الجملة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؟

الجواب: المعنى الإجمالي: يريدون أن يجعلوا سبيل الله ذات عوج، وهل يستطيعون ذلك؟

أما في ذات السبيل فلا يستطيعون؛ لأن الله ﷻ تكفل بحفظ دينه وكتابه، ولكنهم يحاولون أن يُظهروها أمام العالم ذات عوج، وبذلك تصوّر لك هذه الصفة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ هدفهم الخفي الخطير عندما ينشطون في العالم، إذ يحاولون تشويه سبيل الله ﷻ، بأن يُظهروها ذات عوج أمام الناس، وبذلك تشعر بالترابط بين هذه الصفات الثلاث لأصحاب النار: الصفة الأولى: الظلم، فعندما يظلمون الناس، تقوم الشريعة وحملتها بطلب أن يكفّوا عن هذا الظلم، وحينها يتصفون بالصفة الثانية: الصد عن سبيل الله ﷻ حتى لا ينكر عليهم أحد ظلّمهم، فلما لم يقدروا على أن يمحووا سبيل الله من الوجود لجؤوا إلى الصفة الثالثة: يبغون سبيل الله عوجًا.

طرق وأساليب اتخاذ سبيل الله ﷻ عوجًا:

لما لم يتمكنوا من الصد عن سبيل الله نشطوا باهتمام بالغ إلى أن يطلبوا أن يُظهروا سبيل الله عوجًا، وكيف يفعلون ذلك؟

الطريقة الأولى لبغي سبيل الله عوجًا: أن يغيروها ويبدّلوها عن النظام الذي وضعه الله ﷻ لها، فيظهروها مُعَوّجة عن الطريق المستقيم السويّ، فيزعمون أن سبيل الله ﷻ توافق أهواءهم، وعلى سبيل المثال: سبيل الله حرّمت الربا، وهم يصرون على أن يأثروا بفتاوى تبيح الربا، ويجعلون الربا أهمّ أعمدة الاقتصاد العالمي، فيجعلون البيع مثل الربا، ويبيحون الخمر وتجارة المخدرات باسم العمليات الاقتصادية، وتوفير موارد للميزانية، ويبيحون إشاعة

الفواحش في الذين آمنوا باسم تمكين المرأة، ومنح الفسّاق حقوقهم المزعومة... ولكنهم مهما فعلوا فلن يستطيعوا أن يغيّروا القرآن حتى لو افتروا على الله ﷻ الكذب، فسبيل الله ﷻ لا يمكن أن تكون عوجاً في ذاتها ولو حاول الناس جعلها ذات عوج، وهنا يلجؤون إلى:

الطريق الثاني لبغي سبيل الله ﷻ عوجاً: بتشويه سبيل الله ﷻ الحقيقي، وإظهاره بمظهر الذي يجب النفور منه، فيزعمون أنه لا يمكن في سبيل الله أن يمتّع الشاب نفسه، وبذا ينفرونه من الاستقامة، ويظهرون المستقيمين على أنهم متطرفون، فيكره أقوام سبيل الله ﷻ تحت الدعاية المضللة.

لكنهم يُفاجئون بأن أناساً يشبّون على حبّ سبيل الله ﷻ، وهنا يلجؤون إلى:

الطريق الثالث لبغي سبيل الله ﷻ عوجاً: أن يقدّموها لمن يحبها ولكن لا على ما أراد الله ﷻ، بل على غير ما أراد الله ﷻ، فيقدّمونها لمن يحب السلفية على طريقة الغلو في السلفية، ولمن يحب الصوفية على طريقة الغلو في الصوفية، ولمن يحب التقدم المدني مع التدين على طريقة الغلو في المدنية، وهكذا.. فيحاولون تحريف الدين ليظن الراغبون فيه أن العوج الذي أظهره به هو الدين، فيعتقدونه معوجاً، وبذلك ينحرفون عن سبيل الله ﷻ من حيث أرادوا اعتناقه، ودين الله وسبيله أقوم وأجل من تحريفاتهم وتَهْوُسَاتِهِمْ.

إِنَّ الْحَضَارَةَ دِينَ اللَّهِ نَعْرِفُهَا	فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ لَا ظِلْمٌ وَلَا شَغَبٌ
النَّاسُ أَهْلٌ وَإِخْوَانٌ سَوَاسِيَةٌ	فِي كُلِّ شَيْءٍ فَلَا رَأْسٌ وَلَا ذَنْبٌ
الْعَدْلُ إِنْ حَكَمُوا وَالْحَقُّ إِنْ طَلَبُوا	وَالْخَيْرُ إِنْ عَمِلُوا وَالْبِرُّ إِنْ رَغَبُوا
حَتَّىٰ لَوْ اعْوَجَّ فِي أَحْكَامِهِ (عُمَرُ)	هَبَّتْ تَقْوَمُهُ الْهِنْدِيَّةُ الْقُضْبُ
الْحَكْمُ لِلَّهِ فَرْدًا لَا شَرِيكَ لَهُ	أَلَا لَهُ الْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ وَالْغَلَبُ

أقام للناس ديناً من جلالته تهوي التّمائيل عن رُكنِيهِ والنُّصْبُ^(١)

علاقة من يبعون سبيل الله عوجاً بالشیطان:

أخبرنا الله ﷻ في الآيات قبل هذه عن جهود الشيطان اللعين في الصد عن سبيل الله القويم، وكان مما توعد الشيطان وصرح به في خطته الإبلسية قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وإنما يفعل ذلك ليحيد بضحاياه إلى مائل الطرق ومعوجها، فيودي بهم في المآل إلى دركات الجحيم، وذات الدور ينهض به جنوده من شياطين الإنس والجن ممن يخبرنا الله ﷻ هنا عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، إنه الضلال والإضلال، كلاهما يخرج من مشكاة واحدة.

وبهذا اتضحت قوة التعبير القرآني لهذه الكلمات: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

فهم يطلبون سبيل الله ﷻ حال جعلهم لها عوجاً أمام العالم، فلا تظهر مُسْتَوِيَّةً وَلَا مُسْتَقِيمَةً كما أرادها الله ﷻ، وإنما مشوهة ممسوخة.

من صور تشويه دين الله أمام الخلق:

يسعى المبطلون لإظهار سبيل الله أعوج أمام الخلق للتفنير عنه ويفتتون لذلك طرقاً منها: تضخيم أخطاء المسلمين، أو صناعة أخطاء لهم، وحينها ينشرون في الإعلام، فيقولون: كيف تريدون أن تتبع سبيل الله ﷻ وفيه كذا وكذا؟ مع أن الخلل -إن وُجد خلل- إنما يكون فيمن يطبق سبيل الله ﷻ، وليس في سبيل الله ﷻ ذاتها، وهل الطيب إذا وجد عنده خطأ طبي نقول: الخطأ في الطب، ولأجل خطأ طيب نترك الطب كله؟ لا.

وهل الصانع للسيارة إذا ارتكب خطأً نترك ركوب السيارات؟ لا.

(١) الأبيات لأحمد محرم. ينظر: ديوانه، (ص: ٣٦١).

انظر في هذه الأيام: كم تسحب الشركات الكبرى في العالم من منتجاتها؛ لأنه كُشِفَ عن خلل تقني في منتجاتها، وهل يعني ذلك أن نرفض التكنولوجيا والتقنيات من أولها إلى آخرها؟!

وكذلك فإن من يفعل السوء وهو متدين لا يثبت بفعله أن الخلل في سبيل الله ﷻ، بل في تطبيقه، ولكن المجرمين يستغلون بعض الأحداث أو يصنعون بعضها لإظهار سبيل الله ﷻ أنها ذات عوج.

إنها جدلية أو حيلة الخلط المتعمد بين الدين والتدين، رغم التغاير الجلي بين الأمرين، فالتدين مسالك المتدينين وتطبيقاتهم التي اختاروها أساليب حياة وممارسات واقعية لهم، في حين أن الدين معالم هدى، ومبادئ رشد، وأصول عدل وإحسان وخير لا تتغير، ولا يطولها التحريف والتبديل بحال من الأحوال.

ما الذي يحدث عندما تظهر سبيل الله ﷻ بهذه الصورة المشوهة العوجاء؟

سينقسم الناس إلى قسمين عند إظهار سبيل الله ذات عوج:

فقسم ينفرون منها، ولا يرغبون بسلوكها كالذين لم يُظهِرْ لهم الإعلام إلا أن سبيل الله سبيلٌ عنف، وتدمير، وتفجير، أو كالذين ظنوا سبيل الله ﷻ مجرد منهج روحي لا يتعلق بالحياة الدنيا، أو الذين يظهرون أن سبيل الله ﷻ لا تصلح أن تجعل في سُدَّةِ الْحُكْم، ولا في التحكُّم في الحياة.

وقسم يسلكون سبيل الله ﷻ حال إظهار هؤلاء المجرمين لها عوجاء، فيخترعون للناس إسلامًا يناسب الأهواء، ويوائم الرغبات، ولا يعلم السالكون أنهم يخطئون، فيظنون أن ما يسلكونه من عوج هو سبيل الله ﷻ، وليس كذلك، وذلك مثل الذي يتدين بالتفريق بين المسلمين على أساس الحدود الجغرافية، أو القبليّة، أو النّسبيّة، أو اللّونيّة، أو الذي يتديّن

بأخذ المُكُوس^(١) والأموال ظلماً، وينسب ذلك إلى الدِّين، أو الذي يتدبَّرُ بعبادة البشر من العلماء، والحكام، والكبراء، وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

بصيرة: انظر لهؤلاء المجرمين من أصحاب النار ما أشد نشاطهم في الصدّ عن سبيل الله أولاً! فلما لم يستطيعوا أن يحجبوا نور الله ﷻ لجؤوا إلى أن يظهر سبيل الله ﷻ عوجاء؛ ليمنعوا الناس من سلوكها، أو ليجعلوا السالكين لها يظنون أنهم على الدِّين، وليسوا كذلك.

فما أكثر الذين يحبون أن يعتنقوا سبيل الله ﷻ؛ لأنه يوافق فطرتهم، فيلجأ هؤلاء المجرمون إلى أن يقدموه لهم عوجاً بدلاً من أن يقدموه على استقامته كما شرعه الله ﷻ، فمن أعظم صفات سبيل الله ﷻ أنه مستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، ووصف الله ﷻ كتابه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وأول من قدّم سبيل الله ﷻ بصورة عوجاء الشيطان حين أقسم لآدم وزوجه ﷻ أنه لهما من الناصحين، فدخلوا في هذا السبيل الأعوج ظانين أنه الصراط المستقيم.

فالمجرمون الذين يبغون سبيل الله ﷻ عوجاً يستهدفون أمرين: إمّا أن ينُفِرَ الناس منها، وإمّا أن يدخلوا فيها ظانين أنها مستقيمة.

فيخترعون سبيلاً لله ﷻ يزعمون أنه طريق الله ﷻ، وهو طريق ذو عوج، فينسبون السبيل لهذه الفئة، وهذه السبيل لهذه الفئة، ويصبح عندنا إسلام ليبرالي، وإسلام شيوعي، وهكذا

(١) أي: الضرائب، أو ما يأخذه أعوان الحكام ظلماً عند البيع والشراء.

ضمن سلسلة الأهواء الشَّيطَانِيَّة، وما أحسن ما قاله الشاعر وليد الأعظمي في كشف زيف هذه الدعاوى المفتتة على دين الله:

شريعهُ اللهُ تُحِينَا وتُسَعِدُنَا وما سِوَاهَا فتُضْلِلُ وإِفْسَادُ
كفى نِفَاقًا كفى غِشًّا كفى كَذِبًا مِنْكُمْ تَبَرًّا دِينُ اللهِ وَالضَّادُ
قَدْ حَصَّصَ الْحَقُّ فَاسْوَدَّتْ وُجُوهُكُمْ كَمَا تَلَجَّلَجَ نَهَارٌ وَصَيَّادُ
عند الصَّباح لَكُمْ رَأْيٌ يَنَاقِضُهُ رَأْيُ الْمَسَاءِ فَإِصْدَارُ وَإِيرَادُ
يا فتيَّةَ الْحَقِّ إِنَّ اللهَ ناصِرُكُمْ دُودُوا الْأَعَادِي كَمَا أَجْدَادُكُمْ ذَادُوا^(۱)

ولا بد أن تتساءل: لماذا وصف صَدَّهم عن سبيل الله، وَبَغَيْهم إياها عوجًا بالفعل المضارع ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مع أنهم في زمن السؤال قد انتهوا من ذلك

فصاروا في النار؟

الجواب:

وصف الله ﷻ هؤلاء الذين لعنهم بالفعل المضارع ﴿يَصُدُّونَ﴾؛ لأن هذا الفعل يدلُّنا على واقع الحال، وعلى شِدَّة نشاطهم في الواقع وفي المستقبل، وعلى أهدافهم في المآل، فهم لم يصدوا عن سبيل الله ﷻ مرةً، ولا مرتين، ولا ثلاثاً، بل هم يفعلون ذلك الآن، ويخططون له في كلِّ آن، وينفِّذونه في كلِّ لحظة يمكنهم فيها أن ينفِّذوه.

بل إن الله ﷻ يحكي واقعهم وحالهم السابق واستحضاره زمن السؤال لتزيد حسراتهم، وتتكاثر عَبراتهم، فيتذكَّرون زمن لا ينفع التذكر، فيحدثنا الله ﷻ عن واقعهم وكأنه حاضر أمامهم، وكأن هناك شاشة عرضٍ تصف لهم ما كانوا يفعلونه من قبل؛ لتزيد حسراتهم ولأجل

(۱) ديوان وليد الأعظمي، (ص: ۳۵).



أن يتمنوا أنهم لم يفعلوا ذلك، فإن الإنسان إذا ذكر ذنبه ازداد ألمًا، وذلك كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحِكَايَةِ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨] مَعَ أَنَّ زَمَنَ صُنْعِ الْفُلْكِ مَضَى، وَإِنَّمَا قُصِدَ اسْتِحْضَارُ حَالَةِ التَّجَدُّدِ، وَهَنَاكَ بَعْدُ آخِرُ فِي اسْتِعْمَالِ الْمَضَارِعِ يَتَلَخَّصُ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ يَحْكِي هُنَا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، لَكِنْ حَقِيقَةُ إِيرَادِ الْآيَاتِ لِتَذْكِيرِ الْحَاضِرِينَ بِالْحَالِ الْمُهِينِ الَّذِي يَكُونُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ؛ عَسَاهُمْ أَنْ يَرْتَدَّعُوا وَيَخَافُوا وَيَنْزَجِرُوا.

والفعلان المضارعان: ﴿يَصُدُّونَ﴾ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يَصُورَانِ لَنَا شِرَاسَةً أَعْمَالَهُمْ وَشِدَّةَ نَشَاطَتِهِمْ، وَذَكَرَ اللَّهُ ﷻ ذَلِكَ لِيَنْبِئَكَ ذَلِكَ بِتَجَدُّدِ صَدِّهِمْ، وَتَكَرُّرِهِ، وَكَيْفَ أَنَّهُمْ يَتَكَرَّرُونَ الْوَسَائِلَ لِيَصُدُّوا الْعَالَمَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ.

صور واقعية لاتخاذ سبيل الله عز وجل عوجًا



عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

مُفَصِّلَاتُ تَسْوِيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

صور واقعية لاتخاذ سبيل الله ﷻ عوجًا:

لزيادة التوضيح: ربما طلبت أمثلة على صور يريد فيها الظالمون أن يعوجوا سبيل الله. **الصورة الأولى:** الظالمون بالشرك، فيجعلون سبيل الله ﷻ مشوبةً بالوثنية، فيدعون مع الله إلهاً آخر، ويجعلونه واسطة بينهم وبين الله ﷻ، كأن يدعو فلاناً أو فلانة من البشر، كما كان يفعل الوثنيون العرب في أغلبهم الأعم، فإنهم يقولون ما نعبد الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والله ﷻ يبين لهم أن هذا خطأ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]، ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، بل ربما نسوا الله ﷻ وتوجَّهوا إلى الواسطة يطلبون منه جلب النفع وكشف الضر، لتشويه سبيل الله ﷻ بالشرك. ولا ريب أن الشرك أعظم الظلم وأفدحه، وقد جاء وسْمُه بالظلم في صريح القرآن في قوله ﷻ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الصورة الثانية: الظالمون بالابتداع، يبعون سبيل الله ﷻ عوجًا بما يزيدون في الدين من البدع والمحدثات، التي لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا سنة الخلفاء الراشدين وجُمهور الصحابة، ولا جاءت مستندة على أفعالهم أو أفهامهم، ومُستندهم في هذه البدع: النظريات الفكرية، والتأويلات الجدلية، ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة العقلية وبين العلمانية والإسلام، هذا إذا كان الابتداع في المسائل الاعتقادية، وأمَّا الابتداع بالزيادة في

الْعِبَادَاتِ الْوَارِدَةِ وَالشَّعَائِرِ الْمَشْرُوعَةِ فَكَالزِّيَادَةِ فِي الْأَذَانِ، وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرُّزْقِ، وَتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ^(١).

الصورة الثالثة: الظالمون بحمل الناس على الفسق، الذين يستباحون الشهوات المحرمة، ومقدماتها، بل يشرّعون القوانين التي تبرر للمخازي، وعولمة الرذائل، وما خبر المؤسسات الدولية الراعية لبرامج المثليين عنا ببعيد، ولم تعد خافية على أحد الدعوات العريضة لتقبلهم في المجتمعات، بل واحترامهم وإلزام الناس بدعم هذا السفه والتسفل، ولعمر الله إن هذا لجرم وظلم بحق الأجيال البشرية وحكم جائر يمنع عنها حق الحياة السوية الفطرية.

الصورة الرابعة: الظالمون بالزندقة والنفاق، يبعونها عوجاً بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها، واختراع مذاهب الباطنية العقدية والسياسية، إذ يضعون التأويلات التي تضمن لهم تحويل الإسلام ليكون أداة لسلطانهم، ومطية لإجرامهم، والوصول إلى إعادة امبراطورياتهم، أو لإقامة ممالك سياسية جديدة^(٢).

الصورة الخامسة: الظالمون في التشريعات يبعونها عوجاً بتحويل التشريعات الإسلامية لتكون في خدمة الأهواء والرغبات وتحت الطلب؛ رغبة في خدمة فجور الحاكم وفسقه. ولذلك قال علماؤنا:

إذا حامل القرآن مال مُهادِنًا	فمن بعده للبغي والظلم قانعٌ؟
إذا العلم قد أمسى مطية فاسقٍ	يلد ويلهو والمخازي تتابعُ
يجهز للطاغوت مخدع فحشه	ويمهد للزّانين كيما يواقعوا

(١) تفسير المنار ٨ / ٣٨١.

(٢) تفسير المنار ٨ / ٣٨١.

إِذَا لَوَّنَ الْفُتْيَا وَسَارَ مُدَاجِيًّا وَبَاعَ بِخَيْسًا وَالسَّبَايَا تَنَارَعُ
فَلَا خَيْرَ فِي هَيْمٍ تَنْوَعُ ظُهُورُهَا وَقَدْ حُمِّلُوا الْأَسْفَارَ جَمْعًا وَلَمْ يَعُورُوا

الصورة السادسة: الظالمون بالغلو الذين يحولون الإسلام لأهواء خفية، ويزعمون أن ما يرتكبون من إجماع حث عليه الإسلام، والأمر بعيد عن قولهم وآرائهم وإنما أخذوا منه ما يدل على غلوهم وفجورهم، ففعلوا يُسْرَهُ عُسْرًا، وَسَعَتَهُ ضَيْقًا وَحَرَجًا، وَزَادُوا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ، وَالْمَحْظُورَاتِ وَالْمُبَاحَاتِ، أَضْعَافَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ وَمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ، مِمَّا ضَاقَتْ بِهِ مَطَوَّلَاتُ الْأَسْفَارِ، الَّتِي تَنْقُضِي دُونَ تَحْصِيلِهَا الْأَعْمَارُ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ غَايَةَ الْإِهْتِدَاءِ بِهَا الْفَقْرَ وَالْمَهَانَةَ، وَالذُّلَّةَ وَالِاسْتِكَانَةَ، خِلَافًا لِمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ مِنْ عِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَوْنِهِمْ أَوْلَى بِزِينَةِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا مِنَ الْكَافِرِينَ.

ولأجل هذه الفكرة (جعل سبيل الله ﷻ ذات عوج أمام الناس) أسست بعض المنظمات الشهيرة المشبوهة بمبادرات لأجل تغيير الدين، فمن أسوأ الظالمين الذين يبغون سبيل الله عوجًا دعاء الأفكار الهدامة، فيدخل فيهم المنافقون الذين يشوهون الإسلام، ويزعمون أنه هو الدين، ويصطنعون إسلامًا لأنفسهم، وقد صدر عن "مؤسسة راند RAND Corporation" تقريرها الشهير ٢٠٠٧م بعد أن مكثت ثلاث سنوات في إعدادها، وتقاريرها التي تُصدرها ترسم خُطَّةً للسياسة الأمريكية في التعامل مع الأحداث في العالم أجمع، ومنها منطقة ما يسمونه بـ "الشرق الأوسط"، وقد حمل التقرير الأخير قضايا خطيرة جدًا، وعُنوان للتقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة Building Moderate Muslim Networks»^(١)، وهو عنوان يحمل في ثناياه خططًا خطيرة جدًا، وخلاصة التقرير: العمل على صناعة "إسلام"

(١) المفهوم الأمريكي للاعتدال الإسلامي (قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧م) رابط المادة: <http://iswy.co/e116v3>

بمواصفات مناسبة للمنافقين والمفسدين في الأرض، أي: إنهم ييغون إظهار سبيل الله ﷻ عوجًا، وقریبًا من ذلك ما سبق أن أوردته مجلة "كومونيست" السوفيتية الصادرة في أول يناير سنة ١٩٦٤م من وصية منظر الشيوعية (لينين) بوجوب إعادة التنظيم الفكري للعقيدة الدينية ومفاهيمها، باعتبارها أكبر التحديات التي تواجهها الاشتراكية العلمية^(١).

ومن أبرز ما يدخل في إظهار سبيل الله ﷻ عوجًا ما يسميه المفسدون: الدين الإبراهيمي، ونحن نعلم أن دين إبراهيم ﷺ كسائر الأنبياء هو الإسلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ولكن الذين ييغون سبيل الله ﷻ عوجًا أرادوا إظهار دين إبراهيم بمقاييس مناسبة لشهواتهم المنحرفة، فأشاعوا هذا المصطلح: الديانة الإبراهيمية.

كما يدخل فيمن ييغي سبيل الله ﷻ عوجًا من يبشرون لحركاتهم البدعية، أو لأديانهم المحرّفة فإنهم يتجرؤون على الكذب على الله ﷻ، وتلتقي مصالحهم مع مصاصي دماء الشعوب الذين يتخذون من الأفكار الباطلة والأديان المحرفة ستارًا للسيطرة على الثروات، وإشعال الحروب، والفساد في الأرض.

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]، فما علاقة هذه الصفة بهؤلاء المجرمين؟

(١) ينظر: أساليب الغزو للعالم الإسلامي، علي جريشة، ومحمد الزبيق، (ص: ١٣٩).

الجواب: هذه هي:

الصفة الرابعة من صفات الملعونين: عدم الإيمان بالآخرة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾

[الأعراف: ٤٥].

هذه أخطر صفات هؤلاء الملعونين، وهي صفة خفية، وانظر كيف يصفهم الله ﷻ بهذه الصفة، فهو يقول: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

فأتى بالواو التي عطفت هذه الجملة الاسمية على الجمل الفعلية السابقة على الصحيح، ويمكن أن تقول: هؤلاء المجرمون ظالمون يصدون عن سبيل الله، ويغونها عوجاً حال كونهم بالآخرة كافرين.

لاحظ الفرق: هناك قال ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿يَبْغُونَ﴾ بالفعل المضارع، وهنا في الصفة الرابعة وصفهم بالجملة الاسمية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ خبر، ووصفهم بالجملة الاسمية؛ لأن كفرهم ثابت، أما صدهم عن سبيل الله وبغيهم سبيل الله عوجاً فمتجدد، ودائماً يخترعون شيئاً جديداً.

وأعاد الله ﷻ الضمير الخاص بهم ﴿هُمْ﴾ للتأكيد على الكلام عنهم، وقدم الآخرة لأهميتها، وبين أنهم بها كافرون، والكفر هنا الجحود والتغطية، فمن جهة يجحدون وجود الآخرة، ومن جهة يغطون حقائقها حتى لا تلتفت البشرية إليها.. تصور التعبير المدهش: إنهم يسترون ما ظهر لعقولهم من دلائل الآخرة، وما أكثرها!

وختم صفاتهم بهذه الصفة الرابعة، وهي الكفر باليوم الآخر على طريقة القرآن المتفردة في إبراز أهمية اليوم الآخر والإيمان به في صبح حياة الأفراد والمجتمعات، ولذلك تجد قضية الإيمان باليوم الآخر شائعة الحضور في الطرح القرآني بأساليب شتى، وإن كانت متفقة في القصد والغاية.

«والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي. فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه. ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم - وهم بهذه الفطرة - لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون ويأملون، ويجربون ويتعلمون. ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم، ويرون آيات الله ﷻ في أنفسهم وفي الآفاق، ويبدعون في الأرض بما شاء لهم الله ﷻ أن يبدعوا.. وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى».

فإن تساءلت عن سبب وصفهم بِاسْمِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ مع أنهم زمن التأذين في الآخرة قد آمنوا بها لأنهم يعيشونها؟

فالجواب مثل السابق فهو لاستحضار حالتهم الماضية اعتماداً على قَرِينَةِ حَالِ السَّامِعِينَ المَانِعَةِ مِنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ مِنْ صِغَةِ الْمُضَارِعِ وَصِغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، إِذْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ سَامِعٍ أَنَّ الْمَقْصُودِينَ صَارُوا غَيْرَ مُتَلَبِّسِينَ بِتِلْكَ الْأَحْدَاثِ فِي وَقْتِ التَّأْذِينِ، بَلْ تَلَبَّسُوا بِنَقَائِضِهَا، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ قَدْ عَلِمُوا الْحَقَّ وَشَاهَدُوهُ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ ﴿نَعَمْ﴾ وَإِنَّمَا عُرِفُوا بِتِلْكَ الْأَحْوَالِ الْمَاضِيَةِ لِأَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ تُعَرَفُ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ مُتَلَبَّسَةً بِهَا فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ الْأُولَى، فَبِالْمَوْتِ تَنْتَهِي أَحْوَالُ الْإِنْسَانِ فَيَسْتَقَرُّ اتِّصَافُ نَفْسِهِ بِمَا عَاشَتْ عَلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(١).

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٣٨، ١٣٩). والحديث رواه مسلم (٢٨٧٨).



وربما تساءلت: ماذا بعد مشهد ساعة الأذان الأكبر؟ وهل من فريق آخر يبرز غير أهل الجنة وأهل النار؟

الجواب: هنا يأتي المشهد الذي يقول الله تعالى جُدُّهُ فِيهِ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦].

المشهد الرابع: ظهور فئة ثالثة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار هم أهل الأعراف ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ...﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٩]:

مزايا أهل الأعراف

المزية الثانية

يسبوا أهل الأعراف منطقة علوية خاصة في الحجاب

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46]

المزية الأولى

أهم في منطقة متوسطة تحجز نعيم الجنة

من أن يصل إلى أهل النار، وتحجز جحيم النار من أن يصل إلى الجنة ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: 46]

المزية الرابعة

أهم يعرفون كلًا من فريق الجنة والنار بسيماهم

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: 46]

المزية الثالثة

أهل الأعراف رجال يتفاوتون في رتبهم على فئتين

الفئة المكرمة المنعمة الشاهدة على فريق الجنة والنار، وهم الأنبياء وأكابر الصالحين، والفئة التي تكون في مكان خاص آخر في الأعراف من استوت حسناتهم وسيئاتهم.

المزية السادسة

يتأخر دخول أهل الأعراف الجنة

﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46]

المزية الخامسة

يسلم أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة

﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: 46]

المزية الثامنة

توليهم مسؤولية نداء الحقائق

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ... أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 48-49]

المزية السابعة

يشهد أهل الأعراف على الظلم

الذي استحق أصحاب النار النار بسببه ﴿وَلِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 47]

المزية التاسعة

الانتقال إلى مقرّ الأشواق الدائم

﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49]



هنا ظهرت فئة جديدة هي الفئة التي تسمى أهل الأعراف.

وقد تسأل: ما أهم الصفات التي تميّز أهل الأعراف عن غيرهم؟

الجواب: أظهر لنا هذا المشهد تسع مزايا لأهل الأعراف، وهي:

المزية الأولى: أنهم في منطقة متوسطة تحجز نعيم الجنة من أن يصل إلى أهل النار، وتحجز جحيم النار من أن يصل إلى الجنة، ويصّرنا بذلك قوله تعالى جدّه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۖ﴾ (٤٦):

هنا تنتقل بك الآيات لتصف لك مكاناً مميزاً بين الجنة والنار.. إنه المكان المتوسط الذي يكون بينهما، حيث تجد الحجاب الذي يُشبه المنطقة المتوسطة العازلة بين الجنة والنار، ويوجد في هذه المنطقة الحاجبة الحاجزة قوم ينظرون إلى الفريقين.

فإن قلت: لماذا قدّم الله ﷻ كلمة ﴿بَيْنَهُمَا﴾ وهي ظرف متعلق بخبر على المبتدأ في قوله: ﴿حِجَابٌ﴾؟

الجواب: تقدّم ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ لإلتهام بالمكان المتوسط بين الجنة والنار، وبيان دوره في الحجز بين الفريقين والمكانين، وبهذا التقديم صحّ تصحيح الابتداء بالنكرة، والتّكثير للتّعظيم، والصّميّز في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يعود إلى لفظي الجنة والنار الواقعيّن في قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وهما اسماً مكان، فيصلح اعتبار التّوسط بينهما^(١).

ولاحظ الآية، فقد ذكر الله ﷻ لنا أمرين: الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار، والأعراف، فهل هما واحد؟

الجواب: حتى نصل إلى ذلك يجب أن نعرف معنى هذه الكلمة ﴿حِجَابٌ﴾:

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٠).

(الحجاب) ^(۱): مشتق من (حَجَبَ) أي منع من الوصول لأمر مخصوص، يقال: حَجَبَهُ حَجَبًا وَحِجَابًا، وَحِجَابُ الْجَوْفِ: مَا يَحْجُبُ بَيْنَ الْفُؤَادِ وَسَائِرِ الْجَوْفِ، وَالْحَاجِبَانِ الْعَظْمَانِ فَوْقَ الْعَيْنَيْنِ بِالشَّعْرِ وَاللَّحْمِ، كَأَنَّهُمَا تَحْجِبَانِ شَيْئًا يَصِلُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، وَكَذَلِكَ حَاجِبُ الشَّمْسِ مَا يَمْنَعُ رُؤْيَاهَا ^(۲)، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ۳۲]، يعني أن الشَّمْسَ إذا استترت بما يسترها من الأفق في المغيب في عين الرائي، فهو حجاب نسبي.

فنتج لنا من هذا أن الحجاب من الحجب كَالْكَفَافِ مِنَ الْكَفِّ وَالصَّوَانِ مِنَ الصَّوْنِ: الشيء الذي يمنع من الوصول بين جهتين منعًا كليًا، ويمكن أن يحدث الوصول الجزئي، وقد يكون هذا الحجاب حسيًا وقد يكون مَعْنَوِيًا.

فمن الحجاب مَا يَمْنَعُ الوصول لكنه لا يمنع الرُّؤْيَا كَالزُّجَاجِ، ومنه مَا يَمْنَعُ الرُّؤْيَا وَحَدَهَا كَالسُّتُورِ، ومنه مَا يَمْنَعُهُمَا جَمِيعًا كَالْأَسْوَارِ وَالْحِيطَانِ ^(۳).

فما خلاصة قوة التصوير التي تمنحك إياها هذه الكلمة: ﴿حِجَابٌ﴾؟

الجواب: الحجاب حاجزٌ بين الجنة والنار، ويظهر لي أنه يحجب أذى النار من الوصول إلى الجنة، ويحجب نعيم الجنة من الوصول إلى النار، ولكنه لا يمنع الرؤية والتكلم بين الفريقين، كما ترى في الآيات، حيث يكلم كلٌّ من الفريقين الآخر، وقد ذهب المفسرون إلى أنه السُّور الذي ذكره الله تعالى جَدُّهُ في قوله: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ۱۳].

وهنا قد تتساءل: بما أن للحجاب بين الجنة والنار بابًا، فهل يمكن أن يكون عَرَضُهُ خَفِيفًا؟

(۱) ينظر: مقاييس اللغة (۲/ ۱۴۲)، المفردات في غريب القرآن (ص: ۲۱۹)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (۱/ ۳۸۰).

(۲) مقاييس اللغة (۲/ ۱۴۳).

(۳) تفسير المنار (۸/ ۳۸۳).

الجواب: الأمر أوسع من أن أدركه أنا وأنت.. تصوّر أنت الموقف:

رائحة الجنة التي تخرج منها يصف النبي ﷺ امتدادها، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١)، ومن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ قَدَرِ سَبْعِينَ عَامًا، أَوْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»^(٢).

والنار تميّز من الغيظ، ويخرج لفحها يوم القيامة فيكاد يحيط بالخلق، فإن لها أعناقًا تخرج منها ممتدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ عَنْقُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تَبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ»^(٣)، ولذا حمى الله ﷻ من سبقت لهم الحسنى من حسيستها، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

عد الآن إلى هذا الحجاب وتصور كم سيكون عرضه؟

وتصور مقدار القوة التي سيحتويها ليكف ريح (الجنة) فلا تصل إلى النار، وكم سيكون عرض هذا الحجاب حتى يمنع شوب النار من أن يصل حسيستها إلى الجنة.. هنا تتصور مسافة ذلك الحجاب من حيث العرض.

(١) البخاري (٦٩١٤).

(٢) أحمد (٦٥٩٢)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٨٨).

(٣) الترمذي (٢٥٧٤)، وقال: «حسن غريب صحيح»، وصححه الألباني، وقال الوادعي: «هذا حديث صحيح، ورجاله ثقات». الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٩١/٢).

وَالْجَنَّةُ تَكُونُ فِي بَاطِنِهِ، وَالنَّارُ مِنْ قِبَلِ ظَاهِرِهِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَكَانَ الْحِجَابُ سُورٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ لِلْجَنَّةِ، فَعَنْ مُقَاتِلٍ رحمته الله فِي قَوْلِهِ: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]. قَالَ: «يَعْنِي بِالسُّورِ حَائِطًا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، لَهُ بَابٌ ﴿بَاطِنُهُ﴾ يَعْنِي بَاطِنَ السُّورِ ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْحِجَابُ الَّذِي ضَرَبَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ»^(١).

وهنا ستسأل: هل التواصل بين أهل الجنة والنار يعني القرب الحسي المعتاد لتحدث المكالمة والمناقشة بين الفريقين؟

بصيرة: ينقل لنا القرآن المجيد صورة الاتصال بين أصحاب الجنة وأصحاب النار مع وجود الحجاب المتوسط الحاجز بينهما، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِتِّصَالِ الْقُرْبَ الْمَعْهُودَ عِنْدَنَا فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الْمُتَحَاطِبِينَ.

لا يقتضي ذلك أن نقيس المسافة بالأمتار أو حتى الكيلومترات، بل إنك ترى اتصالاً الآن بين الشرق والغرب مع إمكانية الرؤية عبر الشاشات المختلفة، وترى اتصالاً بين الأرض والطائرات التي تطير في أجوائها مع إمكانية الرؤية والمكالمة لكل من الفريقين، وترى اتصالاً مع اختلاف الأزمنة نسبياً، حيث يكلم إنسان في الشرق قد طلعت عليه شمس اليوم التالي إنساناً في الغرب لم يَنْمَ بعد، هذه قدرات الخلق المحدودة، فكيف بقدرة الخالق المطلقة؟

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (١٠١٧)، قال المحقق (عبد الله الحاشدي): «إسناده ضعيف».

المزية الثانية: يتبوأ أهل الأعراف منطقة علوية خاصة في الحجاب اسمها الأعراف،
 ويبيصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]:

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] فما الأعراف، وما علاقته بالحجاب؟
 وهل هو مكان آخر غير الحجاب؟ أو هو الحجاب نفسه؟ فإن الله ﷻ لم يقل: وبينهما حجاب
 يُدْعَى الأعراف، وعليه رجال؟ ولماذا عبّر عن ذلك بهذا التعبير؟

الجواب: الأمر محتمل، ولكننا نجزم بأن هناك علاقةً بين الأعراف والحجاب، وبذلك
 فيحتمل الموضوع عدّة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن يكون الحجاب هو الأعراف، وإلى هذا مال الطبري رحمه الله، واستشهد
 بما نقله عن مجاهد رحمه الله قال: "الأعراف" حجابٌ بين الجنة والنار، ونحوه عن السّدي
 رحمه الله^(١)، وقد نسب السمعاني رحمه الله هذا القول لأكثر المفسرين^(٢).

وعندما تتأمل في تركيب الكلمات القرآنيّة لا تجدها تدلّ على ذلك؛ لأنه لو أراد ذلك لقال:
 "وبينهما حجاب يدعى أو يسمى الأعراف، عليه رجال" أو قال: "وبينهما حجاب الأعراف"
 من إضافة المسمّى إلى الاسم؛ لكنه قال: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، ثم قال: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾
 [الأعراف: ٤٦].

الاحتمال الثاني: أن يكون الأعراف مكاناً مرتفعاً في أعلى الحجاب، حيث تشمل هذه
 المنطقة الحاجزة للجنة عن النار، وللنار عن الجنة: الحجاب الذي يوجد في أعلاه منطقة
 الأعراف.. وهذا الذي أميل إليه، وهو أحد قولَي ابن عباس، فالمشير للانتباه أن الله ﷻ ذكر
 الأعراف أول مرة مقترنة بـ(أل)، و(أل) في (الأعراف) لِلْعَهْدِ، وَلَمْ يَسْبِقْ ذِكْرُ لِلْأَعْرَافِ قَبْلُ

(١) تفسير الطبري (١٢/٤٤٩).

(٢) تفسير السمعاني، (٢/١٨٤).

ذلك حَتَّى تُعَرَّفَ بِلَامِ الْعَهْدِ، فتَعَيَّنَ أن تكون للعهد الخارجي، أي: هي الأعرافُ المعهودةُ التي تَكُونُ بَارِزَةً في أعالي السُّورِ^(١)، فهذه الأعراف تكون مكانًا للمراقبة الدقيقة التي يُحتاج فيها إلى بناء مثل البيوت المستقلة في الأعلى (أبراج مراقبة)، والتقدير: وبينهما حجاب، وعلى أعرافه رجال، ويفهم من كلام الزمخشري رحمته الله أنه رأى أن الأعراف أعالي هذا الحجاب^(٢)، وليست هي الحجاب ذاته، وذلك أقرب في فهم الجملتين معًا.

وردَّ ابن عطية رحمته الله قول القائلين بأن الحجاب هو الأعراف، فقال: «وهذه عجمة؛ وإنما المراد بأعراف ذلك الحجاب أعاليه»^(٣).

فإن قلت: لماذا يُسمَّى ذلك المكان العالي من الحجاب الحاجز بين الجنة والنار ﴿الْأَعْرَافِ﴾؟ وما قوة التصوير في هذه الكلمة؟

الجواب: لأنه المكان المميّز بارتفاعه الشاهق، حيث يُمْكِنُ مَنْ فِيهِ مِنْ أن يكون ذا معرفة بمن حوله من الفريقين، فـ"الأعراف" جمع، واحدها "عُرف"، ولذا قال ابن عباس رحمته الله: "الأعراف": هو الشيء المُشْرِفُ -أي الذي يُشْرِفُ على ما حوله مما هو دونه أو بقربه، فيرى ما أمامه وما خلفه- وكلُّ مرتفع من الأرض عند العرب فهو "عُرف"، وإنما قيل لِعُرف الديك "عرف"؛ لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومثله عُرفُ الفرس، ومنه قول الشماخ بن ضرار: وَظَلَلْتُ بِأَعْرَافٍ تَغَالَى، كَأَنَّهَا رِمَاحٌ نَحَاهَا وَجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزٌ^(٤)

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٤١).

(٢) ينظر: الكشف (٢/ ١٠٦).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٤٠٤).

(٤) قال أحمد شاكر رحمته الله في التعليق على الطبري: «هذا البيت من آخر القصيدة في صفة حمر الوحش، بعد أن عادت من رحلتها الطويلة العجبية في طلب الماء، يقودها العير، فوصفه ووصفهن، فقال:

مُحَامٍ عَلَى عَوْرَاتِهَا لَا يَرُوعُهَا خَيْالٌ، وَلَا رَامِي الْوُحُوشِ الْمَنَاهِرُ

يعني بقوله: "بأعراف": بنشوز مرتفع من الأرض.

والظاهر أن للأعراف القائم فوق الحجاب أبواباً خاصّة به، ويُقَرَّبُ لك الصورة أنك ترى في أيامنا بعض الأبراج المرتفعة تستطيع النظر من خلالها إلى جهات متعدّدة، فعن مجاهد رحمته الله، قال: «الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب»^(١)، ولكن الأدق هو ما رواه الطبري رحمته الله عن ابن عباس رحمته الله قال: «الأعراف: سُور كَعُرْف الديك»^(٢)، فأقول: إذا كان سُورًا كَعُرْف الديك فمعنى ذلك أن السور بمنزلة رأس الديك، والعرف هو ما فوق الرأس، فليس الحجاب هو الأعراف بل ما يكون فوقه، وهذا ما قرره صاحب ابن عباس سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رحمته الله قَالَ: «الْأَعْرَافُ: جِبَالٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَهُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا عَلَى ذُرَاهَا»^(٣).

وبما أننا عرفنا أن الأعراف هي المنطقة العليا المرتفعة في الحجاب الحاجز بين الجنة والنار، فإننا نتشوق إلى معرفة من يوجد فيها؟

وَأَصْبَحَ فَوْقَ النَّشْرِ، نَشْرٍ حَمَامَةٍ
لَهُ مَرْكُضٌ فِي مُسْتَوَى الْأَرْضِ بَارِزٌ
وَوَضَعْتُ تَعَالَى بِالْفِئَاعِ

و(تغالي الحُمُر) احتكاك بعضها ببعض، يصف ضمور حمر الوحش، كأنها رماح مائلة تستقبل مهب الرياح، وكان في المطبوعة: (تعالى)، وهو خطأ. وفي المخطوطة هكذا: (وطلت بأعراف تعالي كأنها رماح وجهه راكز)، صوابه ما أثبت. ومن شواهد كلمة (الأعراف) قول الآخر:

كُلُّ كَيْفٍ لَحْمُهُ يَنْفَافٍ
كَالْعَلَمِ الْمُؤَفِّي عَلَى الْأَعْرَافِ

و(الكناز) المجتمع اللحم القوية، و(النياف) الطويل، يصف جملاً، و(العلم) الجبل. ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٤٩، ٤٥٠)، ديوان الشماخ بن ضرار (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(١) تفسير مجاهد (ص: ٣٣٧).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٤٥٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٤٨٤).

الجواب: يبين الله ﷻ لك من يوجد على الأعراف، فيقول: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف:

[٤٦].

لماذا قال: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، فقدم الجار والمجرور على كلمة ﴿رِجَالٌ﴾، ولم يقل:

ورجال يوجدون على الأعراف؟

الجواب: قدّم الجارّ والمجرور؛ ليظهر لنا الاهتمام بهذا الاسم، فالمكان أكثر أهمية لغرابته بالنسبة للسامع، فهو مكان بين الجنة والنار، فأراد أن يبدأ بتعريفنا بالمنطقة التي في أعلى الحجاب، فقال: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾، ثم أخبرنا من يوجد فيها، فقال: ﴿رِجَالٌ﴾، فعرّفنا باسم المنطقة العليا من الحجاب، وبأصحابها.

وأما ما ذكره ابن عاشور رحمه الله من أن تقديم الجار والمجرور إنما هو لتصحیح الابتداء بالنكرة، فهذا سبب نحوي لا يفيد المتدبر إذا وقف عنده، بل ينبغي أن يُبحث عن السبب البياني الذي يظهر لك كيف يصوّر القرآن الواقع القائم، وهو ما أشار إليه بعد ذلك؛ فقد كثر في القرآن الكريم الحديث عن انقسام الخلق إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، أما الحديث عن منطقة جديدة غير متوقعة تكون بين الجنة والنار، فهذه مسألة انفردت بها هذه السورة، وكذلك وردت الإشارة إليها في سورة الحديد، فاقترضى المقام أن يكلمنا الله ﷻ عن هذه المنطقة أولاً ليشوق النفوس إلى معرفتها ومعرفة ما فيها، ثم جاء المبتدأ المؤخر ﴿رِجَالٌ﴾ ليخبرنا الله ﷻ أن في هذه المنطقة رجالاً مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب قبل أن يدخلوا الجنة، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار،



وَيَعْرِفُونَ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْعِزَّةِ وَالْكَبِيرِيَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ وَعْدَ اللَّهِ
تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ^(١).

ولعلك تسأل: هل يدل وصف أهل الأعراف بأنهم رجال على أنه ليس فيهم نساء؟

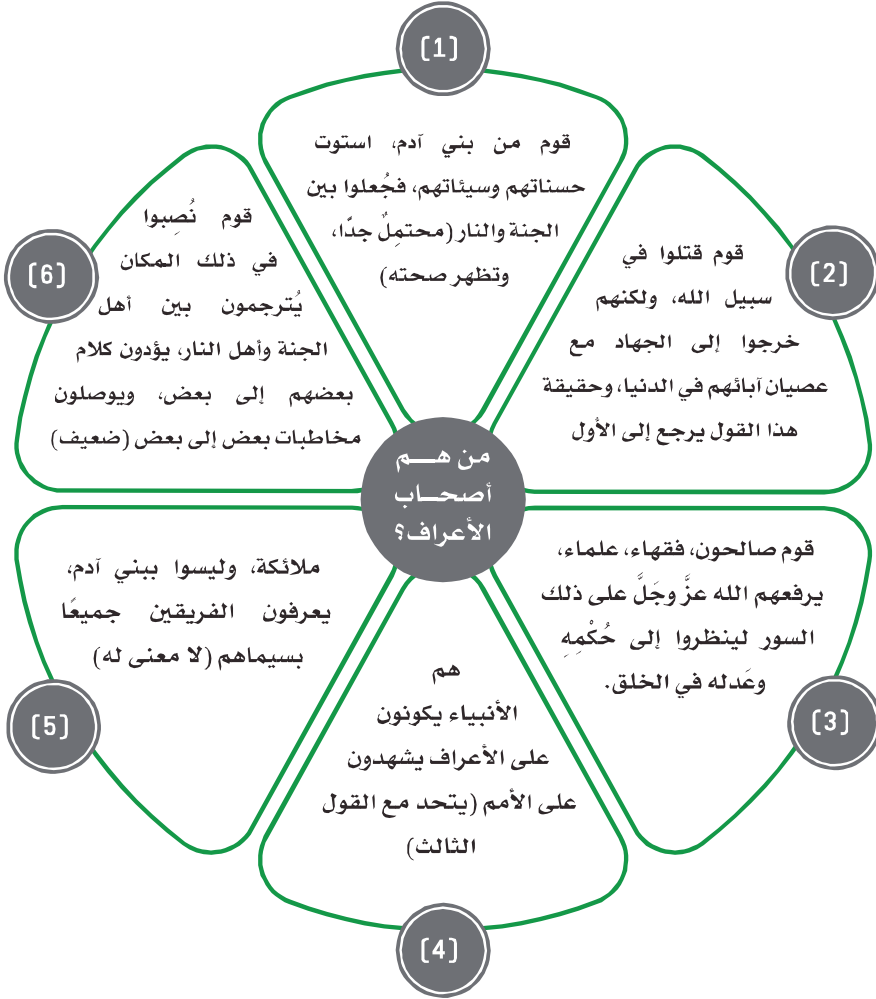
الجواب: مال محمد رشيد رضا رحمته الله إلى أن التعبير بِرِجَالٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ نِسَاءً، وَمَنْعَ أَنْ يَكُونَ وَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ رِجَالٌ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيْبِ، وَخَالَفَهُ ابْنُ عَاشُور رحمته الله فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ تَخْصِيصَ الرِّجَالِ بِالذِّكْرِ لَيْسَ بِمُقْتَضٍ أَنْ لَيْسَ فِي أَهْلِ الْأَعْرَافِ نِسَاءً، وَلَا اخْتِصَاصَ لَهُؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْمَتَحَدِّثِ عَنْهُمْ بِذَلِكَ الْمَكَانِ دُونَ سِوَاهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ رِجَالٌ يَقَعُ لَهُمْ هَذَا الْخَبَرُ، فَذَكِّرُوا هُنَا لِلْإِعْتِبَارِ عَلَى وَجْهِ بَيَانِ الْوَاقِعِ، لَا لِقَصْدِ تَقْسِيمِ أَهْلِ الْآخِرَةِ وَأُمَكِّيَّتِهِمْ^(٢).

وأرى أن هذا البحث لا معنى له، وهو يتعلق بأمر غيبي لا يتعلق بنا، إنما تتعلق بنا الأوصاف التي يذكرها أهل الأعراف عندما يشاهدون فريقَي الجنة والنار، أعادنا الله تعالى من النار، ورزقنا الفردوس بفضلِهِ ورحمته وكرمه.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/ ١٤١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٨٥)، التحرير والتنوير (٨/ ١٤١، ١٤٢).

المزية الثالثة: أهل الأعراف رجال يتفاوتون في رتبهم وينقسمون إلى فئتين: الفئة المكرمة المنعمة الشاهدة على فريقَي الجنة والنار، وهم الأنبياء وأكابر الصالحين، والفئة التي تكون في مكان خاص آخر في الأعراف ممن استوت حسناتهم وسيئاتهم:



الآن نأتي إلى السؤال الكبير: من هم هؤلاء الرجال الذين على الأعراف؟

الجواب: اختلف أهل التأويل فيهم فحكى القرطبي رحمته فيهم عشرة أقوال، منها^(١):

القول الأول: هم قوم من بني آدم، استوت حسناتهم وسيئاتهم، فجعلوا هنالك إلى أن يقضي الله عز وجل فيهم ما يشاء، وذلك لأن الأعمال الصالحة تتجسد يوم القيامة، فتمنعهم أعمالهم الصالحة من أن يُدفعوا إلى النار، وتمنعهم أعمالهم السيئة من أن يُساقوا إلى الجنة، فيصرون إلى هذه المنطقة المتوسطة.

ثم إن الله عز وجل يُدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم، فهم رجال من المسلمين من آخرهم دخولاً الجنة لقصور أعمالهم، كأنهم المُرَجُونَ لأمر الله عز وجل، فيُحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله عز وجل لهم في دخول الجنة:

وروى الطبري رحمته هذا الرأي عن حذيفة، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم^(٢).

وهذا رأي محتمل جداً، وتظهر صحته، فقد قال الشعبي رحمته: أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن رحمته، وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش رحمته، وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة رضي الله عنه، فقالا: هات! فقلت: إن حذيفة رضي الله عنه ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٢-٤٥٥).

قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]، فبينما هم كذلك، اطلع إليهم ربك تبارك وتعالى، فقال: «اذْهَبُوا وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب الله ﷻ الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول

(١) حديث حذيفة رضي الله عنه رواه سعيد بن منصور، وهو منقطع بين الشعبي وحذيفة رضي الله عنه، لكنه جاء موصولاً رواه الحاكم عن عبيد الله بن موسى، وظاهره الصحة، وأعلها الدكتور سعد الحميد بأن رواية الانقطاع أكثر عدداً، ولعل فيما قرره نظراً، وطلبت من فضيلة الشيخ الدكتور/ سعيد بديوي رأيه في هذا الأثر، فأرسل لي الآتي: بخصوص أثر حذيفة الذي في تفسير الأعراف، رواه عنه عامر بن شراحيل الشعبي، وقد رواه عن الشعبي جماعة وهم: حصين، ومطرف، وعيسى الحناط، وجابر الجعفي، وكلهم يرويه عنه بلا واسطة بينه وبين حذيفة رضي الله عنه.

ورواه جماعة وهم: وكيع، وشيبان، ويحيى بن واضح عن يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي بلا واسطة أيضاً كرواية الجماعة السابقين.

وخالفهم جميعاً عبيد الله بن موسى فرواه عن يونس بذكر واسطة بين الشعبي وحذيفة وهذه الواسطة صلة بن زفر. والرواية بلا واسطة أولى لأمر: الأول: أن الذين تركوا الواسطة أكثر، ولو كان الأثر متصلاً لما آثروا الانقطاع عليه، والثاني: أنه قد يكون التبس على عبيد الله أو من دونه ذكر صلة لكونه موجوداً في أحاديث أخرى للشعبي.

والخلاصة أن الراجح من الروايتين الرواية المرسلة، لكنه مرسل قوي لسببين:

السبب الأول: أن مراسيل الشعبي قوية عند أهل العلم، ذكر ذلك غير واحد كالعجلي، والمديني، وأبي داود، والذهبي، والسخاوي. ينظر: الثقات (٢/ ١٢)، الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ٣٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ٦٨)، الموقظة (ص: ٣٩)، فتح المغيث (١/ ١٩٤).

السبب الثاني: أن طريقة رواية الشعبي لهذا الأثر تدل على تثبته وأنه يحتج به، وذلك لأنه اختلف في تفسير الأعراف والي الكوفة في خلافة عمر بن عبد العزيز وهو عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكتبه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان، وكلاهما عالمان من علماء التابعين فلجأ إلى الشعبي، فقال الشعبي في روايته: «وقد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرا ليس كما ذكرا»، ثم قال: «فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما ما ذكر من أمرهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: فقالا: هات. قال: فقال: قال حذيفة رضي الله عنه ... فذكر الأثر.

هذه رواية يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي، وهي موجودة في تفسير ابن جرير طبعة شاكر (١٢/ ٤٥٢) برقم (١٤٦٨٥)، وفي البعث والنشور للبيهقي (ص: ١٠٥) برقم (١٠٢).



الله ﷻ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ ﴿٤٦﴾﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٤٧]، فيتعوذون بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيامهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله ﷻ نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون، قالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهناك يقول الله ﷻ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فكان الطمع دخلاً، قال: فقال ابن مسعود ؓ: «على أن العبد إذا عمل حسنة كُتِبَ له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تُكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلب وُحْدَانُهُ أَعْشَارُهُ»^(١).

وعن ابن عباس ؓ أنه قال: «"الأعراف": سور بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله ﷻ أن يُعافيهم، أنطلق بهم إلى نهر يقال له: "الحياة"، حافته قصب الذهب، مكلل بالؤلؤ، تراه المسك، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم، أُتِيَ بهم الرحمن فقال: تَمَنَّوْا مَا

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ط دار الحديث، قال المحقق: ضعيف، أبو بكر الهذلي متروك.

شْتُم! قال: فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيّتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعين مرة! فيدخلون الجنة، وفي نُحُورهم شامةٌ بيضاء يُعرفون بها، يُسمّون مساكين الجنة^(١). وذكر ابن كثير رحمه الله عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هُم آخِرُ مَنْ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ فَضْلِهِ بَيْنَ الْعِبَادِ، قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجْتُكُمْ حَسَنَاتِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي، فَأَرْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ»^(٢).

بصيرة: قِصَّةُ الَّذِينَ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ تَحَذَّرُ مِنَ التَّسَاهُلِ فِي الْأَعْمَالِ، فَقَدْ هَلَكَ مِنْ غَلَبِ وُحْدَانِهِ أَعْشَارُهُ، فَالْحَسَنَةُ بَعِشْرُ أَمْثَالِهَا، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، فَكَيْفَ تَغْلِبُ الْوُحْدَانُ الْعِشْرَاتِ!.. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِزْيِ.

فكيف تقبل أن تستوي حسناتك وسيئاتك في الميزان فضلاً عن الخسارة الكاملة مع أن فضل الله ﷻ مفتوح على مصاريع واسعة، وحسبك أن تشعر بأنك يمكن أن يغفر لك ما تقدّم من ذنبك في يوم مرّاتٍ عديدة، فاسمع هذه الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وَعَنْهُ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٣)، وَعَنْهُ أَيْضًا رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتْ

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٥٥)، ط: دار الحديث، قال المحقق: ضعيف، ابن حميد متروك، وابن وكيع ضعيف.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٠)، وقال: «وَهَذَا مَرْسَلٌ حَسَنٌ».

(٣) البخاري، رقم (٣٥، ٣٧، ٣٨).

المَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ^(۱)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمَلِكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ^(۲)».

وقس على ذلك.

وَلَى زَمَانِكَ وَانْقَضَى	فَاخْذَرْ مُفَاجَأَةَ الْقَضَا
قَدَّمَ لِنَفْسِكَ صَالِحًا	يُنْجِيكَ مِنْ حَرِّ اللَّطَى
فَلَرُبَّ سَجْدَةٍ خُلُوةٍ	تُنْجِي فَكُنْ مُتَعَرِّضًا
وَبِحَسَنَةٍ رَجَّحْتَ مِ-	زَانًا وَحُزْتَ بِهَا الرِّضَا ^(۳)

فإن قلت: كان ذلك هو القول الأول في تحديد هوية أصحاب الأعراف، فما أهم الأقوال

الأخرى؟

الجواب:

القول الثاني: قوم قتلوا في سبيل الله ﷻ، ولكنهم خرجوا إلى الجهاد مع عصيان آبائهم في الدنيا، وحقيقة هذا القول يرجع إلى الأول، فهم قوم غزوا في سبيل الله عصاةً لأبائهم، فقتلوا،

(۱) البخاري (۷۸۱).

(۲) مسلم (۶۹۴۱).

(۳) الأبيات للدكتور/ سعيد بن دجاج - ثبتته الله -.

فأعتقهم الله ﷻ من النار، بما حازوه من شرف الشهادة، وحُبسوا عن الجنة بما افتعلوه من معصية آبائهم، فهُم آخر من يدخل الجنة.

القول الثالث: هم قوم صالحون، فقهاء، علماء، كما قال مجاهد ﷺ، ولعل هذا القول هو الذي نقله الماتريدي ﷺ على أنهم أهل كرامة الله ﷻ، أكرمهم بذلك، يرفعهم على ذلك السُّور لينظروا إلى حكم الله ﷻ في الخلق وعدله فيهم، وينظرون إلى إحسان الله ﷻ فيمن يحسن إليه، وعدله فيمن يعاقبهم، وهذا القول أيضًا يعود إليه ما نُقِلَ عن الحسن ﷺ: هم أصحاب التعريف، يُعرِّفون أهل النار عدل الله ﷻ فيهم وحكمه، وأن ما حلَّ بهم من الشدائد وأنواع العذاب، إنما حلَّ بهم مما كان منهم في الدنيا من صدَّهم الناس عن سبيل الله ﷻ، واستكبارهم على الرسل ﷺ، يُعرِّفونهم أن ما نزل بهم إنما نزل بعدل منه، ويُعرِّفون أهل الجنة فضل الله ﷻ، وإحسانه إليهم أن ما نالوه إنما نالوه بفضل منه وإحسان^(١).

القول الرابع: هم الأنبياء ﷺ، وأشاد الماتريدي ﷺ بهذا القول، فقال: «والأشبه أن الأنبياء ﷺ يكونون على الأعراف يشهدون على الأمم؛ كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فوصفهم الله ﷻ هنا بالمعرفة لا بالشهادة، واجتمع لنا أن الشهداء من الأنبياء ﷺ لهم أوصاف يوم القيامة منها: التعريف للفريقين بسبب دخولهم الجنة أو النار»^(٢).

وهذا القول والذي سبقه يلفتان نظرنا بصورة قوية جدًا؛ لأنه يعني أن الله ﷻ وهب مكانة مميزة للأنبياء وللصلحاء ذوي المكانة العليا عند تقسيم فريقَي الجنة والنار، فيكون للأنبياء والصلحاء هذا المحلُّ المُميِّز الذي يشاهدون من خلاله الفريقين كحال الذين يشرفون على

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤ / ٤٣٢).

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤ / ٤٣١).

توزيع الجوائز، ويقرب هذا ما يسميه أهل الدنيا: الشخصيات ذات الأهمية الخاصة، أو كبار الشخصيات (VIP).

وبذا فم منطقة الأعراف هذه تبين لنا دور أصحابها، فهم قوم يعرفون الفريقين من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وعن إسماعيل بن عبد الرحمن السديّ الكبير أنه كان يقول: «إنما سميّ "الأعراف" أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس»^(١).

وقد يرِدُ على هذا القول أن أوّل من يُفتح له باب الجنة النبيّ ﷺ وأُمّتُهُ، والمظنون أن يكون الأنبياء ﷺ أوّل الداخلين الجنة، لكن لا يُستبعد أن يفتح النبيّ ﷺ الجنة ثم يكون على الأعراف.

وأجاب الرازي رحمه الله بذلك فأخبر أنه لا يُبعدُ أن يُقال: إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَنَّ دُخُولَهُمُ الْجَنَّةَ يَتَأَخَّرُ، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّهُ تَعَالَى مَيَّزَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، فكان بقاؤهم في الأعراف من باب التكرمة العظمى لهم، فهم متميزون حتى عن أهل الجنة، وكما يقول الرازي رحمه الله: «أَجْلَسَهُمْ عَلَى تِلْكَ الشُّرَفَاتِ الْعَالِيَةِ، وَالْأَمْكِنَةِ الْمَرْتَفَعَةِ لِيُشَاهِدُوا أَحْوَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالَ أَهْلِ النَّارِ، فَيَلْحَقَهُمُ السُّرُورُ الْعَظِيمُ بِمُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، ثُمَّ إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، فَحِينَئِذٍ يُنْقَلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَمْكِنَتِهِمُ الْعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَثَبَّتَ أَنَّ كَوْنَهُمْ غَيْرَ دَاخِلِينَ فِي الْجَنَّةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ كَمَالِ شَرَفِهِمْ وَعُلُوِّ دَرَجَتِهِمْ»^(٢).

وبذلك يتحد القول الرابع مع القول الثالث إلا أن الثالث يذكر أصحابه أن أهل الأعراف من الصالحين المختارين عموماً، والرابع يذكر أصحابه أنهم فقط الأنبياء ﷺ.

(١) تفسير الطبري (١٢ / ٤٥٠).

(٢) تفسير الرازي (١٤ / ٢٤٩).

وقد هبَّ علينا من غير أنفاس البشير النذير أن الله ﷻ يجعل منزلةً لقوم في الجنة في مكان يقال له: العُرف، وأن أهل الجنة يتراءون أهل العُرف، كما يتراءى أهل الدنيا الكوكب الدُرِّيَّ^(١).

القول الخامس: أهل الأعراف ملائكة، وليسوا ببني آدم، وذهب إلى هذا أبو مجلز لاحق بن حميد ﷺ، إذ قال: رجال من الملائكة، يعرفون الفريقين جميعاً بسيماهم: أهل النار وأهل الجنة، وهذا قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة.

فإن قلت: فما رأيك بهذا القول؟

الجواب: عندما وصف الله ﷻ أهل الأعراف قال: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، والملائكة لا يوصفون بالرجولة والأنوثة، لذا أبطل هذا الرأي الإمام الطبري ﷺ، بأن لا خبر عن رسول الله ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة، فإذا كان ذلك كذلك، وكان ذلك لا يدرك قياساً، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن "الرجال" اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق غيرهم، كان بيننا أن ما قاله أبو مجلز ﷺ من أنهم ملائكة، قول لا معنى له^(٢).

ولم يرتض القول بأنهم ملائكة محمد رشيد رضا ﷺ كذلك؛ إذ لو أريدَ هذا لعبرَ عنه بلفظٍ يَقْبَلُهُ كَأَن يَقُولَ: «عِبَادٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ»^(٣).

القول السادس: هم قوم نُصِبُوا في ذلك المكان يُترجمون بين أهل الجنة وأهل النار، يؤدُّون كلام بعضهم إلى بعض، ويوصلون مخاطبات بعض إلى بعض، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَنَادَى

(١) البخاري (٣٢٥٦).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٤٦٠، ٤٦١).

(٣) تفسير المنار (٨/٣٨٥).

أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴿الأعراف: ۵۰﴾، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ۴۴]، ونحوه^(۱).

ويظهر لي أن هذا القول ضعيف، ولا يوجد ما يدل على أنهم يترجمون بين الفريقين، بل يعلقون على الفريقين، ويتخاطبون معهم، ويظهر أن المخاطبات بين أهل الجنة والنار مباشرة دون تَرْجُمان، وأن لسان أهل المحشر يكون واحداً - والله أعلم - فإن من كمال نعيم أهل الجنة أَنْ يَطَّلَعُوا على أهل النار ويتكلموا معهم، ومن كمال شقاء أهل النار أَنْ يتكلموا مع أهل الجنة راجين نوالهم، فلا يجدون شيئاً.

وقد نظم الشاعر محمد المثل هذه الأقوال الستة في قوله:

إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ عَنْ ذَوِي الْأَعْرَافِ	مَنْ هُمْ؟ فَخُذْ مِنِّي الْجَوَابَ الشَّافِي
قَدْ أُورِدَتْ فِيهِمْ أَقَاوِيلُ بِهَا	حَقٌّ، وَضَعْفُ الْبَعْضِ لَيْسَ بِخَافِي
فَأَصْحُهَا: هُوَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ جِنْسِنَا	يَقْضِي لَهُمْ مَا شَاءَ ذُو الْأَلْطَافِ
أَوْ هُمْ غَزَاةٌ لِلْعِدَا مِنْ غَيْرِ إِذْ	نِ الْوَالِدِينَ صَنِيعُ عَاصٍ جَافِي
وَيُقَالُ: قَوْمٌ صَالِحُونَ لِيَنْظُرُوا	إِحْسَانَ ذِي الْإِحْسَانِ وَالْإِتْحَافِ
وَالْأَنْبِيَاءُ لِيَشْهَدُوا هُوَ رَابِعٌ	هُمْ أَهْلُ مَعْرِفَةٍ، ذُووْ إِنْصَافِ
وَبِخَامِسِ الْأَقْوَالِ قِيلَ: مَلَائِكُ	هُمْ يَعْرِفُونَ الْمُنْجَلِي وَالْخَافِي
وَبِسَادِسٍ: قَوْمٌ كِرَامٌ نُصِّبُوا	لِيُتَرْجَمُوا وَيُبَلَّغُوا بِهَتَافِ

(۱) تفسیر الماتريدي = تأويلات أهل السنة (۴ / ۴۳۲).

والذي نخلص إليه بعد سوق الأقوال الستة المذكورة، ونذكر به هو ما سبق ذكره في المزية الثالثة آنفاً أن أصحاب الأعراف فئتان: إحداهما: الفئة المكْرَمَة المنعمَة الشاهدة على فريقَي الجنة والنار، وهم الأنبياء وأكابر الصالحين، والثانية: الفئة التي تكون في مكان خاصٍ آخر في الأعراف ممن استوت حسناتهم وسيئاتهم.

المزية الرابعة: أهم مزايا أهل الأعراف: أنهم يعرفون كلاً من فريقَي الجنة والنار بسيماهم ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]:

ولعلك تسأل: ما معنى ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾؟ وما تفاصيل سيما أهل الجنة وأهل النار؟
الجواب: "السيما"^(١): العلامة الدالة على الشيء، في كلام العرب، وأصله من "السَّمة"، وفيها لغات ثلاث: "سيما" مقصورة، و"سيماء"، ممدودة، و"سيماء"، بزيادة ياء أخرى بعد الميم فيها، ومدها، على مثال "كبرياء"، كما قال الشاعر^(٢):

عُلاَمٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ إِذْ رَمَى لَهُ سِيَمَاءً لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ
 فالمؤمنون يعرفون في الدنيا بظهور علامات الإيمان والطاعات عليهم، ومن هذه العلامات ما جاء في حديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]»^(٣).

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١١٨/٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣٨)، تاج العروس (٤٣١/٣٢).

(٢) البيت لابن عطاء الفزاري، واختلف في اسمه، فقليل: أسيد، وقيل قيس. ويروى البيت: (عُلاَمٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يافِعًا)، ويروى: (بِالْخَيْرِ يافِعًا)، ويروى: (بِالْحُسْنِ مُقْبِلًا).

ينظر: سمط اللالي شرح أمالي القالي (٥٤٣/١). شرح ديوان الحماسة (١١١١/٤/٣)، والمخصص (١٤/٥).

وجاء البيت في تفسير الطبري كما ذكرناه في المتن. (٤٦٤/١٢).

(٣) أحمد (١١٦٥١)، والحاكم (٧٧٠) وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: «فيه دراج كثير المناكير». مختصر تلخيص الذهبي (١/١٩٧).

والفجار والكفار يُعرفون في الدنيا أيضًا بظهور علامات الكفر والفسق عليهم، ومن العجيب أنهم يفعلون ذلك ثم يقولون لا تكفرونا، ونحن نسألهم: إذا كنتم تفعلون الكفر، وتقتربون الفسق، فماذا تريدون أن يسمي الناس أفعالكم؟ وإن صنعتم الكفر، وشجعتم عليه، وأصررتم على ألا يصف الناس أفعالكم بوصفها فإن أهل الأعراف يوم القيامة يعرفون المؤمنين بظهور التكريم، وبُدُو التعظيم لهم في المشهد، كما يرون وجوههم التي ابيضت وصارت كأجمل ما تكون الوجوه النضرة المسفرة الضاحكة المستبشرة، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وكَوْن كُلِّ واحدٍ منهم أَعْرَ مُحَجَّلًا مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، ويعرف أهل الأعراف أهل النار بوجوههم المسودة التي عليها غبرة، ترهقها قتره، ويرون عيونهم زرقًا كالحية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وربما كان من هذه السيماء الوسم الذي على أنوفهم التي كانوا يشمخون بها في الدنيا، كالذي جاء في سورة القلم: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

المزية الخامسة: يُسَلِّمُ أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ ٦١:

قال الله ﷻ: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ٦١. ما المنظر الذي تقدّمه لنا هذه الكلمات في الآية؟

الجواب: أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم، فهم ينادون أهل الجنة بشيء، وينادون أهل النار بشيء، وفي الآية ﴿أَنْ﴾ تسمى تفسيرية، فإذا رأوا أهل الجنة نادوهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤٧)، وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض الوجوه، فذلك قوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ^(٤٨) أي: حلت عليهم أمانة الله من عقابه وأليم عذابه» ^(١).

إنها سيماء المؤمنين تظهر على الوجوه المفلحة، وسيما الظالمين تسود الوجوه المقبحة، فعلى وجه الطائع نور طاعته، وعلى وجه العاصي ظلام مخالفته، وعند الموت يُتلقى هذا بالبشارة، ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يفتش هذا مهاد الفلاح، ويلقى ذاك على حسك ^(٢) القباح.

يا مَنْ إِذَا صَلَّى خَفَّفَ، وَإِذَا كَالَ طَفَّفَ، وَإِذَا دُعِيَ تَخَلَّفَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ تَبَّ سَوَّفَ، مَا يُؤْتَرُ عَنْدهُ قَوْلٌ مِنْ حَذَرٍ وَخَوْفٍ، جَدَّ الصَّالِحُونَ وَأَنْتَ قَاعِدٌ، وَقَرَّبُوا وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ، كَمْ بَيْنَ رَاغِبٍ وَزَاهِدٍ، كَمْ بَيْنَ سَاهِرٍ وَرَاقِدٍ، شَغَلَ الصَّالِحِينَ الْخَوْفُ مِنْ حِسَابِ الْآخِرَةِ وَحُبُّ مَوْلَاهُمْ عَنْ لَذَاتِ دُنْيَاهُمْ... كَيْفَ يَحْسُنُ الْفُتُورُ وَأَوْقَاتُ السَّلَامَةِ تُسْرِقُ؟ دُمُوعُهُمْ فِي أَنْهَارِ الْخُدُودِ تَجْرِي وَتَدْفُقُ، يَشْتَاقُونَ إِلَى الْحَبِيبِ وَالْحَبِيبُ إِلَيْهِمْ أَشَوْقٌ، يَا حُسْنَهُمْ فِي الدُّجَى وَنُورُهُمْ قَدْ أَشْرَقَ، فَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ دَخَلُوا سُورًا مِنَ التَّقَى بَعْدَ خَنْدَقٍ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلِلصِّدْقِ رَوْنَقٌ، اسْلُكْ طَرِيقَهُمْ وَسَلِّ مَعِينَهُمْ تُوفِّقْ.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي بِقَضَائِهِ
حَزْنَا لِقَوْمٍ أَذْهَبُوا أَوْقَاتَهُمْ
مُطِرَ السَّحَابِ وَأَخْصَبَ الْأَبِّ
لَعِبًا وَأَشْهَدُ أَنَّهُمْ تَبُّوا

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤٦٤).

(٢) الحسك، مُحَرَّكَةٌ: نَبَاتٌ لَهُ ثَمَرَةٌ خَشِيشَةٌ تَعْلَقُ ثَمَرَتُهُ بِصُوفِ الْغَنَمِ وَوَبَرِ الْإِبِلِ فِي مَرَاتِعِهَا. تاج العروس (٢٧/ ١١١).

وَصَبَوْا إِلَى الدُّنْيَا فَكُلُّهُمْ بِهَا كَلِفٌ يُغَرُّ بِحُبِّهَا صَبٌ^(١)

المزية السادسة: يتأخّر دخول أهل الأعراف الجنة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمْ عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾^(٤٦):

فإن سألت: ما معنى قوله تعالى ذِكْرُه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾^(٤٦)؟

الجواب: لهذه الجملة ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: أن أهل الأعراف مدحوا أهل الجنة بمرتبة الرجاء في الدنيا، فقالوا: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾^(٤٦) أي: لم يدخل أهل الجنة الجنة، ولكنهم كانوا يطمعون في دخولها طمعاً في رحمة الله ﷻ، وقد رأوا ملامح الفوز في مشاهد القيامة، فأعطوا كتبهم بأيمانهم، وأعطوا نوراً يمشون به، وكانوا تحت ظلّ عرش الرحمن، وثقلت موازينهم.

فعندما كانوا في الدنيا كانوا يطمعون في دخولها، وهنا تأتي مرتبة الرجاء، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَلَّهْدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٧٨) [البقرة: ٢١٨].

هذه الجملة تكملة كلام أهل الأعراف، إذ أكملوا خطابهم لأهل الجنة، فوصفوا أهل الجنة، فقالوا لهم قبل أن يدخلوا الجنة: ﴿سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾، وبعد أن سلّم أهل الأعراف عليهم التفتوا، وتحديثوا عنهم، فقالوا: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾^(٤٦) [الأعراف: ٤٦].

وتعال نقرب معنى المسألة: المعلق الذي يقدّم حفل التكريم ينادي على الفائزين ليتقدّموا للتكريم، ثم يخاطبهم مهتئاً إليّاهم بالفوز، ثم يلتفت إلى الجمهور أو إلى الحضور أو إلى من يسمعه ليبين مزايا المكرّمين الفائزين، فيقول: هؤلاء استحقوا الفوز؛ لأنهم اتصفوا بكذا،

(١) التبصرة لابن الجوزي (٢ / ٥١).

وكذا، فهنا التفت أصحاب الأعراف بعد تهنئة أهل الجنة، فقالوا مُبَيَّنِّينَ سبب استحقاق أهل الجنة لدخولها: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦).

المعنى الثاني: مدحهم بمرتبة الخوف أي: لم يدخل أهل الجنة الجنة وهم يطمعون في دخولها عندما كانوا في الدنيا، والكلام هنا كله متصل دون وقف: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) [الأعراف: ٤٦]، فالمقصود أنهم دخلوها، لكنهم لم يدخلوها وهم يطمعون في ذلك، بل كانوا قلقين من ألا يدخلوها عندما كانوا في الدنيا، وهذا أورثهم مرتبة الخوف الدائم، فكانوا مشفقين خائفين في الدنيا، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) [الطور: ٢٦]، فأوردهم هذا الخوف وذلك الإشفاق الجنة، وهذا الكلام من أهل الأعراف، يعني أن أهل الجنة قد دخلوها، لكنهم في الدنيا لم يكونوا يطمعون في دخولها خوفاً من الله ﷻ ألا يكونوا أهلاً لذلك.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَثَارِ أَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ فِي الْمَوْقِفِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، لَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، لَخِفْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ، وَلَوْ نَادَى مُنَادٍ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ النَّارَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ»^(١). أي: ينبغي أن يجمع الموقف بين الخوف والرجاء.

المعنى الثالث: عن السُّدِّيِّ قَالَ: أهل الأعراف يعرفون الناس، فإذا مرُّوا عليهم بزمرة يُذهب بها إلى الجنة قالوا: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، وهنا نقف في التلاوة، ثم ينتقل الحديث إلى كلام الله ﷻ عن أهل الأعراف، فقال: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) أي أهل الأعراف لم

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٥٣).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٦٤ ٤٦٥).

يدخلوا الجنة، وهم يطعمون أن يدخلوها، وهذا هو السبب الذي جعل بعض الناس يقولون أهل الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

ولذا قال الزمخشري رحمته الله: «فإن قلت: ما محلُّ قوله لَا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾؟ قلت: لا محلُّ له؛ لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لَا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾، يعنى: حالهم أنَّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها؛ لكونهم محبوسين وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾: لم يأسوا. وتلا الحسن رحمته الله: لَا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدونها بهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أما أصحاب الأعراف، فإنَّ النور كان في أيديهم، فانتزع من أيديهم، يقول الله تعالى: لَا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾^(١)، قال: في دخولها. قال ابن عباس رضي الله عنه: فأدخل الله تعالى أصحاب الأعراف الجنة^(٢).

قال الرازي رحمته الله: «وتَحْقِيقُ الْكَلَامِ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ هُمُ أَشْرَافُ أَهْلِ الْقِيَامَةِ، فَعِنْدَ وُقُوفِ أَهْلِ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوْقِفِ يُجْلِسُ اللَّهُ تعالى أَهْلَ الْأَعْرَافِ فِي الْأَعْرَافِ، وَهِيَ الْمَوَاضِعُ الْعَالِيَةُ الشَّرِيفَةُ، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَقَلَهُمْ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَهَمُ أَبَدًا لَا يَجْلِسُونَ إِلَّا فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ.

قد يُعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بَأَنَّ اللَّهَ تعالى وَصَفَ أَهْلَ الْأَعْرَافِ بِقَوْلِهِ: لَا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ [الأعراف: ٤٦]، فكيف يسبقهم أهل الجنة، وهم ما زالوا يطعمون في دخولها؟

(١) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٥٥/٥) وقال إسلام منصور: «ضعيف؛ أبو بكر الهذلي متروك».

(٢) الكشف (١٠٧/٢)، وقال إسلام منصور في الحكم على الأثر الوارد عن ابن عباس رضي الله عنه: «ضعيف؛ الضحاك عن ابن عباس

رضي الله عنه مرسل، وجوبير بن سعيد الأزدي متروك». تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٣٦٣/٥).

أجاب الرازي رحمه الله عن هذا الاعتراض فأشار إلى أن الطمع يدل على كمال كرامتهم؛ لأنهم يطمحون إلى مكانة أعلى، ويتنعمون بانتظارهم رحمة ربهم ﷻ، ولا يجزمون بمكائنتهم، وذهب الرازي رحمه الله إلى أن قوله: ﴿وَهُمْ يَظْمَعُونَ﴾ يعني: اليقين، أي يطمعون في أن يتيقنوا أنهم قد حازوا تلك الدرجة دون تردد، أو وصلوا فيها إلى حق اليقين، ولكن هذا المعنى يستقيم مع كون أصحاب الأعراف ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وهاهو إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله ﷻ خليلاً يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا هاهنا، فكلمة ﴿يَظْمَعُونَ﴾ لا تدل على أن مكائنتهم دُونَ^(١). وأما إن فسرنا أصحاب الأعراف بأنهم الذين يكونون في الدَّرَجَةِ النَّازِلَةِ من أهل النِّجَاةِ قُلْنَا: إِنَّهُ تَعَالَى يُجْلِسُهُمْ فِي الْأَعْرَافِ وَهُمْ يَظْمَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ وَإِحْسَانِهِ أَنْ يُنْقِلَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ إِلَى الْجَنَّةِ^(٢).

فهم ﴿يَظْمَعُونَ﴾ في دُخُولِهَا، وَعَبَّرَ بِالطَّمَعِ؛ لِأَنَّهُ لَا سَبَبَ لِلْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ أَعْمَالٌ، فَضْلاً عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا أَعْمَالَ لَهُمْ^(٣).

ثم تنتقل إلى قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: هنا تأتي:

(١) تفسير الرازي (٢٤٩/١٤).

(٢) تفسير الرازي (٢٥٠/١٤، ٢٥١).

(٣) نظم الدرر (٤٠٦/٧).

المزية السابعة: يشهد أهل الأعراف على الظلم الذي استحق أصحاب النار النار بسببه، ويُبَصِّرُنَا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تَلَقَّاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧)، فهذا دعاء يتضمَّن الشهادة على استحقاق أصحاب النار لدخولها بسبب ظلمهم:

فإن قلت: ما معنى الصَّرْف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ﴾؟

الجواب: ذكر ابن فارس أن (صَرَفَ) مُعْظَمُ بَابِهِ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ صَرَفْتُ الْقَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا، وَالصَّرِيفُ: اللَّبَنُ سَاعَةً يُحْلَبُ وَيُنْصَرَفُ بِهِ. وَالصَّرْفُ فِي الْقُرْآنِ: التَّوْبَةُ، لِأَنَّهُ يُرْجَعُ بِهِ عَنْ رُبَّةِ الْمُذْنِبِينَ، قَالَ الْخَلِيلُ: الصَّرْفُ: فَضْلُ الدَّرْهِمِ عَلَى الدَّرْهِمِ فِي الْقِيَمَةِ. وَمَعْنَى الصَّرْفِ عِنْدَنَا أَنَّهُ شَيْءٌ صُرِفَ إِلَى شَيْءٍ، كَأَنَّ الدِّينَارَ صُرِفَ إِلَى الدَّرَاهِمِ، أَيْ: رُجِعَ إِلَيْهَا، إِذَا أَخَذْتَ بَدَلَهُ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: صَرَفُ الْكَلَامِ: تَرْيِينُهُ وَالزِّيَادَةُ فِيهِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا زُيِّنَ صَرَفَ الْأَسْمَاعَ إِلَى اسْتِمَاعِهِ^(١).

ولكنك قد تسأل: لماذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ﴾ ولم يقل: صرفوا أبصارهم؟

الجواب: قال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ﴾: الصَّرْفُ: ترك المكان، وتحويل الحال، والمقصود هنا أن أبصارهم حُوِّلَتْ إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ الْمَذْذُومَةِ، فَبَنَاهُ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله لبيان أربعة معان:

الأول: لبيان أنهم غير راغبين في أن ينظروا إلى الجهة الأخرى، فكأن هناك قوة صرفتهم

لينظروا.

الثاني: أنهم صرفوا ليشهدوا على أهل النار بما حدث لهم.

الثالث: أنهم صرفوا لينظروا مصير الدار المقابلة للجنة.

(١) نظم الدرر (٧/٤٠٦).

الرابع: بناه للمفعول؛ لأن المُخِيفَ لهم الصَّرْفُ، لا كونه من معيّن^(۱).

وفي كلّ الأحوال فهم غير راغبين في النظر لولا أنهم ألزموا بأن يفعلوا ذلك إما ليشهدوا عليهم، وإما ليشاهدوهم لحكمة إلهية، فيتحاملون على أنفسهم لرؤية تلك المناظر السيئة المكروهة، كما أن الإنسان في الدنيا لا يحب رؤية ما يؤذيه.

وقد تساءل: ما معنى كلمة ﴿تَلْقَاءَ﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ

النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؟ وما الذي يبصّرنا به هذا الدعاء؟

الجواب: التَّلْقَاءُ: أي ناحية الجهة التي يقابلونهم، أي كأنهم يلقونهم فيها^(۲)، وهم لا يلقونهم إلا بأبصارهم، يتجه أهل الأعراف إلى أصحاب الجنة، فيقولون لهم ما سبق، ثم يصرفون أبصارهم تجاه أهل النار فيرون تشويه الله ﷻ لهم، وعذابهم البائس، عندها ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

وهذا الدعاء تضمّن:

أولاً: الشهادة على أهل النار باستحقاقهم ذلك المصير؛ لسبب جامع لكلّ شرورهم، وهو الظلم.

ثانياً: التضرّع أن لا يجعلهم الله ﷻ معهم وليس فيهم، وهذا يعني أنهم ليسوا منهم.

ثالثاً: يحثنا الدعاء على عدم التقليد للأقوياء، أو الأثرياء، أو الكبراء، بل البحث عن الحقّ في أيّ مكان وُجد، والدعاء بأن يجعلنا الله ﷻ من أصحابه، وأن يصرفنا عن أفعال الظالمين

(۱) تفسير الرازي (۲۵۱/ ۱۴).

(۲) نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ ثَعْلَبٍ عَنِ الْكُوفِيِّينَ، وَالْمُبَرِّدِ عَنِ الْبَصْرِيِّينَ قَالَا: لَمْ يَأْتِ مِنَ الْمَصَادِرِ عَلَى تَفْعَالٍ إِلَّا حُرْفَانِ: (تَبَيَّنَ)، وَ(تَلْقَاءَ)، فَإِذَا تَرَكْتَ هَذَيْنِ اسْتَوَى لَكَ الْقِيَاسُ، فَقُلْتَ فِي كُلِّ مَصْدَرٍ: تَفْعَالٌ بَفَتْحِ التَّاءِ، مِثْلُ: تَسْيَارٌ، وَتَهْمَامٌ، وَقُلْتَ فِي كُلِّ اسْمٍ: تَفْعَالٌ بِكَسْرِهَا، مِثْلُ: تَقْصَارٌ، وَتُمَثَّالٌ. التفسير البسيط (۱۷۱/ ۱۳).

ومصيرهم، بغض النظر عن جنسهم وجنسياتهم، ومالهم، وغناهم وفقيرهم، وقوتهم وضعفهم.

فأتوا بصيغة الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ في وصف أصحاب النار لتدلّك هذه الصيغة على رسوخهم في الظلم، فلم يقولوا: لا تجعلنا مع الذين ظلموا، فالوصف باسم الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ ينبئ عن تمرّسهم في الظلم ورسوخهم فيه، وليوافق ذلك وصف الله ﷻ أصحاب النار سابقاً بقوله: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقد يكون الذين يراهم أهل الأعراف زمر أهل النار الذين يُسحبون على وجوههم إلى سقر، وقد يكونون من الذين استقرّوا في النار، فيرون وجوههم مسوّدة، وأعينهم مزرقة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فنظرة أهل الأعراف إلى أهل النار، ثم قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كل هذا يوقظنا في الدنيا لكي نُكثر من الدعاء، ونردّد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، حتى لا تكون معهم في الآخرة، فكيف بمن يعقد معهم التحالف ويجعل الشراكة معهم استراتيجية؟! ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾﴾ ما المنظر الجديد الذي تُبصّرنا به هاتان الآيتان؟

وما المناسبة والاتصال بينهما وبين ما قبلهما؟

الجواب: هنا تأتي:



المزية الثامنة: توليهم مسؤولية نداء الإكرام والإيلام، إذ ينادي أصحاب الأعراف نداءً يتضمن ثلاثة إعلانات: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ (٤٨):

ويسجل الله ﷻ هذه الوظيفة الندائية الشهادية لأصحاب الأعراف، فيقول الله ﷻ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا﴾ (٤٨) أي من أهل النار، واستغنى عن ذكر أهل النار؛ لأنه من الواضح أنهم يكلمون أناساً من أهل النار، بناءً على الكلام بعد ذلك.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ (٤٨) يخبرنا الله جل ثناؤه أن أصحاب الأعراف يخاطبون قومًا من أهل النار.. لماذا خصصوا هؤلاء بالنداء؟

الجواب: لأنهم عرفوهم بسيماهم أي: بعلاماتهم التي كانت تميزهم في الدنيا، أو بعلاماتهم التي ميزتهم في الآخرة بناءً على أفعالهم في الدنيا، والسؤال: هل يتميز أهل النار بعلامات محدّدة بناءً على أفعالهم في الدنيا؟

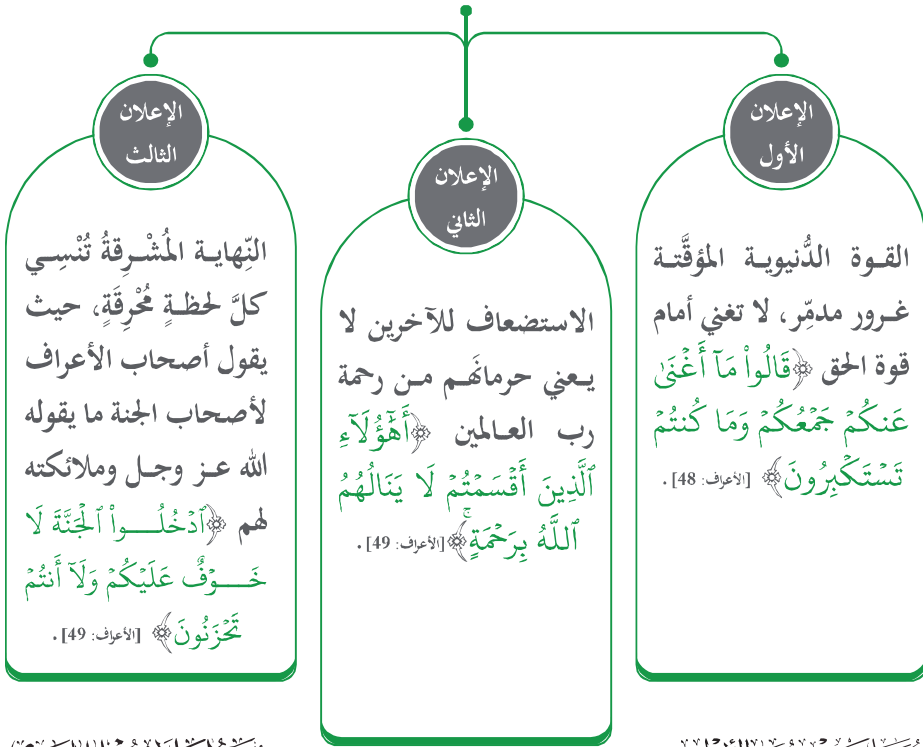
الجواب: نعم، فمن أبرز الذين يتميزون بصفاتهم في النار بناءً على صفاتهم في الدنيا المستكبرون، إذ قال فيهم النبي ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالُ الذَّرِّ، فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنَ فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَاةَ أَهْلِ النَّارِ»^(١)، فبناءً على استكبارهم في الدنيا ظهر لهم عذاب مميز في الآخرة.

(١) أحمد (٦٦٧٧)، وحسن الأرنؤوط إسناده، وكذا الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠)، وقال المناوي في كشف المناهج (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠): والذر: جمع ذرة وهي النملة الصغيرة، ويحتمل: أن يكون المعنى أن صورتهم صورة الإنسان، وجُثَّتْهُمْ جثة الذر في الصغر، ويحتمل: أن يكون ﷺ شبه المتكبرين في ذلهم وحقارتهم يوم القيامة بالذر في صغر مقدارهم وحقارتهم وإن كانت أجسادهم كبيرة. قوله: "يدعى بولس": هو فاعل من الإبلاس، بمعنى اليأس، ولعل هذا السجن إنما يسمى بذلك؛ لأن الداخل فيه قد أيس من الخلاص. قوله: "نار الأنيار" الأنيار: جمع نار، ك(ناب وأنياب)، كأن هذه النار لفرط إحراقها وشدة حرها تفعل بسائر النيران ما تفعل النار بغيرها.

وخصَّ الرجال؛ لأن الصفة المميّزة لهم هنا وهي الاستكبار أظهر في الرجال من وجودها في النساء، وهذا لا يعني أنه لا يوجد فيهم نساء، لكن صفة الاستكبار تظهر بناءً على السطوة والسلطة والقوة والثروة وحب التروّس، وهذه تكون أغلب في الرجال من النساء.

الإعلانات التي تضمنها قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: 48]



عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

مُضْطَنِّسِينَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ (٢)

وقال بعض أهل اللغة: النار تجمع على أنبار بالياء فرقاً بين النار والنور، فإن النور يجمع على أنوار بالواو، وطينة الخبال: عصارة أهل النار كما جاء في الحديث.



فلما قال الله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، لا بد أن يأتي

السؤال: ماذا قالوا لهم عندما نادوهم؟

الجواب: قالوا لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، وهذا يتضمن

ثلاثة إعلانات:

الإعلان الأول: القوة الدنيوية المؤقتة غرور مدمر، لا تغني أمام قوة الحق: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فالجمع الدنيوي بكل أشكاله، والاستكبار بكل مظاهره لا يغنيان شيئاً أمام عدالة الله ﷻ وسطوته يوم القيامة، وهم يذكرون بأن سبب غرور المجرمين: جمع الثروات، والأتباع والأحلاف والأصدقاء، والاستكبار عن اتباع الحق.

فنادوهم نداءً توبيخ وتقرع وتنديم وتبكيث وإنكار وتحسير، فأخبروهم أنهم اتصفوا بصفتين في الدنيا:

الصفة الأولى: القدرة على الجمع، وبَصَرْنَا بهذه الصفة قول أصحاب الأعراف: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم جَمْعُكُمْ﴾.

لاحظ كلمة ﴿جَمْعُكُمْ﴾: فهي تصوّر بوضوح مقدار ذكاء هؤلاء الرجال، وحركتهم النشطة في الدنيا، إذ استطاعوا أن يكون عندهم جمعٌ من أنواع شتى في الدنيا، مثل جمع الأموال، وجمع القوّات، وجمع الوظائف، وجمع المعلومات، وجمع وسائل النفوذ والتأثير والإعلام.. فهم كانوا يجمعون كلّ ذلك، ولا يبالون: هل يجمعونه من حلال أم من حرام! لكنهم أصحاب قدرة عظيمة على الجمع.

الصفة الثانية: الاستكبار، وهو طلب الكبر في الحجم والكبر في المنزلة، إذ بَصَرْنَا الله ﷻ بهذه الصفة في قول أصحاب الأعراف: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تطلبون أن تضعوا

أنفسكم في محلٍّ أكبر من حجمكم، فتتعاظمون بما لا يحلُّ لكم، كأن تحكّموا في عباد الله وفي أرض الله بما لم يأمر به الله ﷻ، ومعنى ذلك أنكم تنازعون الله ﷻ في أمره، ولذلك وصف الله ﷻ نفسه في هذه السُّورة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والمستكبر يمنع أمر الله ﷻ، وذلك الذي فعله إبليس تمامًا عندما نازع الله ﷻ في أمره: ﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وهنا تلاحظ ارتباط آيات السُّورة، فإذا أضفت إلى ذلك آخر آية في السُّورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

هنا تشعر بأن السُّورة تركّز تركيزًا عظيمًا على هذه الصفة التي لا تليق إلا بالخالق: "التكبر"، فالمتكبر هو الله ﷻ، وليس مخلوقاته التي تظلُّ تحتاج إليه على مدى الأنفاس، فهي صفة مدح في حقِّ الخالق لا في حقِّ المخلوق.

بصيرة: هذه السُّورة تعالج عددًا من القضايا الهامة الخطيرة التي تؤدّي إلى خسارة الأفراد وإلى دمار المجتمعات، ومن أهمّ هذه الصفات الغفلة التي يسببها الجَمْع والاستكبار الذي تكون نهايته أعظم الخزي والخسار.

فعرّف هؤلاء بأنهم أصحاب ثروات وقوات وجموع وطاقات، والدليل أن أصحاب الأعراف قالوا لهم في البداية: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، وهم محتقرون لغيرهم، وقالوا لهم: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، والاستكبار ينبع من الاحتقار للآخرين، ومن العصبية للذات، وينبع من نظر الإنسان للطاقات والقوات والثروات، كما قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وينسى أصله وأنه من بني آدم، وينسى أنه عبدٌ لله ﷻ.

وهنا ربما تقول: يقول أهل الأعراف لهؤلاء المستكبرين من أهل النار: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، أي: لم يُفدكم أيُّ شيء ما كنتم تجمعون من الأموال والعدَد في الدنيا، وتستكثرون من الأتباع والعدَد، وتباهون به من القوات البشريَّة، والثروات الاستثمارية المسروقة، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ولم يُفدكم شيئاً تكبركم في الدنيا، أي: ظهوركم بمظهر الكبار، وطلبكم لتكونوا كباراً فوق مقام بقية الخلق.

فإن قلت: ما معنى كلمة ﴿مَا﴾ في قولهم: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؟ وما قوتها التصويرية هنا؟

الجواب: ﴿مَا﴾ كلمة متعدِّدة المعاني فهي -كما قال ابن هشام رحمه الله^(١)-: تأتي على وجهين: اسمية، وحرفية، وكلُّ منهما ثلاثة أقسام، وهي هنا تحتل موقفين مُتَوَقِّعين في مثل ذلك الحدث:

الموقف الأول: السؤال الاستنكاري التنديمي التوبيخي عندما نجعل ﴿مَا﴾ للسؤال، أي هل أغنى عنكم جمعكم للثروات المالية والإنسانية شيئاً لحمايتكم من النار؟ هل أغنى عنكم جمعكم للقوات البشريَّة التابعة شيئاً يحميكم من النار؟ هل أغنت عنكم مليشياتكم وجيوشكم؟ هل أغنى عنكم جمعكم للخدم والحشم، والقصور والأراضي، والعقارات شيئاً يحميكم من النار؟ هل أغنى عنكم تكاثركم في الأتباع والثروات والأموال؟ إنهم بهذه الأسئلة يوبِّخونهم، ويقرِّعونهم، ويجعلونهم في موقف الندم، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عن أحد هؤلاء الخاسرين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨].

(١) مغني اللبيب (١/ ٣٢٧).

الموقف الثاني: النفي، عندما نجعل ﴿مَا﴾ للنفي، وكان هذا المعنى يكون جوابًا عن الأسئلة السابقة في الموقف الأول، فإيهام ﴿مَا﴾ أي: عدم وضوحها جعلنا نشعر بالمعنيين معًا، ونشعر أيضًا بتتابع المعنيين:

فبدأ أصحاب الأعراف بسؤال أهل النار: هل أغنى عنكم جمعكم واستكباركم؟ ثم أجاب أصحاب الأعراف عن السؤال بأنفسهم، فقالوا: لم يغن عنكم جمعكم واستكباركم، وبناءً على هذا النفي تعال ننظر في قوله: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) لنجد فيها ﴿مَا﴾ مرتين:

ف﴿مَا﴾ الأولى نافية، ومعنى ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾: ما أجزى، مَصْدَرُهُ الْغِنَاءُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ وبِالْمَدِّ، و﴿مَا﴾ الثانية مَصْدَرِيَّةٌ^(١)، فيكون المعنى: لم يغن، ولم يجز، ولم ينفعكم جمعكم ولا استكباركم الذي كان في الدنيا شيئًا، وكأنهم يقولون لهم بعد ذلك:

نعم.. جمعتكم المال، وحشدتم الأتباع والحرس والرجال.. فلم يغن عنكم جمعكم للعتاد والمال، ولا نفعكم شيئًا ما حشدتم من حرس ورجال، فهي «لَمْ تَمْنَعْ عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَلَا أَفَادَتْكُمْ شَيْئًا مِنَ الثَّوَابِ».

تعال انظر إلى مثالٍ لبعض من يُعرفون بسيماهم يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِهِ أَزْرٌ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ،

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٤٦).

فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ»^(١). أي: مسح الله ﷻ أباه ضَبْعًا متلطحًا برجيعه. اللهم عافنا واعف عنا.

الإعلان الثاني: الاستضعاف للآخرين لا يعني حرمانهم من رحمة رب العالمين: ﴿أَهْوُلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾:

أي: أهؤلاء المستضعفون هم الذين أقسمتم في الدنيا أيها المستكبرون أن الله ﷻ لا يعطيهم رحمته ولا يُنيلهم عطاءه؟! هاهو قد أنالهم إيّاها.

﴿أَهْوُلَاءَ﴾: أخبرتنا هذه الكلمة بأن أصحاب الأعراف يرون أصحاب الجنة ويشيرون لهم في الوقت الذي يخاطبون فيه أهل النار، ويظهر من الكلمة أن أهل النار أيضًا يرون أهل الأعراف من جهة، ويرون أهل الجنة من جهة أخرى، حيث تزداد حسراتهم، وهم يقارنون مكانهم بمكان أهل الأعراف وأهل الجنة، ولماذا قَرَرْنَا أن كلمة ﴿هَوُلَاءَ﴾ بَصَّرْنَا بذلك كله؟

الجواب: لأن الأصل في اسم الإشارة ﴿هَوُلَاءَ﴾ أن يشار به إلى قريب ظاهر، وقد يشار به إلى غائب عن الحسِّ بقرينة، وبذا تبصّرنا هذه الكلمة بأن الجميع -أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف- متقاربون في الرؤية، وإن كانوا متباعدين في المكان. ويبصّرنا قول أصحاب الأعراف للمستكبرين من أهل النار: ﴿أَهْوُلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾^(١٩) أن من صفات المستكبرين في الدنيا أن يحلفوا في الدنيا بما يحلفون به سواء حلفوا بالله ﷻ أو بآلهتهم المفتراة على أن الصالحين لن يجدوا رحمة من الله ﷻ، وهذا

(١) البخاري (٣٣٥٠)، (فترة: سواد الدخان، و(غبرة: غبار، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، ولعل المراد هنا ما يغشى الوجه من شدة الكرب، وما يعلوه من ظلمة الكفر. (الأبعد): أي من رحمة الله تعالى. (بذيخ) الذبيح: ذكر الضيع الكثير الشعر، أرى أباه على غير هيئته ومنظره ليسرع إلى التبرؤ منه. (متلطح): متلوث بالدم ونحوه.

الحَلِيفَ قائم على أساس أنهم يرون ضعف الصالحين وفقرهم، وشدة ما يتعرضون له من الابتلاء في الدنيا، فيظن المستكبرون أن الصالحين كما لم يصلهم الفرج في الدنيا، فلن يأتيهم خيرٌ بعد ذلك.. ولكن المفاجأة أن هؤلاء المؤمنين المستضعفين سيكونون أصحاب السعادة الكاملة الدائمة في الآخرة.

يُذَكِّرُ أصحابُ الأعراف هؤلاء المستكبرين كيف كانوا يسخرون من المؤمنين الصالحين، وهم يرونهم مستضعفين، فيقسمون: أن الله لا ينالهم برحمة مهما قلّت، وبَصَّرْنَا بِذَلِكَ كلمة ﴿رَحْمَةً﴾ إذ جاءت مُنْكَرَةً، فالآن وضح الأمر، وهاهم المسلمون ينالون أعظم الرحمات وهي الجنة، ويرجع المستكبرون والمجرمون بخيبتهم، وخسارتهم... ماذا سيقول إبليس، وقيصر، وكسرى، وأبو جهل، وابنُ أَبِي ابنِ سَلُول، وكلُّ طواغيت العصور، ومجرمي الدهور؟

وقد تصوّرَ العشماوي -ثبته الله- الموقف يوم القيامة ورؤية الناس لمن عَلِمَ أنهم من أهل النار فقال:

وَمَضَيْتُ أَقْرَأُ فِي الْوُجُوهِ حِكَايَةً	إِجْمَالُهَا عِنْدَ الذِّكْرِ مُفَصَّلٌ
وَرَأَيْتُ مَا لَا كُنْتُ أَحْلَمُ أَنْ أَرَى	حَوْلِي وَقَدْ كُشِفَ السَّتَارُ الْمُسْدَلُ
هَذَا هُوَ النَّمْرُودُ يَنْدُبُ حَظَّهُ	وَالدَّمَعُ مِنْ هَوْلِ الْمَصِيبَةِ يَهْطُلُ
وَهَنَّاكَ فَرَعُونَ الْمُؤَلَّلَهُ نَفْسَهُ	يَسْعَى بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَيُوَلُّوْهُ
وَهَنَّاكَ كَسْرَى تَاهَ عَنْ إِيَوَانِهِ	مُتَرَنَّحٌ فِي سَنِيرِهِ مَتَمَلِّمٌ
وَهَنَّاكَ قَيْصَرُ نَفْسَهُ مَكْسُورَةٌ	وَبَقْلِيهِ مَمَّا يَعَانِي مِنْ جَلٍّ
وَهَنَّا أَبُو جَهْلٍ يَرَا جُعُ نَفْسَهُ	عَيْنَاهُ تُوْحِي أَنَّهُ يَتَوَسَّلُ

يا رَبِّ أَرْجِعْنَا لِنَعْمَلَ صَالِحًا
هيهاتَ قد طُويَ الكتابُ أَلَمْ يَكُنْ
سَبْحَانَ رَبِّكَ هَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ
لَكِنَّمْهُمْ كَفَرُوا بِمَنْ أَعْطَاهُمْ
غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَقُولُ وَنَعْمَلُ
فِيكُمْ نَبِيٌّ بِالْهُدَايَةِ مُرْسَلٌ؟
كَانَتْ لَهُمْ دَارٌ هُنَاكَ تُبَجَّلُ
مُلْكًا وَعَاثُوا فِي الْبِلَادِ وَقَتَّلُوا

الإعلان الثالث: النهاية المُشْرِقة تُنسي كل لحظة مُحْرِقة، حيث يقول أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة ما يقوله الله ﷻ وملائكته لهم ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾:

يوجّه أصحاب الأعراف النداء للمستضعفين مقابل النداء الذي يوجّهونه للمستكبرين، فيقولون: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فما وجه قوة هذه الجملة؟ **الجواب:** ينقل الله - تعالى مجده - لنا موقفًا أعظم في تنعم أهل الجنة، وتعذيب أهل النار؛ إذ كأنه يظهر منظر أهل الجنة وهم يتنعمون.. يظهرون أمام أهل النار الذين يعذبون، والفريق الثالث ينظر للفريقين، فيقولون لأهل النار مُبَكِّتِينَ مُحَقَّرِينَ: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فيكون هذا الكلام خطابًا من أهل الأعراف لأهل الجنة، ويكون أهل الجنة قد حُكِمَ لهم في محكمة العدل الإلهية بأنهم أصحاب الجنة، وهم أمامها حيث قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وحينها يناديهم أصحاب الأعراف، وهم لم يدخلوا بعد، فيقولون لهم: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وهذا يقوّي أن أصحاب الأعراف من الشهداء العظام الذين ينتمي إليهم الأنبياء وكبار الصالحين.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مِنْ شَيْءٍ يُمَكِّنُ تَوَقُّعُ أَذَاهُ، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لَا يَتَجَدَّدُ لَكُمْ حُزْنٌ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَلَى شَيْءٍ مَضَى فِي الدُّنْيَا^(١)، ويكون كلام أهل الأعراف؛ إما للثناء على هذا الصنف من أهل الجنة، وإما للدعاء.

وإذا كان قول أهل الأعراف لأهل الجنة: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

﴿١٩﴾ على سبيل الدعاء، فما الحكمة من دعاء أهل الأعراف لأهل الجنة؟

الجواب: إذا كَانَ الدُّخُولُ حَاصِلًا فَالدُّعَاءُ بِهِ لِإِرَادَةِ الدَّوَامِ، أَوْ لِلثَّنَاءِ كَمَا يَقُولُ الدَّاعِي عَلَى الْخَارِجِ: أَخْرُجْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْكَ عِنْدَمَا يَغْضَبُ مِنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]^(٢)، فهذا إِذَا لِإِرَادَةِ الدَّوَامِ، وَزِيَادَةِ الْحَفَاوَةِ، وَبَيَانِ الثَّنَاءِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ قَدْ اسْتَقَرُّوا فِي الْجَنَّةِ، أَوْ يَوْشِكُ أَنْ يَسْتَقَرُّوا فِيهَا، وَلَكِنْ أَهْلُ الْأَعْرَافِ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

وَيُشِيدُ اللَّهُ ﷻ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَمَامَ أَهْلِ النَّارِ، فَقَوْلُهُ: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يَصْحُحُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ، كَمَا يَصْحُحُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ، إِذْ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِأَهْلِ التَّكْبَرِ عَنِ الْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ﷻ، وَالْإِذْعَانِ لَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ ﷺ، الْجَامِعِينَ فِي الدُّنْيَا الْأَمْوَالَ مَكَاثِرَةً وَرِيَاءً: يَا جَبَابِرَةُ الدُّنْيَا! أَهْؤُلَاءِ الضَّعَفَاءُ الَّذِينَ كُتِمَ فِي الدُّنْيَا أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَرَحِمْتُهُمْ بِفَضْلِي وَرَحْمَتِي، ادْخُلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ الْجَنَّةَ، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ بَعْدَهَا مِنْ عَقُوبَةٍ تَعَاقِبُونَ بِهَا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآثَامِ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَكُمُ فِي دُنْيَاكُمْ.

(١) نظم الدرر (٧/٤٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/١٤٧).

المزية التاسعة: الانتقال إلى مقرّ الأشواق الدائم:

حيث ينقل الله ﷻ أهل الأعراف إلى مقرّهم الدائم في الجنة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى:

﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(١):

فهذه الكلمات المباركات يمكننا أن نشعر بأنها أيضًا من كلام الله ﷻ لأهل الأعراف، فبعد أن شهدوا على الفريقين، وخطبوا أهل النار خاصّةً بما خاطبهم به ختم الله ﷻ قصة أصحاب الأعراف بإعلان أنهم سيدخلون الجنة، ومال محمد رشيد رضا رحمه الله إلى هذا، فقال: «أَيُّ قِيلَ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ الرَّحْمَنِ ﷻ: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(١) مِنْ جَرَاءِ شَيْءٍ يُنْغِصُ عَلَيْكُمْ حَاضِرُكُمْ»^(١).

نعود مجددًا إلى محاولة معرفة الحكمة الكبيرة من ذكر أصحاب الأعراف؟

الجواب: أهل الأعراف هم أهل المعرفة الشاهدة على أحوال الفائزين والخاسرين، فحكى الله ﷻ مشاهد من غيب الآخرة تزيد المؤمنين يقينًا، وتزيد الكافرين ترهيبًا، وتحذّر الفريقين المؤمنين والكافرين من أن يغفلوا عن أنفسهم في الدُّنيا، فهناك مواقف هائلة ستحدث لهم في الآخرة بناءً على أعمالهم، فالأحوال في الآجال أي الآخرة إنما تكون بناءً على الأعمال أي في الدُّنيا، فأهل الأعراف يخاطبون المستكبرين، وفي ذلك تحذير لقوى الاستكبار مما يحدث لهم في الآخرة. ويذكر الله ﷻ في هذه السُّورة مسيرة البشريّة التاريخية ابتداءً من آدم عليه السلام ووصولاً إلى عهد النبي ﷺ، حيث سيسأله الناس عن الساعة... تشعر بأن السُّورة تقدّم لك معرفةً تاريخيةً رائعةً عن حياة البشريّة.

ستسأل: وماذا أكسبت هذه المعرفة أصحاب الأعراف؟ وهل أفادوا منها شيئًا؟

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٨٩).

الجواب: هذه المعرفة أكسبتهم ثلاثة أمور:

الأول: معرفة بالله ﷻ حتى طمعوا في تكريمهم بالجنة: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، أي يطمعون في دخولها، فهل الطمع يدل على تأخر منزلتهم بالضرورة؟

الطمع لا يدل على أنهم أدنى الناس مكانة، بل قد يكون الطمع مزية عظيمة من مزايا السابقين المكرمين من أهل الإيمان، فإن الطمع يدل على شدة خشية الله ﷻ، وقوة الإشفاق من عذابه، وقد وصف الله ﷻ به السابقين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]. فكونهم لم يدخلوا الجنة إلى ذلك الوقت لا يدل بالضرورة على أنهم متأخرون منزلةً.

الثاني: معرفة بالمصير حتى ألحوا في سؤال الله ﷻ أن يحميهم من مصير الظالمين: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]، وهذا الدعاء لا يدل على ضعف مكانتهم؛ فإن كبار الصالحين دعوا بمثل هذا الدعاء، ومن ذلك أن هارون عليه السلام طلب من أخيه موسى عليه السلام أن لا يجعله مع القوم الظالمين، وهارون عليه السلام مكانه في السماء الرابعة كما بين النبي ﷺ في حادثة المعراج، وكذلك فإن إبراهيم عليه السلام دعا بدعاء مشابه، إذ قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، وإبراهيم عليه السلام خير الناس بنص قول النبي ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(١).

(١) مسلم (٢٣٦٩).

الثالث: معرفة بالناس حتى نالوا شرف المخاطبة للصالحين، وللمجرمين، فمما سيفعلونه في ذلك المشهد أن يخاطبوا أهل النار مقرعين موبخين لهم، فيقول الله ﷻ عن ذلك: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

كما أنهم سيشيدون بالمصير الذي آل إليه أهل الجنة بعد أن كان المستكبرون يستهزئون بهم في الدنيا، فقال الله ﷻ عنهم: ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

هذه المعرفة لأهل الأعراف، وهذا المقام العلي حيث يخاطبون الفريقين انعكس على كل معرفة يقدمها لنا القرآن المجيد في هذه السورة، فالقرآن هو كتاب المعرفة العليا.. إنه الكتاب الذي يحميك من المخاطر الواقعة والمتوقعة، وعلى قدر معرفتك له وإيمانك به تحدث لك وبيدك المنافع الكبرى، ولذلك ختم الله ﷻ هذه السورة بقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

هذا المصير المنتظر للفريقين (أهل الجنة وأهل النار) تيقن به أهل الأعراف، وهو يذكرنا بعاملين في تحديده:

الأول: الجزاء على قدر الأعمال.

والثاني: التقدم والتأخر على حسبها.

وإذا استوعبنا أن أهل الأعراف طبقتان:

- طبقة فيها الأنبياء المكرمون، والصالحون السابقون.
- وطبقة فيها الْمُقَصَّرُونَ الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم.

فكلُّ من الطبقتين يوجَّهون الخطاب بالسلام والثناء على المؤمنين، والتوبيخ والتقريع واللوم المنكر على أصحاب النار الظالمين.

وتسمية الأعراف تسمية مميزة تُظهر لك مكانة أصحابها، وترشدك إلى البحث عن المعرفة، ولن تجد كتابًا يوجَّهك إلى المعرفة مثل كتاب الله ﷻ، من أجل ذلك أمر الله ﷻ بتلاوته، وتدبره.

هنا يرغب السامعون في حال السابقين، ويحرصون على الوصول إلى مكان المكرمين.. هنا يتلهفون على ما إليه في الجنة ينظرون.. هنا يتمتعون برؤيا أهل الجنة قد برزوا بسيماهم يفأخرون.

تصور أن يوبَّخ أهل الأعراف من الأنبياء المُكرَّمين -وهم أرحم الناس- أهل النار الظالمين يقولون لهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].
تصوِّر أن يصدَّر التوبيخ والإنكار على أهل النار الأشرار من الطبقة الثانية من أهل الأعراف، وهم المُقَصَّرُونَ.

يسمع العالم في الدنيا هذا الوصف عن الآخرة، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، ويعلم أن العصاة يوبَّخهم كلُّ أحدٍ حتى أقصر الناس عملاً.

ولعلك تسأل: كيف تنعكس التسمية بأصحاب الأعراف على جميع السُّورَة؟

الجواب: هذه المعرفة لأهل الأعراف تنعكس على جميع آيات السُّورَة ابتداءً من أولها ﴿الْمَصَّ﴾، إذ تمنحك هذه المعرفة أن هذه الأحرف الذهبية هي التي تتكلَّم بها أنت، وتكتب بها أنت، لكنك عندما تقرؤها في القرآن يختلف الأمر عن كلامك وفهمك وعلمك.

بصيرة: إن حروف القرآن تمنحك المعرفة الصادقة بأحوال الدنيا والآخرة، ابتداءً من خلق الأرض والعهد الأول الذي هو عهد الذرِّ، ووصولاً إلى المصير النهائي حيث عالم المستقرِّ، وترفعك إلى الفهم واليقين والاطمئنان والراحة والسكينة.

وتمضي بك المعرفة المتجدِّدة في القرآن إلى الغيب الماضي، حيث القصة التفصيلية لما حدث بين آدم عليه السلام والشيطان، والغيب المستقبل عند الموت وبعده، والغيب الذي سرى في التاريخ في عهود الذرية الآدمية.. يسري بك القرآن إلى كلِّ تلك المعرفة، وبناءً عليها ستحدّد مصيرك القادم.. فتشبّث بالمعرفة القرآنية، واستمسك بها بقوة:

أَسْرَى مَعَ الْقُرْآنِ فِي أَفُقٍ	فَدَّ تَبَارَكَ ذَلِكَ الْأَفُقُ
وَسَرَى بِهِ فِي رَحْلَةٍ عَجَبٍ	مِنْ وَاحَةِ الْإِيمَانِ تَنْطَلِقُ
وَارْتَادَ مِنْهُ عَوَالِمًا مُلِئَتْ	سِحْرًا بِهِ الْأَرْوَاحُ تَنْعَتِقُ
يَا مَنْ يُرِيدُ الْعَيْشَ فِي دَعَةٍ	نَبْعُ السَّعَادَةِ مِنْهُ يَنْبَثِقُ

أهل الأعراف والمزايات التسع:

وهنا لا بد أن نتساءل: فما القول الذي يترجّح حول أهل الأعراف مما يدلُّ عليه سياق الآيات؟

الجواب: يظهر لي أن أصحاب الأعراف جمعوا تلك المزايات التسع، وأنهم قوم مخصوصون جعل الله ﷻ من مهماتهم الأساسية أن يعرفوا أهل الجنة والنار، فهم أهل معرفة يوم القيامة يخبرون الخلائق بمعرفتهم بمصايرهم، ويجوز أن يكون فيهم من استوت حسناته وسيئاته، فهم في منزلة من تلك الأعراف، ووجودهم في الأعراف للتأخير عن الحكم لهم بواحدة من

المنزلتين، ورجح ابن عاشور رحمته الله هذا، فالأعراف جعلها الله ﷻ مكاناً يُوقَفُ بِهِ مَنْ جَعَلَهُ اللهُ ﷻ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَبْلَ دُخُولِهِ إِيَّاهَا، وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْعِقَابِ خَفِيفٌ، فَجَعَلَ الدَّاخِلِينَ إِلَى الْجَنَّةِ مُتَّفَاعِيَةً فِي السَّبْقِ تَفَاعُوتًا يَعْلَمُ اللهُ ﷻ أَسْبَابَهُ وَمَقَادِيرَهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَّلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] (١).

لكنني أزيد على ذلك فأعملُ القول الثالث والرابع، إذ يجوز أن يكون في الأعراف المكرمون المرتفعون على الخلق من الأنبياء وأصحاب المراتب العلية، فهم في منزلة أخرى عظيمة مُشْرِفَةٌ مُشْرِفَةٌ، ووجودهم في الأعراف للتكريم، وهل الأعراف مكان لا تكريم فيه؟ ما المانع أن يوجد فيه شيء من تكريم؟

كما أن ظلَّ عرش الرحمن يوم القيامة يوجد فيه تكريم للمصطفين من أهل الموقف، وبذا تراني أميل إلى أن:

بصيرة: الأعراف مكان خاصُّ تكون فيه فئتان: من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وفئة خاصة من أولياء الله ﷻ ممن جعلهم أهل معرفة بأصحاب الجنة وأصحاب النار كأنهم يشهدون على حكم الله ﷻ فيهم.

ولذا قِيلَ لِلْحَسَنِ رحمته الله: هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ؟ فَضَرَبَ عَلَى فَحْذِيهِ، ثُمَّ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى تَعْرِفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، يُمَيِّزُونَ الْبَعْضَ مِنَ الْبَعْضِ، وَاللَّهُ لَا أَذْرِي لَعَلَّ بَعْضَهُمُ الْآنَ مَعَنَا (٢).

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤٢).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٨).

ومما يُبَصِّرُك بهذا أن كلمة الأعراف جمع وليست مفردة، فقد تكون متفاوتة في ذاتها، فمنها درجات، أو منازل، أو مقامات، يوجد فيها من استوت حسناته وسيئاته، ومنها ما يوجد فيها أهل الكرامة العليا.

نتقل إلى قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنُ أُفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾ ﴿٥٠﴾ فما المشهد الذي تُبَصِّرُنَا به هذه الآية؟
 الجواب: هذه الآية تقدّم لنا المشهد الآتي:

المشهد الخامس: مشهد نداء الانكسار المثير أمام الانتصار الكبير، حيث ترى أصحاب النار يطلبون غوث أصحاب الجنة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنُ أُفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾

هنا ظهرت قوى الاستكبار الذين كانوا يشمخون بأنوفهم في الدنيا، ويضحكون ويوزعون قهقهاتهم أمام العالم.. ظهوروا وهم يَسْتَجِدُّون الماء من أصحاب الجنة.

والله إنه لمشهد تنشق له الصدور، وتسيل له الدموع، مشهد يوقظ الغافلين. ما مشكلتنا في الدنيا؟ إننا نغفل عندما نرى الجنان الدنيوية من حوالينا.. نغفل عندما نرى البساتين العامرة، نغفل عندما نرى القوات السائرة، نغفل عندما نرى الطائرات المتكاثرة، نغفل عندما نرى الأموال والأصوات الهادرة التي تهتف بحياة فلان، وحياة فلان، نغفل عندما نظمئن إلى الراتب في آخر الشهر، وإلى الخِدْمَات الصحية المتوفرة...
 هاهو ربنا الله ﷻ يبين لنا كيف تنقلب الأمور في الآخرة.

ودَعْنَا أَوْلَا ننظر في علاقة هذه الآية بالآيات السَّابِقَة: فكيف ترى المناسبة والاتصال لهذا المشهد في هذه الآية مع ما قبلها؟

الجواب:

يدخل أهل الجنة الجنة، ثم يحدث هذا المشهد: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

إنه السؤال الذي يُؤْلَمُ ويُنْكِي، ويوجع من عنده عقل ويُيْكِي، ويسمع أصحاب النار أهل الأعراف يتكلمون عن رحمة الله ﷻ التي نالت أهل الجنة.. إنها الرحمة التي تُطْمَعُ المَحْرُومُ فيما يسُرُّ ويُزْكِي، وهي للقلوب مما يُرَقِّقُ ويُيْكِي.

فيسمع أهل النار أصحاب الأعراف ينادونهم، فيقولون لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٤٨، ثم يرونهم يلتفتون أمامهم إلى أهل الجنة، ويُعَرِّضُ نعيم أهل الجنة أمام أهل النار، ويعظم أهل الأعراف مكانة أهل الجنة فيقولون: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ٤٩.

عندما يذوق أهل النار عذاب الحريق، ويجدونها قد أحاطت بهم، ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ٥١... ماذا سيفعلون وقد أحيط بهم؟

خيبة استجداء أهل النار والمحاولات الفاشلة:

هنا ربما حاولوا أن يخرجوا مما هم فيه بأن يتوجَّهوا إلى عدَّة جهات عسى أن يجدوا عندها رحمةً أو عطفاً:

ربما بدؤوا بخازن النار الأكبر، وهو المَلِكُ (مَالِك) ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: إذا لم تخرجنا من هذا المكان، فاشفع لنا يا مالِك لإزالة حياتنا من الوجود، فيجيبهم مَالِك: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ ٧٧ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [الزخرف: ٧٧-٧٨].

وربما لجؤوا بعد ذلك إلى أن يستغيثوا بخزنة جهنم، وفي الوقت نفسه تراهم يخفِّفون مطلبهم، ويصوِّرُ الله ﷻ لنا تصرفهم هذا، فيقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ [غافر: ٤٩]، أي: بما أنه لا مجال لأن يموتوا، فعلى الأقل يطلبون أن يخفف الله ﷻ عنهم يومًا من العذاب، فتردُّ عليهم الخزنة: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

وعندها ربما توجهوا إلى الله ﷻ ربُّنا وربُّهم عسى أن يرحمهم، فيخرجهم مما هم فيه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ فاعترفوا بأنهم كانوا سادة قرارهم، فاتخذوا قرارهم بمحض إرادتهم، واعترفوا بذلك، فقالوا: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ولم يقولوا: أنت أغويتنا، أو أضللتنا. ثم بعد الاعتراف واصلوا الاستجداء والاستعطاف، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيردُّ الله ﷻ عليهم: ﴿قَالَ أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (٥٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآيِزُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١١١].

يعود أهل النار مكسورين محطمين، وقد باءت كل محاولاتهم لإيجاد مخرج من النار بالفشل، والجوع يأكلهم، والعذاب الذي يحيط بهم يحرقهم، والعطش يلهب بواطنهم مع الحميم الذي يعيشونه.

فيستغيثون طالبين الطعام، فيأتيهم الطعام، ولكنه يكون طعامًا من ضريع لا يُسَمِّنُ ولا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَسْتَغِيثُونَ، فَيُعَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فيأكلونه ليزداد عذابهم، ومناذي الحق يخبر عنهم: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (٦٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٣﴾ [المزمل ١١-١٣]. ويبحث أصحاب النار عن الماء، ويستغيثون صارخين، ولكن ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ ولكن بماذا؟ ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٦٤) [الكهف: ٢٩] عندها يلجؤون إلى الاستغاثة بأصحاب الجنة.

وهم يجدون العقاب العظيم من شِدَّةِ العطش والجوع والأنكال والجحيم، فينادون أصحاب الجنة مستغيثين مستعطفين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾، فكلمة ﴿أَنْ﴾ تفسيرية تفسّر لنا ماذا حوى نداء أصحاب النار عندما توجّهوا بالكلام لأصحاب الجنة.

مَثَلٌ وَوُقُوفَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ عُرْيَانَا
النَّارُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ
اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهْلٍ
لَمَّا قَرَأْتَ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ لِي
قَالَ الْجَلِيلُ خُذُوهُ يَا مَلَائِكَتِي
يَا رَبِّ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْحِسَابِ وَلَا

مُسْتَعْطِفًا قَلِقَ الْأَحْشَاءُ حَيْرَانَا
عَلَى الْعَصَاةِ وَتَلَقَّى الرَّبَّ غَضَبَانَا
وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَرَى هَلْ كَانَ مَا كَانَا
حَرْفًا وَمَا كَانَ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانَا
مُورُوا بِعَبْدِي إِلَى النَّيِّرَانِ عَطْشَانَا
تَجْعَلْ لِنَارِكَ فِينَا الْيَوْمَ سُلْطَانَا

وقد تسأل: لماذا استعملوا كلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۝﴾ ؟

الجواب: كلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ من فاض^(١)، وهي تصوّر لك جريان الشيء بسهولة مع كثرته حتى يخرج خارج حدوده، ومن ذلك: فاض الماء يفيض، ويُقال: أفاض إناؤه، إذا مَلَأَهُ حَتَّى خَرَجَ عَنْ طَرَفِهِ، وسال مُنْصَبًّا، فصوّرت لنا هذه الكلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ أصحاب النار يشاهدون أصحاب الجنة وهم يتنعمون بالذّ أنوع النعيم، حيث تجرى الأنهار من تحتهم، ويرون نداوة الأجواء حواليلهم، كما يحسون بأنواع المياه والشراب يتدفّق عليهم، هناك تجد لذّة الحياة الحقيقيّة، فيطالبون منهم لكثرة ما يرون أن يحولوا مجرى شيء من تلك المياه لينصبّ على

(١) مقاييس اللغة (٤ / ٤٦٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٤٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣ / ١٦٨٤).

النار عسى أن يصل إليهم ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ ثم يستدركون، فيقولون: إذا حرم عليكم أن ترسلوا الماء إلينا، فعلى الأقل: أفيضوا علينا بشيء آخر، فنحن نطالب بشيء من الماء ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

وتصور لنا هذه العبارة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أن الجنة في الأعلى فوق، وأن النار في الأسفل لأنهم قالوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾، وليس أرسلوا إلينا؛ فالإفاضة مع كلمة ﴿عَلَى﴾: تعني الإسقاط من الأعلى إلى الأسفل وسينزل عليهم كثير من الماء إذا قرّر أصحاب الجنة أن يرحمهم، ويرسلوا لهم شيئاً من ذلك الماء أو الرزق، وبدؤوا بطلب الماء؛ لِشِدَّةِ ما في بَوَاطِنِهِمْ مِنَ الْإِحْتِرَاقِ وَاللَّهَبِ فِي حَرِّ جَهَنَّمَ^(١)، ولأن الماء ربما يخفف عنهم العطش والجو اللّاهب معاً.

وقد تتساءل: ما مدلول ﴿أَوْ﴾ في قول أصحاب النار: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؟

الجواب: لكلمة ﴿أَوْ﴾ احتمالان:

الأول: أن يكون طلب أهل النار هنا طلباً حقيقياً للماء، أو لأي شيء من الرزق الذي جاء إلى أهل الجنة من الله ﷻ.

والثاني: أن يطلبوا الماء أولاً، فلما أخبرهم أصحاب الجنة أن الله ﷻ حرّمه عليهم، عند ذلك كرّروا الطلب على هيئة اليأس؛ بعد أن سمعوا الجواب المحطّم لآمالهم فقالوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٥٢).

وَلَكِنَّ الْآيِسَ مِنَ الشَّيْءِ قَدْ يَطْلُبُهُ، كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: الْغَرِيقُ يَتَعَلَّقُ بِالزَّيْدِ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُغِيثُهُ^(١)، فَأَعْطَوْهُمْ الْاخْتِيَارَ لِيَفِيضُوا عَلَيْهِمْ وَلَوْ شَيْئًا غَيْرَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وحذف الفعل المعطوف؛ ليحتمل إعادة السابق، أو عطف الجملة على الجملة بما يناسبها من الأفعال.

وطلب أصحاب النار للماء والرزق يدلُّ على أن رزق الجنة ما له من نفاد، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وهذا يزيد أصحاب النار غيظًا وألمًا وحسرة وذلةً وانكسارًا.. اللهم أذقنا أعظم الكرامة يوم الحسرة والندامة.

وهذه الكلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ تُصَوِّرُ أمورًا مذهشة: فأصحاب النار صاروا الآن يعترفون بالله ﷻ، وبنعمته وبجنته، ويعترفون بأن أصحاب الجنة الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا ويحاربونهم هم أفضل الناس للناس، فطلبوا منهم الماء ربما طمعًا في رحمتهم؛ لأنهم كانوا يتعاشرون معهم في الدنيا، فيجدون منهم الرحمة بالآخرين، وكم كانوا في الدنيا يمنعونهم من إيصال الخير إلى الآخرين، فالآن يطلبون شيئًا مما يوجد عندهم من الخير.

أليس الله ﷻ قد أعطاهم ما تمنوا، ولهم في الجنة ما تشتهي أنفسهم، ولهم ما يدعون؟!.. ربما ظن أصحاب النار أن أصحاب الجنة سيشفقون عليهم كما كانوا يفعلون في الدنيا..

لكنهم يفاجأون بجواب أهل الجنة الحازم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وكما كان أصحاب الجنة لأوامر ربهم ﷻ في الدنيا سامعين، فكذلك يكونون في الآخرة خاضعين طائعين. والمفكرُّون الصادقون تؤثر فيهم هذه الآية تأثيرًا بالغًا، فهاهو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ لما شرب ماءً باردًا بَكَى، فَاشْتَدَّ بُكَاءُهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: «ذَكَرْتُ آيَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ ﴿وَحِيلَ

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٥٢).



بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿سَبَأٌ: ٥٤﴾، قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ شَيْئًا إِلَّا الْمَاءَ الْبَارِدَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] ^(١).

فكم أمراً طلبه أهل النار من أهل الجنة؟ نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.

الجواب: طلبوا ثلاثة أمور:

الأول: أن يفيض أهل الجنة عليهم من الماء.

الثاني: أن يفيض أهل الجنة عليهم من غيره من الأشربة أو من الأطعمة، التي يكون الماء جزءاً بارزاً من محتوياتها.

الثالث: أن يتصدق أهل الجنة عليهم من غير الماء والأشربة من الطعام والفاكهة لدخول ذلك في حكم الإفاضة ^(٢)، فالإفاضة ليست خاصّة بالماء في الآخرة، بل يرى أهل النار أهل الجنة وكلّ ملذاتهم من الماء والطعام والمبرّدات والمبرّدات قد فاضت أمامهم.

كان يمكن لأهل النار أن يقولوا: أفيضوا علينا الماء؛ لأن الفعل ﴿أَفِيضُوا﴾ يتعدّى بنفسه، فلماذا قالوا: ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾؟ ماذا تُصوّر لنا كلمة ﴿مِنَ﴾؟

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (١٠٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٩٤)، وقال المحقق (د. عبد العلي عبد الحميد): «رجاله كلهم ثقات».

(٢) كقوله:

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وَارِدَا علفتها تبنًا وماءً بارداً

يقول: لما حططت الرحل عن الناقة حال كوني وارداً للماء، علفتها تبنًا وسقيتها ماء بارداً، على حذف العامل في ماء، ويحتمل أن المعنى: ناولتها تبنًا وماء على التجوز في العلف، وذلك لأن الماء لا يكون معلوفاً لها. ينظر: خزنة الأدب للبغدادي (٣/ ١٤٠).

الجواب: كلمة ﴿مِنْ﴾ في قولهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ تصوّر لك أنهم يحاولون استدرار عواطف أهل الجنة بطلب أي شيء مهما كان يسيراً مما طلبوه منهم، فتكون ﴿مِنْ﴾ بِمَعْنَى بَعْضٍ، أَوْ صِفَةً لِمَوْصُوفٍ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: شَيْئًا مِمَّا قَلَّ مِنَ الْمَاءِ^(١).

ويرى ابن عاشور رحمته الله^(٢) أن كلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ تحتل معنى قوياً إضافياً آخر؛ إذ هذه الكلمة تستعمل لشعور السائل بأن المسؤول عنده سعة هائلة في الرزق والعتاء، فيطلب منه ما يفيض من جوانب حياته من ذلك الرزق مما لا يحتاج إليه، كما تفيض جوانب الكوب بالماء، فيذهب إلى الأرض هدرًا، وكل ذلك استعطاف ذليل من أهل النار لأهل الجنة.

وقولهم: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يدخل فيها اللباس وكل ما يمكن أن يخفف عنهم معيشتهم المحترقة تلك، ولا حظ أن أهل النار هنا موحّدون مؤمنون حيث لا ينفع الإيمان، حيث قالوا: ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فنسبوا الرزق إلى الله تعالى، ولم ينسبوه لوصف الربوبية، بل اعترفوا بالله تعالى إلهاً باسمه العلم الذي يدعى به، وكانت تسمن نفوسهم من ذلك.

هذا المشهد يذكرك بما رواه «الحسن بن حسان، قال: كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ صَالِحِ الْمُرِّي عليه السلام وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَيَعْظُمُ، فَقَالَ لِرَجُلٍ حَدَّثَ بَيْنَ يَدَيْهِ: اقْرَأْ يَا بُنَيَّ.

فَقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فَقَطَعَ عَلَيْهِ صَالِحُ الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: وَكَيْفَ يَكُونُ لِلظَّالِمِينَ حَمِيمٌ أَوْ شَفِيعٌ وَالطَّالِبُ لَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ قَالَ:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٤٨).



إِنَّكَ وَاللَّهِ! لَوْ رَأَيْتَ الظَّالِمِينَ وَأَهْلَ الْمَعَاصِي يُسَاقُونَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ إِلَى الْجَحِيمِ حُفَاةً، عُرَاءَ، مُسَوَّدَةً وَجُوهُهُمْ، مُزَرَّقَةً عُيُونُهُمْ، ذَائِبَةً أَجْسَامُهُمْ، يُنَادُونَ: يَا وَيْلَاهُ! يَا بُرُورَاهُ! مَاذَا نَزَلَ بِنَا؟ مَاذَا حَلَّ بِنَا؟ أَيْنَ يَذْهَبُ بِنَا؟ مَاذَا يُرَادُ مِنَّا؟ وَالْمَلَائِكَةُ تَسْوِفُهُمْ بِمَقَامِعِ النَّيِّرَانِ، فَمَرَّةً يُجَرُّونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ، وَيُسْحَبُونَ عَلَيْهَا مُكَيِّبِينَ، وَمَرَّةً يُقَادُونَ إِلَيْهَا مُقَرَّنِينَ، مِنْ بَيْنِ بَالِكٍ دَمًا بَعْدَ انْقِطَاعِ الدَّمْعِ، وَمِنْ بَيْنِ صَارِخٍ طَائِرِ الْقَلْبِ مَبْهُوتٍ، إِنَّكَ وَاللَّهِ! لَوْ رَأَيْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا لَا يَقُومُ لَهُ بَصْرُكَ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُ قَلْبُكَ، وَلَا يَسْتَقِرُّ لِفْطَاعَةِ هَوْلِهِ عَلَى قَرَارٍ قَدَمُكَ. ثُمَّ نَحَبَ وَصَاحَ: يَا سُوءَ مَنْظَرَاهُ! وَيَا سُوءَ مُنْقَلَبَاهُ! وَبَكَى وَبَكَى النَّاسُ، فَقَامَ شَابٌّ، فَقَالَ: أَكُلُّ هَذَا فِي الْقِيَامَةِ يَا أَبَا بَشِيرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُهُمْ، فَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا كَهَيْئَةِ الْأَيْنِ مِنَ الْمُدْنَفِ، فَصَاحَ الْفَتَى: إِنَّا لِلَّهِ! وَآ غَفَلَتَاهُ! عَنْ نَفْسِي أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَبَا أَسْفَى عَلَى تَقْرِيطِي فِي طَاعَتِكَ يَا سَيِّدَاهُ! وَآ أَسْفَاهُ! عَلَى تَضْيِيعِ عُمْرِي فِي دَارِ الدُّنْيَا، ثُمَّ بَكَى وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَقْبِلُكَ فِي يَوْمِي هَذَا بِتَوْبَةٍ لَكَ لَا يُخَالِطُهَا رِبَاءٌ لِعَيْرِكَ، اللَّهُمَّ فَاقْبَلْنِي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي، وَاعْفُ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِي، وَأَقْلِبْنِي عَثْرَتِي، وَارْحَمْنِي وَمَنْ حَضَرَنِي، وَتَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِجُودِكَ أَجْمَعِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَكَ أَلْقَيْتُ مَعَاقِدَ الْأَنَامِ مِنْ عُثْقِي، وَإِلَيْكَ أَتَبْتُ بِجَمِيعِ جَوَارِحِي صَادِقًا بِذَلِكَ قَلْبِي، فَالْوَيْلُ لِي إِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْبَلْنِي»^(١).

وقد تندبر في هذه الآية، فتساءل: هل خُفِّفَ العذاب عن أصحاب النار حتى استطاعوا أن يتكلموا مع أصحاب الجنة؟ كيف يتكلم الكافرون وهم يحترقون في نار جهنم التي هي أضعاف أضعاف نار الدنيا فلا تبقي مجالاً لإنسان أن يستغيث؟

(١) التوابين لابن قدامة (ص: ١٤٩، ١٥٠).

الجواب: لم يُخَفَّفْ عنهم العذاب؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦]، ولكن الله ﷻ أراد أن يصوِّر لنا زيادةً في نعيم أصحاب الجنة، وآلام أصحاب النار، بأن يُريَ كلّاً من الفريقين الآخر، ويمكنهم من خطاب بعضهم بعضاً، ويظهر من قوله: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ﴾ أن النار تخبو شيئاً ما، ثم تزداد سعيّاً، وربما كان نداء أصحاب النار في هذا التوقيت.

فهم يجدون آلام الجحيم وهم بين أطباق النيران لكنهم لا يصلون إلى الموت، والله يوضّح ذلك بصورة واضحة وبصورة ظاهرة وبصورة دائمة نكرّها في يوم الجمعة وهي سورة الأعلى قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣] أي: لا يموت بالاحتراق والعذاب، ولا يحيا الحياة التي يريدّها، فهو يتمنّى الخلاص منها، ولكنه يعلم أنه ما إلى خلاص من سبيل:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنيّا أن يَكُنَّ أمانياً^(١)

لعلك تسأل: لماذا طلب أهل النار من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله؟

الجواب: يطلبون ذلك لما وجدوا اليأس من إجابة الله ﷻ، أو خزنة جهنم لهم.. فاستعطفوا من أهل الجنة مَنْ يعرفونهم بما كان من سابق معرفتهم، ثم استعطفوا مَنْ يعرفونهم ومن لا يعرفونهم بحكم الجنس المشترك الذي يجمعهم، ثم عادوا فاستعطفوه مرّاتٍ مع يأسهم من الإجابة إليهم للحيرة التي أصابتهم في أمرهم، كما يفعل المضطر الممتحن.

(١) البيت للمتنبي في ديوانه (ص: ٤٤١).

فيرد عليهم أصحاب الجنة الذين كانوا يشيعون الرحمة في الدنيا، فيقولون لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ﴾ كأنهم يقولون لهم: لم يعد الأمر باختيارنا ولا اختياركم، بل ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] «يُنَادِي الرَّجُلُ أَخَاهُ يَقُولُ: إِنِّي قَدْ احْتَرَقْتُ فَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، فَيَقَالُ: أَجِبْهُ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]»^(١).

والآن تأمل في الرد الحازم لأصحاب الجنة على أصحاب النار حيث: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ﴾، فما وجه قوة هذه الكلمة ﴿حَرَّمَهَا﴾؟

الجواب:

﴿حَرَّمَهَا﴾ أصلها حَرَمٌ^(٢)، وهي كلمة تصوّر لنا المنع والتشديد في هذا المنع، إذ توجد الاحتياطات الخاصة بمنع الاقتراب من الشيء المحرّم، فالحرّام: ضدّ الحلال، وسوّطٌ مُحَرَّمٌ، إذا لم يُكَيَّنْ بعدُ، وحريمُ البئر هو ما حولها، يُحَرَّمُ عَلَى غَيْرِ صَاحِبِهَا أَنْ يَخْفِرَ فِيهِ، وَالْحَرِيمُ: الَّذِي حُرِّمَ مَسُّهُ فَلَا يُدْنَى مِنْهُ، ومن هنا كانت كلمة "حرمة" تطلق على الشيء المصان المُكْرَم الذي لا يجوز لمسه.

والحرام: الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي، وإمّا بشري، وإمّا بمنع قهري، وإمّا بمنع من جهة العقل، أو من جهة الشرع، أو من جهة من يُرَتَّبُ أمره، فقلوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: منع الله ﷻ منعًا مُشَدَّدًا أَنْ يَصِلَ إِلَى الْكَفَارِ شَيْءٌ مِنْ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

(١) الزهد لهناد بن السري (٢٨٨)، وقال المحقق (الفريوائي): إسناده صحيح.

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٤٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٢٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٤١٥).

وشراهم، والتحریم يدلُّ على الحظر والمنع المُحقَّق الذي لا مجال فيه للمغالطة والتأويل، كقوله:

حَرَامٌ عَلَى عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَا الْكَرَى وَأَنْ تَرْفَا حَتَّى أَلَا قِيَكِ يَا هِنْدُ^(١)

وهذا الحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تفصيلٌ للحكم الذي سبق ذكره في أوائل السُّورَةِ إذ قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فالمعنى: زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا يشتركون في التمتع بها مع الكفار، لكنها تكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة، فيحرمها الله ﷻ على الكافرين في يوم الدين.

وهذا الحكم يجعل المستكبر المكذِّب يعيد النظر في قراره الخاطئ عندما يصرُّ على تكذيب آيات الله ﷻ، فإنه يوشك أن يأتي يوم يطلب شربة الماء، فلا يجدها، ولهذا روى أبو موسى الصفَّار رحمه الله ﷻ قال: سئل ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَاءُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؟»^(٢).

قال ابن الجوزي رحمه الله ﷻ: «يَا هَذَا جَسَدُكَ كَالنَّاقَةِ يَحْمِلُ رَاكِبَ الْقَلْبِ، فَلَا تَجْعَلِ الْقَلْبَ مُسْتَحْدَمًا فِي عِلْفِ الرَّاحِلَةِ» - أي أن جسدك يحمل قلبك، فالقلب مثل الراكب الذي يدير

(١) (الكرى): النعاس، وهو أول النوم، وأن تطعما أي: تذوقا تخييل، ورقاً الدمع والدم - بالهمز -: سكن. وإسناده للعين مجاز عقلي، لأنه للدمع. ينظر: تفسير الكشاف (٢/ ١٠٨).

(٢) مسند أبي يعلى (٢٦٧٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٣١، ١٣٢): «رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن المغيرة، وهو مجهول»، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٢٢٤): «موسى بن المغيرة، وهو مجهول، وشيخه [أبو موسى الصفَّار] لا يعرف».

مركوبه، فيدير سيارته إلى المكان الصحيح.. تصوّر لو أن سيارتك تتحكم بك: كم ستصدم من البشر، ومن الحجر، وكيف ستدمر حياتك؟.. فكذلك لا تجعل شهوات جسدك قائدة لقلبك وعقلك، بل قدّم فُكرَكَ وعقلك في إدارة جسدك.

ثم قال: «تالله إن جَوهرَ معنَاكَ يتظلم من سُوءِ فِعْلِكَ - يعني الله كرمك وجعل معنى وجودك خيراً لك، لكنك أبيت فسأت أفعالك - لِأَنَّكَ قد أَلْقَيْتَهُ فِي مِزَابِلِ الدَّلِّ.. وَيَحْكُ ارْزُدُّهُ إِلَى مِزَارِعِ التَّقْوَى، إِلَى مَتَى يَمْتَدُّ لَيْلُ الْغَفْلَةِ؟ مَتَى تَأْتِي تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ؟!»^(١).

تَبْغِي الْوُصُولَ بِسَيْرٍ فِيهِ تَقْصِيرُ	لَا شَكَّ أَنَّكَ فِيمَا رُمْتَ مَعْرُورُ
قَدْ سَارَ قَبْلَكَ أَبْطَالُ فَمَا وَصَلُوا	هَذَا فِي سَيْرِهِمْ جِدُّ وَتَشْمِيرُ
يَا مُدَّعِي الْحُبِّ فِي شَرِّعِ الْغَرَامِ وَقَدْ	أَقَامَ بَيْنَهُ لَكِنَّهَا زُورُ
أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ	هَذَا وَأَنْتَ بَعِيدُ الدَّارِ مَهْجُورُ
لَوْ كَانَ قَلْبُكَ حَيًّا ذُبْتَ مِنْ كَمَدٍ	مَا لِلْجِرَاحِ بِجِسْمِ الْمَيِّتِ تَأْثِيرُ

(١) المدهش (ص: ٣٠١).

التذكير بصفات الكافرين الذين سيحرمون أقل قطر من الماء يوم العذاب الكبير:

صفة 1 اتخاذ الدِّينَ لهواً ولعباً ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: 51]

صفة 2 الاغترار بالحياة الدُّنيا ﴿وَعَرَّضْهُمْ أَحْيَاؤُهُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51]

صفة 3 نسيان لقاء الله ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسُوا لِقَاءَ اللَّهِ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: 51]

صفة 4 جحود آيات الله ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51]

صفات الكافرين
الذين سيحرمون أقل
قطر من الماء يوم
العذاب الكبير

نَحْنُ بِنَاءُ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْيَوْمِ

مِفْصَلُ تَفْصِيلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

فذكر الله ﷻ أربع صفات لأصحاب النار هنا:

بعد أن بين الله ﷻ أنه حرَّم الماء والرَّزق يوم القيامة على الكافرين بين حقيقة الكافرين الذين أوجب عليهم هذا الشَّقاء الدائم، فقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَعَرَّضْهُمْ أَحْيَاؤُهُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسُوا لِقَاءَ اللَّهِ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، فلماذا يعيد الله ﷻ هذه الصِّفَات وقد ذكر ما يقاربها مراراً فيما سبق.. فقد ذكرها مثلاً في قوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١١] الذين يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٥١﴾؟ وبصيغة أخرى: لماذا القرآن مثاني؟

الجواب:

أولاً: لأن التَّشْيِيعَ والإعادة تتضمَّن زيادة الإفادة، فقد ذكر الله ﷻ فيما سبق بعض الصِّفَات، وذكر هنا تفاصيل جديدة من صفاتهم الرَّدِيئَةِ.

ثانيًا: لأن التَّشْنِية تدعو إلى زيادة التفكير والتفكير في حال الواقع والمصير، فتصبح التَّشْنِية التي تميز بها القرآن وسيلة تربوية عظيمة لإنقاذ الإنسان من الغفلة المتتابة، والإطْناَب في مثل هذا مما يحسن ويجمل، ويحقق الهدف والأثر المترتب عليه.

ثالثًا: لخطورة النتيجة التي وصل إليها الظالمون والكافرون في الآخرة، بعد أن أصرُّوا على الاتصاف بهذه الصِّفَات، فحدِّدوا مصيرًا مخيفًا هو العذاب الأبدي في النار.

وهذه المشاهد المتتابة في هذه السُّورَة تصف لنا استقرار أهل الجنة وأهل النار، كلٌّ في داره التي بناها لنفسه في الدُّنيا، وكلُّ ذلك ليؤمِّن الإنسان بالغيب، ويجعل الإنذار القرآني دستوره وحياته؛ وهذا يجدد عندنا ما ذكرناه في بداية السُّورَة إذ قرَّرنَا أن القرآن كتاب الإنذار العالمي لإنقاذ البشريَّة، فقد قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، ومن التَّذَكُّر أن يذكر الإنسان ذكرى ربِّه ﷻ في هذه المشاهد، فيَوْجَلْ قلبه، وترهب نفسه من أن يكون في أحدها، ومن التَّذَكُّر والتذكير، والإنذار المشفق المنير أن أخبرنا الله ﷻ بصفات الكافرين الذين حرم عليهم الماء والرِّزْق في الآخرة، وذلك في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، فكم صفة تجد في هذه الآية

لهؤلاء الخاسرين؟

الجواب: نجد أربع صفات، وهي:

الصفة الأولى: اتَّخَذُوا الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ ١٠:

فكلمة ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول يصف حال الكافرين يدل على أصلاتهم في الاتصاف بما سيوسمون به من صفات آتية وتمكنها منهم، كما تفيد التعليل لاستحقاقهم العقوبة والعذاب.

وسنسال: ما الحكمة من التعبير بلفظ: ﴿اتَّخَذُوا﴾ دون (جعلوا)؟

الجواب: لأنَّ الاتِّخاذ يدلُّ على أنهم نبذوا عقولهم، وتركوا ما تدلُّهم عليه الفطرة الذاتية، وأصرُّوا على أن يقتنوا الدِّين كما يقتنون الملابس، والأثاث، فالدِّين عندهم مظهر (برستيج) يتخذونه، ولا يتبعونه، فمَحَقُوا صُورَتَهُ وَحَقِيقَتَهُ أَوَّلًا، كَمَا يُمَحِّقُ الطَّيْنُ إِذَا اتَّخَذَتْهُ خَزَفًا، وكذلك الدِّين عندهم جاؤوا إليه، فشكَّلوه كما يهونون ويريدون، فلم يَعِدِ الدِّين الذي أنزله الله ﷻ، ومعنى الاتِّخاذ أن تأخذ شيئًا، فتجعله -مثلاً- مجلسًا، أو فراشًا، أو سيارة، أو بيتًا، وهؤلاء جعلوا الدِّين شيئًا ماديًّا يتخذونه، ويشكِّلونه كما يريدون، لا بحسب مَنْ أَمَرَهُم الذي له الخلق والأمر -جلَّ في علاه-، فَصَارَ الدِّينُ فِي حَيَاتِهِمْ ﴿لَهُوًا وَلَعِبًا﴾، وتدبَّرْ مَرَّةً أُخْرَى هذه الآية، إذ قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾، ولم يقل: الدِّين، وذلك ليؤكد أنه جاءهم دين الله ﷻ، واعتنقوه، وبدلًا من أن يجعلوه مرشدًا لهم في حياتهم اتَّخَذُوهُ لَهُوًا وَلَعِبًا، وتصرفوا فيه بالتشويه والتبديل والعبث حتى صار دينهم الخاص الذي ارتضوه لا دين الله الذي ارتضاه لهم.

وقد تتساءل: ما الفرق بين اللُّهُو واللَّعِب؟

الجواب: أما اللُّهُو ^(١) فَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ شَغَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، فالتَّهْيِيتُ بِهِ، وَعَرَفَهُ الرَّاعِبُ ﷻ: بَأَنَّهُ مَا يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ عَمَّا يَعْنِيهِ وَيُهِمُّهُ، فيقال: لَهَوْتُ بِكَذَا، وَلَهَيْتُ عَنْ كَذَا: اشْتَغَلْتُ عَنْهُ، وانغمست فيه بِلَهْوٍ مع عدم جَدْوَاه، فهو الشيء الذي يشتغل به الإنسان غير مبالٍ بما يجب أن يبالي به.

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢١٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٤٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٠٠٥).

ثُمَّ تَوَسَّعَ بِهِ فَصَارَ اللَّهُ يُطْلَقُ - أَحْيَانًا - عَلَى مَا يَسُرُّ وَيَلْذُّ، وَإِنْ لَمْ يُقْصَدَ بِهِ التَّشَاغُلُ عَنْ أُمُورِ الْحِجْدِ، كَالْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ الْخَاصَّةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَشْتَغِلُ بِاللَّهُوِ مَعَ زَوْجَتِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

أَلَا زَعَمْتَ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنَّنِي كَبِرْتُ وَأَلَّا يُحْسِنَ اللَّهُوَ أَمْثَالِي^(١)
وَقَدْ يُطْلَقُ اللَّهُو - أَيْضًا - عَلَى جِدِّ يُتَشَاغَلُ بِهِ عَنْ جِدِّ آخَرَ، فَيَقَالُ: أَلْهَانِي الْاهْتِمَامُ بِالْأَوْلَادِ
عَنِ الصَّلَاةِ، ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وَلَكِنَّ الَّذِي
عُرِفَ اسْتِعْمَالُهُ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ لَا الْمَصْدَرُ، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَهَوٌ، بَلْ يُقَالُ لَهَوْتُ بِكَذَا
عَنْ كَذَا، أَوْ تَلَهَيْتُ أَوْ التَّهَيْتُ بِهِ عَنْهُ، وَمِنْهُ: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١٠]، وَإِنَّمَا تَشَاغَلَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْأَعْمَى بِالتَّصَدِّي لِدَعْوَةِ كِبَرَاءٍ قُرَيْشٍ إِلَى الْإِسْلَامِ، لَا بِشَيْءٍ فِيهِ طَرَبٌ،
وَلَا سُرُورٌ نَفْسِي^(٢).

فاللهو في الأصل هو الاشتغال بما يلهي عما ينبغي.

وأما اللعب^(٣) فأصله من اللُّعَاب، وهو البَرَّاق السَّائِلُ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ، فَيَقَالُ: لَعَبَ يَلْعَبُ
لَعِبًا: أَي سَالَ لُعَابُهُ، وَلَعِبَ فُلَانٌ: إِذَا كَانَ فَعْلُهُ غَيْرَ قَاصِدٍ بِهِ مَقْصِدًا صَحِيحًا، يَلْعَبُ لَعِبًا، قَالَ
ابن فارس رحمه الله: وَقِيلَ: إِنَّ أَصْلَ الْبَابِ هُوَ الذَّهَابُ عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ.

فَيَكُونُ اللَّعِبُ ضِدَّ الْحِجْدِ، وَهُوَ الْعَبَثُ الْمَضْطَرِبُ غَيْرَ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي لَا يَقْصِدُ بِهِ الْإِنْسَانُ
قَصْدًا صَحِيحًا، فَيَأْخُذُ الْإِنْسَانُ فِي عَمَلِهِ غَيْرِ مِبَالٍ بِمَا أَمَامَهُ، فَلَا يَقْصِدُ بِهِ جَلْبَ مَنْفَعَةٍ، وَلَا
دَفْعَ مُضَرَّةٍ، فَيُظْهِرُ فِيهِ الْعَبَثَ، وَعَدَمَ انْشِغَالِ الْخَاطِرِ بِوَأَجِبَاتِ الْحَيَاةِ وَأَعْبَائِهَا، وَلِذَا يَطْرَحُهُ

(١) ديوان امرئ القيس (ص: ٢٨).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٠٣).

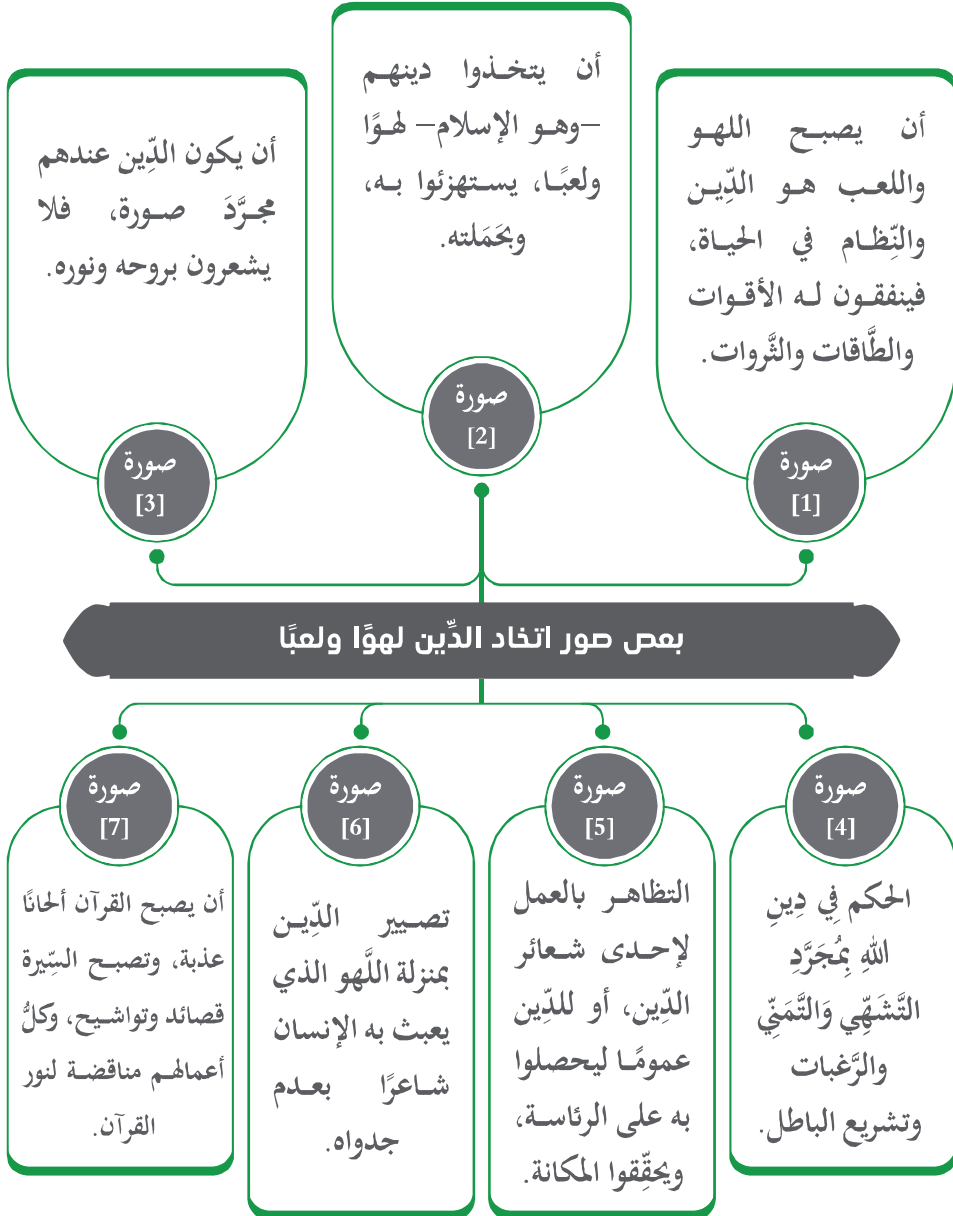
(٣) مقاييس اللغة (٥/ ٢٥٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٤١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٩٨٠).

الإنسان من حياته كما يطرح اللُّعاب، فيقصد الإنسان به الطَّرب، وجلب السُّرور، وَالْاِزْتِيَّاحَ عَمَّا يُتَعَبُهُ وَيَشْقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْجِدِّ، أَوْ يُحْزِنُهُ، أَوْ يَسُوُّهُ مِنْ خُطُوبِ الدُّنْيَا وَنَكَبَاتِهَا، وَاللَّهُوِ يَجْلِبُ السُّرُورَ، وَيَقْطَعُ الْوَقْتَ الْحَاضِرَ بِالْغُرُورِ مَا لَا تُقْصَدُ مِنْهُ فَائِدَةٌ صَحِيحَةٌ كَأَعْمَالِ الْأَطْفَالِ، فَمَا يُعَالِجُونَهُ مِنْ كَسْرِ حَبَّةٍ بِقُلٍّ، أَوْ إِزَالَةِ غِشَاءٍ عَنْ قِطْعَةٍ حَلَوَى لِأَجْلِ أَكْلِهَا لَا يُسَمَّى لَعِبًا^(۱).

فاللهو تشاغل بما لا معنى له ولا هدف عما له معنى وهدف، أو تشاغل بما له معنى وهدف عما يكون معناه وهدفه أعلى منه.

وأما اللعب فهو العبث الذي لا قصد له سوى جلب السُّرور المؤقت، وليس الدَّائم، وينبغي الاستغناء عنه بعد الانتفاع المؤقت به كَلْعَابِ الْإِنْسَانِ.

(۱) تفسیر المنار (۷/ ۳۰۳).





بعض صور اتخاذ الدِّينَ لهوًا ولعبًا:

انظر إلى التعبير المدهش: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كيف يمكن أن يتخذوا الدِّينَ

لهوًا ولعبًا؟ هل يمكن التمثيل بصور لهذا الاتخاذ؟

الجواب: هناك صورٌ متعددة لاتخاذ الدِّينَ لهوًا ولعبًا منها:

الصورة الأولى: أن يصبح اللهو واللعب هو الدِّينَ والنَّظام في الحياة، فينفقون له الأقوات والطَّاقات والثَّروات، ويجعلون اللهو واللعب محلَّ الدِّينَ، فيصبح هو الدِّينَ، ولتقريب هذه القضية ذكروا مثالًا عجيبًا في قصص "كليلة ودمنة" أن رجلاً وقع في بئرٍ، وقبل أن يصل إلى القاع تشبَّت بحبلٍّ أمامه، فأمسك به حتى لا يسقط في قاع البئر، وبينما كان يمسك بالحبلِّ وجد أنه كان يتدلَّى من شجرة في الأعلى، ويوجد في أدنى الشجرة قوارض تقرض الشجرة، أي: فئران، وحيوانات قارضة تريد قطع الشجرة، ويوجد في أعلاها حيَّات يوشك أن تصل إلى الجذع الذي يتدلَّى منه الحبلُّ، ويوجد في أسفل الشجرة تنينٌ لو سقط الرجل سيقع في فمه، فماذا يجب أن يفعل؟

يجب أن يسرع في تسلُّق الحبلِّ، وينجو قبل أن تُقطع الشجرة، وقبل أن تأتي إليه الحيات، وقبل أن يسقط في فم التنين، وبينما هو يصعد إذ رأى عنقودًا من الفاكهة اللذيذة، وبدلاً من أن ينقذ نفسه تلهي بهذا العنقود اللذيذ، فيوشك أن يسقط إلى فم التنين، أو أن تأتيه الحيات، أو تأتيه القوارض^(١)، وهذا مثال مضروب للتلهي بما يحرم من شهوات الدُّنيا عن الموت، الذي ربما يدهمه فلا يفيق إلا عندما يقول ربُّ ارجعون لعلِّي أعمل صالحًا فيما تركت، فَجُورُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، بِأَنْ لَمْ يُنْظَرْ لَهُمْ فِي إِصْلَاحِ الْعَاقِبَةِ.

(١) كليلة ودمنة، ابن المقفع (ص: ٨٩).

الصورة الثانية: أن يتخذوا دينهم - وهو الإسلام - لهوًا ولعبًا، فيستهزئوا به، وبحمّلته، وبمن يدعو إليه، ويعاملوه معاملة اللهو واللعب، فكما يعبث بالألعاب كذلك يعبث بدينه، ويظهر ذلك ابن عباس رضي الله عنه، فيقول: «وذلك أنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سَخِرُوا ممن دعاهم إليه وهَزَّؤُوا به، اغترارًا بالله»^(١).

الصورة الثالثة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، بأن يكون الدين عندهم مجرد صورة، فلا يشعرون بروحه ونوره، فيصلُّون لكن صلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وصلاتهم لا تدفعهم إلى أن يهتموا بالزكاة، وإن اهتموا لا يدفعوها إلى مستحقيها، وأعمال الإسلام لا تزكي أرواحهم، فالحج لا يمنعهم من أكل الحرام، أو ارتكاب الآثام، فأعمال دينهم التي يَعمَلُونَهَا لَمَّا لَمْ تَكُنْ مُزَكِّيةً لِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا مُهَدِّبَةً لِلْأَخْلَاقِ، وَلَا وَاقِعَةً عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي الرَّحْمَنَ، وَيَعِدُّ الْمَرْءُ لِلِقَائِهِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ، وَلَا مُصْلِحَةً لِشُؤْنِ الْجَمَاعِ وَالْعُمَرَانِ، كَانَتْ إِمَامًا صَرَفًا لِلْوَقْتِ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَهُوَ مَعْنَى اللَّعِبِ، وَإِمَامًا شَاغِلَةً عَنْ بَعْضِ الْهَمُومِ وَالشُّؤْنِ وَهُوَ اللَّهْوُ^(٢).

الصورة الرابعة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بأن حكموا في دين الله بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّيِّ وَالتَّمَنِّيِّ وَالرَّغْبَاتِ وَتَشْرِيعِ الْبَاطِلِ، فتجد أحدهم يحافظ على الصلاة مثلاً، ولكنه يأبى أن تُطَبَّقَ شريعة الله ﷻ في الاقتصاد، ويأبى أن تُطَبَّقَ شريعة الله ﷻ في الأمور الاجتماعية، مثل: غرض البصر، والحفاظ على العرض، والحفاظ على السُّلِّ، ويأبى أن يطبق مبدأ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فيجعل مبدأ: إنما أخوة (سايكس بيكو) هي الأخوة العليا.

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٣٧).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٠٣).

الصورة الخامسة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بأن يتظاهروا بالعمل لإحدى شعائر الدين، أو للدين عموماً ليحصلوا به على الرئاسة، ويحققوا المكانة، فيصبح الدين جزءاً من السياسة الدنيوية، وليس السياسة جزءاً من الدين.

الصورة السادسة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي: صيروا الدين بمنزلة اللهو الذي يعبت به الإنسان شاعراً بعدم جدواه، بل متى احتاج إلى أن يعبت به فعل، ثم تنصرف همته إلى ما يعلّفه همم، فصار الدين عندهم بمثابة اللهو الذي لا أهميّة له في الحياة.

الصورة السابعة: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بأن يصبح القرآن ألحاناً عذبة، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح، وكل أعمالهم مناقضة لنور القرآن، وهدى السيرة، فتمّ هذا التحوّل على حساب الإسلام، فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب، وحقّ فيمن فعلوا ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] (١).

يقول ابن القيم رحمه الله عن هذه الطائفة:

تُلِي الْكِتَابُ فَأَطْرَقُوا لَا خِيفَةَ	لَكِنَّهُ إِطْرَاقُ سَاهٍ لَاهِي
وَأَتَى الْغِنَاءُ فَكَالِدُّبَابِ تَرَاقَصُوا	وَاللَّهُ مَا رَقَصُوا مِنْ أَجْلِ اللَّهِ
دُفٌّ وَمِزْمَارٌ وَنَغْمُهُ شَاهِدٌ	فَمَتَى شَهِدَتْ عِبَادَةٌ بِمَلَاهِي
ثَقُلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا	تَقْيِيدَهُ بِأَوَامِرٍ وَنَوَاهِي
وَعَلَيْهِمْ خَفَّ الْغِنَاءُ لَمَّا رَأَوْا	إِطْلَاقَهُ فِي اللَّهْوِ دُونَ مَنَاهِي

(١) فقه السيرة، للغزالي (ص: ٦).

يَا فِرْقَةً مَا ضَرَّ دِينَ مُحَمَّدٍ وَجَنَى عَلَيْهِ وَمَلَّهُ إِلَّا هِيَ^(۱)

ويلحق بهذه الصورة السابعة من يجعلون دينهم طريقاً لتشريع الفسق والعدوان، وَقَدْ رُوِيَ الْقَوْلُ بِهَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «جعل الله ﷻ لكل قوم عيداً يُعَظَّمُونَهُ، وَيُصَلُّونَ فِيهِ وَيُعَمَّرُونَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى. ثم إن الناس -أكثرهم من المشركين، وأهل الكتاب- اتَّخذوا عيدهم لهواً ولعباً غير المسلمين، فإنهم اتَّخذوا عيدهم كما شرعه الله تعالى»^(۲).

ففي ما يسمى أعياد ميلاد المسيح تجد موسماً خصباً لكل معصية، فيشربون الخمر، ويأتون الزنا والفواحش، وينفقون الأموال الهائلة الضخمة في كل مظاهر الزينة المباحة والمحرمة.

وفي تقديم اللهو على اللعب في هذه السورة بخلاف معهود القرآن، قال البقاعي رحمته الله: «ولما قدَّم ما هو أدعى إلى الاجتماع على الباطل، الذي هو ضدُّ مقصود السورة من الاجتماع على الجِدِّ وأدعى إلى الغفلة، وكان من شأن الغفلة عن الخير أن تجرَّ إلى استجلاب الأفراس والانهمك في الهوى، حَقَّقَ ذلك بقوله: ﴿وَلَعِبًا﴾ أي: إقبالاً على ما يجلب السرور ويقطع الوقت الحاضر بالغرور»^(۳).

فهذه هي الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، فما الصفة الثانية من صفات أهل

النار؟

الجواب:

(۱) مدارج السالكين، ابن القيم، (۱/ ۴۸۴).

(۲) تفسير الرازي (۱۳/ ۲۴).

(۳) العين (۴/ ۳۴۶)، مقاييس اللغة (۴/ ۳۸۰)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (۲/ ۷۶۸)، المفردات في غريب القرآن

(ص: ۶۰۳)، تاج العروس (۱۳/ ۲۱۴)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (۳/ ۱۵۶۲).

الصفة الثانية: الاغترار بالحياة الدنيا ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾:

ما الحكمة في مجيء هذه الصفة بعد الصفة الأولى؟

الجواب: في الصفة الأولى قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، فبين سبحانه أنهم سَخِرُوا من الدين الحق، وتركوه، وجعلوه بمنزلة اللهو واللعب، ثم انتقلوا إلى بناء دار الدنيا، كأنهم سيخلّدون فيها، فجاءت الصفة الثانية: ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، وكأن الصفة الثانية سبب للصفة الأولى، فالاغترار بالحياة الدنيا جعلهم يتخذون دينهم لهواً ولعباً، ولذلك كان من أهم معالم اتخاذ دينهم لهواً ولعباً أن يحجبوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عن الظهور في الوسائل الإعلامية، والمنتديات الثقافية والوسائل التواصلية، لأنها وسائل تذكيرية، فبدلاً من أن يجعلوا الناس يتذكرون الله ﷻ والدار الآخرة يجعلونهم ينغمسون في الشعور بضخامة الدنيا، والتنافس فيها، فيملؤون المنتديات الثقافية والإعلامية بكل ما من شأنه أن يأخذ بالأجيال إلى زيادة الغفلة، إلى العبث، إلى الإجرام، وترزين الفحشاء، وتجميل المنكرات، بل وصلوا إلى أن يزيّنوا تناول المخدّرات وإشاعة المسكرات.

وهؤلاء الذين غرّتهم الحياة الدنيا وخدعتهم، ولكنهم في الوقت نفسه يظهرون أنفسهم أذكياء وناجحين في حياتهم. لقد عموا عن الحياة الدنيا وعن حقيقة زوالها، وعن انتقالهم إلى دار دائمة وباقية، وأملوا طول العمر والبسط في الرزق ورغد العيش. هذا سبب الترتيب بين الصفتين.

فإن قلت: فما معنى ﴿عَرَّثَهُمُ﴾؟ وما قوّة التعبير بهذه الكلمة؟

الجواب: كلمة ﴿عَرَّتْهُمْ﴾ مشتقة^(١) من عَرَّه الشَّيْطَانُ يَعْرِهْه بضم الغين عَرًّا بالفتح، وعُرُّورًا، بالضم، وعِرَّةً، بالكسر، وعَرَّارًا، محرَّكةً، فهو مَعْرُورٌ وعَرِيرٌ، فالعُرُّ والغرور: انخداع الإنسان بالباطل بسبب غفلة قد تورث اطمئننا، أو تكبرًا، فيعتقد الإنسان الشيء نافعًا بحسب الظاهر، ثم يجد أنه ضار، أو لا نفع فيه عند التجربة، وهو مأخوذٌ مِنَ الْعِرَّةِ (بِالْكَسْرِ)، وَالْغَرَاةِ (بِالْفَتْحِ) بِمَعْنَى الْعِفْلَةِ وَعَدَمِ التَّجَرُّبَةِ، ويقال: رجلٌ عَرٌّ بالكسر وعَرِيرٌ، أي: غير مجرب يُخدع يُيسر؛ لغفلته واطمئنانه بأفعاله الغيبية التي يظنُّ نفسه فيها ذكيًا.

فقوله: ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الحياة الدنيا بما فيها مِنَ الْأَعْرَاضِ البراقة الجذابة، وعموا عن حقيقة نقصها وزوالها، وظنُّوا أَنَّ الموتَ بعيدٌ وَقْتُهُ، وآثروا عاجلَ ما هم فيه من العيش الرغيد والدعة، حَتَّى صَارُوا بِذَلِكَ مَحْجُوبِينَ عَنِ النَّظَرِ فِي حَقَائِقِ الدُّنْيَا، وأنها وسيلة لا غاية، وحينها لم يَحْسِبُوا حِسَابَ ما وراءها، فلم يستعدوا للآخرة كما ينبغي، حتى أتهتهم المنية، ولقد شعر ابن عبد ربه رحمه الله -الذي كان من أمراء الأندلس، ثم زهد في الدنيا- بحقيقة ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾، فقال:

عَايَنَ بِقَلْبِكَ! إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ	عَنِ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرٌ
سَوْدَاءُ تَرْفُرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سُعِرَتْ	لِلظَّالِمِينَ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ
إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا دُنْيَا بآخِرَةٍ	وَشَقِوَةً بِنَعِيمٍ سَاءَ مَا تَحْجَرُوا
يَا مَنْ تَلَهَّى، وَشَيْبُ الرَّأْسِ يَنْدُبُهُ	مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظُرُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ	لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجِرٌ ^(٢)

(١) العين (٤/ ٣٤٦)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٠)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٦٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٠٣)، تاج العروس (١٣/ ٢١٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٦٢).

(٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (ص ١٠٣).

﴿عَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ فهم يجمعون لها، ولا يعملون لحياة بعدها، فهم في ازدياد ونهم لا ينقطع عن طلبها، وكلما ازداد المرء من الدنيا اغترَّ بها أكثر، ولذا قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٦﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩-٤٠].

فماذا تساوي الدنيا حتى يغتر بها المرء؟ ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وَتُجْمَعُ فِي لَوْحٍ حَفِيظٍ وَتُكْتَبُ	ذُنُوبُكَ يَا مَغْرُورٌ تُحْصَى وَتُحَسَبُ
وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا حَرِيصٌ مُّعَذِّبٌ	وَقَلْبُكَ فِي سَهْوٍ وَكُهْوٍ وَغَفْلَةٍ
وَتَسْعَى حَيْثًا فِي الْمَعَاصِي وَتَذْنِبُ	تُبَاهِي بِجَمْعِ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ
أَمَّا أَنْتَ مِنْ بَعْدِ السَّلَامَةِ تَعْطَبُ ^(١)	أَمَّا تَذْكُرُ الْمَوْتَ الْمُفَاجِئَ فِي عَدٍ

وقد ضرب الله ﷻ للدنيا ثلاثة أمثال في القرآن المجيد منها: أنه مثلها بالمطر الذي يصيب الأرض القاحلة اليابسة، فتنبَّت به الأعشاب، وتبدأ الأشجار بالإثمار، وتزهو بالزهور المختلفة التي تسر الناظر، وتأخذه بالإعجاب، وسرعان ما تتغير خضرتها إلى صفرة، ووجهها المليح إلى ييس وكُدرة؛ قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

لقد كان قمينًا بالمرء العاقل الفطن أن يجعل من حياته مزرعة لآخرته، فيتزود أكمل الزاد وأجمله لمقامه الطويل في جنة الله، ولكن يا لله وللغفلة حينما تضرب بأطنابها على القلوب!

(١) الأبيات غير منسوبة لأحد. ينظر: مجموع القصائد الزهديات، السلمان، (٢/ ٢٠١).

ويذكر أَنَّ الدُّبَّ القُطْبِيَّ يأخذ جميع ما يحتاج من أطعمة من أجل موسم البَيَات الطَّوِيل، ويُجَهِّز نفسه في جسده الدَّاخِلِي لِيحتمل ذلك الموسم، وكذلك الطُّيُور تهاجر من مكان إلى مكان حتى تبحث عن رزقها. إِذَا لماذا لا يفكر الإنسان بهجرته التي سيتقل إليها بعد الموت؟ وفي مقابل الذين غرَّتهم الحياة الدُّنْيَا نجد حُذَيْفَةَ بن اليمان ؓ الذي قال فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «لَوْلَا أَنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ آخِرُ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى - يعني إِذَا كَانَ الْغِنَى مدعاة للغفلة، وإلا فنعم مطيَّة المؤمن - وَأُحِبُّ الدَّلَّةَ عَلَى الْعِزِّ - يعني عدم الظهور - وَأُحِبُّ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ - يقصد ما دام ذلك كله سيعده عن معصية الله، ثم قال عن الموت - حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مِنْ نَدَمٍ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَبَقَ بِي الْفِتْنَةَ قَادَتَهَا وَعُلُوجُهَا»^(١).

وقبله معاذ بن جبل ؓ الذي قال فِي حَقِّهِ ؓ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ إِذَا حَضَرُوا رَبَّهُمْ ﷺ كَانَ مُعَاذَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ رَنُوتَةٌ^(٢) بِحَجَرٍ»^(٣)، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِجَارِيَّتِهِ: «وَيْحَكَ هَلْ أَصْبَحْنَا؟ قَالَتْ: لَا، ثُمَّ تَرَكَهَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: انْظُرِي، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صَبَاحِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ، مَرْحَبًا بِزَائِرٍ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مِنْ نَدَمٍ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِكُرِّي الْأَنْهَارِ، وَلَا لِعَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَلَكِنْ كُنْتُ أُحِبُّ الْبَقَاءَ لِمُكَابَدَةِ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٨٢).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١٢٨٧)، وذكر الألباني في الصحيحة (١٠٩١)، وذكر أنه روي مرسلًا من عدة أحاديث، بعضها إسنادها جيد.

(٣) الرُّتُوة: الرِّمَّة. ينظر: تاج العروس (١٢٤/ ٢٨).

اللَّيْلِ الطَّوِيلِ، وَلِظَمِّ الْهَوَاجِرِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، وَلِمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ فِي حَلَقِ الذِّكْرِ^(١).

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»^(٢).

ثم ننتقل إلى الصفة الثالثة:

الصفة الثالثة: نسيان لقاء الله ﷻ، ويُبَصِّرُنَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾:

وعندما تتدبَّر هذه الصفة فإنك تجد (الفاء)، وبعدها ﴿الْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾، فما معنى النسيان، وبعدها تجد ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، فما محلُّ هذه الجملة؟

الجواب: تعال نبين تصوير هذه الكلمات كلُّها:

أما ما نوع الفاء الموجودة في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾؟

هذه الفاء للتفريع، ولكن لها مزية خاصة هنا، فهي تعبر عن أسلوب قرآني مميز: فيمكننا أن نسميها: حوار التلقين، واشتهر عند أهل العلم، بعطف التلقين؛ لكثرة وجوده بحروف العطف، وخلاصة تعريف هذا النوع:

أن تعطف جملةً على جملةٍ على أن يكون المتكلم بالجملة الأولى غير المتكلم بالجملة الثانية، والمتكلم بالجملة الثانية يُلقِّن الأول شيئاً جديداً مع التسليم بمضمون الجملة الأولى، فالطَّرَف الثاني يلقِّن الطَّرَف الأول كلاماً يكمل به ما بدأه الطَّرَف الأول كلامه طالباً،

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٤٩)، وقال المحقق (أبو الأشبال الزهيري): «إسناده ضعيف».

(٢) البخاري (٤٠١٥)، مسلم (٢٩٦١).

أو راغبًا، أو منبهاً. قال ابن عاشور رحمته الله: «هو تلقين السامع المتكلم ما يراه حقيقة بأن يلحقه بكلامه، فقد يكون بطريقة العطف وهو الغالب»^(١).

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: رب قل تفضلاً منك: وكذلك من ذريتي -أي ذرية إبراهيم عليه السلام-، فعطف قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ على الكاف في ﴿جَاعِلُكَ﴾، فهنا يدخل ضمن مسمى عطف التلقين، إلا أن ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي رحمته الله (ت ٦٨٥ هـ) قال عنه: «هو كعطف التلقين تأدباً مع الله تعالى، فلا يعقل أن نقول: إبراهيم عليه السلام يلقن الله تعالى، بل يرجو فضله»، ويمكنك أن تقول: التلقين ليس بالضرورة إملاء، أو فرض، بل قد يكون سؤالاً أو طلباً، وقد سبق البيضاوي الإمام سعد الدين التفتازاني رحمته الله (ت ٧٩٢ هـ) في هذه التسمية^(٢).

تعال نطبق ذلك هنا: أصحاب الجنة: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١] هنا تأتي فاء التفرع التلقينية لتعبر عن نتيجة حتمية، وتقدير الكلام هنا: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١] فقال الله تعالى ملقناً أهل الجنة: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، فكان أهل الجنة قالوا الأمر ذاته لأهل النار: فاليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا.

وهنا سنتقل إلى قوله: ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فما معنى النسيان؟ وما وجه قوة هذه الكلمة؟

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٠٤).

(٢) ينظر: حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي = عنايه القاضي وكفاية الرازي (٢/ ٢٣٣، ٢٣٤).

الجواب: ﴿نَسُوا﴾^(١): من (نَسِيَ) ينسى نسياناً، وهي كلمة تدلُّ على ترك خاصٍّ، وعَرَفَ الرَّاغب ﷺ النسيان بأنه: «تَرَكَ الْإِنْسَانُ ضَبْطَ مَا اسْتُوْدِعَ؛ إِمَّا لَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَإِمَّا عَنْ غَفْلَةٍ، وَإِمَّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَدِفَ عَنِ الْقَلْبِ ذِكْرُهُ». هذا ما قاله الراغب ﷺ، ويحتاج إلى زيادة ضبط، ويرى د/ جبل ﷺ أنه مشتقُّ من "النَّسَا" - كَالْعَصَا: عِرْقٌ يَخْرُجُ مِنَ الْوَرِكِ، فَيَسْتَبْطِنُ الْفَخِذَيْنِ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْعُرْقُوبِ حَتَّى يَبْلُغَ الْحَافِرَ، وَيَقَالُ: نَسِيَ عَلَى وَزْنِ تَعِبَ: اشْتَكَى نَسَاهُ، أَي: أَصَابَهُ عِرْقُ النَّسَا، فَأَفَدْنَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي النسيان التَّغْيِيبُ.

ويمكن أن نعرف النسيان بأنه: غيابٌ لما يُفترض أن يُحافظ عليه، سواء أكان متعمّداً، أم غير متعمّد، فهو ترك للشيء حتى يصير في حيز الإهمال الكامل إمّا عمداً، وإمّا عن غير عمد. فالنسيان كلمة جامعة تشمل نوعين:

الأول: ما يكون تركاً بسبب ضياع المتروك من الذاكرة لا من الحافظة، ومن ذلك نَسِيتُ اسم فلان، إِذَا لَمْ تَذْكُرْهُ، ولست مؤاخذاً على ذلك في الغالب.

الثاني: ما يكون تركاً لعدم الرّعاية والعناية تعمّداً، فتقصد إغفال الشيء حتى كأنه غير موجود في حياتك، وكأنه لم يمرّ عليك، ثم يصبح منسياً بسبب تعمّد سابق، فالنسيان اللاحق تؤاخذ عليه؛ لأنك سببته لنفسك لعدم الرعاية والعناية، كأن تتأخّر عن النّوم أياماً متعاقبة متعمّداً، لعدم وقوع الاهتمام بالاستيقاظ للصلاة في وقتها، ثم يصبح ذلك لك عادة، فإن سئلت: لِمَ لَمْ تَضْبِطِ الْمُنَبّهَةَ؟ تقول: نسيته.. انتبه: أنت هنا مؤاخذ، فالنسيان هنا لا يرفع إثم ما يترتب عليه عنك، ومثل ذلك النّظر الحرام يعتاده الإنسان، فيقال له: لِمَ لَمْ تَصْرِفْ نَظْرَكَ وَأَنْتَ مُسْلِمٌ؟ فيقول: نسيته... فقول له: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]

(١) مقاييس اللغة (٥ / ٤٢١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٠٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤ / ٢١٨٣).

أي: نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل لليوم الآخر متمعدين، حتى صار في حيز الغياب، فالتَّرك لم يكن معتاداً، بل كان تركاً أصروا فيه على أطراح ما تركوه، حتى كأنهم لم يروه، ولم يسمعوه، ولا مرَّ في حياتهم.

والآن انظر كيف أخبرنا الله ﷻ بهذه الصفة: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، فهذه صياغة لافته للنظر، فهل هذه صفة من صفات هؤلاء الذين حرَّم الله ﷻ عليهم الماء والرِّزْق في الآخرة، أم أنَّ هذه نتيجة؟ فالله ﷻ لم يقل: الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدُّنيا، ونسوا لقاء يومهم هذا؟

الجواب: هذه الصياغة المدهشة حققت ثلاثة أهداف، وهذا من المميزات الأسلوبية الفريدة للقرآن؛ إذ تأتي العبارة لتحقيق مجموعة أهداف بدلاً من هدف واحد:
الأول: يبيّن الصفة الثالثة من صفات الذين حرَّم الله ﷻ عليهم الماء والرزق في الآخرة، وهي صفة نسيان لقاء اليوم الآخر ﴿نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾.

الثاني: يبيّن جزاءهم المقابل: فنسيانهم لليوم الآخر، سيقابله جزاء عادل، هو النسيان لهم: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾.

الثالث: هذه الصياغة تجيب عن سؤالٍ يطرحه كثيرٌ من الناس، فيقولون: هل يستحقُّ المعذَّبون في النار هذا العذاب الدَّائم؟ فيجيبهم الله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي سنتركهم، ولن نرعاهم برعايتنا ولا بحفظنا، لأن من صفاتهم أنهم نسوا لقاء هذا اليوم الذي سيصبح المستقبل الدَّائم.

وستسأل: ما العلاقة بين هذه الصِّفَات الثلاث؟

الجواب: تظهر العلاقة من خلال الآتي:

فالصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] تحدّثنا عن حياتهم، فقد كان اللهو واللعب دينهم، أي: نظامهم الرّسمي، وهزئوا من الدّين أنزله الله ﷻ. واعتنقوا مكان الدّين الحقّ اللّهُ واللّعب، فجعلوهما دينًا يعملون له في حياتهم. وأما الصفة الثانية: ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١] فبيّنت لنا سبب اتخاذهم دينهم لهوًا ولعبًا، وهو الاغترار بالحياة الدُّنيا.

وأما الصفة الثالثة: ﴿سُئِلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فتبيّن لنا أنهم مع اغترارهم بالحياة الدُّنيا، تركوا ذكر لقاء الآخرة والاستعداد له تركًا متعمّدًا، يصل إلى درجة النسيان الكامل، حتى غيّبوه من حياتهم، فكان يمكن أن يغترُّوا بالحياة الدُّنيا دون أن ينسوا لقاء الآخرة، لكنهم جمعوا بين الاغترار بالدُّنيا، ونسيان الآخرة.

وهذه الصفة والنتيجة تذكّرنا بقول سلمان الفارسي رحمه الله: «أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: ضحكت من مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل لا يُغفل عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أمس خط ربّه أم مرضيه.

وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وهول المَطْلَع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي ربّ العالمين، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة»^(١).

وعن عبد الله الدّاري رحمه الله قال: «كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِاللّهِ وَالْقَبُولِ مِنْهُ يَقُولُونَ: إِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا تَكْثُرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، وَإِنَّ الشَّبَعَ يَقْسِي الْقَلْبَ، وَيُفْتَرُّ الْبَدَنَ»^(٢).

(١) حلية الأولياء (٢٠٧/١)، وهو مروي عن أبي الدرداء رحمه الله في الزهد لابن المبارك (٨٤/١)، والمجالسة وجواهر العلم للدينوري (٣٨٩/٢)، وقال محققه (أبو عبيدة مشهور): إسناده ضعيف.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٨٨/٦).

ولكن ماذا تعني كلمة ﴿نَنْسَهُمْ﴾؟ وهل الله -تعالى ذِكْرُهُ- يَنْسى، وهو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؟ فالمعروف أن النسيان صفة نقص تدلُّ على ضعف صاحبها في أمر العلم والاستحضار والإحاطة بالأخبار، فكيف يوصف بها الله ﷻ؟

الجواب: ﴿نَنْسَهُمْ﴾ معناه: نتركهم مهملين لهم في العذاب الممين جياعاً، عطاشاً، بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتباع أبدانهم ببناء المستقبل الذي حدّثناهم عنه.

فالنسيان هنا بمعنى الترك والإهمال وعدم الرعاية، وليبيّن ابن عباس ؓ ذلك قال: «نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر»^(١).

فالنسيان هنا هو التَّرك المتعمّد، الذي يفضي إلى الإهمال التامّ، كأنهم غير موجودين، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] أي فترك العَهْدَ، فلو كان نسي يعني: أنه لم يخطر في باله أن الذي سيفعله ذنبٌ لعَذَرَهُ اللهُ ﷻ؛ لأن الله ﷻ علّمنا بأنّه لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، لكن آدم ﷺ نسي، أي: ترك ما أمره الله ﷻ تركاً فيه إهمال، حتى لم يخطر في باله نهْيُ اللهِ ﷻ له أن يقرب الشجرة؛ بسبب التزيين الشيطانيّ، مع علمه قبل ذلك بأن هذا ذنب.

فقوله: ﴿نَنْسَهُمْ﴾ أي: نتركهم دون رعاية أو عناية أو حفظ على سبيل الإهانة، كما تركوا الإعداد للقاء يومهم هذا.

(١) تفسير الطبري، ط: دار الحديث (٥/ ٣٧٠)، وقال إسلام منصور: «إسناده ضعيف؛ فيه عائلة العوفي الضعفاء».

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: تركهم تركاً مقصوداً، مهملاً لهم من رعايته وحفظه، حتى كأنهم غير موجودين، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، أي: جعلهم يتركون أنفسهم تركاً مقصوداً من أن يقوموا بحفظها لتتقي النار القادمة في الآخرة.

وَعَنْ نُعَيْمِ بْنِ نَمْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ فِي خُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَعْدُونَ وَتَرَوْحُونَ لِأَجَلٍ مَعْلُومٍ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْقُضِيَ الْأَجَلَ وَهُوَ فِي عَمَلِ اللَّهِ ﷻ فَلْيَفْعَلْ، وَلَنْ تَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﷻ، إِنْ قَوْمًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَهَآكُمُ اللَّهُ ﷻ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ؟ قَدَّمُوا مَا قَدَّمُوا فِي أَيَّامِ سَلَفِهِمْ، وَحَلُّوا فِيهِ بِالشَّقْوَةِ، وَالسَّعَادَةِ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ بَنَوْا الْمَدَائِنَ وَحَفَفُوهَا بِالْحَوَائِطِ؟ قَدْ صَارُوا تَحْتَ الصَّخْرِ وَالْآبَارِ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ ﷻ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، فَاسْتَصِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ ظُلْمَةٍ، وَاسْتَنْصَحُوا بِسَنَائِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ: ﴿كَأَنَّا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَأَنَّا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، لَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ، وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ لَا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً^(١).

(١) المعجم الكبير للطبراني (١/ ٦٠)، حلية الأولياء (١/ ٣٦)، وضبط بإسكان الميم، وذكر الهيم في مجمع الزوائد (٣٥١٢٩): أنه نعيم بن محة، وأنه لم يجد من ترجمه. وفي جمع الجوامع للسيوطي (١٤/ ١٦٩)، وكنز العمال (٤٤١٧٩) أنه نعيم بن قمحة، والصواب أنه نعيم بن نَمْحَةَ، ذكره الحافظ المزي في التهذيب (٥/ ٥٧٠) ضمن شيوخ: حريز بن عثمان.

سبق لنا أن عرفنا أن كلمة ﴿مَا﴾ تأتي لمعانٍ متعددة، فقد تكون مصدرية، وقد تكون موصولة، وقد تكون نافية، وقد تكون استفهامية، فما المعنى الذي ظهرت به كلمة ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]؟

الجواب: (ما) في: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ وفي ﴿وَمَا كَانُوا﴾ [الأعراف: ٥١] مصدرية، والتقدير: فاليوم نساهم كنسيانهم اللقاء يومهم هذا، وكجحدهم بآيات الله ﷻ مجازاة لهم بما عملوه في الدنيا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْكَافَ هُنَا لِلتَّلْعِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: لِهَدَايَتِهِ لَكُمْ، وهذه الجملة توضّح العدل الإلهي المطلق في الحكم، فالجزء من جنس العمل^(١).

والنبي ﷺ يوضّح لنا ذلك توضيحاً دقيقاً مباشراً، إذ يذكر بعض أحداث هذا النسيان المخصوص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن الله: «فَلَقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍّ -تصغير وترخيم لقولك يا فلان، أي إن الله يناديه باسمه الذي يُعرف به، وقد يناديه بكلمة فلان لعدم إكرامه كأنه غير عابئ به- أَلَمْ أُكْرِمَكَ، وَأُسَوِّدَكَ، وَأُزَوِّجَكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ، وَتَرَبُّعٌ؟ فَيَقُولُ: بَلَى.

فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا.

فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي -أي: أتركك مهملاً لك من رعايتي، كما تركتني مهملاً لحقي-.

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٩٢).



ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي، فَيَقُولُ: أَيُّ قُلٍّ أَلَمَ أَكْرَمَكَ، وَأَسَوَّدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرَكَ تَرَاسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيُّ رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَطَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، -فيحاول هذا أن يراوغ ويكذب-، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا. -قَالَ- ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ.

وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ -أي ليجد اللوم من نفسه-. وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ^(١).

فَنَسِيانَ اللَّهِ ﷻ لَهُمْ يَعْنِي أَنَّهُ يَتْرَكُهُمْ تَرْكًا مُفْضِيًّا إِلَى إِهْمَالِهِمْ إِهْمَالًا يَعْلَمُونَ مَعَهُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ

لَا يَبَالِي بِهِمْ، كَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَوْجُودِينَ، فَمَنْ الَّذِي سَيَتَعَامَلُ مَعَهُمْ؟

الجواب: عندما يتركهم الله ﷻ من رعايته وحفظه، تنفرد جهنم وخزنتها بالتعامل معهم ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۖ وَإِذَا أُقْبُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢ - ١٤].

عرفنا فيما سبق ثلاث صفات لهؤلاء الذين قال أهل الجنة عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى

الْكَافِرِينَ ۖ﴾ ﴿فَمَاذَا يَعْنِي قَوْلُ اللَّهِ فِي خَتَامِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾﴾؟

الجواب: هذه هي:

(١) مسلم (٢٩٦٨).

الصفة الرابعة من صفات الذين حَرَّمَ الله ﷻ عليهم الماء والرزق في الآخرة: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١):

كلمة ﴿مَا﴾ مصدرية^(١)، وليست نافية مع أن الموقف يحتمل عند التفصيل، أي: ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، وكما كانوا بآياتنا يجحدون.

ولكن ما معنى الجحد؟ ما الحكمة من استخدام هذه الكلمة في التعبير عن موقف الظالمين الكافرين من آيات رب العالمين؟

الجواب: هذه الكلمة (جحد)^(٢): تصوّر لنا موقف هؤلاء الخاسرين من آيات الله ﷻ، فهم لم ينكروها إنكار جاهل أو عالم بأنها ليست حقاً، بل ينكرونها إنكار عالم بأنها حق، فأصل الجحد يدل على قلة الخير - كما يقرر ابن فارس ربه الله - فيقال: عامٌ جحدٌ: قليل المطر، جافٌ يابس، ويقال: أن تنبت الأرض فيه، ورَجُلٌ جحدٌ إذا كان ضيقاً قليل الخير، وتقول لصاحبك إذا أنت أحسنت إليه ثم فعل عكس الشكر: يا جاحد، فتدل على نكران الجميل والمعروف، وعلى إنكار الحق، وقد جحد، وجحد، وأجحد، جحدوا، وجحدوا، وفرس جحد - بالفتح - والأنثى بتاء: غليظٌ قصير، أي: لا يؤمل منه، كما يؤمل من غيره، وأرض جحدة - بالفتح -: يابسة لا خير فيها)، وعرف الراغب الجحود بأنه: «نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه»، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، أي: ينفون بلسانهم ما تثبته قلوبهم، وأنت إن أحسنت لأحدهم، وبدلاً من أن يشكرك

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٦٢/٥).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٤٢٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٨١).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٧).

ويذكر لك هذا الموقف ينكر فتقول له: أنت جاحد، أي أنت تعرف بقلبك أنني أحسنت لك لكنك تكذب بلسانك.

وذكر د/ جبل رحمه الله أن المعنى المحوري جفاف الباطن ويُسِّسُه على ما يتجمع فيه من قُوَى، فلا تنبسط إلى ما يُتَوَقَّع منها، كالفرس القصير لم يمتدَّ إلى طولٍ مثله، كأنَّ قُوَّةَ النُّمُو فيه جُمِدَتْ، وكذلك النبات، والأرض الجَّحْدَةُ يُتَوَقَّعُ أن تُنْبِتَ ككُلِّ أرض، لكنَّ باطنها يَبْسُ خَيْرُهُ وجُمُد.

ومن ذلك: الْجُحُوْدُ، وَهُوَ ضِدُّ الْاِقْرَارِ، فهو منع وإنكار، وَلَا يَكُوْنُ إِلَّا مَعَ عِلْمِ الْجَاحِدِ بِهِ أَنَّهُ صَحِيْحٌ، أي مع علم قلبه حَقِيَّةَ ما ينكره فهذا جفاف باطن، فلا يتأثر ولا يستجيب لما يطرا عليه من علم أو خير.

فالجحود جفاف في الباطن يفضي إلى نفي ما يجب إثباته من الإيمان بالله واليوم الآخر والتسليم لرسله وشرعه، فالمعنى: نتركهم من رعايتنا ونهملهم، كأنهم غير موجودين، لتنفرد جهنم بهم، كإهمالهم رعاية لقاء هذا اليوم؛ جزاءً وفاقا، ولكونهم ينكرون آياتنا إنكاراً بألستهم ووسائل إعلامهم، عارفين في قلوبهم بأنها حقٌ مبين.

وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تدلُّ على رسوخ جحودهم بآيات الله ﷻ، فالكينونة هنا تدلُّ على موقف قديم ازداد ثباته مع الأيام، بدليل الفعل المضارع في قولهم: ﴿يَجْحَدُونَ﴾.

وهنا قد تتساءل: بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ الْمَاءَ وَالرَّزْقَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ثُمَّ عَرَفُوا الْكَافِرَ الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ وَالرَّزْقَ فِي دَارِ الْقَرَارِ، فَقَالُوا: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِبَآئِنَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]، فلماذا لم يكتف أهل

الجنة بوصف الذين حرّم الله عليهما الماء والرّزق بالكفر؟ لماذا وصفوهم بهذه الصّفات الأربع؟

الجواب: لأنّ الله ﷻ يُبَصِّرُنَا بصفاتٍ قد يقع فيها بعض المسلمين، فلا يظنّ المسلم أنه في منأى عن هذا الوعيد الهادر الشديد، ويكون المقياس: وجود هذه الصّفات الأربع، وليس الجنسيّة الدّينية.. يعني ليس المقياس أن يوصف فلان بأنه كافر، وفلان بأنه مسلم، بل أن ينظر الإنسان: هل هو ممّن اتخذ دينه لهوًا ولعبًا، وهل هو ممّن غرّته الحياة الدّنيا؟ وهل هو ممّن نسي لقاء اليوم الآخر؟ وهل هو ممّن كانوا بآيات الله يجحدون؟.. نسأل الله العفو والعافية.

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ يذكّرنا أن هناك كفرًا أكبر، وهناك كفرًا أصغر، وقد يقع المسلم في هذه الصّفات الأربع، وهو لا يشعر، وبعض الناس يعتقد أنه بمجرد أن يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، قد أمّن بذلك أن يكون له هذا المصير، ثم يقترف كلّ الموبقات، والجرائم العظام.

يَا مُذْمِنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِ وَاللَّهُ فِي الْخَلْقِ ثَانِيكََا
عَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ وَسَتَرُهُ طَوْلَ مَسَاوِيكََا

نعود إلى هاتين الآيتين العظيمتين ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْيِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿[الأعراف: ٥٠، ٥١]،

فكيف يصبح القرآن تطبيقًا عمليًا مؤثرًا علينا في حياتنا من خلال هاتين الآيتين؟

الجواب: من الله علينا فتحادثنا فيما سبق عن معاني هاتين الآيتين، ولكننا ينبغي أن نعود لهما لنغرس التعظيم لما جاء فيهما، والخضوع والبكاء عند تلاوتهما، فتعلم منهما كيف نبكي من خشية الله، فقد أنبي الحسن البصري رحمته الله بكُوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: ذكرت أمانة أهل النار.. قولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وذكرت ما أجيبوا به ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] ^(١)، وقال: بلغنا أن الباكي من خشية الله سبحانه لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق رقبتة من النار. أي: كيف لا نجتهد إذا فتنزل دمعة منا من خشية الله سبحانه، ولكن الشرط أن تكون من خشية الله، لا رياءً، ولا لعباً.

وقال أيضًا: لو أن باكيًا بكى في ملاء من خشية الله سبحانه لرحموا جميعًا، وليس شيء من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله؛ فإنه لا يقوم الله سبحانه بالدمعة منه شيء، -ولو استثنى الصيام لكان أولى-.

وقال: ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب.

وأورد الإمام ابن الجوزي رحمته الله عن الحسن رحمته الله أنه جلس ذات يوم يعظ الناس، فجعلوا يزدحمون عليه ليقربوا منه، فأقبل عليهم، وقال:

يا إخوتاه، تزدحمون عليّ لتقربوا مني؟

فكيف بكم غداً في القيامة إذا قربت مجالس المتقين، وأبعدت مجالس الظالمين، وقيل للمُخَفِّين -الذين لم تثقلهم خطاياهم فإن الله سبحانه سمى الخطايا أثقالاً- جُوزوا -أي اعبروا الصراط-، وللمُثْقَلِينَ حُطُّوا؟ فيا ليت شعري: أمع المثقلين أخط، أم مع المخفين أجوز؟ ثم

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦ / ١٨٩).



بكى، وبكى من حوله، فأقبل عليهم وناداهم: يا إخوانه، ألا تبكون خوفاً من النار؟ ألا من بكى خوفاً من النار نجاه الله ﷻ منها يوم يُجرُّ الخلائق بالسلاسل والأغلال.

يا إخوانه، ألا تبكون شوقاً إلى الله ﷻ. ألا وإن من بكى شوقاً إلى الله ﷻ، لم يحرم من النظر غداً إلى الله ﷻ إذا تجلّى بالرحمة، وأطلع بالمغفرة، واشتدَّ غضبه على العصاة.

يا إخوانه، ألا تبكون من عطش يوم القيامة؟ يوم يُحشر الخلائق وقد ذبلت شفاههم، ولم يجدوا ماءً إلا حوض المصطفى ﷺ، فيشرب قوم، ويُمْنَع آخرون. ألا وإن من بكى من خوف عطش ذلك اليوم سقاه الله ﷻ من عيون الفردوس.

قال: ثم نادى الحسن ﷺ: وأذْلَاهُ إِذَا لَمْ يُرَوْ عَطْشِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

(١) بحر الدموع (ص: ٣٥).

خاتمة المراحل الخمس

تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع القرآن الكريم

[الأعراف: 52-53]

القرآن كتاب الحجّة على العالم

مشهد
[1]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52]

مشهد الانتظار الخادع

مشهد
[2]

حيث يخدع الظالمون أنفسهم والعالم، فيصرون على عدم اتباع الكتاب حتى يروا حقائقه الغيبية في الآخرة واقعاً مشاهداً ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 52].

صراخ الناسين غير المتبعين للقرآن الكريم

مشهد
[3]

ليكون بديلاً عن الاتباع الذي كان يجب أن يقوموا به في الدنيا ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ وَيَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: 53].

إعلان النتيجة الختامية

مشهد
[4]

الحسارة الماحقة والهلاك الساحق، حيث يتردد في الأذان تعليق مؤلم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53].

عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمْدِيُّ

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

خاتمة المراحل الخمس

تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع القرآن الكريم [الأعراف: ٥٢-٥٣]

بعد تفصيل مراحل الزمان في الدنيا والآخرة؛ ابتداءً ممّا قبل خلق الإنسان ووصولاً إلى استقرار أصحاب الجنة والنار، يأتي تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع الكتاب، وهنا يبدأ القسم السادس والأخير من المحور الأول.

آيات هذا القسم:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣].

المناسبة والاتصال:

ما زلنا في المحور الأول من محاور هذه السورة، وهو المحور الذي عرض قصّة بدء الإنسانيّة، ومراحل حياتها، وقد سبقت خمس مراحل زمنية مرتّبة من مراحل هذا المحور، وهي:

المرحلة الأولى: وتتعلّق ببداية التاريخ الإنساني بالتكريم والتمكين الإلهي، وإعلان العداوة الشيطانيّة وامتدت في الآيات [١٠-١٨] من سورة الأعراف.

فيرسم لك التصوير القرآني في هذه المرحلة ما قبل بداية التاريخ الإنساني، حيث أوجد الله ﷻ الأرض أولاً، ثم هيّاها لتكون مكاناً لاستخلاف الإنسان، ثم خلق الإنسان، ومكّنه من التحكّم بخيراتها، وجعلها كافية لمعايشهم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعْلِيَشَ ﴿[الأعراف: ١٠]، والتمكين الإلهي للإنسان في الأرض ليس لحاجة الله ﷻ، ولا ليعبث الإنسان كيفما يريد، بل ليعتاد الشُّكر الذي يجد من خلاله لذة العُبوديّة، وبركة الموارد ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

ثم يذكر الله ﷻ بداية الانطلاقة الإنسانيّة الكبرى في الحياة بخلق آدم ﷺ، وإسجاد الملائكة له، واختيار إبليس لمعاداته ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وهنا تجد التفاصيل الدقيقة حول هذه العداوة التي اختارها إبليس، وستجد في هذه المرحلة كيف يقرُّ إبليس أمام الله ﷻ بخُطة دقيقة لإغواء أكثر بني آدم، ليمنعهم من أن يكونوا ضمن فئة الشاكرين.

والمرحلة الثانية من هذا المحور: تجربة آدم وزوجه ﷺ للعيش في الجنة: وتحدّثنا هذه المرحلة عما بعد المرحلة الأولى في التّاريخ الإنسانيّ، إذ أخبرنا الله ﷻ عن تجربة آدم وزوجه ﷺ في الجنة قبل النزول إلى الأرض، وفي هذه المرحلة تصوّر لنا الآيات النجاح الإِبليسيّ الأول في اختراق البشريّة بإغرائهم بترك ما أنزل إليهم من ربّهم ﷻ، كما يحدّد لك هذا القسم السبيل الوحيد للتحرّر من هذا النجاح الشيطاني، وامتدّت هذه المرحلة في الآيات [١٩-٢٥] من سورة الأعراف.

ولما انتهت هاتان المرحلتان من التاريخ الإنساني، حدث الانتقال في تكامل منطقيّ رائع إلى:

المرحلة الثالثة في التّاريخ الإنسانيّ: إذ حدّثنا الله ﷻ فيها عن هبوط الإنسان إلى الأرض، وأهمّ النّداءات الإلهيّة للذّريّة الأدميّة، التي تضمّنت توصيات محدّدة؛ ليفهموا طبيعة الحياة في الأرض وجمالها، ولينتبهوا إلى المعركة بينهم وبين إبليس وقبيله، وامتدّت هذه المرحلة في الآيات [٢٦-٣٦] من سورة الأعراف.

المرحلة الرابعة: الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، إذ قصَّ الله ﷻ علينا صورًا مباشرة من المصير الأخروي الأعظم، وامتدَّت هذه المرحلة في الآيات [٣٧-٤٣] من سورة الأعراف. إذ فصَّل الله ﷻ في هذه المرحلة الأحوال الأخروية في المصير الدائم المنتظر لكلِّ من الفريقين: فريق الذين كذَّبوا بآياته واستكبروا عنها، وفريق المؤمنين العاملين.

وانظر حسن التقسيم، إذ ذكرت لنا بصائر القرآن في هذا المحور أولًا أسوأ صنفين ينتميان إلى المكذِّبين المستكبرين، ثم أخبرت عن كيفية دخولهم في النار، وذلك في الآيات الثلاث [الأعراف: ٣٧-٣٩]، ثم عن كيفية خلودهم فيها في الآيتين [الأعراف: ٤٠-٤١]، ثم فصَّل أحوال أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآيتين [الأعراف: ٤٢-٤٣]. ثم تأتي مرحلة زمنية جديدة في هذا المحور إنها:

المرحلة الزمنية الخامسة: مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التَّلَذُّذِ والشِّقَاء"، وذلك في الآيات [الأعراف: ٤٤-٥١]، ونجد فيها ثلاثة أنواع من الحوار بين أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف.

ثم يختم هذا المحور بتذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع القرآن الكريم، إذ تظهر الهيمنة على المراحل السابقة لمن تمسَّك بـ: "الاتباع المفلح"، وترك "صناعة الافتراء"، وذلك في الآيتين [٥٢-٥٣].

ويزيد من جمال الاتصال بين هاتين الآيتين [٥٢-٥٣]، وما قبلهما أن الله ﷻ ذكر في صفات الْمُنْسِيْنَ من أهل النار أنهم نسوا لقاء اليوم الحق: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وذكر موقفهم المتطرف من آيات الله ﷻ، ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [٥١] [الأعراف: ٥١]، وهنا يبين الله ﷻ أنه جاءهم بكتاب لا يقبل النسيان، ولا يمكن لأحد أن ينسى معه، أو أن يجحده إذا كان يستعمل عقله، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٢] [الأعراف: ٥٢]، وكان الله ﷻ يقول: إذن: فلماذا

ينسون؟ ولماذا يجحدون؟ وكيف ينسون ويجحدون ونحن جئناهم بكتاب هذه صفاته؟

ويرى الرَّاظِي ﷺ أن الله ﷻ لَمَّا شَرَحَ أحوالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، ثُمَّ فَصَّلَ الْحَوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمْ، بما يحفز إلى البحث عن الحق الذي يكون الإنسان به من فريق أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يَبَيِّنُ شَرَفَ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ وَنَهَايَةَ مَنْفَعَتِهِ ^(١) في الأخذ بأيدي الجادِّين إلى جنَّاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فأسدل السُّتار على هذا المحور بما بدأ به السُّورَةُ في المقدمة، وذلك بالعودة مجدِّداً إلى تذكير العالم بقيمة اتِّباع الكتاب في هاتين الآيتين.

فانظر إلى السَّلاسة في الانتقال.

فإن قلت: ما المشاهد الحيويَّة التي بصرتنا به آيات هذا القسم؟

الجواب: بصَّرتنا هاتان الآيتان بأربعة مشاهد حيويَّة، وهي:

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٥٣).

المشهد الأول: القرآن كتاب الحجة على العالم:

وَيُبَصِّرُنَا بهذا تكرار ذكر القرآن، والعطف على المراحل الزمنية السابقة في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

حتى ندرك هذه البصيرة لا بد أن نتساءل: في أول هذا القسم نجد شيئاً لافتاً للنظر، فإن الله ﷻ هنا يثني على كتابه مجدداً، فيقول: وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾، وقد أثنى على كتابه العزيز في أول السورة عند قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ۖ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢، ٣].

ربما تسأل: لماذا العودة مجدداً للثناء على الكتاب العزيز، وما المعاني الجديدة التي أمدتنا

بها الآية (٥٢) هنا؟

الجواب: الله ﷻ أعاد الثناء على كتابه العزيز في الآية (٥٢)، أي: بعد نحو خمسين آية من الآية الثانية في السورة التي أثنى فيها على الكتاب في قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ۖ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٢]؛ لأن القرآن كتاب الحجة على العالم، ولأنه كذلك فلا بد من التذكير به بطرائق مختلفة، وبأساليب متنوعة، والشيء عندما يكون له أهمية يتم التذكير به مرّات متكرّرة، وأنت ترى أنه إذا كانت هناك فعالية مهمّة في حياة الناس، فإن الناس يقومون بتكثير الدعاية المتعلقة بها، فعلى سبيل المثال: انظر كم يتكرّر التذكير بالأحداث الرياضية؟ أفلا يتذكر الناس الكتاب الذي يمثل لهم مكان الإنقاذ في الدنيا والآخرة؟ إذ تتعلّق به الحياة كلّ الحياة، ويسوس حياة الأفراد والجماعات، وينظّم الدّول، والأمم، والشعوب والتّجمّعات. إذاً لا بدّ من التذكير به بطرائق متنوعة؛ ولذلك أعيد ذكره ههنا.

وأعاد التذكير به لشيء آخر هو: أن هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد غير المحرّف الذي يقدم الحقائق التي يحتاج إليها الناس في الدنيا والآخرة.

كَرَّرَ عَلَيَّ حَدِيثَهُمْ يَا حَادِي فَحَدِيثُهُمْ يَجْلُو الْفَوَادَ الصَّادِي

بصيرة: القرآن كتاب الحجّة على العالم، فلا بد من التذكير به بطرائق مختلفة، وبأساليب متنوعة، والشيء عندما يكون له أهمية يتمّ التذكير به مرّات متكررة.

وقد تساءل: ما موقع الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ﴾؟

ذهب المفسرون رحمهم الله إلى أن اللام مؤكدة للقسم، والواو متعلقة بالقسم، فالتقدير: وعزّتنا لقد جئناهم بكتاب، والمتكلّم هو الله تعالى، إذ يختم الله تعالى هذا المحور الكبير بالتذكير بقيمة كلامه، وهو العليّ الخبير.. إنه الكلام الذي أنزله الله تعالى ليكون السراج المنير للبشريّة، فيُقسّم ربّنا -تعالى ذكره- بما يُعظّم قيمة الكتاب الذي أنزله على العالم ليتبعوه، فقوله ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو للقسم، واللام موطّئة لجوابه، و(قد) لتأكيد القسم وتحقيقه.

وانظر في التعبير إلى (نا) في قوله: ﴿جِئْنَهُمْ﴾، فلم يقل: (جئتهم)؛ ليظهر التعظيم في الكلام عن نفسه -تعالى مجّده-، فكأنّه -جلّ ثناؤه- قال: أقسم يا رسول الله، أو يا أيّها السّامع، أو يا أيّها العالم، لقد جئنا على عظمّتنا ببعث رسولنا إلى العالم مؤمنهم وكافرهم بكتابٍ، أفلا تنظرون في هذا الكتاب؟

وذهب ابن عاشور رحمهم الله إلى أن الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ﴾ عاطفة لهذه الجملة على جملة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، عطف القصّة على القصّة، والغرض

عَلَى الْغَرَضِ، فَهُوَ كَلَامٌ أُتِفَّ، -أي: جديد- انْتَقَلَ بِهِ مِنْ غَرَضِ الْخَبَرِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَى غَرَضِ وَصْفِ أَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، الْمُسْتَوْجِبِينَ بِهَا لِمَا سَيُلَاقُونَهُ فِي الْآخِرَةِ^(١). والذي يظهر لي أنه يمكن حمل الواو على الأمرين معاً، بأن تكون الواو للقسَم، وللعطف. والعطف جاء ليبين هذه المرحلة الزمنية المهمة على ماضي الأحداث في الأرض ومستقبلها، فكأن الله ﷻ يخبرنا أن هذا الكتاب هو الوحيد الآن الذي يقصُّ ماذا حدث قبل آدم عليه السلام، وما الذي سيحدث بعد الوفاة، وما الذي يجب أن يكون بينهما.

فالقول بأن الواو عاطفة وقسمية يوضح عظمة القرآن، وكلاهما يبينان القيمة الكبيرة للقرآن في حياة الإنسانية؛ لحمايتها من المخاطر الواقعة والمتوقعة في الدنيا والآخرة.

فكأن الله ﷻ يُبَصِّرُنَا بِأَنْ لَا نَقُولَ: مات محمدٌ ﷺ، فلا يوجد نبي، أو رسول يذكّرنا؛ لأن الكتاب موجود، وهذا الكتاب ذكّر بالله واليوم الآخر، وكرّر ذلك في أساليب متعددة ومشاهد متنوعة، وبآيات تفرع القلوب، وتقشعُرُ منها الأبدان، وتهتِزُّ لها المشاعر عندما تتعلّق بالله واليوم الآخر.

إذا أعطاهم تذكرة عظيمة جداً من أول بدء وجودهم إلى أن يستقرُّوا في الحياة الآخرة. الآن يعيد لهم الكلام في قيمة الكتاب. يقول: أدركوا أنفسكم، واستفيدوا من هذا الكتاب، اتبعوه فقد جئناكم به مفصلاً على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

وقد تساءل: ما الحكمة من استعمال لفظ المجيء في قوله تعالى: ﴿جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾، بدلاً من الإنزال، أو الإرسال هنا؟ وما معنى الباء في قوله: ﴿بِكِتَابٍ﴾؟ وكيف ندرك صورة مجيء الكتاب؟

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٥١).

الجواب: «الباء في قَوْلِهِ ﴿يَكْتَبُ﴾ لَتَعْدِيَةِ فِعْلٍ ﴿جِئْتُهُمْ﴾، كما تقول مررت بك، ومثْلُ الباء في قَوْلِهِ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، فَمَعْنَاهُ: أَجَانَاهُمْ كِتَابًا، أَي: جَعَلْنَاهُ جَائِيًا يَأْتِيهِمْ، فيؤول إلى مَعْنَى: أَبْلَغْنَاهُمْ إِيَّاهُ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ»^(١).

وترى الصورة تبلغ من الجمال غايته؛ إذ يَصُورُ الله ﷻ أن القرآن قَدِمَ بنفسه، لكن الله ﷻ يبيِّن أنه هو الذي جعل القرآن يَأْتِيهِمْ.

ولفظ المعجىء أقوى بكثير هاهنا؛ إذ بيَّن الله ﷻ أن المعجىء كان بكتاب، فلم يذكر الله ﷻ أنه جاءهم بنفسه، ولا برسوله، وإنما بكتاب، وبداية ذلك أن الكتاب جاء عن طريق الرسول ﷺ، لكن الرسول بعد أن بلغه ذهب، وبقي الكتاب، فهذا الكتاب أمامهم يجيئهم في كل مكان يذهبون إليه ليقيم الحجة عليهم، لأن المراد إظهار أن القرآن كان حجة واضحة عليهم، فكأنه قام مقام الرسول ﷺ الذي جاء به، وكأن القرآن يمشي أمامهم يوضح لهم ما يجب عليهم، وما ينبغي أن يفعلوه ليُحسنوا الاستقرار في الأرض حتى الحين الذي ضربه الله ﷻ لهم، فكلمة ﴿جِئْتُهُمْ﴾ أقوى في التصوير، وأعظم في التعبير عن ظهور الحجة عليهم؛ لأن المعجىء يدلُّ على الحركة، حتى كأنه يسير نحوهم، ليدركهم في أحوالهم وأوضاعهم، فهو يمشي إليهم مع الرسول المَلَكِي الذي هو جبريل، والرسول البشريُّ عليهما الصَّلَاة والسلام، لِيُشْرِفَ على إصلاح حياتهم، ويعيد تنظيمها وهو يَأْتِيهِمْ حتى بعد أن انقطع الوحي، ومن العجيب أن المجرمين منهم يحاولون إخفاء جمال القرآن وإنذاره.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٢).

عُدْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، لِنُشْعِرَ بِأَنَّ التَّعْبِيرَ يَحْمِلُ أَعْظَمَ التَّصْوِيرِ وَأَقْوَاهُ، وَهُوَ يَشَوِّقُ لِلْكِتَابِ الَّذِي جَاءَهُمُ اللَّهُ ﷻ بِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ لَنَا خَوَاصًّا لِهَذَا الْكِتَابِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، فَمَا الْخَوَاصُّ الْجَدِيدَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ ﷻ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟

الجواب: وصفه الله ﷻ بِسِتِّ خَوَاصٍّ تَضَافُ لِلْخَوَاصِّ التَّسْعِ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي الْمَقْدِّمَةِ، وَكُلُّهَا تَعْطِي لِهَذَا الْكِتَابِ الْقِيَمَةَ الْعَالِيَةَ الْعَمَلِيَّةَ الْعُلْيَا، فَيَصِيرُ مَرْكَزُ التَّأْسِيسِ لِلْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ، وَمَرْكَزُ الْإِنْفَاقِ مِنْ أَيِّ مَخَاطِرٍ قَادِمَةٍ:

وَالْخَوَاصُّ التَّسْعُ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي الْمَقْدِّمَةِ، هِيَ الْمَضْمُونَةُ فِي الْمَشْجَرَةِ الْآتِيَةِ:

خواص القرآن المجيد التي يحفظ بها الأمم من المخاطر الواقعة والمتوقعة



خصائص القرآن الكريم المذكورة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُهُمْ بِكِتَابٍ...﴾ [الأعراف: 52]



الخاصية العاشرة: أنه كتاب:

ولكن ماذا يعني أنه كتاب؟ ولماذا تكرر وصفه بالكتاب مرّة أخرى في هذا الموضوع مع أنه قد وُصف بذلك في أول السُورة وفيما قبلها من السُور؟

الجواب: يتكرر وصف القرآن بأنه كتاب؛ ليكون هذا الوصف رسالة لجهات متعدّدة، فهو رسالة للوثنيين الأميين الذين كانوا جُهلًا، وكانت الكتابة فيهم غير فاشية، فكأنَّ الله ﷻ يخبرهم بنور جديد في حياتهم، إذ ستفسو الكتابة بعد أن ينظروا إلى قيمة الكتاب الذي جاءهم الله ﷻ به، وبذلك ينتقلون من الهمجية إلى الحضارة، ورأس الحضارة الكتابة، ولذلك تحوّلت الأمة الجاهلة الأميّة إلى أمة من أرقى الأمم في التعلّم والتعليم، وبدأت الأميّة تختفي في السنوات الأولى، ولو رجع الإنسان لينظر كيف فشت الكتابة في العرب وفي المسلمين بعد أن جاءهم النّبيّ الأمي الذي لم يكن يكتب، لرأى في ذلك معجزةً حقيقيةً، وبيّنة ظاهرة في أن هذا الإنسان العظيم محمد ﷺ رسول من الله ﷻ، يتلو صحفًا مطهرةً، وحسبك أن تسأل التّار قبل إسلامهم، وأن تسأل المجرمين في أنحاء العالم: لماذا حرّقوا الكتب ورموها في أنهار دجلة، وحرّقوها في الأندلس؟ لتشعر بمقدار التّقدّم التعليمي، والنّهضة الكتابيّة عند المسلمين حينها.

بصيرة: الله ﷻ حين وصف القرآن بالكتاب حفّزهم ذلك ليخرجوا من بداوتهم وأُميّتهم إلى مجال حضارة واسعة أساسها الكتابة؛ ولذلك لا بدّ من تكرار وصف القرآن بأنه كتاب.

وكذلك فإن وصف القرآن بالكتاب رسالة إلى أهل الكتاب -اليهود، والنصارى- تخبرهم بأن هناك أمة جديدة، سيكون أفرادها أهل كتاب أيضًا، بل سيرثون الكتاب الأوّل، ويأتون

بكتاب محفوظ من التحريف، ولن يبقى للمحرّفين ذلك التّميّز الذي كانوا يستغلّونه في نشر الأكاذيب، وأكل أموال الناس بالباطل.

هناك سبب ثالث لوصف القرآن بالكتاب، وهو أن القرآن يمثّل دستوراً مكتوباً يرجع إليه الناس ليستقوا منه قوانينهم، ونظامهم، فهو ليس توجيهات مسموعة فقط، بل توجيهات مكتوبة.

ولذا فإن الله ﷻ وَصَفَ القرآن بالكتاب مراتٍ متعدّدة؛ لتصبح كلمة ﴿الكتاب﴾ علماً عليه، بما أن الأمر تكرر، فإذا قلت لمن بجوارك: أعطني الكتاب دون أن يكون هناك حديث عن كتاب بعينه، فالمقصود القرآن.

وبذلك فإن هذا الدستور الذي ينظّم الحياة لا يمكن أن يخفى، فلن ينفع الظالمين يوم القيامة أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ لأن الكتاب موجود، فإن لم تجد من تسمعه يتلو القرآن ويبلغك، فإنك ستجد الكتاب موجوداً أمامك، ومن أجل ذلك أسلم (جفري لانج) عندما تحاور مع الكتاب، ولم يحتاج إلى واحد من المسلمين ليقتنعه، وكذلك أسلم النّصرانيّ الفلسطينيّ (نقولا حنا) عندما كان يسمع ضجيجاً حول القرآن الكريم، ثم رجع يلوم نفسه وهو شاعر عربي يعرف اللغة العربية، فلم نفسه أنه لم يقرأ القرآن، واكتفى بأن يسمع الناس يتكلّمون، فلما قرأ الكتاب أخذ عقله، ثم أسلم، ثم قال قصيدته المشهورة:

يقولونَ مَا آيَاتُهُ ضَلَّ سَعِيْهُم	وَآيَاتُهُ - لَيْسَتْ تُعَدُّ - عِظَامُ
كفى معجزُ الفرقانِ للنّاسِ آيةٌ	عَلَا وَسَمَا كَالنَّجْمِ لَيْسَ يُرَامُ
فكلُّ بليغٍ عندهُ ظلٌّ صامِتًا	كَأَنَّ عَلَى الْأَفْوَاهِ صُرٌّ كِمَامُ

إذا كلمة كتاب تبين خاصية من أعظم خصائص القرآن، وتعبّر عن عظمة القرآن، وتجعل الناس يتعرفون إلى الإسلام بصورة مباشرة حينما يقرؤون هذا الكتاب.

وتسمية القرآن بالكتاب يعني أنه قد نال توثيقاً عالياً في نصّه، إذ كُتِبَ بعد أن أنزل، وهذا ما لا يتوفر على غيره من الكتب السماوية، وذلك يعني أنه يمكن تناقله، وتداوله في العالم، فمن لم يجد مقرئاً، أو مسلماً أمامه وجد نصّاً مكتوباً يستطيع ييسر أن يفهمه، وأن يشعر بإعجازه، وأن يُسَلِّمَ له.

وطبيعة الأمور المهمة تقتضي تأكيدها، فتكرّر تَكَرَّارًا يُوَدِّي إلى رسوخها في العقل والنفس، فتتجلى وتظهر مرّة بعد مرّة حتى تجد القلوب الغافلة أن رحمة الله ﷻ توفّظهم لأجل أن يتنبهوا إلى هذه المعاني التي غفلوا عنها، وكذلك حتى تجد القلوب الناشزة والنافرة والمعاندة أن الله ﷻ لهم بالمرصاد، وأنهم لا يستطيعون مهما بذلوا من جهود أن يطفئوا نور الله ﷻ، وأن يزيلوا كتاب الله. وذُكِرَ الأمر المهم مجدداً يؤكد على أهميته من ناحية، كما يؤكد على مدى رحمة الله ﷻ بالبشرية الغافلة عن أهم ما تحتاجه في الحياة؛ لذا يُذَكِّرُ الله ﷻ العالم تذكيراً يُرَغِّبُ الْمُؤَلِّفَ وَيُرْهَبُ الْمُخَالَفَ.

بصيرة: وصف القرآن بالكتاب رسالة إلى أهل الكتاب -اليهود، والنصارى- تخبرهم بأن هناك أمة جديدة، سيكون أفرادها أهل كتاب أيضاً، بل سيرثون الكتاب الأول، ويأتون بكتاب محفوظ من التحريف، ولن يبقى للمحرّفين ذلك التميّز الذي كانوا يستغلونه في نشر الأكاذيب، وأكل أموال الناس بالباطل.

ستقول: عرفنا الخاصية العاشرة للقرآن المجيد، وهي أنه: كتاب، فما ثاني الخصائص التي

ذكرت هنا؟

الجواب:

الخاصية الحادية عشرة: التَّفْصِيلُ الشَّامِلُ لِلحَاجَاتِ وَفَقَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ التَّفْصِيلِ، وَقَدْ بَصَّرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف:

٥٢].

وُنُسِبَ لَابْنِ مَحِيصَنٍ رحمته الله أَنَّهُ قَرَأَ: (فَصَّلْنَاهُ)، بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ^(١)، بِمَعْنَى فَصَّلْنَاهُ عَلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ، عَالِمِينَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلتَّفْصِيلِ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ شَاذَةٌ.

ولعلك تسأل: ما معنى كلمة ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾؟

الجواب: فَصَّلَ تَفْصِيلاً مِنْ كَلِمَةِ (الْفَصْل) ^(٢)، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزِ الشَّيْءِ مِنْ الشَّيْءِ، وَإِبَانَتِهِ عَنْهُ، فَيُقَالُ: فَصَّلْتُ الشَّيْءَ فَضْلاً، وَالْفَيْضُ: الْحَاكِمُ، وَالْفَيْضُ: وَلَدُ النَّاقَةِ إِذَا افْتُصِلَ عَنْ أُمِّهِ، أَي: أُبَيِّنَ عَنْهَا، حَتَّى يَعْتَادَ الْاعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمِفْصَلُ: اللِّسَانُ؛ لِأَنَّ بِهِ تُفْصَلُ الْأُمُورُ وَتُمَيَّزُ، فَالْفَصْلُ: إِبَانَةُ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الْآخَرِ، حَتَّى تَسْتَطِيعَ التَّمْيِيزَ بَيْنَهُمَا، فَلَا يَكُونَانِ شَيْئاً وَاحِداً، كَمَا يَتَمَيَّزُ الْحَدِيدُ مِنْ شَوَائِبِهِ، فَالْفَصْلُ يَقْتَضِي الْإِبَانَةَ، وَالْوَضُوحَ، وَالتَّمْيِيزَ لَشَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَعْنِي بَيَّنَّاهُ، وَوَضَّحْنَاهُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَهُ، بَحِثْ يَتَمَيَّزُ بِهِ النُّورُ عَنِ الظُّلُمَاتِ، وَيُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي الْأَفْكَارِ، وَالتَّصَرُّفَاتِ، وَبَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَامَلَاتِ.

(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٢٨٤).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٧٨).

وبذلك فإن وصف القرآن بالتفصيل يُبَصِّرُنَا بأن الله ﷻ لم يترك القرآن كتاباً مجملاً، ولا ضئيلاً، ولا قليلاً، ولا مُخْتَصِراً، ولا مُلَخَّصاً، ولا مُقْتَضِياً، ولا مُوجِزاً، ولا نَزْراً، بل هو كتابٌ يفي بأغراضه، ويحقق أهدافه بأن يفصل الله ﷻ فيه للبشرية تفصيلاً غزيراً، مسهباً، على مسلك لا طول فيه، ولكنه يحقق ما يحتاج إليه الإنسان، ولذا تجد فيه تفصيلاً شافياً للمصالح الإنسانية، والتشريعات والنظم، وقد أظهر الله ﷻ الأحكام من النهي والأمر، والحلال والحرام، والضلال والرشد، والوعد والوعيد، كما فصل قصة العالم منذ ما قبل الخلق، وإلى الاستقرار النهائي في الجنة أو النار، نسأل الله ﷻ الجنة، ونعوذ به من النار.

ومن التفصيل أنك تجد القرآن يحاورك، ويكلِّمك، ويكلِّم كلَّ إنسان إن استعمل هذا الإنسان عقله، وحسبك أن تجد كلَّ مسائل الموارِيث في ثلاث آيات.

بصيرة: وَصَفُ الْقُرْآنِ بِالتَّفْصِيلِ يُبَصِّرُنَا بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَتْرِكِ الْقُرْآنَ كِتَابًا مَجْمَلًا، وَلَا ضَعِيفًا، وَلَا قَلِيلًا، وَلَا مُخْتَصَرًا، وَلَا مُلَخَّصًا، وَلَا مُقْتَضِبًا، وَلَا مُوجِزًا، وَلَا نَزْرًا، بَلْ هُوَ كِتَابٌ يَفِي بِأَغْرَاضِهِ، وَيَحَقِّقُ أَهْدَافَهُ.

نعود للآية لنسمع قول الله فيها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقد رأينا من التفصيل الذي يضمُّه هذا الكتاب أننا نستمدُّ معنى أو أكثر من الكلمة الواحدة، فهل نستمدُّ خاصيةً جديدة من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؟

الجواب: نعم، فهذه هي:

الخاصية الثانية عشرة: العِلْمِيَّة: فالتفصيل يقوم على علمٍ حقيقيٍّ، مطلق، كاملٍ، شاملٍ، لا يعتريه الضلال، ولا التردد، ولا الترييف، ولا النقص، إذ وصف الله ﷻ التفصيل، فقال -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ۖ﴾:

فجاء بكلمة ﴿عِلْمٍ﴾ نكرةً منونة؛ ليذهب فكرك في وصف هذا العلم كلَّ مذهب حسن حسب السِّياق، فَبَصَّرْتَنَا هذه الكلمة بأن هذا العلم علمٌ موصوفٌ بكلِّ أوصاف الكمال والعظمة، فهو علم حقيقيٌّ كامل شامل، خُلِقَت المخلوقات بناءً عليه، وهو العلم الذي يفرِّق بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، والهدى والضلال. كأن الله ﷻ يقول: هذا الكتاب مفصَّل على علم منا بالماضي والحاضر، على علم منا بما ينفع العبد في هذه اللحظة، وما ينفعه بعد لحظات، وما ينفعه في المستقبل وما لا ينفعه في كلِّ ذلك، وعلى علمٍ بما تحتاجه المخلوقات، وتبقى به الأرض والسموات على ميزان العدل والقسط، فلا يحدث لأحدهما خلل، ولا انهيار.

هنا ترى الهداية الكاملة التي تُخرج البشر من ظلمات الجهل البسيط، ومن ظلمات الجهل المركَّب إلى نور علمٍ، يحبونا الله ﷻ به في هذا الكتاب، فهو الكتاب المفصَّل على علم. وهذه الآية تعلِّم كلَّ العالم أن القرآن فَصَّلَه الله ﷻ على علم، فمهما فعلوا شيئاً ينافي القرآن في أحكامه، أو أخباره فهم يصنعون شيئاً مبنيّاً على جهل، ومن أجهل مذاهب الجهل: مذهب الإلحاد، ومذهب الوثنية والشرك العبادي، ومذهب الطاغوتية والشرك الحُكْمِي، ومذهب اللاأدرية، أو الأغنوستية (Agnosticism)، أي: الذي يقول: لا أدري، ويفتخر بجهله في أعظم ما ينبغي أن يعرفه، وهو سرُّ وجوده.

هاهو الله سبحانه أتاناً وأتاهم بالعلم الذي يخبرهم، ويجب عن أسئلتهم، لماذا لا يصغون للعلم بدلاً من الكبر والعجرفة التي يتسمون بها؟



كيف ذلك؟ كيف يربطنا قوله تعالى: ﴿فَصَلَّنْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بتعليم اللادريين؟ ومن هم اللادريون؟

الجواب: إنهم الذين يقولون: لا ندري لماذا نحن مخلوقون، ولا ندري هل يوجد خالق لنا أم لا، فهم أتباع توجه فلسفي يؤمن بأن القيم الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير معروفة، ولا يمكن معرفتها، وأهمها ما يتعلق بوجود الله ﷻ.. هل هو موجود أم لا، فهم يعدّون هذه القضية وما بعدها من أمر الآخرة قضايا غامضة، ولا يمكن معرفتها، ووفقاً للفيلسوف (ويليام ليونارد روي)، فإن اللادري هو هذا الشخص الذي لا يؤمن، ولا يكفر بالذات الإلهية، بينما المؤمن هو الذي يؤمن بها، والملحد هو الذي يكفر بها. وتختلف اللادرية عن الإلحاد؛ فالإلحاد هو الكفر بالإله، في حين أن اللادرية هي مجرد تعليق الإيمان، ولكن الفريقين في النهاية يرجعون إلى عدم معرفة ربهم الذي أوجدهم ﷻ، وتنعكس نظرتهم العدمية على أدائهم الحياتي الديني، فينطلقون في كل تصرفاتهم من هذه الرؤية الباطلة، فلا تسلب بعد هذا عن قيم إنسانية، وأخلاق للتعايش مع بني جنسه، فهو يسقطها من حسابه بالكلية، عملاً بقاعدة علامة الإلحاد العالمي المعاصر (دوكنز): «إن جحدنا الإله فكل ما في الحياة مباح».

وقد تتساءل: ما الأمور الرئيسة التي يشملها تفصيل الكتاب على علم؟

الجواب: تفصيل الكتاب على علم يشمل جملة أمور رئيسة:

الأول: أنه يفصّل لك تفصيلاً محدّداً حسب حاجة البشرية الإجابة عن الأسئلة الكبرى في

الحياة، وهي أسئلة الوجود: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

ولنذكر مثلاً حتى يتضح هذا التفصيل:

إن الترنيمة الهندية الناساديا سكوتا، والمعروفة أيضًا بترنيمة الخلق الواردة في الكتاب العاشر للريجفدا^(١)، لا تملك المعرفة الكافية لأهم أسئلة الكون، فتقول:

من لديه علم اليقين؟ من يمكنه الفصح عنه؟

من أين نشأ؟ من أين بدأ الخلق؟

يقولون: إن كانت الآلهة (ونحن المسلمين نعرف أن هذه الآلهة باطلة) موجودة عقب

خليقة العالم، إذن فمن يعلم أصلهم؟

لا أحد يعرف من أين جاء الخلق.

أو إن كان المعبود خلقها أم لا.

ثم تحثُّ هذه الترنيمة على التأمل:

وحده، من يتأمل السموات العلى

وحده يعرف، أو ربما لا يعرف.

فالله ﷻ يجيبهم لو فكروا وتركوا تعصبهم، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى

عِلْمٍ ۝٥٣﴾، والقرآن فصله الله ﷻ على علم؛ ليقدم لأصحاب هذه الترنيمة وللعالم الإجابات

الحقيقية، ويهدي لهم المعرفة الكاملة الصادقة التي تحتاج إليها البشرية.

الثاني: تبين المعاني بصورة مميزة واضحة تامة لا تدع للبشرية حاجة إلا أوضحتها:

فمثلاً نجد في القرآن وفيما وضّحه من السُّنة معالم رشد، وأصول هدى لكل ما نحتاجه في

المجال الفكري، وفي المجال الاجتماعي، وفي المجال التربوي، وفي المجال السياسي، وفي

المجال الاقتصادي.. فيجد الإنسان في كل ذلك تفصيلاً هادياً، وانظر مثلاً جمال التفصيل

(١) الريجفدا: مجموعة نصوص هندية مقدسة قديمة من أناشيد وترانيم باللغة السنسكريتية الفيدية، مُكرّسة للديفات أي الآلهة،

وهي أحد أربعة نصوص مقدسة قانونية في الهندوسية، تُقرأ نصوصها في الصلوات والمناسبات.

لبناء الزوجية التَّقَاءَ وافتراقاً، كما تجد في الموارث تفصيلاً مدهشاً لا يمكن أن يوجد عند أحد، وهو تفصيل قائم على علم بما يحتاج إليه الأب إذا ورث، وما يحتاج إليه الأم إذا ورثت، وما يحتاج إليه الزوجة إذا ورثت، وما يحتاج إليه الأولاد إذا ورثوا، وما يحتاج إليه الذُّكور إذا ورثوا، وما يحتاج إليه الإناث إذا ورثن.

والثالث: تقسيم الآيات إلى فواصل هي رؤوس الآي؛ ليستطيع الناس أن يستوعبوا الكتاب استيعاباً لا يوجد إذا كان الكلام متتابعاً، ففصل الله ﷻ القرآن إلى آيات، وفصل أجزاءه إلى سُور.

والرابع: جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها من بعض بما يُزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الأفهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته، ولا التطويل ببيان جميع فُرُوعِهِ ^(١).

فنحن نعلم ما الذي لله ﷻ، وما الذي لرسول الله وأنبيائه ﷺ، نحن نعلم التعامل السوي مع البشر، ونعلم التعامل السوي مع البيئة، فقد جمع الله ﷻ ذلك كله، فعلى سبيل المثال عندما تقرأ قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ هذا شيء يتعلق بالله ﷻ.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هذا شيء يتعلق بالعلاقة بين البشر

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧] هذا يتعلق بالعلاقة بين البشر والكون.

وهذا تفصيل عظيم، وهذه العبارات العامة بين الله ﷻ لها تفصيلاً دقيقاً في هذه الآيات المختلفة.

(١) تفسير المنار (٨ / ٣٩٣).

نحن نعرف أن التفصيل قد يقتضي التطويل الزائد دون فوائد جديدة، فهل تفصيل الكتاب

على علم فيه هذا المعنى؟ هل هناك تطويل زائد في القرآن لا حاجة له؟

الجواب: لا! فالتفصيل في القرآن إيجاز، وهذا التفصيل اللفظي والمعنوي لم يكن تطويلاً أو حشواً مُبَيَّنّاً على جهل، بل جاء مقترناً بالعلم التام بما في كُلِّ فَصْلٍ مِنْ تِلْكَ الْفُصُولِ، أي من تلك السُّورِ ومن تلك الآيات مِنْ الْفَوَائِدِ الْمُتَكَثِرَةِ، وَالْمَنَافِعِ الْمُتَرَايِدَةِ، وتنكير كلمة (كتاب) تفيد حسب السياق التفخيم، أي: فَصَّلْنَا آيَاتِهِ تَفْصِيلاً عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِتَرْكِيبِهِمْ، وَتَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ، وَسَعَادَتِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِ^(١)، فهذا العلم حوى ما يشيع الرُّوحَ، وَيُقِيمُ الْجَسَدَ، وَيُصْلِحُ الْفَرْدَ، وَيَنْظُمُ الْمَجْمُوعَ، وَيُقِيمُ الدُّنْيَا، وَيُنْبِي الْآخِرَةَ.. لَقَدْ فَصَّلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ التَّشْرِيعَاتِ الْعِبَادِيَّةَ، وَالتَّنْظِيمَاتِ الْإِدَارِيَّةَ وَالْحَيَوِيَّةَ، وَنَقَلَ فِيهِ الْمَعْلُومَاتِ التَّارِيخِيَّةَ صَحِيحَةً بَعِيداً عَنِ التَّزْيِيفِ الَّذِي مَلَأَ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ، حَسْبُكَ أَنْ تَرَى الْحَقَّ يَخْرُجُ بَرَّاقاً عَلَى أَلْسِنَةِ الْكَذَّابِينَ الْمَكْذِبِينَ، فَمِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْمُتَحِيزِينَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ نَجَدَ الْمُسْتَشْرِقَ الْإِنْجِلِيزِي توم هولاند صاحب كتاب "ظل السيف The shadow of the sword" .. هذا الرجل المحارب للحقيقة يدهشه هذا الكتاب العظيم، ويعترف بأنه لا يمكن وصف الكتاب المليء بالمعلومات العظيمة إلا بأنه معجزة، إذا كان الذي جاء به رجل أمِّيٌّ هو مُحَمَّدٌ ﷺ، وَحَتَّى يَفَرَّ مِنْ تَبَعَاتِ هَذَا الْإِعْرَافِ الْمُثِيرِ أَتَى بِمَا يُضْحِكُ السَّامِعِينَ، فزعم أن مكة ليست مكة، وأن محمداً ﷺ ولد في مكان قريب من الشام، وفي هذا المكان القريب من أهل الكتاب استفاد محمد ﷺ - حسب زعمه - المعلومات العظيمة الموجودة في القرآن من القسيسين والرهبان^(٢).

(١) ينظر: تفسير الرازي (٤/٢٥٣)، تفسير المنار (٨/٣٩٣).

(٢) ينظر: في ظل السيف، بقلم توم هولاند، مقال في الجارديان بتاريخ ٤/٥/٢٠١٢م، ورابط المقال:

فنفى هذا المستشرق المسكين الشيء المعلوم بالضرورة الذي يعرفه الجاهل والعالم، ويعرفه البعيد والقريب، ويعرفه العالم كله أَنَّ مكة هي مكة التي نعرفها. ما أشدَّ مسكنته وعناده وكبره!.. لما رأى شمس الكتاب تشرق عليه أراد إطفاء نورها بفمه، فعمد إلى تكذيب المتواتر المعلوم عند المسلمين والعالمين.

بصيرة: ﴿فَصَلَّنْهُ عَلَىٰ عَلِيمٍ﴾ تبصّرنا بأن هذا العلم حوى ما يشبع الروح، ويقىم الجسد، ويصلح الفرد، وينظّم المجموع، ويقىم الدّنيا، ويني الآخرة.. فصل الله ﷻ فيه التّشريعات العباديّة، والتنّظيمات الإداريّة، والحيويّة، ونقل فيه المعلومات التاريخيّة صحيحة بعيدًا عن التزييف الذي ملأ الكتب السابقة.

والاستعلاء بالعلم نلمحه من حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿يَكْتَبُ فَصَلَّنْهُ عَلَىٰ عَلِيمٍ﴾، والمرء يشعر بالجهل كلما توغل في التفاصيل لكن كلّ تفصيلٍ في الكتاب هو بعلم الله تعالى، الذي أحاط بكلّ شيء علمًا؛ ماضٍ وحاضر ومستقبل.

في هذه الآية المباركة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنْهُ عَلَىٰ عَلِيمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] أدركنا ثلاث خصائص: الكتابة، والتّفصيل، والعلميّة، فهل يمدّنا قول الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بخصائص أخرى؟

الجواب: يمدّنا قوله ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ برابع هذه الخصائص وخامسها:

الخاصية [۱۳-۱۴]: أهُمُّ أَهْدَافِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ أَنْ يَكُونَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾:

فالمخوَصُ الثَّلَاثُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ مَكْتُوبًا، وَمُفَصَّلًا، وَعَلَى عِلْمٍ.. هَذِهِ الْخَوَاصُّ تُمَثِّلُ أَسَالِيبَ الْقُرْآنِ، وَوَسَائِلَهُ، وَأَسَاسَهُ، أَمَّا هَاتَانِ الْخَاصِيَّتَانِ فَتُمَثِّلَانِ أَهْمَّ أَهْدَافِ الْقُرْآنِ وَغَايَاتِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ، وَرَحْمَةً لَهُمْ وَبِهِمْ، فَقَوْلُهُ: ﴿هُدًى﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الْقَطْعِ مِنْ "الْهَاءِ" الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فَصَلَّيْنَاهُ﴾، أَي: عَلَى الْحَالِ، وَالتَّقْدِيرِ: فَصَلَّيْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ حَالٍ كَوْنِ هَذَا التَّفْصِيلِ هُدًى وَرَحْمَةً، وَيُمْكِنُ أَنْ يَنْصَبَ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَصَلَّيْنَا الْكِتَابَ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى وَرَحْمَةً، فَالتَّفْصِيلُ هُدًى وَرَحْمَةً، وَالْهَدَفُ مِنْهُ: الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ.

فَبَصَّرْنَا ذَلِكَ أَنَّ الْغَايَةَ الَّتِي نَزَلَ لَهَا هَذَا الْكِتَابُ تَنْفِي أَنْ اللَّهُ ﷻ أَحْتَاجَ إِلَيْهِمْ، بَلْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ لِعِلْمِ اللَّهِ ﷻ.. عِلْمُ اللَّهِ ﷻ الَّذِي يُبَصِّرُهُمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَلِذَلِكَ نَزَلَ الْكِتَابُ هُدًى يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَيُخَلِّصُهُمْ مِنَ الْخَطَا، وَالضَّلَالِ، وَضَنْكَ الْحَيَاةِ، وَظُلُمَاتِ الْأَسْبَابِ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، لَا طَلَبًا لِعَذَابِهِمْ، وَشَقَائِهِمْ: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ۲]، فَلَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ أَلَمًا وَتَأْلِيمًا، بَلْ نَزَلَ رَحْمَةً، وَرَفَقًا، وَتَعْلِيمًا.

بصيرة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ۲]: لَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ أَلَمًا

وَتَأْلِيمًا، بَلْ نَزَلَ رَحْمَةً وَرَفَقًا، وَهَدَايَةً تَعْلِيمًا.

فَلَمَّا مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ سَبِيلُ
فَكِتَابُنَا لِلْسَّائِرِينَ دَلِيلُ
فَهُوَ الْمَلَاذُ إِلَى حِمَاهُ نَمِيلُ

إِنْ تَاهَتِ الْخُطُوتُ فِي سُبُلِ الرَّدَى
أَوْ ضَلَّتِ الْأَفْدَامُ عَنْ دَرْبِ الْهُدَى
أَوْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَانْقَطَعَ الرَّجَا

فيه الهدى منه التقي وبه النجاة وكتاب ربي بالفلاح كفيل^(١)
 نلاحظ أن الله ﷻ ختم الآية بقوله: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فلماذا هذا الختم؟ هل يعني ذلك أنه لا يشعر بهذه الخصائص الخمس السابقة حقاً إلا من يؤمنون به؟ وماذا يعني أن يكون من خصائص القرآن أنه لا يشعر بعظمته إلا المؤمنون به؟
 الجواب: نعم! فهذه:

الخاصية الخامسة عشرة: منح الهبات والعطايا لمن يؤمن به، فلا يشعر بخصائص القرآن ولا يجد لذة تفصيله وغاياته إلا من آمن به، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾.

فالقرآن يعطي هدايته ورحماته لمن يؤمن به.
 وجاء هذا الختم المهم ليكون المفتاح الذي يفك عناد الإنسان وتكبره، عندما تكون الأدلة مثل الشمس، بل تكون الشمس واحدة من هذه الأدلة كفى ذلك لتسلم بالحق، فإذا رأيت الشمس ظاهرة بينة مرتفعة في وضح النهار؛ فإن الإنسان يقول: هذه شمس، ولا يمكن أن يدعي بأنها قمر. فهذا الهدى وتلك الرحمة لا تتحققان إلا إذا سُمح للقرآن أن يطبِّقه المؤمنون ؛ ليجدوا هداه ورحمته، وليتمكّنوا من إمداد الآخرين بهما.

بصيرة: لا تتحقق الهدى والرحمة إلا إذا سُمح للقرآن أن يطبِّقه المؤمنون ؛ ليجدوا هداه ورحمته، وليتمكّنوا من إمداد الآخرين بهما.

(١) الآيات للدكتور/ سعيد بن دحاج وفقه الله. ينظر: عتب القوافي (ص: ٣).

فحوادث الحروب والقتل المتزايدة في العالم لا حل لها إلا بتطبيق النظم الاجتماعية والجنائية الموجودة في القرآن، وإلا فإنها ستبقى في تزايد.

وانتشار الاغتصاب وحوادث السُّكْرِ لا حل لها إلا بالنظام الذي جاء به القرآن. فلماذا يتكبر الإنسان، وينكر ذلك؟

فالله ﷻ يبين لنا أن الذي ينتفع بالقرآن، فيجد فيه الهدى والرحمة إنما هو المؤمن؛ ولا يمكن أن يجد هداه ورحمته من لجأ إلى الإلحاد والعناد.

﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ تصوّر لك أن أصحاب العناد لم يجدوا في الكتاب الهدى والرحمة؛ لأنهم أعرضوا عن الإيمان أما في عصر أبي جهل فباسم الجهل، وأما في زماننا فباسم العلم، واسمع إلى بعض هؤلاء المعاندين الذين يرون الأدلة أمامهم ثم لا يؤمنون، فهاهو (توماس هنري هكسلي) عام ١٨٦٣، يقول:

«عندما وصلت لمرحلة النضج الفكري، وبدأت أتساءل عما إذا كنت ملحدًا؛ مؤمنًا أم مؤمنًا بالكون وخالقه؛ ماديًا أم مثاليًا؛ مسيحيًا أم مفكرًا حرًا؟ اكتشفت أنه كلما تعلمت وتأمّلت كانت الإجابة أبعد»^(١).

مسكين! فهو لم يجد إجاباتٍ عن الأسئلة التي يبحث عنها. هاهو القرآن يقدم له ولغيره الإجابات ممتلئة بأنوار العلم، وبصائر الفكر، وهدايات العقل.

﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ توضّح لك مدى الضياع الذي وقع فيه الجاهلون، ومنهم المحامي (روبرت جرين إينجرسول) من ولاية إلينوي، الذي عرف في القرن التاسع عشر بأنه اللاأدري الأعظم، إذ قال في خطابه عام ١٨٩٦م بعنوان: "لماذا أنا لا أدري":

(١) ينظر: جذور اللاأدرية التاريخية، داود السلطان، الحوار المتمدن، العدد (٥٥٩٤)، ٢٨/٧/٢٠١٧م، رابط المقال:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٥٦٦٩٠٠>

«هل هناك قوّة خارقة للطبيعة، وعقل تعسفيّ، وإله مُنصّب، وإرادة عليا تحرّك الأمواج والتيارات في العالم، والتي تقدّسها كلّ الأسباب؟ أنا لا أنكر، ولا أعرف، ولكني لا أعتقد. أنا أوّمن بأن الطبيعة هي العليا، وأنه لا يمكن لأيّ حلقة أن تضيع أو تنكسر بداخل أي سلسلة لا نهائية، وبأنه لا يوجد هناك قوّة خارقة للطبيعة تسمع صلواتنا... هل هناك إله؟ لا أعلم، هل الإنسان خالده؟ لا أعلم، ولكن ما أعلمه هو أنه لا يستطيع كلّ من الأمل والخوف، والإيمان، والإنكار تغيير الواقع»^(١).

ونحن نسأله: من طبع هذه الطبيعة؟

إذا الإنسان ذهب إلى مغارة على سبيل المثال، أو إلى صحراء، وفي أثناء الصحراء وهو تائه وجد هاتفًا ذكيًا مصنوعًا من مصنوعات هذا الزمان . هل سيقول: أنا أوّمن بهذا الهاتف، ولا أستطيع أن أوّمن بأنه جاء إلى هذا المكان أحد أو لم يأت. إذا قال هذه العبارة كم سيضحك عليه الناس؟ لا شكّ بأنه إذا وجد هذا الجهاز الهاتف في صحراء خالية، فإنه سيتيقنّ بأنه هناك من مرّ، أو أسقط هذا الجهاز، ولن يقبل بأيّ تفسير آخر، فهذا الكون كلّهُ أمّا يدلُّ على الله جلّ في علاه؟!

وهكذا الجهل والإصرار عليه مع العناد يولّدان الكفر.

ولنأخذ مثالاً آخر: فمن الناس من كان يقول: الغدّة الصنوبريّة التي هي موجودة في جسد الإنسان لا فائدة منها. والآن بعد الاكتشافات علموا بأن لها فائدةً عظيمةً جدًّا في إدارة هذا الجسم، ولها دورها الكبير في تنظيم الساعة البيولوجية، وإيجاد التوازن في الجسم، فكون الناس لم يعلموا ذلك قبل مائتي سنة، لا يعني ذلك بأنه ليس لها وظيفة.

(١) ينظر: المرجع السابق.

ونقول للذي يعاند: تواضع وتنازل عن غرورك واقترب من القرآن، فإذا قرأته ستجد عظم معرفته.

عدّد العالم التطوري (Robert Wiedersheim) في ١٨٩٣ م في كتابه في علم التشريح التطوري أكثر من (٨٦) عضوًا أثرًا بجسد الإنسان، تتواجد في حالة ضمور غير وظيفي، وعدّها بذلك من بقايا وآثار أعضاء أصلية توارثت من أسلاف قديمة، وفُتح السباق حول تعديد أكثر الأعضاء أثرية من الأسلاف المزعومة حتى وصلت إلى ١٨٠ عضوًا، كما قال عالم الحيوان (هوراشيو نيومان)، والتي تجعل من الإنسان متحفًا متحركًا للآثار على حدّ تعبيره.

ومن المثير للدهشة أنك لو طالعت قائمة التطوريين للأعضاء الأثرية من بقايا التطور، كقائمة (روبرت Robert Wiedersheim) مثلاً، ستتعجب لما تتضمنه من أعضاء جسدية، اكتُشف فيما بعد أهميتها الحيوية البالغة، إذ يمكنك أن تطالع إرفاقه للغدة الصنوبرية، والغدة الصّعترية، والغدة النّخامية، واعتبارها بلا فائدة؟!!

حتى تمّ اكتشاف الهرمونات وعُلم دور الغدة الصنوبرية في تنظيم إيقاع الساعة البيولوجية، ودور الغدة الصعترية في جهاز المناعة، ودور الغدة النّخامية (Pituitary gland) وتحت المهاد في تنظيم الهرمونات، والتي من أهمّها هرمون النّمو (G)، والهرمونات المنبهة للأعضاء التناسلية.

(ويليام باركر) الباحث في علم المناعة في المركز الطبي في جامعة ديوك في مقالة (لايف ساينس): «العديد من النصوص البيولوجية، لا تزال تشير إلى الزائدة الدودية كعضو أثري، ربما حان الوقت لتصحيح تلك المراجع»^(١).

وفي مقال آخر باسم هل أنا ملحد أم لا أدري؟: نداءً إنسانياً للتسامح وجهًا لوجه مع العقائد الجديدة عام ١٩٤٧م، عكس (برتراند راسل) مسألة كيفية تسمية نفسه قائلاً:

«كفيلسوف، إذا كنت أخطب جمهوراً فلسفياً بحثاً، ينبغي عليّ أن أصف نفسي بأني لأدري، حيث إنني لا أعتقد أن هناك حجة قاطعة من قبل أي شخص، تُثبت أنه ليس هناك إله، ومن ناحية أخرى، إذا كنت أريد إيصال الفكرة الصحيحة إلى الرجل العادي في الشارع، أعتقد أنه ينبغي عليّ القول بأنني ملحد، لأنني حينها سأخبره بأنني غير قادر على إثبات عدم وجود إله، بالإضافة إلى أنني لا أستطيع إثبات عدم وجود آلهة هوميروسية»^(٢).

فقد اجتمع لنا في خواص القرآن المجيد ستُّ خصائص في هذه الآية: الكتابة، والتفصيل، والعلمية، والهدى، الرحمة، وأنه يعطي خيرا له لمن يؤمن به، فكيف يمكن أن يظهر لنا الاتصال والتكامل بين هذه الخصائص الست المبهرة؟

فالخاصية الأولى تبين طبيعة القرآن التوثيقية، فهو مكتوب، والخاصية الثانية تبين طبيعة محتوياته العلمية فهو مفصل وليس مجزأً ملغزاً، والخاصية الثالثة تبين لنا أن التفصيل جاء بناءً على علم قاطع، وليس على جهل، أو تجارب، والرابعة والخامسة تلخص هدف هذا

(١) ينظر: خرافة الأعضاء الأثرية الضامرة كدلالة على التطور (Vestigial Organs). ينظر:

<http://creationoevolution.blogspot.com/٠٢/٢٠١٣/vestigial-organs.html>

(٢) ينظر: جذور اللاأدرية التاريخية، داود السلمان، الحوار المتمدن، العدد (٥٥٩٤)، ٢٨/٧/٢٠١٧م، رابط المقال:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٥٦٦٩٠٠>

الكتاب المفصّل على علم؟ فأهّم أهدافه: الهدى والرحمة، والخاصية الأخيرة تبين أنه هدى ورحمة لمن يؤمن به، فيُهدى ويُرحم به قومٌ يصدّقون به، وبما فيه من أمر الله ﷻ ونهيه، وأخباره، ووعدّه ووعدّه، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى.

ويشعر الإمام الطبري رحمه الله بالتناسب العظيم، والتكامل النظيم في القرآن الكريم، إذ يرى أن هذه الآية (٥٢) ترجع إلى قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] ^(١).

ابن جرير رحمه الله بفكره المنير وبعقليته الفذة رأى أن الآية الثانية تتصل بالآية (٥٢)، ولا ينگد على هذا ولا ينغص عليه وجود الفصل الكبير بينهما، بل كلّ الآيات تؤدّي إلى شرح قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

ولا أظن ابن كثير رحمه الله إلا ذاهلاً حين ردّ كلام الطبري هنا فقال: «وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّهُ قَدْ طَالَ الْفَصْلُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ» ^(٢)، أي: طال الاتصال بين الآية الثانية من السورة وهذه الآية (٥٢)، وهل طول الفصل في الكلام يسوّغ أن يهيم الخطيب أو المتكلّم في كلّ بقعة من الأرض بدلاً من أن يجعل العناصر التي يتكلّم عنها دائرة حول فكرة واحدة، أو معنى كثيف ينصره، ويبينه، ويجلّيه للسامعين بطرق مختلفة؟

نتنقل إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/٤٧٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٢٥).

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: في هذه الآية نجد:

المشهد الثاني: مشهد الانتظار الخادع:

إذ يخدع الظالمون أنفسهم ويخدعون العالم، فيصرون على عدم اتباع الكتاب حتى يروا حقائقه النظرية المستقبلية الغيبية في الآخرة واقعاً مشاهداً، ويُبصِّرنا بذلك قوله تعالى مَجْدُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، فمن أهم الأعداء التي يعتمدونها الغافلون لترك اتباع القرآن: انتظار تحقق وعده ووعيده:

وأول سؤال يطرح نفسه: ما موقع جملة ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ في أول الآية؟ وما معنى ﴿يَنْظُرُونَ﴾؟

الجواب: جُمْلَةُ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ متصلة اتصالاً قوياً بكل ما سبق، وخاصة الآية التي قبلها مباشرة؛ فتعال اسمع قول ربنا - جلَّ مَجْدُهُ - ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ثم اذكر أن هذه الآية السابقة احتوت على تهيج عظيم للمؤمنين والكافرين؛ ليؤمنوا بالكتاب المبين، أو ليزدادوا إيماناً، وحينها يثور السؤال: إذا كان الذي جاءهم من الله يتمتع بهذه الخواص الست، فمالهم لا يتبعونه؟ ما الذي يُؤخِّرهم عَنِ التَّصَدِيقِ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ؟ وَهَلْ أَعْظَمَ مِنْهُ آيَةٌ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ؟^(١).

فجاء قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ لِيُظْهِرَ لَنَا الْجَوَابَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْمُلِحِّ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي النُّفُوسِ، وَتَجِيشُ بِهِ الْعَوَاطِفَ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: يَمْنَعُهُمُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَمْ

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٣).

يروا حقائقه قد ظهرت، ولم يجدوا تفسير أقواله التي عبّرت عنها ألفاظه قد وقعت، فهل هذا صحيح؟ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾.

فالسؤال إنكاريّ تويحيي تهديديّ، ويكون التقدير: ما لهم لا يؤمنون بهذا الكتاب العظيم؟ هل ينظرون ليؤمنوا به إلا تأويله؟ سيعلمون عندما يرون تأويله، وتقع حقائقه أمام الناس.. سيعلمون أن أوان الإيمان قد فات.

فكلمة ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يعني: ينتظرون.

وتصوّر لنا كلمة ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إصرار المعاندين الغافلين على عدم الإيمان، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ مِنَ النَّظَرَةِ بِمَعْنَى الْاِنْتِظَارِ، وليس من النَّظَرِ فقط، أي: هل ينتظرون من آياته إلا تأويلها، أي: تحقّقها، مثل: مجيء يوم الفصل، وإشراق الأرض بنور ربّها ﷻ، وإبراز جهنم للغاوين، وإزلاف الجنة للمتقين.

وهنا سنتساءل: هم كافرون به، فكَيْفَ يَتَوَقَّعُونَ وَيَنْتَظِرُونَ تأويله مَعَ جَحْدِهِمْ به وإنكارِهِمْ

له؟

الجواب: طرح الرّازي رحمه الله (١) هذا السؤال وأجاب عنه، فلنستلهم إجابته لبيان الأمر:

جميع الكافرين ينتظرون تأويله، أمّا المنكرون لحقائق القرآن، فهم ينتظرونها على سبيل الاستهزاء، والسّخرية، والتّحدي، فيقولون: أين العذاب الذي تتوعدونا به؟ وأمّا المتشكّكون فهم يشعرون بوجود احتمالٍ لوقوع ذلك.

والفريقان يقولان: ﴿اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اُنْزِلْنَا بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٥٤).

وبعضهم يقول: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ۲۹]، فهم لا ينتظرون انتظار المؤمن، وإنما ينتظرون انتظار المستهزئ الساخر بأن ما جاء به القرآن لن يتحقق ولن يقع.

فالآية هنا تزجرهم عن محاربة القرآن والسخرية منه، وتؤكد لهم أن تأويله سيقع، فهل ينتظرون وقوعه؟ هناك لن ينفعهم الإيمان، وستحيط بهم النيران، ويحاصرهم الخسران. والمؤمنون دائماً يخوفون المجرمين من عذاب يوم الدين، فيزداد المجرمون بغياً، ويقولون متهمّين ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ۴۸]، وهذا السؤال المستهزئ تكرر ستّ مرات في القرآن المجيد، فهم كثيراً ما يسخرون من القرآن، ويوهمون الآخرين أن حقائقه لن تقع، مثل: حقيقة البعث، أو العذاب للمجرمين، والتّنعّم للمتّنعّمين، فجاءت الآية تعلّمهم أنهم في سخريتهم كالمنتظرين أن يقع.. فماذا سيفيدهم إذا وقعت حقائقه، وتحققت أخباره؟

هناك لن ينفع الإيمان، ولن يجدي الاعتذار عن الطّغيان، ولذا كثر الكلام في القرآن عن انتظار المؤمنين والكافرين لتحقيق أخبار الكتاب المبين.

ولكن من هم الذين ينتظرون تأويله؟

الذين ينتظرون تأويله:

المؤمنون، فهم ينتظرون تأويله انتظار متشوّف مشتاق لتحقيق العدل لهم من الظالمين، ولإسباغ الفضل عليهم من ذي القوّة المتين، ولتنعمهم في جنّات ربّ العالمين.

والكافرون، فهم ينتظرون تأويله انتظار استهزاء وسخرية ظانّين أنهم يعجزون الله ﷻ، أو لن يبعثوا أبداً، فإطلاق الانتظار عليهم هنا -كما يقول ابن عاشور رحمه الله- استعارة تهكّمية: شَبَّهَ حَالَهُمْ بِحَالِ الْمُتَهَلِّلِينَ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي سَيَحُلُّ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَا أَوْعَدَهُم بِهِ الْقُرْآنُ بِحَالِ الْمُتَنَظِّرِينَ،

وهم لَيْسُوا بِمُنْتَظَرِينَ ذَلِكَ؛ إِذْ هُمْ جَا حِدُونَ وَفُوعَهُ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ [محمد: ١٨]، وَقَوْلِهِ ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]^(١).

ولكنك قد تتساءل: فما معنى كلمة ﴿تَأْوِيلُهُ﴾؟

الجواب: التأويل مشتق من الأول، وهو الرجوع إلى العاقبة، والمصير، والحقيقة، ويفسر قتادة رحمته الله كلمة: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ بذلك، فيقول: «عاقبته»، ويبين الربيع بن أنس رحمته الله أن تأويل القرآن أي: وقوع حقائقه، يحدث شيئاً فشيئاً، فما وعد به في الدنيا سيتحقق، وما وعد به في الآخرة سيكون، فيقول: «فلا يزال يقع من تأويله أمرٌ بعد أمر، حتى يتم تأويله يوم القيامة، ففي ذلك أنزل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، حيث أثنى الله تبارك وتعالى أوليائه وأعداءه ثواب أعمالهم»، وقال ابن زيد رحمته الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾: «يوم يأتي حقيقته»، وقرأ قول الله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾، [يوسف: ١٠٠]. قال: «هذا تحقيقها»، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: «ما يعلم حقيقته ومتى يأتي إلا الله تعالى»^(٢).

فالتأويل هنا بمعنى الأول والرجوع إلى الأصل والمصير الذي تعنيه الكلمة، وذلك يعني تحقق ما وعد الله به المتقين، وأوعد به المستكبرين ليكون واضحاً جلياً أمام الخلق ما عدوه مُحالاً وكذباً فلا يقدرّون على تكذيبه حينئذ، وما بعد العيان بيان^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٤).

فكان الله تعالى مجده يقول: هل ينتظر الذين عرفوا هذا الكتاب ذا الخصائص العظيمة ليؤمنوا به ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، أي: هل ينتظرون إلا ظهور تأويل ما قرره الكتاب من وعدٍ ووعدٍ؟ هل ينتظرون إلا تحوّل حقائقه القوليّة إلى واقع مشاهد ليؤمنوا؟ حيث يكون أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

هل ينتظرون ليؤمنوا به إلا أن تتحقّق فيهم المشاهد التي حدّثناهم عنها من دخول المكذّبين المستكبرين في أمّ قد خلت من قبلهم في النار؟!

هل ينتظرون إلا أن يتنعم أهل الجنة بجنّاتهم، وبحوارهم السّاخر من أهل النار؟ هل ينتظرون إلا ذلك ليؤمنوا به؟

ألا يمكنهم أن يفكروا قليلاً، فيؤمنوا قبل أن يتحقّق تأويل الوعد والوعد؟
أَمَدُ الْحَيَاةِ كَمَا عَلِمْتَ قَصِيرٌ وَعَلَيْكَ نَقَادٌ بِهَا وَبَصِيرٌ
عَجَبًا لِمُعْتَرٍّ بِدَارٍ فَنَائِهِ وَلَهُ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ مَصِيرٌ^(١)
يسمع المؤمن هذا التهديد، فيشفق من الوعد يوم يأتي تأويل ما أخبر به القرآن، فيقبل على الله الوهاب ذي العرش المجيد، فيقول:

«يَا رَبِّ إِنِّ عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا
فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
وَجَمِيلُ عَفْوَكَ.. ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ^(٢)

(١) البيتان لعلي بن أحمد الحميري، أشدهما في رثاء العز بن عبد السلام. نفح الطيب، ابن المقري التلمساني، (٢/ ٦١١).

(٢) الأبيات لأبي نواس. ينظر: ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ (ص: ٦١٨).

شتان بین انتظار و انتظار:

ویناسب هنا أن نبين أن المقصود بالانتظار أن يكرس المؤمنون وقتهم في الأعمال الصالحات استعدادًا لذلك اليوم، وأن يعلموا أن انتظار المستهزئين يجعلهم يزدادون غفلة؛ لأنهم لا ينتظرون، ولكنهم يعاملون أنفسهم ويعاملهم المؤمنون معاملة المنتظرين ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

اللَّهُمَّ رَغْبَنَا فِيْمَا بَقِيَ، وَزَهْدَنَا فِيْمَا يَفْنَى، وَهَبْ لَنَا الْيَقِينَ الَّذِي لَا تَسْكُنُ النَّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يَعْوَلُ فِي الدِّينِ إِلَّا عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَمُلْكِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، وَبُورِكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ، أَنْ تَكْفِينَا شَرَّ مَا أَهَمَّنَا، وَشَرَّ مَا لَا نَهْتَمُّ بِهِ، وَأَنْ تُعِيدَنَا مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا^(١).

لَمَّا سَمِعَ الْعَالَمَ لِهَذَا السُّؤَالِ اللَّافَتْ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف:

٥٣]، كَانَتْهُمْ تَسَاءَلُوا: مَا يَكُونُ حَالُهُمْ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (١ / ٤٧٧).

المشهد الثالث: صراخ الناسين غير المتبعين للقرآن الكريم، ليكون بديلاً عن الاتباع الذي كان يجب أن يقوموا به في الدنيا:

وَيُصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ - جَلَّ مَجْدُهُ -: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ، يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يجب أن يحذر أهل الدنيا في الدنيا من المخاطر المستقبلية الأخروية إذا أخرجوا اتباع الكتاب.

وهنا بين الله ﷻ بأسلوب تفصيلي مؤثر، وتصوير حي بديع مباشر أن حالهم عندما يأتي تأويله هو الندم الصارخ، والألم الذي لا يُحتمل، فهم يهرعون إلى أن يقولوا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أعد القراءة لتجد البقاعي رحمه الله يصف الصورة التي قدمتها لنا الآية بأن حالهم فيها يتراوح بين التَحَسُّر والإذعان حيث لا ينفع، والتَّصَدِيقُ والإيمان حين لا يُقْبَلُ^(١)، وبين الألم والأمنيات التي لا يمكن أن تتحقق.

فماذا ينفعهم أن يؤمنوا يوم يأتي تأويله، أي يوم يرون حقائقه قد وقعت وتحققت.. حينها ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وانظر كيف وصف تركهم لاتباعه والعمل به.. لقد وصف ذلك بأنه نسيان.. بماذا يذكرُّك هذا؟

يذكرنا بالقرار الإلهي العادل حول حرمان أهل النار من الماء والرزق، إذ قال الله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

والله تعالى يذكرنا مرةً بعد مرةً بخطورة النسيان المتعمد الذي سببته الغفلة المتعمدة، التي تعني الإهمال وعدم المبالاة.

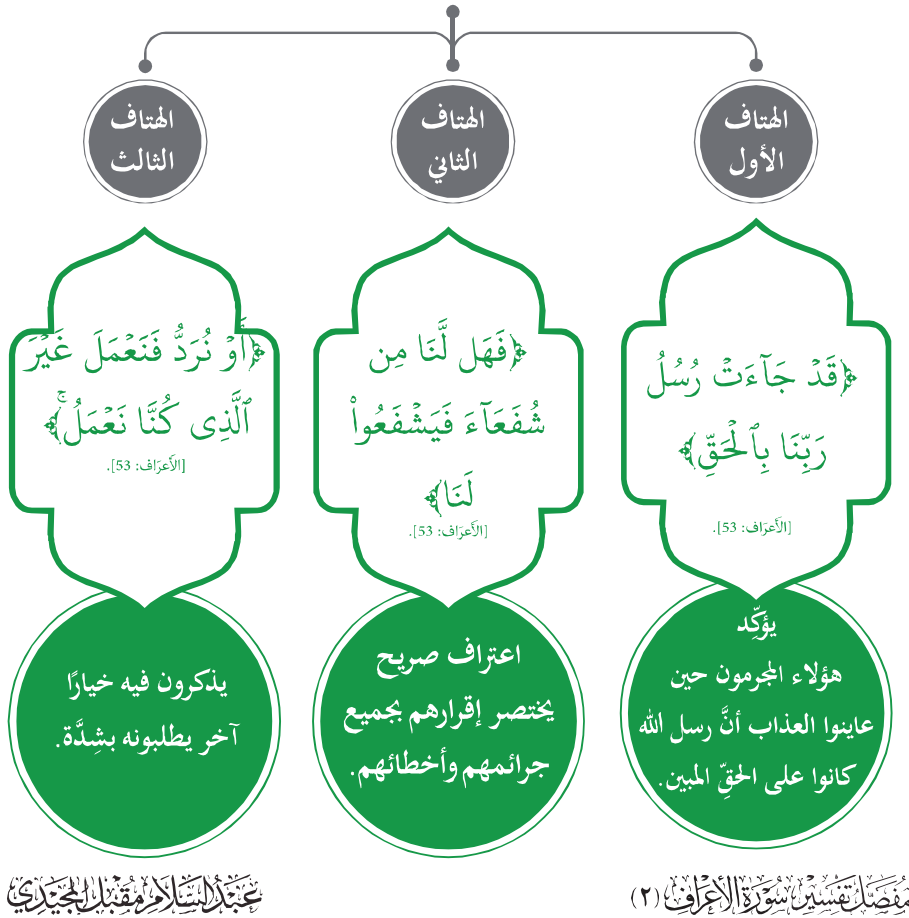
(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤١١).

فصاروا في تركهم لاستماع القرآن واتباعه والعمل به ناسين له تمامًا، لا نسيانًا يعذرون به، بل نسيانًا نتج عن إهمالٍ وكبرٍ وعُجْهِيةٍ وغفلة، وهنا تستحضر الصفة الخطيرة التي وردت قبل في وصف الذين يطلبون شربة ماء من أهل الجنة الأخيار، كما قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وقد تسأل: ما الحكمة في التعبير عن ترك القرآن بالنسيان؟ كيف تصوّر هذه الكلمة الواقع بدقّة؟

الجواب: النسيان هو التّرك، ولكنه تركٌ خاصٌّ يكون فيه المتروك في حيز الذي لا يُستحضر في النفس ولا في العقل، فيكون مغفواً عن صاحبه، إذا لم يكن متعمداً للتّرك ابتداءً، ويكون صاحبه مؤاخذاً إذا كان متعمداً للتّرك ابتداءً، ثم إنه بعد أن تعمّد التّرك لم يعد يفكر في المتروك حتى صار المتروك في حيز النسيان، الذي لا يمكن أن يُستحضر في عقل التّارك.. وانظر إلى القرآن في شهر القرآن؛ فإن الناس يحثّون على تلاوته، ويصلّون الصّلوات المفروضة، وقيام الليل تطوعاً، وكلّ ذلك يذكر بقوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، لكنّ حال المجتمعات المسلمة الغالب أن يتركوا أدنى تفكير لإقامة أنظمة القرآن في الأسرة، وفي العقيدة، وفي الاجتماع، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، وفي العلاقات الدّولية، وفي معالجة النفوس، وفي إنقاذ المظلومين.. وعندما تقلّب الطّرف في برامج رمضان الفضائية تكاد تجدها على بكرة أبيها تضادّ معاني القرآن، وتحاربه، وبتمويل من عددٍ من المسلمين.. ولا يستحضر أحدهم أن ذلك ترك للقرآن!.. فهذا هو النسيان.. نسأل الله العافية.

العتافات الالة الراء الاء نسا القرآن





الهتافات الثلاثة التي يرددها الذين نسوا القرآن:

عندما تصبح حقائق المعيّبات القرآنيّة واضحة بيّنة يهتف الذين نسوا القرآن تلاوةً وعملاً وتعظيماً ونشراً في الدنيا.. يهتفون بثلاثة هتافات:

وهنا ستسأل: ما الهتافات الثلاثة التي يرددها الذين نسوا الكتاب في الدنيا؟

الجواب:

الهتاف الأول: يقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]:

يؤكد هؤلاء المجرمون حين يعاينون البلاء ويحلّ بهم العقاب، ويرون وعيد الله ﷻ قد نزل بهم حقّ اليقين أنّ رسل الله ﷻ كانوا على الحقّ المبين، فكلّمة ﴿قَدْ﴾ تفيد قوّة التأكيد أنّ الرسل ﷻ جاءت بالحقّ، ولاحظ اعترافهم الدقيق المصحوب بالتبجيل والرّجاء، فلم يكتفوا بوصف الرسل ﷻ بأنهم رسل حتى أضافوهم إلى مرسلهم الحقيقي، وهو الله ﷻ ﴿جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾، ولم يصفوا الله ﷻ إلا بوصف الربوبية، عسى أن يجدوا حنان تربية الله ﷻ لهم، ورفقته، ورحمته، وصفحته عن الأخطاء، ولم يكتفوا بذلك حتى وصفوا مجيء الرسل ﷻ بأنه ملائسّ للحقّ، ملتصق به لا ينفك عنه، وهذا ما تصوّره لنا الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾.. إنهم بذلك كلّهم يستجدون قطرةً من رحمة ربّنا الرحمن الرحيم.. إنهم يحاولون أن يستدروا ذرّةً من لطف ربّنا المنان الكريم.. يا حسرةً عليهم.. يا شقوةً لهم.. يطلبون ذلك كلّهم، حيث لا ينفع الطّلب، ولا يجدي الصّياح، ولا الأئين المقترن بالصّخب.

فرسل الله ﷻ جاءوهم بالحقّ الذي تصلح به الأرض، وبلغوهم عن الله ﷻ أذكى الكلمات التي يمكن للبشريّة أن تسمعها، ونصحوهم أصدق النّصح المشفق المحبّ المخلص، لكنهم قابلوا كلّ ذلك بالكذب، وحشدوا كلّ قواهم الإعلامية، والتعليمية، والعسكرية، والأمنية لمحاصرة الرسل ﷻ، واضطهاد أتباعهم، وتكذيبهم، وتشويه دعوتهم.

ہامہم الآن یستیقظون.. ہامہم الآن یصیحون فی کلّ أفق: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.
الآن یصدّقون بالرسول.. یصدّقون بما جاءہم بہ رسلہم ﷺ، وذلك حین لا ینفعہم
التّصدیق، ولا ینجیہم کثرة القول والقیل مما یحلّ بہم من عذاب وضیق.
الہتاف الثانی: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ۵۳]:

فقولہم قبل ذلك: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ اعتراف صریح یختصر إقرارہم بجمیع
جرائمہم وأخطائہم الی کان أساسہا أنهم کذبوا الرسل ﷺ، ونسوا الحقّ الذی جاءہم من
ربہم ﷻ.

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ خبرٌ یختصر مقدار الحسرات والزّفات الہائلة، وإبداء
الحیرة ماذا یصنعون! وَلِذَلِكَ رَبَّبُوا عَلَیْهِ وَفَرَّغُوا بِالْفَاءِ^(۱) الہتاف الثانی وهو قولہم: ﴿فَهَلْ لَنَا
مِنْ شُفَعَاءَ﴾، فیذکرون فیہ نتیجۃ ما قالوہ أولاً، فیقولون فیہ متابعین لاعترافہم فی الہتاف
الأول بأن الرسل ﷺ جاءت بالحقّ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.

(۱) التحریر والتّنویر (۸-ب/ ۱۵۵).

مراحل البحث عن الشفعاء والحسرات المتلاحقة:

مراحل البحث عن الشفعاء والحسرات المتلاحقة

مرحلة البحث عن الشفعاء من المعبودات الباطلة، والحلفاء في الدنيا، فيكون السؤال هنا حقيقياً، فهم يسألون بجد: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: 53].

مرحلة
[1]

البحث عن الشفعاء من الصالحين، فيفاجؤون بأنهم لا يملكون الشفاعة للجميع، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28].

مرحلة
[2]

التيقن بأن باب الشفاعات للنجاة من الحساب وما بعده مغلق فيرددون السؤال نفسه: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: 53]؛ حسرةً وندامة.

مرحلة
[3]

عَجَبًا لَنَا إِذْ هُمْ يُقْبَلُونَ

مِفْصَلُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (٢)

فإن سألت: ما نوع هذا السؤال في قولهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾؟

الجواب: هذا السؤال بهذه الصيغة عندما نجمعه مع بقية الآيات يصور لنا أنهم يمرّون بعدد

من المراحل، عندما يرى العالم تأويل كلمات الكتاب قد أصبحت حقائق ظاهرة:

المرحلة الأولى: مرحلة البحث عن الشفعاء من المعبودات الباطلة، والحلفاء في الدنيا:

فيكون السؤال هنا حقيقياً^(١)، فهم يسألون بجد: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٦).

فالسؤال ﴿هَلْ﴾ للبحث والتنقيب، والفاء تفصح عن كلام محذوف، أي: قد جاءت رسل ربنا ﷺ بالحق، فنسينا، أي: تركنا هذا الحق الذي جاءوا به تركًا أفضى بنا إلى عدم المبالاة بأي مذكر بهذا الحق، وبما أننا لم نعمل بالكتاب حتى وصلنا إلى هذا اليوم الذي تتحقق فيه موعودات هذا الكتاب، فالواضح تمامًا أننا لم نعد العدة لهذا اليوم، ولا للقاء الله ﷻ، فليس لنا إلا أن نبحث عن الشُّفعاء، فهل من شُفعاء فيشفعوا لنا؟

لاحظ أنهم لم يقولوا: فهل من شُفعاء، وإنما قالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾، فماذا صورت لنا كلمة ﴿لَنَا﴾؟

الجواب: تصوّر لنا كلمة ﴿لَنَا﴾ أنهم يبحثون لأنفسهم عن المخرج، فهم يشعرون أنهم في ورطة حقيقية، ويبحثون عن حلٍّ لها، فهم لا يبحثون عن الشُّفعاء ليتعرفوا إليهم، بل ليشفعوا لهم، لا لغيرهم، وكلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ تصوّر لك تأكيد العموم للشُّفعاء، والأحوال التي يطلبون شفاعتهم فيها، فكلمة ﴿مِنْ﴾ تؤكد أنهم يبحثون عن أيّ شفيع يشفع لهم، ولو في جزءٍ يسيرٍ مما يعانونه، حتى لو قلّت شفاعته، فإذا لم يشفع لهم في عفو الله ﷻ عنهم، ودخول الجنة، فلا مانع عندهم من أن يشفع لهم في أن يموتوا ويكونوا ترابًا ولا يعذبوا، وإذا لم يشفع لهم في ذلك، فيشفع لهم في أن يخفف عنهم العذاب، وهكذا...

ولكن منادي الحق يناديهم:

﴿لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

هنا تراهم يتخبّطون، ويتحيّرون يبحثون عن المخرج من تلك الكروب، ويقولون معترفين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَفْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَفْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

إنهم يذكرون أن كثيراً من أمور الدنيا تقوم على الشفاعات والعلاقات، فيسأل بعضهم بعضاً بلهفة، أو يسألون الصالحين والأخيار المتقين، الذين يظهر أن لهم وضعاً مختلفاً عنهم في عرصات القيامة، حيث يكونون آمنين، لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. فيتساءل المجرمون لعلهم يجدون مخرجاً من هذا الكرب العظيم الذي فيه يبعثون، ويبحثون عن الشافعين ليغفرو عنهم رب العالمين، ويُعْفِيَهُمْ من الحساب الشَّدِيد، والحكم العادل الأكيد.

ويتذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُعرضون عن منهج الكتاب، ويلجؤون إلى عبادة البشر والأحجار والتراب، ويغيرون الدين الحق، فيزعمون أن ما يعبدونه سيكون شافعاً لهم عند الله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فيبحثون عن آلهتهم المدعاة المفتراة، أو أوليائهم وأصدقائهم وحلفائهم من كبار المجرمين وعتاة الشياطين.. يبحثون عنهم لأهداف متعددة، منها: أن يشفعوا لهم، وهنا يأتيهم منادي الحق ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤].

هناك يطالبون بأن يدعوا شركاءهم عسى أن ينقذوهم، أو يشفعوا لهم: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ﴾، ولكن النتيجة كانت مخيبة لآمالهم: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [التقصص: ٦٤].

وقد تسأل: لماذا لم يجدوا عندهم الشفاعة؟

الجواب: لأن هذه المعبودات الباطلة، والآلهة المدعاة المفتراة ليس بيدها أن تشفع.

أين الأصنام؟ أين الذين كانوا يُعبدون من دون الله ﷻ؟ هل يمكنهم أن يشفعوا ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الرَّحُوف: ٨٦].

حينها يرى الذين نسوا الكتاب من قبل الحقيقة.. لا يمكن لمعبودتهم الباطلة أن تشفع، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرُّوم: ١٢]، يُبلس أي: يئأس، ويتحير ويسكت، ويبهت لانقطاع حُجَّتِهِ، فيبحثون عن الشفاعة عند شركائهم لكن منادي الحق يخبرهم الحقيقة المرة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الرُّوم: ١٣].

ومن قال لهم: إن الذين يعبدونهم من دون الله يمكن أن يكونوا شفعاء عند الله، والله يقول: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[الزُّمَر: ٤٣-٤٤]!

هل يمكن لهذه المعبودات الباطلة من البشر والحجر أن تشفع عند الرحمن؟! قال المؤمن من قبل: ﴿ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ عَالِهَةً إِنْ يُرِدِ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

إنه اليوم الموعود.. لا تنفع فيه التَّوسلات ولا الضراعة.. إنه ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٤].

وهنا تأتي:

المرحلة الثانية: البحث عن الشفعاء من الصالحين:

حيث يبحثون عن الشفعاء من الصالحين الذين يمكنهم أن يكونوا شفعاء مثل الأنبياء ﷺ، فيرددون متسائلين: ﴿فَهَلْ لَّنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأَعْرَاف: ٥٣]، ويعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله ﷻ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وهنا يرون الصالحين

الذين طالما حاربوهم في الدنيا.. يرونهم أمامهم في أعلى درجات الأمن والتكريم ﴿لَا يَحْزَنُهُمْ أَفْقَرُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

فيأتيهم الذين نسوا القرآن في الدنيا.. يأتونهم يوم القيامة، وهم يرونهم في تلك الحالة البهيّة النضرة، ويطلبون منهم الشفاعة، لكنهم يفاجؤون بالردّ، فالصالحون لا يملكون أن يشفعوا للجميع، بل هم كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ربما بحثوا عن شفعاء في الملائكة ﷺ الذين يرونهم، لكن نداء الحق يظهر لهم الحقيقة الإيمانية العظيمة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

هول الموقف يوم القيامة والبحث عن الشفاعة:

هاهم أهل الموقف يأتون آدم ﷺ يطلبون شفاعته، ويصف النبي ﷺ محاولات الذين نسوا الكتاب لطلب الشفاعة من الأنبياء ﷺ، فيقول: «يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَبْصُرُهُمُ النَّاطِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَىٰ مَا بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ ﷺ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ، فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَمَا بَلَّغَنَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ^(١).

(١) البخاري (٣٣٤٠).

وهكذا يمضون من نبي إلى نبي، وكلهم يمتنع عن الشفاعة ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، فهؤلاء كبار الصالحين، وأئمة المتقين ولا يقبلون الشفاعة إلا النبي ﷺ، ولكنه يشفع لهؤلاء لأجل فضل القضاء، وليس لينالوا العفو من أرحم الرحماء على جرائمهم، وعلى الرغم من ذلك يحاول بعض المجرمين أن يستشيروا الرحمة في نفوس كبار الصالحين ليشفعوا لهم.

ومنادي الحق يذكر الأولين والآخرين بعدم قبول شفاعة الصالحين للذين نسوا الكتاب المبين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

يا لهفتاه! لا تقبل الشفاعة من النفوس الصالحة السعيدة للنفوس الطالحة الشقية، ولكن العصاة يستمرّون أملاً في أن يجدوا شفاعة من بعض أكابر الصالحين، وعظماء السابقين المقربين، فهاهو النبي ﷺ يحدثنا أن آزر يرى ابنه إبراهيم الخليل عليه السلام في تلك العرصات: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرٌ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟».

ما الذي يحدث؟

منادي الحق يعلن للجميع أن الشفاعة لا تنفع ما دامت تقدّم لمن لا يستحقونها ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلِكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١)، فيذهب إبراهيم عليه السلام للشفاعة، ولكنها لا تقبل منه.

ومنادي الحق يصف حالهم الواهن النادم المتحسّر حينئذ، فيقول: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [٤٨: المُنَافِقِينَ].

المرحلة الثالثة: التيقّن بأن باب الشفاعات للنجاة من الحساب وما بعده مغلق:

فلا شركاء لهم سيشفعون لهم، ولا الملائكة ولا النبيون ولا الصالحون ستنتفع شفاعتهم لهؤلاء الذين نسوا الكتاب في الدنيا، ولم يبق إلا أن يحاسبهم الله عز وجل الحساب الحق، فعندها يرددون السؤال نفسه، فيقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣]، ويكون المراد بسؤالهم هذه المرة إظهار التحسّر، والتندّم، والتوجّع، والتفجّع، والتألّم على أنهم ما صدّقوا بالكتاب من قبل، بل نسوه، وفي دنياهم خلف ظهورهم نبذوه.

وعندها يعلنون تصريحًا إعلان الألم والندم، فيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ [١٣: وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ] [الشُّعَرَاء: ١٠٠-١٠١].

البصائر التي يحبونا به الجمع في كلمة ﴿شُفَعَاءَ﴾:

وهنا تعود إلى قول ربّنا حاكياً تندّم الذين نسوا القرآن من قبل: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣]، فلماذا جمعوا كلمة ﴿شُفَعَاءَ﴾ مع أن طلبهم إنما يتحقّق بوجود شافعٍ واحدٍ؟

(١) البخاري (٣٣٥٠)، وقد سبق ذكر الحديث وبيان كلماته الغربية. ينظر: (ص: ٦٧٥) من هذا الكتاب.

الجواب: نعم كان يكفيهم أن يجدوا شافعاً واحداً، فالنبي ﷺ وحده يشفع لأهل المحشر من أجل أن يفصل بينهم، لكن الوصف البياني الدقيق لواقعهم المتألم المتحسر، وزفراهم المتوجعة ذلك اليوم يُظهر لنا أنواعاً من التصرّفات التي لجؤوا إليها:

فالجمع ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ يبيّن أن كلّ واحدٍ منهم بحث عن شافعه الخاصّ، كما كان كلّ واحد يعتمد على علاقاته الخاصّة في الدُّنيا، ولكن ولات حين مناص، فقد ضاع كلّ الخلاص.

والجمع أيضاً ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ يبيّن لنا أنهم بحثوا عن أنواعٍ من الشفاعات، فبحثوا عن شفاعات تريحهم من مكانهم، وشفاعة توصلهم إلى المغفرة، وشفاعة ترجعهم إلى الدُّنيا.. فيطلبون أولاً شافعاً من أجل أن يشفع عند الله ليفصل بينهم يوم القيامة؛ لأنه يبقّيهم خمسين ألف عام لا ينظر إليهم، ويطلبون ثانياً شافعاً لأجل أن يقبل الله ﷻ منهم معذرتهم، فيمحوا عنهم ذنوبهم، ويزيل عنهم أثقالهم وسيئاتهم، ويطلبون شافعاً لأجل أن لا يدخلوا النار وهكذا.

ويطلبون شفعاء متعدّدين في المواقف المتعدّدة التي ستحدث لهم يوم القيامة، فالجمع في قولهم ﴿شُفَعَاءَ﴾ يبيّن لنا ذلك كلّهُ.

لا فائدة، فلم يرجعوا بنتيجة.

والجمع في قولهم: ﴿شُفَعَاءَ﴾ يبيّن لنا أنهم إذا لم يجدوا شافعاً واحداً يكفي لتحقيق مطلوبهم، فإنهم يبحثون عن مجموعة من الشفعاء، كما كان يحدث في الدُّنيا، حيث تكون شفاعات المجموع أقوى من شفاعات الفرد، فقد ينفعهم أكثر من شافعٍ أمام ربّهم ﷻ، وكأنك بهم وهم يصيحون قائلين:

هل لنا من شفعاء يَرْقُونَ لحالنا فيشفعوا لنا، وهم بذلك يتذكرون أن علاقاتهم الخاصة كانت تعينهم في الدنيا على قضايا كثيرة بالباطل.

علاقاتهم كانت تعينهم على الإجرام الذي أداروا حياتهم به. علاقاتهم كانت تعينهم على حياة الأكاذيب التي يحيونها، فيتهمون غيرهم بأبشع الجنايات التي يرتكبونها هم.

علاقاتهم كانت تعينهم على أن يفلتوا من العقوبات التي يفترض أن يقعوا فيها، فيحميهم الفيتو، وقوانين الحصانة من المساءلة.

فيتذكرون في الآخرة ذلك، ويتمنون أن لهم العلاقات نفسها التي كانت في الدنيا من أجل أن يجدوا شفعاء، عسى أن يشفعوا لهم عند ربهم ﷻ، والشفعاء الذين أشاروا إليهم إما أن يكونوا أصدقاء وأولياء - كما يقول الطبري رحمه الله^(١) - أي: أصدقاء يحبون لهم النجاة، فإذا فقدوا ذلك عنوا نوعاً آخر من الشفعاء هم الأقرباء وذوو الأرحام الذين يحبون الخير لأرحامهم، كما يفعل آزر مع إبراهيم عليه السلام، فإن لم يفعل ذلك أرحامهم لجؤوا إلى أعدائهم من الأنبياء والصالحين عسى أن يجدوا من رقتهم ورحمتهم وشفقتهم ما يخلصهم من هذا المصير البائس، وربما اعتمدوا على الحرص على الخير الذي كان يظهره الأنبياء عليهم السلام من قبل.. تدخل هذه المعاني كلها في كلمة ﴿شَفَعَاءٌ﴾.

فإن قلت: لماذا جمع شفعاء جمع تكسير هنا وكان بإمكانه استعمال جمع المذكر؟

الجواب: لأن دلالة التكثير في جمع التكسير أبلغ منها في جمع المذكر السالم؛ ولذا عبّر به هنا تعبيراً أنهم أكثروا من البحث عن الشفعاء.

(١) تفسير الطبري (١٢ / ٤٨١).

وعُدَّ مجدداً إلى حسراتهم ولهفاتهم وهم يبحثون عن الشفعاء، فقد صاحوا في الجموع المجتمعمة يوم القيامة: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾، ولكنهم لم يكتبوا بهذا الصَّياح حتى أتبعوه، فقالوا: ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، فلماذا أضافوا هذا الوصف مع أن الشفعاء وظيفتهم أن يشفعوا؟ لماذا أصرُّوا على أن يزيدوا الأمر أيضاً فقالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾؟

هذا السؤال الذي يدلُّ على الطَّلَب والبحث والتَّرجي والتَّوسُّل: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ يصوِّر لك مقدار لهفتهم، وشِدَّة بحثهم، ولذا لم يسكتوا، بل حدَّدوا بِدَقَّة ما الذي يريدونه من الشفعاء الذين يبحثون عنهم، فقالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا﴾ فلم يكتبوا بالبحث عن الشفعاء، حتى أتبعوا ذلك بتحديد المراد من بحثهم عن شفعاء، فهم لا يريدون التَّعَرُّف إليهم، ولا التَّشَرُّف بلقائهم، بل يريدون منهم أن يغثوهم، فيشفعوا لهم عند ربِّهم ﷻ، فأردفوا طلبهم متلهفين: ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، وانتصب ﴿فَيَشْفَعُوا﴾ على جوابِ الاسْتِفْهام، أو التَّمَنِّي، أو النَّفْي^(١)، فهناك شفعاء لكنهم لعذرٍ ما لا يقبلون أن يشفعوا في موقف الحشر، وهناك من يشفع وليس لِكُلِّ إنسان، وهنا تظهر لك هذه الكلمات مقدار الحسرات التي تعصف بهم، حيث قالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ فزادوا كلمة ﴿لَنَا﴾، فالشفعاء قد يشفعون ولكن لفئة مخصوصة؛ لذا ترى هؤلاء الذين نسوا القرآن يزيدون الطلب تخصيصاً في طلب الشفاعة، فيهتفون بالراح، ويقولون: ﴿لَنَا﴾، فانظر كيف تظهر هذه الكلمة أنينهم وتلهفهم.. وأعد سماع تضرعاتهم مجدداً وهم يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، وكأنك تراهم وهم يصيحون بذلك أمام الجموع الفائزة الفرحة الهادرة، وبحضرة الحشود

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/١٥٨).

البائسة الخاسرة.. يهتفون أمام الملائكة والخلق أجمعين: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.. فهل سيجابون، أم سيُلَبَّون، أم سيرجعون محسورين؟

هاهو المرشد الرباني ابن القيم رحمه الله يهتف بالغفل اللاهين الساهين:

فِيَا سَاهِيًّا فِي غَمْرَةِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى صَرِيحَ الْأَمَانِي عَنْ قَرِيبٍ سَتَنْدُمُ
أَفْقُ قَدْ دَنَى الْوَقْتُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ سَوَى جَنَّةٍ أَوْ حَرٍّ نَارٍ تَضَرَّمُ^(١)

فلما لم يجدوا فائدة في نداءاتهم اتجهوا إلى:

التهاتف الثالث يذكرون فيه خيارًا آخر يطلبونه بشدة، فيقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ^{٥٣}﴾:

وقد تسأل: لماذا قالوا ذلك؟ وما الصورة التي تقدّمها لنا كلمة ﴿أَوْ﴾؟

الجواب: لما لم يجدوا شفيعًا ينبعث لهم بين المحبين والمبغضين اتجهوا إلى حلٍّ آخر، وهو أن يطلبوا بأن يُعطوا فرصة جديدة في الدنيا ليعودوا لها، فيعملوا غير العمل الذي عملوه، وكلمة ﴿أَوْ﴾ تصوّر لنا أنهم جعلوا هذا الطلب خُطّةً بديلة لعدم قبول الشفاعة، فربما شعروا أن طلبهم شفاعة الشافعين طلبٌ قد يتعرّض للصدِّ والردِّ والخسارة، فلا أحد يملك الشفاعة إلا بإذن الله ﷻ، وهم قد نسوا كتابه، ولذا قالوا:

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ^{٥٣}﴾، أي: نطلب أمرًا بديلًا للشفاعة إن لم نكن مستحقين لها.. نحن نطلب أن نُردَّ إلى الدنيا، فلم يقل الله ﷻ عنهم: (أو نرد إلى الدنيا)؛ لأنهم عندما طالبوا بالردِّ لا يُتَصَوَّرُ أن يُردُّوا إلا إلى دارٍ واحدة هي دار الدنيا.. وهنا يأتي السؤال: لماذا تطلبون أن تُردُّوا؟

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، (ص: ٥٤).

فيكملون عبارتهم، ويقولون: ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾^{٩٩}، أي: نُعطى فرصة جديدة، فنعمل من الصالحات غير الذي كنا نعمل من السيئات الموبقات المهلكات.

ماذا يريدون أن يعملوا في الدنيا إن أعيدوا إليها؟ هل يريدون فقط تغيير العمل دون الفكر؟ فبعضهم كان مشرّكاً أو ملحدًا، فليس السيء في حياتهم الدنيا هو العمل، بل الفكر كذلك، فلماذا قالوا: ﴿فَنَعْمَلْ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿نَعْمَلْ﴾ تشمل عمل القلب والفكر واللسان والأركان، فتشمل أن يغيروا شركهم ووثنيّتهم إلى الإيمان، وتشمل أن يغيروا الذين نسوا الكتاب من المسلمين والكافرين أعمال العصيان والعدوان إلى أعمال الخير والإحسان.

يذكر ابن السّمّاك هذا الموقف لهارون الرشيد عليه السلام، فيقول:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُمْ نَدِمُوا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: نَدِمُوا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَنَدِمُوا وَهُمْ فِي النُّشُورِ، وَنَدِمُوا وَهُمْ فِي النَّيِّرَانِ، فَقَالَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا» [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، فَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ.

وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُمْ فِي النُّشُورِ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] - فهذا عند النشور، أي: في موقف القيامة، كما ذكر الله تعالى مثله عنهم في هذه السورة ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾

وَقَالُوا - أي وهم في النيران - ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ۳۷] - فتعجب من محاولاتهم المتكررة في المواقف المتغيرة عسى أن يرحم الله ﷻ صياحهم وهتافهم، ولكن ذلك لا يكون، فالله ﷻ ينسأهم كما نسوا الكتاب في الدنيا - قال ابن السَّامَكِ ﷻ مكملًا: فَتَظَرَّ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَبَادَرَ امْرُؤٌ بِعَمَلِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ بِالْكَظْمِ - أي: يؤخذ فلا يستجاب لرجائه، فكأنه مكظوم عن أن يتكلَّم مع أنه يتكلَّم - فَمِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلٌ مِنْ مَاتَ وَأُدْخِلَ النَّارَ، وَعَايَنَ بَلَايَاهَا ثُمَّ سَأَلَ الرَّجْعَةَ، وَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، وَرَجَعَ إِلَى دُنْيَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَلْيَفْعَلْ.

قَالَ: فَبَكَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷻ بُكَاءً شَدِيدًا، فَقَالَ ابْنُ السَّامَكِ ﷻ: إِنَّا بَعْدُ لَمْ نَخْرُجْ مِنَ الدُّوْرِ، وَإِنَّا بَعْدُ لَمْ نَصِرْ إِلَى الْقُبُورِ، وَإِنَّا بَعْدُ لَمْ نَخْتَبِرْ عَظَائِمَ تِلْكَ الْأُمُورِ، وَرَسُولُ رَبَّنَا - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إِلَيْنَا سَرِيعٌ - أي: الموت -، وَكُلُّنَا بِسُرْعَتِهِ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ^(۱).

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَمْ أَهْيَا الرَّجُلُ	لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ الْعَمَلُ
وَالْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَقْوَى اللَّهِ زِينَتُهُ	وَالْمُتَّقُونَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِمْ شُغْلٌ
وَحُجَّةُ اللَّهِ يَا ذَا الْعِلْمِ بِالْغَةِ	لَا الْمَكْرُ يَنْفَعُ فِيهَا لَا وَلَا الْحِيلُ
تَعْلَمِ الْعِلْمَ وَاعْمَلْ مَا اسْتَطَعْتَ بِهِ	لَا يُلْهِمُنِكَ عَنْهُ الدَّهْوُ وَالْجَدَلُ ^(۲)

فهؤلاء يقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾^(۳)، فهل هم صادقون في قولهم؟

الجواب: لقد أعطاهم الله ﷻ الفرصة للاختيار في الدنيا، ولم يعاملهم حينها بمقتضى علمه، لكنه الآن بعد أن أقام عليهم الحجة سيعاملهم بمقتضى علمه، ولقد أخبر في علمه أنهم

(۱) الأخيار الموفقات (ص: ۳۰۸، ۳۰۹).

(۲) اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي، (ص: ۳۸).

لو رُدُّوا لما انتفعوا بشيء مما شاهدوه من أمور المغيَّبات، ولعادوا إلى ممارسة أَلَاعِيهِمْ وكفرهم، ولذا قال -جلّ ثناؤه-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وأنت تلحظ هذا هذه الأيام أنه إذا وقعت المصيبة، قاموا فجعلوا تلاوة القرآن الكريم في القنوات والوسائل المسموعة والمرئية، ثم بمجرد انقضاء هذه المصيبة، أو إذا طالت يعودون لممارسة الإِجْرَامِ وتسعير الشهوات ومعصية رب الأرض والسموات. فهذا مثال واضح على أنهم يكذبون في دعواهم أنهم إذا رُدُّوا فإنهم سيعملون عملاً صالحاً.

وهنا يأخذك التصوير القرآني كلّ مأخذ، إذ قال تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾، وهذا فعل مضارع مرفوع كما نلاحظ، فلماذا لم يُنْصَبْ عطفًا على قوله: ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، وما الرَّافِعُ له؟ وما الصور المحسوسة التي يقدّمها لنا؟

الجواب: يلفت الطبري رحمته الله النظر إلى دقّة المشاهد هنا، وإلى تکرّر اللَّهْفَاتِ والصَّيْحَاتِ التي تصدر عن هؤلاء الخاسرين، وذلك عند بيانه لسبب رفع قوله: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾، فلم ينصب عطفًا على قوله: ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، وذلك لأن الرافع له العطف على جملة (هل)، والتقدير: هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؟

أو هل نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل؟

إذاً هو عطف جملة على جملة، وليس عطف فعل على فعل^(١). ولا شك أن تکرّر هذه الهتافات والنِّدَاءَاتِ والصَّيْحَاتِ من قِبَلِهِمْ يدلُّ على مقدار الحسرة والألم.

(١) تفسير الطبري (١٢/٤٨٢).

وهنا تتساءل: ما المشهد الذي يقدمه لنا خَتَمُ الآية بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؟

المشهد الرابع: إعلان النتيجة الختامية: الخسارة الماحقة والهلاك الساحق: إذ يتردد في الأذان تعليق مؤلم: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وربما تتساءل: لماذا جاء هذا الختم المهيب: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؟

الجواب: لأن الستار قد أسدل على مشهد القوى الظالمة التي نسيت الكتاب في الدنيا وهي تستغيث يوم القيامة طالبة شفاعَةَ الشافعين، ومطالبة بأن يُردُّوا إلى الدنيا ليكونوا ضمن الصالحين العاملين، فهم يرددون هاتفين:

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ۵۳].

هنا يسمعُ منادي الحقِّ الخلائق في الدنيا والآخرة معلقاً على بؤسهم محدِّراً من مصيرهم: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ۵۳]، فهذا النداء يُقال في الدنيا في القرآن عندما نلوه، ويقال في الآخرة عندما يصبح الخاسرون.

يبهت منادي الحقِّ العالم وهو يعلِّق على حالة هؤلاء الناس الخاسرين، فيقول: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

فتضمَّن هذا التعليق المهيب نتيجتين بائستين سيقعون فيهما:

النتيجة الأولى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

النتيجة الثانية: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

فَعَبَّرَتِ النَّتِيجَةُ الْأُولَى ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عَنْ وَقُوعِهِمْ فِي خَسَارَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَمَا وَجْهُ جَمَالِ هَذَا التَّعْبِيرِ، وَمَا وَجْهُ قُوَّةِ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ؟

الجواب: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾:

﴿قَدْ﴾ لتحقيق الخبر، أي: خسروا خسارةً مؤكَّدةً، وكلمة ﴿خَسِرُوا﴾ تصوّر لك أعظم المصائب التي سيقعون فيها، ويظهر ذلك في أصل الكلمة، وفي تصريفها، وفي وضعها في الجملة:

أما في أصلها ف(خَسِرَ) ^(١) بفتح السين وكسره، كلمة تدلُّ على عدة مصائب:

أولها: (خَسِرَ) تدلُّ على النِّقْصِ لدرجة الألم والنَّدَم، فيُقَالُ: خَسِرْتُ الْمِيزَانَ وَأَخْسَرْتُهُ، إِذَا نَقَصْتُهُ، وخسر ماله وجاهه: إِذَا نَقَصَ مِنْهُ حَتَّى آلَمَهُ وَأَوْجَعَهُ.

وثانيها: (خَسِرَ) تدلُّ على الهلكة، والغبن، وعدم الظَّفَرِ بالمطلوب، وعدم الانتفاع بالشيء.

وثالثها: تدلُّ على العقوبة، وذهاب القيمة والكرامة، ومنه قوله: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الدِّثْبُ

وَنَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخَسِرُون﴾ [يوسف: ١٤]، أي: هالكون لا نفع بشيء، ولا نستحقُّ شيئاً، ولا

تكون لنا قيمة ولا كرامة، فالخسارة ليست مجرد عدم الانتفاع بما يرجى منه النفع، كما يقرر

ابن عاشور رحمته الله ^(٢)، وليست مجرد النقصان، بل نقصان ما كان عند الإنسان حتى يصبح ما

عند الإنسان وبالاً عليه بدلاً من أن يكون رأس ماله، فيخسر جسده في الآخرة ليصبح الجسد

أداة شعوره بالعذاب.. يصبح الجسد أداة ذوقه للألم، ويخسر أهله وولده، فبدلاً من أن

يكونوا عوناً له على الفوز في الآخرة يصبحوا غرماءه الذين يشتكون عليه، ويُسندون ذنوبهم

(١) مقاييس اللغة (٢/ ١٨٢)، مختار الصحاح (ص: ٩٠)، تاج العروس (١١/ ١٦٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/

٥٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٧).

إليه؛ إمّا لأنه ظلمهم، وإمّا لأنه أضاعهم، وهذا هو الذي سمّاه الله ﷻ الخسران المبين، فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

ولذا قيّد الخسارة هنا بقوله: ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾، فهم لم يخسروا مالا يمكن تعويضه، ولم يخسروا جاهاً يُرجى رجوعه، ولم يخسروا ولداً قد يأتي من يقوم مقامه، ولم تخسر المرأة زوجها، ولم يخسر الرجل زوجة يمكن أن يأتي عوض عنهما.. لقد خسر هؤلاء الناسون لكتاب ربهم ﷻ أنفسهم، فالله ﷻ أعطاهم الأيدي، أعطاهم الأقدام، أعطاهم السمع أعطاهم الأبصار، أعطاهم الأفئدة، أعطاهم العقول، أعطاهم ما يميّزون به. هل انتفعوا بذلك؟ لا لم ينتفعوا.. غبنوا أنفسهم حظوظها، ببيعهم نعيم الآخرة الدائم، بالخصيس من عرض الدنيا الزائل.

فبدلاً من أن تكون النفس جالبة للربح أصبحت أعظم أسباب البلاء؛ لأن الإنسان سيُعَذَّب بجسده في الآخرة إن لم يستغله.

بصيرة: قوله تعالى: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ معبرة جداً؛ لأنها تعني انتقاص رأس المال من جهة، وتعني عدم الانتفاع بما ينبغي الانتفاع به من جهة أخرى.

والنتيجة الثانية قال الله ﷻ عنها: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾، فكيف تصوّر لنا الكلمات القرآنيّة مראה هذه النتيجة؟ كيف يمكن لنا أن نفسّر هذه الآيات بطريقة تجعلنا نتخوف منها؟
الجواب: كلمة ﴿صَلَّ﴾ مشتقة من ضلل^(١)، فالضلال والضلالة: ضدُّ الهدى والرّشاد، من ضللتُ، ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠]،

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣٥٦)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٠٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٩٦).

فَضَّلَ يَضِلُّ ضَلَالًا، أي: ضاع وهلك، ومن ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، أي: إذا غُيِّبْنَا فِي الْأَرْضِ بِالموت، فذهبت عظامنا فيها، وغابت، وضاعت، ومنه ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، أي: في ضياع بعد ذلك الجهد الذي بذلوه، والحشود التي جمعوها.

فَقَوْلُهُ: ﴿وَضَلَّ﴾ يَجْمَعُ الضَّيَاعَ وَالْهَلَكَ وَالْغِيَابَ، وَالذَّهَابَ فِي غَيْرِ الْوَجْهِ الصَّحِيحَةِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْتَرُونَ﴾، فَقَدْ اشْتَقَّتْ مِنْ (فَرَى)^(١)، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَدُورُ حَوْلَ قَطْعِ الشَّيْءِ، وَإِحْكَامِ تَصْنِيعِهِ فِي ذَاتِهِ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَقُولُ: فَرَيْتُ الْقِمَاشَ أَفْرِيهِ فَرِيًّا، وَذَلِكَ إِذَا قَطَعْتَهُ قَطْعًا مُحْكَمًا دَقِيقًا، وَأَعَدْتَ تَجْمِيعَهُ وَتَخْيِيطَهُ عَلَى هَيْئَةٍ أَجْمَلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ زَهِيرٍ فِي الْفَرِيِّ:

وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أَسَامَةٍ إِذْ دَعِيَ النَّزَالُ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ
وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ، وَبَعُ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ الْمُنُورَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(٢)

يَعْنِي: لَأَنْتَ تَقْطَعُ الشَّيْءَ، ثُمَّ تَعِيدُ تَرْكِيبَهُ؛ لِيَكُونَ فِي صُورَةٍ قَوِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، مَقْبُولَةٍ، مُحْكَمَةٍ تَعْجَبُ الْآخَرِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ الْفَرُوءَةُ الَّتِي تُتَبَسُّ، حَيْثُ قَطَعْتَ وَأَحْكَمْتَ، وَفَرُوءُ الرَّأْسِ: جِلْدَتُهُ، وَمِنْهُ الْفَرُوءَةُ، وَهِيَ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٩٦)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٤٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٤٨).

(٢) الشعر والشعراء (١/ ١٣٩)، وهو في ديوان زهير (ص: ٥٦)، لكن البيت الأول فيه بلفظ:

ولأنت أشجع حين تتجه الـ أبطال من ليث أبي أجر

وهو في الترتيب بعد (ولأنت تفري...)، الرواية المعروفة في كتب اللغة والنحو: (دُعِيَتْ: تَزَالُ، وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ).

ومن ذلك يُقَالُ: فَرَى فُلَانٌ كَذِبًا يَفْرِيه، إِذَا اصْطَنَعَهُ وَخَلَقَهُ عَلَى نَحْوِ مَبَالِغٍ فِيهِ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَطَعُوا الْإِيمَانَ وَأَعَادُوا صَنْعَهُ مَجْدِّدًا لِيُقَدَّمَ الشُّرْكُ إِلَى الْعَالَمِ بِصُورَةٍ حَسَنَةٍ مُخَادَعَةٍ وَمَكْرًا؛ وَلِذَا سَمَّى اللَّهُ ﷻ الشُّرْكَ افْتِرَاءً، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، أَي: اصْطَنَعُوا إِثْمًا مَبَالِغًا فِيهِ، وَإِفْسَادًا قَدْ صُنِعَ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُسْبُوقٍ.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، أَي: عَظِيمًا عَجَبِيًّا، مُصْنُوعًا صِنَاعَةً مَبَالِغًا فِيهَا فَسَادُهَا؛ إِذْ لَمْ يَعْهَدْ عَلَى عَابِدَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فمعنى ﴿يَقْتَرُونَ﴾، أَي: يُقَطِّعُونَ الْكَلَامَ، وَيَعِيدُونَ بِنَاءَهُ بِنَاءً مُحْكَمًا، وَلَكِنْ فِي أَيِّ جِهَةٍ هُنَا؟

فِي جِهَةِ الْكَذِبِ، أَمَّا الْفَرِي فَقَدْ يَكُونُ فِي جِهَةِ حَسَنَةٍ.

وَالآنَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا مَعْنَى ﴿ضَلَّ﴾ وَمَعْنَى ﴿يَقْتَرُونَ﴾، عُدْنَا إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ الْبَائِسَةِ الَّتِي أَصِيبَ بِهَا الَّذِينَ نَسُوا الْقُرْآنَ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أَي: ضَاعَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَانُوا يَحْبِكُونَهَا فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَيَصْنَعُونَ الْأَخْبَارَ الْمَزُوقَةَ الْمُنَمَّقَةَ الْمَزِيفَةَ حَوْلَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ، فزَعَمُوا أَنَّهَا سَتَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

وَكَذَلِكَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ حَوْلَ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ الْعَالَمِيِّينَ، وَهُمْ يَقْتَرِفُونَ أَسْوَأَ الْجَرَائِمِ فِي الدُّنْيَا.

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَبْحَثُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَنْ أَصْنَامِهِمْ لَتَنْقُذَهُمْ، فَتَضَلَّ عَنْهُمْ، أَي: تَهْلَكَ، وَتَضِيعُ، وَتَتِيهِ.

وَيَبْحَثُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عِيسَى ﷺ افْتِرَاءً عَلَيْهِ، فَيَضَلَّ عَنْهُمْ، أَي: يَتَّعِدُ عَنْهُمْ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ

شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾
[المائدة: ١١٧].

والذين كانوا يفترون على الله الكذب، فيزعمون أن الإبراهيمية يمكن أن تحلَّ محلَّ الإسلام، ويظنون أن ذلك سيفيدهم، سيضلُّ عنهم ما كانوا يفترون.

ويبحث الذين كانوا يفتخرون بقوَّاتهم وثرواتهم عنها زاعمين أنها ستكون عونًا لهم إن كان هناك بعث وقيامة، فتضيع، وتهلك عنهم قوَّاتهم التي كانوا يحتمون بهم.

ومنادي الحقَّ يخبرهم بنتيجتهم الخائبة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

وستعود إلى قوَّةِ التصوير في الآية لتجمع بين النتيجة، إذ يقول الله ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٥٣]، فما الحكمة من الجمع بين هاتين النتيجةين؟

الجواب: لأنهم رأوا أهوال يوم القيامة وعذاباته، وشعروا بالحسرة والندامة، وقاموا يصيحون معترفين: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وحينها اكتشفوا أن أنفسهم قد خسروها، فقد منحهم الله ﷻ إيَّاهَا؛ لتكون عونًا لهم على الفلاح في الدنيا، لكنهم بدلًا من النَّجَاح خسروها، فحقَّقُوا أسوأَ النتائج، فلم يخسروا مالا، ولا جاهًا، ولا بيتًا، بل خسروا أنفسهم، ونظروا فَلَعَلَّهُمْ يجدون من أقوالهم وأفكارهم ومعبوداتهم من ينصرهم ذلك اليوم، فضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، فلا بأنفسهم يتنفعون، ولا بافتراءاتهم يظفرون.. فيا بؤس ما يَرِدُّون.

فاشتملت على:

اعتراف، وبحث عن حلول، وجواب.

فلا اعتراف: بحقيقة ما أقبلت به الرسل.



والحلول: طلب الشفاعة، فإن تعدّرت فالعودة للدنيا.

والجواب: على طلباتهم بتقرير الخسارة والضلال، وتقريرها يدل على عدم الرد إلى الدنيا، ووجوب العذاب.

ولما جاء الجواب قرّر نتيجتين الأولى: الخسارة، والثانية: الضلال.

فالأولى: ردّاً على طلب عودتهم. **والثانية:** ردّاً على طلب الشفعاء. فما كانوا يفترونه من آلهة الشهوة والهوى لم تستجب - على كثرتها - لشفاعتهم. فكان الجوابان ردّاً على الطلبين. فطُوبَى لِمَنْ قَرَنَ ذَنْبَهُ بِالْعِتَادِ، وَتَلَاوَاهُ بِاسْتِغْفَارِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ أَحْكَمَ عَقْدَ الْإِصْرَارِ، أَيُّهَا الْعَاصِي تَفَكَّرْ فِي حَالِ آدَمَ أَيْبِكَ، وَتَذَكَّرْ مَا جَرَى لَهُ وَيَكْفِيكَ، أَبْعَدَ بَعْدَ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ، وَأُهْبطَ مِنَ الْجَنَّةِ لَشُؤْمِ ذَنْبِهِ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ بِخَدِيعَتِهِ فِي حَرْبِهِ، وَيَسْعَى فِي هَلَاكِكَ فَاعْتَبِرْ بِهِ، فَرَحِمَ اللَّهُ ﷻ امْرَأً تَاهَبَ لِمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِ، فِي رَوَاحِهِ وَعُدُوِّهِ^(١).

تُرْزَلُ هذه الآية كلّ ذرّة في بدن الإنسان، فيهتف مع شاعر البصائر د/ سعيد بن دحاج - وفقه الله - يا رب:

قَصِدْتُ بِأَبِكَ يَا ذَا الْعِزَّةِ الْبَارِي	نَادَيْتُ بِاسْمِكَ فِي جَهْرِي وَإِسْرَارِي
أَلُوذُ بِاللَّهِ مِنْ نَفْسِي وَشِقْوَتِهَا	قَدْ أَثْقَلْتَنِي يَا رَبَّاهُ أَوْزَارِي
وَلَيْسَ لِلذَّنْبِ إِلَّا أَنْتَ تَغْفِرُهُ	أَنَا الْجَاهِلُ فَكُنْ لِي خَيْرَ غَفَّارٍ
أَنَا الظَّالِمُ وَأَنْتَ اللَّهُ مُلْتَجِي	فَأْمُنْ عَلَيَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ مِدْرَارٍ

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٩).



وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا السَّيِّدِ الْعَبْدِ الْمُتَنِيبِ مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِينَةِ عَرْشِهِ، وَمَدَادَ كَلِمَاتِهِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الفقير إلى ربّه الغني جَلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com





فهرس الموضوعات

٥.....	تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ حازم بن سعيد حيدر السعيد
٧.....	تقديم فضيلة الشيخ/ العزي سليمان علي ملوك
١٤.....	المحور الأول: البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين
١٤.....	ويتضمن الإنباء بتفاصيل معرفتها الأولى ضد أسوأ أعدائها [الأعراف: ١٠-٥٣].....
٢٣.....	مراحل المحور الأول تفصيلاً.....
٢٥.....	المرحلة الزمنية الأولى.....
٢٥.....	بداية تاريخ الإنسانية بالتكريم والتتمكين الإلهي، وبروز العداوة الشيطانية [الأعراف: ١٠-١٨].....
٣١.....	البصائر التفصيلية لمشاهد هذه المرحلة الأولى (بداية تاريخ الإنسانية).....
٣١.....	المشهد الأول: التمكن الإلهي للإنسانية في الأرض قبل وجودها.....
٤٣.....	المشهد الثاني: الشكر علامة الذكر، وبريد الزيادة، وكلمة السر في اتساع بركات الأرض.....
٥٠.....	المشهد الثالث: مشهد خلق الإنسانية، وتكريمها بإسجاد أعظم المخلوقات المكرمة لأبينا آدم عليه السلام.....
٧٦.....	المشهد الرابع: المحاكمة الإلهية العادلة لإبليس.....
١٠٣.....	المشهد الخامس: الحكم الإلهي العادل على إبليس.....
١١٢.....	المشهد السادس: إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم.....
١٢١.....	المشهد السابع: حُطّة إبليس الخطيرة المدمرة.....
١٥٨.....	المرحلة الثانية: تجربة جديدة في التاريخ البشري.....
١٥٨.....	تجربة آدم وزوجه عليه السلام في الجنة قبل النزول إلى الأرض.....
١٥٩.....	البصائر التفصيلية لمشاهد المرحلة الثانية (تجربة آدم وزوجه عليه السلام في الجنة).....
١٦٠.....	المشهد الأول: سكن مميز، ونظام إلهي هادٍ.....
١٨٣.....	المشهد الثاني: مشهد الجهود الشيطانية لاصطياد الإنسان.....
٢٣١.....	المشهد الثالث: مشهد (الصدمة والإفاقة) مقارفة الذنب، والتحرر السريع من أسرِهِ.....

- المرحلة الثالثة..... ٢٨٧
- الحياة في الأرض، وأهم النداءات الإلهية لبني آدم ﷺ، ليفهموا طبيعتها وجمالها ٢٨٧
- النداء الأول: التمتع بالجمال الظاهري والباطني ٢٩٣
- القانون الأول: نسبة البشرية لآدم ﷺ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ ٢٩٤
- القانون الثاني: يجب على الإنسانية الاستفادة من أنواع الألبسة الأربعة التي أنزلها الله ﷻ ٢٩٦
- القانون الثالث: تزدان حياة البشرية وترسخ في الحضارة والرفي الإنساني بلزوم النوع الثاني من أنواع الألبسة: اللباس الظاهري التكميلي ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا﴾ ٢٩٧
- القانون الرابع: الستر والتجمل فطرة ملازمة للإنسانية ٢٩٩
- القانون الخامس: أصل اللباس والريش منة من الله على خلقه قبل هبوطهم إلى الأرض ٣٠٠
- القانون السادس: الامتنان بإنزال الملابس المادية والمعنوية يدل على ضرورة السعي لتحصيل الممتن به، فينبغي للبشرية البحث عن السبل المختلفة لصنع الألبسة والريش، والبحث عن لباس التقوى أيضاً: ٣٠٤
- القانون السابع: يجب على البشرية أن تتمتع بلباس التقوى الإيمانية. ٣٠٦
- القانون الثامن: النوع الرابع: لباس التقوى الدفاعية ٣١٠
- النداء الثاني: يتعلّق بطبيعة المعركة مع إبليس وقبيله: [الأعراف: ٢٧-٣٠] ٣٢٢
- القانون الأول: الشريعة أنزلت لحماية البشرية والطبيعة ٣٢٣
- القانون الثاني: قانون الحذر من الوقوع في الفتن والفتنة، ومن نتيجتهما ٣٢٤
- القانون الثالث: قانون تذكّر المعركة القديمة المتجددة ٣٢٨
- القانون الرابع: من أهداف الشيطان الأساسية نزع الحياء الفطري ٣٣١
- القانون الخامس: أنت المسؤول عن الوقوع في الذنب، وليس الشيطان ٣٤١
- القانون السادس: أعظم وسائل قوة الشيطان لتحقيق أهدافه ثلاث: ٣٤٤
- الخفاء، والمساعدون من القبيل الإيليسي، والتجنيد ٣٤٤
- القانون السابع: يجب أن يحذر بنو آدم من أبرز مظاهر ولاية الشيطان ٣٦١

القانون الثامن: يجب الرد الإعلامي والتعليمي والتبليغي والتربوي والتشريعي على الذين يشرعون الفحشاء	٣٧٠
القانون التاسع: يجب أن نرد على الذي يفعلون الفواحش ثم يقولون: "الله أمرنا بها" بردين:.....	٣٧١
الأول: عقلي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.....	٣٧١
والثاني: نقلي: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.....	٣٧١
القانون العاشر: من يزعم أن الله ﷻ أمر بالفاحشة فقد افترى الكذب.....	٣٧٦
القانون الحادي عشر: تنقسم البشرية إلى فريقين حسب قدرتهم على إدارة المعركة مع الشيطان.....	٣٩١
القانون الثاني عشر: حرية الاختيار، فقد حقت الضلالة على الفريق الضال.....	٣٩٢
القانون الثالث عشر: الحذر من وهم الاهتداء.....	٣٩٦
النداء الثالث.....	٤٠١
وصية الذرية الأدمية بالتمتع المشروع بزينة الحياة الدنيا بالقسط [الأعراف: ٣١-٣٤].....	٤٠١
القانون الأول: مشروعية أخذ الزينة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.....	٤٠٣
القانون الثاني: الحرص على متطلبات الجسد الدنيوية من الأكل والشرب بالقسط واجب مشروع... ١٢	٤١٢
القانون الثالث: قانون حرمة الإسراف.....	٤١٥
القانون الرابع: قانون الزينة والطيبات.....	٤٢٤
القانون الخامس: حق التشريع العام إنما يكون لله ﷻ، ولرسوله ﷺ.....	٤٣٢
القانون السادس: تقييد مشروعية أخذ الزينة وأكل الطيبات من الرزق بعدم الإسراف.....	٤٣٤
القانون السابع: الالتزام بشرع الله ﷻ في التمتع بزينة الملبس والمنظر والطيبات من الرزق.....	٤٣٥
القانون الثامن "الآيات المفضلة والمجتمع الذي يُمجّد العلم".....	٤٤١
القانون التاسع: أصول المحرمات المدمرة في الحياة الدنيا.....	٤٤٤
القانون العاشر: قانون الزمن والعمل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.....	٤٦٧
القانون الحادي عشر: قانون انتهاء الفرص.....	٤٧٠
النداء الرابع.....	٤٨٠



- منهج الحياة في العيش على الأرض يجب أن يكون مصدره الله ﷻ [الأعراف: ٣٥، ٣٦] ٤٨٠
- القانون الأول: يرسل الله ﷻ رسلاً من الذرية الآدمية تبليغ العالم كلام الله ﷻ ٤٨٤
- القانون الثاني: قانون إقامة الحجّة بالآيات ٤٨٩
- القانون الثالث: يجب على بني آدم أن يتبعوا الرسل ﷺ ٤٩٣
- المرحلة الرابعة: العودة الحتمية في المستقبل الأخروي القادم [الأعراف: ٣٧-٤٣] ٥٠٠
- الفريق الأول: المكذّبون المستكبرون ٥٠٥
- المشهد الأول: مشهد المكذّبين المستكبرين، وهم يتسلّمون شهادة: "أسوأ الظالمين ظلماً" ٥٠٥
- المشهد الثاني: مشهد نصيب القدر المكتوب ٥٠٩
- المشهد الثالث: اللحظة الأخيرة في الدنيا ٥١٧
- المشهد الرابع: مشهد صدور الحكم الفصل في الظالمين من الثقلين، وكيفية دخول النار ٥٢٥
- المشهد الخامس: مشهد تلاعن حلفاء الإجرام وأصدقاء الأُمس ٥٣٠
- المشهد السادس: تخاصم أهل النار ٥٣٥
- المشهد السابع: مشهد الردّ الحاسم، والحكم العدل من الله الملك الحقّ المبين ٥٤٢
- المشهد الثامن: الاعتراف بأن الأعمال الاختيارية أساس تحديد المصير ٥٤٥
- المشهد التاسع: مشهد الحكم الفاصل النهائي في حال من كذب بآيات الله ﷻ واستكبر عنها ٥٥٢
- الفريق الثاني: المؤمنون العاملون، وهم الفريق المقابل للمكذّبين المستكبرين ٥٨٠
- المشهد الأول: أساس صفات هذا الفريق: الإيمان والعمل الصالح ٥٨١
- المشهد الثاني: الاجتهاد في الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ٥٨٣
- المشهد الثالث: ذكر الله ﷻ لهم ستة أنواع كبرى من النعيم القادم ٥٨٧
- المرحلة الرّمّية الخامسة ٦١٩
- مرحلة ما بعد الاستقرار في الجنة والنار، و"حوارات التلذذ والشقاء" [الأعراف: ٤٤-٥١] ٦١٩
- المشهد الأول: نداء انتصار أهل الجنة ٦٢١



المشهد الثاني: جواب الاندحار والانكسار ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾	٦٣٠
المشهد الثالث: ساعة الأذان الأكبر	٦٣٥
المشهد الرابع: ظهور فئة ثالثة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار هم أهل الأعراف	٦٦٠
المشهد الخامس: مشهد نداء الانكسار المثير أمام الانتصار الكبير	٧٠٦
التذكير بصفات الكافرين الذين سيحرمون أقل قطرٍ من الماء يوم العذاب الكبير	٧١٩
خاتمة المراحل الخمس	٧٤٨
تذكير العالم بالقيمة العظيمة لاتباع القرآن الكريم [الأعراف: ٥٢-٥٣]	٧٤٨
المشهد الأول: القرآن كتاب الحجة على العالم	٧٥٢
المشهد الثاني: مشهد الانتظار الخادع	٧٧٧
المشهد الثالث: صراخ الناسين غير المتبعين للقرآن الكريم	٧٨٣
المشهد الرابع: إعلان النتيجة الختامية: الخسارة الماحقة والهلاك الساحق	٨٠٢
فهرس الموضوعات	٨١٠



للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الاستاذ الدكتور نجيب السليمان مكي الجبوري

- ✳ رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- ✳ أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/ كلية الشريعة/ جامعة قطر حالياً، وجامعتي حضرموت ودمار سابقاً.
- ✳ شارك في تحكيم نحو 30 مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- ✳ أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات دمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- ✳ قدم عدداً من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

نَجْدَةُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ تَسْوِيرُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ مَقَالَةُ الْإِعْرَافِ الْحِجَةُ الثَّانِيَّةُ

يُشْرِقُ نَوْرُ بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ حَامِلاً مَعَ نُورِهِ جَمَالاً بَهِيّاً وَكَرَمًا حَفِيّاً، فِي بَشَائِرِهِ تَجَدُّ جَمَالِ السَّبْكِ وَحُسْنِ الْحَبْكِ، وَفِي كُلِّ مُحَوَّرٍ مَعَ سَابِقِهِ وَلَاحِقِهِ تَلَمُّسُ جُسُورِ الْإِتِّصَالِ السَّامِقَةِ، وَرَوَابِطِ الْبَيَانِ الشَّاهِقَةِ.

لَا حَدِيثٌ مُطْلَقاً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَحَدِيثِ الْقُرْآنِ، لَكِنْ أَيْنَ مَنْ يُلْقِي رُوحَهُ بَيْنَ سَطُورِهِ مُتَلَمِّساً لِرُوحِهِ الشِّفَاءِ، وَلِفُؤَادِهِ السَّنَاءِ، وَلِعَقْلِهِ النَّمَاءَ؟

هُنَا -رَفِيقَ بَصَائِرِ النُّورِ- سَتَجِدُ الْمُتَعَةَ الرُّوحِيَّةَ وَأَنْتِ تَتَأَمَّلُ فِي هَذَا السَّفَرِ بَدَايَةَ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالتَّكْرِيمِ وَالتَّمَكُّينِ الْإِلَهِيِّ، وَحَيَاةِ آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَبْلَ النُّزُولِ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ تِلْكَ النَّدَاءَاتِ الشَّفَافَةِ الَّتِي تَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ، وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْأَرْوَاحِ لِبَنِي آدَمَ، وَفِي تِلْكَ النَّدَاءَاتِ الْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ، حَتَّى يَحْذَرُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا وَقُوداً لِمَعْرَكَةِ إِبْلِيسَ.

فِي هَذَا السَّفَرِ سَتَنْظُرُ الْمُسْتَقْبَلَ الْآخَرَ لِبَنِي آدَمَ، حَيْثُ يَجْتَمِعُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى يَنْظُرُوا نَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ، وَكَشَفَ جُهودِهِمْ، فَيَرْتَدُّ بَصْرُكَ مُحَمَّلاً بِبَصَائِرِ زَاكِيَّةٍ، وَثِمَارِ دَانِيَّةٍ تَقُودُكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِكَ..



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 8109

+90 555 028 1155

info@arabfamilybs.com